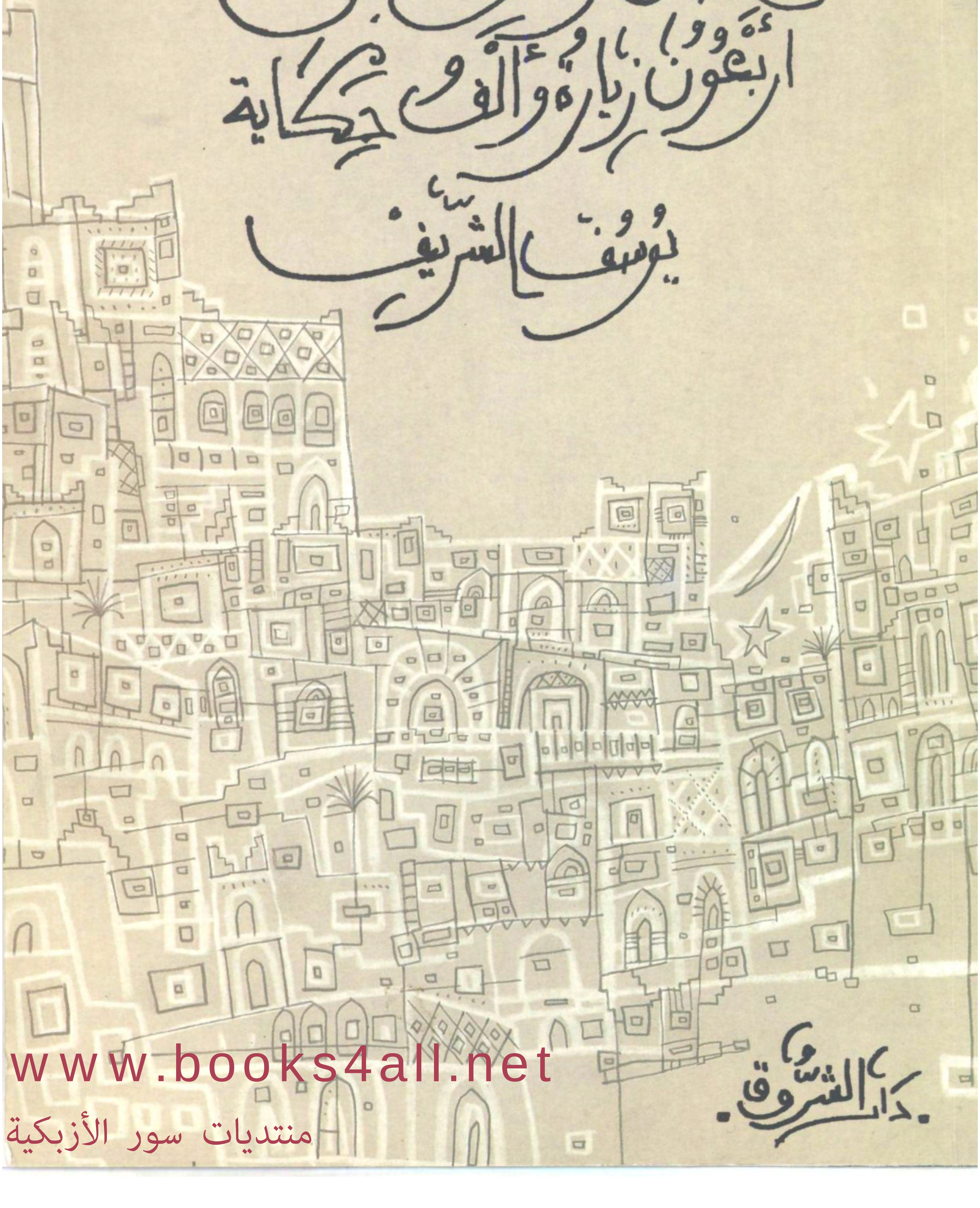
اليمن وأهل اليمن

أربعون زيارة وألف حكاية

يوسف الشريف



دار الشروق

اليمن وأهل اليمن

أربعون زيارة وألف حكاية

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٣٦٥٢ / ٢٠٠٧
ISBN 978-977-09-2242-8

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

اليمن وأهل اليمن

أربعون زيارة وألف حكاية

يوسف الشريف

دار الشروق

الإهـــــداء

إلى . .

الروح الطاهرة للعقل المفكر والمناضل الملهم الشهيد الملازم على عبد المغنى قائد تنظيم الضباط الأحرار الذى فجر الثورة اليمنية يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ، فكانت المعجزة التى طال انتظارها منذ فشل الثورة الأم عام ١٩٤٨ ، إيذانا بانعتاق الشعب اليمنى من أغلال العزلة والتخلف والاستبداد ، وولوجه الواثق إلى ساحة الحرية واللحاق بركاب العصر ، واستعادة سابق وحدته وحضاراته الخالدة!

وإلى . .

الأرواح المطمئنة للشهداء اليمنيين وشهداء القوات المصرية ، الذين كتبوا أروع ملاحم الدفاع عن الثورة اليمنية ، وخلفوا من ورائهم ميثاق التلاحم القومى المصيرى بين الشعبين وبين الثورة السبتمبرية وثورة ٢٣ يوليو!

وإلى . .

الأجيال الجديدة فى مصر واليمن الذين وضعت من أجلهم هذا الكتاب ، فلعلهم يتنسمون عبق هذه العلاقة المقدسة ، ويردون كيد أعدائها من دعاة الردة عبر ما حفل به الحقائق والوثائق والشهادات و . . الله من وراء القصد!

يوسف الشريف

المحتـــويات

تقـديم
عن الكاتب والكتاب

بقلم محسن العينى

رئيس الحكومة اليمنية الأسبق

* عندما فكرت فى كتابة مقدمة لكتاب يوسف الشريف . . عادت بى الذاكرة إلى أربعين عامًا مضت حين وجدت نفسى أمام كتاب ألمانى وكتاب فرنسى وديوان شاعر عبقرى كبير .

* عام ١٩٧٢ وأنا سفير فى لندن تلقيت رسالة من التلفزيونى النمساوى فريتزسيته، يطلب منى كتابة مقدمة لكتابه «اليمن» الذى أصدره بعد زيارات طويلة متعددة، ومتابعته للمعارك والحرب المريرة بين الجمهوريين والملكيين، والمزود بصور رائعة وجميلة .

الكتاب باللغة الألمانية . . كيف لى أن أقدمه وأنا لا أعرف ما يحويه، قد يكون فيه ما يسىء إلى اليمن . . إلى ثورتها . . إلى جمهوريتها؟!

لم أتردد، وكتبت المقدمة، وحييت الكاتب، ورحبت بكتابه وقلت إن أكبر ما أساء إلى اليمن هو عزلتها الطويلة، وجهل العالم بها وبشعبها وأرضها وظروفها . . فأى حديث عنها، وأى اهتمام بها هو جهد طيب ومقبول . . وليس هناك ما نخجل منه أو نخفيه . . وصدر الكتاب بمقدمتى بالعربية والإنجليزية والألمانية . . ومن قرأ الكتاب بعد ذلك أثنوا عليه وأعجبوا به .

* قبل ذلك، عام ١٩٦٠ كتبت وأنا فى زيارة لألمانيا الشرقية، مقدمة لديوان الأستاذ

محمد محمود الزبيرى «صلاة فى الجحيم» بعد تردد كبير ، فأنا لست شاعراً ولا أديبًا ولا ناقدًا ، وكنت فقط تلميذًا عاشقًا ومحبًا للزبيرى .

* وقبل ذلك كنت قد قمت بترجمة «كنت طبيبة فى اليمن» للدكتورة كلودى فيان ، رغم ضعفى آنذاك فى اللغة الفرنسية ، لكن إعجابى بالطبيبة الفرنسية ، وحبها لليمن ، والموضوعات التى عالجتها ، كل هذا جعلنى أقدم على العمل بحماس ومحبة .

* ذكرت كل هذا . . لأننى مع كتاب يوسف الشريف ، وجدت نفسى وكأنى أمام الكتابين الألمانى والفرنسى وديوان الشاعر العبقرى .

وجدت نفسى فى نفس الموقف والحرج والصعوبة . . بل والتردد .

غيرى ممن هم أكبر منى باعًا كان المفروض أن يقدموا هذا العمل الجليل . . ولكن :

إذا لم يكن غير الأسِنَّة مركبًا فما حيلة المضطر إلا ركوبها!

* «اليمن وأهل اليمن» كتاب ضخم . . ثمرة لأربعين زيارة ، وفيه حقًا ألف حكاية ورواية .

وقد بدأت علاقة المؤلف باليمن ، قبل ثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢ مع طلائع اليمنيين الأحرار فى القاهرة . . مع الأستاذين الزبيرى والنعمان ، والطلاب اليمنيين فى المعاهد المصرية .

وقبل الدخول إلى اليمن الحديث . . عاد بنا المؤلف إلى التاريخ القديم . . القديم . . واكتشف صلات بين مصر واليمن وعلاقات ومصالح أمنية واقتصادية واستراتيجية . بل وتحدث عن آثار وتماثيل وشواهد تدل على صلة بين الحضارة المصرية الفرعونية وحضارة اليمنيين .

بعد ذلك أبرز دور مصر واهتمامها . . عبر العالم الأثرى الكبير د . أحمد فخرى ود . سليمان حزين ، والإخوان المسلمين والفضيل الورتلانى وأمين الرافعى ومجلة الصداقة . . وصولاً إلى الثورة المصرية وانفتاحها على الساحة العربية ، وزيارة

حسين الشافعى وأنور السادات وصلاح سالم وفتحى الديب والبعثة العسكرية برئاسة أحمد كمال أبو الفتوح، ورجال الشرطة ورجال التعليم فى مدارس اليمن قبل الثورة وصوت العرب ودويّه فى أرجاء اليمن.

ثم القرار الجرىء للرئيس جمال عبد الناصر بالوقوف مع الثورة اليمنية فى وجه كافة التحديات الداخلية والخارجية، بل بعد ذلك.. بدعم حركة التحرير فى الجنوب.. عندما أعلن من تعز.. «على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل»!

لم يكن هذا شعاراً.. بل بدأت قوافل السلاح، ومعسكرات التدريب.. ونداءات صوت العرب.. وإذاعة تعز.. وجمال حمدى.. والبقية معروفة.

* لم يبرز أحد دور مصر فى دعم الثورة فى الشمال أو دعم حركة التحرير فى الجنوب.. كما فعل يوسف الشريف.

لقد حرص على إبراز تضحيات الجنود المجهولين، وما قدموه من أجل مصر.. ومن أجل اليمن.. وركز على أهمية ذلك على العلاقات التى يجب أن تقوم بين البلدين.. ويأسف لأن الاهتمام من الجانبين ليس كما يتمناه.

* الكتاب.. لا يكاد يترك موضوعًا إلا طرقه.. تحدث عن صنعاء وأسواقها ومبانيها.. وكوكبان وتعز وعدن وشيبام وحضرموت.. عن بازرعة فى القاهرة والأديب باكثير.. عن مخبازة الشيبانى.. عن المرأة اليمنية ودورها والفضة والأزياء والفل.. عن المغتربين.. عن المذهب الشيعى والحوثى.. عن القبائل.. والقات والسلاح.

حاور البردونى وعبد الفتاح إسماعيل والرئيس على عبد الله صالح وعلى سالم البيض وكثيرين آخرين.. سياسيين وأدباء وفنانين.

لم يترك صغيرة أو كبيرة من حياة اليمن شمالاً وجنوبًا إلا وتحدث عنها.. حديث المحب العاشق.

إذا كانت مصر حبه الأول، والسودان حبه الثانى، فإن اليمن هى بكل تأكيد حبه الثالث.

• يوسف الشريف

من أسرة دين وعلم وأدب . . تخرج فى كلية الحقوق . واستهوته الصحافة ، فبدأ فى دار روز اليوسف ، مع السيدة العظيمة فاطمة اليوسف والأستاذ إحسان عبد القدوس ، يكتب فى الشئون الاجتماعية والأدبية والفنية والسياسية حتى تقلد منصب رئيس قسم الشئون العربية والعسكرية ، ثم منصب مدير التحرير ، وتخصص فى شئون اليمن والسودان والقرن الأفريقى .

غطى كل مؤتمرات القمة ، وكل الحروب العربية ، ابتداء من حرب اليمن وحربى ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ والحرب الصومالية الإثيوبية ، والعراق وإريتريا .

بل وانضم إلى «فتح» ودخل الأراضى المحتلة مع المقاومة ، وكان من مؤسسى صحيفة «فتح» التى صدرت فى عمان تحت رئاسة ماجد أبو شرارة .

حصل على وسام العلوم والفنون من مصر ، والنوط الفضى ووسامى الثورة والوحدة من اليمن .

يكتب باستمرار وبانتظام فى الصحف العربية وخاصة فى مصر ودول الخليج .

أهم مؤلفاته :

«السودان وأهل السودان ـ أسرار السياسة وخفايا المجتمع» .

«كامل الشناوى آخر ظرفاء ذلك الزمان» . . عبد الرحمن الخميسى «القديس الصعلوك» و«صعاليك الزمن الجميل» . . و«مما جرى فى بر مصر» . . ثم أخيرا كتابه عن زكريا الحجاوى «موال الشجن فى عشق الوطن» الذى سيصدر عن دار الشروق . . وأخيراً . .

«أربعون زيارة وألف حكاية عن اليمن وأهل اليمن» الذى أنجزه خلال الشهور الستة الأخيرة . . وعمل فيه ليلاً ونهاراً . . حين خشى أن يسلبه المرض اللعين . . ويحرمه من الإدلاء بشهادته عن اليمن والتعريف بتاريخه الوضىء وشعبه الأصيل .

كنا نشفق عليه فى الشهور الأخيرة ، وندرك ما يعانيه . . وكدنا نفقد الأمل فى حياة طويلة غنية هنية .

فقد داهمه المرض الذى لا يرحم.

ولكن روحه العالية، ومعنويته، وتحمله، وصبره، بل ويبدو لى أن إصراره على الكتابة، وحرصه على إنجاز هذه الشهادة.. كل ذلك شغله عن المرض، وأنساه الألم، وخفف عنه المعاناة.

فى لقائنا الأخير.. لم أكد أصدق أن هذا هو يوسف الشريف.. يفيض حيوية وصحة ومرحًا لا شك أن زوجته الوفية، وأسرته المحبة، وأصدقاءه الكثيرين، والحب الذى يحظى به من كل من يتصل به.. كل هذا قد كان من أسباب الشفاء.. الذى ندعو الله أن يكون كاملاً.

إنه كاتب عملاق.. جاد.. موهوب.. مرح.. خفيف الدم.

تحدث عن الظرفاء وأنصفهم كما لم يكتب أحد عنهم.

لا أعرف أحدًا من كتّاب مصر أو العالم العربى، غير يوسف الشريف، جعل قضية اليمن.. قضيته، الثورة.. ثورته، الجمهورية.. جمهوريته، الوحدة وحدته، الشمال والجنوب.. ميدانه.

وإنصاف مصر ودورها، وتمتين العلاقات بينها وبين اليمن مهمته ورسالته.

تحية لهذا القلم الرشيق..

وتهنئة من الأعماق!

محسن أحمد العينى

١٥/ ٢/ ٢٠٠٦

لماذا هذا الكتاب ؟

رغم الكم المشهود من الكتب والمقالات والدراسات أو الندوات التى تناولت بالرصد والتقييم سيرة الثورة التى اندلعت فى شمال اليمن يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ، ثم تداعت لها الثورة فى الشطر الجنوبى من اليمن يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٦٣ ، ظل العطاء المصرى وسط هذا الزخم الثقافى والتاريخى قاصرا معيبا ، رغم أن الدور المصرى على الصعيد السياسى والعسكرى أو الحضارى كان العامل الحاسم فى دعم الثورتين ، والتمكين لهما من إسدال الستار إلى الأبد على أسطورة الحكم الكهنوتى فى صنعاء الذى امتد زهاء ٣٠٠ عام ، ونهاية الاستعمار البريطانى الذى احتل عدن عام ١٨٣٩ .

وإذا كانت مصر قد عبأت مواردها وحشدت إمكاناتها ودفعت بقواتها وأسلحتها وعتادها عبر جسرين «بحرى وجوى» للقتال إلى جانب ثوار اليمن ، حيث امتزجت الدماء وتعانقت أرواح الشهداء اليمنيين والمصريين ، فلا شك أن هذه الملحمة النضالية سابقة سياسية وشعبية مقدرة فى سجل التاريخ العربى المعاصر ، وانحياز مشهود لدعوة القومية العربية ، بالنظر إلى الانتصار الذى تحقق للثورتين ، ثم تتويج ذلك الانتصار المؤزر بإعلان الوحدة بين شطرى اليمن يوم ٢٢ مايو عام ١٩٩٠ !

ولعلى من هنا أباهى وأفخر حين أتاحت لى ظروف العمل الصحفى مواكبة التحولات السياسية الكبرى على أرض اليمن على مدى أربعين زيارة أقل أو أكثر وعبر ٤٤ عاما متصلة منذ اندلاع الثورة السبتمبرية ، ومتابعة وقائعها ، وانعكاساتها المباشرة كما الزلازل والبراكين على محيطها الإقليمى فى الجزيرة العربية ، حيث

نظمها الأتوقراطية العتيدة، وكذا النفوذ والمصالح البريطانية والأمريكية التى ظلت ترنو ولا تزال إلى الهيمنة الاستراتيجية على هذه المنطقة الحيوية من العالم، سواء لموقعها الفريد على أهم الممرات البحرية فى العالم، وسواء من حيث مخزونها الاحتياطى الهائل من الثروات النفطية.

على أنه، وعلى غير المتوقع فى ضوء حسابات المكاسب والخسارة للدور المصرى فى اليمن، عندما تراخى المصريون حكومات وشعبا فى جنى الثمرات، لا على النمط الاستعمارى، وإنما على النحو الذى يعزز من تمتين اللحمة السياسية والشعبية، وتكامل المصالح المشتركة، والتنسيق فى إطار منظومة الأمن القومى العربى، بالنظر لموقع البلدين الحاكم لمدخلى البحر الأحمر الشمالى والجنوبى.

المبادرة الوحيدة على هذا الصعيد، حين كان على مصر إغلاق باب المندب فى وجه الملاحة الإسرائيلية إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣، من دون إذن أو تشاور مع السلطات اليمنية لدواعى المفاجأة الاستراتيجية، ولم يكن ليتحقق ذلك فيما لو كانت الإمامة المتوكلية على سدة الحكم فى صنعاء، وبريطانيا متمرتسة فى قاعدتها العسكرية فى عدن!

وبينما ظل الجيل اليمنى الذى عاصر وقائع الدعم المصرى يتغنى فى المناسبات الوطنية وعلى لسان نخبته السياسية والثقافية والإعلامية بذلك الدور القومى الجسور، وبدونه كان على الثورة السبتمبرية أن تتجرع مرارات الفشل المحتوم الذى واجهته الثورة الأم بزعامة حركة الأحرار عام ١٩٤٨، وإلى حد انتهاز الشعب اليمنى مناسبتى أعياد الفطر والأضحى للاعتراف بالفضل وتأكيد الاعتزاز بهذا الدور، عبر التوجه مبكرا لزيارة مثوى الشهداء المصريين وقراءة الفاتحة على أرواحهم الطاهرة قبل زيارة قبور الشهداء اليمنيين، وبعدها تتوجه العائلات اليمنية لزيارة النصب التذكارى للشهداء المصريين على مشارف صنعاء!

فى المقابل كانت هجمة كتاب الردة فى مصر إثر رحيل الرئيس جمال عبد الناصر عبر التنديد المسعور بالدور المصرى فى اليمن، لكونه سبب خراب مصر اقتصاديا ونكستها عسكريا فى يونيو ١٩٦٧ على حد زعمهم، وإلى حد اغتيال شخصية

وسمعة جمال عبد الناصر ضمنيا، عبر التكفير بكل ما تبناه ودعا له من مبادئ التضامن القومى، وسعيه إلى دعم حركات التحرر العربى، ولم تكن رموز الثورة المضادة تمارس نشاطها السياسى والفكرى والدعائى المشبوه بإمكاناتها الذاتية، ولكنها وجدت السند والدعم من الرجعية العربية وخزائنها، ومن أعداء حركة التحرر العربى بدون حساب.

وعلينا أن نعترف بصدق وموضوعية أن دعاة الردة خاب فألهم وفشل مخططهم المشبوه الرامى إلى تشويه الدور المصرى فى اليمن أو تقزيمه، لأن الذاكرة التاريخية راحت تفضح كل ما روجوه من افتراءات وأكاذيب عبر الندوات الحوارية والبحثية التى تجمع بين النخب الثقافية والسياسية فى مصر واليمن تحت شعار تمتين وترشيد ودعم العلاقات بين البلدين، وشهادات الشهود الراحلين والأحياء على ملحمة النضال اليمنى المصرى المشترك.

وأشهد أن الجانب اليمنى كان له دوما فضل السبق والمبادرة على هذا الصعيد، ولعل كم وكيف ما تناوله العديد من المرجعيات السياسية والباحثين اليمنيين من الرؤى والاجتهادات بسبر أغوار العلاقات المشتركة وتأصيلها يجل عن الوصف والحصر، فيما كان للرئيس على عبد الله صالح إسهاماته الكبيرة فى التنويه بهذه العلاقات، والتنوير بضرورات تفعيلها، إضافة إلى مبادرته الرائعة لتكريم القيادات العسكرية والمدنية المصرية التى شاركت فى دعم الثورة اليمنية عسكريا وسياسيا أو حضاريا، وأحمد الله وأشكر الرئيس اليمنى الذى أنعم علىّ بوسامى الثورة والوحدة اليمنية تقديرا لدورى المتواضع على هذا الصعيد، مما ألقى على كاهلى مسئولية التحشد وأهبة الاستعداد لوضع هذا الكتاب.

وأستدرك لأشير إلى اعتمادى الأغلب فى مادة هذا الكتاب. . «أولا» على تجربتى ورؤيتى الشخصية للتطورات والوقائع التى عايشتها. . و«ثانيا» خيارى لأسلوب بسيط فى الكتابة عنها وعبر اختيار ما يؤكد على مصداقيتها من الحكايات والروايات المتاحة ولعلها الأحرى بالمتابعة والإسهام فى استيعاب مضمونها، «ثالثا» ويكمن فى وصف اليمن تارة بالذكورة وتارة بالتأنيث على ما جرت عليه ظاهرة الخلط والازدواجية فى الكتابات الصحفية، وكذا حرصى على تجنب الكتابة

للصفوة فحسب، وإنما للسواد الأعظم من العامة والمهتمين وغير المهتمين باليمن وخصوصياته. . و«رابعا» العبور سريعا على المعروف والمتداول سلفا من المعلومات، والولوج إلى ما وراء «الكواليس» من الدلالات والأسرار، مع الوضع فى الاعتبار أن كل قضية أو إشكالية تناولتها فى كتابى تستحق ولا شك أن يتناولها أكثر من كتاب أو دراسة متخصصة، دون أن أغفل لحظة لما قد ينالنى من نقد أو تصويب، وربما اتهامات. . والله من وراء القصد!

١ـ نظرية «الأوانى المستطرقة»

لم يمض سوى عام واحد على انفصام الوحدة بين مصر وسوريا فى سبتمبر عام ١٩٦١، حتى كان الشعب اليمنى على أهبة تفجير الثورة فى سبتمبر عام ١٩٦٢، ولا تقتصر دلالات ذلك الحدث العظيم على توافر الدوافع السياسية المحركة لتيار التحرر القومى الصاعد آنذاك، وإمكاناته البشرية والمادية الزاخرة فى رد الاعتبار لكرامة الأمة العربية وتجاوز إخفاقاتها ـ رغم موروثات الجهل والتخلف والاستبداد ـ وإنما فى مصداقية الإرادة السياسية القومية والتوقيت الصحيح والموقع المناسب للرد على المؤامرة وعصبة المتآمرين على الوحدة المصرية ـ السورية كما لو أنه القدر المحتوم!

والشاهد أن العلاقة بين مصر واليمن ذات سمات قدرية حاكمة، ولعلها أشبه بالنظرية العلمية المعروفة بـ «الأوانى المستطرقة»، فما من انتصارات ونجاحات وفسحة من الأمن والاستقرار تحظى به مصر، وما من إخفاقات وتحديات ومظاهر الاستبداد تبتلى به، إلا وكانت لكل هذه العوامل الإيجابية والسلبية انعكاساتها المباشرة أو الضمنية على الأوضاع فى اليمن بشكل أو بآخر و. . العكس كذلك صحيح!

وهكذا على مر التاريخ القديم ظل البلدان يشكلان حلقة تفاعل سياسى وتواصل حضارى، وأن يلعبا معا أدواراً تكاملية خاصة على الصعيد الاقتصادى أو كوسيط تجارى، لكونهما يسيطران على أهم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وتلك الأهمية الاستراتيجية كانت ولا شك مثار الأطماع والعدوان الخارجى.

وإذا كان فراعنة مصر قد وجهوا أساطيلهم البحرية عبر البحر الأحمر فالمحيط

الهندى إلى بلاد «بونت» وهى الصومال اليوم، لجلب البخور لزوم مناسك العبادة والتوابل لزوم جودة الطعام، فلا بد أن المصريين القدماء أقاموا فترات فى اليمن وتبادلوا المعارف والمنافع مع اليمنيين، وهو ما يفسر الوعى المشترك لدى الشعبين بأسرار تحنيط الموتى تأهبا ليوم الحساب فى الآخرة، ولعل ما يؤكد على هذا التلاحم الحضارى بين مصر واليمن ما أسفرت عنه الاكتشافات الأثرية من التماثيل اليمنية القديمة التى تحاكى قريناتها فى العصر الفرعونى، وبينها تمثال أبو الهول الذى تم اكتشافه فى منطقة جبل العود بمحافظة إب ومجموعة أخرى من التماثيل فى أحد المعابد القديمة، ويقول أحمد شمسان وكيل الهيئة العامة للآثار باليمن، إن هذا التشابه بين التمثالين يعود إلى التجار اليمنيين الذين كانوا يجلبون التماثيل الفرعونية خلال رحلاتهم التجارية إبان العصر الفرعونى. فكان اليمنيون يحاكونها، مع بعض الاختلافات والسمات المحلية وأبرزها تمثال أبو الهول اليمنى المتوج، مما يشير إلى احتمال أن يكون لملك يمنيًا!

والثابت تاريخيا أن الرومان عندما استولوا على مصر، كان حرصهم على تأمين عمقها الاستراتيجى الجنوبى، فكانت سيطرتهم الكاملة على البحر الأحمر واحتلال اليمن بالتالى، ولا تزال أُسطورة البطل اليمنى سيف بن ذى يزل تشى بالدور الذى قام به قبيل ظهور الإسلام لاسترداد «كتاب النيل» من الأحباش خشية أن يغامروا بقطع مجرى النيل إلى مصر!

٢- تأصيل العلاقات المصرية اليمنية

على أنه بقدر مشقة البحث فى توثيق المعلومات حول الدور الحضارى المشترك للعلاقات المصرية اليمنية فى التاريخ القديم، بقدر ما كانت الفرصة مواتية لإعفائى من هذه المهمة، حين دعيت للاستماع والاستمتاع بالمحاضرة القيمة التى ألقاها الدكتور عبد الحليم نور الدين رئيس هيئة الآثار المصرية ونظمها المركز الإعلامى بالقاهرة بالاشتراك مع منتدى «ساقية الصاوى»، حيث أبحر بوعى وحب واقتدار فى دروب وأعماق هذه العلاقات وتأصيلها علميًا وثقافياً، وهو قد بدأ محاضرته الرائعة قائلا:

«اليمن» بلدى الثانى، بلد أحببته ونشأت بينى وبينه علاقة حب قوية ستظل إلى أن تنتهى الحياة وسعادتى بأن أشارك فى كل ما يتعلق باليمن، التى عملت فيها ست سنوات من أقوى سنوات عمرى عطاء كرجل تاريخ وآثار، حيث ساهمت فى تأسيس قسم الآثار واكتشاف أيضا مومياوات يمنية، وقد استقبل العالم هذا الخبر الأثرى بدهشة شديدة، إذ كيف يكون هناك تحنيط فى أى مكان خارج مصر، وأحدث هذا الكشف الأثرى ضجة كبيرة فى منطقة تدعى (شبام الغراس)، ومن هنا يظل الحنين قويا دوما بينى وبين اليمن ولهذا جئت.

بعد هذه المقدمة الحميمة أشار إلى أن الحديث عن العلاقات بين مصر القديمة التى تسمى مصر الفرعونية وبين اليمن القديم هو حديث حضارتين رائدتين فى زمنهما وفى مكانهما، وفى إطار العالم المحيط بهما، علاقات بين حضارتين، ورغم أن إحداهما تنتمى إلى قارة إفريقيا (مصر) والثانية تنتمى إلى قارة آسيا (اليمن) إلا أنهما تنتميان إلى كيان حضارى وجغرافى واحد هو كيان الشرق الأدنى القديم الذى يضم حضارة وادى النيل وبلاد النهرين وسوريا الكبرى والجزيرة العربية والأناضول وإيران. ورغم التباعد الزمنى والجغرافى بين الحضارتين إلا أن موقعهما قد أهلهما للاتصال المباشر من خلال الطرق البرية والبحرية التى ساهمت فى الربط بينهما مثل الطريق البرى المعروف بطريق «التوبال» والطريق البحرى المتمثل فى البحر الأحمر الذى لعب دورا كبيرا فى الاتصال بين البلدين، والذى سهل نمو وازدهار العلاقات التجارية ومن ثم ظهر التأثير المتبادل فى مجال العقائد والفنون، واشتركت الحضارتان فى مجموعة من الخصائص واختلفت فى خصائص أخرى.

مصر تقع فى قلب الشرق الأدنى القديم، وفى قلب قارات الدنيا الرئيسية. . هذا الموقع مكنها من تبوؤ موقع الريادة ومكنتها حدودها الطبيعية الآمنة ومناخها المستقر من الانطلاق نحو التقدم أسرع من غيرها بالإضافة إلى تمتع مصر بمصدر ثابت للمياه وهو نهر النيل.

وقال إن الآراء تعددت حول مسمى اليمن، وهناك من يرى أنها سميت نسبة إلى أول من قطنها من العرب أو لأنها تقع يمين الكعبة، أو لأنها بلاد اليُمْن والبركات، أو لتيمن العرب بها. . وأخيرا ربما حورت كلمة اليمن عن الكلمة اليمنية القديمة

التى وردت فى نصوص المسند (يمنات) والتى ترجع إلى عهد الملك (شمر - يهرعش) ولأن اليمن اشتهرت باعتدال مناخها وتنوع محاصيلها فقد سميت باليمن الخضراء ولقد قامت فى اليمن مجموعة من الكيانات السياسية أذكر منها معين وحضرموت وقتبان وسبأ أشهر حضارات اليمن، وذى ريدان ويمنات التى سيطرت على كل اليمن تقريبا، ورغم موقعها فى جنوب الجزيرة العربية فقد حققت من الإنجازات الحضارية ما لا حصر له.

هيأ موقع اليمن لها الاتصال بكل الدول الواقعة على البحر الأحمر وتلك التى تنتمى إلى بلاد الشرق الأدنى القديم كبلاد النهرين بالإضافة إلى حدودها الآمنة التى حمت البلاد من الغزوات الأجنبية! وقد اختلفت الحضارة اليمنية عن الحضارة المصرية من حيث مصدر المياه، وسبق وذكرنا أن مصر تتمتع بالنيل كمصدر ثابت للمياه، بينما اعتمدت اليمن ولا تزال على الأمطار، ومن هنا كانت الإجابة الواضحة فى بناء السدود، وأشهرها سد مأرب فى محاولة للاستفادة من مياه الأمطار. كما اختلف البلدان فى طبيعة الأرض فالأرض منبسطة فى مصر وجبلية إلى حد كبير فى اليمن، وإذا أردنا أن نشير إلى المسميات فقد حملت مصر العشرات من المسميات أهمها مصر وهو الاسم الذى ورد فى الكثير من النصوص اليمنية، نصوص حضارات الشرق الأدنى القديم وهو الاسم المشتق من كلمة مصرية قديمة هى (مشرر) أى المحمية أو المحصنة أو المكنونة ولهذا سميت بكنانة الله فى أرضه.

٣- الثالوث الإلهى

وحول المسميات اليمنية التى أطلقت على مصر فى الزمن القديم. قال الدكتور عبد الحليم نور الدين إن النصوص اليمنية القديمة التى نظمها «المسند» كان اسم مصر واضح المعالم سواء على لوحات وتماثيل أو توابيت أو عناصر معمارية أو على سطوح الهضاب على امتداد الطرق التى تربط بين وادى النيل والبحر الأحمر وخصوصا طريق (قفط - القصير) الذى يزخر بالمئات من هذه النصوص ولعل من النصوص اليمنية القديمة تلك النصوص الخاصة بتاجر يمنى شهير يدعى (زيد أبل) فى حوالى القرن الثالث (ق. م) وهو كان وسيطا تجاريا بين مصر واليمن وتوفى فى مصر وأعدت له مقبرة ضخمة بسقارة وحوى تابوته فى المتحف المصرى نصا بالخط

المسند يحكى دور هذا التاجر اليمنى الذى عاش فى القرن الثالث ق. م وقد ورد اسم مصر صراحة فى نقوش المسند كما ورد فى نقوش الكثير من نصوص حضارات الشرق القديم.

وأوضحت نقوش بعض المعابد اليمنية فى مأرب وبراقش وغيرهما ذكرًا لأسماء مصريات كن يقمن على خدمة (الثالوث اليمنى) فكرة (الثالوث الإلهى الشهير) القائمة على الزوج والزوجة والابن هى نفس فكرة الثالوث الإلهى!

ثم أشار إلى أن أقدم تاريخ معروف حتى الآن حول منابع وجذور العلاقات المصرية اليمنية عندما ورد ذكر كونت فى النصوص اليمنية بمعان كثيرة (الضريبة - الجزية) كما ورد فى النصوص القتبانية كلمة (كونتم) لتدل على الإنماء والصداقة والمؤاخاة وتدل أيضا على رابطة من روابط التجمعات القبلية، وبالإضافة إلى ذلك الاسم فإن هناك تطابقًا فى المناظر الواردة على جدران الدير البحرى للملكة حتشبسوت بغرب الأقصر حول رحلتها إلى بلاد «كونت» فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وهى المنطقة التى يعتقد البعض أنها تقع جنوب البحر الأحمر عند (بوغاز البحر الأحمر) وتضم الشاطئين الإفريقى الصومالى والآسيوى اليمنى معتمدين على أشكال المساكن والبشر وعلى بعض المظاهر الحياتية وأنواع بعض الحيوانات والأسماك وصور أمير المنطقة وزوجته ومساعديه وهم يستقبلون بعثة (حتشبسوت). وتشير عناصر الأنثربيولوجى أو الجنس البشرى على تقارب بينهم وبين سكان اليمن، ورغم أن أمر بلاد كونت لم تحسم بعد إلا أنه يوضح أن اليمن جزء منها وأن العلاقات اليمنية المصرية ترجع إلى أقدم من عهد حتشبسوت.

٤- إلـــه القمـــر

على أن أولى الرحلات التى قامت بها مصر إلى أرض «كونت» جرت فى عهد الملك (ساحورا) فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، حيث سجلت أخبار هذه الرحلة على جدران معبده فى (أبو سمبل) وهذه الرحلة إلى بلاد كونت خرجت أكثر من مرة على امتداد التاريخ المصرى وكان آخرها (رحلة حتشبسوت) ورغم أن النصوص المصرية لم تتحدث صراحة عن اليمن إلا أن كلمة عرب ظهرت فى

الديموطبقية ابتداء من القرن السابع قبل الميلاد كما ورد اسم سبأ فى القرن السادس قبل الميلاد.

ثم أضاف الدكتور نور الدين معلومة جديدة هامة: وقال: إن لدينا فى مصر وفى اليمن هناك فكرة الثالوث (المقه وذات حميم وعشتر) المقه هى إله القمر وذات حميم هى إله الشمس وعشتر هى نجم الشعرى اليمنية، ولم تقتصر شواهد العلاقة على النقوش وإنما تعدتها إلى الكثير حيث عثر على قطع أثرية مصرية ليست فى كل الأحوال منقولة على سبيل الإهداء أو الاتجار وإنما هى دليل على وجود شكل من العلاقات بين البلدين نتج عنها وجود هذه الشواهد كموائد قرابين وشواهد قبور وأحواض تطهير ومباخر، وإذا كان الطريق البرى عبر الصحراء الشرقية والذى كان يؤدى إلى البحر الأحمر قد سهل الأمر للتجارة المصرية المتجهة إلى اليمن، فإن البحر الأحمر بموانيه فى البلدين قد يسر أمر الاتصال، فعلى الجانب المصرى هناك ثلاثة موان مصرية: ميناء القصير وبرليس ووادى جاسوس وكلها بالقرب من سفاجة والأخير لعب دوراً كبيراً فى الرحلات المتجهة من مصر إلى بلاد «كونت» وعلى الجانب اليمنى هناك موانى عدن والمخا وقناء وسمهر وهى (خور حورى) وقد ثبت من نصوص البلدين قدوم السفن المصرية المحملة بالبضائع إلى موانى اليمن وخصوصا ميناء قناء، وقد بذلت مصر واليمن جهوداً كبيرة فى تأمين الطريق البرى، فأقيمت الحاميات وشقت الطرق وحفرت الآبار وقد تشعبت الطرق التجارية ابتداء من موطن البخور من اليمن وغيرها حتى غزة ومنها إلى مصر وقد أمكن حتى الآن رصد ثلاثة عشر طريقا بريا فى الصحراء الشرقية وكان اللبان إلى جانب البخور - وسبأ كانت مملكة البخور - إضافة إلى التوابل من أهم السلع التى كانت مصر بحاجة إليها وخصوصا فى المعابد حيث كانت تقوم الطقوس الدينية والاحتفالات التى تتطلب مثل هذا النوع من السلع وتظل بلاد «كونت» كما كتبت فى النصوص المصرية هى محور العلاقات المصرية اليمنية و..

وأحسب فى النهاية أن هذه المحاضرة المعرفية الشائقة حول ولادة العلاقات التاريخية والحضارية بين مصر واليمن واستغرقت أكثر من ساعتين فى حاجة إلى أن يستوعبها كتاب خاص!

٥ - بلقيس وعرش سبأ

كانت نافذة الشعب المصرى التاريخية على اليمن القديم، عبر ما رواه القرآن الكريم، وكذا الأساطير، حول قصة سيدنا سليمان والملكة بلقيس التى كانت تتربع على عرش سبأ، مرورا بالفأر الذى نخر فى سد مأرب وأدى إلى «السيل العرم» وتدهور الزراعة وتدنى الأوضاع المعيشية، فى الوقت الذى كان اليمن قد تحرر من احتلال الحبشة الذى امتد زهاء نصف قرن.

فلما بزغ نور الإسلام انخرط اليمنيون فى جيوش الفتح الإسلامى الذى توالى زحفها حتى تخوم الصين، ومشارف غرب أوربا عبر دخولها مصر، وهكذا عندما فتح طارق بن زياد الأندلس متقدما جيش المسلمين لم يجد سوى «شال» يتلفع به مجاهد يمنى، ورفعه عاليا بديلا عن العلم، إعلانا بالنصر، وتأكيدا على الدور الجهادى الجسور الذى نهض به الشعب اليمنى فى سجل الحضارة الإسلامية ونصرة الإسلام.

والشاهد أن ما يزيد على أربعة آلاف يمنى، كانوا يمثلون قلب الهجوم فى جيش عمرو بن العاص عندما فتح مصر فى الثامنة عشرة من التاريخ الهجرى، فلما استقر بهم المقام تزوجوا بمصريات، ومن نسلهم كانت ولادة العديد من الأسر العريقة تأكيدا على عمق الروابط الروحية والوشائج الاجتماعية بين الشعبين.

ولأن المقاتلين اليمنيين كانوا رهن إشارة عمرو بن العاص، وكان عليهم أن يبسطوا النفوذ الإسلامى على شتى ربوع مصر، فقد استغرقت هذه المهمة زهاء ثلاث سنوات لقمع نحو خمسين ألفا من الجنود الرومان، الذين تحصنوا فى صعيد مصر، لذلك كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أهبة الاستعداد لدعم جيش عمرو بن العاص باثنى عشر ألف مقاتل للقيام بالمهمة.. كان معظمهم من القبائل اليمنية كذلك مثل مراد وخولان ويافع وهمدان.

وكان عمر بن الخطاب قد أرسل مبعوثا يمنيا اسمه معاوية بن حريج الكندى إلى مصر، حتى يسأل عمرو بن العاص إن كان يستطيع أن يركب راحلته دون أن ينزل من عليها حتى يصل إلى الإسكندرية، وهى كانت عاصمة مصر فى العصر

البيزنطى، وكان جوابه بالنفى لأنه سوف يضطر إلى عبور النيل عند فرع رشيد، الأمر الذى كان السبب فى البحث عن مكان آخر يصلح عاصمة لمصر بديلا عن الإسكندرية، فكان اختيار المنطقة المتاخمة لحصن بابليون لبناء مدينة الفسطاط التى تقع ما بين النيل غربا وجبل المقطم شرقا.

جدير بالذكر أن المقاتلين اليمنيين هم الذين نهضوا بالتخطيط وبناء مدينة الفسطاط على نمط مدينة صنعاء القديمة عبر خبراتهم المعمارية والعمرانية الموروثة عن حضارات سبأ وحمير ومعين، وكان مسجد عمرو بن العاص أول بناء جرى تشييده وهو أول مسجد فى مصر، ومن حوله تدرج بناء المساكن ومقرات الدولة الإسلامية على نمط العمارة اليمنية، فى الوقت الذى اجتاز المقاتلون اليمنيون النيل من الشرق إلى الغرب وأسسوا مدينة خاصة لسكناهم سميت «الجيزة» فكانت مدينة يمنية فى عماراتها وفى عاداتها وتقاليدها ومناشطها، وإذا كانت العديد من شوارع وميادين الجيزة تشى حتى اليوم بالدور الحضارى اليمنى فى مصر، كما لا تزال الكثير من العائلات المصرية تحتفظ بأسماء أصولها مثل عتيق والأحمر وحاشد وهنيدى وهويدى، فلعل هذه الظاهرة لا تتجسد فحسب من حيث الأسماء، وإنما فى كثير من مدن مصر مثل حلوان ووادى حوف والمنصورة، وفى نماذج الأصول الديمغرافية والأنثروبيولوجية بحكم الهجرات المتبادلة، فكلا الشعبين يجمع بينهما الذكاء الفطرى وسرعة البديهة وعشق السخرية والدعابة وكراهية القبول بتعالى الآخرين عليهم حتى ولو كانوا الأكثر تقدما وثراء، وهو ما يفسر سر التجاذب التلقائى فى الغربة بين اليمنيين والمصريين!

ورغم أن الدعوة الإسلامية ونظمها الحاكمة أسست لإطار سياسى وثقافى موحد، تفاعلت من خلاله شتى الأقطار الإسلامية على نحو لا مركزى، يلاحظ أن حكم مصر واليمن، ظل بوجه خاص من خلال ولاة تختارهم وتعينهم سدة الخلافة الإسلامية فى بغداد، ومع بزوغ نجم الدعوة الفاطمية فى اليمن اختلف الأمر فى عهد الخليفة أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب الملقب بمنصور اليمن، لكن ما إن بسط الفاطميون حكمهم على مصر حتى تمكنوا من فصلها عن الخلافة العباسية، حيث دانت الملكة أروى بنت أحمد الصليحى بالولاء للخليفة الفاطمى بالقاهرة.

فلما انهارت الدولة الصليحية فى اليمن عام ١١٣٧ ميلاديا، تبعها انهيار الخلافة الفاطمية فى مصر عام ١١٧٤ ميلاديا، وبعدها كان قيام الدولة الأيوبية فى مصر على أنقاض الدولة الفاطمية، وعندئذ كانت فرصة صلاح الدين الأيوبى لتأمين العمق الاستراتيجى الجنوبى لمصر فى اليمن، عبر حملة عسكرية بقيادة أخيه نوران شاه، حتى يضمن الحماية لمصر واليمن من احتمالات العدوان الحبشى من الجنوب، ومن أطماع نور الدين زنكى حاكم الشام، ومن الشمال عبر الخلافة العباسية فى بغداد!

فلما جرى اكتشاف طريق «رأس الرجاء الصالح»، عندئذ شرع البرتغاليون إلى تهديد طريق التجارة بين الشرق والغرب، عبر تثبيت أقدامهم تباعا على شواطئ المحيط الهندى والمدخل الجنوبى للبحر الأحمر، بغية تحويل التجارة من البر إلى البحر عن طريق رأس الرجاء الصالح، وخنق المصالح التجارية بالتالى لكل من مصر واليمن.

استنجدت الدولة الطاهرية فى اليمن بالمماليك فى مصر، حيث جهز السلطان قنصوة الغورى حملة عسكرية بحرية لردع البرتغاليين، وقد توافرت لتلك الحملة إمكانات المواجهة والندية، إذ كانت مجهزة بالأسلحة النارية، ومن ثم توغلت إلى داخل اليمن برا حتى سقطت الدولة المملوكية فى مصر، وبقيت الحملة فى اليمن تحت اسم وشعارات العثمانيين كما كان عليه الحال فى مصر، ومن مصر شرع الأتراك إلى الإشراف على شئون اليمن، وتجهيز الحملات العسكرية لحمايتها من أطماع الاستعمار الأوربى عهدئذ، ولعل تلك الشواهد تشى بما للعلاقات بين البلدين من آليات التلاقح السياسى والثقافى كما لو أنها محكومة بما يشبه نظرية الأوانى المستطرقة!

٦- النكتة المصرية

نستمهل السرد التاريخى لمسيرة العلاقات المصرية اليمنية قليلا حتى نتعرف على واحد من ألمع المثقفين والشعراء اليمنيين الذين أسهموا فى تعزيزها والتنوير بأهميتها عهدئذ وبخصوصيتها، وهو عمارة اليمنى الذى كان أول سفير لليمن فى مصر إبان

الحكم الفاطمى، بينما شغل المنصب فى أربعينيات القرن العشرين السيد على المؤيد سفير اليمن فى مصر إبان حكم الإمام يحيى حميد الدين، وهو أول من دعا فى العالم إلى قيام مجموعة دول عدم الانحياز بين المعسكر الغربى بزعامة أمريكا والمعسكر الشرقى بزعامة الاتحاد السوفيتى.

ويحدثنا التاريخ أن عمارة اليمنى هو نجم الدين عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان الحكمى الذى أصبح اسمه بعد ما تحققت شهرته «عمارة اليمنى»، وقد ولد عام ٥١٥ هجرية وسط أسرة من علماء الدين الإسلامى بناحية «ضمد» التى تسكنها قبيلة «حكم»، ويذكر أنه هاجر فى صدر شبابه إلى «زبيد» عام ٥٣١ هجرية، حيث حظى بقدر من العلوم الدينية على يد شيوخ المذهب الشافعى السنى، وبعدها ظهر نبوغه وذاعت شهرته، ولقب تارة بالقاضى عمارة وتارة أخرى عمارة الفرضى، أما فى صنعاء وعدن وجبلة فقد عرف باسم عمارة الفقيه الشاعر، وقد أهلته ثقافته وشاعريته واستيعابه علوم الدين فى كسب ثقة أمير مكة القاسم هاشم بن خليفة وهو الذى عينه سفيرا له فى مصر عام ٥٤٩ هجرية لمدة عام، ثم سفيرا فى مصر للمرة الثانية عام ٥٦٩ هجرية، ولعله أول مؤرخ لليمن وحضارته وثقافته وحاله وأحواله، وهو كذلك كان أول من عرف العرب بشعراء اليمن وأدبائه عهدئذ!

ورغم قصر عمره الذى لم يناهز الخمسين، إلا أن إبداعاته ومؤلفاته تجل عن الوصف والحصر، وبينها كتابه القيم «النكتة المصرية» وكتاب «أخبار اليمن» وكتاب «الوزراء المصريون» فضلا عن ديوانه الشعرى الذى توافر على تحقيقه مجموعة من الباحثين.

ولا شك أن علمه الغزير وثقافته الموسوعية فضلا عما حباه الله به من الذكاء وخفة الظل، كانت ضمن مؤهلات ولوجه إلى قلوب الحكام فى مصر وفى اليمن وفى مكة خاصة، وكان عمارة اليمنى فى رؤاه وفى إبداعاته بعيدا كل البعد عن التطرف وأكثر ميلا إلى وسطية الإسلام وسماحته.. فهو على سبيل المثال فاجأ سلاطين الفاطميين عند قدومه سفيرا لديهم بتكليف من أمير مكة، باعتذاره عن عدم اتباع مذهبهم «الإسماعيلى»! يقول فى قصيدة مطلعها:

ما سرت من كعبة البطحاء والحرم

إلا إلى كعبة العرفان والكرم

أرى البيت إني بعد فرقته

ما سرت من حرم إلا إلى حرم

ومهما اختلفت الرؤى والتحليلات التى حاولت تفسير أسباب إعدام صلاح الدين الأيوبى لعمارة اليمنى بدعوى تآمره عليه، إلا أن تاريخه وثقافته وفقهه تدحض هذا الاتهام، بينما الحقيقة أنه ظل وفيا للحكام الفاطميين الذين أحاطوه برعايتهم. . وله فى ذلك قصيدة شهيرة عندما وقف أمام واحد من قصورهم. . يقول:

رميت يا دار كف المجد بالشلل

وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

هدمت قاعدة الحسنى على عجل

شقيت مهلا.. أما تمشى على مهل

ومن حكمه المأثورة شعرا يقول:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب

وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب

ولا تحتقر كيدا لضعيف فربما

تموت الأفاعى من سموم العقارب

فقد هد قدما عرش بلقيس هدهد

وخرب فأر قبل ذا سد مأرب

ثم نتساءل لماذا توارى عن الاهتمام زخم قصائده ومؤلفاته عن مصر، خاصة وقد أعيانى البحث عن كتابه حول «النكتة المصرية» وكتابه الثانى عن «الوزراء المصريين»، إذ كان عمارة اليمنى بحق سفيرا شعبيا للتواصل الأدبى والمعرفى والوجدانى بين مصر واليمن، وربما كان الكيلانى المؤرخ اليمنى على غراره وسار على منواله حين شرع إلى التأريخ للحملة الفرنسية على مصر.

٧ـ الحركة الوهابية

وبينما يرى البعض من المؤرخين أن محمد على باشا والى مصر ومؤسس نهضتها الحديثة، جهز حملته العسكرية الأولى للحجاز بتوجيه من السلطان العثمانى للقضاء على الحركة الوهابية، يجمع البعض الآخر من المؤرخين، على أن تأمين العمق الاستراتيجى الجنوبى الشرقى كان هاجسه وهدفه، عندما بدأ عملاء شركة الهند الشرقية فى الجزيرة العربية يهددون طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ويفرضون الإتاوات على القوافل التجارية!

لكن الحملة العسكرية المصرية ما إن أتمت إنجاز مهمتها فى الحجاز، حتى ولت وجهها شطر اليمن، وتمكنت من انتزاع مناطق شاسعة من «تهامة» كان السلطان محمد عبد العزيز محمد بن سعود قد استولى عليها عام ١٨١٨، ونجح محمد على فى إعادتها إلى اليمن إبان حكم الإمام المتوكل على الله أحمد بن على.

وحتى لا نتوغل أكثر فى أحداث التاريخ، نتوقف قليلا بالضرورة للتعرف على أسباب عودة جيش محمد على إلى اليمن للمرة الثانية لمواجهة الإنجليز الذين ورثوا النفوذ البرتغالى فى المنطقة، إذ كان الإنجليز قد وجهوا مدافعهم البحرية وقصفوا ميناء المخا، ثم أجبروا إمام اليمن على منحهم مركزا عسكريا، حيث تمكنت الحملة العسكرية المصرية من تحرير جميع مناطق تهامة عام ١٨٣٢، وحتى وصلت إلى مرتفعات تعز.

القصة بعد ذلك باتت معروفة بكل تفاصيلها، حول دور محمد على فى استنفار القبائل اليمنية وقوات الإمام لإثارة القلاقل السياسية والمناوشات العسكرية ضد الإنجليز فى عدن، وشل منافستها للموانى اليمنية والمصرية على الصعيد التجارى وتحصيل الإيرادات والرسوم على البواخر التجارية، واستمر هذا حال العلاقات السياسية والعسكرية والتجارية بين مصر واليمن، حتى نجحت المؤامرة الكبرى على محمد على التى انتهت فصولها عبر معاهدة لندن عام ١٨٤٠، وبمقتضاها نجحت بريطانيا والدول الكبرى وقتئذ فى إلزامه بالانسحاب من اليمن والجزيرة العربية، وإلى حد تفكيك الترسانة البحرية وكل مصانع السلاح فى مصر، بل وحتى مصنع الطرابيش!

تلك ومضات سريعة من تاريخ العلاقات اليمنية المصرية، و«ميكانيزم» التفاعل «الديناميكى» بين البلدين فى السراء والضراء، ولعله يفسر ما وراء أفول نجم مصر الساطع فى محيطها العربى، بداية من إجهاض مشروع محمد على الذى كان يرنو إلى قيام دولة عربية قومية ومستقلة عن الخلافة العثمانية المريضة فى إستانبول، مرورا بإجهاض الثورة العرابية إثر الاحتلال البريطانى لمصر، فى الوقت الذى أصبحت فيه اليمن مشاعا لأطماع الإنجليز والسعوديين نهاية بإجهاض المد القومى التحررى لثورة يوليو فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وانسحاب القوات المصرية بعد أن أدت دورها الجسور باليمن وباتت قادرة بقواتها الذاتية فى الدفاع عن الثورة والجمهورية!

٨ـ نابليـــون فى مصـــر

نحسب أن الباحثة اليمنية الدكتورة «إلهام مانع» فى دراستها حول الأوضاع التى شهدتها اليمن عهدئذ بوجه خاص، والجزيرة العربية بشكل عام، قد أحاطت بهذه التطورات فى دقة وأمانة.. تقول:

العلاقات اليمنية البريطانية كانت إشكالية منذ البداية، وهى قد ظلت كذلك لسببين: لأن بريطانيا استعمرت جنوب اليمن وفصلته عن الشمال، مما أدى مع الوقت إلى إنشاء كيان مستقل جديد على الحافة الجنوبية للجزيرة العربية، السبب الثانى ويتمثل فى التدخل البريطانى فى شئون الشمال اليمنى، وهو ما ساعد السعوديين على احتلال منطقة عسير!

بعدها تطورت المصالح البريطانية فى جنوب اليمن بعد غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨، ولخوف البريطانيين من تقدم الجيوش الفرنسية نحو الجزيرة العربية ومنها إلى الهند، لذلك قاموا بإرسال قواتهم إلى جزيرة بريم فى باب المندب لحماية المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، لكنهم اضطروا للانسحاب لأن القوات الفرنسية ظلت بعيدة عن المنطقة وبسبب نقص المياه فى الجزيرة كذلك.

على أن البريطانيين عادوا مرة ثانية إلى المنطقة إثر غزو محمد على لسوريا، وتهديده لسيادتها على الهند فى حالة غزوه للجزيرة العربية كلها بما فى ذلك ميناء

عدن الاستراتيجى، والحيلولة بالتالى دون تموين أساطيلها الحربية والتجارية، ولذلك لجأت بريطانيا إلى التفاوض مع سلطان لحج لشراء أو استئجار الميناء دون جدوى، فكان لجوؤهم إلى استخدام القوة للسيطرة على الميناء عام ١٨٣٩ .

فلما استتبت سيطرة الإنجليز على عدن وتحصينها جيدا لمواجهة التهديدات العسكرية، شرعوا إلى السيطرة على مناطق الداخل فى جنوب اليمن عبر السلاطين ومشايخ القبائل الذين أجبروا على توقيع معاهدات الإذعان والخضوع، وإلزامهم بعدم الاتصال مع القوى الخارجية مقابل الحماية والمعونات المالية الهزيلة، ولم يكن إقناع الأتراك بتلك التطورات صعبا، إذ لم يكن لديهم ثمة اهتمام بميناء عدن، بينما يعزو البعض من المؤرخين خضوع الأتراك للإنجليز وإلى حد تقديم عدن هدية لهم، إنما مرجعه لدور بريطانيا فى عزل محمد على حاكم مصر وإخراج قواته من الجزيرة العربية، وهكذا ما بين شهرى يناير ومايو عام ١٩١٤ قامت لجنة «أنكلو - تركيا» مشتركة بمهمة تحديد النفوذ بين الجانبين فى اليمن ووقعت معاهدة بهذا الشأن فى نفس العام.

ولم يقدم الاتفاق إقليم حضر موت فحسب للبريطانيين، لكنه أفضى كذلك إلى فصل شمال اليمن عن جنوبه، ومن عجب ألا تتجاوز سيطرة الإنجليز عشرة كيلو مترات فقط خارج عدن، أما النفوذ التركى فقد ظل قائما فى بعض المناطق التى استوعبت حامياتهم العسكرية، لكنهم كانوا مرغمين على الانسحاب بعدئذ أمام نفوذ وقوة بأس الإمام يحيى الذى رفض الاعتراف بالمعاهدات المشبوهة، وأصر على الوحدة بين شمال وجنوب اليمن، وحتى يتحقق ذلك الهدف شن حملة عسكرية ضد القوات البريطانية بمساعدة مشايخ الداخل فى المحميات الجنوبية، إلا أنهم أجبروا على الانسحاب من المناطق التى استعادوها بعد أن استخدم الإنجليز ضدهم أسلوب القصف الجوى!

وتتابع الدكتورة «إلهام مانع» دراستها التاريخية للتطورات التى شهدتها الجزيرة العربية مشيرة إلى تصاعد حالة تردى العلاقات البريطانية اليمنية، عندما تعمد الإنجليز تعقيد الموقف السياسى فى المنطقة رداً على مطالبة الإمام يحيى بتحرير الجنوب اليمنى، حيث اندفعت القوات البريطانية لاحتلال الموانى اليمنية فى

الحديدة والمخا والسالف، والسيطرة على بعض مدن الشمال اليمنى، لكن الإمام يحيى رفض بعناد مطالب الإنجليز، فما كان إلا أن منحوا بعضًا من أراضى اليمن للإمام الإدريسى حاكم عسير الذى كان خصمًا لدودًا للإمام يحيى و . . تلك قصة أخرى!

٩- عبد الناصر فى مقر الإخوان المسلمين

أذكر عام ١٩٧٧ عندما كنت فى زيارة القاضى عبد الرحمن الإيريانى بدمشق إثر عزله أو اعتزاله رئاسة المجلس الجمهورى فى صنعاء، حيث روى لى كعادته فى سياق تنويرى بتاريخ النضال اليمنى وفهم أبعاد الشخصية اليمنية، أن الرئيس جمال عبد الناصر أفضى له فى ساعة صفاء بشرارة وعيه بمأساة الشعب اليمنى عندما قدر له أن يقضى إجازة من الخدمة العسكرية بالقاهرة إبان حرب فلسطين عام ١٩٤٨، حيث اصطحبه صديقه وزميله عبد المنعم عبد الرءوف الضابط بالقوات المسلحة، لحضور ندوة جماعة الإخوان المسلمين التى كانت تعقد مساء كل ثلاثاء بمقر الجماعة فى حى الحلمية، وهناك استمع إلى شرح مأساوى اهتز له كيانه حول الأوضاع فى اليمن قدمه القطب الإخوانى البارز الفضيل الورتلانى، وكان قد عاد لتوه من اليمن وعاصر نكبته إثر فشل ثورة الأحرار عام ١٩٤٨، وكيف أن جمال عبد الناصر تولدت لديه منذ تلك الليلة الرغبة العارمة - على حد قوله - فى متابعة الأوضاع السياسية فى اليمن، وهو حين بحث وقتئذ فى المكتبات عن مؤلفات حديثة فى هذا الشأن، لم يجد سوى كتابين: الأول «ملوك العرب» للكاتب والأديب الكبير أمين الريحانى، والثانى عن الحضارة اليمنية للدكتور أحمد فخرى.

والحقيقة أن كتاب «ملوك العرب» للكاتب والأديب الكبير أمين الريحانى، سد نقصا معرفيا لدى النخبة المصرية بحال وأحوال اليمن، فهو كان بانوراما رائعة فى أدب الرحلات، حيث طوّف خلاله بمشاهداته الذكية التى أحاطت بالأوضاع السياسية فى عدد من الأقطار العربية التى قام بزيارتها عام ١٩٢٠، وبينها المملكة المتوكلة اليمنية، لكأنه كان يقرأ الغيب ويستشرف المستقبل، حين قدر أن دوام أحوال اليمن المزرية من المحال، وأن التغيير الجذرى بات خيار الشعب اليمنى المحتوم، غير أن نبوءته تأخرت زهاء ٢٨ عاماً وكادت تتحقق بالفعل عام ١٩٤٨

باندلاع الثورة بزعامة حركة الأحرار التى ضمت صفوة المستنيرين من العلماء والمثقفين والضباط ومشايخ القبائل لكنها أجهضت لأسباب متباينة كما هو معروف.

أذكر من كتاب «ملوك العرب» ما رواه أمين الريحانى عن الإمام يحيى بن حميد الدين قوله: قبح الله ملكا يدخل عليه من هو أعلم منه» حيث إن الإمام كان يعتقد أن الإمامة باتت حقا إلهيًا له، من هنا أغلق جميع المدارس واكتفى بكتاتيب متواضعة لحفظ القرآن، حتى يظل العالم الأوحد وسط شعب من الجهلاء، ولترشيد الإنفاق أمر الموظفين بعدم وضع الرسائل فى ظرف أو مغلف خاص، بل تلف الرسالة كما تلف السيجارة، وإذا كان هناك رد على الرسالة أو تعليق على محتواها تتم كتابته على ظهرها، ومن يخالف هذه التعليمات يفصل من وظيفته، وقد استمرت هذه العادة حتى أوائل سنوات ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢.

كان الإمام يحيى جم النشاط، يباشر عمله بعد صلاة الفجر حتى المغيب، يحب الأبهة والأناقة، لا يصرف ريالا واحدا لأى سبب إلا تحت توقيعه «عبد الله وفقه الله»، وكان يعاقب على اقتناء الراديو وهواية الرسم والتصوير، ولذلك لم تلتقط له صورة واحدة فى حياته، غير رسم بريشة على الجناتى ورسم آخر بريشة عبد الكريم الغسالى، وهو الأقرب إلى الأصل، غير رسم الأديب أمين الريحانى فى كتابه «ملوك العرب» الذى قيمه فى إعجاب ووصفه قائلا:

بتنافى أمر هذا الإمام حائرين، أبدوى هو إذا غضب، وسياسى إذا رغب، وشاعر فيما يجب، أعالم مجتهد، وحاكم مستبد، غليظ الكلمة ورقيق الشعور يجتمعان فى شخص واحد، ثم إن للريحانى عبارة شهيرة يحدد فيها المذهب الدينى للإمام يحيى «عجبت كيف اجتمعت فى شخصيته الزيدى والشافعى، لأنه كان يتخفى على اعتناقه للمذهب السنى ويبدى زيديته للعامة، ورسميا لتغلب المذهب وأتباعه على الساحة»!

ويقول الريحانى إن الإمام يحيى ابتكر طريقة مهيمنة لضمان ولاء القبائل وخضوعها لطاعته، إذ كان يحتفظ لديه فى معسكر خاص بزهاء ثلاثة آلاف رهينة من أولاد مشايخ القبائل، فإن تمرد أحدهم على سلطانه كان ابنه أو أبناؤه عرضة

للإعدام فورا، ولم يكتف بذلك وإنما مارس الطب بفروعه المختلفة، واستطاع بالخداع وترويج معاونيه لكراماته فى إقناع شعبه بأنه الطبيب الأكبر.

وقد خرجت بانطباع إثر قراءة كتاب ملوك العرب بأن أئمة بيت حميد الدين جاءوا بمعجزة عندما نجحوا فى إيقاف حركة التطور والتاريخ، خاصة أن اليمن تراجع فى عهدهم القهقرى قرونا سحيقة على غير سائر الأقطار العربية، بل إن بعض المثقفين اعتبر روايات الريحانى عن اليمن أشبه بالأساطير التى نطالعها فى روايات ألف ليلة وليلة للتسلية وإزجاء أوقات الفراغ!

على أنه فى ثلاثينيات القرن العشرين وصلت إلى اليمن أول بعثة تعليمية مصرية، ورغم الصعوبات الجمة التى واجهتها، إلا أنها نجحت إلى حد كبير فى مهمتها التعليمية والتنوير بالتقدم العلمى خارج اليمن، ولا شك أن توالى البعثات المصرية إلى اليمن لم ينقطع، وكذلك استقبال الأزهر وغيره من المعاهد والجامعات والمدارس للدارسين من أبناء اليمن، وهذا الجانب وغيره من جوانب التفاعل بين الشعبين ظلت تصب دوما فى مجرى العلاقات المشتركة، وحتى كان الدور المصرى على الصعيد السياسى والعسكرى والحضارى فى دعم الثورة اليمنية، وامتزاج دماء المصريين واليمنيين وأرواح شهدائهم، وهو ما أدى إلى تعميق وتحصين العلاقات وحمايتها من الاختراقات المعادية وتصويب مسيرتها تباعا!

١٠ - الفضيل الورتلانى

بعد ذلك يأتى السؤال عن الفضيل الورتلانى ودوره فى اليمن ؟

الموسوعة التى أعدها المستشار عبد الله العقيل الأمين المساعد لرابطة العالم الإسلامى حول تراجم عدد من أبرز الرموز الإسلامية ذات الباع العريض فى الدعوة والجهاد فى سبيل الله، تروى عن الفضيل الورتلانى الكثير من المعلومات . . تقول:

هو إبراهيم مصطفى الجزائرى المسمى الفضيل الورتلانى ولد فى ٦/ ٢/ ١٩٠٦ فى بلدة (بنى ورتلان) فى الشرق الجزائرى وينتمى إلى أسرة عريقة، فجده الشيخ الحسين الورتلانى من العلماء المعروفين، وقد حفظ الفضيل الورتلانى القرآن الكريم

وهو صغير كما درس علوم اللغة العربية والدين على علماء بلده، ثم استكمل دراسته فى مدينة «قسطنطينة» على يد العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى تأسست سنة ١٩٣١م، وقد ابتعث الورتلانى إلى فرنسا كمندوب للجمعية حيث أقام فى باريس من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨م يبث الروح الإسلامية العظيمة فى العمال والطلبة الجزائريين بفرنسا، حيث أنشأ عدة نواد لتعليم اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامى ومحاربة الرذيلة فى أوساط المسلمين المقيمين بفرنسا، واستطاع خلال عامين فقط أن يفتح الكثير من النوادى الثقافية فى باريس وضواحيها والمدن الفرنسية الأخرى حيث كانت النوادى تحتوى على قاعة للصلاة ومدرسة لتعليم الدين الإسلامى وتدريس اللغة العربية.

وعن اتصالات وجولات الورتلانى تقول الموسوعة:

كانت له اتصالات واسعة بالمسلمين المقيمين فى فرنسا من الجزائريين وغيرهم من العرب الدارسين هناك أمثال الشيخ محمد عبد الله دراز والشيخ عبد الرحمن تاج والأستاذ محمد المبارك والأستاذ عمر بهاء الدين الأميرى، وقد أثار هذا النشاط الإسلامى السلطات الفرنسية والمنظمات العنصرية الإرهابية فأخذت تضيق على المسلمين الناشطين وفى مقدمتهم الأستاذ الفضيل الورتلانى الذى قررت منظمة «اليد الحمراء» الإرهابية اغتياله، فما كان منه إلا أن غادر فرنسا إلى إيطاليا بمساعدة الأمير شكيب أرسلان الذى وفر له جواز سفر حيث توجه إلى مصر سنة ١٩٣٩م وهناك وجد المناخ المناسب للنشاط الإسلامى، فقد سبقه لزيارتها شيخه ابن باديس قبل ربع قرن والتقى علماءها أمثال الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية آنذاك والشيخ أبى الفضل الجيزاوى الذى صار فيما بعد شيخا للأزهر، وكان الإمام الشهيد حسن البنا شديد الإعجاب بالشيخ عبد الحميد بن باديس وجهاده الإسلامى حتى أنه حين أسس مجلة فكرية أسماها بـ «الشهاب» تيمنا بمجلة الشهاب الجزائرية، وقد سهلت هذه الصلة الروحية بين الحركتين الإسلاميتين الإخوان المسلمين بمصر وجمعية العلماء الجزائرية بالجزائر الطريق لاتصال الفضيل الورتلانى بالإخوان المسلمين والانضمام إليها وأصبح عضوا بارزا فيها، وقد ألقى الفضيل الورتلانى (حديث الثلاثاء) بالمركز العام للإخوان المسلمين نيابة عن المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا حين كان خارج القاهرة.

أما عن نشاطه وجهاده فقد شارك الفضيل الورتلانى وهو بمصر فى تأسيس عدة جمعيات خيرية وسياسية كاللجنة العليا للدفاع عن الجزائر وجمعية الجالية الجزائرية سنة ١٩٤٣م التى كان أمينها العام وتضم فى عضويتها الشيخ محمد الخضر حسين وحفيد الأمير عبد القادر الجزائرى والأمير عبد الكريم الخطابى المغربى.

وكان للفضيل الورتلانى دوره البارز فى تنظيم ثورة الأحرار فى اليمن سنة ١٩٤٨م مما يعرفه القاصى والدانى وبخاصة رجالات اليمن.

ثم يقول المستشار عبد الله عقيل عن الورتلانى: «ولست أدرى من أى الجوانب أبدأ الحديث عن هذا الشخص العظيم، والسياسى المحنك والبطل الشجاع والمغامر الجسور والمجاهد الصابر، الذى حار الناس فى مواهبه المتعددة وعجزوا عن مجاراته فى انطلاقه لتحقيق الأهداف التى يؤمن بها والمبادئ التى يدين لها، وهى تحرير الشعوب الإسلامية بكاملها، من ربقة الاستعمار الأجنبى أيا كان لونه وجنسه، وإحلال الإسلام كنظام شامل للحياة كلها عقيدة وعبادة وخلقا وشريعة ومنهج حياة.

ومن هنا كان بطلنا الشجاع الفضيل الورتلانى صاحب السبق فى ميادين الجهاد، والعمل لتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار.

ولئن كان الورتلانى من أبناء الجزائر فإن تحركه وجهاده لم يكن للجزائر وحدها، بل للمسلمين عامة، لأن غايته الجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

وإذا كان الفضيل الورتلانى قد نجا فى الوقت المناسب من انتقام الإمام أحمد جزاء علاقته أو دعمه لحركة الأحرار وثورة عام ١٩٤٨م، ولا كان بوسعه لذلك إنقاذ زعاماتها من جز رقابهم، أو التعذيب أو الموت كمدا ومرضا فى سجن حجة، فلا شك أن التنويه واجب بالأدوار المعروفة والمجهولة التى قام بها كذلك البطل العراقى جمال جميل وقرينه مصطفى الشكعة فى تأجيج الثورة ضد حكم أسرة حميد الدين لليمن!

والمعروف أن الورتلانى كان قد أسس شركة تجارية مقرها سوق الملح فى صنعاء، لتغطية نشاطات النضال الوطنى، وكان على رأسها المناضل على محمد

السنيدار ومجموعة من التجار المستنيرين وغيرهم من الأحرار، حيث كانوا يعقدون الاجتماعات التى تستهدف التخطيط للقيام بالثورة، وتأسيس حكم دستورى ديمقراطى برئاسة الإمام المرتقب عبد الله بن الوزير، حتى انضم إليهم تباعا عدد من العسكريين الذين شكلوا خلية ثورية برئاسة المناضل العراقى الكبير جمال جميل.

١١ - الدكتور أحمد فخرى

من المؤسف حقا أن الحكومات العربية والجامعة العربية والأحزاب والصحافة العربية خيبوا جميعا ظنون الشعب اليمنى الذى كان يطمح آنذاك فى دعمهم لمطالب ثورة الأحرار فى الحرية والانعتاق وكسر أسوار العزلة واللحاق بركب القرن العشرين، وأن يؤيدوا حكم الإمامة رغم مظالمها وتخلفها، وكان السبب الوحيد فى هذا المنطق المعكوس يكمن فى الجهل المعرفى بأوضاع اليمن الداخلية وغياب الإدراك السياسى القومى المسئول تجاه قضية الشعب اليمنى المصيرية، والادعاء بأن حكم بيت حميد مهما كانت عوراته، إلا أنه يثاب على دفاعه عن استقلال شمال اليمن، بينما يرزح جنوبه تحت وطأة الاستعمار البريطانى.

وربما كان بصيص الضوء الوحيد الذى نهض بمهمة التنوير باليمن، وأسهم فى استكمال النقص المعرفى المعيب بأوضاعه السياسية والاجتماعية والثقافية «آنذاك» كتاب المؤرخ المصرى الدكتور أحمد فخرى «اليمن ماضيها وحاضرها»، فهو قد أتيحت له فرصة زيارة اليمن وصال وجال فى ربوعه قبل اندلاع ثورة الأحرار وعاصر احتلال صنعاء واستباحة بيوتها للقبائل عام ١٩٤٨ بأوامر من الإمام أحمد حميد الدين، ثم أتيحت له زيارة اليمن للمرة الثانية والثالثة ضمن الوفد المصرى برئاسة الدكتور حسين خلاف من أجل تقديم المعونة لليمن فى إطار تطوير أوجه النشاط الحكومى خلال سفر الإمام للعلاج فى إيطاليا، ثم زار اليمن للمرة الرابعة عام ١٩٧١م وكان قد تخلص من حكم الأئمة البغيض بدعوة من السيد أحمد جابر عفيف وزير التربية والتعليم آنذاك للمساهمة فى وضع البرامج الدراسية والنهوض بالتعليم فى اليمن، حيث ألقى وقتئذ محاضرة قيمة فى

صنعاء قال فيها: «إن روح اليمن لم تمت فى يوم من الأيام، وإن خبتت شعلتها يوما، فقد كانت تعود ساطعة مضيئة يوما آخر، وإنه مهما تقلبت على اليمن الأحداث أو تعرضت لحلو الأيام ومرها، فقد ظلت دائما سليمة العنصر، وبقى شعبها حيا لأنه جدير بالحياة»، كما ذكر أنه وجه خطابا ظل مجهولا - إلى الإمام البدر عندما كان وليا للعهد، حتى ذكره القاضى عبد الرحمن الإيريانى فى ٢٣ فبراير عام ١٩٦٢م فى مقدمته لكتاب أحمد حسين شرف الدين «اليمن عبر التاريخ». قال فيه: «لم يهن تاريخ أمة من الأمم على أبنائها، كما هان تاريخ اليمن على المثقفين من أبنائه، وهذه الظاهرة المشينة تبرز بالنسبة لتاريخ اليمن القديم قبل الإسلام وبالنسبة لتاريخها بعد الإسلام».

أقول إن كتاب الدكتور أحمد فخرى أثار حين صدوره اهتمامًا كبيراً وإدراكا معرفيا جديرا باليمن وحضاراته وحاضره وتحدياته وطموحاته، وأذكر بالمناسبة أن بيته فى القاهرة ظل مقصدا لرجالات اليمن وطلابه، وملتقى الحوار بين الصفوة اليمنية والصفوة المصرية، ومن هنا ظهرت بواكير الكتابة عن اليمن فى الصحف المصرية وقد غذى ذلك الزخم السياسى والثقافى عدة عوامل.

بعدها كان وصول مجموعات من الطلبة اليمنيين للالتحاق بالمدارس الثانوية المصرية إيذانا باستكمال الدراسة فى جامعاتها، ورغم تشديد الإمام أحمد على دراستهم وإقامتهم فى مناطق نائية مثل حلوان وبنى سويف وطنطا، خشية التقائهم بالحركة الوطنية والثقافية فى القاهرة، إلا أن تلك المخاوف تحققت بالفعل، سواء علانية عبر تواصلهم الثقافى والسياسى مع أقرانهم من الطلبة أو المدرسين المصريين، وسواء سرا عبر انخراط الطلبة اليمنيين فى نشاطات الأحزاب السياسية المصرية، وترددهم على مقاهى ومنتديات المثقفين بالقاهرة!

بالتزامن كان وصول طلائع حركة الأحرار إلى مصر وعلى رأسهم القاضى محمود الزبيرى والأستاذ أحمد النعمان والأستاذ محسن العينى، حيث أتيحت أمامهم الفرصة لشرح قضية اليمن المصيرية فى منابرها الإعلامية والسياسية والثقافية، وخاصة إذاعة صوت العرب ودورها المشهود فى إثارة الوعى القومى بالمشكلة اليمنية على نحو ما سوف نعرض له فى حينه!

١٢ـ النموذج العصرى للثوار

من حسن الحظ أن الزبيرى والنعمان كانا على دراية بالأوضاع فى مصر وأسلوب التعامل مع المصريين وإقناعهم بمأساة اليمن، فكلاهما سبق لهم الدراسة بالأزهر الشريف الذى تخرج فيه عدد آخر من العلماء اليمنيين، بينهم الشهيد صالح المسمرى وعلى ناصر العدسى والفقيه الشيخ عبد الواسع الواسعى الذى أقام بمصر، ونقل عنها الكثير من علومها وإبداعاتها إلى اليمن.

أما الأستاذ محسن العينى فكان النموذج العصرى لثوار اليمن الأحرار، وهو كان قد نال قسطا من التعليم فى كلية المقاصد بمدينة صيدا اللبنانية ثم استكمل معنا دراسة الحقوق بجامعة القاهرة، ومن يومها بدأت معه رحلتى الطويلة فى سبر أغوار الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية فى اليمن، وقد نجح إلى حد كبير فى التنوير بقضية اليمن ودعمها قوميا عبر تمثيله لليمن فى اتحاد العمال العرب بالقاهرة إبان رئاسة المرحوم أسعد راجح!

على أن صدور كتابه «معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن» عام ١٩٥٧ كان بمثابة نقطة تحول فى إدراك النخب المصرية والعربية للظلم والمظالم التى نكبت بها اليمن، وقد استوقفنى من وقائعه حدثان شديدا الدلالة على عهد أئمة بيت حميد الدين وإصرارهم على أن يسود الظلام والعزلة شتى مناحى الحياة فى اليمن. . الأول: عندما عاد محسن العينى إلى اليمن فى فبراير ١٩٥٥م. . يقول: «حضرنا الاحتفال فى الحديدة بعيد النصر. . انتصار الإمام أحمد على أحرار ١٩٤٨م» وقد وقف السيد على عقبات خطيب اليمن المفوه، وصال وجال، ولعل مظهرى وزميلى محمد الرعدى، بثيابنا الغربية، ورءوسنا المكشوفة استفزته، فنسى نفسه واسترسل فى الهجوم على هؤلاء القادمين الذين يريدون أن يأكلوا «بالخاشوقة» الشوكة والسكين، الذين لا يحترمون تقاليد اليمن. . إلخ.

ولم يكن أمامى إلا أن أندفع إلى الميكروفون وأسحبه وأرد بعنف على هذيان هذه «العقبات الكأداء التى تقف فى طريق الشعب، وإننا فعلا نأكل بالخاشوقة ونرجو أن يأتى اليوم الذى يأكل فيه كل اليمنيين بالشوكة والسكين وأن يكشفوا

رءوسهم للهواء والسماء والشمس وأن يستروا بدلا من رءوسهم أقدامهم الحافية العارية فهى التى تلامس الميكروب والشوك.

وقلت فى ختام كلمتى الطويلة إن الحكومة هى التى أرسلت البعثة للدراسة فى الخارج وإن الإمام يحاول تشجيع التعليم والتحديث ولكن العقبات.. وهذه العقليات، هى التى تحاول وقف التطور ودخول اليمن العصر الحديث!

وقد اختل النظام وتدافع الناس وانتهى الحفل وكان نائب الإمام فى الحديدة هو السيد محمد أحمد باشا رحمه الله وأكرم مثواه، فقد منع تسرب أى خبر عن الحفل وما جرى فيه، وحاول حصر الموضوع وتطويقه حماية لنا، ولكن فى المساء وصلت برقية من الإمام لابنه البدر «هل بلغتك خطبة العينى..؟ وكان جواب البدر بلغتنى.. وجلها ثناء عليكم..».

وصدرت الأوامر بترحيلنا فوراً إلى القاهرة.

كذلك استوقفنى فى كتاب محسن العينى تفسيره لأسباب الغياب المعرفى العربى بأوضاع اليمن، وعجزهم عن دعم ثورة الأحرار اليمنيين عام ١٩٤٨، يقول "منذ مطلع القرن العشرين نشأت فى البلاد العربية خرافة رائعة تفيض بسلسلة من الأخطاء والنظريات الساذجة، مفادها تعليل كل النكبات فى اليمن، وكل الجهل والإفقار، وكل استباحته للأرواح والإرهاب، وكل عمليات الإبادة لعرب اليمن بأنها محافظة على استقلاله، وخوفا عليه من المستعمرين الطامعين، وكأن الأمة العربية كلها قد أجمعت على إباحة الشعب العربى فى اليمن لفرد واحد، ولعائلة واحدة تنكل به وتطحنه طحنا، وتلغيه من دنيا العروبة، بحجة أن اليمن دولة عربية مستقلة، ويعجب اليمنيون ويتألمون ويستغيثون من العذاب الذى يعانونه، ويستنجدون شهامة الأمة العربية، فلا يجدون إلا الرد التقليدى الذى سمعوه منذ أربعين عاما، اليمن مستقل وحكامه خائفون على استقلاله، فلنمسك إذن على هذا الجزء من الوطن العربى لأنه مستقل، ولنصم أسماعنا عن كل نداء هذه الملايين العربية الذى تعيش فيه، ثم يقول الأستاذ محسن العينى: «إن الحالة السيئة فى اليمن أصبحت الدعامة الأولى للاستعمار فى جنوب الجزيرة العربية، بل فى الخليج العربى، فالإنجليز كانوا يشعرون فى هذه المنطقة بأن اليمن بات أشبه بالمناطق

المحرمة المنزوعة السلاح، والإنجليز بذلك يستفيدون من هذا الوضع، ويطمئنون على نفوذهم، ويمارسون فى هذه المناطق استعمارا فذا لا يحتاجون فى حراسته إلى جيوش وأساطيل، لأنهم يعتمدون على وجود الحكم الإمامى الرجعى المدمر، الذى يجعل بعضًا من الشعب المستقل يلوذون إلى المناطق المحتلة، بل إن الأمر الأدهى من ذلك وأمر، أن قبائل المحميات الحرة الأبية والشباب الحر، كل هؤلاء كانوا يحسون بروح القومية والتحرر تجرى فى عروقهم، ويودون أن يساهموا بالنصيب الأوفر فى معركة الحرية، لكنهم لا يجدون سندا عربيا إلى جوارهم، بل يجدون نكبة خرساء حلت بشعب اليمن وتجعل الإنجليز يباهون بالحكم الاستعمارى، ويفخرون به عند المقارنة بينه وبين الحكم الإمامى فى اليمن المستقل، مما يفت فى عزائم المناضلين الأحرار، وبدلا من أن يصبح الحكم الاستعمارى مهربا للجنود اليمنيين والعمال والفلاحين والتجار، وبدلا من أن يخاف الاستعمار من انضمام المناطق المحتلة إلى المناطق المستقلة، أصبحنا نخاف نحن اليمنيين المستقلين من أن ينهار الجزء المستقل فيلاقى مصير القطاع المحتل»!

تلك كانت معادلة التحالف الضمنية غير المعلنة بين الإمامة فى صنعاء والإنجليز فى عدن فى ظل الغياب المعرفى العربى وما أدى إليه من إجهاض ثورة ١٩٤٨، وغيرها من الانتفاضات اليمنية، حتى قدر الله سبحانه وتعالى الخلاص والانعتاق للشعب اليمنى فى الشمال والجنوب إثر اندلاع ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بزعامة جمال عبد الناصر، حين قطع على نفسه عهدا بمساندة مصر ودعمها لخيار الثورة والتغيير فى اليمن.

ولا يفوتنى قبل أن أنهى تلك الفزلكة التاريخية كمدخل لشهادتى على ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، ولوجنا المبكر إلى قضايا اليمن عبر الندوة التى كان يعقدها القاضى الزبيرى فى منزله بالدقى، وأحيانا فى مقهى أنديانا بالدقى أيضا، حيث تعرفنا على عدد من رموز حركة الأحرار وأبناء الجنوب اليمنى المحتل الذين يقيمون فى مصر، وكانوا من الطلبة والتجار وعائلات بازرعة وباجنيد وباخشوان الذين تمتد أصولهم إلى حضر موت، وأذكر من بين الأصدقاء المصريين الذين كانوا يترددون على مجالس الزبيرى الأديبين وحيد النقاش وغالب هلسا الأردنى وأستاذ التاريخ الدكتور سيد مصطفى سالم، وبينما كنا نشعر بأن الزبيرى ومحسن العينى كانا مع

ضرورات الثورة، كان الأستاذ أحمد النعمان وولده الأستاذ محمد النعمان يراهنان على الإصلاح السلمى لأوضاع اليمن عبر ولى العهد الأمير البدر إذ كان الأستاذ النعمان معلما له!

١٣ـ مجلة الصداقة القاهرية

ولعله من هذه العلاقة المبكرة مع رموز الأحرار فى القاهرة، كان توجه الصديق سيد مصطفى سالم إلى التفرغ لنيل درجة الدكتوراه حول «حركة الأحرار اليمنيين»، وهو قد أرخ لهذه الفترة وتلك العلاقة التى امتلأت بالشجون والحركة والاندفاع عبر ما جمعه من معلومات نادرة عنها، حيث عثر فى دار الكتب المصرية على نسخ من مجلة «الصداقة» التى كانت تصدر من القاهرة بناء على توجيه الأستاذ أحمد محمد النعمان والقاضى محمد محمود الزبيرى. . يقول:

شدنى فيها من أخبار ومقالات عن أوضاع اليمن الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مما دفعنى إلى أن أنقل الكثير منها إلى أوراقى الخاصة، فقد صدرت المجلة فى أواخر عام ١٩٣٩م وبالتحديد فى الرابع من أكتوبر من هذا العام وليس فى عام ١٩٤٠م كما ذهب البعض ولم تكن دورية كما كنت أعتقد. . فقد ظهرت أعدادها غير منتظمة وإن كانت قد انتظمت فى سنواتها.

وكانت كما يدل اسمها ذات ميول عربية لما كانت تحشده على صفحاتها من أخبار العالم العربى بما فى ذلك اليمن. وقد بدأت فى أعدادها الأولى تتابع الأخبار اليمنية الرسمية مثل سفر سيوف الإسلام إلى مصر وإنجلترا، بل وظهر بها بعض المقالات التى تشيد بالحكم الإمامى وبأعمال الإمام وأبنائه فى داخل البلاد وخارجها والتى يتضح منها أنها دعاية إعلامية أو مدفوعة الأجر كما يقال الآن فى عالم الصحافة. . وقد لفت هذا نظر الأحرار فى القاهرة فبدأوا يتقربون إلى صاحبها الأستاذ عبد الغنى الرافعى الذى بدأ بدوره يتأثر بأحاديثهم عن القضية اليمنية فسخرها لهم كما سنرى، بل وكتب المقالات التى جمعها بعد ذلك فى الكتيب الذى نشر فيما بعد بعنوان «اليمن ظاهرها وباطنها» ويبدو أن هذا التقرب وهذا التعرف قد تم أثناء الحفلة التى أقامها هؤلاء الأحرار فى القناطر الخيرية بمناسبة عودة

الأستاذ الزبيرى إلى اليمن والذى نشر خبرها فى العدد السابع الصادر فى ١٢/ ٧/ ١٩٤١م.

غير أن المجلة لم تغير سياستها من قضية اليمن بعد ذلك مباشرة بل ظلت بعض الوقت على موقفها السابق تنشر ما يصلها من أخبار رسمية مثل علاقة اليمن بإنجلترا أو دخولها إلى الجامعة العربية ووصول مندوبها إلى القاهرة للمشاركة فى جلستها التحضيرية وغير ذلك. وربما نرجع ابتعاد هذه المجلة عن سياستها الرسمية تجاه اليمن وتحولها إلى جانب المعارضة اليمنية إلى أوائل عام ١٩٤٥م، فقد تجرأت فى عددها الصادر فى ٣١ يناير من هذه السنة على نشر «منهج جمعية الشباب اليمنى فى القاهرة» والتى كانت قد تألفت فى ٨ نوفمبر ١٩٤٤م كما جاء فى مادتها الأولى والتى كانت أول تجمع شبابى من اليمنيين يعلن عن نفسه ويتخذ القاهرة مقراً له. ولقد كان منهج (برنامج) هذه الجمعية بسيطا بقدر ما تسمح به ظروف أعضائه فى تلك الفترة، فلم ينص إلا على تقوية الروابط بين اليمنيين فى خارج البلاد وفى داخلها وتعريف اليمن للأقطار العربية بل والاتصال بالحكومة حينذاك «للتعاون على إنهاض اليمن وإسعاد أبنائه» غير أن ما يلفت النظر بالنسبة للبرنامج فى هذا الوقت المبكر هو التفكير الوحدوى بين هؤلاء الشباب فقد نصت المادة الثانية مباشرة من البرنامج على أن «المراد باليمن هو اليمن الطبيعى ولا فرق بين مختلف أبنائه» وبنشر منهج هذه الجمعية نستطيع أن نقول إن الأحرار اليمنيين قد سيطروا على المجلة وجندوها لخدمة قضيتهم، فبعد ظهور هذا البرنامج على صفحاتها بشهر واحد نشرت المجلة برقية حزب الأحرار اليمنى الذى كان قد تأسس حينذاك فى عدن إلى أمراء الحج العرب وكبار مسلمى الهند أثناء موسم الحج ونصها «نهنئكم بالحج ونناشدكم الله العطف على الأمة اليمنية المعذبة التى تعانى من اضطهاد حكومتها ما لا يعانيه أى شعب آخر ونتوسل بكم إلى جلالة الإمام لتخفيف العذاب عنها وتحقيق مطالبها ومحاكمة المعتقلين ظلما وإطلاق سراحهم، اليمن ذاهبة إلى الهلاك إذا لم تنقذوها».

ثم يتابع الدكتور سيد مصطفى سالم شهادته على مجلة الصداقة القاهرية.. يقول:

كان عام ١٩٤٦م (١٣٦٥هـ) هو عام المجاعة المعروفة فى اليمن والتى ما زال يتذكر أحداثها بعض الإخوة اليمنيين ويتداولون بعض أحداثها، لذلك قام الأحرار فى القاهرة بحملة كبيرة على صفحات «الصداقة» لرسم صور هذه المجاعة وتفسير أسبابها وأنها ليست لقلة محصول البلاد بل لسوء سياسة الحكومة وفساد كبار المسئولين فيها وإتجارهم بقوت الشعب سعيا وراء الأرباح الكبيرة السريعة، فقد قيل فى باب أخبار اليمن السعيدة، كان من المنتظر أن تتحسن أسعار الحبوب فى اليمن لجودة الموسم ولكن اشتغال بعض المسئولين بالتجارة واحتكارهم للحاصلات بعد الحصاد قد خيب الظنون».

والحقيقة أن مؤتمر الباحثين اليمنيين فى الجامعات المصرية الذى اختتم أعماله أواخر شهر مايو ٢٠٠٦ كان يمثل خطوة هامة وجادة عبر العناية بالبحوث العلمية المتعلقة بالتاريخ والأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية فى اليمن، ويعتبر الباحث اليمنى عبدالجليل محمد كامل صاحب الفكرة حيث عقد المؤتمر الأول عام ٢٠٠٥ بنجاح لم يكن متوقعا، وعبر جلسات المؤتمر الثانى الذى ترأسه السفير اليمنى عبد الولى الشميرى والدكتور أحمد يوسف أحمد عميد معهد البحوث والدراسات العربية.. جرت مناقشة العديد من البحوث القيمة، بينها دراسة قدمتها الباحثة جميلة هادى الرجوى حول العلاقات المصرية اليمنية فى عهد محمد على باشا، وبحث مهدى محمد الحرازى «تراجم علماء اليمن بين الواقع والطموح، فيما قدم الباحث نبيل محمد الشرجبى دراسة عن الدبلوماسية اليمنية فى مواجهة الأزمات و.. غير ذلك من عشرات البحوث المتميزة فى المجالات القانونية والإعلامية والاقتصادية والعلوم التطبيقية!

١٤- «على فانلة» ومشية الإوز

ولأن ثوار ٢٦ سبتمبر كانوا من ضباط الجيش اليمنى على عكس المدنيين من ثوار ١٩٤٨ المؤسسين لحركة الأحرار ومعظمهم من المرجعيات الدينية والفكرية والتجار ومشايخ القبائل ونفر من الضباط والجنود، من هنا تبدو الضرورة فى إلقاء نظرة شاملة وفاحصة على أوضاع الجيش اليمنى منذ تأسيسه فى عهد الإمام يحيى، وما شهده من تطورات!

والحقيقة أنه لم يكن جيشا نظاميا بالمعنى الحديث، فلما ورث ابنه الإمام أحمد الحكم كانت عنايته أن يظل الجيش موغلا فى التخلف من حيث السلاح والمعدات والتدريب، أما عدد أفراد الجيش فلم يكن يهمه أن يزيد أو ينقص، إذ إن مهمته لم تكن فى الدفاع عن الوطن فى الحقيقة، وإنما قهر القبائل وكسر شوكتهم وإلقاء الرعب فى نفوسهم، بالتزامن مع إيواء الرهائن من أولادهم، وجلب الأموال إلى صندوق البدل النقدى من العاجزين وأصحاب العاهات مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية، إضافة إلى جمع الضرائب وتنفيذ الأحكام وعقاب كل من تسول له نفسه مجرد النية فى التمرد على سلطة الإمام، عبر إقامة الجنود فى ضيافتهم غصبا آكلين شاربين حتى تنقضى مدة العقوبة!

وقد ورث الإمام أحمد ما يسمى «الجيش المظفر» عن والده الإمام يحيى، وكان الغرض من إنشائه سد النقص الذى تخلف عن انشغال الجيش النظامى بإخماد تمرد القبائل على حكمه ما بين عامى ١٩١٩ و١٩٢٣، فكان أشبه بالميليشيات، بينما كان توزيع الرتب والوظائف العليا بين أبناء المشايخ والموسرين عبر الرشوة، بل وكانوا يؤجرون أولاد الفقراء حتى ينوبوا عنهم فى طوابير التدريب العسكرى.

ومن الطريف أن اليمنيين كانوا يطلقون على الجندى الذى يلتحق بجيش الدفاع «على فانلة» وذلك أنه عندما كسدت تجارة الفانيلات التى كانت تنتجها المدرسة الصناعية آنذاك، تقرر بيعها لأفراد جيش الدفاع، وقد جاء هذا التعبير بالنظر لرداءة صناعتها، فكان الجندى يصارع الفانلة حتى يرتديها، ثم كانت حيرته بالغة عندما يحاول إدخال يده فى الفانلة حتى يحك جسمه من لسعات البراغيث!

فى بداية الحرب العالمية الثانية كان الإنجليز قد احتلوا «شبوه» ووجدها الإمام يحيى فرصة سانحة لغزو بعض المحميات، فأرسل خمسة آلاف من جيش الدفاع إلى تعز استعدادا لمواجهة الإنجليز، لكن قيامهم بالتدريبات العسكرية والاستعراضات الأسبوعية مع الجوع والمرض أدى إلى وفاة معظمهم ودفنهم فى مقبرة خارج أسوار تعز!

والغريب فى الأمر أن الإمام يحيى لم يكن هدفه تعزيز قوة اليمن العسكرية عندما أنشأ ما يسمى «الجيش البرانى» ولكن لأنه كان لا يثق فى جيش الدفاع،

ولذلك حاول أن يقزم دوره حتى لا تتعاظم قوته ويتغلب عليه فى النهاية، وكان هذا الجيش يتكون من أفراد القبائل الذين لا يرغبون فى الخدمة المستمرة بالجيش، وينفرون من قوانينه وتعليماته وتدريباته اللهم عند الاستعانة بهم فى القيام بعمليات التنفيذ والمأمورية والخطاط التى كانت تعود عليهم بالمغانم.

ويصف الرحالة نيبور شجاعة الجندى اليمنى فى المعارك، فحين يرغب فى إظهار ولائه للإمام أو لقبيلته يربط ساقه إلى ركبته ويستمر فى إطلاق النار على أعدائه إلى أن يفنيهم أو يفنوه، ثم يضيف نيبور قائلا: «حسبت هذا الكلام خرافة عندما سمعت عن هذه الظاهرة فى أول الأمر، ولكنى صدقتها عندما شاهدت حادثة مماثلة بنفسى فى كهف أحد شيوخ قبيلة حاشد وبكيل حين كانت وقتئذ فى خدمة الإمام.. فقد تصرف بهذه الطريقة طيلة معركة ناشبة بينه وبين آخرين من أبناء قومه، إذ كان ستة من عبيده يقومون بشحن بندقياته الست ويقدمونها له تباعا حتى يقوم بإطلاقها على أعدائه بنفسه، وبقى على تلك الحالة حتى تركه جنود الإمام وانفض عنه عبيده.. وبقى يحارب وحده حتى قطعه الرصاص إربا إربا»!

١٥ - جورجى النمساوى

ويروى أمين الريحانى فى أعقاب زيارته لليمن عام ١٩٢٣ ملاحظاته الذكية حول جيش الإمام يحيى وكان فى دور التكوين.. يقول: أما السلاح فعند الإمام من البنادق أنواعها.. وقيل إن عددها ٤٠ ألف بندقية، ولكن منها ما هو غير صالح كالبندقية الإيطالية القديمة، وعنده كذلك ٢٠٠ من المدافع المتنوعة والرشاشة الجبلية، وقد رأيت يوم العرض فرقة كاملة تامة بعدتها وأجزائها، بمشاتها ومدفعيتها، وكان بعض الترك يركبون البغال وقد علموا ابن اليمن أن يخطو خطوة الجندى الألمانى الرسمية المعروفة بمشية «الإوز»، فى حين أن الفرسان يلعبون بالسيف والرمح وخيلهم ترقص على نغمات الموسيقى، وبعض مدافع الإمام مجلوب وبعضها مغنوم وبعضها مشترى من رجال «عسير»، وهناك معمل «الفشك» أى الخرطوش أو الطلقات فى قصر «غمدان» يديره جورجى النمساوى

الجنسية، وكان يشتغل بصفة متواصلة وينتج أربعة صناديق فى اليوم، فى الصندوق الواحد ألف فشكة ويستجلبون الرصاص من الخارج ويستعملون ملح البارود المحلى!

١٦ـ حرب الغبار

من المعروف أن الإمام يحيى كان البادئ باستقدام الخبراء والمدربين العسكريين من الخارج، إلى جانب عدد من اليمنيين الذين أتيح لهم التدريب العسكرى فى تركيا إبان الاحتلال العثمانى، إلا أن شراسة السيد على بن إبراهيم الملقب «الذئب الأسود» الذى عينه الإمام يحيى معاونا لأمير الجيش الشريف عبد الله الضميم، أدى إلى تراجع نتائج جهود التدريب والتنظيم، وأثار غضب المدربين الأتراك وعلى رأسهم كنعان بك، لكن رد الفعل من جانب الإمام يحيى كان على غير المتوقع حين كلف الذئب الأسود بإمارة الجيش. وهو نفس مصير تحسين باشا الفقير السورى الجنسية وكان قد خدم فى الجيش التركى عندما كانت سوريا تابعة للآستانة، فكانت قلة خبرته وسوء إدارته ومعاملاته الفظة فضلا عن نفاقه لحاشية الإمام سببا مباشرا فى تدهور أوضاع الجيش، مما أدى إلى طرده ونفيه إلى تركيا، وقد أدى سوء قيادته إلى الشقاق والعداء بين جيش الدفاع والجيش البرانى إلى حد الاقتتال أحيانا، وهو مخترع أسلوب «حرب الغبار»، حيث كان الجنود ينثرون التراب فى العراء مع التكبير والتهليل والكر والفر وإطلاق الأصوات المفزعة بقصد الاحتجاب عن أنظار العدو، وقد سر الإمام لعرض «حرب الغبار» فى إحدى الاحتفاليات حيث أنعم على تحسين باشا برتبة عسكرية عالية مع مضاعفة مرتبه!

لكن الإمام عاد يستعطف الحكومة التركية ويبرر طرده كنعان قائلا: «باسم الدين والروابط الوثيقة، نترجاكم إرسال ضابط متزن عاقل ليقوم بما كان يقوم به كنعان».. لكن بعد فترة عاد تحسين باشا الفقير إلى منصبه مجدداً!

ورغم كل سلبيات وجور وتخلف الإمام يحيى، إلا أنه كان وطنيا جسورا لا يتوانى فى الدفاع عن التراب اليمنى، وهو قد حاول رغم الإمكانات المتواضعة أن يشكل قوة دفاعية أو قوة ردع عسكرى لأعداء اليمن، ولهذا السبب عقد اتفاقية مع

الحكومة الإيطالية لتدريب عشرة من الشباب اليمنى على فنون الطيران الحربى الذى استغرق عامين . . وعادوا إلى اليمن لتقديم استعراض جوى على طائرتين من ألمانيا . . وكان فى طليعتهم أحمد الكبسى وأحمد السراجى ، ولكن يشاء القدر أن تنفجر إحدى الطائرتين بمن فيها على مرأى من الإمام وحاشيته وثار الأهالى هلعا وطالبوا بمنع الطيارين والطائرات من الإقلاع ، وبعدها ألغى الإمام مشروع إنشاء كلية للطيران وظلت الطائرة الألمانية الأخرى رابضة على الأرض حتى أكلها الصدأ ، فى الوقت الذى وزع الطيارين على إدارة البريد وغيرها من المصالح الحكومية ، فيما تعرض الطيار أحمد العلفى للجنون ، إذ ظل يتحدث مع الناس عن مشاهداته للتقدم الذى أحرزته إيطاليا وأوربا . . فكان جزاؤه أن يتحول إلى فرجة للإمام عندما زج به فى أحد أقبيته السرية وأطلق عليه الثعابين غير السامة بقصد المداعبة ، وخرج من القبو يهذى متسكعا فى شوارع صنعاء الضيقة !

١٧ ـ البعثة العسكرية العراقية

فى عام ١٩٣١ وقّع الإمام أول اتفاقية مع دولة عربية هى العراق ، وبموجبها أرسل بعثة من الشباب اليمنى للتدريب العسكرى فى بغداد وكانوا من الطبقة الاجتماعية التى كان الإمام يعتقد افتقارها للوزن القبلى والسياسى ومن غير المؤهلين لمنصب الإمامة ، وكان من بينهم أحمد الثلايا ومحمد العلفى وحسن العمرى وعبد الله السلال وحمود الجائفى وأحمد حسين المرونى ، ومحمد عامر ومحمد إسحاق ، وأحمد الآنسى ومحمد الريدى وأحمد طاهر ومحمد حجر . . ومعظمهم استشهد فى الثورات والانتفاضات التى قامت ضد الحكم الإمامى .

بعدها كان وصول البعثة العراقية عام ١٩٤٠ ، إثر المخاوف التى استبدت بالإمام يحيى من ابتلاع إيطاليا لليمن ، وكان قد تشكك فى نواياها عندما قدمت له هدية ثمينة بدون مقابل ، اشتملت على مدرعتين وأربعة مدافع مضادة للطائرات وأجهزة اتصالات .

كانت البعثة العراقية برئاسة العقيد إسماعيل صفوت مكونة من أربعة ضباط

هم الرئيس جمال جميل «مدفعية» والرئيس محمد حسن «مخابرة» والرئيس عبد القادر الفاطمى «الجيش الدفاعى» والملازم أول سيف الدين «مشاة» إضافة إلى أحد عشر من ضباط الصف!

ولأنهم راحوا يبشرون بالتقدم العلمى والاختراعات ونظم الحكم الحديثة، من هنا راحت شكوك الإمام وولى عهده أحمد حميد الدين فى ولائهم، خاصة وبعضهم انخرط بالفعل وسط التجمعات الفكرية والبؤر الثورية الطامحة لتغيير نظام الحكم أو ترويضه وتحديثه على الأقل.

من طرائف ما يروى عن البعثة العسكرية العراقية، أنها حملت معها من بغداد العديد من معدات وأسلحة التدريب الحديثة، وكمًا هائلاً من الملابس العسكرية، لكن الجنود اليمنيين رفضوا ارتداء الشورت العسكرى القصير بدعوى مخالفته للشرع، فيما سرت إشاعة مغرضة حول التدريبات العسكرية، من أنها تفضى إلى إنهاك قوة الجندى وتجعله عبدا ذليلا مطيعا للأوامر. . وهو ما أدى إلى اندلاع التمرد فى الجيش الدفاعى والجيش المظفر، بل وكانت النهاية صدور الأمر بنقل فوج التدريب اليمنى إلى تعز. . وهناك استطاع ولى العهد الأمير أحمد حميد الدين فى بث الفرقة والشقاق بين أفراد الجيشين نهاية بتوزيع خريجى الفوج لجمع العشور والضرائب من الأهالى بعدما شاع التندر والسخرية من التعليم العسكرى الجديد، إلى حد السماح بتقليد حركات التمارين فى الشوارع!

ولاشك أن الوعى الثورى تسرب إلى اليمن بشكل عام وإلى الجيش بالتحديد عبر الضباط اليمنيين الذين تدربوا فى العراق، وغيرهم من الذين كانوا ضمن أفواج المتدربين على يد ضباط البعثات العسكرية العراقية فى اليمن، وحين كان عليهم العودة إلى بغداد، تشبث الرئيس جمال جميل بالبقاء فى اليمن، وهو كان ضمن المشاركين القياديين فى ثورة ١٩٤٨، ولم يثبت أنه قام بقتل سيفى الإسلام المحسن والحسين ولكن جنودهم الذين أطلقوا النار على الأميرين عندما حاولا القبض على الرئيس جمال جميل، وعندما انتصرت الثورة شغل منصب قائد عام الجيش اليمنى ومديرا للأمن العام، فلما انتكست كانت رأسه من أوائل رءوس الثوار التى قطعها سيف الجلاد أحمد بن حميد الدين!

على أن من كتب له النجاة من الإعدام بسيف «الوشاح» سياف الإمام، مات فى السجون الرهيبة تحت الأرض من جراء التعذيب والمرض والجوع والإذلال، ويذكر أن نحو ٨٠٠ من مشايخ قبيلة الزرانيق ماتوا تباعا من وطأة انتشار الجراثيم والمكروبات فى سجن نافع، إذ كانت المراحيض تصب ليل نهار إلى داخل الأقبية والدهاليز ومضاجع الثوار!

١٨ـ هل تدخلت مصر فى اليمن؟

لعل من أبرز إشكاليات الكتابة عن ثورة اليمن ذلك الخلط المعيب بين مفهوم الضرورات التى حتمت اندلاعها، وبين تداعيات الدور المصرى عندما بادر إلى مساندتها، بل وساد اعتقاد خاطئ لدى البعض من الكتاب وعامة الناس كما لو أن الثورة اليمنية مجرد محصلة لسياسة وتدبير وإعداد من جانب مصر، ولاشك أن هذا الالتباس لم يكن جهلا بالحقائق فحسب، وإنما ينم كذلك عن محاولة مشبوهة للطعن المزدوج، سواء فى مصداقية الموقف القومى لثورة ٢٣ يوليو فى دعمها للثورة اليمنية، وسواء فى ضعف البنية الأساسية للثورة اليمنية وافتقارها إلى المؤهلات الذاتية التى تحتم اندلاعها!

ولاشك أن المتابع لتاريخ اليمن الحديث، سوف يلاحظ أن النظام الإمامى، سواء عبر الوعى بتوازنات القوى فى المنطقة، أو بطبيعة الأمور، قد استفاد إلى حد كبير من العنصر الخارجى فى الحفاظ على نفوذه الداخلى والإمساك بتلابيب السلطة والوقاية من مخاطر الثورات والانتفاضات الشعبية!

من هنا كان من الطبيعى أن يرنو الذين عقدوا العزم على تفجير ثورة ٢٦ سبتمبر، إلى ثورة ٢٣ يوليو المصرية وزعيمها جمال عبد الناصر الذى أخذ على عاتقه دعم ومساندة حركات التحرر، لأن تصدى الثورة اليمنية بإمكاناتها الذاتية فى مواجهة قوى الثورة المضادة تعنى مثالية مضللة وقاتلة، بينما قوى الثورة المضادة لديها من الدعم الداخلى والخارجى ما يمكنها من الصمود وإجهاض الثورات والانتفاضات.

إذن فالدور المصرى لم يكن ينطوى على شبه إكراه، كما لم يكن يعنى تدخلا فى

شئون اليمن على غير إرادة شعبه، بينما كان التدخل المعادى لإجهاض الثورة على غير إرادة اليمنيين من وراء الحدود، بمعنى أن الدور المصرى كان ضرورة قومية أملتها الظروف الموضوعية والإقليمية التى أحاطت بثورة أصيلة نهضت بإرادة جماهيرية حرة، وترتكز على قوى اجتماعية وفكرية وعقيدة راسخة طامحة للتغيير ومواكبة العصر، وهو ما مكنها بعد من الإطاحة بسلطة الإمامة من أن تخطو خطوتها الأولى فى ظروف طبيعية، نحو إعلان الجمهورية وبناء الدولة من الصفر، وتحديث قواتها المسلحة والشروع إلى فرض هيبة ونفوذ السلطة المركزية وتعزيز الولاء للوطن!

ثم إن القوات المصرية عندما غادرت اليمن بعد خمس سنوات من أدائها لدورها القومى الجسور، كانت الثورة اليمنية آنذاك قادرة بقواها الذاتية وحدها فى التصدى للاجتياح العسكرى الإمامى المدعوم بالقبائل الملكية وبأحدث الأسلحة وإغراءات الذهب الرنان وبالمرتزقة الأجانب تحت قيادة الضابط الأمريكى المغامر المدعو «كومر»، ومع ذلك اجتازت الثورة اليمنية بنجاح امتحان التاريخ الصعب لمصداقيتها السياسية والشعبية على مدى سبعين يوما من الحصار الذى طوق العاصمة صنعاء، وأكدت بطلان الزعم بأنها مجرد نمر من ورق ولاهية الحائط المائل التى تعتمد فى قوتها واستمراريتها على المساندة الخارجية!

١٩ ـ مأزق الاحتلال العثمانى

ولعلنا من هنا نشيد بعطاء الكتاب والباحثين العرب والأجانب الذين توافدوا على سبر أغوار «الدور المصرى فى اليمن» وفى طليعتهم الدكتور أحمد يوسف رئيس معهد الدراسات العربية، فهو الذى اختار ذلك الدور موضوعا لرسالة الدكتوراه من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة عام ١٩٧٨، وبعدها كان أستاذا ورئيسا لقسم العلوم السياسية فى كلية التجارة والاقتصاد بجامعة صنعاء أواخر الثمانينيات.

ومن الأجانب تجدر الإشادة، مع تحفظ كتاب «الحرب فى اليمن ـ دراسة فى الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠» لمؤلفه البريطانى إدجار أوبلانس، حيث تابع

مسيرة الثورة ميدانا، وكذا الدور المصرى إزاء دعمها سياسيا وعسكريا ابتداء من صفحة ١٣٠، ثم لأن الشيء بالشيء يذكر، من هنا وجبت الإشادة كذلك بالدكتور سيد مصطفى سالم الذى نذر جهده العلمى على صعيد الإسهام فى تحقيق وتوثيق بعض من مراحل التاريخ اليمنى وتنقيته من عوامل التشويه وغبار النسيان، فاستحق عن جدارة الإنعام عليه بالجنسية اليمنية مع احتفاظه بالجنسية المصرية، فلما طاب له المقام فى صنعاء تزوج بيمنية!

أتذكر مما قرأته للدكتور سيد مصطفى كتابه القيم «الفتح العثمانى الأول لليمن» حيث يشير إلى مرتكز هام فى تاريخ الوطنية اليمنية التى تأبى الضيم والاحتلال وشراسة نضالها من أجل الحرية والانعتاق، مما جعل الأتراك يعترفون عبر مقولتهم الشهيرة: «ما رأينا مهلكة مثل اليمن لعساكرنا، كلما جهزنا عسكراً ذاب ذوبان الملح ولا يعود منهم إلا الفرد النادر» صفحة ١٩٤، صفحة ١٩٥.

ومما لاشك فيه أن هذه المقولة التاريخية كانت موضع الدراسة المتعمقة من قبل الإنجليز، وهو ما أدى بهم إلى التمترس فى عدن وحصر احتلالها على المساحة المحيطة بها فحسب، وعدم المغامرة فى التغلغل إلى داخل اليمن خشية مصير العثمانيين الذى ينتظرهم حتما!

من هنا كان النقد الموضوعى الذى نال الدور المصرى فى اليمن عندما تجاوز تجربة العثمانيين مع اختلاف المقاصد والمصالح، فلا كان لدى القيادة العامة للقوات المصرية دراسة تاريخية قديمة أو حديثة عن اليمن، ولا دراسة علمية لأبعاد ومكونات الشخصية اليمنية، أو دراسة ميدانية للظاهرة القبلية ومعالم القوة والضعف وكذا العادات والتقاليد لكل قبيلة كبيرة، خاصة فى إطار العزلة التى فرضها الأئمة على اليمن، بل وعلى كل قبيلة على حدة، إضافة للتداعيات السلبية التى تخلفت عن حروب «الخطاط» بين القبائل المسلحة التى لم تكن لها حرفة أو مصدر للكسب سوى الحرب.. نهاية بعدم توافر الخرائط الحديثة التفصيلية للمواقع والطرق والمدقات الفرعية فى اليمن!

هكذا لعبت تلك العوامل مجتمعة دورها فى تصعيب مهام الدور المصرى على أكثر من صعيد، على نحو ما سوف يأتى تناوله تفصيلا فى حينه، لكن علينا أن نبدأ

أولا بمرحلة اختمار قرار جمال عبد الناصر بدعم الثورة اليمنية، وهل كان من حيث التوقيت قبل أم بعد اندلاعها فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢!

٢٠ ـ حرب الخطاط وحرب فلسطين

لعله من الأوليات المعرفية الإحاطة بالمناخ السياسى والاجتماعى الذى ساد اليمن قبل الثورة وأسهم فى ضرورات اندلاعها رغم ستائر الصمت والتعتيم الذى ران على اليمن واستمر قرونا من حكم الأئمة، فلم يسمع العالم ولا قرأ شيئا عن «حروب الخطاط» التى كانت تنشب بين القبائل تباعا عبر تحريض الأئمة بعضها ضد الآخر وفقا لمعادلة «فرق تسد»، ولا عن المجاعات والأوبئة والأمراض التى فتكت بالملايين وكادت تؤدى إلى انقراض الشعب اليمنى، حيث تناقص تعداده من سبعة ملايين إلى خمسة ملايين مواطن، إضافة إلى مظاهر الجهل والتخلف المستفحلة، بينما كان لفرض أئمة بيت حميد الدين العزلة المستحكمة حول اليمن عاملا مضافا ساهم فى جهل العالم بالأوضاع الداخلية فى اليمن . . وجهل اليمنيين فى المقابل بما كان يجرى من تطورات متلاحقة فى العالم الخارجى على كل صعيد، حتى إن اليمنيين فى المناطق الشمالية النائية المعزولة لم يسمعوا عن اندلاع الحربين العالميتين الأولى أو الثانية، ولم يكونوا يعرفون شيئا عن العالمين الإسلامى والعربى اللهم سوى مكة والقدس فحسب، وعندما كانت تظهر فى الأسواق سلعة جديدة كان اليمنيون يقولون «انشق البحر» . . أى إنها جاءت من المجهول!

ومما لا شك فيه أن مصر شغلت لأول مرة عما يجرى فى اليمن لأسباب قهرية، بينها اندلاع ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول والكفاح ضد الاستعمار البريطانى لوادى النيل، ثم اندلاع الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ وخوض الجيش المصرى معاركها، وهو ما يفسر غياب الدور المصرى عن التجاوب مع ثورة الأحرار اليمنيين عام ١٩٤٨ فى حينها، واقتصرت فحسب على المبادرات الدبلوماسية والشعبية للتخفيف من غلواء الإمام أحمد بن حميد الدين حين شرع إلى جز رقاب زعامتها فى ميدان العرضى تباعا على مدى يزيد على أسبوعين انتقاما لمقتل والده الإمام يحيى، وسجن غيرهم من الأحرار فى سجن حجة الرهيب، بالتزامن مع حض القبائل على استباحة صنعاء قتلا وتخريبا وهتكا للأعراض على مدى أسبوع كامل،

فضلا عن النهب للممتلكات حتى أبواب ونوافذ وبلاط البيوت، جزاء مناصرتها لثورة الأحرار. . ومن هنا السؤال:

ما الذى كان ينتظر الضباط اليمنيين الأحرار إذن فيما لو فشلت الثورة التى قاموا بها يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، ما هو مصير الزعامات المدنية ومشايخ القبائل الذين انضموا للثورة، وأى مصير كان ينتظر صنعاء إذا هبت مجددا لمناصرة الثورة، وكيف كان الموقف فى اليمن بشكل عام لو أن ثورة ٢٣ يوليو بزعامة جمال عبد الناصر تقاعست عن دعم الثورة اليمنية والدفاع عنها وتثبيت أقدام نظامها الجمهورى الوليد ؟

لا شك أن الإجابة عن هذه التساؤلات الفرضية كانت معروفة سلفا بأهوال ومجازر يشيب لها الولدان، ومزيد من إسدال ستائر العزلة والتخلف والظلام المفروض على اليمن إلى ما شاء الله، وذلك هو الرد الصحيح والحاسم على بطلان حملات التشكيك فى جدوى وضرورات الدور المصرى فى اليمن على صعيد التضامن القومى!

٢١ - وعد جمال عبد الناصر

على أن الدور المصرى فى دعم الثورة اليمنية لم يأت من فراغ، وذلك أن جمال عبد الناصر لم يعدم وسيلة إلا وتبناها ولا بابا إلا وطرقه على أمل إقناع الإمام أحمد بضرورات الإصلاح السياسى والاجتماعى فى اليمن، وفض عزلة الشعب اليمنى عن العالم حتى يواكب ركب التقدم المتسارع الذى شهده القرن العشرون.

وقد اعتمد عبد الناصر فى استطلاع أوضاع اليمن ميدانيا عبر ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة تباعا، أولهم الصاغ صلاح سالم الذى استقبل بحفاوة شعبية بالغة فى كل مكان ذهب إليه، وعاد إلى مصر ولديه فكرة شاملة عن أوضاع اليمن المزرية، وحمل إلى الرئيس عبد الناصر وثيقة كتبها ووقعها نفر من المشايخ والعلماء والمثقفين والطلائع الشابة ترنو إلى اهتمامه ودعمه لنضال الشعب اليمنى.

بعدها كانت زيارة البكباشى أنور السادات لليمن، وكما حدث لصلاح سالم كان بانتظاره خلال زيارة مدينة تعز وثيقة مشابهة لتسليمها إلى عبد الناصر، بينما

خاض السادات غمار حوارات سياسية هامة مع بعض الرموز الوطنية حول أوضاع اليمن فى ظل حكم الإمام أحمد، فلما فشلت محاولة تغيير حكم بيت حميد الدين عام ١٩٥٥ بزعامة الضابط الشهيد أحمد الثلايا، وصل البكباشى حسين الشافعى إلى اليمن للوساطة فى تخفيف أحكام الإعدام التى طالت عددا من الأحرار!

رافد آخر كان يستقى منه جمال عبد الناصر إدراكه المعرفى بتطورات الأوضاع عبر ما كان يصله تباعا من المعلومات من ثلاث بعثات مصرية إلى اليمن، الأولى تعليمية، الثانية عسكرية لتدريب نواة الجيش اليمنى الحديث برئاسة الضابط أحمد أبو الفتوح والثالثة أمنية لتدريب الشرطة اليمنية برئاسة الضابط عبد الله حامد، وهذه البعثات كانت تلتقى بحكم عملها مع رجالات اليمن وشبابه.

وتشهد الكتب والمذكرات الشخصية التى عرضت للظروف والوقائع التى سبقت اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر، كيف أن أفراد البعثتين كانت لهم أدوار ومهام سياسية وتنظيمية غاية فى الأهمية، عبر بث الوعى الثورى وفرز العناصر المؤهلة للنهوض بمسئولية الثورة الوشيكة والمحتومة فى اليمن وبينهم الملازم على عبد المغنى الذى أجمعت الشهادات على كونه المؤسس الحقيقى لحركة الضباط الأحرار، بالتوازى مع الدور المعلن للعقيد عبد الله جزيلان الذى نهض بمسئولية العديد من المهام العسكرية الأساسية فى اندلاع الثورة وتثبيت أقدامها!

ولأن الشىء بالشىء يذكر فقد كان العقيد جزيلان على خلاف مع اجتماع إرادة الضباط والمدنيين الأحرار على اختيار المشير عبد الله السلال قائدا للثورة ثم رئيسا للجمهورية، إذ كان يرى أن اللواء حمود الجائفى أحق من السلال، ورغم ذلك بارك الجائفى اختيار السلال!

وقد قدر لى خلال متابعتى لأعمال مؤتمر حرض أن ألتقى لأول مرة بالمرحوم محمد عبد الواحد وهو كان الموظف الإدارى الذى كلفته الخارجية المصرية بمسئولية تصفية السفارة المصرية بعد قطع العلاقات بين القاهرة وصنعاء.. وروى لى واقعتين على درجة كبيرة من الأهمية والإثارة.. الأولى حول جهاز لاسلكى حديث قوى الإرسال حملته البعثة العسكرية المصرية معها إلى اليمن، بدعوى تسهيل اتصالاتها الدورية بقيادتها فى مصر، حيث تم استبداله بالجهاز القديم فى السفارة المصرية بصنعاء، وهو ما أكده الفريق صلاح الحديدى مدير المخابرات العسكرية فى

مذكراته، أما الواقعة الثانية فكانت حول تسلل رموز حركة الأحرار من العسكريين والمدنيين إلى مبنى السفارة، لإجراء الاتصالات السياسية السرية عبر جهاز اللاسلكى الجديد مع مكتب الرئيس جمال عبد الناصر فى القاهرة وفى مقدمتهم الملازم على عبد المغنى، وقال محمد عبد الواحد إنه أتيحت لعلى عبد المغنى فى إحدى المرات الحديث مباشرة مع عبد الناصر، أما الواقعة الثالثة فى هذا السياق فقد رواها لى الدكتور حسن صبرى الخولى الممثل الشخصى للرئيس جمال عبد الناصر، وقال إنه - على حد علمه - لم يبك فى حياته إلا على والدته عندما علم بوفاتها فى غيبته وكان لا يزال فتى غضًا، ثم ذهل عن نفسه إثر نكسة الخامس من يونيو ١٩٦٧ عندما بلغه خبر انتحار المشير عبد الحكيم عامر، وقال إنه رأى عبد الناصر بنفسه وقد اغرورقت عيناه بالدموع لما بلغه خبر استشهاد الملازم على عبد المغنى وهو ما أكده فتحى الديب رئيس الشئون العربية برئاسة الجمهورية، وكان عبد الناصر قد قرر الوفاء مباشرة بالوعد الذى قطعه على نفسه لحركة الضباط الأحرار اليمنيين، بدعم مصر للثورة اليمنية الوشيكة إذا ما تعرضت للعدوان من الخارج، وبشرط أن يستقر النظام الجديد فى السلطة وإعلان النظام الجمهورى، حتى تتوافر له شرعية طلب العون والمساعدة من الخارج، ولا يحسب بالتالى على مصر تدخلها فى شئون اليمن على غير إرادة شعبها!

٢٢ - زعامات الأحرار فى القاهرة

حين نهضت ثورة ٢٣ يوليو بمسئولياتها القومية، كانت اليمن فى قبضة الإمام أحمد حميد الدين، بينما كانت المرجعيات التاريخية والسياسية والعسكرية التى ظلت على قيد الحياة إثر انتكاسة ثورة الأحرار عام ١٩٤٨ تمثل المعارضة اليمنية التقليدية التى ترنو إلى تغيير الأوضاع المتردية فى اليمن، لكن المشكلة أن معظم زعامات المعارضة كانت منفية آنذاك بالخارج طوعا أم قسرا، وتلك كانت من الأسباب التى باعدت من التأسيس لصلاتها التنظيمية بالداخل، فيما افتقرت كذلك للبرنامج السياسى المطلوب للتغيير وما بعد التغيير، خاصة فى ظل مراهناتها على الإصلاح السياسى فى ظل حكم أسرة حميد الدين أولا حتى تبدأ مسيرة التغيير الجذرى فى اليمن!

ثم إن مطلب الثورة اليمنية كان مشاعا بين أكثر من مجموعة وتيار سياسى، ورغم أن القاهرة كانت على صلة وتواصل معها جميعا، إلا أنها ظلت تخشى التجاوب مع الخيارات الانقلابية المغامرة نظرا لقصورها فى الرؤية الاستراتيجية للتغيير الشامل، وانحيازها لمصالح الانقلابيين الضيقة، وربما لأنها مهيأة للوقوع بسهولة فى شراك الرجعية العربية أو الاستعمار الجديد.

ولاشك أن القاهرة كانت تربطها بالعقيد أحمد الثلايا صلات سياسية سرية مباشرة استمرت عدة سنوات، سواء عبر الرسائل المتبادلة، وسواء عبر البعثة العسكرية المصرية فى اليمن، فى إطار استطلاع مصر لحقائق الأوضاع السياسية فى اليمن، دون أن يتم ثمة اتفاق بينها والعقيد أحمد الثلايا على أسلوب التغيير المطلوب.

معروف أن الثلايا كان ضمن البعثة اليمنية التى تلقت علومها العسكرية فى العراق، وكان رفيقا فى سجن حجة للقاضى عبد الرحمن الإيريانى والأستاذ أحمد النعمان وغيرهما من المناضلين الأحرار إثر فشل ثورة ١٩٤٨، بينما كان الزبيرى قد غادر صنعاء إلى السعودية لمقابلة وفد الجامعة العربية ممثلا للثورة!

بعدها عاد الثلايا كما كان ضابطا فى الجيش اليمنى حتى بعد نجاحه فى كسب ثقة الإمام أحمد حميد الدين، وهو الذى أقنعه بأن يطلب من الصاغ صلاح سالم عضو مجلس ثورة ٢٣ يوليو عند زيارته لليمن عام ١٩٥٤ موافقة مصر على إرسال بعثتين لتدريب القوات المسلحة وقوات الأمن!

وبالفعل كانت استجابة مصر فورية، فكان الصاغ أحمد كمال أبو الفتوح لرئاسة البعثة العسكرية يعاونه اليوزباشى محمود عبد السلام، والصاغ عبد الله حامد لبعثة الشرطة يعاونه اليوزباشى مصطفى الهمشرى.. وعدد آخر من الضباط وصف الضباط، لكن كلا البعثتين لم تباشرا مهامهما لمدة شهرين منذ وصولهما من القاهرة إلى تعز.. إذ كان الإمام أحمد لا تزال تساوره الشكوك فى أن يؤدى هذا الخيار لغير صالحه، ومن ثم بيت لعودتها إلى مصر تجر وراءها أذيال اليأس والفشل!

ثم مضى شهر ثالث حتى التفت الإمام إلى تقارير البعثتين حول تحديث الجيش والشرطة، بينما كانت الأوامر المشددة قد صدرت لهما من القاهرة للتحلى بالصبر وعدم الاستجابة لاستفزازات الإمام وحاشيته.

٢٣ - انتفاضة الثـــلايا

ولعله لم يعد سرًا الآن أن الضابط الشهيد أحمد الثلايا كان قد طلب من مصر أن تتعاون مع القاضى محمود الزبيرى فى اختيار بعض الطلاب اليمنيين الذين يدرسون بالقاهرة، وإعدادهم فكريا وعسكريا للدور النضالى الذى سوف يقومون به إثر عودتهم إلى الوطن!

وقد تركزت خطة الثلايا لإحداث التغيير السياسى المطلوب فى اليمن عبر عدة خطوات:

١ - حصار قصر الإمام بتعز التى أصبحت مقرا للحكم بديلا عن صنعاء عبر قوات الجيش الموالية له بداية بقطع أى اتصال بين الإمام وخارج القصر، وهو نفس الإجراء بالنسبة للأمير البدر ولى العهد الذى كان يقيم فى صنعاء وباقى أفراد أسرة حميد الدين، وإلقاء القبض على كل أفراد الحاشية وكبار المسئولين والمتنفذين، حتى لو استدعى الأمر القضاء عليهم بالسلاح فى حالة المقاومة، ثم التصرف بشأنهم بعد القبض عليهم طبقا للشريعة الإسلامية!

٢ - الاستيلاء على مبنى الإذاعة اليمنية وإعلان البيان الأول للثورة ضد حكم الإمام أحمد، بعد إرغامه على التنازل عن الحكم للأمير سيف الإسلام عبد الله، على أن يتشكل مجلس قيادة يعاونه من أهل الحل والعقد بعض الشخصيات الوطنية وقادة الطائفتين الزيدية والشافعية ومشايخ القبائل الكبيرة مع الاستعانة بهم فى التصدى لأى عمل مضاد للثورة.

٣ - تأمين الجيش لصنعاء والمدن خشية اجتياح القبائل والقيام بعمليات السلب والنهب تجنبًا لما حدث فى ثورة ١٩٤٨.

٤ - إعلان تشكيل وزارة جديدة تتولى إدارة دفة الحكم.

٥ - يتم النظر فى مصير الأمير عبد الله والتخلص منه بعد أن تستقر الأوضاع لصالح الثورة.

على أن خطة الثلايا التى وصلت القاهرة، كانت متزامنة مع المطالبة بدعمها من قبل ثورة ٢٣ يوليو، وتتلخص فى الاعتراف الفورى بالوضع الجديد، وحث

القاهرة للأنظمة العربية على الاعتراف، والمبادرة إلى إرسال أربع طائرات حربية مصرية بطياريها لردع أى قبيلة تحاول التمرد على الثورة، بالتزامن مع إرسال بعثة عسكرية وفنية للإسهام فى إحكام السيطرة على الأوضاع الأمنية فى اليمن، وحين تستقر أوضاع الثورة فالمطلوب عندئذ إرسال بعثة مدنية من المتخصصين فى كافة مجالات إدارة السلطة الجديدة، حتى يشعر الشعب اليمنى وبأسرع وقت ممكن بما حققته الثورة من المكاسب.

٢٤ - شكوك حول الأمير عبد الله

والشاهد أن الرئيس جمال عبد الناصر ساورته الشكوك عندما وصلته تفاصيل خطة تفجير الثورة عام ١٩٥٥ بزعامة العقيد أحمد الثلايا ومطالبة مصر بدعمها ولعدة أسباب:

الأول: أن الخطة من حيث المنهج والأسلوب مجرد محاولة انقلابية مغامرة لا ترقى إلى مرتبة الثورة!

الثانى: أن بقاء الإمام أحمد بالذات أو شقيقه سيف الإسلام الحسن على قيد الحياة إثر تنفيذ خطة الثلايا يشكل خطورة على شرعيتها ومصيرها!

الثالث: أن الأمير عبد الله الذى اختاره الثلايا كواجهة لحركته معروف لدى القاهرة بروابطه القوية مع الدوائر الأمريكية السياسية والأمنية، فضلا عن عدائه السافر لنهج ثورة ٢٣ يوليو التحررى!

علما بأن عبد الناصر لم ينفرد بالرأى فى هذا الشأن المصيرى، ولذلك طلب التعرف أولا على ملاحظات زعامات المعارضة اليمنية بالقاهرة حول خطة الثلايا، وبعدها جرت صياغة التعديلات الجوهرية المشتركة حولها مع التأكيد على الثلايا حول ضرورة موافاة القاهرة أولا بأول بتطورات الأحداث وخطوات الأعداء لحركته قبل تنفيذها بوقت كاف لا يقل عن ٤٨ ساعة.. وذلك على وجه التحديد ما أكده فتحى الديب مسئول الشئون العربية برئاسة الجمهورية فى صفحة ٥٦ من كتابه «عبد الناصر وحركة التحرر اليمنى».. ثم يقول: إن الانتفاضة تمت فجأة بصورة لم نكن نتوقعها ولم يقل «الثورة»، الأمر الذى كان وراء توخى الرئيس

جمال عبد الناصر الحيطة والحذر فى اتخاذ قراره بدعمها، خاصة لوقوعها كذلك فى وقت كان يواصل اجتماعاته فى القاهرة مع رؤساء الدول العربية، تمهيدا لاتخاذ القرار المناسب فى مواجهة إقدام نورى السعيد رئيس وزراء العراق على توقيع الاتفاق مع تركيا يوم ٢٤ فبراير ١٩٥٥ حول الانضمام إلى حلف بغداد. . ثم يقول فتحى الديب إن القاهرة علمت بما حدث عبر الاستماع لما بثته الإذاعة اليمنية فى صورة بيان للشعب اليمنى يوضح اندلاع الثورة ضد حكم الإمام أحمد حميد الدين!

القصة بعد ذلك باتت معروفة بكل تفاصيلها المأساوية، حيث أفلت الإمام أحمد من قصره عبر رشوة بعض الضباط والجنود بالجنيهات الذهبية ومجوهرات نسائه، فيما هرب ولى العهد الأمير البدر إلى «حجة» وتحصن شباب أسرة حميد فى الجبال الوعرة وسط القبائل الزيدية المناصرة لحكم الأئمة، إيذانا بفشل انتفاضة الثلايا ولجوء بعض زعاماتها إلى عدن والقاهرة وإعدام معظمهم تباعا عبر سيف الوشاح على مدى ١٦ يوما بعد أن تمكن الإمام أحمد من السيطرة على الأوضاع فى اليمن، خاصة بعد أن ثبتت عدم فاعلية الدور الذى حاول سيف الإسلام عبد الله القيام به فى مواجهة نفوذ الإمام أحمد أو تحريك القبائل ضده، ثم نتوقف عند عدد من الملاحظات الهامة:

أن ضباط الجيش الذين دفعوا الثلايا أو شجعوه على الانتفاضة، سرعان ما تخاذلوا وتحولوا إلى الشهادة عليه بعد فشل الانتفاضة!

وكان محسن العينى قد وصل إلى عدن فى طريقه إلى تعز مع زميله يحيى جعمان حاملاً رسالة من الأستاذ الزيدى - بالاتفاق مع الجانب المصرى - إلى العقيد الثلايا. . يحذره من بقاء الإمام أحمد على قيد الحياة، والتساؤل عن سبب تعاونه مع الأمير عبد الله وليس مع الأمير البدر، إذ كان مرشح الأحرار لولاية العهد، لكن ما أن وصل العينى إلى تعز قادما من عدن حتى كان فشل انقلاب الثلايا، فكان لقاؤه بالتالى مع الإمام أحمد لتبديد الشكوك التى حامت حول وصوله إلى اليمن فى هذا التوقيت!

ولعله من المفارقات الدامية، حين شاء القدر أن يفصل رأس «الوشاح» سياف الإمام بنفس السيف التى اجتز عشرات من رءوس الأحرار، وأن يتولى مساعده

السياف محمد سالم إعدامه جراء ارتكابه جريمة جنائية لا علاقة لها بالنضال ضد حكم بيت حميد الدين ودون أن يشفع له خدماته البشعة ضد خصومهم، لكأنه نال جزاء سنمار!

٢٥ـ الأمير البدر قطعة قماش

هكذا صدقت رؤية جمال عبد الناصر حول عدم نضوج الظروف الموضوعية لتفجير الثورة فى اليمن عام ١٩٥٥، فكان من المتعين إذن كسب الوقت فى إنضاج هذه الظروف، وتوفير العوامل التى تضمن نجاحها من خلال خطة سياسية مبرمجة عبر عدة روافد مشتركة بين مصر وقوى الثورة اليمنية!

زعامات حركة الأحرار فتحت القاهرة صدرها لاحتضانهم بعد أن أغلقت أبواب لجوئهم إلى الدول العربية، فكان قدوم القاضى محمد محمود الزبيرى «أبو الأحرار» أولا من منفاه الاختيارى فى باكستان، ثم الأستاذ أحمد محمد نعمان وهو كان يتميز بذكائه الحاد وخفة ظله وحفظه للشعر والتراث العربى، مما أتاح له استعادة ثقة الإمام أحمد، والإفلات من سيف جلاده فى كثير من المآزق الصعبة، فيما أتيح مجال اللجوء السياسى لكل يمنى حر، حتى يمارس مسئوليته الوطنية فى الكفاح ضد حكم بيت حميد الدين المتسلط فى شمال اليمن والاستعمار البريطانى فى جنوبه، كذلك فتحت أمام الأحرار صحف القاهرة وأنديتها الثقافية للتعريف بقضية اليمن، والهجوم السافر على حكم بيت حميد الدين، ومن القاهرة كذلك صدرت صحيفة «صوت اليمن» لسان حال حركة الأحرار تحت رئاسة الزبيرى!

كان الرهان «تكتيكيا» على الأمير البدر كغطاء يتيح حرية الحركة للأحرار اليمنيين بلا معوقات عبر مساندته فى مواجهة كبار أسرة حميد الدين الذين يناصبونه العداء إثر موافقة الإمام أحمد له على ولايته للعهد على خلاف أصول البيعة الشرعية فى المذهب الزيدى، وإحاطته بمجموعة من الشباب اليمنيين الموثوق بهم والملتزمين بالمبادئ الوطنية والقومية، ودفعه للإقدام على خطوات إيجابية لتحقيق الممكن من معالم التغيير المطلوب لصالح الشعب، خاصة أن الأمام أحمد لم يكن

يثق فى قدرة ابنه البدر على خلافته، إذ كانت له عبارة مشهورة يصفه فيها «بأنه مثل قطعة القماش، إذا رفعتها بيدك انتصبت، وإذا تركتها تهاوت» وكذا اختيار محسن العينى سكرتيرا ومرافقا ومستشارا للبدر لتصويب بوصلة توجهاته ونشاطه السياسى بما لا يتعارض مع توجهات الأحرار وسعيهم للتغيير، ثم كان توجيه القاهرة الدعوة للبدر لزيارتها للمرة الثانية بصفته وليا للعهد، حيث لمس بنفسه قوة تنظيم الاتحاد اليمنى، والأسلوب الحضارى فى ممارسة السلطة، وتعهد بمواجهة التحديات عبر التعاون مع الأحرار، إلا أنه لم يف بالتزامه بعد عودته لليمن نظرا لإحكام الإمام أحمد سيطرته على الأمور، ورفضه المتعنت لأى تطور أو إصلاح!

بالتزامن كان تكليف فتحى الديب مسئول الشئون العربية ـ قبل أن تظهر صورته للرأى العام ـ القيام بجولات ميدانية فى مختلف ربوع اليمن للتعرف عن قرب على أوضاعه السياسية والاجتماعية، والالتقاء بالمسئولين والنخب السياسية والقبلية والعسكرية بصفته موفدا من وزارة الخارجية للتفتيش الإدارى على السفارة المصرية فى صنعاء، وقيامه شخصيا بتصوير المتاح من معالم اليمن وطرقه ومسالكه على وجه الخصوص، وعقد الصلات والروابط مع الشخصيات الهامة والمؤثرة تحت ساتر المعاملات التجارية، والتنسيق معها على صعيد جمع المعلومات وإرسالها إلى مصر تباعا. وحتى كان لقاؤه بالإمام أحمد لمدة تزيد على ساعتين، راح خلالها يستفسر عن كل صغيرة وكبيرة حول ثورة ٢٣ يوليو حيث خلص فتحى الديب بعدها بملاحظات هامة، بينها أن الإمام يحمل حقدا ومخاوف جمة من جمال عبد الناصر ومصر ويعتبرها أكبر خطر يهدد عرشه، وأنه يتميز بذكاء خارق وشخصية قوية عنيدة، كما أنه ـ على غير ما يتظاهر ـ ملم بأحداث عالمه المعاصر، ولديه التصميم على إبقاء الشعب اليمنى بمعزل عن العالم وبعيداً عن التفاعل مع العرب وقضاياهم!

كذلك كانت محصلة استطلاعه لأوضاع الجيش اليمنى لكونها شديدة التخلف عما كان عليه إبان حكم الإمام يحيى، وأن الجيش القبلى المعروف بـ «البرانى»، كان أشبه بالمرتزقة، إذ كان يصرف للجندى شهريا مجرد خمسة ريالات يمنية لا تكاد تكفى مأكله خلال يومين فقط، وعليه سد حاجاتهم المعيشية وتوفير ثمن القات من ابتزاز وإرهاب الشعب عبر حملات جباية الضرائب لحساب الإمام، ثم إن الولاء للوطن يتوارى بعيدا وراء الولاء للقبيلة!

٢٦ـ شهادة اللواء المحرزى

كان قرار جمال عبد الناصر أن تواصل البعثة العسكرية المصرية باليمن دورها فى التدريب العسكرى بالكلية الحربية ومدرسة الأسلحة مهما كانت الصعاب، مقرونة تلقائيا بفرز العناصر الشابة الطامحة للثورة والتغيير!

يقول اللواء صلاح المحرزى وكان كبير المعلمين فى البعثة العسكرية المصرية فى كتابه القيم «الصمت الحائر وثورة اليمن» ص ١٠٦ :

«بنهاية الوجود الفعلى للبعثة العسكرية المصرية وروادها الخمسة العقيد أ. ح حسن فكرى الحسينى، الرائد صلاح المحرزى، النقيب محمود عبد السلام، النقيب عادل السيد، الملازم نبيل الوقاد، ثم عودتهم إلى وحداتهم العسكرية الأصلية بالقاهرة، انتهى دور البعثة فى ثورة اليمن، حيث كانت قد أعدت أول طليعة ثورية من شباب اليمن المثقف، لتكون بالتالى أول قوة عسكرية تملك قدرة التغيير والتصدى لأسرة حميد الدين وقوة القبائل، والتى لولاها لكان مصير الثورة.. مصير الثورات السابقة على يد القبائل، تبدأ لتنتهى بالمشانق والسجون لقادتها، والخطاط والإذلال وانتهاك الحرمات».

ثم يكشف اللواء المحرزى الستار عن الخطة التى كانت موضوعة لتفجير الثورة.. يقول: بنهاية دور البعثة المصرية وبعد تخرج ضباط الكلية الحربية، عندئذ كانت بداية التحرك الإيجابى للملازم على عبد المغنى فى تنظيم الضباط الأحرار عبر عدة مجموعات حققت له إمكانية السيطرة والحركة فى المدن الثلاث.. صنعاء ـ الحديدة ـ تعز، والربط بينه وبين الأحرار من المدنيين ومشايخ القبائل، وخاصة الشيخ عبد الله الأحمر والشيخ سنان أبو لحوم، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد، ثم بدأ فى الاتصال المحدود مع مصر عن طريق العقيد أحمد أبو زيد الذى كان رئيسا لإحدى البعثات العسكرية المصرية فى اليمن، ثم جرى اختياره سفيرا لمصر فى صنعاء، وبعدها كان اتصال الأحرار بمصر عبر محمد عبد الواحد.. وكان الوحيد الباقى من أعضاء السفارة المصرية فى صنعاء!

وهكذا شهد شاهد من أهلها على أن مصر كان لها دور مقدر فى الإعداد وفرز الكوادر العسكرية الثورية من جهة، والتأكيد كذلك على أن الملازم على عبد المغنى وليس غيره كان زعيم تنظيم الضباط الأحرار الذى أخذ على عاتقه تفجير الثورة على غرار دور تنظيم الضباط الأحرار بزعامة جمال عبد الناصر فى تفجير ثورة ٢٣ يوليو، وتأتى مصداقية تلك الشهادة بعدما تدرج صاحبها فى المناصب العسكرية والأمنية المصرية الرفيعة من كبير معلمى البعثة العسكرية المصرية باليمن، وحتى أصبح وكيلا للمخابرات العامة، لكن يظل غير الملازم على عبد المغنى كثر من رجالات اليمن الذين لولا إسهامهم جميعا كل فى موقعه العسكرى أو المدنى وفى حدود إمكاناته لما تحقق حلم الثورة الأثير.

على أن استطلاعاتى لأوضاع تنظيم الضباط اليمنيين، شهد من بقى منهم على قيد الحياة أن الضابط محمد مطهر زيد شارك الملازم على عبد المغنى فى قيام تنظيم، فى أعقاب فشل الشهيد عبد الله اللقية فى اغتيال الإمام أحمد، وكان قرار التنظيم التخلى عن فكرة التغيير مع بقاء حكم أسرة حميد الدين، والتوجه مباشرة إلى إعلان الجمهورية فور نجاح الثورة!

كذلك عرفت أن اغتيال على عبد المغنى كان بمثابة الفجيعة فى الصف الجمهورى، وكان استشهاده وهو فى طريقه إلى مأرب لمطاردة الإمام البدر بناء على توجيهات الدكتور عبد الرحمن البيطانى بصفته القائد العام، حيث وجد فى انتظاره كمينًا محكمًا فى منطقة «وادى عبيدة»، وعاد من كانوا معه بمعجزة وبينهم محمد غالب الشامى وعبد الله ضيف الله ومحمد حسن العمرى.. وظل السؤال بعدها يبحث عن إجابة.. لماذا وقع الاختيار على على عبد المغنى تحديدا للقيام بهذه المهمة.. والمغامرة بحياته والثورة فى أشد الحاجة إليه وهى تواجه مصيرها، بينما كان من بين الضباط من يستطيع أن يقوم بدلا منه بتلك المهمة؟

٢٧ـ صندوق أحمد سعيد

على أن الرئيس جمال عبد الناصر عندما وجه إلى ضرورة قيام آلية إعلامية تواكب مسيرة ثورة يوليو، تنهض بمهام التنوير بتوجهاتها وسياساتها ومواقفها

والدفاع عن مكتسباتها الوطنية فقد تحقق ذلك نسبيا على أرض الواقع عبر الصحف والإذاعات والكتب المصرية، لكن الخيار القومى للثورة فرض إنشاء إذاعة خاصة متفرغة لتغطية شئون الوطن العربى، فكان انطلاق إذاعة صوت العرب عام ١٩٥٣، بالتزامن مع انتشار الراديو «الترانزستور» فى ربوع الوطن العربى، فكان المواطن العربى البسيط فى الخليج والجزيرة العربية واليمن والمغرب العربى يطلب من البائع شراء «راديو أحمد سعيد» أو «صندوق أحمد سعيد»، وربما يطلب من البائع فى مساعدته ضبط مؤشر الراديو على إذاعة صوت العرب.

كان الشاب أحمد سعيد حديث التخرج فى كلية الحقوق، وهو كان القائد لفريق العمل الذى باشر مسئولية تجسيد فكر وتوجهات ثورة يوليو القومية عبر الأثير، وعلى عهدى به أنه كان مشبعا حتى النخاع بالحماس والإيمان بحتميات انتصار الأمة العربية ووحدتها، إضافة إلى موهبته وقدراته الفذة على الخلق والابتكار الإذاعى، وفنون التعامل مع معاونيه وتأجيج الحماس القومى لدى جمهور صوت العرب من المحيط إلى الخليج.

أذكر أنه فى غرفتين فقط من مبنى الإذاعة المصرية القديم بشارع الشريفين كانت فترة بث إذاعة صوت العرب فى البداية لمدة ساعتين يوميا، وتمكنت مجموعة شباب المذيعين من إبداع سيمفونية الإعلام القومى الثورى غير المسبوق، نذكر من بينهم للتاريخ محمد عروق «مراقب مناطق الصراع» والبناء العظيم أمين بسيونى الدينامو المحرك للآليات الإذاعية وسعد غزال مسئول شئون الخليج واليمن والقديس محمد أبو الفتوح وسعد زغلول نصار وجمال السنهورى وبهاء طاهر ومحمد الخولى وعبد الوهاب قتاية وسيد الغضبان، غير طاقم متميز من المخرجين والمعدين ومقدمى البرامج الثقافية والترفيهية.

ثم نتوقف قليلا حتى نتأمل مغزى تلك القصة المثيرة حول مدى السطوة الإعلامية القومية التى كانت لإذاعة صوت العرب فى الخمسينيات والستينيات عبر مواكبة الثورة فى جنوب اليمن ومدى تأثيرها فى تأجيج حماس اليمنيين ونضالهم الجسور ضد الاحتلال البريطانى، إذ بعد تسع سنوات على العدوان الثلاثى الفاشل الذى تعرضت له مصر عام ١٩٥٦م وأسفر عن تحطيم أسطورة بريطانيا العظمى

وسقوط حكومة أنتونى أيدن، وحكومة كريستيان بينو فى فرنسا. وبن جوريون فى إسرائيل، تلقى مجلس الأمة المصرى دعوة من مجلس العموم البريطانى عام ١٩٦٥ لإجراء مشاورات حول عدد من القضايا الشائكة محل الخلاف والتوتر بين البلدين آنذاك!

تشكل وفد مجلس الأمة برئاسة المهندس سيد مرعى وزير الزراعة وعضوية الدكتور فوزى السيد رئيس اتحاد العمال والسيدة بثينة الطويل، لكن فى آخر لحظة أضيف اسم أحمد سعيد مدير صوت العرب وكان عضوا فى المجلس، كى تتاح له فرصة الاطمئنان على ابنة أخيه التى كانت تقضى فترة علاج فى لندن، لكن السفارة البريطانية تحفظت على منحه تأشيرة الدخول، وعندما استفسرت رئاسة الجمهورية عن السبب، قالت إن الخارجية البريطانية رأت أن وجود أحمد سعيد فى لندن سوف يؤدى إلى هياج الرأى العام وإلى انتقاد المعارضة ولومها للحكومة باعتباره عدوا لبريطانيا، ومن الأفضل استبداله أو استبعاده من الوفد المصرى، حتى تتوافر الأجواء الهادئة لنجاح المهمة السياسية التى دعى من أجلها!

. . القصة رواها سيد مرعى فى مذكراته، وكيف أن الرئيس جمال عبد الناصر عندما بلغه تحفظ الخارجية البريطانية قال: «ما دامت الدعوة موجهة إلى مجلس الأمة بصفته هيئة اعتبارية، فمن حقه اختيار أعضاء الوفد دون معقب، ولذلك على الخارجية البريطانية أن تقبل الوفد كما هو دون تغيير، ثم أضاف «وإذا كان موش عاجبهم بلاش سفر»!

وهكذا قبل أن تصل طائرة الوفد المصرى مطار لندن بنحو نصف ساعة حدث هرج ومرج بين طاقم المضيفين مما أثار قلق سيد مرعى وتساؤله عن السبب، وقيل له إن أهالى الجنود الإنجليز الذين قتلوا فى عدن تجمعوا فى شبه مظاهرة عدائية ضد أحمد سعيد فى المطار وربما حاولوا الاعتداء عليه، والتعليمات الصادرة من السلطات البريطانية المختصة ترى نزول الوفد أولا بدونه إلى حين صعود اثنين من ضباط اسكتلنديارد ـ لحمايته ومرافقته إلى الفندق!

فى قاعة كبار الزوار فوجئ أحمد سعيد وقد طوقته الكاميرات والميكروفونات وعدد غفير من الصحفيين، وانهالت عليه الأسئلة أشكالا وألوانا فلم يجد مفراً من

الدفاع عن نفسه بشجاعة وقال إن تحريضه للشعب فى جنوب اليمن على مقاومة الاحتلال البريطانى ينسجم مع حق الدفاع عن النفس الذى تبيحه كافة الشرائع السماوية والقوانين الدولية وهو حق أصيل من حقوق الإنسان، وأشار إلى أن كل عشرة قتلى يمنيين برصاص الإنجليز سقط مقابلهم جندى بريطانى برصاص اليمنيين، فإذا أرادت بريطانيا الحفاظ على أرواح أبنائها فعليها أن ترحل من عدن!

وصل وفد مجلس الأمة المصرى إلى الفندق بينما كان المؤتمر الصحفى الذى عقده أحمد سعيد فى المطار يذاع فى التليفزيون مشفوعا بتعليقات عدد من المحللين السياسيين والخبراء البريطانيين فى الشئون العربية، وتراوحت بين اتهامه بالكراهية ونقد ممارسته التحريضية ضد الوجود والمصالح البريطانية فى الشرق الأوسط، فى الوقت الذى كانت فيه الشرطة المخصصة لحماية أحمد سعيد قد ألقت القبض على شاب بريطانى يقيم فى الغرفة المجاورة له، إذ كان يتحين الفرصة لاغتياله انتقاما لشقيقه الجندى الذى قتل فى عدن، وطلب أحمد سعيد لقاءه ودار بينهما حوار سياسى حول حق الشعب اليمنى فى الحرية وأن شقيقه زج به للدفاع عن قضية غير عادلة!

على أن لقاء الوفد فى اليوم التالى مع هارولد ولسون رئيس الحكومة البريطانية كان الأكثر إثارة، فهو عندما صافح أحمد سعيد بادره قائلا: أراك «الرجل المبتسم» ألا تعتقد أن هذا اللقب أفضل من لقب «رجل الكراهية» الذى خلعته عليك الصحافة البريطانية ثم استدرك قائلا: أيا ما كان موقفك من بريطانيا فقد أخذنا أهبة الاستعداد للرحيل عن عدن و«شرق السويس» ولذلك أتمنى أن تزيد من جرعة الموسيقى فى إذاعة صوت العرب بدلا من الكلام.. وقال أحمد سعيد: «مارشات عسكرية يعنى»؟.. و.. ضج الجميع بالضحكات.

٢٨ـ ثوار من الهاشميين

هكذا تكاملت الجهود والإمكانات المصرية الرامية لتحرير الشعب اليمنى من كل صور الطغيان، وتمكينه من حكم نفسه بنفسه، مما يتيح المجال لقيام حكم وطنى متحرر وقادر على صون أمن اليمن وتحديثه، بعيدا عن أى سياسة إقليمية تتعارض

والمصلحة العليا للأمة من وجهة نظر مصر ولا تتعارض مع مبادئ التخطيط الاستراتيجى المتفق عليها دوليا، حيث الدفاع لا يقتصر فحسب على الحدود الإقليمية لأرض الوطن، بل وتأمين سبل ووسائل الأمن الدفاعى السليم، حتى لو اقتضى الأمر إغلاق كافة المنافذ المتاحة أمام العدو على كل طرق الاقتراب الموصلة لأرض الوطن المطلوب الدفاع عنه، مهما كانت المنافذ والثغرات بعيدة عن الحدود الإقليمية، طالما كانت تمثل مصدر خطر مباشراً على الخطة الدفاعية!

على أى حال فقد اتسم إطلاق صوت المعارضة اليمنية عبر إذاعة صوت العرب بالتدرج من حيث النبرة الهادئة فى مخاطبة عقل وضمير الشعب اليمنى والأمة العربية كذلك، حيث اعتمدت فى البداية على شرح الأوضاع المتردية فى اليمن فحسب، دون الولوج إلى التحريض المباشر ضد حكم الإمام أحمد، ومن هنا كان استبعاد الدكتور البيضانى من الحديث عبر صوت العرب بناء على احتجاج ومطلب اليمنيين الأحرار المقيمين فى مصر، لدأبه على قسمة الوحدة الوطنية عبر إثارة سخط الهاشميين رغم مشاركتهم فى كل الثورات والانتفاضات السابقة، وفى تنظيم الضباط الأحرار اليمنيين بعدئذ!

وعلى العكس كان احتجاج الإمام أحمد الذى تلقته القاهرة عبر الدبلوماسية السعودية وقتئذ منصبا على عنف الأحاديث التى كان يبثها الأستاذ أحمد النعمان عبر صوت العرب وما كانت تتضمنه من غمز ولمز وتعريض لاذع بالأوضاع السياسية والمعيشية فى اليمن، ومن ثم انسحب الأستاذ النعمان ليظل القاضى محمود الزبيرى يواصل أحاديثه من صوت العرب، إذ كانت تتسم بالهدوء والاستعانة بالقرآن والشعر والتراث فى التأكيد على مصداقية القضايا اليمنية، ثم إن السعودية لم تحتج على أحاديثه وقتئذ!

لكن الصيغة الإعلامية المتوازنة لصوت العرب سرعان ما تحولت إلى النقيض، وتمحورت حول التعريض والهجوم العنيف والمباشر على حكم الإمام أحمد لليمن، بداية من إدراكه اقتراب ساعة دنو أجله، وتأكده من فشل علاجه الأخير فى روما، وراح يدمن حقن المورفين للتخفيف من آلامه إثر إصابته فى الهجوم الذى تعرض له عبر المحاولة الوحيدة التى طالته طلقات مسدسات ثلاثة من الضباط

الأحرار وهم الملازم العلفى وعبد الله اللقيه والهندوانه، وحين سمع العلفى بنجاة الإمام أطلق النار على نفسه بمسدسه ليسقط شهيداً، بينما تعرض زميلاه لأبشع التعذيب والإعدام بمدينة تعز.

٢٩ - نزع ترابيس مدافع الدبابات

عندئذ أيقن الإمام أن هذه المحاولة الجريئة مقدمة لمحاولات أخرى، وربما الإطاحة بحكمه عبر انقلاب عسكرى، ولذلك أمر بإيداع الدبابات المخازن فى تعز بعد أن نزع ترابيس مدفعها، ورغم أن الأمير البدر ولى العهد كان مزهوا بوصول صفقة السلاح الروسى إلى ميناء «الصليف»، لإرهاب معسكر غريمه سيف الإسلام الحسن، إلا أن الإمام أمر بتكديس السلاح الروسى فى مخازن صنعاء تحت حراسة العناصر الموثوق بها، خاصة أن موقع صنعاء مفتوح على مختلف ربوع اليمن، مما يسهل التصدى فى وقت الضرورة لأى انقلاب أو غزو عسكرى!

ولاشك أن عودة الإمام أحمد من مرحلة العلاج فى روما كانت تعنى بالنسبة لقوى الثورة اليمنية التحشد وأهبة الاستعداد للتحرك والاستيلاء على السلطة بمجرد رحيله إيذانا بساعة الصفر، خاصة وكان الجيش بعد إعادة تدريبه العسكرى وتشبعه بفكر الضباط الأحرار، إضافة إلى الأسلحة الحديثة التى تكدست فى المخازن قد بات يمثل القوة الرئيسية القادرة على الإطاحة بحكم أسرة حميد الدين والتصدى للقبائل الموالية له والحيلولة دون تكرار عمليات السلب والنهب وترويع الأهالى.

ومن هنا فرض التنظيم السرى لقوى الثورة دوره، فكان المناضل والمرجعية السياسية التاريخية المرموق السيد عبد السلام صبرة حلقة التواصل بين كافة القوى الوطنية المدنية والعسكرية، والشروع فى التعبئة الشعبية والمعنوية بانتظار يوم الخلاص وتحرير الإرادة اليمنية، وهو الذى أخذ على عاتقه كذلك مهمة إقناع القيادات الوطنية فى عدن بحتميات الثورة، فيما نهض الطيار عبد الرحيم عبد الله بهذا الدور كحلقة اتصال بين قيادات الثورة فى الداخل ولقيادة المعارضة اليمنية التى تقيم بالقاهرة.

٣٠ـ الطاعون رحمة بالشعب

كان عبد الناصر قد بادر إلى قطع الطريق على انضمام الإمام أحمد إلى حلف بغداد الاستعماري الرجعي، ومن هنا كانت فكرة طرح البديل عبر ميثاق جدة العسكري الذي يجمع مصر والسعودية ممثلة في الملك سعود واليمن ممثلة في الإمام أحمد يوم ٢١ إبريل ١٩٥٦، إذ كانت مواجهة النفوذ البريطاني في شبه الجزيرة العربية تمثل هاجسا أمنيا وسياسيا للدول الثلاث عهدئذ!

وفي ٨ مارس ١٩٥٨ وافق جمال عبد الناصر على طلب الإمام أحمد الوحدة مع مصر في إطار اتحاد الدول العربية، وهي كانت فرصة سانحة أمام الحركة الوطنية اليمنية لالتقاط أنفاسها وتعبئة قواها الذاتية للمواجهة الحاسمة مع حكم الأئمة، وهي كانت مهيأة لهذه المهمة التاريخية من طول وأشكال القهر والاستبداد الذي كابدته زعامات حركة الأحرار منذ فشل الثورة عام ١٩٤٨، وانتفاضة الشهيد الثلايا عام ١٩٥٥، إذ كانت للإمام أحمد مقولة تشي بجوره وبطشه بالشعب اليمني «هم رعيتي وأنا أولى بهم»، وهو قد ورث هذا النهج وأسلوبه في ممارسة الحكم عن والده الإمام يحيى، ولعلي أذكر بالمناسبة مقالاً نشرته مجلة الكشكول المصرية عام ١٩٤٧ وكانت بقلم الكاتب الإسلامي الراحل عبد القادر عودة أحد زعامات جماعة الإخوان المسلمين، وقال إن الدول عرضت على الإمام يحيى تقديم المساعدات الطبية عندما ابتلي اليمن بمرض الطاعون ووفاة مليون يمني، لكن الإمام يحيى رفض بشدة قائلا: «إن الطاعون رحمة يختص بها الله من يشاء من عباده.. فكيف إذن نعمل على رفع الرحمة»!

واقع الحال أن كارثة انفصام الوحدة المصرية السورية، والثورة الاجتماعية التي تبنتها ثورة يوليو عبر صدور قوانين التحول الاشتراكي عام ١٩٦٢، كانت لها انعكاساتها السياسية السلبية الخطيرة على الصعيد الإقليمي، فكان التحالف بين الملك سعود والإمام أحمد في مواجهة شرسة مع جمال عبد الناصر، حيث نظم الإمام أحمد قصيدة طويلة من ٦٤ بيتا تندد بالوحدة وبالتحول الاشتراكي وعبد الناصر.. يقول في مطلعها:

هيـــا بنا إلى وحـدة مـــبنيـــة   على أصول بيننــا مــرضــيــة
قـــانونهـــا شـــريعـــة الإســلام   قـدسيــة الأوصــاف والأحكـــام
ليس بهـــا شــائبـــة من البـــدع   تجـيـــز مـــا الإســلام عنه قـد منـع
من أخـــذ مـــا للناس من أمـــوال   ومـــا تـكســـبـوا مـــن الحـــلال
بحـــجـــة الـتـــأمـــيم والمعـــادلة   بـين ذوى المـــال ومـــن لا مـــال لـه
لأن هـــــذا مـــــالـه دلـيـــــل   فى الـدين أو تجـيـــزه الـعـــقـــول
فـــأخـــــذ مـــال الـنـــــاس   بالإرغـام جـريمة فى شـرعــة الإسلام
ولا يجـــوز أخـــذ مـــال الغـيـــر   إلا بـــأن يـرضـى بـدون ضـيـــر

وإلى آخر تلك القصيدة العشوائية التى ظنها الإمام أحمد خط دفاعه الفكرى والسياسى عن عرشه، وبوق هجومه الإعلامى ضد عبد الناصر وكل ما كان يمثله من مبادئ القومية والوحدة العربية والاشتراكية، والطريف أن ينبرى الكاتب الصحفى محمود السعدنى بالرد على قصيدة الإمام أحمد عبر قصيدة ساخرة باللغة العامية نشرتها مجلة صباح الخير فى حينها، كانت مثار الضحكات والتندر عندما تسربت إلى داخل اليمن!

٣١ـ الإفاقة من الوهم الخطير

وكانت مصر قد قررت فى ٢٧ ديسمبر عام ١٩٦١ . . إنهاء الاتحاد مع اليمن، حيث صدر بيان من حكومة الجمهورية العربية المتحدة يحدد الأسباب والدوافع من وراء هذا القرار:

إنه لا يوجد فى طبيعة أى من الحكومتين ما يجعل قيام مثل هذا الاتحاد كأداة سياسية فعالة، قادرة على الإسهام الإيجابى فى تطوير النضال، ومن هذا الاختلاف فى الطبيعة تختلف نظرة كل منهما إلى الأمور، ومع أن هذا حق ثابت لكل من الحكومتين، إلا أنه من المتعين مواجهة هذا الاختلاف بعد سنوات حاسمة

فى التجربة وخصوصا أن الجمهورية العربية المتحدة تشعر بالتزامها العميق أمام حركة الجماهير العربية سعيا للعدل الاجتماعى.

إن حكومة الجمهورية العربية المتحدة تجد لزاما عليها أن تحدد موقفها من قضايا الوحدة والاتحاد فى جلاء لا يلابسه شك، وموقف الجمهورية العربية أن قضية الوحدة والاتحاد لا يمكن أن تقوم على أسس صحيحة، ما لم يكن هناك توافق بينهما وبين الأطراف التى يعنيها الأمر على حلول مشاكل التطور الاجتماعى، وإذا كانت حكومة الجمهورية العربية المتحدة تعتقد فى إيمان راسخ أن الاشتراكية هى الحل الصحيح لمشاكل الواقع العربى، فإنها فى نفس الوقت.. وبكل إيمانها الذى لا يتزعزع بحتمية الوحدة.. ترى أن توافق النظرة الاجتماعية حيوى لإنجاح تجربة الوحدة.

إن حكومة الجمهورية العربية أقبلت على خطوة إقامة الاتحاد العربى، تملؤها الآمال بأن تستطيع هذه الخطوة أن تكون أداة فى خدمة الشعب اليمنى وفى خدمة قضاياه العادلة، ولكن تجارب السنوات الماضية أكدت بما لا يقبل مجالا للشك أن الشعب اليمنى لم يستفد من التجربة، وأن حكومة الجمهورية العربية المتحدة وهى تقدم على هذه الخطوة، تتمنى بالإخلاص لو أدركت حكومة اليمن حقيقة الموقف الذى دعا لها.. والمعروف أن عبد الناصر كان قد حدد فى أعقاب الانفصال أبعاد استراتيجيته الجديدة على صعيد الثورة العربية الشاملة، بعد أن أدرك أن الانتصار على الصهيونية والاستعمار يبدأ أولا بتصفية الرجعية العربية.

وفى خطابه يوم ١٦ أكتوبر ١٩٦١ قال عبد الناصر فى وضوح وتحديد: لقد وقعنا ضحية وهم خطير قادتنا إليه ثقة متزايدة بالنفس بالغين فقد كنا دائما نرفض المصالحة مع الاستعمار، ولكنا وقعنا فى خطأ المصالحة مع الرجعية، لقد تصورنا أنه مهما كان من خلاف بيننا وبين العناصر الرجعية فإنهم أبناء نفس الوطن، وشركاء نفس المصير، ولكن التجربة أثبتت خطأ ما كنا نتوهمه.. ولابد لنا لسلامة النضال الشعبى أن نتخلص أنفسنا من هذا الوهم الخطير الذى تركنا أنفسنا له، لابد من أن نقاتل الاستعمار فى قصور الرجعية، وأن نقاتل الرجعية فى أحضان الاستعمار!

٣٢ـ فشل السكرى فى اغتيال الإمـام

لا شك أن الذاكرة التاريخية حول الظروف الموضوعية التى سبقت ومهدت لاندلاع ثورة سبتمبر قد تعرضت ولا تزال لشتى ألوان الدس والتشويه، سواء ممن ينسبون لذواتهم بطولات وأدوار غيرهم، وسواء من المؤرخين الأجانب المغرضين، الأمر الذى يستدعى إعادة كتابة التاريخ اليمنى المعاصر وموقع الثورة منه، وتسريع وتيرة إنجاز هذا الهدف الوطنى المنشود، خاصة أن الكثير من شهوده لا يزالون على قيد الحياة.

صحيح أن مركز الدراسات اليمنية برئاسة الدكتور عبد العزيز المقالح قد أسهم بدور هام فى هذا السياق، عندما استدعى للشهادة الرئيس عبد الله السلال والقاضى عبد الرحمن الإيريانى والمناضل الجليل عبد السلام صبرة، ثم أصدر الكتاب الضخم فى ذكرى مضى ٣٠ عاما على الثورة بعنوان «دراسات وشهادات للتاريخ»، فيما صدرت العديد من المذكرات والشهادات المتناثرة التى بادر إليها بعض الشخصيات التى كانت لها بصماتها فى تاريخ الثورة والنضال اليمنى وبينهم القاضى محمود الزبيرى «أبو الأحرار» والشاعر الكبير عبد الله البردونى وله العديد من الكتب فى هذا المضمار أذكر منها (اليمن الجمهورى) و(وثائق أولى) و(ثورة اليمن الدستورية)، ثم ما صدر عن مؤسسة العفيف وصاحبها الأستاذ أحمد جابر العفيف من الكتب التى تغطى معظم أحداث الثورة، وكذا كتابى الأستاذ محسن العينى «معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن» و«خمسون عاما من الرمال المتحركة»، ومذكرات اللواء عبد الله جزيلان ثم الأستاذ أحمد نعمان الذى أملى شهادته فى الجامعة الأمريكية فى بيروت وكذا ابنه الأستاذ محمد أحمد نعمان وكتابه القيم «الفكر والموقف» الجامع لكل مؤلفاته، وكتاب العميد محمد على الأكوع أحداث ثورة ١٩٥٥، وكذا كتب الدكتور عبد الرحمن البيضانى العديدة والمثيرة للجدل، ثم كتاب العزى صالح السنيدار «الطريق إلى الحرية» وكتاب «التغيير» لأحمد الشامى، وكتاب «مسار يمانى» للدكتور عبدالله حسين بركات وكتاب الأحرار اليمنيين الذى ألفه خمسة منهم حول تاريخ الثورة اليمنية وأخيرا ذلك السفر

الوثائقى الضخم للشيخ سنان أبو لحوم بعنوان «اليمن - حقائق ووثائق عشتها فى أربعة أجزاء» . وبعدها كان صدور كتاب الصديق والمناضل الراحل أحمد حسنين المرونى «الخروج من النفق المظلم - معالم سيرة ذاتية» و . . غيره كثير !

ولا نحسب أن هذا الزخم يغنى عن التأريخ العلمى الشامل والموثق للثورة اليمنية منذ كانت حلما وإرهاصا وحتى كتب لها النجاح المضطرد والديمومة منذ اندلاعها، وعبر نهج وأسلوب محايد وضمير وطنى ملتزم بالحقيقة كيفما كانت !

على أن السمة الأساسية فى هذه الكتب والمذكرات أو الشهادات تفضى إلى الدروس المستفادة من الثورات والانتفاضات التى سبقت الثورة السبتمبرية، وتكمن فى القناعة باستحالة التغيير عبر الدعوات الإصلاحية التى كانت تراهن على مهادنة الحكام، أو اغتيالهم فحسب واستبدالهم بغيرهم من بيت حميد الدين !

وهناك شبه إجماع على أن نشأة الحركة الوطنية اليمنية كانت وليدة ضعف الإمام يحيى فى المواجهة العسكرية مع السعوديين أوائل الثلاثينيات، وقد عبرت الحركة الوطنية اليمنية عن نفسها عهدئذ من خلال النقد والسخط والتذمر فى مجالس تعاطى القات، وقد صور الدكتور عبد العزيز المقالح أو لعله الزبيرى . . هذه الحالة فى قصيدة قال فيها :

ناشدتك الإحساس يا أقلام — أتزلزل ونحن نيام

لما أهبت بها أطارد نومها — ضحكت بجفنها الأعلام

وصرخت فى أسماعها فتحركت — كن كما يتحرك النوام

٣٣ - مجلة الحكمة

فى هذه المرحلة ظهرت لأول مرة مجلة الحكمة ورغم أنها كانت تصدر فى صنعاء وتحت إشراف السلطة الحاكمة، لكنها كانت بصيصا من الضوء على الأفكار التقدمية، وبعدها كان طريق الأحرار إلى مصر وأبرزهم محيى الدين العنسى وأحمد حسين الحورش، فيما وصل إلى عدن مطيع دماج وعقيل عثمان والشهيد عبد الله أبو راس، ثم تبعهم القاضى الزبيرى والأستاذ نعمان وزيد الموشكى

ومحمد ناجى القوسى، ومن ثم كان تأسيس «حزب الأحرار» فى عدن، لكن الإنجليز اعترضوا على نشاطه السياسى بدعوى عدم حصوله على ترخيص رسمى، حتى نجح الأستاذ نعمان فى تأسيس الجمعية اليمنية وإصدار صحيفة «صوت اليمن» التى كان لها دور جماهيرى كبير فى الترويج لقيام الثورة الدستورية عام ١٩٤٨، حيث كانت تتبنى توجهات الأحرار فى مقاومة الاستبداد وحكم الشورى وسعادة الشعب والدعوة إلى الاتحاد العربى والوحدة الوطنية!

والشاهد أن الأيام المجيدة التى سبقت موعد اندلاع الثورة، ثم اندلاعها قد حفلت بأحداث غاية فى الإثارة، وتشهد وقائع التاريخ أن الأمير البدر ولى العهد الذى كان يدير دفة الحكم نيابة عن والده الإمام أحمد أثناء مرضه، عندما نقل مقر الحكم من تعز إلى صنعاء، الأمر الذى استدعى إجراء التعديل اللازم فى الخطة التى سبق وأن وضعها تنظيم الضباط الأحرار لتفجير الثورة، وإذا كانت مفاجأة وفاة الإمام أحمد مدعاة لتسريع وتيرتها وحسم خياراتها، فقد كان نجاح الوشاة والجواسيس فى حاشية الأمير البدر بعد أن أصبح الإمام الجديد - سواء بالعلم أو التنبؤ باندلاع الثورة - سببا آخر فى التعجيل بموعدها، بل إن بعض الرواة الثقات يؤكدون أن البدر كان يعتزم التنكيل بالضباط الأحرار بعد أن عرف بعض أسمائهم لكن الثورة كانت أسبق منه.

ومن هنا كان حرصى بعد وصولى لأول مرة إلى صنعاء على جمع ما تيسر من المعلومات كما هى عن الوقائع والملابسات خلال تلك الفترة والاستماع إلى الشهادات كما هى قبل أن يطويها النسيان أو يطولها التعديل والتشويه أو الأكاذيب!

وبينما يؤكد البعض أنه تم استدعاء عبد الله السلال من بيته ليلا حتى يتسلم زمام قيادة الثورة فى آخر لحظة، بديلا عن اللواء حمود الجائفى الذى اعتذر عن عدم القيام بهذه المهمة، يرى البعض أن شرارة الثورة اندلعت بينما كان الإمام البدر مجتمعا مع المشير السلال قائد حرسه والقاضى عبد الرحمن الإيريانى والشيخ محمد عثمان، عندما طلب السلال فجأة الإذن له بالمغادرة على وجه السرعة الأمر الذى أثار دهشة البدر وشكوكه إذ كان قد اتفق مع السلال على مناقشة بعض الأمور العاجلة!

٣٤ـ قصـــر السـلاح

فى هذه اللحظة كانت ست دبابات طراز «٣٤ . تى» وأربع مدرعات أخرى قد وصلت من الحديدة ودخلت صنعاء وراحت تقصف قصر البشائر، وخلالها قتل ثلاثة من رجال الحرس وترك غيرهم مراكزهم بينما ظل الإمام البدر وحده مع حريمه، حتى تمكن من الهرب إلى الخارج بعدما فشل الضابط حسين إسماعيل السكرى فى اغتياله عندما خانه سلاحه، فى الوقت الذى تسرع السلال بإعلان وفاة البدر!

والشاهد أن مختلف الروايات أكدت سقوط نحو مائة قتيل خلال محاولة اقتحام الثوار قصر البشائر، ثم قصر السلاح الذى كان من المستحيل التصرف فى بندقية أو طلقة رصاص من محتوياته بدون إذن كتابى موقع بإمضاء وختم الإمام، ولولا أن السلال تدخل شخصيا بحكم منصبه ورتبته العسكرية الكبيرة لسقط المزيد من القتلى وربما كانت الثورة قد دخلت من متاهات خطيرة!

يقول العميد السكرى إنه بعد حادث محاولة اغتيال اللقيه للإمام أحمد، كان لقائى بالملازم على عبد المغنى فى الحربية . . وتساءلت: ماذا نفعل من أجل البلد وكان صالح الأشول حاضرا وإذا بهما يعرضان علىّ الانضمام لتنظيم الضباط الأحرار، وكانا قد سمعا بدورى فى سرقة قائمة بأسماء بعض الضباط الأحرار من أحد جواسيس الأمير البدر، فلما خطب الإمام البدر بعد وفاة والده الإمام أحمد، عندئذ كان لا مفر من التعجيل بموعد قيام الثورة!

ثم يتابع السكرى شهادته: «وصلتنى إشارة من الملازم على عبد المغنى للقيام بمهمة اغتيال البدر وأرسل صالح الرحبى لمساعدتى، لكنى رددته وقلت له إننى ملتزم وحدى بالمهمة، وكنت آنذاك قائد فرقة الحرس، وعضوا فى إحدى خلايا الضباط الأحرار مع محمد النعامى ويحيى النهمى ومحمد اليدومى وحسين السخيمى وصالح ناصر العروسى وعلى الشعبى ومعظمهم من حرس البدر، وكنت قد أجريت تدريبهم على المهمة عند مرور البدر أثناء خروجه من الديوان فى الطابق الأرضى . . وعندما شرعت سلاحى لقتله وأطلقت رصاصتين اتضح أننى

لم أفتح الأمان كاملا، خاصة أنه لم يكن سلاحى الشخصى.. والمشكلة أن زملائى فى التنظيم كانوا بانتظار سماع طلقاتى إيذانا بالتحرك حسب الخطة الموضوعة، واستطعت أن أهرب عبر «عقود خزيمة» إلى بيتى، لكن حرس الإمام لاحقنى فى الوقت الذى كانت دبابات الثورة قد وصلت، وعندئذ بات الحرس على يقين بأننى مشارك فى الثورة حيث اقتادونى إلى داخل القصر، وحين حاولت القفز من «المفرج» عاجلونى بطلقة اخترقت أنفى حتى أسفل الفك.. وهكذا راح جرحى ينزف بغزارة بينما كانت الثورة قد استولت على السلطة بالفعل.. حيث عالجنى طبيب تشيكى واضطر إلى فتح أنبوبة فى بطنى للتغذية.. وبعدها سافرت إلى القاهرة للعلاج!

٣٥ـ الخادمة الإريترية تحاول قتل الإمام بالسم

ويزيح العميد محمد عبد الواسع الستار عن صفحات مجهولة حول المرحلة التى مهدت قيام الثورة يقول: كانت الأنظار تتجه جميعا للقاهرة بعد قيام ثورة يوليو، وأنا شخصيا كانت لى اتصالات بالقاهرة فى هذا السياق عبر محمد عبد الواحد الملحق الإدارى بالسفارة المصرية وقتئذ، وقبل خمسة شهور تحديدا قبيل اندلاع الثورة التقيت بالأخ عبد الغنى مطهر فى صنعاء، وأفشى لى سر الخطة الرامية لقيام ثورة جمهورية.. لكن الخلاف كان حول من يتزعمها، وعندما طرح اسم الملازم على عبد المغنى أبديت تحفظى لصغر سنه أولا ولأنه غير معروف على الساحة السياسية ثانيا، لكنه أكد لى أنهم مقتنعون به، خاصة أنه قائد تنظيم الضباط الأحرار!

وعندما تناقشنا حول الشخصية الوطنية المتعين أن يسند إليها قيادة الثورة طرحت اسم السلال فورا، فهو مقدام ومحنك ملتزم رغم اعتراض عبد الغنى مطهر باعتبار أن السلال قائد حرس الإمام، ومن ثم طلب مقابلته، وبعدما تم اللقاء والحوار بينهما، عاد يؤكد أنه الشخصية المطلوبة، وعندما عرف السلال سبب اللقاء قال: أنا معكم.. اعملوا على بركة الله!

بعدها كان اللقاء الموسع والحاسم على طريق صنعاء ـ الحديدة على بعد ٤٥ كيلو

متراً من صنعاء، وكان من بين حضوره القاضى عبد السلام صبرة وحسن العمرى وعبد الغنى مطهر ومحمد سعيد وعبد القوى حميم حيث جرى أول تخطيط للثورة، ثم كان تكليف عبد الله الضبى بتسليمى مجموعة من المتفجرات والأسلحة وإرسالها إلى تعز لتفجير الإمام أحمد، ولم يكن معنا فى هذا اللقاء عبد الله جزيلان على عكس ما كتب فى مذكراته!

ويتابع العميد محمد عبد الواسع حديثه: لكن للأسف أن التجارب التى أجريناها على المتفجرات فى منطقة «بوعان» فشلت لأن الصاعق أو المفجر لم يأت معها، وبعدما فكرنا فى اغتيال الإمام أحمد بالسم، واستطعنا تجنيد خادمته الإريترية للقيام بالمهمة، فكانت تدس جرعات السم تباعا فى طعامه، لكن وفاته بالمرض كان الأسرع، فى الوقت الذى بدأت شكوك الإمام الجديد البدر تحوم حولى، وحتى نزع رتبتى بدعوى تآمرى على والده ثم عليه.. لكن السلال والضبى أقنعاه بإعادتى إلى الخدمة العسكرية حتى لا يغضب الأحرار باعتبار أننى أنتمى لهم!

وحين الشروع لإعادة كتابة تاريخ الثورة السبتمبرية، فلا أقل من البحث والتقصى عن جنودها المجهولين وسبر أغوار المهمات النضالية الجليلة التى قاموا بها، وبينهم على عامر الذى كتب عنه العميد على عبد الله السلال، وأشاد بدوره المجهول فى توزيع منشورات الأحرار إبان ثورة ١٩٤٨، ثم منشورات الضباط الأحرار الذين فجروا ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، وكان يلجأ إلى توزيع هذه المنشورات فى المسجد المجاور لدار الشكر، فكانت تصل إلى بيت الإمام المجاور وتصيبه بالهلع والارتباك.

وقال العميد على عبد الله السلال إن هذه المنشورات.. كانت تصل كذلك إلى عامة المصلين فى المسجد وتثير فيهم الحماس والرغبة فى الخلاص من حكم بيت حميد الدين، وللأسف لم يستدل على مكان على عامر بعد نجاح الثورة، وكان ذلك أيضا مصير المناضل محمد محمد عبد الله الفسيل، وكان كاتبا وشاعرا، وعايش الأحرار من أمثال السلال والزبيرى والمرونى وكان قد شارك فى ثورة ١٩٤٨، وذاق التعذيب ألوانا فى سجن حجة، ولما أفرج عنه عاد مجددا إلى توزيع منشورات الثورة!

٣٦ ـ زوجة الإمام يحيى تندد بمظالمه

أما أول شهداء الثورة فهو صالح الرحبى الذى كان قد أطلق النار على الحسن والحسين أبناء الإمام عندما أرادا الاعتداء على المناضل العراقى جمال جميل، واستطاع الهروب من السجن مع اللواء حمود الجائفى أول الستينيات، حيث أسندت إليه مسئولية آمر القلاع وقصر السلاح، واستشهد عندما ذهب ليلة الثورة لإخراج الذخيرة من قصر السلاح!

والقائمة التى تحفل بأسماء غيرهم من الجنود المجهولين الذين لم يعرف مصيرهم، وبينهم المناضل حسين العلفى قائد محافظة صعدة وهو قد شارك فى تفجير الثورة، وكذا الجندى أحمد الحناكى وكان يقود دبابة ليلة الثورة حتى احترقت!

أما الذين أمكن التعرف على مصيرهم عبر عائلاتهم، منهم الشهيد أحمد الغفرى، فهو كان كاتبا فى الجيش، وقد ظل مطاردا سنوات بسبب كتابته للمنشورات وتوزيعها بين الجنود والضباط، حتى قبض عليه ودخل سجن حجة، وراح يعلم المساجين القراءة والكتابة ويدافع بقوة عن المساجين الأحرار ولذلك نال من التعذيب أضعاف غيره، وبعد سبع سنوات ونصف السنة أفرج عنه ليتزوج وينجب ثلاثة أولاد وبنتين وهو فى الأربعين من عمره.

ثم يستوقفنا فى كتاب «قراءات فى الأدب والفن» للدكتور عبد العزيز المقالح ما رواه عن المناضل على الغفرى الذى لم يعرف عنه موهبة الأدب، حين انفعل بقيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فأنطقنه شعرا ينبض بالثورة والأمل عبر قصيدة يقول فى مطلعها:

سطع الصبح من شبا عالة ... فتوارى الظلام فى سرباله
نبأ أبرقت به مصر للعرب ... أضاءت أنواراً من خلاله
كانت فى صداه صوت نظير ... لعروس الملوك من أمثاله
تتحدى الأهوال فيه نقوشا ... لم يرعها الزمان فى أهواله

بطولات وتضحيات وآيات من الصبر والصمود على وعد الثورة والانعتاق كما الأساطير والملاحم الشعبية على أفواه الرواة، ولم تكن المرأة اليمنية أقل من الرجل فى النضال وخوض الصعاب رغم وضع المرأة الاجتماعى المتدنى فى تلك المراحل المظلمة من تاريخ اليمن.

وكم سمعت مرارا قصصا مشرفة ومثيرة عن فاطمة يحيى غراب زوجة المناضل الثائر مجاهد حسن غالب، وكيف كانت تلاقى الويلات والإهانات وهى تتابع تنقلاته بين السجون، وهى تطرق الأبواب حتى ينقلوه إلى المستشفى للعلاج، ثم وهى تواجه مثله وطأة سجن النساء وكيف أنها خرجت من السجن لتواصل دورها فى نقل رسائل الثوار، وكيف صحبت زوجة القاضى الزبيرى إلى عدن على ظهر حمار حتى تلحق به فى القاهرة.. ثم كيف هداها تفكيرها لتوصيل رسائلها إلى زوجها السجين المريض عبر وضعها فى حذاء طفلها والسماح له بزيارة والده!

وفاطمة غراب ليست النموذج الوحيد للمرأة اليمنية ودورها فى الثورة، فعلى غرارها كانت زوجة المناضل محمد القنبلة وابنة المناضل عبد الغنى مطهر، وحليمة العطاب زوجة المناضل حسين عنبة، وغيرهن بالمئات ممن طواهن النسيان رغم كم وألوان المعاناة والأهوال وعطائهن الجسور على درب الثورة، ثم يتندر اليمنيون بزوجة الإمام يحيى واسمها «بنت الدرويش»، حين كانت تطل من شرفة دار الشكر ثم تشتم زوجها وتندد بمظالمه وتدعو الله أن تعيش حتى تشهد بنفسها يوم نهايته حتى اضطر حرس الإمام إلى حبسها واتهامها بالجنون وهى العاقلة المؤمنة!

٣٧- استشهاد الضباط الأحرار

على ما تبدو الشواهد أن فشل عملية اغتيال الإمام البدر، ثم هروبه من صنعاء، قد أربكت الخطة الموضوعة للثورة اليمنية بمجرد اندلاعها؛ وذلك أن البدر تمكن من الوصول إلى «حجة» الحصينة أولا، وبعدها ظهر فى جبل «نادر» يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٦٢، فى الوقت الذى توجه الأمير عبد الله بن الحسين إلى الجوف والأمير الحسن

الذى ذهب إلى منطقة خولان والأمير الحسن بن الحسن إلى مأرب، حيث بدأت عملية تأليب القبائل ضد الثورة بالدعايات الباطلة وشراء ضمائرها بالذهب والسلاح، فى الوقت الذى اكتشفت القيادة السياسية فى مصر أن ما وصلها من المعلومات حول التداعيات المحتملة لاندلاع الثورة غير واقعية، سواء ما وصلها عبر العميد عبد الله السلال قائد الثورة أو الملازم على عبد المغنى قائد تنظيم الضباط الأحرار أو الدكتور عبد الرحمن البيضانى الذى ادعى صلاته ومعرفته الوثيقة بالداخل اليمنى؛ وذلك أنه لم يحسب حساب غلبة الولاء القبلى بين أفراد الجيش اليمنى على الولاء للوطن، وغياب التوعية السياسية بضرورات الثورة، خاصة وكان القيام بهذا الدور شبه مستحيل مع انتشار جواسيس وعملاء الإمام من جهة، والحفاظ على سرية الإعداد للثورة من جهة أخرى، وهكذا عندما اندلعت الثورة عاد معظم الجنود ومعهم سلاحهم الخفيف إلى قراهم وقبائلهم مع الحرص على استلام رواتبهم بانتظام!

من هنا كان الخلل يكمن فى غياب أهبة الاستعداد على صعيد حشد وتنظيم التشكيلات العسكرية اليمنية المؤهلة للدفاع عن الثورة، بينما كانت مصر قد بادرت إلى الاعتراف بالنظام الجديد، بل وأعلنت بيانا يحذر من التدخل فى شئون اليمن، وهكذا قدر لتنظيم الضباط الأحرار القيام بعبء الدفاع عن الثورة، وغيرهم من الضباط «الأصاغر» وهو الوصف الذى لحق بالضباط الشبان الذين تلقوا التدريب عبر البعثات العسكرية المصرية أو العراقية، حيث توزعوا على عدة جبهات لمطاردة البدر والدفاع عن صنعاء فى مواجهة احتمالات هجوم القبائل الموالية له. . وحتى استشهد الملازمان محمد الشراعى وعبد الرحمن المحبشى يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ ثم الملازم على عبد المغنى فى ٣٠ سبتمبر وبعدها كانت بداية تدريب وتسليح الدفعة الأولى من جحافل الحرس الوطنى للدفاع عن الثورة!

من هنا لم يكن هناك مفر إزاء الأوضاع العسكرية غير المتوازنة من مطالبة مصر بدعم الثورة اليمنية عسكريا على وجه السرعة، حيث كان تقدير الموقف من قبل السلال والبيضانى وقتئذ أن المطلوب مجرد شحنة من السلاح الخفيف والذخيرة وسرية من جنود المظلات أو الصاعقة فحسب.

وبينما كان رد الفعل لوصول هذه السرية بالغ الأثر فى حماس قيادة الثورة ورفع الروح المعنوية للشعب اليمنى، كان واضحا تماما للسعوديين أن رياح ثورة ٢٣ يوليو باتت قريبة منها، فكان أن تكونت قيادة عسكرية مشتركة بين السعودية والأردن والإمام البدر، وتمركزت فى منطقة نجران المتاخمة لليمن، يدعمها تمويل هائل للقبائل الملكية بالسلاح والذهب فضلا عن إذاعة قوية لإقناع القبائل اليمنية الجمهورية بالانقلاب على الثورة!

على أن العملية «٩٠٠٠» وهو الاسم الكودى للحملة العسكرية المصرية إلى اليمن وقعت فى شراك التقديرات الخاطئة لحجم وقوة الثورة المضادة، وهكذا تصاعد تدفق القوات المصرية إلى اليمن بأكثر مما كان متوقعا إلى مستوى لواء عسكرى ثم لواءين وحتى وصل الأمر فى النهاية إلى ما يزيد على ٧٠ ألف جندى ومع ذلك كانت موارد الدولة المصرية وإمكاناتها ودخل مشاريع خطة التنمية الستينية آنذاك قادرة على الوفاء بكلفة تلك المهمة القومية!

على أن القوات المصرية سرعان ما اكتشفت صعوبة أداء مهمتها، إذ إن مسرح العمليات العسكرية فى اليمن من حيث الطبيعة الجبلية الوعرة التى تتيح للقبائل الملكية احتلال قممها والتحكم بسهولة فيما حولها من الطرق والمدقات، بينما جرى تدريبها على القتال فى الصحراء المنبسطة كما فى سيناء أو فلسطين.

ثم إن رجال القبائل الملكية أدرى بمسالك الجبال والتمترس فى كهوفها وقتا طويلا دون حاجة سوى اليسير المتواضع من الطعام، وتوافر طلقات البنادق ومعظمها كان طراز «الجرمان» التى سبق استخدامها فى الحرب العالمية الأولى قبل أن تصلها من وراء الحدود أحدث الأسلحة والمعدات العسكرية، بينما كانت الصعوبة التى واجهت القوات المصرية، تكمن فى اضطرارها إلى حمل الأسلحة الثقيلة والسير بها فوق الطرق الخشنة وحراستها بشكل دائم، إذ كانت إصابة إطار واحد فى سيارة لورى أو مدرعة كفيلة بتوقفها فى مكانها، وتعرض جنودها للموت المحتوم إذا فكروا فى مغادرتها، ثم حاجة الجنود إلى الوجبات الغذائية التى تعودوا عليها من حين لآخر!

٣٨ـ الملكيون يركبون الجبال

بعدها كانت لدى القوات المصرية حصيلة وافرة من الخبرات القتالية فلم يعد ثمة حاجة إلى الاستعانة بالأدلاء، إذ كان بينهم عملاء، وكان معظمهم لا يستطيعون حساب المسافات على النحو الذى يحدد مواقع العدو بالدقة المطلوبة، وكلما كان يطلب من الدليل تحديد مكان ما. . كانت إجابته دوما «قدام»، كذلك كان التغلب على مشكلة ركوب العدو قمم الجبال، عبر الاستيلاء عليها أولا كمرحلة تمهيدية تسبق أى عملية عسكرية. . وهو ما قلص من حجم الخسائر فى الأرواح والمعدات، بل وأصبح الجندى المصرى منافسا للمقاتل القبيلى فى سرعة تسلق الجبال!

والمعروف أن الباخرة المصرية التى حملت أول سرية للصاعقة بملابسهم المدنية وأبحرت من ميناء الأدية حتى ميناء الحديدة لم يكن قد مضى سوى أسبوع واحد على اندلاع الثورة اليمنية فى ٢٦ سبتمبر، كانت تحمل على ظهرها كذلك طائرتين طراز «ياك» القاذفة قصيرة المدى، وهى كانت تقلع بصعوبة من مطار الروضة البدائى على مشارف صنعاء، أو من مطار آخر على غراره فى صعدة، واستطاعت بالفعل أن تثير الرعب فى صفوف القوات الملكية وتعزز من قوة الثورة ومهابتها!

بعدها كان تجهيز العدد الكافى من المطارات فى ربوع اليمن وزيادة عدد الطائرات العسكرية، ورغم نجاحها فى تشتيت الحشود العسكرية المعادية عبر طلقات المدافع الرشاشة، إلا أن قدرتها على تدمير المغارات الجبلية التى تحتمى بها القوات المعادية بالقنابل كان ضعيفا، أما الطائرات السوفيتية الاستراتيجية « ت ى ١٦ » التى كانت تقلع من مصر وتلقى قنابلها فى اليمن ثم تعود إلى مصر فى رحلة واحدة، فقد كانت قوتها التدميرية زائدة على الحاجة، حيث كانت القبائل المفسدة تترك قراها وتلجأ إلى الجبال الحصينة، فضلا عن الكلفة الباهظة لثمن هذه الطائرات وقطع غيارها ووقودها، واحتمال تعرضها للحوادث!

لن نخوض غمار معارك الثورة ضد قوى الثورة المضادة على اتساع ٤٠ جبهة، فذلك ما حفلت به وبالتفصيل العديد من الكتب والمقالات والبحوث العربية

والأجنبية، وإلى حد أن هذه المعارك طالت الحدود السعودية المتاخمة لليمن، وربما من هنا استشعرت الولايات المتحدة الخطر الذى يهدد مصالحها فى المنطقة . . وخاصة الاحتياطيات البترولية الضخمة.

كان الرئيس جون كنيدى يرنو إلى الحوار مع الرئيس جمال عبد الناصر بهذا الخصوص، وكانت العلاقات المصرية الأمريكية مقطوعة، ويذكر د. جون بادو باور رئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة وسفيرها بعد ذلك فى مصر أن الرئيس كنيدى استدعاه حتى يطلعه على مسودة خطاب يعتزم إرساله إلى عبد الناصر، ومن ثم خطر له بحكم معرفته الوثيقة به أن يطلب من كنيدى تغيير لهجة الخطاب وتعديل بعض فقراته، حتى لا يؤدى إلى عكس المطلوب، من حيث إن عبد الناصر الصعيدى يرفض الإملاء أو الإمالة، وهو سبق ورفض المبلغ الضخم الذى قدمه له رجل المخابرات الأمريكية مايلزكوبلن، وأشار بتوجيهه لتمويل مشروع بناء برج القاهرة شاهدا على سوء تقدير السياسة الأمريكية!

أذكر بالمناسبة أن روجرز وزير خارجية أمريكا كان قد زار اليمن عام ١٩٧٢ بعد قطيعة بين البلدين دامت تسع سنوات، بينما ظلت العلاقات الدبلوماسية بين القاهرة وواشنطن مقطوعة، وإذا بالسفير المصرى فى اليمن آنذاك يبادر إلى حضور الحفل الذى أقامه له محسن العينى رئيس الوزراء فى القصر الجمهورى فى حضور القاضى عبد الرحمن الإيريانى رئيس المجلس الجمهورى من وراء ظهر الخارجية المصرية، وعندما واجهت السفير بالواقعة، ادعى أنه انتهز الفرصة وخطب فى هذا الحفل مندداً بالسياسة الأمريكية المعادية لمصر، وعندما سألت محسن العينى رئيس الوزراء اليمنى عن هذه الواقعة تبين عدم صحتها جملة وتفصيلا!

٣٩ ـ الهيرالد تربيون تفضح المرتزقة

وترصد مراكز الدراسات العسكرية والاستراتيجية عددا من أشهر المرتزقة الأجانب الذين انضموا إلى صفوف القبائل اليمنية الموالية للإمام البدر وهو ما أكدته كذلك صحيفة «الهيرالد تربيون الأمريكية» إذ قالت: كان بينهم فرنسيون وبلجيكيون ممن حاربوا مع تشومبى فى كاتنجا، تحت إمرة ضابط فرنسى فى قيادة

الجيش الفرنسى السرى بالجزائر، بينما كان المرتزقة الألمان يديرون الأجهزة الدقيقة ومهام الإشارة والاتصالات اللاسلكية، وكان متوسط أجر المرتزق الأجنبى آنذاك تسعمائة دولار شهريا، فيما انضم ضباط بريطانيون علنا إلى الملكيين وأصبحوا من أركان حرب الإمام!

فى الوقت الذى تولى عضو فى مجلس العموم البريطانى يسانده قادة حزب المحافظين مهام الدفاع عن قضية الإمام البدر وبينهم إدوارد هيث ودنكان سانديرا وجليبرت إيمرى ونيل ماك لين.

وكتبت صحيفة «نيويورك تايمز» تقول: «هذه الحرب البعيدة المجهولة فى ركن قصى من الجزيرة العربية، لا تقل أهمية فى نتائجها عن حرب فيتنام، وقد لا يدرك كثيرون فى الغرب ما تعنيه هذه الحرب، ولا يلقون اهتماما بها، لكنها حرب حاسمة، وقد تقرر إلى أبعد مدى مصير الشرق الأوسط، هل فى صالح عبد الناصر وثواره أم القوى المحلية الصديقة والحليفة للغرب؟ لذلك لا تستطيع الولايات المتحدة أن تتجاهل هذه الحرب والتى جعلت من الشرق الأوسط كله برميل بارود متفجرًا»!

والشاهد أن بناء وتعمير مصر وتحرير اقتصادها ثم بناء السد العالى قد أوغر صدر أمريكا، خصوصا وأن عبد الناصر لم يبخل على الجزائر بعد أن تحررت من فرنسا من إمدادها بخبراء التنمية فى شتى المجالات وكذلك اليمن، فى إطار خطة بعيدة المدى للتكامل الاقتصادى القومى، ولذلك رغم أن أمريكا تلقى بكميات هائلة من إنتاج القمح فى البحر أو تتركه فى المخازن حتى يأتى عليه السوس، إلا أنها ضنت على مصر ورفضت أن تبيعها القمح فى المقابل.. ولم ينجدها عهدئذ سوى موسكو حين قرر خروتشوف تحويل مسار البواخر التى كانت تحمل القمح للاتحاد السوفييتى إلى مصر، ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن الاتحاد السوفييتى تنازل عن ثمن كل الأسلحة التى اشترتها مصر تقديرا لدور مصر الثورى ودعما للثورة اليمنية!

المعروف أن الرئيس كنيدى كان قد أرسل واحدا من مستشاريه الاقتصاديين وأحد علماء الاقتصاد فى أمريكا إلى مصر وهو الدكتور «رماسون» حتى يتأكد إن كان اقتصاد ثورة ٢٣ يوليو شيوعى النهج على صعيد الممارسة والتطبيق، وعاد ليؤكد للرئيس الأمريكى أن مصر تبنى اقتصادا وطنيا اجتماعيا مستقلا!

ولعله من المفارقات المدهشة أن جريدة «النيويورك تايمز» التى كانت من أشد أعداء الثورة الجمهورية فى اليمن، وشنت حملة من الانتقادات للرئيس كنيدى لأنه اعترف بالنظام الثورى فى اليمن، إذا بها ترسل دانا آدم سميث وهو كان أهم مراسليها إلى اليمن . . وعاد يؤكد فى مقالاته بعد أن شن حملة ضارية على الجيش المصرى قائلا: «ولكننى تأثرت تأثرا كبيرا، وترك انطباعا عميقا فى نفسى، حين تابعت حملة المصريين لإقناع اليمنيين وكسب عقولهم وأرواحهم أولا، وكان فى الجيش المصرى قسم خاص يقوم بشتى المهام، مثل حفر الآبار وتركيب المضخات وبناء المدارس وتوفير المدرسين وتقديم الخدمات الزراعية والهندسية والطبية»!

٤٠ ـ استدعاء الأمير الحسن من نيويورك

بدأت السعودية التدخل لإجهاض الثورة اليمنية فور اندلاعها، مما دفع مصر إلى التدخل بعد ذلك لدعم صمودها، وكانت السعودية قد بادرت إلى استدعاء الأمير الحسن الذى كان مندوبا لليمن فى الأمم المتحدة لقيادة القبائل الملكية فى الحرب ضد الثورة ووضعت تحت أمره الذهب والسلاح قبل الإعلان عن ظهور الإمام البدر منذ محاولة الاغتيال التى تعرض لها فى صنعاء، حيث تولى القيادة من عمه، وشتان بين الانحياز لطموحات الشعب اليمنى للتغيير والانعتاق إيذانا بالحرية واللحاق بركب العصر، وبين الانحياز لحكم بيت حميد الدين الكهنوتى البغيض.

عبر السعودية سربت الولايات المتحدة إلى القبائل الملكية شحنات السلاح الأمريكى الحديث، وبينها مدافع ١٠٥ مم ومدافع الهاون والبازوكا ومدافع عيار نصف بوصة وكذا العربات والشاحنات ذات الدفع الرباعى المخصصة للسير فى الصحراء والمناطق الوعرة غير أجهزة الاتصالات اللاسلكية!

كذلك دور بريطانيا فى محاولة إجهاض الثورة اليمنية، عبر تسليح ودفع شريف بيجان للقيام بالعمليات التخريبية انطلاقا من «حريب» و«الحجلة»، وإثارة الفتنة الطائفية بين الشوافع والزيود، على أمل فصل الجنوب الشافعى وضمه للنفوذ البريطانى فى عدن والمحميات.

من هنا كان على القوات المصرية فى اليمن أن تتعامل مع مختلف المتناقضات

القبلية والطائفية بفهم وروية سواء عبر إنشاء إدارة شئون القبائل التى كانت تضم مجموعة من الضباط المصريين المثقفين، أو الاستعانة بكل المخلصين للثورة من المستشارين اليمنيين الأدرى بفهم الواقع اليمنى والتعامل مع متناقضاته، لكن ظل الرهان على المدى الطويل موصولاً بخطط التنمية والتحديث!

أنشئت الهيئة العليا للموظفين وكانت مهمتها بناء جهاز الدولة بعد تطهيره من العناصر الفاسدة والرجعية وتدريب الكوادر المؤهلة لإحداث الطفرة الإدارية، ورصدت لها ميزانية مالية مستقلة، وبدأت خطة التوسع فى إنشاء المدارس والمعاهد والمراكز الثقافية والإعلامية والمستشفيات وشق الطرق وإنشاء المطارات والمساكن، وكان للسوفييت والصين الشعبية جهود مقدرة على هذا الصعيد.

كذلك أعيد بناء القوات المسلحة اليمنية من جديد، بشريا وتنظيما وتسليحا، وأذكر أننى شهدت على مشارف صنعاء تخريج دفعة من سلاح المدرعات، وقال لى الضابط المصرى العقيد أحمد شهاب المسئول عن التدريب، إن المدة التى يستغرقها تدريب طاقم المدرعة فى مصر حوالى ستة شهور، بينما نجح ذكاء اليمنيين ولهفتهم إلى التدريب والدفاع عن الثورة إلى اختصار المدة لستة أسابيع فقط.

ولا شك أن إعادة بناء القوات المسلحة اليمنية قد لعب دورا هاما فى التخفيف من أعباء القوات المصرية الدفاعية، ثم المشاركة بشكل فعال فى حراسة خطوط الإمدادات، وخوض المعارك الهجومية على مواقع القوات الملكية بكفاءة عالية.

ثم نعود إلى طرح سؤال التاريخ: هل تورط جمال عبد الناصر فى مساندة الثورة اليمنية؟ وبمعنى أكثر تحديدا: هل كان قراره انفعاليا دون حسابات مسبقة؟ وهل كان لنكسة يونيو ١٩٦٧ وراء خياره الحاسم بالانسحاب من اليمن؟

ولأن السياسة فكر وجدل وموقف، ولأن جمال عبد الناصر لم يكن سياسيا فحسب وإنما زعيم يدين بالمبادئ القومية والوحدوية، من هنا كان شعاره المعروف بعد انفصال سوريا عن الوحدة مع مصر «أنه لا مفر من معركة حاسمة للقضاء على الرجعية العربية أولا قبل أى معركة مع إسرائيل» ثم نعبر سريعا على واقعة رشوة عبد الحميد السراج لاغتيال عبد الناصر، والتحالف بين أقصى اليمين العربى وبين

اليسار والبعث السورى لفصم الوحدة المصرية السورية . . وهنا نستعرض مقولات عبد الناصر :

« كنت قد وضعت فى حسابى أن أبدأ المعركة مع إسرائيل عام ١٩٦٥ ، لكن بعد انكشاف دور الرجعية العربية ، كان لا بد من إجهاض مؤامرتها وحصار تأثيرها السلبى على قيام صف عربى موحد يمكننا من خوض معركة مع إسرائيل تنتهى لصالح العرب» وقال كذلك «الذين يروجون لتورط مصر فى اليمن واهمون . . فاليمن لا تقل فى أهميتها الاستراتيجية والقومية عن فلسطين المحتلة ، وعليكم أن تدركوا أننا نحارب هنا فى جبهة استراتيجية هامة من جبهات الثورة العربية الشاملة . . ولذلك فإننى غير متعجل لبدء المعركة مع إسرائيل ، لأن تحرير اليمن ومساندة ثورتها ونظامها الجمهورى يمثل معركة من المعارك التمهيدية للمعركة المصيرية الفاصلة ، وإذا كان لى أن أحدد موعدا لهذه المعركة فى ضوء الموقف العربى والدولى . . فليس أقل من عام ١٩٧٠».

فى عام ١٩٦٧ وبعد أن حشدت مصر قواتها المسلحة فى سيناء ، تدخلت القوى الكبرى بما فيها يوغسلافيا بزعامة تيتو وفرنسا بزعامة ديجول ، وطالبوا عبد الناصر بضبط النفس وألا يكون البادئ بالحرب ، واطمأن إلى كسب الجولة سياسيا مع إسرائيل فى الأمم المتحدة ، لكن هذا الاطمئنان لم يستمر طويلا ، بعد أن أدرك أبعاد التآمر الأمريكى ، حيث شدد فى إنذاره للقيادة العسكرية المصرية بأن المعركة قادمة ، وأن موعدها صباح الخامس من يونيو ، حسبما علمه من مصادر دولية صديقة وعبر رأفت الهجان الذى زرعته المخابرات المصرية فى إسرائيل .

٤١ ـ اليمن ونكسة يونيو

هنا نصل إلى تأثير حرب اليمن على نكسة يونيو ١٩٦٧ من وجهة النظر العسكرية البحتة على نحو ما تيسر لى من المعلومات التى استقيتها كمراسل عسكرى من المصادر الهامة بين القيادات والمحللين العسكريين وفى مقدمتهم أمين هويدى وزير الحربية ومدير المخابرات المصرية سابقا :

أولا : أن القوات المصرية فى اليمن لم تنل قسطها المطلوب مما يسمى عسكريا «تطعيم المعركة»، إذ كانت نقطة الضعف الكبرى، أن القائد والجندى كانا بعيدين عن مناخ وآليات الحرب الحديثة المطلوبة لإدارة حرب الأسلحة المشتركة، إذ كانت تخوض حربًا نظامية فى مواجهة حرب العصابات التى تقوم بها قوى الثورة المضادة فى اليمن، الأمر الذى تسبب فى نمو الإحساس الكاذب بالتفوق العسكرى وقوة النيران، وأن ما يجب أن تقوم به اليوم من أعمال قتالية هنا وهناك، يمكن تأجيله إلى وقت آخر، وهو ما يرفضه منطق الحرب الحديثة، حيث لعامل الزمن أهمية قصوى فى تنفيذ خطط المعارك وتطوير الهجوم!

لكن هناك من يرى أن الجيش المصرى كانت له قيادته المؤهلة ومعاهده ومراكزه العسكرية المتخصصة، وهى التى كانت تبلور عقيدته القتالية فى ضوء الأهداف العسكرية الرئيسية والثانوية، الوطنية أو القومية، مما يفرض الانتقائية فى نوع وكميات الأسلحة وقوة النيران، وإعداد برامج التدريب وفقا لطبيعة العمليات ومسرح القتال والعدد الذى تواجهه، إضافة إلى خبراتها القتالية المكتسبة عبر مواجهة حرب العصابات باليمن، على صعيد خبرات الحرب الليلية وتأمين سلامة القوات، والتدريبات العملية لقوات المظلات والصاعقة فضلا عن تعميق الوعى السياسى بوحدة المصير القومى!

ثم إن عملية استبدال القوات ظلت مستمرة على مدى خمس سنوات الحرب فى اليمن، حيث كان يعاد تدريبها وزيادة كفاءتها فى مصر، ولعل سجلات الجيش المصرى خير شاهد على التصاعد البيانى المستمر فى عدد المناورات والمشروعات العسكرية التى شاركت فيها مختلف التشكيلات العسكرية والأسلحة المشتركة!

أما ما يشاع عن افتقار القوات المصرية فى اليمن لخطورة سلاح الطيران بدعوى أن القوات الملكية لم تكن لديها قوات جوية، إلا أن بعض الأنواع من الطائرات المصرية القاذفة فى اليمن لم يختلف دورها آنذاك عنه فى مسرح العمليات فى مصر عام ١٩٦٧، وكذا تدريبات الطيارين على مسارح القتال لم تكن مختلفة، خاصة أن الطيارين على الطائرات المقاتلة لم تكن هناك حاجة إليها فى اليمن وكذلك المدرعات سوى عدد محدود منها، ولذلك خرجت من حسابات الحرب فى اليمن وكانت مدخرة بالكامل للمعركة مع إسرائيل!

إلى ذلك فقد جرى تدمير الطائرات الإسرائيلية للطائرات العسكرية المصرية صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ وهى رابضة على ممرات المطارات العسكرية فى مصر، ولذلك باتت القوات البرية فى سيناء مكشوفة ومصيدة للطيران الإسرائيلى، بينما عادت القوات المصرية من اليمن سليمة إلى حد كبير، مما يؤكد على أن ثقل وحجم القوات المصرية الأكبر كان مدخرا للدفاع عن مصر وشن الهجوم بعد ذلك على إسرائيل وبينها أربع فرق مشاة، أربعة ألوية مشاة مستقلة، فرقة مدرعة، ثلاثة ألوية مدرعة مستقلة، ١٥٠ طياراً و ١٥٤ طائرة عسكرية، بالإضافة إلى تشكيلات الدفاع الجوى، ووحدات المدفعية والهاون، والقاذفات الصاروخية وكتائب الاستطلاع وحرس الحدود فضلا عن السلاح البحرى بالكامل، وإذن فالحرب بين مصر وإسرائيل عام ١٩٦٧ لم يكن على الصعيد العسكرى بين الكم والكم، وإنما بين الكم والكيف!

٤٢ - إغلاق باب المندب

أما القول بأن معايير الضبط والربط العسكرى تلاشت فى اليمن، فهو قول مردود عليه بأن القوات المصرية ما كان لها أن تظل تواصل مهمتها فى اليمن على مدى خمس سنوات وعلى اتساع جبهات الدفاع عن الثورة لو كان هذا الادعاء صحيحا، بل كان ذلك من أهم عوامل إحكام السيطرة، وفقدانها كان يعنى خسائر فادحة لم يكن بالإمكان تلافيها!

الحديث بعد ذلك عن جدوى الدور المصرى فى اليمن رغم أنه معاد وممل، إلا أن مردوده القوى كان بلا حدود وفوق كل التصورات، فلقد تحرر اليمن من حكم الأئمة فى الشمال والاستعمار البريطانى فى الجنوب، ثم توحد الشطران وتلاحم الشعب الواحد ليصنع معجزة حضارية وديموقراطية وتنموية يعجز عن إدراك مداها وأهميتها وإشعاعاتها دعاة الردة وأعداء العروبة، وها هو زهاء ١٩ مليون يمنى كانوا مطروحين من الأمة العربية يعودون إليها ويجددون من فكرها ويضيفون الكثير من العطاء والقوة للدعوة القومية بعد إنجاز الوحدة ونهاية التشطير فى اليمن!

ثم نتساءل مجددا: هل كان بوسع البحرية المصرية إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣،

المغامرة بإغلاق باب المندب فى وجه الملاحة الإسرائيلية، لو كان على سدة الحكم فى شمال اليمن حكام بيت حميد الدين، أو كان الاستعمار البريطانى رابضا بقضه وقضيضه فى مستعمرته الأثيرة عدن!

ثم أليس هناك قدر من المصداقية فى رأى بعض المحللين من أن نكسة ١٩٦٧ كانت تستهدف إبعاد القوات المصرية التى تحمل جرثومة الثورة والفكر القومى عن منطقة شبه الجزيرة العربية، التى كانت تمثل الحديقة الخلفية للمصالح والنفوذ الإمبريالى ؟!

٤٣ ـ شهادة المشير السلال

لا شك أن مصر كانت لها قناعات ثورية سياسية وقومية واستراتيجية خاصة عندما اغتنمت فرصة اندلاع الثورة اليمنية، على صعيد دفع مخاطر الحصار الذى جوبهت به ثورة يوليو فى أعقاب مؤامرة انفصام الوحدة المصرية السورية، وفتح جبهة ثأرية مع قوى الرجعية والإمبريالية الضالعة فى المؤامرة، وعلى مقربة من مصالحها الاقتصادية والسياسية فى هذه المنطقة الاستراتيجية.

ولا شك أيضًا أن المناخ والظروف السياسية الإقليمية والمحلية التى واكبت اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، كانت أكثر ملاءمة منها إبان ثورة ١٩٤٨ أو انتفاضة الثلايا عام ١٩٥٥، فالاتحاد السوفيتى أصبح القطب الدولى المنافس لأمريكا، وكانت السياسة السوفيتية حادبة آنذاك على دعم حركات التحرر فى العالم الثالث ودول عدم الانحياز وفى مقدمتها مصر، ثم إن أواصر الوحدة اليمنية على صعيد القيادات السياسية اليمنية كانت قد تلاحمت مع قوى الشعب اليمنى بمختلف طبقاته وأطيافه السياسية والقبلية، فضلا عن فئات المتعلمين والمثقفين الذين نهلوا العلم والمعارف عبر البعثات الدراسية فى مصر وغيرها، ثم إن قلب الثورة النابض والمحرك لآليات التغيير فى القوات المسلحة كان على أهبة الاستعداد للقيام بدوره السياسى والتاريخى المطلوب، ولم يكن ينقصه السلاح المطلوب وإن كان رهن مخازن الإمام أحمد فى تعز وصنعاء!

وربما لم يتجاوز المشير عبد الله السلال عندما التقيته وحاورته على مهل فى عدن بعد ٢٨ عاما من اندلاع الثورة السبتمبرية حين قال لى : لقد قامت الثورة فى موعدها تماما، ولو أنها تقدمت أو تأخرت لما كتب لها النجاح الذى تحقق وأصبح كنور الشمس فى وضح النهار!

وقال لى اللواء عبد العزيز سليمان إن عبد الناصر - الذى درس العلوم الاستراتيجية العليا وكان معلما لها فى كلية أركان الحرب - ضحى بمعايير الأمان العسكرى لحساب القرار السياسى القومى عندما خاضت مصر معارك دعم الثورة اليمنية، وأن عبد الناصر روى له أنه كان يعد القوات المسلحة لخوض معركة التحرير مع إسرائيل عام ١٩٦٥ لولا اندلاع ثورة اليمن.

معروف أن اللواء عبد العزيز سليمان كان من الضباط المصريين البارزين الذين لعبوا أدوارا سياسية وعسكرية هامة فى اليمن، وهو كان أول شهداء الضباط العظام خلال حرب يونيو ١٩٦٧، ومن هنا يأتى سؤال التاريخ والقومية والاستراتيجية: هل كانت ثورة اليمن الفخ المنصوب الذى مهد لضرب القوات المصرية فى سيناء يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧؟

لقد قدر لى كمحرر للشئون العربية والعسكرية بمجلة روز اليوسف آنذاك شرف متابعة ملحمة ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ من القاهرة أولا، ثم لم يمض سوى بضعة أسابيع على اندلاعها، حتى وصلت مطار صنعاء فجرا على طائرة نقل عسكرية طراز «اليوشن» أقلعت بفصيل من جنود المظلات المصرية بكامل سلاحها وعتادها ومؤنها الغذائية من مطار «ألماظة» العسكرى بالقاهرة، حيث شرفت عصر ذلك اليوم بمتابعة المعارك العسكرية على خطوط الدفاع المتقدمة عن صنعاء مع من تبقى من وحدات الجيش اليمنى تحت قيادة من بقى على قد الحياة من تنظيم الضباط الأحرار اليمنيين وحتى بلغت ساحات المواجهة بعد ذلك على اتساع وطول اليمن وعرضها!

ولأن ملحمة الثورة اليمنية حافلة بالأحداث والتطورات والمتناقضات، والشخصيات النزيهة وغيرها من الشخصيات الانتهازية والعميلة، ولأن المرحلة

الافتتاحية الدراماتيكية كانت موضع العديد من الكتب والدراسات والشهادات، من هنا يكمن حرصنا على أن ندلى بدلونا كشاهد عيان، وأن نسلط الضوء على المسكوت عنه من الوقائع الثابتة وراء الكواليس، والإسهام بالتنوير والنقد أو الإشادة بأهميتها ودلالاتها السياسية والاجتماعية والثقافية عبر تتابع المشاهد والحكايات والروايات التى حفلت بها بانوراما الثورة اليمنية!

٤٤ ـ حكاية الأبله والذبابة

اندلعت الثورة فى اليمن وهى تحمل فى ثناياها بذور التناقضات والخلافات، ولعل أبرزها ادعاء تيارات وشخصيات سياسية بأنها كانت الأسبق وراء التبشير بها وتمهيد الأجواء لاندلاعها، حتى حينما نهض تنظيم الضباط الأحرار اليمنيين بالمهمة التاريخية، إذا بحركة القوميين العرب ـ على سبيل المثال ـ تسعى إلى احتوائها فكريا وتنظيميا، بينما حاول الدكتور عبد الرحمن البيضانى أن ينسبها لنفسه، وأنه صاحب الحول والطول فى الإعداد للثورة، وفى توقيت قيامها، ولولاه لما كان الدعم المصرى، بل إلى حد نجاحه بدون مؤهلات الانتماء إلى حركة الأحرار الدستوريين ولا حركة الضباط الأحرار، من أن ينصب نفسه وصيا على الثورة ونائبا لرئيس الجمهورية اليمنية والقائد العام للقوات المسلحة، حتى قضى الله أمرا كان مفعولا فى تنحيته بعيدا عن مسيرة الثورة بعد ثلاثة شهور ونصف الشهر من اندلاعها!

على أنه مما لا يجوز إنكاره، أن الدكتور عبد الرحمن البيضانى لعب دوراً سياسيًا محدودًا «فى» محيط الثورة اليمنية قبيل اندلاعها، بينما كان لغيره من الأحرار العسكريين والمدنيين الدور الأساسى والفاعل «فى» اندلاعها، بل إن البيضانى لعب أدوارًا سلبية وخطيرة فى بداية مسيرتها، سواء فى منازعة الثوار على سلطة السيادة ومناصبها، وسواء عبر فتح جبهات للخلاف الطائفى المرير مع أنصار المذهب الزيدى والهاشميين ولم تتمكن الثورة بعد من تثبيت أقدامها!

البيضانى صديق عزيز على الصعيد الإنسانى والاجتماعى فحسب، لكننى منذ بداية صداقتنا وما زلت أختلف معه حول دأبه على إثارة النعرات الطائفية والادعاء

باضطهاد الشوافع تحديدا، ثم اختلفت معه كذلك حول ما يتناوله فى كتاباته من هجوم صارخ على جمال عبد الناصر بالباطل والترويج لفكره الشيوعى . . وشهودى على خلافى معه أحياء يرزقون!

وكان البيضانى قد التحق بحركة الأحرار اليمنيين فى القاهرة عام ١٩٦٠ ، غير أنه سرعان ما اصطدم مع زعيمى الحركة آنذاك القاضى محمد محمود الزبيرى والأستاذ أحمد محمد نعمان ، وهما قد أفاضا فى أسباب إبعاده وعزله من «الاتحاد اليمنى» الذى كان يمثل تجمع المعارضة اليمنية ، لأنه فاق بتعصبه الطائفى والعرقى السافر كل المتعصبين من قبله ، وفى بيان بعنوان «الأحرار إلى الأحرار» نشرته جريدة العمال بعدن فى ١٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ـ أى قبل عشرة أيام فقط من اندلاع الثورة ـ قال الزبيرى والنعمان : «وجاء على آخر الزمان طارئ جديد على صفوف الحركة الوطنية يطالبنا بالمنكر ، ويدعونا إلى جريمة الانشقاق بين أبناء الشعب ، والاعتماد عليها ـ كما يزعم ـ فى تحقيق الثورة ، وما أشبه طلبه هذا بمن يحاول تطهير قرية من ميكروب الملاريا فيضربها بالقنابل الذرية ، ولقد ذكرنا بالعبد الأبله الذى حاول أن يطرد الذباب على جبين سيده ، فرمى بصخرة ضخمة حطمت جبين سيده دون الذباب الذى طار قبل أن تلحقه الصخرة!

ولا أنسى وقتئذ أن مجلة «روز اليوسف» تلقت العديد من رسائل اليمنيين التى كانت تحتج على نشر مذكرات البيضانى عن اليمن ، وهكذا تقرر وقفها بالتزامن مع استبعاد البيضانى من الحديث عن اليمن فى إذاعة صوت العرب ، وقد اعترف البيضانى نفسه فى إحدى لحظات تجليه أن جمال عبد الناصر قال له : « كيف تقبل على نفسك وأنت رجل مثقف . . احتراف العمل الطائفى»!

وإذا كان مؤتمر عمران عام ١٩٦٣ قد عزز من قرار سحب الجنسية اليمنية من البيضانى عبر هذا النص : «كما يقرر المؤتمر إدانته وكل من يتعاون معه بأى شكل من الأشكال بالخيانة العظمى»!

لكن الرئيس عبد الله السلال الذى كابد الأمرين من تطرف البيضانى وتطاوله عليه ، هو نفسه الذى أعاد له الجنسية اليمنية فى خريف عام ١٩٦٦ ، ومع ذلك لم يسلم السلال بعدئذ من تطاول البيضانى . . وكل ذلك معروف للجميع .

ومن المعروف كذلك أن البيضانى توجه إلى ألمانيا الغربية إثر عزله من مناصبه، وعبر علاقته القديمة ولا نقول المشبوهة كما يدعى خصومه، أقنع دوائر الاحتكارات الألمانية بتقديم الرأسمال اللازم لفتح بنك فى المستعمرة البريطانية «عدن»، غير أن الوطنيين من أبناء جنوب اليمن كانوا له بالمرصاد خلال زيارته عدن، وناله منهم ما لم يكن فى حسبانه من ألوان السب والتجريح والإيذاء عندما تهجم على دور مصر الثورى فى اليمن، والتلويح بإقامة الدولة الشافعية بدون الزيود، ولم ينقذه من مصيره المحتوم آنذاك سوى حماية الإنجليز حتى غادر عدن!

والحقيقة أنه لو انسقنا إلى رصد ونشر كم وألوان الهجوم الصارخ الذى ناله البيضانى من اليمنيين، إذن لاحتاج الأمر إلى كتاب خاص، ومن هنا رأينا أمانة للتاريخ أن نهوم فحسب، حول ما تشى به العناوين من الرؤى والمضامين.

٤٥ ـ علاقة السادات والبيضانى

فى كتابه «عبد الناصر وحركة التحرر اليمنى» ص ٨٢، ٨٣، ٨٥ يقول فتحى الديب المسئول عن ملف اليمن إبان كان المشرف على الشئون العربية برئاسة الجمهورية المصرية يقول:

«فوجئت خلال عام ١٩٦٢ وبالذات فى بداية النصف الثانى منه باسم الدكتور عبد الرحمن البيضانى يظهر على السطح كشخصية قيادية وسط القيادات اليمنية المعروفة سابقا لكل العاملين فى الحقل السياسى اليمنى. وترجع مفاجأتى بهذا الوضع إلى علمى التفصيلى بأن السيد عبد الرحمن البيضانى رغم أصله اليمنى إلا أنه ظل بعيداً عن أرض اليمن خلال دراسته الطويلة بمصر ثم سفره ليعمل بسفارة اليمن بألمانيا، ثم استقراره الدائم بالقاهرة، الأمر الذى جعله أبعد ما يكون عن التعايش مع حقيقة الأوضاع باليمن، وتباعده المستمر عن أى تحرك نضالى وطنى سابق، بالإضافة إلى عدم ثقة العناصر الوطنية والقيادية اليمنية التى عايشت وناضلت من أجل تحقيق آمال الشعب اليمنى بالدكتور البيضانى كما كانوا يسرون لى ولغيرى فى كل لقاءاتهم بنا، كما فوجئت بتولى السيد أنور السادات مباشرة القضية اليمنية ومتابعة تطوراتها وتوطد العلاقات بينه وبين الدكتور البيضانى الذى

نجح فى إقناع السادات بقدراته النضالية وتزعمه من موقع قوة للقيادات الوطنية الشابة داخل وخارج اليمن، الأمر الذى لم يتقبله فهمى لحقيقة الأوضاع باليمن ولعل ما يؤيد وجهة نظرى حول علاقة الدكتور البيضانى بالقضية اليمنية ما بلغنى على لسان العديد من الإخوة اليمنيين الأحرار عن حديث البيضانى عبر إذاعة صوت العرب ومهاجمته للهاشميين هجوما عنيفا بلا مبرر، غير مدرك بأن أغلبية الضباط والقيادات الوطنية المشاركة فى الإعداد للثورة من الهاشميين، كما أن عدداً كبيراً منهم بالسجون عقابا على تمردهم على أسرة حميد الدين، وأنهم كانوا وما زالوا وباستمرار كهاشميين فى مقدمة أى عمل ثورى يقدم عليه الشعب اليمنى.

كان طبيعيا أن يكون مردود هذه الأحاديث الإذاعية إثارة العديد من المشاكل أمام القيادات اليمنية القائمة بالإعداد للثورة واعتبارهم لها أداة تفتيت وتخريب للقوى الثورية، ووجهوا نقدهم الشديد لأحاديثه مطالبين بإيقافها فوراً، وهو ما حدث بالفعل، حيث طالبت سلطات القاهرة بإيقاف تلك الأحاديث اللاواعية استجابة لطلب قوى الثورة بداخل اليمن.

ثم يستطرد فتحى الديب قائلا:

أثار معى بعض القادة الوطنيين موضوع استغلال الدكتور البيضانى لعلاقته بالسيد أنور السادات ليتخذ منها وسيلة ضغط على القوى الوطنية، باعتباره الشخصية الموثوق بها من قبل المسئولين بالقاهرة، فارضًا نفسه عليهم بعد أن تمكن من توثيق صلاته ببعض التجار اليمنيين بعدن مما أغضب القوى الوطنية داخل اليمن.

ومما زاد الطين بلة التجاء البيضانى لفرض أسماء بعينها من أصدقائه ضمن عضوية مجلس قيادة الثورة وتدخله فى الشئون العسكرية والذى لا يفقه عنها شيئا، الأمر الذى أدى إلى تسرب أخبار اعتزام القيادات الوطنية اليمنية القيام بالثورة ضد الإمام، ووصول تلك الأخبار إلى الإمام أحمد شخصيا، الذى سارع بإخطار ابنه البدر محذرا إياه من ضباط الجيش المعروفين بوطنيتهم بمدينة صنعاء، والذين كانوا مهددين بتنفيذ الإعدام فيهم نتيجة تسرب تلك الأخبار إلى تعز بمعرفة بعض عملاء الإمام بالقاهرة، ممن كانوا على اتصال مباشر بالدكتور البيضانى، الأمر الذى أزعج

قيادة الضباط الأحرار القائمين بالإعداد للثورة بصنعاء، ولولا لطف الله لقضى البدر عليهم جميعا طبقا لتعليمات والده.

إلا أن ذلك لم يمنع الدكتور البيضانى من الاستمرار فى مخططه للسيطرة على الثورة ومحاولة تنصيب نفسه قائداً لها»!

٤٦ ـ خيال غريب وأداء محكم

كذلك يروى اللواء صلاح الدين المحرزى فى كتابه الذى نوهنا عنه من قبل ص١١٦ واقعة تخلص السلال من البيضانى، عندما كلفه بتسليم رسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وعندما قرأها ابتسم ثم طلب من البيضانى الانتظار والراحة من عناء السفر ومشقة العمل فى صنعاء، فى إشارة مهذبة لإعفائه من مهمته باليمن.

ثم سيل آخر من المقالات التى تنقد الدكتور البيضانى وتتهمه بأبشع الصفات.. بينها عشر شهادات نشرتها صحيفة ٢٦ سبتمبر اليمنية فقط غير كتاب كامل حافل بشتى المعلومات والشهادات التى تدينه بقلم الكاتب والمفكر اليمنى أحمد جابر عفيف!

على أن الشهادة التاريخية فى سلسلة وثائق الثورة اليمنية التى استقرأ فيها «مركز الدراسات والبحوث اليمنى بصنعاء عدداً من زعامات الثورة، حسم الرئيس عبد الله السلال الشك باليقين عبر نشره لأول مرة نص رسالته التى طالب فيها الرئيس جمال عبد الناصر تنحية الدكتور عبد الرحمن البيضانى وعدم عودته مجددا إلى اليمن».

٤٧ ـ رسالة السلال لعبد الناصر

الأخ الكريم الوفى السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة الأفخم.

تحية تقدير وحب وإخاء

لقد كنت بعثت إلى سيادتكم برقيا بواسطة السفارة المصرية بصنعاء مشيرا إلى بعض ما أثاره الدكتور عبد الرحمن البيضانى من المشاكل التى أوشكت أن تهدد

كيان الثورة مباشرة نتيجة الكثير من التصرفات غير السليمة ولا مقدرة للمسئولية والظروف التى تمر بها بلادنا فى هذه المرحلة الحرجة ومن قلب المعركة السافرة والشرسة مع قوى الرجعية والاستثمار.

ونظراً لأن الموقف نتيجة ذلك قد بلغ الدرجة التى لا يمكن معها تغاضى بعد ما قد تحملناه من صبر كاد أن يودى بالبلاد إلى هوة سحيقة، وأن يمكن للرجعية من تحقيق أغراضها بضرب الثورة وإعادة البلاد إلى الظلام من جديد، والتربع على عرش الملكية البغيض، فقد وجدتنى مضطرا وللأسف الشديد إلى اتخاذ الخطوة التى لا بد منها تجنبا للنهاية غير المحمودة، وتداركا لسلامة الوضع من جديد من الانهيار وتصدع الصفوف وذلك بإبعاد الأخ البيضانى عن الميدان لسلامة البلاد وسلامته هو نفسه، واسمحوا لى يا سيادة الأخ أن أوجز لكم بعض النقاط التى أدت إلى اتخاذ مثل هذا القرار.. إلى آخر الأسباب التى استدعت ذلك القرار.

ثم يواصل المشير عبد الله السلال سطور رسالته إلى جمال عبد الناصر قائلاً:

«وكنتيجة لمثل هذه التصرفات وكثير غيرها لا أريد أن أطيل عليكم بسردها، واجهت حكومة الثورة الكثير من المشاكل والمتاعب مع القبائل والمدنيين والموظفين، كما تحملت المضاعفات الكبيرة فى الموقف العسكرى، كما عانت وتعانى انهياراً وعجزاً فى الوضع الاقتصادى وصراعًا طائفيًا وعنصريا فى صفوف الشعب وقوات الثورة على اختلافها، ونظراً لكل ما تقدم.. ولاعتقادى العميق بأنكم أول من يحرص على سلامة وكيان هذا البلد وانتصار أهداف الثورة، وبأنكم لا يمكن أن ترضوا بأى حال من الأحوال بالتضحية بمصير هذا البلد وثورته من أجل شخص أو أشخاص مهما كانوا.. ولأنه لا مجال لاحتمال المزيد من مضاعفات هذه المشاكل وتعقيدها، كان القرار بإبعاد الرجل بثورة مستحسنة أملا أن تتولوا أنتم من جهتكم أيها الأخ العزيز تتمة البقية!

٤٨ـ شاهد ماشفشى حاجة

وتشاء الأقدار أن أستمع بعناية وفى دهشة إلى الدكتور عبد الرحمن البيضانى وهو يدلى بدلوه فى برنامج «شاهد على العصر» الذى تبثه قناة الجزيرة حول دوره

فى ثورة اليمن، فلم أتمالك نفسى وبادرت للرد عليه باعتبارى شاهدا على هذا الدور، عبر مقال نشرته صحيفة «الأسبوع» القاهرية بالتزامن مع صحيفة «البيان» الظبيانية بتاريخ ١٠ سبتمبر ٢٠٠١ . . وقلت:

لا شك أن تجربة القنوات الفضائية العربية بتقنياتها الحديثة قد حققت انتشارا جماهيريا واسعًا وفائدة معرفية محققة عبر الحوارات المباشرة مع الزعماء والمفكرين والقادة العسكريين، ممن لعبوا أدواراً بارزة فى بلادهم، أو كانوا شهودا على مراحل أو وقائع تاريخية بعينها، حفلت بالانتصارات والانكسارات والتحولات الكبرى، ومن هنا تكمن خطورة الانتقائية المعيبة للشخصيات التى تم استضافتها فى هذه القنوات من زاوية تأثيرها الضار على شفافية ومصداقية الذاكرة التاريخية للشعوب والأمة العربية، إما لغيابهم أصلا عن مواكبة تلك الوقائع موضوع الشهادة، أو لأن هذه الشخصيات تبحث لنفسها عن دور وبطولة من الأوهام والأكاذيب، أو كان اختيارهم للشهادة الزور مقصودا لذاته ولغرض فى نفس يعقوب، وإلى حين ينهض المؤرخون بمهامهم فى رصد الحقائق بالأمانة العلمية.

وربما من هنا بادرت الصحافة اليمنية الرسمية والحزبية والمستقلة بلا استثناء إلى نشر ألوان النقد والقدح والإدانة كما الصواريخ الموجهة إلى الدكتور عبد الرحمن البيضانى النائب الأسبق للمشير عبد الله السلال أول رئيس للجمهورية فى اليمن، إثر حديثه المثير لقناة الجزيرة فى برنامج «شهادة على العصر» على مدى شهرين كاملين، ولعل القراءة السريعة لعناوين التقارير والمقالات التى تصدت لشهادته تشى بالكثير . . «البيضانى كوهين اليمن» تعليق لصحيفة ٢٦ سبتمبر لسان حال القوات المسلحة اليمنية «البيضانى وفن تقمص الأقنعة» مقال بقلم عبيد الحاج و«الصدق منجاة» بقلم عبد الوهاب ناصر جحاف، وثيقة ولاء للإمام أحمد بن حميد الدين بخط البيضانى . . والأخطر من كل ذلك شهادة السيد عبد السلام صبرة المضادة لشهادة البيضانى على العصر، كونه أهم المرجعيات السياسية فى التاريخ اليمنى المعاصر تحت عنوان «نستغرب الروايات النابعة من خيال غريب وأداء محكم ومريب للدكتور البيضانى ولعلها فصل الخطاب، كون الشاهد ـ وقد بلغ من العمر عتيا ـ معروفا بنزاهته ونضالاته وأدواره المقدرة فى تفجير ثورة اليمن الأولى عام ١٩٤٨ ثم ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ .

وعلى مدى يزيد على ٤٠ عاما من متابعاتى لشئون اليمن وشجونه ظل اليمنيون على اختلاف مواقفهم فى استبعاد أى دور سياسى يذكر للدكتور البيضانى من اندلاع الثورة والإجماع على أن دوره اقتصر فحسب على تأجيج الخلاف بين الثوار، وإثارة النعرات الطائفية بين الشوافع والزيود وهو المسئول عن فتح جبهة العداء مع السعودية، الأمر الذى انتهى بعزله سريعا من منصبه واستبعاده سفيرا لليمن فى لبنان، وليس مثله بين الشخصيات العامة فى اليمن من يفوقه غموضا والجدل حول نشأته وتقلباته وخياراته السياسية، وإلى حد إثارة الشكوك حول وصوله إلى السلطة، فلماذا اختياره تحديدا بالتالى للشهادة على العصر رغم أنه «شاهد ماشفشى حاجة» وهى إحدى مسرحيات الفنان عادل إمام الكوميدية!

والحقيقة أن ثورة سبتمبر نهضت بتدابير سرية محكمة لتنظيم الضباط الأحرار، ومشاركة زعامات حركة الأحرار التى فجرت ثورة ١٩٤٨ ولولا ذلك لما كانت قناعة جمال عبد الناصر بمصداقية الثورة ونجاحها فى كسب الشعب والجيش إلى جانبها، ولما بادر إلى دعمها حين تعرضت للعدوان الخارجى، ورغم ذلك لعبت مساوئ الصدف لعبتها، حين تعرف أنور السادات رئيس مجلس الأمة آنذاك على البيضانى خلال رحلة استشفاء فى ألمانيا عندما كان قائما بأعمال سفارة اليمن فى بون، وهو الذى اختاره نائبا لرئيس الجمهورية اليمنية بعد أن أصبح مسئولا عن ملف اليمن، رغم أن البيضانى كان من سدنة بيت حميد الدين، ولم يكن ينتمى إلى الأحرار ولا للجيش اليمنى، فهل يعقل بالتالى ما نسبه لنفسه فى شهادته على العصر من حول وطول فى تدبير الثورة وتصريف شئون اليمن ولم يستغرق فى منصبه سوى ثلاثة شهور ونصف الشهر فحسب انتهت بعزله، والأدهى والأمر الادعاء بأن جمال عبد الناصر كلفه بعد ذلك بمهام سرية خطيرة فى سوريا، رغم اتهامه لعبد الناصر بأنه كان مجرد واجهة وأن عبد الحكيم عامر كان القائد الفعلى لثورة يوليو، ونتساءل أخيرا كيف خانه ذكاؤه المعهود وأتاح لخصومه فتح الطابق المستور على سيرة حياته، ألم يكن أولى به التنحى عن الشهادة لغيره من الأحرار والثوار، وأن يستكين فى قصره المنيف بالمعادى أو قصره الجديد فى صنعاء، وأن يرفل ما بقى له من عمر فى رغد نصيبه الوافر من ملايين الدولارات فى مشروع

الصرف الصحى الذى جاءت المرأة الحديدية مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا خصيصا من لندن لافتتاحه فى القاهرة ؟

٤٩ ـ أول صحفى مصرى فى اليمن

توثيقا للتاريخ فقد كان على جمال الدين الصحفى بوكالة أنباء الشرق الأوسط أول من وطأت قدماه أرض اليمن قبل أى صحفى مصرى أو عربى أو أجنبى بمجرد اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ، وكان قد فوجئ بتكليفه من رئاسة الوكالة بالاستعداد للسفر فى مهمة صحفية سرية وبالغة الأهمية ، بعدها كان عليه التوجه إلى مطار ألماظة الحربى ، ثم كانت المفاجأة الثانية أن عليه ركوب طائرة نقل عسكرية طراز «أنيتنوف» ، حيث وجد مكانه وسط أكوام من صناديق الأسلحة والذخيرة وأجهزة للاتصالات اللاسلكية وبعض الضباط والجنود المصريين ، ثم فوجئ للمرة الثالثة حين اكتشف أن عليه التنفس من قناع الأكسجين ، وعندئذ راح يسائل نفسه عن كنه هذه المهمة المتعين أن يخوض غمارها فى سرية بالغة !

عبرت الطائرة الحدود المصرية فى خط سير مواز للبحر الأحمر باتجاه الجنوب ، فلما تجاوزت الحدود السودانية ظن على جمال الدين أن إثيوبيا الهدف المحقق ، ولا بد أن انقلابًا عسكريًا أو ثورة شعبية أطاحت بالإمبراطور الديكتاتور هيلا سياسى ، وأنه بات على صعيد رد الفعل أن يبادر الرئيس جمال عبد الناصر إلى دعم خيار الشعب الإثيوبى !

لكن الطائرة عبرت البحر الأحمر إلى الشرق ، وكادت تقترب من عدن ، وعبثا حاول أن يستفسر من الركاب العسكريين عن مطار الدولة المحتمل أن تهبط فيه الطائرة العسكرية المصرية ، واكتشف أنهم على غراره يجهلون أو يتجاهلون !

لم يمض من الوقت بعدها سوى أقل من الساعة حتى كانت عجلات الطائرة تلامس أرضا خشنة مع أول ضوء للفجر ، واكتشف أنه فى اليمن وفى مطار بدائى على مشارف صنعاء ، وأن الثورة السبتمبرية التى اندلعت منذ أيام قد نجحت فى الاستيلاء على السلطة ، ولا تزال المعارك مستعرة فى مواجهة طليعة قوى الثورة

المضادة من القبائل الموالية للإمام البدر الذى تمكن من الهروب من صنعاء إلى مدينة حجة قبل أن يصل بعدها إلى السعودية!

وهكذا قدر لعلى جمال الدين أن يبعث بأول رسالة صحفية ميدانية إلى وكالة أنباء الشرق الأوسط من صنعاء معقل الثورة، وأن تتناقلها تباعا مختلف وكالات الأنباء والصحف والإذاعات فى شتى ربوع العالم!

بعدها انهمر سيل الدعم العسكرى المصرى للثورة السبتمبرية، وعلى ما يبدو أن القيادة المصرية لم تهضم بسهولة تحركات على جمال الدين الصحفية وفضوله الشديد بحثا عن الحقيقة ومواكبة الأحداث فى كل مكان باليمن، ثم لأنه كذلك راح يجمع ما وسعه من الأوراق والوثائق التاريخية اليمنية المبعثرة داخل قصور أسرة حميد الدين ولا يزال بعضها فى حوزة أسرته يرحمه الله، فقد رحل بينما أكتب عنه هذه السطور فى شهر يناير ٢٠٠٦ حيث أقامت له نقابة الصحفيين حفل رثاء مهيبًا!

المهم أن على جمال الدين وجد نفسه مبعدا فجأة ودون إنذار من اليمن فى طريقه إلى القاهرة عبر طائرة عسكرية مصرية «أنيتنوف»، وأن عليه التنفس عبر قناع الأكسجين للمرة الثانية!

ماذا حدث؟

واقع الحال أن أمن القوات المصرية فى اليمن كان فوق أى اعتبار آخر، خصوصا وهى بعيدة عن أرض الوطن آلاف الأميال من خطوط الإمدادات، بينما العدوان الشرس يتربص بها من داخل اليمن ومن خارجه، وفى مثل هذه الظروف الاستثنائية كانت تقع الأخطاء عند التعامل مع الصحفيين بوجه خاص، كونهم لا يهدأون ولا يملون جريا وراء الأخبار وبحثا عن الحقائق حتى لو كلفهم الأمر تجاوز المحاذير الأمنية، ثم لأنهم يسألون بفضول عن أى شىء وكل شىء، ومن هنا على ما يبدو لم يسلم على جمال الدين من جراء اختلاف الرؤى وممارسة الصحفيين لمهنتهم وأدائهم لواجبهم، وبين المخابرات العسكرية ومعاييرها الأمنية.

جدير بالذكر أن زميلى جمال حمدى المحرر فى روز اليوسف كان على وشك ركوب الباخرة التى تحمله من السويس إلى الحديدة فى طريقه إلى اليمن.. حتى فوجئ بقرار أمنى مجهول بمغادرة الباخرة لولا تدارك الموقف فى آخر لحظة، كذلك

كان حال نقيب الصحفيين الأسبق الصديق مكرم محمد أحمد حين كان مراسلا عسكريا لصحيفة الأهرام فى اليمن وقتئذ، وكان عليه مغادرة صنعاء خلال ساعات محدودة، حتى تدخل الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام لحل المشكلة، ولكن بعد أن كان مكرم محمد أحمد قد عاد إلى القاهرة، وذلك ما حدث على وجه التحديد لزميلنا المرحوم محمود السعدنى مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط، عندما فوجئ بقرار ترحيله من تعز وهو غير محمود السعدنى الكاتب المصرى الساخر.

بالمناسبة كان الكاتب الصحفى اليسارى سعد كامل قد زار اليمن عام ١٩٦٤ ضمن فوج من الصحفيين ضم كامل زهيرى وسليمان مظهر وزكريا نبيل وكاتب هذه السطور، وإذا بالمخابرات العسكرية المصرية تستدعيه وحده، وراحت تستجوبه من المغرب حتى منتصف الليل، وبعدها عرفنا للأسف أنهم كانوا يشكون - وياللهول - فى احتمال هروبه من اليمن ولجوئه إلى الاتحاد السوفيتى!

٥٠- البيـــــان الأول

وسط أجواء صنعاء التى قرأت وسمعت عنها كثيرا حتى جاءت الفرصة للتعرف عليها، كان مقر إذاعة صنعاء المكان شبه الوحيد الذى آوى إليه وأستظل به من هجير الوحشة، وأنشد الحوار والمعرفة والمؤانسة، وأنا لا أكاد أعرف فى حياتى مثل الابتسامة الودودة التى التقانى بها المرحوم أحمد حسين المرونى، وهو الضابط السابق من دفعة اليمنيين الذين درسوا العلوم العسكرية فى العراق، ومن المناضلين الرواد وواحد من الرموز النبيلة لثورة ١٩٤٨، وكان آنذاك مذيعا فى إذاعة صنعاء وبعدها تولى عدة مناصب وزارية للأوقاف والتربية والتعليم والإعلام وكذا المرحوم عبد الله حمران الذى أصبح من بعد الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية والدكتور عبد العزيز المقالح مدير جامعة صنعاء وهو الشاعر الكبير الموسوعى المعارف والأستاذ عبد الوهاب الجحاف الذى ظل على حد علمى لم يبرح موقعه أمام ميكروفون الإذاعة بعد، حتى أننى لم أتبين بينهم فى البداية الرئيس من المرءوس، ربما لأن التوافق بينهم فى الرؤى الثقافية والسياسية والانسجام الإنسانى.

وسط هذه الصحبة الجميلة كنت أتنسم عبق التاريخ والثقافة والوطنية اليمنية، وإدراك مفردات الشخصية اليمنية، وإرهاصات المستقبل الزاهر الذى ينتظر اليمن . . وأحمد الله أن صلات التواصل بينى وهذه الباقة من الأصدقاء اليمنيين لم تنقطع أبدا، ولعلى أتذكر أن آخر لقاءاتنا كانت عبر رحلة ممتعة منذ خمس سنوات إلى منطقة «المحويت» السياحية بصحبة الدكتور عبد العزيز المقالح و الصديق الشاعر الأديب خالد الرويشان وزير الثقافة فيما بعد.

على أن صلاتى بالأستاذ المرونى، أتاحت لى التعرف على الكثير من تاريخ النضال اليمنى عبر سيرته الذاتية العطرة، فهو عندما كان مديرا للإذاعة عام ١٩٥٩، فاض به الكيل لما حل باليمن من مظالم ونكبات، حتى أنه اندفع تلقائيا يندد بالعهد البائد وتخلفه عبر برنامج موجه للشباب اليمنى، بل إلى حد المطالبة بإنهاء هذا العهد. . دون أن يذكر عهد أسرة حميد الدين تحديدا، لكن المعنى والهدف كان واضحا للمستمعين.

من سوء حظه أن الإمام أحمد سمع ذلك البرنامج خلال علاجه فى روما، وكان بصحبته آنذاك القاضى عبد الرحمن الإيريانى الذى استشعر الخطر المحدق بالمرونى. . ومن ثم اتصل بالأستاذ أحمد نعمان فى القاهرة حتى يجد وسيلة لحث المرونى على الإفلات من انتقام الإمام الوشيك!

وبالفعل تمكن فى آخر لحظة من الهرب إلى عدن، وانضم إلى مجموعة الأحرار الذين سبقوه إليها، وبينهم الشيخ سنان أبو لحوم واللواء حمود الجائفى والقاضى عبد الكريم العنسى، وانخرط فى نشاط المعارضة اليمنية عبر كتابة المقالات والمنشورات الثورية والعمل بالتدريس فى المعهد الإسلامى حتى يكسب قوت يومه، وكان من زملائه فى هيئة التدريس الأستاذ محسن العينى الذى سبق وتتلمذ عليه من قبل، وحتى عاد مجددا إلى اليمن فى أعقاب فشل انتفاضة الثلايا، وفى تعز التقى بالإمام أحمد الذى كلفه بمسئولية إدارة الإذاعة مع زملائه المقالح وحمران والجحاف، حتى أعلن عن وفاة الإمام، وعندئذ تحفز الأحرار لتسريع وتيرة الإعداد للثورة، خاصة بعد أن فقد بعضهم الأمل فى الإصلاح على يد الإمام الجديد البدر حين خطب المصلين فى المسجد الكبير بصنعاء وقال: «إذا كان أبى يقطع من الرأس فأنا سوف أقطع من النصف»!

وذكر لى الأستاذ المرونى أن الإذاعة كانت خلية ثورية، وكان دورها الإعلامى ضمن مخطط تفجير الثورة السبتمبرية، وكان من المتعين ليلة الثورة أن تمتد فترة البث الإذاعى لما بعد موعدها المعتاد، وعلى ما يبدو أن الإمام البدر استشعر شيئًا ما يدبر ضده، ولذلك طلب وقف الإذاعة، وحتى وصل الضابط على أبو لحوم فى دبابة، حيث أذاع محمد الفسيل البيان الأول للثورة وقيام النظام الجمهورى، ثم أذيع البيان فى اليوم التالى بعد أن أدخلت عليه بعض التعديلات والإضافات استكمالا لأهداف الثورة، بعدها تواصل البث الإذاعى على مدار النهار والليل، وكان جمع غفير من الإذاعيين والفنيين يواصل العمل فى حماس وعبر مجهود بدنى ونفسى كبير، خاصة بعد أن أخفق العميد السكرى - يرحمه الله - فى قتل الإمام البدر، وشاع خبر هروبه من صنعاء، فكنا نتناوب الحديث الحماسى تباعا عبر الميكروفون بشكل تلقائى من وحى اللحظة لمواكبة التطورات العسكرية والسياسية الملتهبة، فكانت تجربة غير مسبوقة حققت معادلة التكامل بين العمل الإعلامى ودوره فى الحشد وتنوير الجماهير وبين التغيير السياسى الثورى بقوة السلاح.

٥١ - صوت العرب فى صنعاء

وحتى كان تدفق القوات المصرية لمساندة الثورة اليمنية، وفى ركابها كان وصول أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب لاستكشاف الموقف على الطبيعة وتلبية الحاجة الملحة لدعم الإذاعة اليمنية ومواجهة «بروباجندا» الثورة المضادة، خاصة فيما يتعلق بالإذاعات المعادية الموجهة إلى اليمن، وانتشار الراديو الترانزستور وجلبه من عدن.. وتلك كانت أول محاولة لتحديث إذاعة صنعاء منذ قدوم أجهزتها فى الأربعينيات على سيارات الجيب الأمريكية يتقدمها الكولونيل أدى، وربما كانت هذه الهدية أول اتصال أمريكى مع اليمن!

المهم أن أحمد سعيد اختار للنهوض بمهمة تحديث إذاعة صنعاء بعثة من الإذاعيين المقتدرين فى صوت العرب، أمين بسيونى وإبراهيم مصباح وحول متابعة هذه المهمة القومية وما تضمنته من أحداث وتفاصيل مثيرة يقول أمين بسيونى:

وصلنا عبر طائرة مدنية خاصة إلى صنعاء وكان بصحبتنا اثنان فقط من الركاب، وكانا من المستشارين القانونيين فى مجلس الدولة المصرى لوضع دستور الجمهورية العربية اليمنية وكذا القوانين التى تلبى احتياجات النظام الثورى الجديد.

فى هذه المرحلة بدأنا على الفور اتصالاتنا بالإخوة. . وكان أول لقاء مع رئيس الجمهورية / المشير عبد الله السلال ـ رحمة الله عليه ـ الذى استقبلنا وقدم لنا زميلا عزيزا هو الأستاذ / عبد الله حمران ـ رحمة الله عليه ـ وقال: «هذا هو مدير الإذاعة الذى اخترته، ستجلسون معه وتضعون الخطط اللازمة لتدعيم صوت الإذاعة اليمنية».

وعلى الفور درسنا الموقف واكتشفنا أن الإرسال ليس بالمستوى المطلوب الذى يمكنه أن يغطى كل اليمن. . وكان لا بد من الحصول على محطة إرسال جديدة وهكذا واجهتنا أولى المشاكل، إذ كان شراء محطة إرسال جديدة يستغرق من ستة إلى ثمانية أشهر على الأقل إلى حين يتم الاتفاق مع إحدى الشركات العالمية على تصنيع المحطة المطلوبة فليس هناك شىء جاهز تشتريه من السوق.

حينها قلنا: إن الوقت ثمين جدا ولا نستطيع الانتظار ثمانية أشهر. . فبعثت القيادة المصرية تعليماتها إلى سفينة كانت تحمل محطة إرسال طلبتها مصر قبل ثمانية أشهر، وكانت هذه المحطة فى طريقها إلى الإسكندرية بالفعل، ومن ثم صدرت التعليمات بأن تتوجه فورا إلى الحديدة وتنزل شحنتها هناك لكى تكون هى محطة إرسال الإذاعة اليمنية. . وبعدها تطلب مصر محطة بديلة لها، ويمكن لها أن تنتظر محطة أخرى مدة ثمانية أشهر بمعنى أنه ليست هناك مشكلة أمام مصر كاليمن.

وكانت هذه أول محطة إرسال حديثة تصل بالفعل إلى اليمن خلال أيام، لأن السفينة كانت على وشك الوصول إلى الإسكندرية، فعدلت مسارها إلى الحديدة. . حينها كان علينا أن نلتقى زميلاً يمنيًا عزيزاً وهو مهندس الإذاعة اليمنية (على الأبيض) حيث تعاونا سويا إلى أن تم تركيب المحطة.

٥٢ـ اختبـــار المذيعـــين

ثم يضيف أمين بسيونى من ذكرياته قائلا : «الإشكالية الثانية التى واجهتنا . . كانت فى البحث عن شباب يمنى مؤهل للعمل فى الإذاعة . . إذ لم يكن هناك عاملون بما فيه الكفاية . . فكان لا بد من توفير عاملين جدد . . هذا تم خلال تواجد الأستاذ/ أحمد سعيد الذى جلس معنا فترة بصنعاء وضعنا خلالها الخطط والدراسات اللازمة ثم تركنا وسافر إلى القاهرة لمباشرة مهام أعماله فى صوت العرب وترك لى وللأخ / إبراهيم مصباح مهمة التفاصيل والإنشاء والخريطة الإذاعية . . إلى آخره . . فكانت أول مهمة أن نبحث عن العاملين الجدد . . فجلست مع الأخ الزميل / عبد الله حمران وقلت له : إننا نريد أن نعلن عن حاجتنا لعاملين فى الإذاعة ونحدد يوما لاختبار المتقدمين للعمل ليأتوا إلى صنعاء ونختبرهم . . فضحك الزميل عبد الله . . قلت له : لماذا تضحك ؟ فقال : «يا أخى أنت متخيل أن المجىء من أنحاء اليمن سهل وسلس فى تلك الطرق الوعرة؟ ليس عندنا إلا طريق واحد مرصوف، طريق صنعاء ـ الحديدة فقط، فى ذلك الحين، فكيف تنتظر أن يأتى إليك فى صنعاء المتقدمون من جميع المناطق ثم لا يتم تعيينهم؟

قلت : سنعين الذى ينجح . . قال : ومن لم ينجح يجب أن يعوض عن تلك المسافة الطويلة الشاقة التى قطعها . . !

قلت : ماذا تقترح ؟

قال : أقترح أن نذهب نحن إلى الناس !

قلت : هل نذهب إلى الناس فى بيوتهم ؟

قال : لا . . نعمل ثلاثة مراكز ـ مركز فى صنعاء للقاطنين فيها وما حولها، ومركز فى تعز وثالث فى الحديدة . . ونقول كل من يسكن تعز وما حولها يأتى فى يوم كذا، وكل من يسكن الحديدة يأتى يوم كذا للاختبار ـ وأعطانا الرئيس السلال يومها ورقتين : الورقة الأولى موقعه منه بالبحث عن مكان مناسب جاهز كمقر للإذاعة اليمنية من بين قصور بيت حميد الدين التى آلت للثورة وكانت كثيرة فى تلك

الفترة . . وورقة أخرى تتيح لنا أن نركب الطيران اليمنى فى أى وقت حسب ظروفنا لكى نختار العاملين فى الإذاعة اليمنية . . ولا أزال أحتفظ بالورقتين .

اخترنا على الفور مبنى قصر من القصور كان الأقرب إلى احتياجات الإذاعة وعدد الغرف واتساعها . . ثم جلسنا نختبر أبناءنا الذين أتوا لأداء الاختبار إلى حين بناء مقر خاص للإذاعة .

وهكذا واجهنا أولى المشاكل ، إذ كانت مهمة اختيار المقر سهلة . . إنما المهمة الجليلة التى توافرنا عليها هى اختيار الكوادر البشرية اليمنية التى يمكن أن تبدأ هذا النشاط الإذاعى فى اليمن .

فوجئنا أنهم مثقفون يقرأون جيدا ، ولما كنت أسألهم عن مؤهلاتهم كانوا يقولون إنها تعادل الثانوية العامة أو تعادل السنة الأولى الثانوى أو الثانية ثانوى فاستغربت وقلت تعادل ماذا ؟ يا إما معك شهادات يا إما ليس معك . . قالوا ليس لدينا شهادات على الإطلاق ؛ لأنه لا يوجد تعليم فى اليمن يتيح لنا ذلك ، أو لم توجد مدارس ولم يكن مسموحا بذلك ، فكنا نهرب الكتب من عدن ونذاكر فيها بأنفسنا ونختبر بعضنا البعض ، فإذا نجحنا فى السنة الأولى الثانوية نبعث فى طلب كتب السنة الثانية . . نحن نمتحن بعضا . . فلك أن تختبرنا لتجد أننا فى مستوى الثانوية العامة أو التوجيهية كما فى ذلك الحين .

سعدت جدا - يقول أمين بسيونى - لأننى كنت أعتز بأننا لدينا تجربة لإنسان علم نفسه وبلغ الذرى وهو (عباس محمود العقاد) أنا أعتبر أننى التقيت بأكثر من عقاد فى اليمن ، إذ كانوا بالفعل نموذجًا للإقبال الشغوف على العلم بدافع ذاتى .

الطالب فعلا إذا كانت لديه الرغبة الذاتية فى التعليم يحصل أعلى من الطالب الذى يتعلم باعتباره أدى واجبا مكلفا به . . وهكذا بدأنا فى توزيع هؤلاء الزملاء فى أقسام الإذاعة المختلفة ، كمذيعين ومحررى الأخبار بعد تدريبهم على كيفية تحرير النشرة وكتابة التحرير السياسى والتعليق السياسى ، وغيرهم ممن توسمت فيهم القدرة على أن يهتموا بالأعمال التمثيلية أو كتابة نصوص تمثيلية ، حتى استكملنا كل مجالات التخصص ، إلى أن اطمأننا تمامًا على أن الإذاعة اليمنية وضعت أقدامها على بداية الطريق العلمى الصحيح لجيل يعتبر جيل الرواد بالنسبة للإذاعة

الحديثة فى اليمن . . وأنا سعيد أن بعض الزملاء الذين نجحوا فى الاختبارات التى أشرفت عليها والذين شرفت بتدريبهم التقيت بهم بعد ذلك كسفراء لليمن فى كثير من البلاد العربية، وقلت لهم: هل تركتم مهمتكم الأساسية ؟ قالوا: هناك أجيال جديدة تواصل بعدنا الطريق.

الإذاعة اليمنية كانت فى تلك الفترة تتميز فعلا بحماس الشباب وإيمانهم برسالة ثورة سبتمبر . . وتتميز بحرصهم على الاستفادة بأقصى قدر ممكن من الخبرة الإعلامية المصرية.

وهكذا تركت اليمن حيث واصل المهمة زملاء أعزاء منهم الأخ الزميل / سعد غزال - عليه رحمة الله - الذى أشرف على تدعيم التعاون بين الإذاعة المصرية والإذاعة اليمنية حتى أصبحت كميات البرامج تأتى والأناشيد والأغانى الوطنية وكل ما يمكن أن تحتاج إليه الخريطة الإعلامية اليمنية من دعم، وفى نفس الوقت زيادة جرعة الإنتاج اليمنى أولا بأول حتى أصبح يملأ كل ساعات الإرسال التى بدأت بسيطة ثم نمت بالتدريج، وأعتقد أن تلك البداية المبكرة تواصل التعاون فيها دون كلل من مرحلة إلى مرحلة، لا أستطيع أن أقول إن التعاون المصرى كان فى تلك الفترة الرائدة فقط.

كان صوت العرب هو الإذاعة التى تحتضن كل أخبار اليمن وما تحققه الثورة فيها من مجالات عديدة من أجل إعادة بناء اليمن الحديث وتواصل هذا الدور مع اختلاف الأشكال الفنية التى تعكس كل نبض فى الشارع العربى، وما زال التعاون الإعلامى المصرى - اليمنى بلا حدود، عبر (متدربين يمنيين) يأتون إلى معهد التدريب الإذاعى فى القاهرة ومن ثم بعد ذلك معهد التدريب التليفزيونى ثم معهد التدريب الهندسى، كذلك التعاون فى مجال الرسائل الإذاعية والتليفزيونية فى مجال الإنتاج وكثيرا من البرامج التى أنتجناها سويا لا تزال موجودة لدى صوت العرب ولدى الإذاعة اليمنية.

وكما قلت . . تتغير الأشكال الفنية، لكن هذا التواصل بين الإعلام اليمنى والإعلام المصرى وبخاصة مع صوت العرب ما زال قائما كما هو لم يتأثر ولم يقل.

٥٣ـ أول شهداء الطيارين المصريين

كان الشاب الوسيم عز الدين ناصر أول شهداء القوات الجوية المصرية فى اليمن، وقد كانت وصيته إذا استشهد فى اليمن أن يدفن فى ثراها، وظلت والدته وزوجته ـ بعد وفاة والده ـ تزوران قبره ضمن قبور الشهداء من العسكريين المصريين فى صنعاء.

كان عز الدين ناصر يسكن إلى جوار منزلنا بحى الروضة فى القاهرة، وكنا نكن له محبة غامرة وإعجابًا شديدًا، إذ كان شابا مستقيما وقد تعهده والده ـ مهندس الرى ـ برعايته ثقافيا ورياضيا، حتى حاز بطولة مصر فى الملاكمة وكان فى وزن الريشة، ثم وقع عليه الاختيار لتمثيل مصر فى الدورة الأوليمبية فى لندن أوائل الخمسينيات وكان ترتيبه الثانى على العالم، وتزوج وأنجب طفلة جميلة قبل أيام من مشاركته فى الدفاع عن الثورة اليمنية.

وقد لا يعرف البعض أن الرئيس حسنى مبارك شارك فى الدفاع عن الثورة اليمنية، إذ كان وقتئذ قائدا لسرب يدعى «مبارك» وكان من الطائرات الروسية قاذفة القنابل الثقيلة طراز «توبلوف» وهى الطائرات الاستراتيجية التى كانت تقلع من مصر وتتوجه صوب اليمن لتدمير مواقع القوات المعادية للثورة، وبعدها تعود إلى المطارات المصرية دون حاجة لإعادة التزود بالوقود خلال رحلتها الطويلة إلى اليمن ذهابا وإيابا!

كذلك كان أحمد نوح وزير الطيران السابق أول طيار مدنى يصل إلى اليمن إثر اندلاع الثورة بعد يومين فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦٢، وكان آنذاك طيارًا فى القوات الجوية، حيث قاد من مطار ألماظة الحربى أول طائرة عسكرية للركاب تحمل مجموعة صغيرة من ضباط وجنود المظلات وأول شحنة من السلاح والذخيرة والمعدات لتسليمها إلى الثوار فى صنعاء!

وقد تلقت الطائرة إنذارًا لاسلكيًا بإسقاطها من الحامية البريطانية فى جزيرة «كمران» المواجهة للساحل اليمنى إن لم تكشف عن هويتها، لكنه لم يمتثل للتهديد

وواصل رحلته إلى اليمن التزاما بالتعليمات الصادرة إليه من القاهرة . . حتى لو اقتضى الأمر إسقاط الطائرة!

أما «السودان» وهى أول باخرة مصرية تصل إلى ميناء الحديدة فكان صباح الجمعة ٥ أكتوبر ١٩٦٢ ، وتحمل أول سرية عسكرية من جنود المظلات المصريين بكامل أسلحتهم وعتادهم ، وكانت السودان قد غادرت ميناء السويس يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٦٢ حيث كان فى استقبالها جمع غفير من اليمنيين يتقدمهم الدكتور عبد الرحمن البيضانى الذى ظهر لأول مرة مع بداية الثورة والعميد على عبد الخبير كبير الخبراء المصريين باليمن فيما بعد ومندوب المشير عبد الحكيم عامر والعقيد محمود فهمى عبد الرحمن والنقيب محمد عبد السلام محجوب محافظ الإسكندرية فيما بعد!

أما أول ضابط مصرى يستشهد فى اليمن ، فكان نبيل الوقاد خلال معارك الدفاع عن الثورة فى مواجهة اجتياحات القبائل الملكية ، وتلك كانت المرة الثانية التى قدر له التواصل النضالى مع الشعب اليمنى ، حيث كانت المرة الأولى عندما كان ضمن البعثة العسكرية المصرية وتولى الإشراف على مدرسة صف الضباط باليمن!

٥٤ـ أهل الكهف فى سوق الملح

ما إن رأيت صنعاء عن بعد وأنا قادم إليها من المطار لأول مرة ، حتى بهرت بمشاهد تراث العمارة اليمنية الحضارى ، لكن ما إن دخلتها حتى خيل لى كما لو أن سكانها صورة متقدمة من أهل الكهف ، الأجسام هزيلة والوجوه ممتقعة كأنها منحوتة من الصخر ، وكان واضحا للوهلة الأولى انتشار أمراض فقر الدم وسوء التغذية ، ثم إن مظاهر الحياة تعلن عن نفسها وأن اليمن لا يزال يعيش فى زمن سابق للقرن العشرين بكثير ، فلم أشاهد سوى ثلاث سيارات ملاكى قديمة تجرى فى الشوارع المتربة وسمعت من يقول إنه حين قتل الإمام يحيى لم يجدوا سوى سيارة حيشرش كبير اليهود اليمنيين لنقله إلى مثواه الأخير ، ثم لا أثر بالمعنى العصرى للفنادق أو المطاعم وإنما بعض مايسمى «سمسرة لنوم الزبائن وركائبهم» ولا أثر للتليفونات أو الكهرباء سوى عبر المولدات فى قصور أسرة حميد الدين فحسب!

أما أهل الكهف فكانوا يتجسدون بالفعل عبر مشاهد سوق الملح آنذاك، الدكاكين صغيرة لا تكاد تتسع عرضا أو طولا إلا للبائع والبضاعة فحسب، حتى خيل لى أننى أتفرج على براويز بداخلها صور «كارت بوستال» لمشاهدة تراثية مثيرة!

لكن ما إن كانوا يعرفون جنسيتى المصرية حتى يتألقوا ذكاء ولماحية وحضارة، وأقوال من الحكمة الموروثة أو الشعر المنظوم، وهم يتحدثون عن المعارك المسلحة التى خاضها الضباط الأحرار مساء اندلاع الثورة، عبر الهجوم بالمدفعية ـ التى سمعوا طلقاتها لأول مرة ـ وهى تقصف قصور الإمام وقصر السلاح، وكيف أنهم كانوا يصلون ويبتهلون حتى تنتصر الثورة وتدوم خشية اجتياح القبائل الملكية لصنعاء وتكرار ما حدث لها من وحشية الانتقام المروع إثر فشل ثورة ١٩٤٨ .

وكم سعدت وشعرت بالفخر، عندما كان الباعة والزبائن فى سوق الملح يتحدثون بإعجاب ويتعاملون بحفاوة مع طلائع القوات المصرية التى وصلت لدعم الثورة عندما عرفوا أننى صحفى من مصر، ثم يتحدثون فى حماس واستنكار للشائعات التى راحت عناصر الثورة المضادة ترددها حول الدور المصرى فى اليمن من مختلف زواياه السياسية والعسكرية أو الحضارية!

٥٥ ـ لا فرق بين المصريين والأتراك

والشاهد أن القوات المصرية عندما شرعت لمجابهة خصوم الثورة والتنسيق مع حلفائها، اكتشفت من غرائب الأطوار وعجائب الأمور مالم يخطر من قريب أو بعيد على بال القيادة السياسية فى القاهرة عندما أصبح قرارها بالتدخل فى اليمن لا رجعة فيه ولا بديل غيره، وأن مهمتها ـ فى الدفاع عن الجمهورية الوليدة ـ بالغة الصعوبة والتعقيد، وأن قدرها يفرض عليها أكثر من الخيار بين الحياة أو الموت!

وكان الموت سهلا وممكنا فى كل لحظة، والجزاء الأوفى مرهونا بالشهادة فى سبيل الحق والواجب والعقيدة، لكن المشكلة كانت تكمن فى الحياة ذاتها، وحتى تكتب لهم الحياة، كان على المقاتل المصرى أن يتعامل بفهم ووعى مضاعفين مع

الواقع اليمنى بكل خصائصه وتراثه وتخلفه ومتناقضاته . . فإلى أى مدى كان النجاح أو الفشل!

على جبهة الثورة المضادة كانت مهمة القوات المصرية معروفة ومحددة . . إسكات النيران المعادية والإجهاز على آلة الحرب، وتحطيم إرادة الإمامة فى العودة إلى حكم اليمن، لكن أخطر ما كان يعيق تنفيذ المهمة، تلك الشائعات المسمومة التى تسللت إلى جبهة الثورة الداخلية، إذ كيف يتيسر الأمان للمقاتلين وهم يتوجهون إلى المعارك، بينما ظهورهم غير آمنة، والشائعات المحبوكة بفن ومهارة واقتدار تحاول أن تخاطب العقول التى ظلت مغيبة عن الوعى قرونا سحيقة وراء أسوار التخلف والنسيان والعزلة عن العالم الخارجى، ودون أن يدور فى خلدها ما جرى ويجرى من متغيرات العلم والمعرفة والتقدم فى أربعة أركان المعمورة!

من الكتب الصفراء والخرافات انسل عملاء بيت حميد الدين إلى كل ربوع اليمن وحتى قمم الجبال الوحشية وسهوله الوعرة، يدعون بحلو الكلام، بالحجة والبراهين على أن القوات المصرية كافرة بالدين، وأنها ما جاءت لخير أو فضيلة، وإنما للنهب والسلب وإشاعة الإلحاد، واستباحة الشرف والعفاف والحرمات!

اتهموا القوات المصرية بالغزو والاستعمار، وذكروا البسطاء - والجهل والجهالة سمة المجتمع آنذاك - بعهود الخلافة العثمانية، وكيف أسفرت تدريجيا عن وجهها القبيح ونواياها المبيتة لاحتلال اليمن، وأنها مجرد استعمار تركى باطش متعجرف ولص، نهب القوت والحب والثمار وعرق الشعب، وأذاق العباد ألوانا من الجور والقهر والاستعباد، دون أن يتورع عن خدش الحياء والاعتداء على الحرمات بلا وازع من دين أو ضمير!

ما الفرق إذن بين الأتراك وهؤلاء المصريين الشياطين الذين تجشموا المشاق وجاءوا إلى اليمن؟ ثم ما معنى القومية ووحدة الإرادة العربية، إلا أن تكون أقنعة مزيفة سرعان ما تسفر عن نواياها وتنشب أظافرها وأنيابها بعد حين لافتراس اليمنيين وسلبهم . . وأعادوا على مسامع الناس فى «مقايل» مضغ «القات» قصائد رصينة وأشعارا شعبية كانت تروى وتغنى عن مظالم الأتراك، كانوا يتداولونها جيلا وراء جيل، وكان البعض يصدق أنه نفس المصير الذى ينتظر اليمن بعد أن وصلها

المصـريون، وكـان الشـحن يتم ليل نهـار، وعلى نفس المنوال بعناية وفن وفـهم لخصوصيات الشعب ومزاجه وتقاليده وموروثاته، وكان الشحن يزداد ويزداد حتى ينفجر كراهية وعداءً واعتداءً على القوات المصرية، وطعنات نجلاء فى الظهر وتمثيلا بشعا بجثث الشهداء الطاهرة!

٥٦ـ عدن وشركة الهند الشرقية

وتصف كتب التاريخ ووثائق الخارجية البريطانية صحوة الوطنية اليمنية بكثير من البأس والدهاء، وكيف استعاد هذا الشعب زمام المبادرة، وكال للاستعمار التركى الصاع مضاعفا عندما تهالكت الخلافة العثمانية ضعفا وتمزقا، وكيف حاول الأتراك النجاة بالرحيل إلى اليمن تائبين نادمين وفشلوا، وكم تعرضوا للحصار والقتل والإبادة بالآلاف.

وعندما خطط الإنجليز لاحتلال عدن، حتى يؤمنوا البحر الأحمر بحيرة بريطانية خالصة لهم، يسيطرون على منافذه الجنوبية، ثم أحكموا قبضتهم على قناة السويس فى شماله، كانوا على وعى واستقراء علمى للتاريخ اليمنى، فلم يحاولوا قط أن يمدوا نفوذهم ووجودهم أبعد من عدن وما حولها!

عدن تكفى لتأمين التجارة الأوروبية ومصالح شركة الهند الشرقية، وكفى الإنجليز شر قتال اليمنيين، والعبرة والعظات بما حاق بالأتراك من دهاء شعبها ووطنيته وبأسه وكره وفره دفاعا عن الأرض وذوداً عن الشرف!

وبث عملاء الإمامة الكثير من الأكاذيب وروجوا الافتراءات على القوات المصرية تباعا، عبد الناصر زعيمهم «اشتراكى» والاشتراكية تعنى أن يشاركوا الشعب قوته وممتلكاته حتى بيته وزوجته، وعبد الناصر وقواته كذلك يدينون بدين اسمه «الشيوعية» وتلك تعنى شيوع الإباحية والممارسات الجنسية واختلاط الأنساب وإنجاب الذرية من الحرام بلا حسيب أو رقيب. . وانظروا أيها الناس إلى ملامح المصريين. . هذا أسمر اللون وهذا خمرى البشرة وهذا أسود وذلك أشقر. . انظروا إلى اختلاف ملامحهم وألوان عيونهم. . انظروا إلى ما بينهم من

تنافر فى الأجسام بين طويل وقصير ونحيف وسمين . . وصدقونا بعد ذلك أنهم شيوعيون . . وأولاد حرام!

وكان هناك من يتأثر ويستجيب للشائعات والأكاذيب والافتراءات المسموعة . . ولم لا وأجسام اليمنيين من حولهم متشابهة وضامرة فقراً . . وجوعا . . ومرضا . . وملامح القبائل لكل منها سماتها وملامحها لأسباب ترجع إلى عزلة بعضها عن بعض قرونا، عندما كان أئمة بيت حميد الدين يتحسبون نهايتهم فى اختلاط القبائل ووحدة إرادتها على مقاومة حكمهم الظالم.

والأخطر من ذلك أن البسطاء والجهلة تذكروا قصيدة الإمام أحمد التى سبق ذكرها ونظمها وفصلها شاعر معروف من أنصاره على هواء، إثر مؤامرة الانفصال فى سوريا، ورهانه على أفول نجم عبد الناصر بعدها ونهاية ثورة يوليو ونهجها الاشتراكى.

ماذا تفعل القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية لدحض هذه الشائعات وتصحيح الافتراءات وتنقية العقول من السموم وأوبئة الدعاية المضادة . . كيف تؤكد لهؤلاء البسطاء الذين غيبت عقولهم عن الوعى، بأن الاشتراكية صنو للعدالة الاجتماعية، وأن المصريين ما جاءوا إلى اليمن إلا للدفاع عن الثورة والجمهورية وحق الشعب فى الحياة الكريمة الحرة.

٥٧ـ ترزى القفاطين مذيعا ثوريا

هنا ظهر محسن الجبرى ذلك الشاب النحيف الذى تتوهج عيناه ذكاء ويشع من عقله وضميره إيمان هائل بأن طريق الثورة لا رجعة فيه ولا مزايدة.

وكان محسن الجبرى ترزيا بسيطا يخيط الجلاليب والقفاطين اليمنية، وكان دكانه فى صنعاء همزة هامة ضمن همزات الاتصال السرية العديدة بين الحركة الوطنية والحاديين على قيام الثورة والاستيلاء على السلطة لمصلحة الشعب وتأمين المستقبل السعيد، وقد كلفه ذلك دخول سجن الحديدة إبان حكم الإمام أحمد بتهمة حيازة منشورات ثورية، ثم عاد إلى سجن صنعاء ليقضى فترة عقوبته بين ويلات التعذيب

ومعاشرة الحشرات بسبب تعديه على أحد السفراء الأجانب، عندما كان يحاول التحرش بفتاة يمنية!

وكان محسن قد تقدم للقيادة العامة للقوات المصرية بفكرة بسيطة، أن تشترى له جهاز ريكوردر «نقالى» لمواجهة أبواق الدعاية المضادة للثورة والتقدم وحلفائها من المصريين، واستخف البعض بالفكرة فى البداية، لكنه عاد يلح فى طلبه ويضرب الأمثال ويقدم الدليل على فهمه ودرايته وخبرته بخصائص اليمنيين وأساليب مخاطبة القبائل وإقناعهم وكسبهم إلى صف الثورة، وبنفس أسلوب دعايات الثورة المضادة وإذاعتها التى بدأت تبث برامجها المسمومة نثرًا وشعرًا وفنًا.

تم شراء الريكوردر المطلوب وأصبح محسن الجبرى «أحمد سعيد اليمنى» على نحو ما كتبته عن قصته فى مجلة «روز اليوسف» بعد أن تمكن من أن يلقم ببرامجه ودعاياته الأحجار الدامية تباعًا فى حلوق أبواق الثورة المضادة.

من أفواه الأعلام والمشاهير فى ميادين الثقافة والشعر والغناء والدين فى اليمن، كان ينقل إبداعاتهم المسجلة ساعة بساعة إلى الإذاعة، عن وقائع الثورة وضروراتها، عن أحوال البؤس والظلم والشقاء التى عاشها الشعب فى ظل حكم الأئمة، وكان يقدم التفسيرات الحية لمعانى الاشتراكية والحرية والوحدة والجمهورية.. وأنها روح الإسلام ووسيلة لإسعاد البشر وكفالة العدالة والمساواة وتجسيد لإرادة العرب والمسلمين فى التضامن والقوة فى مجابهة أعدائهم، وكان يتنقل كالعصفور الرشيق من فن إلى فن.. وينقل من مجالس «القات» بعضا مما يروى من النكت الذكية التى تفضح عهود الإمامة، وتخلفها وملذاتها، وشحها على شعب اليمن، وكان يوجه أسئلته إلى المقاتلين اليمنيين والمصريين فى ساحات القتال لماذا أنتم هنا؟ ولماذا تحاربون؟ ومن أجل أى هدف تضحون؟

وحتى يجهض قصيدة الإمام أحمد المعادية لثورة يوليو وجمال عبد الناصر فى مهدها، ويدفن إلى الأبد استغلالها فى دعايات الثورة المضادة، لجأ إلى إذاعة العديد من القصائد المضادة على لسان أصحابها كانت تثير الضحك والسخرية من عقلية الإمامة المتخلفة وكذبها.. وأذاع قصيدة الكاتب محمود السعدنى التى كتبها فى روز اليوسف يرد فيها على قصيدة الإمام أحمد وفق أسلوب الشعر

الحلمنتيشى . . وكان يكرر إذاعتها على ألسنة العامة والخاصة . . حتى أصبحت مع الأيام أشهر من قصيدة الإمام .

وأخطر ما كان لمحسن الجبرى من أدوار مقدرة فى مواجهة دعايات حلف الإمامة والرجعية والإمبريالية، عندما استغل فى ذكاء وبراعة ولع الشعب اليمنى بالشعر الشعبى المرتجل من وحى اللحظة، وغناء «الزامل» الذى تعشقه القبائل، وكان يذهب إلى الشعراء الشعبيين ويدعى أن أعداء الثورة يهاجمونه بالاسم ويستخفون بمواقفهم إلى جانب الثورة، وكان هؤلاء ينبرون ويتبارون فى الهجوم المضاد الذى يعرض بخيانة وجبن وعمالة أعداء الثورة، وكان يتجشم المشاق حتى يصل إلى القبائل أينما كانت مواقعها فى اليمن . . وكم سجل وأذاع من غناء « زاملهم» الراقص حتى يثبت بالدليل القاطع أن معظم الشعب مع الثورة الجمهورية، وأن القلة الباغية فقط هى التى وقعت فى شراك الإغراءات المعادية لأمانى وطموحات اليمنيين وإجماعهم على الثورة وبينما كانت مدة إرسال إذاعة صنعاء لا تتجاوز ساعتين فقط فى نهاية حكم بيت حميد الدين تصاعد الإرسال إلى ١٦ ساعة يوميا لملاحقة واستيعاب البرامج والمواد السياسية والثقافية الفنية والدعائية التى كان لمحسن الجبرى منها نصيب الأسد قوة وبأسا ودهاء! و . . لايزال حتى الآن يواصل دوره فى حماس وتواضع إضافة إلى مقالاته السياسية والثقافية فى الصحف اليمنية وآخر ما قرأته له فى صحيفة ٢٦ سبتمبر قصيدة من الشعر الشعبى «الزامل» يرد بها على واحد من المندسين فى الوسط الثقافى . . تقول :

منا سلام آلاف يتكرر	فى يوم عيد النصر والوحدة
لمن صمد والحرب تتفجر	ومن جر فى ساعة الشدة
وقلنا والكل يتذكر	مختار إما الموت أو الوحدة
ووفا بما قاله ولا اتأخر	عاش الذى ما قد خلف وعده
زعيمنا المغوار من طهر	أرض اليمن من زمرة الردة
وقارنا فى زحفنا الأكبر	وجيشنا والشعب من بعده
للمعركة فى جونا والبر	والبحر فى جزره وفى مده

ورغم أعظم نصر لم يغتر ... من جاه نادم مد له يده
بالعفو قد قطع حبال الشر ... وباب ريح الخوف قد سده
حكمة يمانية بها نفخر ... في يوم عيد النصر والوحدة

٥٨ـ الصرف حتى آخر بقشة

على أن إثارة موجات الدعاية المسمومة ضد القوات المصرية ما إن كان يتم كبحها حتى تتبعها موجات أخرى أكثر خطورة وتأثيرا فى نفوس السذج والمغيبين عن الوعى، وهكذا انطلقت الشائعات التى تتهم الجنود والضباط المصريين بالكفر والإلحاد. . غطاء الرأس «الكاب» الذى يقى الوجه من الشمس الحارقة، يعنى أنهم يرفضون التطلع إلى سماء الله والتأمل فى ملكوته، ثم كيف يتأتى لهم الاستنجاء والوضوء وهم يرتدون البنطلون، وما هذه الثياب المزركشة التى يرتديها جنود الصاعقة إلا دليل على الجنون و. . تلك كانت مجرد أمثلة. . والأمثلة كثيرة على استغلال جبهة الثورة المضادة لكل مسلك أو تصرف للمصريين فى الدعاية والتشكيك فى تدينهم. . ووصمهم بكل رذيلة وسوء القصد من وراء مجيئهم إلى اليمن.

وهكذا صدرت الأوامر للجنود والضباط المصريين على اتساع مسرح العمليات العسكرية وفى داخل المدن والقرى وعلى مستوى «العزلة» الصغيرة، أن يختلطوا باليمنيين، أن يأكلوا معهم طعام «الحلبة» وأن يشمروا عن سواعدهم وأرجلهم ويثبتوا لهم أن البنطلون لا يمنعهم عن الوضوء، وأن يقلبوا الكاب فوق رءوسهم ويصلوا وراء اليمنيين وأذيعت من ميكروفونات المعسكرات والمساجد تلاوة الجنود والضباط المصريين لآيات الذكر الحكيم.

عليهم كذلك أن يصرفوا رواتبهم حتى آخر «بقشة» فى شراء ما لا يلزمهم وما يلزمهم من طعام ومتعلقات شخصية وشراء الهدايا للأهل والأصدقاء، حتى يشعر اليمنيون أن المصريين مصدر للربح والرزق، وعامل من عوامل تنشيط الحركة الاقتصادية.

وتعلم المصريون لهجات أهل اليمن، وبدأ اليمنيون يتقنون اللهجة المصرية

وحتى دعابتهم ونكاتهم، وكانت القوات المصرية بحق قدوة فى الانضباط والخلق وإنكار الذات وسرعة التلبية لمعاونة إخوتهم اليمنيين . . وبدأ الأطباء منهم يعالجون المرضى بالوسائل الحديثة والأدوية والقضاء على الأوبئة والإرشاد الصحى.

وأذكر أننى كنت مدججا دائما بحبوب الفيتامينات والأسبرين فى بدايات الثورة اليمنية وكلما لمحت يمنيا فى جولاتى يعانى مظاهر البلاجرا وفقر الدم والبرى برى أهديه بعضا من حبوب «الفيتامينات»، وكان يأتينى بعد أيام يطلب المزيد مؤكدا أن صحته تحسنت وقواه البدنية نشطت . . وكان لهذه الحبوب فعل السحر مع اليمنيين فى القبائل النائية الذين لم تدخل مثل هذه المكونات الكيميائية أجسامهم من قبل . . وكم عقدت من صداقات مع مشايخ القبائل وكان عربونها حبوب الفيتامينات والأسبرين.

٥٩- حبوب «الفترا»

يوما ذهبنا عام ١٩٦٤ إلى صعدة فى أقصى شمال اليمن، مجموعة من الصحفيين المصريين بصحبة الرائد على رحمى ضابط الشئون العامة للقوات المسلحة، الذى حصل من بعد على الدكتوراه وكان موضوعها ثورة اليمن ثم أصبح من بعد وكيلا لوزارة الإعلام وهو الدكتور على رحمى، وهناك التقينا بشيخ قبيلة «جمهرت» حديثا بعد أن «أفسدت» طويلا ولاحظت هزاله ويديه تمسكان برأسه من صداع مزمن، وانتحيت به جانبا وأعطيته بعضا من أقراص الأسبرين وقلت: هذا حق الرأس، ثم أعطيته بعضا من أقراص «الفترا» وقلت مازحًا: هذا حق الحريم!

فى الصباح المبكر من اليوم التالى استدعانى العميد أحمد حلمى قائد القوات العسكرية فى صعدة وأيقظنى من نوم عميق، وخرجت من الخيمة لأجد شيخ القبيلة ينتظرنى ويحتضننى ويقبلنى دون أن أدرى لذلك سببا، ووجه إلىّ الدعوة إلى العشاء فى منزله . . ووافقت على الفور، وعندما أزف موعد الدعوة أصر العميد أحمد حلمى أن أذهب إليه فى سيارة مصفحة، لأن الليل أوشك أن يرخى ستائره السوداء، والطريق غير آمن، وهذا الشيخ لا يؤمن جانبه.

لكنى رفضت أن أذهب إلى صديق هكذا فى حراسة عسكرية، وقررت أن

أخوض التجربة على مسئوليتى الخاصة، واصطحبنى أحد الجنود فى سيارة جيب إلى منزل شيخ القبيلة حيث وجدت فى انتظارى مائدة من الطعام اليمنى الفاخر يتصدرها خروف مشوى بكامل هيئته، وعندما أزف موعد الرحيل إذا بشيخ القبيلة يودعنى بالأحضان والقبلات للمرة الثانية، ويهدينى خروفا حيا طعاما لأصدقائى الكتاب والصحفيين الذين تقاعسوا عن تلبية دعوته، ثم يطلب منى على استحياء بعضا من حبوب «حق الحريم»!

يوما نقلت فى طائرة عسكرية من حرض إلى صنعاء بصحبة الزميل صلاح قبضايا الكاتب الصحفى بالأخبار ورئيس تحرير صحيفة الأحرار القاهرية الآن، وكنت أتلوى وأتألم وأتوجع لآلام شديدة فى المعدة، وفى المستشفى العسكرى اكتشف الأطباء أنها الزائدة الدودية وربما تلبك فى الأمعاء، وأنه لا مفر من إجراء عملية جراحية عاجلة، إلا أننى اكتشفت بعد ذلك بدقائق. . أن الآلام تلاشت تماما، وأصبحت دون مقدمات نشطًا معافى، وأعاد الأطباء الكشف والفحص. . وأبدوا حيرتهم الشديدة لأن مظاهر الألم لم يعد لها وجود. . وقرروا بقائى فى المستشفى تحت الملاحظة وتأجيل إجراء العملية. . لكن ليست هذه هى القصة، فالقصة أننى رأيت بأم عينى حالات كثيرة من المرضى اليمنيين فى المستشفى العسكرى بصنعاء، وكم كانوا يصرون على أن تجرى لهم العمليات الجراحية بدون بنج أو أية درجة من التخدير الموضعى. . وكيف كانوا يتحملون الألم ودون أن تصدر شفاههم حتى مجرد كلمة آه. . وكانوا عندما أسألهم لماذا يرفضون التخدير يقولون إنهم ورثوا هذه العادة منذ بعيد الأزل كمظهر للرجولة!

٦٠ـ فساتين الزفاف من كل موضات العالم

على أننى خلال زيارتى الأخيرة لليمن بعد غيابى عنها زهاء تسع سنوات، كانت دهشتى بلا حدود لمدى التغيير المذهل الذى شمل مختلف مناحى الحياة، لكأن اليمنيين فى سباق ماراثونى مع الزمن لسد هوة التخلف واللحاق بالعصر واستعادة سابق الوصال بحضارتهم الخالدة التى أسهمت فى تقدم البشرية ورقيها.

ويلفت النظر للوهلة الأولى ذلك التوسع العمرانى سواء على الصعيد الأفقى أو الرأسى، مع الحرص الشديد على الالتزام بالطراز الأصيل الموروث، عبر استخدام «الوقيص». . وهى الأحجار الصلبة الملونة والمنحوتة بدقة وفن، واستخدامها فى البناء وكسوة واجهات البيوت والمؤسسات، مع الحفاظ على عقود الزجاج الملون التى تعلو النوافذ والأبواب!

وتعجب عندما تسمع من يدعى غضب الله على مبنى شركة الطيران اليمنية فى صنعاء لأنه كان دخيلا ومسخا لطراز العمارة الموروث، ومن ثم ابتلى بالحريق عندما جاء تقليدا لناطحات السحاب الأمريكية والأوروبية المشيدة على هياكل وواجهات من الألومنيوم، وربما من هنا كان التفكير فى تصحيح الخطأ والتكفير عن هذا الذنب الحضارى، عبر بناء جديد من «الوقيص» مواز للألومنيوم سالف الذكر. . تأكيداً على مصداقية المثل القائل «من فات قديمه تاه»!

كنت قد غادرت صنعاء والصحف اليمنية تنهال بالنقد المرير على محافظ العاصمة السابق، بعد أن تحولت الشوارع فى عهده إلى معالم لأكوام الزبالة والحفائر ومخلفات البناء ومخرات السيول والأمطار التى تلاشت معالمها، ولم يكن غير الإنسان اليمنى وإبداعاته الذى أنهى تلك الفوضى وذلك الإهمال البشع عند حد، بعد قرار استبعاد فكرة الاستعانة بالشركات وبالخبرة الأجنبية، وليس من قبيل المجاملة أو النفاق الإشادة بنظافة صنعاء على مدار ساعات النهار أو الليل، لكأنها البورسلين الصينى بعد غسيله، حيث عشرات المئات من العمال الذين يتعقبون المهملات والملوثات حتى ولو كان عقب سيجارة أو قشرة برتقال!

وبينما هددت منظمة اليونسكو باستبعاد صنعاء القديمة من مجموعة التراث العالمى التى تسبغ عليها رعايتها المالية والفنية، يشاء القدر أن ينبرى الرئيس على عبد الله صالح لمواجهة تلك الكارثة الحضارية، ويشرف بنفسه على وضع الخطط والإشراف على تنفيذها، فكان الجمال والبهاء الذى اكتست به واجهات بيوت صنعاء القديمة بعد طلائها وترميمها، فيما جرى سفلتة وتبليط شوارعها وحارتها وأزقتها، وإحاطتها بسور جميل من الحجارة الثمينة، فى الوقت الذى شقت صنعاء القديمة والجديدة مجموعة من الأنفاق وبناء الكبارى العلوية للتغلب على زحام

السيارات التى ينتظم سيرها أو توقفها كما الساعة مع إشارات المرور، ولعلى أشير فى هذا السياق الحضارى بالمسجد العملاق المهيب الذى يجرى تشييده على قدم وساق، ويضارع المسجد الكبير الذى بناه العاهل المغربى الراحل الملك محمد الخامس، حيث تتسع جنباته لنحو خمسة آلاف مصل، ويضم مكتبة ضخمة، ومعهداً دينيًا وقاعات للمحاضرات، وتعلوه سبع من القباب وسبع من المآذن الإسلامية السامقة متباينة الأحجام، ويقع فى ميدان السبعين تيمنا بذكرى صمود الشعب اليمنى بقواه الذاتية دفاعا عن صنعاء عام ١٩٦٧ فى مواجهة جحافل القبائل الملكية والمرتزقة الأجانب سبعين يوما إثر عودة القوات المصرية إلى أرض الوطن، وهو ما عرف فى الإعلام الغربى بـ«حرب كومر» وهو اسم الضابط الأمريكى المغامر الذى قاد الحملة العسكرية التى فشلت فى صنعاء للمرة الثانية فى تاريخها الحديث، وكانت المرة السابقة عندما فشلت ثورة الأحرار الدستوريين عام ١٩٤٨، وعندئذ وجه الإمام أحمد القبائل الموالية للانتقام من أهل صنعاء الذين أعلنوا ولاءهم للثورة، وإلى حد نزع شبابيك وأبواب وبلاط البيوت!

على أن من غاب مثلى عن اليمن سنوات، سوف يتوقف طويلا أمام هذا الزخم الزراعى الذى يغمر الأسواق بشتى أنواع الخضراوات والفاكهة التى جرت زراعتها وبعضها لأول مرة فى اليمن، وهو ما عكس تنوع الطعام اليمنى بعد أن ظل أسيرا لوجبات الحلية و«الشفوت» و«بيت الصحن»، وكذا ثراء المحلات التجارية بالسلع والبضائع من كل حدب فى العالم وصوب، وهذه المساحات الشاسعة من واجهات محلات الأزياء التى تعرض فساتين الزفاف البيضاء من كل موضات العالم.

٦١ـ لم يخطئ جندى مصرى واحد

أحسب أن الشعب اليمنى الأصيل لا يزال يذكر القوات المصرية بالحب والوفاء والعرفان حتى بعد رحيلها منذ ٣٩ عاما. ويذكر كذلك فضل الخبراء المصريين الذين جاءوا فى ركابهم، يذكرون أن المناطق الشمالية التى كانت تحترف القتال والخطاط وقطع الطريق، عرفت الزراعة ومارستها لأول مرة على أيدى الجنود المصريين من

أبناء الفلاحين الذين كانوا يزرعون الطماطم والفاصوليا والملوخية والكرنب والجرجير، ويذكرون للمصريين أنهم تعلموا منهم الفن الصحفى والإذاعى والمسرح، وأنهم أسهموا معهم فى بناء الدولة الحديثة وأنشأوا الوزارات لأول مرة، ونظموا هياكل الإدارة والاقتصاد ومؤسسات الحكم، وبناء المدارس ومعاهد التدريب ونشروا العلم والثقافة وحافظوا على تراث اليمن.

نعم لم تكن حملة عسكرية مصرية لتأديب وردع العدوان على الثورة فحسب، بل كانت حملة حضارية كذلك ضمت نخبة العقول المصرية والعلماء والخبراء والمتخصصين الذين أسهموا بجهودهم المضنية الخلاقة فى مساعدة الشعب اليمنى على اجتياز مرحلة النقاهة من أمراض التخلف والعزلة والفقر التى فتكت بالشعب وأجسامهم وعقولهم حتى كاد أن ينقرض . . وحتى بدا الآن وقد استعاد سابق حضاراته العظيمة، إذا كان تعداد الشعب اليمنى سبعة ملايين لكنه تناقص فى أتون حكم الإمامة إلى خمسة ملايين عندما قامت الثورة، حيث تصاعد تعداد السكان الأصحاء إلى ما يربو على عشرة ملايين فى الشطر الشمالى وحده قبل الوحدة اليمنية، بفضل امتلاء اليمن بنور المعرفة والتقدم والرخاء والحرية والوئام والسلام.

ورغم الفترات الطويلة والقياسية التى كان على المقاتل أو الخبير المصرى أن يؤدى خلالها فريضة الدفاع عن الأمن القومى ووحدة الإرادة العربية على أرض اليمن قبل أن يأتى عليه الدور فى الإجازة أو إنهاء المهمة - وكانت سنة أو سنتين فى بعض الأحوال - إلا أن تقارير الأمم المتحدة والدراسات العسكرية والاستراتيجية وكافة الكتب التى صدرت حتى الآن عن حرب اليمن عربية أو غربية، أجمعت على أن القوات المصرية كانت مثالا فريدا فى الانضباط والخلق الحضارى الذى يستحق عن جدارة المزيد من الدراسة وسبر الأغوار.

فى كل الحروب الطويلة بعيدا عن الوطن، من الطبيعى جدا أن تهتز الأخلاقيات والقيم وتنتشر حالات «الهوم سيكنس» حنينا للأهل وتعويضا عن الحاجة إلى معاشرة الزوجات عبر وسائل غير مشروعة، لكن وعلى وجه اليقين وتلك شهادة موثقة أدلى بها المشير عبد الله السلال رئيس أول جمهورية فى اليمن وعدد من ثواره ومفكريه ومؤرخيه، عندما تصدوا بالحجة والبراهين للواء طلعت مسلم الخبير

العسكرى فى مركز الدراسات الاستراتيجية بمؤسسة الأهرام، وهو يلقى بحثه عن الدور العسكرى المصرى خلال الندوة التى نظمتها جامعة صنعاء واللجنة المصرية للتضامن حول العلاقات المصرية بين ثورة يوليو وثورة اليمن.

وكان نص الشهادة اليمنية: «لم يعتد مصرى واحد على الحرمات اليمنية، لم يرتكب مصرى واحد معصية فى حق فتاة أو امرأة، ولم يفر مقاتل مصرى من الميدان لا خوفا من الأهوال أو كفرا بمصداقية الدفاع عن الثورة، لا على صعيد الهدف القومى الكبير، ولا على صعيد الجدوى فى أن يبذل ويضحى بنفسه.. وإذا كانت ثمة أخطاء فهى أخطاء تخلفنا وعزلتنا وانقساماتنا.».

٦٢ـ علاء الدين والأرواح السبعة

لن أنسى الأيام المشحونة بذكريات البطولة والصبر والعمل لقواتنا المسلحة فى لواء صعدة.. هؤلاء البواسل الذين «يركبون» قمم الجبال الخرافية، يدافعون من فوقها عن حدود اليمن، وفى سهولها الخصبة يبنون ويعمرون الخراب الذى خلفه حكم الأئمة.

لن أنسى «الملازم» الشاب الذى يعيش مع الجن، على ذروة جبل «براش» المفروشة بالثلوج، سبابته على زناد مدفع رشاش وعيناه تلتهمان الكتب العسكرية.. استعدادا لامتحان كلية أركان حرب.. «النقيب» علاء الذى أنعم عليه بترقية استثنائية مرتين لاستيلائه على ست «تباب» معادية، أصبحت تعرف من يومها باسمه.. وكانت القبائل قد أطلقت على علاء لقبين «الأول» علاء المحجب والثانى «علاء أبو سبعة أرواح»، وذلك لأنه كان دائما ينجو من الموت المحقق فى العديد من المعارك الصعبة!

لن أنسى كذلك الرقيب صابر الصعيدى المفتول السواعد والشوارب، الذى انفجر فيه لغم، لكنه تماسك ولم يصرخ بالألم.. حتى ينجو زملاؤه وتنجح خطة مهاجمة العدو.. ولن أنسى طبيب سوق صعدة، وضابط شئون قبائل سحار، وواعظ الأزهر الشريف.. وكل مقاتل مصرى يرتدى اللون «الكاكى» فى صعدة

لا يمكن أن تضيع ملامحه من ذاكرتى. . لأن ما كانوا يقومون به هناك، تعجز أضعف ذاكرة فى العالم عن نسيانه.

وصلنا إلى مطار صعدة بعد نصف ساعة من إقلاع الطائرة العسكرية من صنعاء صباح أحد أيام الشتاء عام ١٩٦٥ . . شعرت بأننى أتنفس الهواء البارد بسرعة متلاحقة، وأبديت ملاحظتى للضابط الذى كان فى استقبالنا . . وعرفت منه أن سبب ذلك هو الارتفاع الشاهق لصعدة الذى يبلغ ٣٦٠٠ متر عن سطح البحر، ولذلك يقل الأكسجين فى الهواء فتعوضه الرئتان بسرعة التنفس . . وضحك وهو يقول . . ولكنك ستتأقلم بعد قليل.

وتنطلق السيارة فى طرقات متعرجة ولكنها مستوية السطح، شقتها القوات المصرية فى قلب الجبال والصخور، فبدت من بعيد وكأنها قطع سكين فى قالب من الصابون . . وقد ساير الأهالى الحدث الجديد فى لواء صعدة، فبدأوا يسيرون بدوابهم فى هذه الطرقات الممهدة . . ثم بدأ شيوخ القبائل يشترون السيارات الملاكى واللوارى . . وينقلون بها رجالهم وبضائعهم على هذه الطرقات الجديدة المعبدة، ومن مظاهر التقدم التى شاهدتها، ركوب السيدات خلف أزواجهن فى المقاعد الخلفية للدراجات «والموتوسيكلات».

نصل إلى القيادة العامة، وبعد راحة قصيرة يدخل علينا أحد الجنود، ومعه «ربطة» هائلة من الأحذية و«الأفارولات» العسكرية، ونبدأ فى اختيار ما يناسب أحجامنا، ونصبح وكأننا الجنود فى الجيش العامل.

ويصحبنا الضابط المرافق لمقابلة العميد أحمد حلمى قائد منطقة صعدة على الفور ونلتقى برجل أسمر البشرة تجاوز الأربعين، بشوش الوجه، يتوارى سواد شعره خلف بياضه، ويقدمنا القائد إلى مجموعة من مشايخ قبائل صعدة: الشيخ فايد مجلى، والشيخ الصيربى، والشيخ محمد حسين علوان، والشيخ عثمان العلابى، والشيخ مجلى بن حمود، والشيخ فايد شويط . . ومجموعة من «خبرة» الشيوخ أى مساعديهم فى حكم القبائل.

ما سر هذا الاجتماع؟

الذى عرفته أن لكل منطقة أو «محور» عسكرى لقواتنا، ضابطا صغيرا متفرغا لشئون القبائل فى الناحية . . أما أن يجتمع القائد العام بالقبائل رغم مشغولياته ومسئولياته . . وفى هذه الساعة المبكرة من النهار . . فلا بد أن الأمر خطير .

ومن أكواب الشاى التى دارت على الضيوف . . عرفت تفاصيل القصة . . لقد وضعت القيادة العسكرية للقوات المصرية هناك، خطة سياسية تهدف إلى تدريب الأهالى على أن يتعودوا حل مشاكلهم بأنفسهم، وبطريقة منظمة بعيدة عن سياسة القوة والثأر والإغارة .

وبعد خطة تركيز القوات المصرية فى مناطق استراتيجية، تستطيع من خلالها تأمين نفسها، والانطلاق السريع لضرب تحركات العدوان، بدأت خطة جديدة لتجميع ١٠ آلاف رجل من رجال القبائل . . ليتحملوا مسئولياتهم كطليعة للدفاع عن حدود اليمن .

وبدأت الخطة تأخذ طريقها بنجاح فى ألوية الشمال، غير أن مخابرات صعدة ضبطت «مكتوبا» بإمضاء أحد المشايخ تكشف عن علاقته بالمتسللين، وكان هذا هو السبب فى دعوة القائد العام لمشايخ القبائل ليحاكموا الشيخ الخائن .

وعندما سمع المشايخ الخبر . . يثورون ويتوعدون الخائن بالانتقام . . بينما الشيخ المتهم يؤكد أنه برىء . . وأن الأمر لا يعدو أن يكون دسا ووقيعة ويطلب القائد العام من الشيخ أن يوقع بإمضائه على ورقة بيضاء، حتى يرسلها إلى القيادة العامة فى صنعاء للتأكد من أن التوقيعين متطابقان أو العكس . . وبعد ذلك يضع الحقيقة كاملة أمام مشايخ القبائل لمحاكمة الشيخ المتهم وإدانته أو تبرئته .

وهكذا كانت القوات المصرية تنأى بنفسها عن التدخل فى شئونهم الداخلية . . إلا عندما تنعكس تصرفاتهم على الأمن العسكرى سلبا أو إيجابا . . وبطريقة ديموقراطية تهدف إلى تعويد القبائل التى مزقتها الخلافات القديمة على حمل المسئولية ومواجهة أعداء الثورة . . والتمرس بالقيادة الجماعية .

ملحوظة : فى أحداث أيلول الأسود بالأردن نجح الضابط علاء ذو الأرواح السبعة فى تهريب ياسر عرفات إبان أزمة أيلول الأسود ووصوله سالما لحضور القمة العربية فى القاهرة .

٦٣ـ ٤٠ جبهة عسكرية دفاعا عن الثورة

كان مسرح عمليات الدفاع عن الثورة موزعا على ٤٠ جبهة عسكرية، وقد تناوب أكثر من ضابط مصرى من ذوى الرتب الكبيرة مهمة قيادة القوات العربية المشتركة من المصريين واليمنيين وكان فى طليعتهم اللواء أحمد فتحى عبد الغنى الذى استغرقت مهمته باليمن عامين، تولى خلالها القيادة فى منطقة «الجوف» لمطاردة فلول الملكيين بقيادة الأمير محمد الحسين والإغارة على مواقعهم، بالتزامن مع تنفيذ خطة مطاردة الإمام البدر وإجباره على الخروج من اليمن، وهو كاد أن يقع فى أسر الملكيين عندما سقطت الطائرة التى كان يركبها خلال تفقده مواقع القوات المعادية، ولولا لباقته لانتصر رأى فريق من الملكيين كان يحبذ قتله ومن معه وتسليم رءوسهم للبدر مقابل الذهب والسلاح، إذ كان يستشهد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية، حتى أنه نجح فى تجنيدهم فى صف الجمهورية!

كذلك كان الفريق أنور القاضى أول قائد عسكرى للقوات المصرية باليمن حيث وصلها فى مهمة استطلاعية فى البداية عبر طائرة أنتينوف حطت به فى مطار ترابى، وبعدها راح يرصد الموقف ويقيمه من مختلف زواياه حتى نقل إلى المشير عبد الحكيم عامر اقتناعه بقدرته ورغبته فى القيام بالمهمة فى أواخر أكتوبر ١٩٦٢، حيث بدأ عملية السيطرة على منطقة «صراوح» وفك أسرى الجنود المحاصرين، ثم التخطيط لتأمين القوات، ومما يثير الدهشة أن الفريق القاضى قال لى إنه عندما بحث عن خريطة لليمن لم يجدها، مما اضطر القيادة إلى جلبها من لندن.

كان تأمين السهل الساحلى لليمن عبر قتال مشترك بين القوات المصرية واليمنية وبمساعدة الأهالى فى المنطقة، وبعدها كانت السيطرة على شهارة ووشحة بعد أن وصلها الإمام البدر على أمل أن يصل بعدها إلى الحديدة، بينما كانت الصعوبة فى تأمين صعدة، حيث تقدمت القوات المصرية واليمنية بقيادة الضابط الثورى عبد الرحمن الترزى من «ريدة» إلى «حدث» إلى «الحرف» إلى «مضيق العمشة» إلى «الصبرة» إلى «مضيق سنارة» إلى سنارة، لتلتقى بكتيبة مصرية من المظليين وسلاح المهندسين، وكان النجاح شاقا فى السيطرة على هذه المنطقة الاستراتيجية، وإقامة مطار حربى لاستقبال وإقلاع الطائرات العسكرية والمدنية.

فى الجوف كانت خطة الفريق القاضى الاستيلاء على المنطقة على مراحل، فمن صعدة تقدمت القوات إلى الخراب، ثم المطلة، ثم الحزم ومنها إلى مأرب، وبعدها «الجوبة» و«حريب» وهكذا أمكن تأمين مختلف ربوع اليمن من الاختراق العسكرى المعادى.

بعدها تولى قيادة القوات المصرية الفريق عبد المحسن كامل مرتجى، ثم طلعت حسن الذى كان له فضل حسم الاستقرار والأمن فى شتى ربوع اليمن، ثم اللواء عبد القادر حسن الذى أنجز تكليفه بسحب القوات المصرية من اليمن عام ١٩٦٧ بأمان تام، بعد أن أدت دورها القومى على أكمل وجه!

لكن يظل دور الملازم المصرى محمد عبد الله استثنائيا ومثيرا للجدل والعجب. . . لماذا؟

الإجابة ضمنتها مقال فى صحيفة العربى الناصرية تحت عنوان:

٦٤ـ لورانس المصرى

قلت إنه لا يعادل علاقة الحب الصوفى التى تربطنى بالسودان بعد مصر، سوى عشقى لليمن وأهل اليمن، وإذا كانت مصر الوطن والانتماء، فالسودان يمثل «التخوم الجنوبية من ذاتى» على حد وصف أديبه الكبير الطيب صالح فى تقديمه لكتابى «السودان ـ وأهل السودان ـ أسرار السياسة وخفايا المجتمع»، أما اليمن فعلى سفوح جباله ووديانه دارت أعظم الملاحم فى تاريخنا القومى المعاصر، عبر أنهار الدماء وتصاعد أرواح الشهداء اليمنيين والمصريين دفاعا عن ثورته وحقه فى الحياة واللحاق بالعصر، بعد قرون من الظلام والعزلة والتخلف، إذ كان حظى سعيدا ونصيبى الصحفى وافراً حين قدر لى شهود الملحمة من بدايتها ومتابعة معاركها وتداعياتها التى كللت بالوحدة اليمنية، وربما من هنا كانت فرحتى غامرة عندما التقيت بسفير اليمن الجديد الأستاذ عبد العزيز الكميم، فلم أكد أجلس إليه حتى بادرنى بالسؤال عن البطل المصرى المقدم محمد عبد الله.

والحقيقة أن فرحتى كانت مضاعفة، أولا لأننى أعرف الشيخ ناصر الكميم والد السفير، فهو كان واحداً من رموز حركة الأحرار اليمنيين التى فجرت ثورة اليمن

الأم عام ١٩٤٨، ورغم أنه لم يكن ضمن طليعتها من العلماء أو العسكريين، إلا أنه سخر متجره لبيع الأقمشة فى سوق الملح بصنعاء مركزا لتبادل الرسائل السرية بين زعاماتها، والصرف من دخله الخاص على أنشطتها، وتلبية احتياجات عائلات الذين جرى إعدام عوائلهم بسيف الإمام أحمد وغيرهم من الذين أودعوا سجون القلعة وحجة!

وأما عن فرحتى ثانيا.. فلأن السفير بادرنى بالسؤال عن صديقى البطل المصرى المقدم محمد عبد الله، وقال لى إنه بمجرد وصوله القاهرة، توجه إلى سكنه بحى مصر الجديدة للسؤال عنه والاطمئنان عليه حسب وصايا والده المشددة، لكنه وجد شقته مغلقة والجيران لا يعرفون عنوانا لسكنه الجديد، فلم يجد سوى أن يترك له رسالة مع بواب العمارة!

ولم تكن المرة الأولى التى يسألنى أهل اليمن عن صديقى الحميم محمد عبد الله، كذلك بحثت القيادة اليمنية عنه ولا تزال عبر الملحق العسكرى بالسفارة اليمنية بالقاهرة العميد عبد الإله حتى توفيه حقه من التكريم، كما طلبت السيدة جميلة رجاء المستشارة الصحفية بسفارة اليمن أن أدلها على عنوانه حتى يروى على شاشة تليفزيون صنعاء دوره السياسى والعسكرى المقدر فى الدفاع عن ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ ونظامها الجمهورى، وقلت لها إنه غاب عنى فجأة وانقطعت أخباره منذ خمسة عشر عاما، وأننى مثلها فى مسيس الحاجة إليه حتى أستكمل بدوره العظيم كتابى الذى شرعت فى وضعه تحت عنوان «اليمن وأهل اليمن - أربعون زيارة وألف حكاية ورواية» واتفقنا فى النهاية على نشر نداء مشترك فى صحيفة الأهرام لعله يتصل بأى منا، ومرت الأيام والشهور دون حس ولا خبر.

حتى دعانى السفير الكميم إلى إفطار رمضانى عام ٢٠٠٥، وكانت المفاجأة السعيدة حين وجدت إلى جوارى المقدم محمد عبد الله بشحمه ولحمه وابتسامته الآسرة وكان قد أصبح لواء على المعاش، وراح تقدم العمر والمرض ينالان منه، بينما ظلت معنوياته وحماسه كما عهدتها فى أوج شبابه وعطائه، وقبلته واحتضنته بقدر غيابه عنى زهاء ١٥ عاما، واتفقنا على اللقاء للحوار وإنعاش ذاكرته حول ملحمة الدفاع عن ثورة اليمن ودوره المقدر فى انتصارها وتثبيت أقدام نظامها الجمهورى!

٦٥ـ ماري تريز تشتري الضمائر الخربة

وإذا كان كل جندى وضابط وخبير فى الحملة المصرية إلى اليمن، قد أدى بشكل ما دوره العسكرى أو الحضارى بشجاعة وتفان دفاعا عن خيارات الشعب اليمنى، إلا أن الدور الذى قام به محمد عبد الله كان مختلفا ومتميزاً وبالغ الأهمية والإثارة، فهو كان عند اندلاع الثورة برتبة ملازم «من تحت السلاح» بداية من رتبة «صول»، وقد شاءت مصادفات القدر ومؤهلاته الشخصية وحسه القومى، أن يقع فى غرام اليمن وأهل اليمن، وأن يعرف الكثير مما لا يعرفه حتى اليمنيون عن أوضاع اليمن، جبالها وكهوفها ودروبها ومساكنها وحتى مدقاتها. . قبائله وعاداته. . وتقاليده. . ولهجاته. . وموروثاته الشعبية و. . حتى أصبح منهم وهم منه، إلى حد ارتداء زيهم الوطنى. . الحزام الموشى تتصدره «الجنبيَّة» أى الخنجر، ولأن الحرب فى اليمن طالت أكثر مما قدر لها، من هنا لم تجد القيادة المصرية ثمة خروجًا عن التعليمات العسكرية الصارمة عندما ترك للحيته العنان!

كان تعبير «الظلم العام» أول درس تلقاه الملازم محمد عبد الله فى إدراك طبيعة المجتمع اليمنى قبل الثورة، وهو قد حكى لى كيف كان اليمنى المظلوم يتحمل فوق طاقة البشر حتى ينال الإنصاف وعدل الإمام أحيانا، حيث كان يمشى على قدميه أياما قد تطول أسبوعين من قريته إلى صنعاء، وهو يواجه وحوش البرية وعناء الطريق ورشوة حراس الطرق تباعا حتى يسمحوا له بالمرور، ويا ويله لو وصل أسوار صنعاء فى المساء بعد إغلاق أبوابها أو كان وصوله فى غير يوم الجمعة، إذ كان عليه الانتظار والصرف على مبيته وطعامه فى «السمسرة» وهو اسم المطعم والفندق معا آنذاك حيث كان يأوى إليه الزبائن وركائبهم من الحمير، وذلك إن الإمام كان لا يلتقى بالرعية ويسمع لها إلا بعد صلاة الجمعة، وحتى يلتقى المظلوم بالإمام كان عليه أن يدفع المعلوم لحرس «العكفة»، ثم يتقدم له بمظلمته مكتوبة، فكان يحولها الإمام بيده على واحد من الكتبة، ثم يتسلمها ممهورة بختم الإمام، وعليه أن يسلمها للعامل الذى ظلمه فى منطقته حتى يعيد النظر فى شكواه، وبالتالى عليه أن يعود فى نفس الطريق ويتحمل نفس المشاق ودفع المعلوم مجددا. . فكان يسلم أمره إلى الله.

كذلك كان على الفلاح أن يدفع للإمام خُمس ثمن المحصول وخُمس للحكومة وخُمس للطريق . . ويا ويل من يرفض الانصياع للأمر . . إذ كان عليه فى هذه الحالة أن يستضيف حرس الإمام وقد يصل عددهم أكثر من عشرة، وعليه أن يوفر لهم الإقامة والطعام والقات كيفما شاءوا حتى يحافظوا على عرضه!

٦٦ـ حرس خاص من ٨٠ قبيليًا

أدرك محمد عبد الله هذا الواقع المزرى الذى ورثته الثورة التى جاءت لتغييره واستغله فى تجنيد القبائل عبر استثارة نجوتها وذكريات الحكم الإمامى الأليمة للدفاع عن الثورة، لكنه شخصيا قبل بهذا الوضع وتعامل معه على ساحة القتال، فكان ينصح رجال القبائل التى تحارب تحت قيادته بضرورة التعامل «الإسلامى» مع القبائل «المفسدة» أى المعادية للثورة والجمهورية، فلا ينهبون ممتلكاتهم ويقتلون أسراهم ويسبون نساءهم كما كانت عليه العادة فى الماضى إبان حروب الخطاط، بل وطاف يحرضهم على ردهم إلى أزواجهم فى حالة عدم ثبوت جبنهم وفرارهم من المعركة . . وكان يضرب بنفسه المثل . . ويرفض أن يشاركهم الاستيلاء على الغنائم التى كان شيخ القبيلة يستولى عليها فى العادة ويحرمهم من اقتسامها فيما بينهم!

ولأنه كان قدوة فى الشجاعة مقداما فى القتال، ولأنه كان دوما طليعة رجال القبائل الجمهوريين، وكان واحدا منهم، يأكل معهم، ويمارس عاداتهم، ويشاركهم مضغ القات وغناء الزامل، من هنا كان محمد عبد الله يتحرك ويحارب وينام وحوله زهاء ٨٠ حارسًا خاصًا من رجال قبيلة حاشد فى البداية ثم من قبيلة الحدا حتى النهاية، إذ كان بمثابة زعيم القبيلة بعد أن نجح فى رأب الصدع بين زعيمى قبيلة الحدا! وهما الشيخ على ناجى القوسى والشيخ ناصر البخيتى، بل وكان يتقدم أفراد القبيلة فى ساحات المعارك بعد أن يطلق من فمه زغرودة تشى ببدء الهجوم!

قال لى محمد عبد الله إنه اكتسب من عمله العسكرى بفلسطين تحت قيادة الضابط عبد المنعم عبد الرءوف الكثير من السجايا الاجتماعية والخبرة السياسية فى التعامل مع الفلسطينيين وكسبهم، وهو حين تقرر نقله إلى اليمن كان ملازما باللواء مشاة ١١٨، وكانت أول مهمة كلف بها من قبل القيادة العامة للقوات المصرية

اليمنية، تأمين الطريق من صعدة إلى صنعاء، وصادف أن التقى فى الطريق مع الشيخ غالب الأحمر، وكان قد غاب عن اليمن إثر اندلاع ثورة ١٩٤٨ ولجأ إلى نجران فى السعودية، وعندما قامت ثورة اليمن عاد، وأحببته من الوهلة الأولى، إذ كان صادقا وشجاعا ومؤمنا بالثورة والجمهورية، وهو أول قبيلى ارتبطت به قبل الشيخ عبد الله الأحمر شيخ مشايخ قبيلة حاشد وذراعه اليمنى الشيخ مجاهد أبو شوارب، ومن هنا بدأ تعاونهم مع القوات المصرية فى تأمين منطقة حرف سفيان وجبل العيال، ثم تعاملت بعد ذلك مع الجناح الذى ثبت ولاؤه للثورة فى قبيلة بكيل التى كانت تنقسم إلى جناحين . . ذو محمد وذو حسين»!

أذكر أن قبيلة بنى حشيش بزعامة الشيخ قاسم منصر وتسكن سلسلة الجبال الشاهقة المطلة على صنعاء، قد وصلتها من وراء الحدود بطارية مدفعية بعيدة المدى، وراحت تقصف بها العاصمة وثكنات القوات المصرية، وهنا تجلت خبرات محمد عبد الله بشئون وشجون اليمن وضربها فى مقتل، حيث أشار بسد منافذ القبيلة وحصارها من كل جانب، فلم يعد بوسعها بيع موردها الرئيسى والوحيد من العنب والزبيب فى سوق الملح ولا استبدال المحصول باحتياجاتها من الطعام، وتوقف القصف بعد أن أوشكت بنى حشيش على الخرب الاقتصادى عبر اتفاق بين محمد عبد الله بصفته أحد شيوخ قبيلة الحدا وبين قاسم منصر!

٦٧ ـ المشير عامر يلتقى بالغادر

فى منطقة صعدة المتاخمة لحدود السعودية وقعت كتيبة مصرية فى حصار القوات الملكية زهاء أسبوع حتى نفد الماء وأشرفت على الهلاك، بينما نجحت كذلك فى قطع طريق الإمدادات، وهكذا باتت عملية فك الحصار والنجاة بالغة الصعوبة، ووصل محمد عبد الله يتقدم رجال قبيلة الحدا، حيث انضمت لهم قوات من قبائل صعدة بزعامة الشيخين حمود مجلى وفايز الصربى، ودارت المعركة الشرسة بين الجانبين، ولكن دون أن تسفر لا عن غالب ولا مغلوب، وفجأة توقف إطلاق النار، وبدأت القوات الملكية فى الانسحاب وانهار الحصار، وتساءلت القوات المحاصرة كيف حدث ما حدث فجأة!؟

والحكاية أن محمد عبد الله تسلق وفى صحبته مقاتل يمنى جبل «براش» الذى يتوسط ساحة المعركة حتى وصلا إلى ذروته ورفعا معا العلمين اليمنى والمصرى، وعندئذ أدرك الملكيون أن قوات الثورة قد ركبت الجن الذى يسكن قمة جبل براش حسبما تروى الأساطير، فلم يعد لديها الرغبة فى الاستمرار فى القتال بعد هذا الفأل الشؤم!

ولأن صعدة كانت على حد تقدير القوات الملكية منفذها إلى داخل اليمن وصولا إلى صنعاء إيذانا بإعلان فشل ثورة سبتمبر على غرار ثورة ١٩٤٨ واستباحة القبائل لها، من هنا كان إغراء القبائل وتكرار محاولة الاستيلاء أولا على صعدة، فكانت عملية جبل الحناجر فى أعقاب عملية جبل براش، حيث وصل محمد عبد الله ووراءه المقاتلون من قبائل عديدة بعد أن ذاعت شهرته بينهم كفارس مقدام، وعبر التعاون مع العقيد فؤاد عزيز غالى وقواته الذى أصبح «قائد الجيش الثانى إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣»، سقطت التباب الثلاث لجبل الحناجر تباعا، بينما سقط أحد الضباط جريحا وهو الملازم مدحت الذى نقل للعلاج فى مصر ونقل بعد ذلك للعمل فى المخابرات العامة.

ولعلى أذيع سرا سمعته من محمد عبدالله لأول مرة حول على بن ناجى الغادر شيخ قبيلة خولان، فهو قد دخل صنعاء بصفته جمهوريا فور اندلاع الثورة، لكنه غادرها غاضبا بعد ثلاثة أيام لأن الرئيس عبد الله السلال لم يعينه فى منصب كبير ولم يغدق عليه «الزلط» أى المال الذى كان يتوقعه رغم أنه كان فى عداد المناوئين لحكم بيت حميد الدين، وهكذا سب السلال وغادر صنعاء بالسيارات مع رجاله وانضم للملكيين.

وقال لى محمد عبد الله إنه ذهب عدة مرات للقاء الغادر فى منطقة خولان باعتباره شيخ قبيلة مثله وليس بصفة ضابط مصرى، فكان ينعم بالأمان وفقا للتقاليد القبلية، ويوما كان يخزن القات مع الغادر حين بادره قائلا: أشتهى قتلك يا محمد واستبدال رأسك بأكياس «الزلط» من الإمام البدر، وضحك محمد عبد الله وقال له مازحا.. والله ما تقدر تقتل نعجة!

من هنا كان غضب محمد عبد الله وسخطه، حين علم أن العميد محمود قاسم

مسئول شئون القبائل قد خدع المشير عبد الحكيم عامر وأقنعه بالذهاب للقاء الغادر بدون حرس ولا سلاح شخصى، ومنحه المشير نصف مليون ريال فرنسى توطئة لزيارته القاهرة ولقاء جمال عبد الناصر، ولم يمر أسبوع إلا وكان الغادر ورجاله يغيرون على الكتيبة «٣١» بقيادة المقدم صلاح المحرزى، وحين التقاه محمد عبد الله فى مؤتمر حرض وعاتبه أمامى على عدم وفائه بوعده بالانضمام إلى صف الثورة والجمهورية، قال الغادر دون استحياء إنه نال أكثر مما يحلم به من «الزلط» لمجرد حضوره المؤتمر ضمن وفد الملكيين!

كان اللواء أحمد فتحى عبد الغنى قائد اللواء الرابع أول ضابط كبير يؤمن بموهبة محمد عبد الله ومؤهلاته للعمل فى شئون القبائل، وكان قد توجه بنفسه لقيادة القوات المصرية اليمنية المشتركة فى عمليتين عسكريتين للاستيلاء على جبل اللوز بمنطقة الحدة، بينما كان محمد عبد الله آنذاك مع قواته والمقدم صلاح ياقوت فى جبل المحور ومعه شيخ القبيلة عثمان العلابى.

فى هذه المرحلة الزمنية من معارك الدفاع عن الثورة توجه الفريق القاضى بنفسه بناء على أوامر المشير عبد الحكيم عامر لتفقد الموقف فى أعقاب عملية جبل اللوز وبصحبته ثلاثون ضابطًا من الرتب الكبيرة ممن يحملون الشارات الحمراء، وهناك أبلغه أحمد فتحى عبد الغنى وصلاح ياقوت أن محمد عبد الله هو الذى تحمل عبء العملية العسكرية بالكامل، وأنه كان يرفض حماية القوات العربية له ويرى أمنه الشخصى وسط رجال القبائل، ومن هنا كان طريقه سالكا إلى تشكيل إدارة شئون القبائل مع العميد قاسم!

٦٨ ـ وجهًا لوجه مع بروس كوندى

والشاهد أن إدارة شئون القبائل لعبت دوراً بالغ الأهمية فى تصويب أخطاء التعامل مع القبائل واختصار أمد الحرب والتخفيف من خسائرها، حيث وقع الاختيار على عدد من الضباط المثقفين المتمرسين بالعمل السياسى، وكانت مهمة كل ضابط التفرغ لدراسة إحدى القبائل الكبيرة، من حيث عاداتها وتقاليدها وأساليبها القتالية، وتوثيق العلاقة مع شيخها. فكانوا بمثابة مستشارين للقيادة

العسكرية فى التخطيط للمعارك، وفى وضع خطة النفس الطويل التى استهدفت تركيز القوات فى مناطق استراتيجية والتحرك منها للمواجهة العسكرية ثم الارتداد إليها، مما أسهم فى اختصار خطوط الإمدادات وكلفة حراستها المادية والبشرية!

سألت محمد عبد الله عن المظاهر القتالية المميزة لقبيلة الحدا . . وقال: يهيأ لى من واقع التجربة أنها خلقت للحرب، فهى تتميز بالطاعة العمياء لمشايخها والجلد والإصرار دوما على إحراز النصر، وأن تبدأ المعركة وتنهيها فى نفس اليوم دون انتظار للغد، وهو قد فسر لى أسباب سواد ملابس «الحدا» . . وقال: لأنهم أولاد ليل ولديهم استعداد فطرى للقتال الليلى حتى خارج زمام القبيلة، الأمر الذى أتاح للحدا أن تلعب دور القتال الهجومى دائما والنجدة فى المواقف الصعبة!

يوما نما إلى سمع ناصر البخيتى أحد شيوخ «الحدا» وشاية خبيثة فى حق محمد عبد الله فأحل دمه، وعندما سمع بذلك توجه على الفور إلى لقاء الشيخ البخيتى فى منزله وقال: «أنا فى وجهك»، ثم طلب الطعام وعادت العلاقة بينهما إلى سابق مجاريها.

وكان محمد عبد الله تربطه بالفريق حسن العمرى نائب رئيس الجمهورية صلات الابن بأبيه، ويوما جاء محمد عبد الله لزيارتى فى روز اليوسف أواخر عام ١٩٦٦، حيث أفضى لى بخبر مدهش، إذ كان الفريق حسن العمرى قد خطبه لإحدى بناته عبر المشير عبد الحكيم عامر . . وسألنى: ماذا أفعل؟ وسألته: هل رأيتها؟ قال أنت أعرف بتقاليد العائلات العريقة فى اليمن التى لا تجيز الرؤية قبل الزواج . . ثم استدرك قائلا: أخشى أن أفقد صداقة وأبوة الفريق العمرى إذا أغضبت ابنته يوما!

بعدها بنحو أسبوعين قال لى إن الفريق العمرى أدرك الموقف بفطرته وشفافيته، وأعفانى من هذه الخطبة . . وأنه على وشك خطبة أستاذة فى الفلسفة والإدارة التعليمية الجامعية هى الدكتورة أمينة أحمد حسين، فى الوقت الذى استدعاه المشير عبد الحكيم عامر إلى مكتبه وزف إليه قرار ترقيته من رتبة ملازم إلى رتبة «صاع» أى رائد تقديرا لعطائه ودوره العسكرى السياسى المتميز فى اليمن، وكانت هذه الترقية الاستثنائية حدثا غير مسبوق فى القوات المسلحة المصرية!

ليس - فيما رويته - ثمة مبالغة أو تهويل، فاليمنيون الذين عرفوا محمد عبد الله

وقاتلوا إلى جانبه أو تحت قيادته يحفظون سيرته العطرة ويشيدون ببطولاته كما عنتر بن شداد والزناتى خليفة وسيف بن ذى يزن، ودائما ينطقون اسمه محمد عبد الله «الحدا» أو محمد عبد الله «المصرى» باعتباره نموذج المصرى الذى يراهنون على شجاعته وحكمته فى فض المنازعات وحل أعقد المشكلات بديلا عن الاحتكام للسلاح، وأشهد أنه كان الدينامو المحرك للمصالحة الوطنية فى مؤتمرات خمر وحجة وعمران وحرض!

وهنا أذكر بالمناسبة أن بروس كوندى المستشار العسكرى اليهودى للإمام البدر كان من حضور مؤتمر حرض متخفيا ضمن وفد الملكيين وقد سمى نفسه عبد الرحمن كندة وهو فى كامل زيه ومظهره ولهجته اليمنية، فلما التقى محمد عبد الله وجها لوجه روى على الملأ مدى شهرته فى أوساط المعسكر الملكى، وكم ذاقوا الأمرين من نجاحه فى كسبهم إلى الصف الجمهورى بالسياسة والدهاء، وشهد له بقدراته الفذة فى قيادة القبائل إلى القتال، وقال له: لقد تفوقت على لورانس البريطانى فى خدمة بلدك، ورد عليه قائلا: إيوه بس لورانس كان عدوا للعرب وجاسوسا زيك!

٦٩ـ أفرول الرئيس

وحين خرج محمد عبد الله إلى المعاش كان أمامه أكثر من عرض للعمل بالتجارة أو الاشتغال بوظائف مدنية رفيعة، لكنه فضل أن يعطى أولاده حقهم من الرعاية والاهتمام وقضاء الأوقات السعيدة فى مداعبة أحفاده، وبين حين وآخر يتردد على المستشفيات وعيادات الأطباء حيث أجرى عدة عمليات جراحية وقال لى عندما التقينا بعد طول غياب: الحمد لله عشنا وشوفنا كثير وأدينا واجبنا بشرف وأمانة وعن رضا وقناعة.. وعلينا أن نتعايش مع المرض فى صبر دون أن ينال من معنوياتنا وسعادتنا وذكرياتنا الجميلة والصحبة الحلوة، و.. يبقى من أسطورة لورانس المصرى عدة ذكريات مثيرة!

وكان الرئيس إبراهيم الحمدى قد وصل إلى مطار القاهرة للقاء الرئيس أنور السادات وإعلان مصر اعترافها بالنظام الجديد بعد الحركة التصحيحية التى تزعمها

يوم ١٣ يونيو ١٩٧٤ التى أعادت لثورة سبتمبر روحها وزخمها، وكان صديقه محمد عبد الله فى استقباله، وصحبه إلى أحد قصور الضيافة الخاصة برئاسة الجمهورية، فلما خلع الحمدى «الأفرول» العسكرى الذى كان يرتديه حتى يخلد للراحة، التقطه محمد عبد الله وحمله إلى بيته، وهناك تولت زوجته غسله وكيه ثم أعاده إلى الحمدى قبل لقاء السادات بنصف ساعة.

وإذا كان الحمدى قد منح الجنسية اليمنية لصديقه محمد عبد الله تقديرا واعترافا بمؤازرته النضالية لثورة سبتمبر ونظامها الجمهورى، فقد وجه إليه الرئيس على عبد الله صالح الدعوة لزيارة اليمن مصطحبا معه زوجته وإحدى بناته، حيث أحيط بمظاهر الحب والتكريم، والطريف أن رجال القبائل الذين قاتلوا تحت قيادته أو عرفوه أو سمعوا عنه، ظلوا يترددون على زيارته تباعا فى الفندق الذى كان يقيم به فى صنعاء ويتبادلون حراسته كما كانوا فى السابق.

ورغم تواضع محمد عبد الله الجم عندما يضطر إلى رواية ملحمته النضالية فى اليمن، إلا أنه يعيب الذين يسعون إلى سبر أغوارها، جهلهم بالأهمية السياسية غير المسبوقة فى تاريخ وتقاليد المعارك والحروب الداخلية فى اليمن، حول دوره المقدر ليس فى قيادة القبائل اليمنية وهو المصرى فحسب، وإنما نجاحه كذلك فى إقناع هذه القبائل على غير عاداتها وثوابتها بالانتقال من مقر إقامتها للحرب فى مناطق بعيدة عنها أياما امتدت أحيانا أسابيع وشهوراً!

ثم نتساءل لماذا لا تهتم اليمن ومصر بتجسيد أسطورة محمد عبد الله فى فيلم سينمائى يؤرخ للتلاحم القومى بين الشعبين الذى حسم مصير الثورة والجمهورية فى اليمن؟

ويشاء القدر أن اجتمع على الغذاء فى منزل الأستاذ محسن العينى بالقاهرة خلال شهر مايو ٢٠٠٧ بالشيخ عبد الله الأحمر الذى جاء للعلاج والشيخ سنان أبو لحوم شيخ قبيلة «نهم»، فما أن سألانى عن محمد عبدالله الحدا، وعرفا أنه يعالج فى مستشفى «هليوبوليس» حتى اتصلا به على الفور، وفى اليوم التالى كانا فى زيارته للاطمئنان وتجديد اللحمة الإنسانية وتواصل ذكريات الثورة اليمنية.

ثم لم يمض سوى أيام حتى طالعت فى الأهرام خبر رحيل محمد عبد الله

«الحدا» فى صفحة الوفيات والإشادة بعلاقته الروحية مع الشيخ عبد الله الأحمر و . . هكذا اجتمعنا للعزاء فى البطل الأسطورة بدار المناسبات فى مصر الجديدة، يتقدمنا الأستاذ محسن العينى وجمع غفير من اليمنيين ورفاقه من الضباط المصريين الذين أبلوا البلاء الحسن فى الدفاع عن الثورة والنظام الجمهورى فى اليمن . . يرحمه الله . . واأسفاه على زمان الألق القومى والشهامة العربية!

٧٠- الشيخ الأحمر والإشكالية القبلية

ظلت «حاشد» أكبر وأقوى القبائل اليمنية بزعامة الشيخ عبد الله الأحمر على ولائها للثورة والنظام الجمهورى دون أن تفسد قط، بمعنى أنها لم تنحز إلى الملكية أى النظام الإمامى، على عكس القبائل التى كانت ولاءاتها متأرجحة بين المعسكرين عبر ما يدفع أكثر من غيره مالا وسلاحا.

لعوامل الفقر من ناحية، ولسياسة «فرق تسد» التى اعتمدها أئمة بيت حميد الدين من جهة أخرى، عبر زرع العداوات وإباحة الإغارات المسلحة بين القبائل فيما كان معروفًا عهدئذ بحرب الخطاط، من هنا ظلت المصدر الأساسى لتكسبها والصرف على معايشها أكثر من أى مهنة أو مصدر آخر للدخل، ومن هنا أيضا بات الولاء للقبيلة يجب أو يفوق الولاء للوطن!

ولأن هذه المعادلة ظلت تعبر عن نفسها قرونا متصلة فى ظل العزلة التى فرضها الأئمة على اليمن، بل وامتدت العزلة حتى بين القبائل أيضا، كان من الطبيعى أن تتحول كل قبيلة إلى ما يشبه دويلة صغيرة ولها قانونها وتقاليدها الخاصة، وأن يمسك شيخ القبيلة بمفاصل السلطة والنفوذ، وأن تتعلق به مصالح القبيلة ومعاشها وأمنها!

وربما كان من موروثات التخلف أن تفوق قوة القبائل قوة الدولة، بل وفاعلية الأحزاب التى نشأت بعد الثورة، ونمت وترعرعت فى ظل الديمقراطية والتعددية السياسية التى واكبت نهوض الوحدة اليمنية، وبينما كان الشعار السائد مطلع تسعينيات القرن الماضى «قبيلى يبحث عن حزب» تأكد تحوله تدريجا أو انقلابا إلى النقيض عبر صيغة جديدة للشعار «حزب يبحث عن قبيلة» ونجد أن معظم الخلافات

أو الصراعات السياسية مجرد وجهة لخلافات أو صراعات قبلية سواء بين الأحزاب وسواء على صعيد الانشقاقات التنظيمية فى الحزب الواحد، ذلك أن القبيلة أثبتت دوما أنها الإطار الاجتماعى والسياسى الأكثر تأثيرا، بل إن هذه الظاهرة لم يسلم منها اليمن الديمقراطى السابق رغم ماركسيته وعلمانيته على نحو ما أسفرت عنه التباينات القبلية والمناطقية داخل الحزب الاشتراكى حد الصراع المسلح بين الرفاق يوم ١٣ يناير عام ١٩٨٦ وراح ضحيته ١٣ ألف يمنى!

والمشكلة أن الظاهرة القبلية تقوى ولا تضعف مع تباطؤ الدولة فى تلبية الاحتياجات الشعبية الضرورية خاصة فى ظل الأوضاع الاقتصادية الصعبة، فى الوقت الذى لا تزال القبيلة تتمترس من وراء الدين فى مواجهة رياح الحداثة والتغيير!

صحيح أن نور العلم بدّل الكثير من ظلمات المجاهل القبلية عبر المئات من المدارس والمعاهد وانتشار وسائل الإعلام والتنوير، وانخراط أبناء القبائل فى سلك التعليم الجامعى، وبعضهم الآن ضباط ورجال أعمال ومثقفون وأدباء ووزراء، ولن تجد يمنيًا فى الغالب إلا ويعتز ويفخر بالانتماء لقبيلة ما. . ولذلك ساد التعبير اليمنى «كلنا أولاد قبائل»!

وهكذا فى وقت الضرورة والانتخابات النيابية والمحلية كمثال ـ يصطف الجميع خلف مرشح القبيلة، ويتم التحالف بين حزب وآخر على قاعدة من التعصب القبلى، فالقبيلة هى أصل الحزبية، وتغيير الولاءات والمفاهيم السياسية لا يتم بقرار سيادى، ولا بالقفز على مراحل التطور الاجتماعى، وإنما عبر تنامى قوة الدولة وقيامها بمسئولياتها فى التنمية وتلبية حاجات الشعب، وفى اعتماد مبادئ العدل والمساواة والشفافية معيارا للحكم ومنهجا للتطور، وربما نستشهد فى هذا المجال بتكرار ظاهرة اختطاف بعض القبائل للسواح والأجانب العاملين بشركات البترول بوجه خاص، ثم الإفراج عنهم مقابل قضاء مصلحة ما. . مثل شق طريق أو بناء مدرسة، وربما مقابل الإفراج عن بعض أبناء القبيلة المتهمين فى قضايا سياسية أو جنائية، مما يستدعى مواجهة هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر القبلية السلبية عبر الدراسة العلمية الموضوعية، ووضع الخطط بعيدة المدى لاستئصالها جذريا

بالتوازى مع مشاريع التنمية وتعميق الممارسة الديمقراطية، وكل مشكلة مهما كانت صعبة ومعقدة تجد لها دائما الحل السياسى المناسب!

على أن هذه الإشكالية وتداعياتها السلبية، ظلت دوما مطروحة فى حواراتى مع الشيخ عبد الله الأحمر كونه الرمز التاريخى المستنير للقبلية فى اليمن، خاصة ولا يزال يشغل منصب رئيس مجلس النواب عدة دورات منذ نهوض الوحدة اليمنية، وإذا كان يرى أن القات له وظيفة اجتماعية فى اليمن، حيث «مقايل» تخزين القات على حد تقديره بمثابة برلمانات شعبية للممارسة الديمقراطية، كذلك يرى الشيخ عبد الله أن القبيلة لا تتناقض مع سلطة الدولة، وإنما مدعاة للتخفيف من أعبائها ومسئولياتها، ثم إن التفاف أفراد كل قبيلة حول شيخها اختيار طوعى وتلقائى وليس قسرا، فهو المسئول عن أمنهم وتلبية احتياجاتهم وإعلاء كلمة الحق والعدل والإنصاف بينهم.

القبيلة إذن ليست بدعة وإنما نظام اجتماعى أشبه بالأسرة فى إطار الوطن الكبير، والشيخ همزة الوصل بين القبيلة والدولة حتى إشعار آخر!

٧١- رهينة فى محبس الإمام

ولا شك أن الوزن السياسى الكبير للشيخ عبد الله الأحمر يفوق زعامته لقبيلة حاشد، وهى محصلة تراكمات سياسية ونضالية مقدرة، وقد ورث الزعامة وباعه فى الحركة الوطنية عن والده حسين الأحمر وشقيقه حميد الذى أخذه الإمام أحمد رهينة فى حجة بعد انخراطه فى الحركة الوطنية منذ ثورة الأحرار الدستوريين عام ١٩٤٨، وخلال فترة سجن رموزها تعهده الأستاذ أحمد النعمان بالتوجيه والتعليم، وحتى جاءت الشيخ حميد الفرصة لاستعادة ثقة الإمام أحمد، عبر استدعاء دور قبيلة حاشد فى إجهاض انتفاضة المقدم أحمد الثلايا عام ١٩٥٥، ثم الاستقواء بها فى مواجهة القبائل المتربصة به.

وخلال علاج الإمام أحمد فى روما اضطرب الأمن، وكان سيف الإسلام الحسن وراء الحرائق والفوضى والاغتيالات التى شهدتها مدينتا تعز وصنعاء، وعندئذ استنجد ولى العهد الأمير البدر بالشيخ حميد الأحمر، ولم يخيب ظنه ودخل بحشد كبير من قبيلته «حاشد» إلى صنعاء دخول الفاتحين.

على أن خصوم الشيخ حميد وشوا به لدى الإمام أحمد، وروجوا لتطلعه إلى حكم اليمن واستشهدوا بأهازيج «الزامل» التى دخلت بها حاشد صنعاء :

«إمامنا الناصر ومن بعده حميد.. سبحان من رد العوائد لأهلها»!

ويبدو أن ذلك كان صحيحا إلى حد ما، فقد كان الرهان على ترشيحه لرئاسة أول جمهورية فى اليمن عبر وثائق المرحوم محمد أحمد النعمان.

وهكذا ما إن عاد الإمام أحمد من روما حتى أحاط به الجواسيس والوشاة، وروجوا له تلك الأكاذيب، فما كان منه إلا أن خطب خطبته الشهيرة « هذا السيف وهذا الفرس، وهذا الميدان. . ومن كذب حرب» ثم استشهد بقول الشاعر :

ماذا يريدونهــا لأدر درهـــم إن الخلافة لا يطوى لها علم

ومن هنا كان قراره بإعدام الشيخ حسين الأحمر وابنه حميد، وإيـداع الفتى عبد الله الأحمر رهينة سجن «المحابشة»، ولم يفرج عنه إلا بعد اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢!

منذئذ ظل الشيخ عبد الله الأحمر الرجل الثانى بعد رأس الدولة بشكل واقعى حتى من دون مراسم أو مناصب دستورية، لا بصفته رئيسا لمجلس النواب فحسب، وإنما لأنه بات رقما كبيرا على الساحة السياسية الداخلية والخارجية لليمن على مدى يزيد على أربعة عقود، تراكمت خلالها خبراته وحكمته وقدراته على إحكام التوازنات السياسية والحفاظ على الوحدة الوطنية، ودوره المقدر فى تعزيز الوحدة اليمنية عندما داهمتها المؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤، حيث خيب ظنون المتآمرين الذين راهنوا على إثارة القلاقل القبلية، ونجح كما لم يتوقع أحد فى حماية السلطة التشريعية من التشتت وحالة الخلافات التى دبت فى أروقة السلطة التنفيذية آنذاك!

اسمه بالكامل عبد الله بن حسين بن ناصر بن مبخوت الأحمر، وقد ولد عام ١٩٢٣ فى حصن جبور بمنطقة ظليمة حاشد، وهو كان وقبيلته حاشد فى طليعة المدافعين عن الثورة والجمهورية، ودوره معروف فى الحركة التصحيحية التى أنقذت اليمن والثورة من الانهيار فى الخامس من نوفمبر ١٩٦٧، ولعل أهم إنجازاته

السياسية عندما ألقى بثقله يوم ١٢ يونيو عام ١٩٩٥ إسهاما فى حل مشكلة الحدود اليمنية مع السعودية، حيث ظل يواصل التفاوض فى الرياض مع الأمير سلطان وزير الدفاع السعودى أربعين يوما متصلة، حتى نجح فى التوقيع على اتفاقية مبادئ ترسيم الحدود المشتركة يوم ١٢ يونيو ٢٠٠٠.

وإذا كان الشيخ عبد الله الأحمر قد اختار صيغة التجمع اليمنى للإصلاح لزعامته السياسية، وضم جناحا قويا للإسلاميين، إلا أن الرجل كان ولا يزال بالمرصاد للتطرف الأصولى، وهو الذى دعم القرار الشجاع الخاص بفرض هيبة الدول وإشرافها المباشر على المعاهد العلمية حتى لا تتحول إلى طالبان الأفغانية، فى الوقت الذى لم يتخل عن ثوابته فى الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطينى، ووقوفه بصلابة فى مواجهة الهيمنة الأمريكية وفضح أساليبها المشبوهة المعادية للإسلام والمسلمين من جهة وسعيها لاحتواء اليمن من جهة ثانية!

ولعلى أذكر بالمناسبة أن الأستاذ محسن العينى كان قراره بالاستقالة من رئاسة الحكومة عدة مرات يرجع إلى صدامه دوما بالنفوذ القبلى الذى وقف حجر عثرة أمام مشروعه الأثير من بناء الدولة الحديثة فى اليمن.

٧٢- حق الحريم

لم تكن زياراتى لليمن مقصورة على متابعة التطورات السياسية والمعارك العسكرية فحسب، كانت هناك فرص وسويعات سانحة للبهجة والحبور والمعرفة والاحتكاك بالواقع الاجتماعى والثقافى والوجدانى!

وكان الإمام أحمد حميد الدين لا يطيق الإقامة طويلا فى صنعاء، خاصة بعدما أظهرت عداءها لوالده الإمام يحيى عبر دعمها ومناصرتها لثورة الأحرار عام ١٩٤٨ التى بدأت عهدها باغتياله، ولذلك كان يفضل الإقامة معظم الوقت فى تعز وسط سكانها المسالمين الذين يحترفون الزراعة والتجارة، وبينهم العلماء والمثقفون.

كان قصره فى تعز يفوق قصره فى صنعاء من حيث توافر أسباب الراحة

والاستمتاع تارة بمداعبة ما لديه من الأسود، وتارة وهو يرقب الجوارى وهن يتلاعبن فى حمام السباحة الملحق بالقصر عبر مجلسه فى «الشزروان» على حد شهادة حاشيته!

أذكر عندما قدر لى زيارة قصر الإمام أحمد فى تعز لأول مرة أن الحارس طاف بنا جنباته حتى توقف مترددا فى خجل أمام غرفة مغلقة، فلما ألحنا عليه السؤال عن سر إغلاقها، قال: هذه الغرفة ـ بصراحة ـ حق الحريم، ومن ثم أعدنا عليه الإلحاح واستبد بنا الفضول كى نشاهد محتوياتها حتى وافق مضطرا ومشكوراً!

أكداس من المجلات وألبومات الصور الجنسية، وعدد من آلات العرض السينمائى وإلى جوارها علب كبيرة من المعدن بداخلها عشرات الأفلام الجنسية.. ولعب أطفال أبرزها قطارات تدار «بالزمبلك» أو البطاريات وتجرى على قضبان دائرية، قال الحارس إن الإمام أحمد كان يهوى ومعه حريمه الفرجة على تلك القطارات!

فى ركن يمين الغرفة كانت منضدة طويلة مفروشة بعشرات الزجاجات التى تحتوى على سوائل ملونة وعلب أدوية عليها عبارات بالإنجليزية أذكر منها «جفرين» و«تستسترون» وأنواع من الفيتامينات، لكن ما لفت نظرى وجود «هون» من النحاس وخلاط كهربائى، فلما سألت عنهما.. قال الحارس إن الإمام أحمد كان يستخدمهما بنفسه فى طحن الأعشاب والأدوية المنشطة للجنس خشية أن يضع له أحد السم، ثم أشار إلى وعاء بلورى كبير ممتلئ بمادة داكنة لزجة.. وقال: هنا كان الإمام يضع خلطة حق الحريم، وأضاف أنها تساوى وزنها ذهبا.

ولا أذيع سرا أننى أفرغت علبة سجاير كانت معى، وملأتها من الوعاء، لكننى أمسك عن أسماء الأصدقاء المصريين الذين وزعت عليهم خلطة الإمام بعد عودتى للقاهرة، وكانوا جميعا من كبار السن، وقد شهدوا بمفعولها فى إنعاش فحولتهم الرجولية.

على أننى مع توالى زياراتى لليمن، كنت حريصا على الغرف قدر الإمكان من

وعاء «حق الحريم» فى قصر الإمام فى تعز، وأظن أن غيرى قد انتبه لفاعلية محتواه، ولذلك كنت ألاحظ أن مادته اللزجة تهبط رويدا رويدا إلى القاع، لكنى فى إحدى المرات وجدت الوعاء البلورى وقد امتلأ بالكامل . . ولم أكد أهم بسؤال الحارس عن السبب حتى بادرنى ضاحكا: لأن المسئولين عن جرد محتويات القصر اتهمونى بتبديد محتويات وعاء حق الحريم، فلم يكن بوسعى سوى تعبئته بالعسل الأسود وطحين الذرة!

٧٣ـ مستشفى العلاج بالأعشاب

كنت قد توجهت إلى محافظة «إب» لزيارة محافظها الصديق يحيى المتوكل ـ يرحمه الله ـ وفوجئت أنه فى مهمة عاجلة تتعلق بالمصالحة بين قبيلتين لفض ما بينهما من خلاف، حيث وجدت فى انتظارى العقيد الجربانى مدير أمن المحافظة!

طاف بنا الجربانى مشكورا بين مروج إب الخضراء وهو يقود بنفسه سيارته الرسمية طراز «لاندروفر»، ولاحظت خلال جولتنا أنه كثيرا ما يتوقف، ثم يخرج من السيارة لالتقاط النباتات العشوائية سواء كانت خضراء أو جافة!

سألته عن السبب وقال لأننى ـ أبا عن جد ـ وحتى أولادى «عشابون»، وهذه الأعشاب التى جمعتها سوف تتحول إلى أدوية لعلاج بعض الأمراض، وحين استضافنا فى منزله على الغذاء، أطلعنى على غرفة بها أكياس من الأعشاب وخلاط كهربائى، وكم هائل من الزجاجات الكبيرة والصغيرة وعلب من بلاستيك، بعضها ممتلئ بالمراهم والسوائل الملونة، وحين لاحظ دهشتى وفضولى قال إن الله سبحانه وتعالى جعل لكل داء دواء، حتى الأمراض المستعصية مثل السرطان والروماتويد والصدفية لدينا دواؤها الناجع.

وقال الجربانى: عرضت على الدكتور عبد العزيز المقالح مدير جامعة صنعاء وقتئذ إنشاء مستشفى جامعى لعلاج مختلف الأمراض بالأعشاب ووعدنى بدراسة الموضوع مع العلماء والأطباء ذوى الاختصاص، ثم قال إن لدينا فى جزيرة سوقطرة اليمنية كنوزا نادرة من الأعشاب الطبية!

عندئذ طاف فى مخيلتى أقاربى وأصدقائى المرضى وأنواع أمراضهم، سألته إن كان لديه علاج لها من الأعشاب؟ ونهض الرجل مشكوراً يعبئ الزجاجات والعلب البلاستيك بالدواء المطلوب. . ثم راح يكتب عليها تعليمات استخدام الدواء، وعدت من إب إلى صنعاء وحتى القاهرة وأنا أحمل معى الحقيبة التى تحتوى هدية الجربانى. . ووزعت على كل مريض دواءه. . وبعدها بفترات متباينة وصلنى منهم ما يفيد الشفاء أو تحسن ما فى حالتهم الصحية!

٧٤- فى سوقطرة قتل قابيل هابيل

لم يتح لى حتى الآن زيارة جزيرة سوقطرة أو سقطرى الأسطورية، إذ كانوا يطلقون عليها فى الزمن القديم أرض الإله أو أرض السعادة أو الأرض المقدسة، وهى مخزن بيئى بحرى ونباتى وحيوانى فريد من نوعه، وهى تتسع بمساحة ٣٨٠٠ كيلو متر مربع وتقع شرق خليج عدن، وتعتبر من أهم المحميات الطبيعية المدارية فى العالم.

تحتضن سوقطرة ثروة هائلة من ٣٠٠ نوع فريد من الأشجار والنباتات التى لا نظير لها فى العالم، ولا تنمو سوى فى هذه الجزيرة، ولعل أهمها شجرة «دم الأخوين» التى نسج حولها الكثير من الأساطير من أنها نبتت وتغذت من دم الأخوين هابيل وقابيل إثر أول جريمة فى التاريخ، وهذه الشجرة تنمو على سفوح الجبال ويتراوح طولها بين ستة وتسعة أمتار وترتفع ثم تنتشر كمظلة، ويستخرج منها الأهالى مادة لزجة حمراء تستخدم فى الصناعات الدوائية. . ثم هناك أيضا أشجار «المر» و«الصبر» السوقطرى، وكذا العند والشوع والأيفورين والكومبيورا والعفص وكلها ذات فائدة طبيعية وتستخدم فى العلاج الشعبى باليمن بالتوازى مع نباتات البابايا والشمر والمثرب والقرض والزعتر والطلح وفائدتها مجربة فى علاج القولون والتهابات اللثة والسيلان والسرطان والجذام.

ولسوقطرة شهرة تاريخية فى إنتاج مواد التحنيط وطقوس العبادات القديمة والكثير من الصناعات مثل اللبان والبخور والحنة، ويؤكد الباحث اليمنى الدكتور محمد الكامل أن سوقطرة عرفت منذ زمن بعيد ما هو أقوى من «الفياجرا» فى علاج

الضعف الجنسى، وهو الجرجير السوقطرى الجبلى، إضافة إلى فائدته المحققة فى تنشيط الدورة الدموية وزيادة الحيوية لدى جميع الأعمار من الجنسين.

إلى ذلك فإن سوقطرة تختص بأنواع نادرة من الطيور الجميلة والماعز الضئيلة الجسم والقط الزبادى وهو أكبر حجما من القط العادى ويستخرج منه الأهالى عبر أسلوب معين للضغط على جسمه للحصول على إفرازاته من العطور ذات الروائح النفاذة وهى من أشهر المنتجات التى تصدرها الجزيرة!

٧٥- خلطة العريس

أذكر بالمناسبة أن بعض العسكريين والمدنيين الذين قدر لهم المشاركة فى دعم الثورة اليمنية، كثيرا ما يلحون على حتى الآن أن أجلب لهم خلال زياراتى لصنعاء أو حضرموت وصفة علاجية معروفة فى محلات العطارة باسم «خلطة العريس»، ويشيدون بمفعولها الأكيد فى شحن وتحفيز الفحولة، كما وأنها مفيدة للغاية للنساء فى الشهور الأولى من الحمل!

على أن «خلطة العريس» كانت ولا تزال لها مشكلاتها الاجتماعية الحادة، إذ كثيرا ما يتقدم ولى الأمر إلى المحكمة يطلب الحكم بخلع ابنته من زوجها بسبب طاقته الجنسية العارمة الناتجة عن تعاطى «خلطة العريس»، خاصة فى الشهور الأولى للحمل، وأقرب مثال على ذلك ١٥ حالة خلاف عائلى حول هذه المشكلة معروضة على نيابة مدينة الحديدة عند كتابة هذه السطور، حيث تشكو الزوجات من إصابة أزواجهن بهيستريا جنسية غير طبيعية ولا مألوفة إضافة إلى عدم الاتزان النفسى، مما أدى إلى نفور الزوجات!

ويعود السبب فى هذه الظاهرة الجديدة على المجتمع اليمنى، إلى تطوير العشابين خلطة العريس على نحو صعد من تداعياتها الجنسية أكثر مما كان معتادا من قبل، إذ بينما كان تعاطيها وقفا على العريس لشد أزره ليلة الدخلة، أصبحت الآن مشاعا بعد إضفاء مسحة روحية على تصنيعها بدعوى إجازتها عبر أدعية المطاوعة، خاصة مع ارتفاع ثمن حبات الفياجرا الزرقاء المستوردة من الخارج والتى يقبل عليها الأثرياء والقادرون فحسب!

٧٦ـ أسامة بن لادن والعسل الدوعانى

حين ابتليت بمرض الغدة الليمفاوية، كان للعلاج الكيماوى تأثيره الخطير على ضعف المناعة، وأشهد أن هدايا الأصدقاء اليمنيين من العسل «الدوعانى»، كان لها مفعول السحر فى صمودى الجسمانى والمعنوى على اجتياز فترة العلاج بأمان تام.

والحقيقة أننى بحكم زياراتى لليمن بت مدمنا للعسل الدوعانى، وهو ينساب بلونه الأصفر الداكن على حلوى «بنت الصحن» التى نادرا ما تغيب عن موائد الضيافة والاحتفاليات فى بيوت علية القوم، ودائما ما كنت أشعر بعدها بنوع من الحيوية والنشاط وصفاء الذهن.

أذكر أن جمهورية اليمن الديموقراطى سابقا كانت تحظر تصدير العسل الدوعانى إلى الخارج إلا بعد الحصول على تصريح خاص وبكميات محدودة، وذلك أن إنتاجه كان أيضا محدودا آنذاك، لكن بالدراسة والعلم والتجربة بات إنتاجه وفيرا الآن، حيث تمتد مساحة مراعى نحل عسل «دعن» الآن حوالى مليون ونصف مليون هكتار فى المنطقة الواقعة بين وادى الخون شرقا إلى رملة السبعتين غربا بطول ١٤٠ كيلو مترا، حيث تنمو الأشجار والنباتات الجبلية التى تتغذى عبر التربة البكر وهطول الأمطار، خاصة أشجار العلب «السدر» وأشجار السمر «الأكاسيا» التى يتغذى النحل على زهورها، ثم يفرزه عسلا شهيا حلو المذاق.

وتمتاز سلالات نحل العسل الدوعانى فى وادى حضرموت بلونها الأصفر ومؤخرة البطن السوداء وهى قد اكتسبت صفاتها الوراثية عبر العصور، وانسجامها مع جفاف البيئة، وقدرتها على مقاومة الأعاصير، وهكذا يرتحل النحالون وراء النحل من مكان لآخر، حيث تفرز العسل الدوعانى مرتين وثلاثا أو أربعا فى العام الواحد، ويبلغ متوسط إنتاج الخلية الواحدة ٧,٣ كيلو جرام، ويعتبر عسل «السدر» الأرقى جودة والأغلى سعرا حيث يصل ثمن الكيلو جرام زهاء ٧٥ دولارا وفى السعودية ٥٠٠ ريال، والمدهش أنه يستقطب الضوء من اليمين وذلك بسبب احتوائه على نسبة عالية من السكر الثنائى «السكروز»، بينما يستقطب غيره من أنواع العسل للضوء من الشمال!

ولا يقتصر تسمية العسل بالدوعانى على وادى «دعان»، وإنما يمتد كذلك إلى وادى عهد، ووادى رضية، ووادى العين، ثم تقل مناطق تربية النحل كلما اتجهنا شرق حضرموت، بينما نجحت تربية النحل الذى يفرز عسلا أقل جودة من عسل «دوعن» مؤخرا فى كثير من مناطق اليمن، ولا يكاد يميز بينهما سوى الخبير والذواقة.

ولأن أسامة بن لادن موطنه حضرموت، وكذلك العسل الدوعانى.. من هنا كانت إشاعة الترويج لاستثماره فى تمويل العمليات الإرهابية لتنظيم القاعدة، عبر المحلات المتخصصة فى بيعه على امتداد خريطة العالم.. ولم يكن ذلك صحيحا بالمرة!

ويعتبر العسل الدوعانى المفضل فى دول الخليج وفى أسواق العالم، ويباع فى عبوات زجاجية أو معدنية محكمة الإغلاق ومعها شهادة الضمان وجهة الإنتاج وفوائده الجمة، سواء كغذاء للإنسان العادى وللرياضيين والأطفال نظرا لغناه بالبروتين والفيتامينات والأملاح المعدنية والأنزيمات، أو علاجه الأكيد للأمراض الجلدية والجروح خاصة أنه مقاوم للبكتيريا وقاتل للجراثيم، وربما من هنا أسماه العرب الأقدمون «الحافظ الأمين».

ويعتبر شمع العسل الدوعانى علاجا أكيدا لمرض الحساسية، وقد استخدم الفراعنة شمع العسل فى تحنيط الموتى، واستخدمه الرومان فى الكتابة والإضاءة وصنع التماثيل، وأصبح يستخدم الآن فى صنع الأسنان الصناعية، ومواد التجميل، فيما يستخدم صمغ العسل فى صناعة المراهم وعلاج الأمراض السرطانية وتبطين الجروح.

أما غذاء ملكة النحل الدوعانى فهو العلاج المثالى للضعف الجنسى، وسوء التغذية وأمراض الشيخوخة والوقاية الأكيدة من مرض الزهايمر. والله الشافى المعافى!

٧٧- الشجرة الملعونة تطرد الشجرة المحمودة

كثيرا ما يظهر الرئيس اليمنى على عبد الله صالح على شاشة التليفزيون فى لباسه الرياضى وهو يمارس العدو والسباحة والغوص، وربما وهو يتعامل مع الكمبيوتر

والإنترنت، تأكيداً على إقلاعه عن تعاطى القات، وكيف أصبح هكذا موفور الصحة والحيوية والنشاط، لعل الشعب اليمنى يحتذى حذوه، فى إطار الدعاية للمشروع القومى الذى بدأه بنفسه واختار له شعار «يمن بلا قات»!

عن شجرة القات قال رجالات اليمن من السياسيين والعلماء والأدباء والشعراء الكثير من النقد والذم والهجاء، ونهضت جمعيات أهلية عديدة لمواجهة كوارث القات على كل صعيد منذ عام ١٩٩٥، بل وخرجت أوائل عام ٢٠٠٣ مظاهرات شعبية ضخمة وغير مسبوقة فى طول البلاد وعرضها، قوامها نحو خمسة ملايين مواطن من بين تعداد سكان اليمن البالغ ١٩ مليون مواطن، وتصدرها مختلف ألوان الطيف الرسمى والشعبى، فيما يشبه إعلان حرب المجتمع اليمنى ضد ديكتاتورية القات، ومع ذلك يظل التحرر والانعتاق من لعنة القات أشبه بالأمنيات السعيدة وأحلام اليقظة، حيث لا تزال الشجرة الملعونة تتحدى الجميع، بل وتجتذب يوميا المزيد من الضحايا المتيمنين بها، رغم ما يتواتر عن مضارها. . كونها تذهب بالعقول والجيوب، وتفتك بالصحة العامة، وتهدر الوقت والدخل القومى والخاص!

وتعجب للشعب اليمنى الباسل كيف خاض الثورات والانتفاضات بإرادته الصلبة تباعا، ونجح فى التحرر من حكم أئمة آل حميد الدين البغيض فى الشمال والاستعمار البريطانى فى الجنوب، حتى قوض أسوار عزلته عن العالم التى امتدت قرونا، وشرع إلى استعادة الوصال بموروثاته الحضارية، وكيف حقق معجزة الوحدة اليمنية وعض عليها بالنواجذ حين داهمتها المؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤، ثم يزداد العجب لأنه نفس الشعب الذى يكابد وطأة الاستسلام والخضوع الطوعى لسلطان القات!

كنت فى اليمن إثر اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، وفجأة أوشك نجمها الساطع على الأفول، حين انبرى الرئيس عبد الله السلال إلى التنديد بلعنة القات، ودعا اليمنيين إلى الإقلاع عن تعاطيه، بل وتوعد باقتلاع أشجاره، فلما أدرك أنه يسبح ضد التيار سكت عن الكلام المباح!

٧٨ـ جلب دودة القطن من مصر

فى عام ١٩٧٢ عاد الأستاذ محسن العينى إلى رئاسة الحكومة اليمنية حيث شرع إلى تأجيج الحرب ضد القات عبر أسلوب مختلف، لجأ أولا للقاضى عبد الرحمن الإيريانى رئيس المجلس الجمهورى، وهو كان شخصية تاريخية بارزة ومرجعية دينية وسياسية موضع احترام الجميع، وأقنعه بإصدار فتوى تؤكد أن القات مكروه شرعا، بالنظر لمضاره العديدة، فى الوقت الذى صدر قرار العينى باقتلاع أشجار القات المزروعة فى الأراضى المملوكة للدولة والتابعة للأوقاف، بدعوى عدم مشروعية الصرف من ريعها على إيواء الأيتام وتعمير المساجد!

لكن أحدا من أصحاب مزارع القات لم يأبه لهذه المبادرات ولا اقتلع أشجاره، خاصة أنهم وجدوا من بين رجال الدين من يفتيهم فى المقابل بمشروعية زراعة وبيع وشراء القات والاستمتاع بتخزينه عن قناعة وباطمئنان!

لم يعدم محسن العينى الوسيلة لمواصلة الحرب على القات، جلب سرا من مصر شحنة من الصناديق التى تحتوى على كم هائل من دودة القطن التى تفتك بمحصولها القومى، ثم كلف من يسربها فى الخفاء إلى بعض مزارع القات، لعلها وعساها تلعب دورا قوميا فى القضاء على أشجاره الملعونة، ولابد أنها سوف تزحف وتلتهم أوراقها، وأن تبيض وتفرخ الملايين، وبعدها سوف تنتشر فى غيرها من مزارع القات بالتالى وتقتات أوراقها، إيذانا بالنهاية المحتومة لهذا الداء الوبيل!

وعلى ما يبدو أن دودة القطن المصرى ـ على حد سخريات أهل اليمن ـ رفضت التدخل فيما لا يعنيها، ومن ثم امتنعت عن تنغيص المزاج اليمنى، وربما راق لها القات واستحلبته هنيئا مريئا كما لو أنها المعنية فى المثل القائل «جئتك يا عبد المعين تعينى . . وجدتك يا عبد المعين فى حاجة لمن يعينك، وكما لو أن القات أخرج لسانه ساخرا من المثل القائل «وداونى بالتى، كانت هى الداء»!

لكن العينى لم يتراجع، دعا الأدباء والشعراء والوعاظ إلى مساندة حملته ضد القات وأجزل لهم العطاء، ومن ثم انبرى أحدهم وهو الشاعر أحمد المعلمى يؤدى واجبه، حيث نظم قصيدة عصماء يندد فيها بالقات مطلعها :

ورأى أن يحارب القات

فالقات بلاء دواؤه غير سهل

إنه سبة علينا وعار

نحن منها ممرغون بوحل

إنه آفة أقل مساويها

مضى ساعات من غير شغل

قاتل للأوقات وهو بلاء

لشباب فينا وشيخ كهل

نحن نحيا عصر الفضا لم نعد

نحيا بجهل حياة عير وبغل

قد غزا عصرنا الكواكب بينما

بعضنا فيه ماشيا دون نعل

فلما سمع محسن العينى القصيدة أعجب بها، وكاد يعمم تداولها فى أجهزة الإعلام، لكنه تراجع عندما عرف أن الشاعر كتبها وهو يخزن القات وألقاها فى أحد مجالس «تقويت» القات!

هكذا تأزمت العلاقة كما لو أنها الثأر بين محسن العينى ومافيا القات، حتى نال شرف وصفه بـ «العدو الأول للقات» إثر قوله فى حديث صحفى «لا يمكن أن نبقى تنابلة السلطان. . نخزن ونوسوس، نحلم ونتواكل ونكسل. . ونمد أيدينا للغير، يقيمون لنا المدارس والمستشفيات، ويقدمون لنا الطعام، وينشئون المصانع ويستصلحون الأرض، ويفتحون لنا الجامعات ويقدمون المنح الدراسية لأولادنا. . وكأننا قرة عين الزمان»!

على أنه فى حوار معه عبر الفضائية اليمنية، استدرك وقع الصدمة الشعبية فى موقفه من القات، وقال إن اليمنيين كانوا فى الماضى لا يداومون التخزين كما هو حالهم اليوم، إذ كانوا بين حين وآخر يخزنون بعضا من أوراقه، ثم استطرد قائلا

«صحيح أن مجالس القات متعة للحوار ومبعث للمسرات، إلا أنها باتت ظاهرة خطيرة، خاصة أن الشباب والأطفال راحوا ينضمون تباعا إلى جموع المخزنين، ومن هنا استشعارى للخطر الذى يتهدد حاضر اليمن ومستقبله» . . ولعله أقل وأدل على مصداقية وضرورات تجسيد شعار الحملة القومية «يمن بلا قات»!

معروف أن الإنجليز كانوا قد أصدروا قراراً يحرم القات فى عدن لكنه لم يصمد، وهناك تجربة الحزب الاشتراكى إبان حكمه للشطر الجنوبى من اليمن، حيث صدر عام ١٩٧٦ القانون الذى يجرم تعاطى القات خمسة أيام فى الأسبوع، وعندئذ لجأ عشاق القات للحفاظ عليها طازجا فى الثلاجات.

٧٩ـ أبرهة فى طريقه لهدم الكعبة

القات مصدره إفريقيا، واسمه فى الصومال، «تشات»، وفى كينيا له عدة أسماء بحسب أنواعه . . «ميراء» كاث ـ ميرانجى ـ ليس ـ طمايات ـ ميلونجى ـ ماونج، وفى يوغندا «موستات»، وفى الحبشة ومنها دخل اليمن فى ركاب أبرهة وهو فى طريقه لهدم الكعبة يسميه الأثيوبيون تيج أو توج، وقد اكتشف الإمام شرف الدين القات فى اليمن على حد رواية بعض المؤرخين، بينما يؤكد البعض الآخر أن الرعاة لاحظوا كم تنتشى أغنامهم كلما اقتاتت من أشجار برية معينة، فلما مضغوا واستحلبوا أوراق تلك الأشجار أدركوا سرها، ومن ثم ذاع صيتها وراح اليمنيون يقبلون على زراعتها وتعاطى أوراقها جيلا إثر جيل، ومن المؤسف أن يقتلعوا الشجرة «المحمودة» بالملايين وهى شجرة البن الفاخر، ويزرعون مكانها شجرة القات «الملعونة»!

والشاهد أن شهرة البن اليمنى طبقت الآفاق منذ قرون إلى حد صدور عشرات الكتب الحديثة التى تتغنى بأوصافه وشمائله بلغات العالم، وبينها «كل شتى عن البن» الصادر عام ١٩٣٥ لمؤلفه ويليام ايكرز . . يقول: «لعدة أجيال ظل بن المخا ـ نسبة إلى تصديره للخارج عبر ميناء المخا ـ متميزا عن كل بن العالم بنكهته الحارة وعطره وقليل من حموضته المستحبة» ويقول كيفن نوكس فى كتابه «مبادئ البن»

الصادر عام ١٩٥٧ «احتساء فنجان واحد من بن المخا يغنيك عن مذاق كل أنواع البن»، ويقول جون ثورن فى مؤلفه «كتاب البن» «إن لبن اليمن طعم النبيذ المعتق برائحة العطر»، وفى معرض البن السنوى الذى أقيم فى سان فرانسيسكو يوم ١٤ أبريل عام ٢٠٠٠، كانت النشرة الصادرة عن أكبر شركة لتوزيع البن فى العالم تقول: «نحن ننفرد بالتعامل الحضارى منذ ستين عاما مع بن المخا، فهو أفضل بن على الإطلاق، إذ يتميز بنكهة الفاكهة والبهارات وطعم الشيكولاتة وأريج عطرى فريد».

المعروف أن أوربا عرفت بن اليمن لأول مرة عبر فرنسا التى أرسلت عام ١٧٠٩م سفينتين لجلبه من ميناء المخا وهما «ليوديلجنت» و«لوكوريو»، حيث عقدت اتفاقية صداقة فرنسية مع حاكم المخا.. وبعدها أطلق اسم المخا على أحد أحياء مدينة «سانت مالو» الفرنسية!

وكانت المساحة المزروعة بأشجار البن عام ١٩٩٠ حوالى ٢٤٨٠٤ هكتارات ثم وصلت أخيراً إلى ٣٤ ألف هكتار، عبر التوعية الواسعة التى قامت بها وزارة الزراعة والإعلام، بالتزامن مع توزيع ١٥ مليون شتلة بن على المزارعين بالمجان، وهو ما أدى إلى اقتلاع عدد كبير من المزارعين أشجار القات واستبدالها بأشجار البن خاصة فى المحويت والحميتين!

والمشكلة أن زراعات القات كما العملة الرديئة التى تطرد العملة الجيدة من السوق، حيث بلغت مساحاته المزروعة زهاء ٣٧٪ من الأراضى الخصبة، وتؤكد نتائج الإحصاء الزراعى أن هذه المساحة كانت ٨٠٠٠ هكتار عام ١٩٧٠ وزادت بنهاية عام ٢٠٠٠ نحو ١٠٢,٩٣٤ هكتاراً، أى أن نسبة التوسع فى زراعة القات بلغت ١١٨٧٪، ومعظم هذه الأراضى كانت تزرع بالبن وشتى أنواع البقول والفاكهة، بينما يقدر عدد مزارع القات بحوالى ١٨٠ ألف مزرعة، موزعة بين أكثر المناطق ارتفاعا ما بين ٨٠٠ إلى ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر، ومعظمها فى محافظات صنعاء وحجة والمحاويت وإب وتعز والبيضا وعمران والضالع.

مشكلة ثانية وتتعلق بالسحب المتواصل للمياه الجوفية واستخدامها فى رى

أشجار القات بنحو ٨٣٠ مليون متر مكعب سنويا، وفى شربها كذلك خلال جلسات تخزين ومضغ القات، مما قد يؤدى بالضرورة إلى جفاف وملوحة الآبار الجوفية، والتهديد باستنزاف الاحتياطى الاستراتيجى من المياه، وفاقم من خطورة التفريط فى الثروة المائية، زيادة حفر الآبار عشوائيا، خاصة أن البنوك تتبارى فى مد المزارعين بقروض ميسرة لشراء معدات الحفر والضخ!

المشكلة الثالثة وتكمن فى انعكاسات القات السلبية على الأوضاع الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية، حيث يلتهم شراء القات بين ٣٠ إلى ٥٠٪ من ميزانية الأسرة، بينما تتراوح نسبة المتعاطين بين الذكور ٧٥ إلى ٨٥٪، وما بين ٣٥ إلى ٤٥٪ بين الإناث، ويرصد بحث أكاديمى ميدانى قيمة ما يستهلكه اليمنيون سنويا على شراء القات زهاء مليارين ونصف مليار دولار بما يفوق ميزانية الدولة، والأدهى والأمر يتمثل فى ظواهر الانحراف الأخلاقى، عبر تفشى جرائم الرشوة والاختلاس بين الموظفين محدودى الدخل؛ لشراء ما يلزمهم من القات وارتياد مجالسه كمظهر للتفاخر والتواصل الاجتماعى مع الأصدقاء، وقد يتعثر الزوج عن الوفاء بمتطلبات أسرته والقات معا، وعندئذ قد يضغط على زوجته كى تبيع مصاغها ويحدث الشجار الذى يؤدى فى النهاية إلى الطلاق!

على أن القات فجر فى السنوات الأخيرة مصيبة كبرى، حين استخدم المزارعون أصنافا مغشوشة من المبيدات الحشرية والأسمدة العضوية لأول مرة لتسريع نمو أشجاره والإكثار من أوراقه، مما أدى لزيادة أرباحهم بشكل غير مسبوق، حتى انكشف مصدر إنتاجها فى إسرائيل رغم منع استخدامها دوليا مثل الـ د. د. تى والتوباز والديوكسين والسما والحديدى، مما أدى إلى تصاعد نسبة مرضى السرطان والفشل الكلوى، خاصة فى مناطق زراعة القات مثل إب وماوية وشرعب وهمدان وجبل صبر، وهكذا أضيفت أمراض جديدة إلى جملة الأمراض المعروفة للقات، وبينها التليف الكبدى وتشوهات الأجنة وزيادة التوتر العصبى والمغص والإسهال والصداع والضعف الجنسى والجفاف العاطفى بين المتزوجين، إلى غير ذلك من الإصابة بجلطة المخ لدى المصابين بتصلب الشرايين، واحتمال الإصابة بالبواسير والقلق والاضطرابات النفسية والعصبية، و تكسير الدهون وزيادة ضربات القلب والعقم، فضلا عن تصاعد معدلات حوادث السيارات والسرقات

والنهب المسلح، وتقول إحصائية رسمية إن كلفة العلاج من أمراض القات تبلغ ٢٠٠٠ دولار للمريض، وإن العلاج فى مستشفيات الأردن وحدها تجاوز مائة مليون دولار سنويا!

٨٠ـ الحشيش اللبنانى

ولعله من هنا السؤال الهام رغم بديهياته : فإذا كان اليمنيون يدركون إلى أى حد مساوئ ومفاسد ومضار القات الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والصحية والنفسية. . فلماذا إذن كل هذا الإسراف فى تعاطيه؟ ولماذا يضيعون نحو ٢٠ مليون ساعة يوميا فى ممارسة هذه العادة المرذولة بلا طائل على حساب العمل والإنتاج أو الإبداع؟ لماذا وتعاطى القات يمكن الإقلاع عنه بسهولة إذا ما توافرت الرغبة والإرادة. . خاصة أن القات منبه لا يفضى للإدمان كما هو الحال مع المخدرات النباتية والمصنعة؟

لا بد أن وراءه إذن سرا لا يدرك وسحرا طاغيا يستبد بالأفئدة والعقول والجيوب، فهل يراه اليمنيون كذلك؟

الإجابة دائما يختلف حولها أهل اليمن وعلى النقيض، بين فريق لا يجد فى القات سوى الضياع والهلاك، وبين من يراه كذلك ولكن يظل أقل خطرا من الانزلاق إلى هاوية المخدرات، والدليل على ذلك أن أجهزة الأمن فى مصر نجحت إلى حد كبير فى إغلاق منافذ تهريب الحشيش اللبنانى، فكانت النتيجة أكثر وبالا عبر انتشار شم بودرة الهيروين والكوكايين الأخف وزنا والأكثر ربحا والأفدح خطرا، حيث الشفاء من إدمانها يحتاج إلى وقت طويل وكلفة باهظة، إلى ذلك يضيف أصحاب هذا الرأى الإشارة إلى أن زراعة وتجارة ونقل وبيع القات يستوعب ما يزيد على مليون مواطن من العاملين فى هذه المجالات، فكيف يجوز فى حالة منع القات، إضافة هذا العدد إلى نحو مليونى عاطل فى اليمن بلا عمل!

يقول الشاعر اليمنى الكبير إبراهيم الحضرانى وهو من خصوم القات :

قف معى يا من تخاف الأزمات   نضرب القات بسوط اللعنات

مـــا رأينـــا مثـــلـــه ضـــرر   ينزل السـوء بمجـد العائلات

يقتـــــل الإنســـان مســـتقبله   عنــدما يألف تدخينـــا وقات

ويقول الشاعر السورى سليمان العيسى بعد أن جرب تخزين القات وعاش أجواء مجالسه :

ســـم به وطـــن الأحرار يقتـــات   ســـم يدمر من عاشوا ومن ماتوا

متى ستنقض عنك الداء يا بلدى   متى ســـيعدم هذا المجـــرم القات

٨١ـ الإمام يحيى يدافع عن القات

لخطورة القات عند غير اليمنيين منذ وقت مبكر رأينا إثبات القصيدة التالية للشاعر القسطنطينى الذى رافق الرحالة اللبنانى الفيلسوف العربى القومى أمين الريحانى فى رحلته إلى اليمن بالنظر لطرافتها وندرتها كان جواب الإمام يحيى عليها فى المقابل :

القات فيه عجاب   كما يقول الصحاب

درت به الشاة لما   أن طاردتها الذئاب

ذاقته فاستعذبته   وسال منها اللعاب

وراعى الضان لما   عراه يومًا لغاب

فذاقه واصطفاه   فزال عنه اكتئاب

أمسى يجمّع منه   حتى تملأ الجراب

مضى يحدث عنه   وفى الحديث رغاب

فصدقوه وذاقوه   مثله واستطابوا

ما نفعه انبئونى   هل عند شخص جواب

جربته واختبارى   يجدى به الأسهاب

تنتاب حس الفتى منه قشعريرة والتهاب
ومنه يفعل ما لا يقوى عليه الشراب
والصدر فيه من الوخز والعذاب حراب
والنسل يضعف منه ما في كلامي ارتباب
لأنفع بالقات لكن فيه الشقاء والعذاب
وترهق النفس منه والقلب والأعصاب
والجفن يذبل حتى يغشى العيون سحاب
وسوء هضم وقبض وبالدوار يصاب
ويعترى بعد هذا المفاصل الاضطراب
لم يبقى ارخت ريبا القات للقتل باب

الإمام يحيى من جانبه انبرى يرد على قسطنطين فى قصيدة عصماء لم نعثر سوى على بعض أبياتها . . يقول :

فللعيون جلاء للضعف منه ذهاب
وللثغور صباغ زمردى يذاب
أحسن بثغر مليح له المذاب رضاب
ياما احيلاه ظلما تشقى به الأحباب
وللنفوس مريح وللنشاط انجذاب
ويشحذ الفكر حتى يخاف منه التهاب
ويطرد النوم عمن له الجليس كتاب
أما الذى قاله قسطنطين فهو سراب
أليس من جاوز الحد أكله والشراب
يكون عرضه خسر ويعتريه اكتئاب
والأكل والشرب مالا به الكرام تعاب
وإنما العيب إسراف منه يبدو العجاب
هذا الملفق يا قسطنطين منا جواب

يهدى إليك عليه **من الحياة نقاب**
لأنه ليس كفؤا **للدر وهو تراب**
فاستر ملفق يحى **فالستر فيه الثواب**

لكن هناك ممن يطيب له تخزين القات، لا يصدق ولا يريد أن يصدق ما يتردد عن أضراره، كما لا يرى ثمة طعما للحياة ولا جدوى لها بدونه، ثم إن تخزين القات مسئولية متعاطيه، ولا دخل للدولة ولا المجتمع بالحريات الشخصية، بل إننى سمعت من الشيخ عبد الله الأحمر شيخ مشايخ قبيلة حاشد ورمز القبيلة المستنيرة فى اليمن، إضافة لكونه رئيس مجلس النواب ما يتفق مع هذا الرأى، إذ يرى أن لكل شعب مزاجا خاصا يروح به عن همومه ومتاعبه ويمنحه الشعور بالسعادة والراحة، ومن هنا راق القات مزاجا خاصا لليمنيين دون غيره من المسكرات أو المغيبات، ولعله يفسر لماذا يزرع اللبنانيون الحشيش بينما يدخنه غيرهم مثل المصريين؟!

حتى فقهاء الإسلام فى اليمن يختلفون أو يجتهدون حول مشروعية القات من عدمه، ومن المعروف أن الإمام شرف الدين كان قد انتهى عام ٩٥٠ هجرية بتحريم القات، مما أثار عليه حفيظة الفقهاء والمتصوفين والشعراء الذين انبروا للدفاع عن القات، وهو ما دفعه إلى تحليل ما سبق وحرمه، ومنذ ذلك الحين صار القات قضية دينية وسياسية واجتماعية محل خلاف، وصدر بشأنه عشرات الكتب التى وضعها علماء اليمن، وبينها «تحذير الثقات من استعمال القات» للعلامة ابن حجر الهيثمى، و«البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر» للقاضى الشوكانى، «ودحض الشبهات حول القات» للعلامة عبد الله العمودى، وكتاب «ترويج الأوقات فى المناظرة بين القهوة والقات»، كما صدر مؤخرا كتاب «القات فى الأدب اليمنى والفقه الإسلامى»!

ورغم أن الله سبحانه يقول فى قرآنه الكريم ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾، مما يؤكد أن الشريعة مع جلب المصالح ودرء المفاسد، لكن على ما يبدو أن مافيا القات تمارس إرهابها حتى على رجال الدين، وإلا لماذا لم يجمعوا على فتوى تحرم القات رغم الاتفاق على مضاره الجمة؟

يقول القاضى محمد قاسم الشامى عضو المحكمة العليا «القول بالتحريم أو مقاطعة القات راجع للدولة، فهى التى تقدر المصلحة العامة من خلال الدراسة المستفيضة للمشكلة، والصحيح الذى يجمع عليه جمهور العلماء حول أدلة التحريم الوارد بشأن كل مخدر أو مفتر خاصة فى ضوء ما تواتر عن مضار القات الصحية والاجتماعية والاقتصادية، ولأن البلوى عمت، ولأنه إذا أردت أن تطاع فلا تأمر إذا بما لا يستطاع، من هنا أحسب أن المطلوب والممكن ليس الوعظ والنصيحة فحسب، وإنما شحذ الهمم وبعث الإرادة والإدراك المعرفى بمخاطر القات، وهو الدور الذى يجب أن تلعبه الأجهزة الثقافية والإعلامية والسياسية، بحيث تتوافر القناعة الطوعية بالإقلاع عن القات.

٨٢- ساعة القيلولة

فى مجلة «ريدردايجست» الشهرية التى كانت تصدر منها طبعة عربية بعنوان «المختار» إبان الحرب العالمية الثانية، قرأت مقالاً للأثرى المغامر وندل فليبس الذى اكتشف العديد من آثار الحضارة اليمنية فى مأرب، وروى كيف ساعده تخزين القات على التفاهم مع اليمنيين وفهمهم، ويبدو أننى سرت على خطاه ووصلت إلى ما وصل إليه دون أن أدرى ولا كان فى حسبانى إدراك سر عشق أهل اليمن للقات.

وقد تذهب إلى اليمن للعمل أو السياحة وتمتد إقامتك أياما وأعواما طوافا فى ربوعه، لكنك لا تستطيع الحصول على تأشيرة الولوج إلى الشخصية اليمنية، وشهادة معترف بها على توغلك فى دروب العقلية اليمنية والإحاطة بتضاريسها الإنسانية والوجدانية، إن لم يتأت لك خوض تجربة تخزين القات فى الجانب الأيسر من الفم وهى حركة لا إرادية يصعب استبدالها بالجانب الأيمن دون أن تدرى لذلك سببا، وعليك أن تمضع أوراق القات ببطء وعناية، ثم عليك بعدها أن تعتصره تباعا وتستحلب رحيقه رويدا رويدا حتى يسترخى بدنك ويصفو مزاجك وتستيقظ مشاعرك وتتحشد حواسك يقظة وتألقا، وقد تكون محاورا جيداً، وقد تتواصل وجدانيا مع الحبيب المجهول أو المعلوم.. ولله فى خلقه شئون!

ولأن مجالس القات تبدأ فى ساعة القيلولة إثر الفراغ من طعام الغذاء، من هنا وصف مجلس القات بـ «المقيل»، وللنساء أيضا مقيل يسمى فى صنعاء «التفرطة» و«النشرة» فى الحديدة و«القيلة» فى تعز وعدن، لكن يظل المقيل الصنعانى بطقوسه الحضارية الأكثر شهرة وإمتاعا، ولم لا وصنعاء مدينة التاريخ والحضارة وأقدم مدينة فى العالم، واسم صنعاء يشى بمعنى الصناعة والحرفة. . يقول «معجم البلدان» إن صنعاء كناية عن جودة الصنعة فى ذاتها.

البيت الصنعانى القديم أو الحديث على النسق القديم تحفة عمرانية موروثة عن حضارة «الوقيص»، والوقيص تعنى الأحجار الصلبة المنحوتة فى أشكال هندسية متراصة وألوان شتى، كذلك طرز العقود القوسية فى النوافذ والأبواب، والعناية الفائقة بمنمنمات الجص الجميلة وزخارف الزجاج المعشق الفلكلورية، إلى ذلك الاهتمام الفائق بتوافر أقصى درجات الأمان والحماية فى الداخل، كما لو أنها حصون منيعة وكفى أهل البيت شرور الخارج.

سلالم البيوت متعرجة وأسقفها واطئة، ولا مفر إذن من صعود الدرج وقامة الإنسان منحنية، حتى يتمكن أهل البيت فى أوقات الخطر ونذر العدوان من اصطياد اللصوص وردع الخصوم، إضافة إلى فتحات صغيرة مستطيلة فى الجدران وأسطح البيوت تسمى «مزاغل» تتيح مراقبة ما يجرى فى الخارج عن كثب، وتثبيت فوهات البنادق من خلالها إلى كل الاتجاهات وإطلاق الرصاص فورا صوب مصادر العدوان.

وتسأل، لماذا كل هذا التوجس من الخارج ولماذا كل هذا التمترس فى الداخل، إلى حد انعكاساته التلقائية على زى المرأة اليمنية التى تغطيها «الستارة» و«الشرشف»، فلا يبين منها سوى عينيها بالكاد، وكذا حرص الرجل على أن يتمنطق بالجنبية أى الخنجر اليمنى المعقوف، وربما كان فى حوزته كذلك بندقية أو مدفع رشاش وربما أكثر، وتعرف أن السبب يكمن إلى حد ما فى أن اليمن عامة وصنعاء خاصة ابتليت بالخلافة العثمانية أو الاستعمار التركى، فلم يرع دينا ولا ضميرا وعاث فسادا أو إفسادا ونهبا وعدوانا باسم الدين.

والحقيقة أننى كثيرا ما سألت نفسى عن العلاقة بين الشخصية اليمنية والعمارة اليمنية، وأيهما أثر وتأثر بالآخر بحكم أن الإنسان وليد البيئة، ثم إلى أى مدى العلاقة - فى المقابل - بين العمارة الحصينة والقات، ومن هنا يقودنا السؤال الحائر عن سر عشق اليمنيين للقات؟

ولا أكاد أبالغ فى أن القات الشغل الشاغل لمتعاطيه منذ الصباح، سواء عبر الحديث عما جرى فى مجالسه بالأمس، أو التواعد بين الأصدقاء على اللقاء فى مجالس اليوم، إيذانا بخوض مباهجه والاستمتاع بملذات التخزين مجدداً وهلم جرا!

٨٣ـ قاع اليهود

يصل القات طازجا إلى صنعاء فى العاشرة صباحا إلى حيث بيعه وشرائه فى أسواق «قاع اليهود» و«الملح» وباب سبح، والطريف أن يتسلل الموظفون من أعمالهم لشراء القات الجيد قبل نفاده، بينما يتركون على مكاتبهم ما يدل على دوامهم فى العمل مثل شال العمامة أو علبة السجاير أو المسبحة.

نبات القات أنواع وأشكال، بينه الفاخر ذو اللون الأصفر قبل إخضراره، وغير المرشوش منه بالمبيدات الحشرية هو الذى يقبل الأثرياء وعلية القوم على شرائه مهما غلا ثمنه، ومنه الطويل والقصير العود ويتراوح فى شكله وملمسه بين أوراق الملوخية والجرجير وشجرة «الفيكس» التى تنمو على أسوار الفيلات والقصور فى مصر، ومن أسماء وأنواع القات الضلاعى والمطرى والصبرى والهمدانى والحرازى والشامى والمغربى والبخارى والوادى والعصرى.

نحن الآن فى أحد البيوتات الصنعائية العريقة، والمقيل أجمل وأهم أركانه وقد فرش بالسجاد أو البسط الملونة، وتناثرت الحاشيات الوثيرة حول أضلاعه المستطيلة بارتفاع ٣٠ سنتيمترا، وقد غطيت كذلك بالسجاد الناعم وفى جنباتهم «مساند» للظهر وكذا «المتاكئ» لراحة الذراعين، وعادة ما يتسع المقيل لعشرة أشخاص فى المتوسط، وربما المئات كما هو حال المقيل فى قصور مشايخ القبائل ويسمى

«الديوان»، ودائما ما يتوسط المقيل مداعة أى «نرجيلة» وربما عدة مداعات من النحاس المشغول تمتد منها مباسم «الليات» إلى شفاة المخزنين إن شاءوا تدخين التمباك المشتعل، فيما يحرص صاحب المقيل على أن يوفر عبوات الماء المعدنية وزجاجات المشروبات الغازية للضيوف!

يحتل المقيل فى الغالب أجمل وأعلى مكان فى البيت الصنعائى وعندئذ يسمى «المفرج»، كونه يوفر الرؤية البانورامية التى تحيط بالعاصمة وعماراتها الحضارية!

لكل مقيل هوية اجتماعية أو ثقافية أو سياسية، كما وأن للأحزاب والنقابات والجمعيات مقايل خاصة، وإلى وقت قريب كان لكل وزارة ومؤسسة حكومية مقيل خاص، حتى صدر قرار رئيس الجمهورية بتحريم تعاطى القات على الموظفين والشرطة والجيش خلال فترات الدوام سواء فى دواوين الحكومة أو المعسكرات، وقد شهدت صنعاء أوائل السبعينيات ظاهرة المقايل السرية التى كانت تضم عناصر الحركات الوطنية واليسارية، إبان كان المقدم محمد خميس مديرا للأمن العام، لكن مع بزوغ فجر الوحدة اليمنية والديمقراطية والتعددية السياسية، تلاشت هذا الظاهرة تدريجيًا!

يدخل الضيوف إلى المقيل وكل منهم يتأبط حزم القات ملفوفة بالبلاستيك وكانت تلف فى الماضى بأوراق الموز حتى تظل طازجة، يسلم الضيوف على من سبقوه فى الحضور باليد أو بإيماءة من رأسه، وأحيانًا يأخذ مكانه فى المقيل بهدوء حتى لا يقطع على الضيوف حديثهم، وعندئذ ينبرى أحدهم قائلاً« حيا الله من جاء».

يبدأ الضيف فى تنقية أوراق القات من الشوائب وينتخب الصالح منها للمضغ تباعًا، حتى ينتفخ خده اليسرى، بعدها تبدأ عملية المضغ والاستحلاب، وخلالها يتبادل الحاضرون أعواد القات من باب تنويع المذاق وجلبًا للمودة، ويستمر الحال هكذا فى أحاديث جانبية أو ثنائية إلى حين وصول الجميع ذروة النشوة والحيوية، وعندئذ يدق صاحب المقيل أو كبير المخزنين ويعلن اختيار موضوع الساعة الأنسب للحوار حوله، وأشهد أن الجميع ينالون دومًا حظوظهم من الحوار الديمقراطى الخلاق بالعدل والقسطاس مهما تدنى الوضع الطبقى أو الوظيفى.

٨٤ـ الـــرازم

من أشهر المقايل الثقافية حتى سنوات قريبة فى صنعاء، تلك التى كان يتصدرها أمير شعراء اليمن عبد الله البردونى، ورغم أنه كان ضريرا ـ يرحمه الله ـ إلا أنه كان موسوعى الثقافة، محيطا بأمهات الكتب قديمها وحديثها، وهو كان راوية وفنانا وناقدا وساخرا، وكم أسمع أصدقاءه وحوارييه العجب العجاب من نوادر وحكاوى العصر العباسى، وربما ذكرياته عن أعاجيب وخرافات أئمة بيت حميد الدين الذين حكموا اليمن زهاء ١٥٠ عاما.

على أن آخر عهدى بأرقى مقايل صنعاء الآن، ذلك الذى يتزعمه الدكتور عبد العزيز المقالح وهو كان مديرا لجامعة صنعاء والآن مديراً لمركز الدراسات اليمنية، وهو الشاعر العظيم وشخصية لامعة وإنسان ودود، وهذا المقيل بمثابة مدرسة أدبية وندوة سياسية يومية، وأعتقد أنه لا غنى عنه لمن يتردد على اليمن لفهم أوضاعه وشواغله على كل صعيد، والتعرف على نجومه الواعدة فى الشعر والقصة والغناء والموسيقى.

وأحيانًا ما يستضيف المقيل اليمنى مطربا أو منشدا أو عازفا، وقد تعجب حين ينهض رجلان ويندمجان برشاقة إلى حلقة للرقص، وهو كذلك عنصر أساسى فى مباهج مقايل الجنس اللطيف، إلى جانب الدور الذى تلعبه فى اختيار الأمهات زوجات لأبنائهن من بين المخزنات، واستعراض آخر موضوعات الأزياء والروائح العطرية الشعبية والبارفانات الفرنسية وأنواع الحلى الفضية والذهبية والماسية، بل إن الفرصة سانحة أيضا للبيع والشراء فى هذه الكماليات!

لكن تظل الشائعات أبدع ما يتردد فى المقايل الصنعائية، وعبرها يمارس اليمنيون ذكاءهم الحاد وسخرياتهم من مساخر الحياة، وهى عادة قديمة تحدث عنها المؤرخ الكبير أبو الحسن الهمدانى فى مؤلفاته التى يرجع تاريخها قبيل ألف عام حين قال: «ما رأيت كأهل صنعاء يرجفون على أنفسهم»!

ولأن لتخزين القات أوقاتا، لذلك ينتهى المشهد الافتتاحى للمقيل الصنعائى

حين يبلغ المتعاطون ذروة المضغ والاستحلاب، ليبدأ المشهد الثانى بغياب ضوء الشمس وهو ينعكس إلى داخل المقيل ويضفى لمساته الشاعرية على المقيل وعلى المقيلين عبر زجاج النوافذ التى تجمع بين ألوان الطيف، إيذانا بحلول «الساعة السليمانية» التى يبلغ فيها اليمنيون، ذروة النشوة والابتهاج والراحة النفسية، وهى أسطورة موروثة تدعى أن سيدنا سليمان كان يتعاطى القات، وبعدها تضاء المصابيح وينفض السامر، ليبدأ المخزن فى إفراغ فمه من بقايا القات، وفسخ العلاقة مع تأثيره المنبه قبل أن يحل به الكسل والفتور عبر احتساء مشروب مركز من الشاى أو فشر البن أو الكحوليات!

هكذا يعود متعاطى القات إلى منزله كسولا بعد زهاء خمس ساعات استهلكها فى شرائه وتخزينه، وبدلا من مداعبة زوجته ومتابعة أحوال أولاده وتحصيلهم الدراسى، إذا به يتجه مباشرة للنوم والتفكير فى دورة القات العبثية فى الغد!

والشاهد أن المشكلة على حد إجماع العلماء والأطباء والمثقفين فى اليمن ممن لا يتعاطون القات، تحتاج إلى علاج غير تقليدى وحلول خلاقة ومبتكرة، خاصة بعدما تأكد فشل القانون والقدوة الحسنة والتهديد بقلع الأشجار أو تسريب دودة القطن إلى مزارع القات، البعض يقترح تغيير مواعيد العمل الرسمى فى مؤسسات الدولة بحيث تستوعب أوقات تخزين القات، وهناك من يرى الحل فى خلق بدائل للترفيه عبر زيادة الأندية الرياضية والمسارح ودور السينما والمنتزهات والمكتبات، أو عدم ترقية الموظفين المتعاطين للقات.

وفى كل الأحوال يظل أهل اليمن ولا شك أدرى بشعابه وأقدر على الوصول بالمشكلة إلى مرافئ العقلانية والأمان، ونحسب أن تبديد الأوهام والأكاذيب السعيدة التى تروج للقات وفوائده وجدواه إنما البداية السليمة، ولعل فى مقدمتها ما يشاع عن إصابة كل من يمتنع عن تعاطى القات بمرض نفسى وهمى ما أنزل الله به من سلطان ويدعى «الرازم»، إلى حد الاعتقاد بأن وضع «الجنبية» أو الحذاء تحت الرأس أثناء النوم، يفضى إلى طرد كوابيس الأحلام المزعجة والشفاء من مرض الرازم إلى حين عودة المريض مجددا إلى تخزين القات!

٨٥- كنت طبيبة فى اليمن

أوائل الخمسينيات قرأت خطابا من الطبيبة الفرنسية كلودى فيان كانت قد أرسلته من باريس إلى الأستاذ محسن العينى فى القاهرة، فلما اطلع الأستاذ محمد عودة على الخطاب قام بترجمته إلى العربية ونشره كاملا فى صحيفة الجمهورية التى كان من أبرز كتابها وقتئذ، وأذكر أن الخطاب كان مفعما بعشق اليمن واليمنيين، ولم يكن ذلك غريبا على هذه الفرنسية رقيقة المشاعر، فهى صاحبة كتاب «كنت طبيبة فى اليمن» فكان بمثابة نافذة للإدراك المعرفى بشئون اليمن وشجونه رغم أسوار العزلة وستائر الظلام التى كان يتوارى خلفها أبشع الجرائم فى حق الإنسانية تخلفا بين مختلف شعوب العالم عهدئذ.

والحقيقة أنه قدر لى لقاء الدكتورة كلودى فيان مرة واحدة وأجريت معها حوارا شائقا نشرته مجلة روز اليوسف عندما كانت فى زيارة لليمن بدعوة من حكومتها أوائل السبعينيات حول عشقها لليمن، ثم نترك المجال على الرحب والسعة للأستاذ محسن العينى للإفاضة بما كان يربطه بها من علاقات حميمة على نحو المقال الذى كتبه عنها ونشرته إحدى الصحف المصرية عندما بلغه خبر وفاتها. . يقول:

مكالمة هاتفية فى منتصف الليل من باريس نقلت الخبر الحزين، كلودى فيان انتقلت إلى جوار ربها فى الرابع من يناير. . وقد تجاوزت الثمانين.

أثق أنها كانت منفعلة لما يجرى فى أفغانستان وفى فلسطين وما يشاهده العالم فى بداية العام الثانى لهذا القرن.

سيدة. . إنسانة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، وأذكر من إذاعة باريس، فى بداية الخمسينيات، أننى سمعت لحنا يمنيا جميلا شجيا والمذيع يسأل كلودى فيان. . بماذا يذكرك هذا اللحن يا سيدتى ؟ فتسترسل فى حديث شائق عن اليمن واليمنيين، عن صنعاء وسكانها والعجوز الذى يواظب على الجلوس تحت نافذتها كل مساء ليسمع فى الظلام ألحان بيتهوفن وبرامز وعن مرضاها وكبريائهم وتحملهم الآلام وصبرهم ومعاناتهم، وحديثها الممتع عن الحضارة، وهل هى فقط فى المدن

الحديثة والشوارع المعبدة والسيارات الفارهة أم أنها أيضا فى المشاعر الرقيقة والألفة والصدق والتحمل بكبرياء .

وبحثت عنها . . وكانت هى تبحث عن هؤلاء اليمنيين الأربعة الذين سمعت أنهم قد وصلوا للدراسة فى باريس .

والتقينا وسمعنا قصة حبها لليمن ، وتجولت بنا فى باريس وحدائقها ومتاحفها ومعالمها .

وأصدرت كتابها الذى لقى رواجا فى فرنسا ، وترجم لعدد من اللغات ، وأقدمت على ترجمته للغة العربية تحت عنوان «كنت طبيبة فى اليمن» واعتنيت بالترجمة خدمة لقضية اليمن ضد الإمامة ، ولأنه خير ما يصور حياة اليمن واليمنيين فى تلك المرحلة . وكما قال الأستاذ محمد محمود الزبيرى ، إنه كتب بلغة المحب بعيدا عن التعالى الذى تعودناه من بعض المستشرقين والمستعمرين والغربيين .

قالوا لى فى دار الطليعة فى بيروت التى تولت إصداره إننا نصدره مجاملة لك ولصديقك جبران مجدلاتى وإلا فمن يعرف كاتبته ، ومن يعرف مترجمه الشاب ، واليمن من يهتم بها وما يدور فيها ؟!

وكتبت له مقدمة كلها هجوم على الأسرة المالكة ودعوة صريحة للإطاحة بها . . إذا أراد الشعب اليمنى أن يلحق بركب الحياة .

وقد نفدت الطبعة الأولى فى أسابيع وأعيد طبعه ، وحتى يمكن توزيعه فى عدد من الأقطار العربية طلبت دار الطليعة إلغاء المقدمة العنيفة ، وكتابة مقدمة أخرى إهداء . . فكتبها الأستاذ محمد محمود الزبيرى وصدرت الطبعات المتوالية ، وما زال الكتاب مطلوبا ويعاد طبعه حتى اليوم!

كنت قد سألتها فى باريس . . عن سر حبها لليمن وتجشمها السفر من باريس إلى ذلك القطر العربى النائى فلم تجب!

وبعد صدور الكتاب فى الترجمة العربية كتبت لى رسالة أجابت فيها عن سؤالى وقالت إن زوجها وصديقا آخر وحدهما يعرفان سر ذهابها إلى اليمن وأن من حقى الآن أن أعرف السبب ، وأن أتلقى الجواب عن سؤالى .

وروت فى الرسالة ما تعرضت له شخصيا من متاعب عاطفية ونفسية، كادت تدفعها إلى الانتحار، ولكنها وهى المناضلة الاشتراكية لا يمكن أن تقدم على الانتحار وإذا كان لا بد من الموت ففى الميدان وفى سبيل الواجب.

وقالت إنها اطلعت على أخبار انتشار أمراض معدية فى اليمن، فطلبت من الحكومة الفرنسية إرسالها إلى اليمن لمقاومة هذه الأمراض وكانت تتوقع أن تموت فذهبت، لكنها بدلا من أن تتعرض للموت وهبها اليمن الحياة!

فقد نجحت فى عملها، وعلَّمها اليمنيون المرضى من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ حب الحياة، فرغم ما يعانونه ويقاسونه من آلام وبؤس وشقاء كانت معنوياتهم عالية.. وتمسكهم بالحياة مثار الإعجاب فلما أنهت مهمتها عادت إلى باريس إلى زوجها وأطفالها وأسرتها وأصدقائها محبة للحياة، متفائلة مستعدة للعيش والنضال والعمل من جديد، آنذاك أذكر بالمناسبة أنه زارنى فى شقتى المتواضعة فى الدقى الصديق الكاتب المعروف الأستاذ محمد عودة وخطف الرسالة من مكتبى وبعد أيام نشر فى جريدة «الجمهورية» فى صفحة كاملة بارزة ترجمة كاملة للرسالة تحت عنوان «فرنسية هاربة من باريس إلى اليمن».

ولم يبق أمامى إلا أن أبعثها مع رسالة موجزة إلى كلودى فيان فلم تغضب، بل عبرت عن سعادتها لنجاح كتابها فى طبعته العربية، ثم جاءت إلى صنعاء وأنا فى الحكومة، وتحمست للبدء بإعداد المتحف الوطنى مع تمويل بسيط جمعته.. خشية ما يخشى أن يختفى من حياة اليمن بعض تراثه من ملابس وأدوات منزلية وحلى.. إلخ.

وفى إحدى زياراتى إلى صنعاء إبان عملى فى الأمم المتحدة فوجئت بها فى الطائرة وقدمت لى بعض الصور العزيزة القديمة.. ثم سألتنى ونحن على متن طائرة «إير فرانس» الضخمة من باريس إلى صنعاء ألم يكن هذا حلما؟ ألا تذكر كيف كان العذاب فى الوصول إلى اليمن أو السفر منها..؟ أليست هذه كلها إنجازات ما كنا نحلم بها..؟

وخفف هذا من بعض مشاعرى عن عجزنا فى تحقيق ما كنا نحاول تحقيقه فى بلادنا.. ومن حنقى وسخطى من فرنسا ديجول التى امتنعت عن الاعتراف بالنظام

الجمهورى اليمنى، ولم يتحقق هذا إلا بعد تطبيع العلاقات مع المملكة العربية السعودية وزيارتى إلى باريس فى عهد الرئيس بومبيدو واجتماعى برئيس الوزراء جان شابات جاك دلماس عام ١٩٧٠ . . وفى باريس عملت الدكتورة كلودى فيان على ترجمة بعض الأعمال الأدبية اليمنية شعرا ونثرا إلى الفرنسية، وشجعت وشاركت فى قيام جمعية الصداقة اليمنية الفرنسية وأبدت اعتزازها بحصولها رمزيا على الجنسية اليمنية فكانت بحق علما بارزا للعلاقات اليمنية ـ الفرنسية.

تحية صادقة لهذه السيدة الفرنسية التى كتبت بحب وشغف واحترام عن يمن كان بحق متخلفا ومعزولا لكنه كان فى نظرها جديرا بالمحبة والإعجاب والاهتمام!

وعزاء جميلا لأفراد أسرتها وأصدقائها الكثيرين وللشعب الفرنسى الصديق.

٨٦ـ من «الجمهرة» إلى «الملكية» وبالعكس

صديقى الطبيب المصرى طلعت إسكندر وأستاذ طب الأطفال الآن فى كندا، كان من أنشط أعضاء البعثة الطبية التى رافقت الحملة العسكرية المصرية إلى اليمن، فكانت عيادته بمستشفى صنعاء وحتى سكنه فى بيت الضيافة على أهبة استقبال الأطفال المرضى ليل نهار ودون مواعيد مسبقة وعلاجهم حتى فى بيوتهم إن استدعى الأمر بدون أجر، وأذكر أن هؤلاء الأطفال وذويهم لم تنقطع زياراتهم له بمنزله بعد عودته إلى القاهرة، كلما قدر لهم زيارة مصر للسياحة أو العلاج، وربما لمواصلة دراساتهم الجامعية بعد أن شبوا عن الطوق!

فى بداية ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، أصدر كبير الخبراء المصريين اللواء على عبد الخبير قراراً بمنع أفراد الحملة المصرية من العسكريين أو المدنيين من زيارة اليمنيين فى بيوتهم، إثر سلسلة من المذابح التى طالت بعضهم فى شوارع صنعاء.

ذات صباح كان اللواء على عبد الخبير يترأس الاجتماع الدورى مع الخبراء المصريين وكان إلى جواره على المنصة الأستاذ أحمد النعمان رئيس الوزراء، ومضى الاجتماع فى استعراض الأوضاع الأمنية فى اليمن وتلقى التوجيهات الرسمية كل فيما يخص عمله أو مهمته، عندما أشار اللواء عبد الخبير إلى تقرير أمنى حول

مخالفة واحد من أفراد البعثة المصرية للأوامر الرسمية بعدم دخول بيوت اليمنيين دون أن يذكر اسمه!

عندئذ وقف الدكتور طلعت إسكندر يعترف على نفسه . . وأنه المعنى بمخالفة الأوامر الرسمية، لكنه أضاف استنكاره لهذا القرار، لأنه يكرس مفهوم التباعد والافتقار للانسجام المطلوب بين المصريين واليمنيين . . وقال: لو أن كل فرد من بعثة الخبراء المصريين أتيحت له فرصة دخول بيت يمنى على مسئوليته الشخصية وارتبط بعلاقة صداقة ومودة مع العائلة التى تسكنه، إذًا لحظى بالمحبة والأمان، ولما كانت ثمة حاجة للخوف على حياتهم، ولأمكن اختزال الكثير من خسائر الحرب بالتالى و . . إذا بالأستاذ النعمان يؤيده فيما ذهب إليه .

لكن لأن الأوامر العسكرية لا تقبل الحوار ولا أنصاف الحلول، لذلك فوجئ الدكتور طلعت إسكندر صباح اليوم التالى للاجتماع بقرار نقله إلى منطقة بعيدة عن صنعاء وقريبة من زمامات قبيلة خولان و . . امتثل للأمر أوالعقوبة وركب السيارة الجيب العسكرية التى حملته مع الممرض المعاون له لاستلام عمله!

فى طريق ضيق وسط الجبال هبط عدد من رجال القبائل المسلحين فجأة وطوقوا السيارة وصوبوا بنادقهم فى صدور ركابها، ثم اقتادوهم إلى مقر القبيلة للقاء شيخها فى بيته وقد قيدت سواعدهم بالحبال .

من سوء الحظ أن هذه القبيلة التى كانت «مجمهرة» أى موالية للثورة والنظام الجمهورى، إذا بها قد «أفسدت» أى تحولت منذ أيام إلى «ملكية» موالية للإمام البدر المخلوع .

ومضى بعض الوقت وشيخ القبيلة يتعامل مع الأسرى فى تعالة وفظاظة إيذانا بإعدامهم أو سجنهم أسرى وهو أحسن التوقعات فى الظروف المتاحة آنذاك .

على أنه لم يمض من الوقت الكثير، حتى دخل طفل صغير إلى مجلس شيخ القبيلة، فلما رأى الدكتور طلعت إسكندر اندفع نحوه وقبل يده، ودهش شيخ القبيلة لما جرى . . وإذا بالطفل الصغير يفسر الموقف لوالده فى براءة وعفوية، إذ كان يعانى منذ شهور آلاما حادة فى معدته وقيئا شديدا وعزوفا عن الطعام، مما

اضطر والدته لحمله وعلاجه فى صنعاء، ولما سمعت عن براعة الدكتور طلعت إسكندر ذهبت إليه وأشرف على مراحل علاجه والعناية به حتى كتب الله شفاءه.

المدهش فى هذه الحكاية أن شيخ القبيلة لم يحسن وفادة الدكتور طلعت إسكندر وتسهيل مهمته فحسب، وإنما لأنه أعلن براءته كذلك من الملكية وعاد أدراجه كما كان «جمهوريا» أو بالمعنى اليمنى الدارج «مجمهرا»!

والحقيقة أن الدكتور طلعت إسكندر ما برح يذكر اليمن ويحن للأيام المجيدة التى عاشها فى ربوعه، ومن هنا كان اليمن وشئونه وشجونه . . ماضية وحاضرة . . المادة الأساسية التى يواصل بثها تباعا عبر موقعه الإلكترونى «السفراء» وعنوانه بالإنجليزية على الإنترنت:

www.ambussadors'a'sprint.com
email: mail'a'ambassa aors.net

إلى ذلك فقد صدر للدكتور طلعت إسكندر كتاب شيق بعنوان كنت طبيبا فى اليمن على غرار العاشقة الأوروبية الأولى لليمن الدكتورة كلودى فيان وكتابها الشهير «كنت طبيبة فى اليمن».

جدير بالذكر أن رسام الكاريكاتير المصرى أحمد طوغان يسهم برسومه وكتاباته عن اليمن فى مادة صحيفة الإنترنت «السفراء»، فهو سبق وزار اليمن إثر اندلاع الثورة عدة مرات وأقام معرضا لرسومه عن وقائعها وشخوصها وكذا عن العمارة اليمنية وتقاليدها الشعبية تحت رعاية إدارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى بالقوات المصرية، وقد تنقل المعرض من القاهرة إلى صنعاء إلى تعز إلى الحديدة، حتى استقر أخيرا بالمتحف الحربى فى القاهرة!

وكان الرئيس عبد الله السلال قد وعد طوغان بمنحه رتبة العقيد تقديرا لفنه وكتاباته عن اليمن وثورته . . لكن تغير الأوضاع السياسية فى اليمن حالت دون ذلك . . ومع ذلك لم تفتر محبته لليمن ووفاؤه لشعبها العظيم حيث أقام صيف عام ٢٠٠٥ معرضا لرسومه الحديثة عن اليمن فى المركز الثقافى فى اليمن بالقاهرة . . ثم فى منتدى «ساقية الصاوى»!

٨٧- قبيلى يسأل عبد الناصر عن إسماعيل ياسين

اقترب قبيلى بسيط من الرئيس جمال عبد الناصر خلال زيارته مدينة تعز، وكان واضحا أنه يرغب فى إبلاغه رسالة ما، ولذلك أمر الرئيس بإفساح الطريق حتى اقترب الرجل منه وصافحه وقبله، ثم سأله: هل تعرف إسماعيل ياسين؟ وقال له الرئيس: نعم! وقال الرجل بعفوية.. أطلب منك إذن أن تبلغه سلامى!

وكان هذا الرجل قد شاهد العديد من أفلام إسماعيل ياسين التى كانت تعرضها إدارة العلاقات العامة والتوجيه المعنوى فى عدد من المدن اليمنية، وبينها إسماعيل ياسين فى البوليس الحربى.. وإسماعيل ياسين فى البحرية وإسماعيل ياسين فى الطيران!

فلما قام إسماعيل ياسين شخصيا بزيارة اليمن عام ١٩٦٤، كانت له نوادر تروى.. وكانت له ذكريات سعيدة لا تنسى فى اليمن السعيد.. وأترك له الحديث عما جرى له عبر ما نشرته مجلة آخر ساعة المصرية عام ١٩٦٥.. قال: تشرفت بزيارة صنعاء وتعز والحديدة، ولا أستطيع أن أصف مدى الحفاوة الغامرة التى استقبلنى بها أهل اليمن.. إنهم ناس طيبون جدا.. وهم عندما عرفوا محل إقامتى لم يتركونى لحظة واحدة، كانوا يسهرون أمام دار الضيافة طوال الليل ويرابطون حولها أثناء النهار.. وإذا فكرت فى الخروج إلى السوق تتبعنى مظاهرة، وحدث أنى ذهبت لشراء قماش بدل لابنى ياسين.. ودخلت المحل وكان صاحبه واخد تعسيلة، واستيقظ الرجل على صوت الناس اللى جاريه ورايا، فأمسك بتلابيبى، ظنا بأنى لص مطلوب للعدالة ولما عرف أنى إسماعيل ياسين اعتذر وأعطانى قماش ثلاث بدل، ورفض أن يأخذ مليما واحدا.

وحدث أن وقفت على المسرح لأقدم بعض المنولوجات، وأخذتنى النخوة فقعدت أكلم الناس عن القات على اعتبار أنه مادة ضارة وتعاطيه يضر بالصحة وأنه تقريبا زى الحشيش، وعندما ذهبت إلى دار الضيافة لأستريح وأنا معتقد أنى قلت محاضرة عظيمة فوجئت بمجموعة من الناس بينهم واحد شايل حزمة قات

وقال لى : اثبت لى أن القات ده مضر وأنا أبطله . . فقلت له : افرض أنك أكلت القات وأصبحت فى حالة «سطل» وجاء حرامى وخطف ابنك وأنت نايم فماذا يكون العمل ؟!

ويختم إسماعيل ياسين ما كتبه قائلا : بلغت دهشتى أقصاها عندما وجدت الرجل حاطط نص حزمة القات فى فمه وهات يا مضغ وتركنى منصرفا . . فى هذا الوقت بالذات عرفت أن محاضرتى عن القات قد أثمرت فشلا!

ولعله نفس ما جرى للفنان الكبير صلاح منصور عندما زار اليمن بمناسبة عرض فيلم «ثورة اليمن» الذى قام فيه بدور أحمد حميد الدين آخر أئمة المذهب الزيدى الذين حكموا اليمن باسم الدين وعبر الدجل والاستبداد!

شهدت سينما «بلقيس» فى صنعاء أول عرض للفيلم باليمن، واستمر العرض عدة أسابيع متصلة حتى يتمكن سكان المناطق النائية من مشاهدته، وكان اليمنيون من فرط نجاح صلاح منصور فى تجسيد شخصية الإمام أحمد، لا يكاد سوى القلة منهم التى تدرك أن المسألة تمثيل فى تمثيل، وربما من هنا كان على الفنان الكبير أن يواجههم بالحقيقة . . حيث خرج إلى الجموع المحتشدة أمام سينما بلقيس وهو يرتدى زى الإمام أحمد وعبر مكياج متقن يشى ملامحه ولحيته وعينيه المكحلتين . . وحتى أخذت الجماهير الدهشة والهلع . . ثم استغرق الجميع فى الضحك!

وقد أدهشنى هذا الاهتمام الكبير بالسينما المصرية، والإعجاب الشديد بنجومها، إلى حد مداومة التواصل معهم سواء عبر الرسائل أو المكالمات الهاتفية أو بريد القراء فى الصحف والمجلات المصرية . . بل إلى حد إطلاق أسمائهم على المنتجات والمحلات اليمنية، وعلى سيارات النقل والملاكى والتاكسى!

ومن الطريف أن الفنانة ليلى علوى ظل اسمها ولا يزال يستحوذ على مختلف موديلات السيارات الركوب ماركة «تويوتا» ذات الدفع الرباعى «لاندر كروز»، خاصة أنها ذات أرداف كما ليلى علوى بعد أن زاد وزنها!

٨٨ ـ سر زيارات يحيى المتوكل لبنى سويف

رحم الله صديقى يحيى المتوكل رحمة واسعة، فهو كان صاحب ابتسامة ودودة وساحرة حتى فى أصعب الملمات، وقد توثقت بيننا العلاقة إلى حد الصراحة والمكاشفة بأدق الأسرار العامة والخاصة، رغم أنى حملت فى مقالاتى بمجلة روز اليوسف بكل ما أوتيته من حجة وسخط على النظام والقبلية فى صنعاء إبان احتدام الحرب الأهلية بين شطرى اليمن عام١٩٧٢، وكذا التفريط باتفاقية الطائف باعتبارها أهم الوثائق الفاصلة فى الإشكالية الحدودية بين اليمن والسعودية.

وأشهد أن يحيى المتوكل كان واسع الصدر، ودون أن تتجاوز اختلاف الرؤى بيننا خطوط الود والاحترام المتبادل، فكان يبعث بتعليقاته وردوده على مقالاتى كونه سفير البلاد فى مصر أوائل السبعينيات، ومن جانبى كنت أحرص على نشرها كاملة دون حذف أو تعديل.

على أن يحيى المتوكل لم يكن سفيرا بالمعنى التقليدى فحسب، لكنه كان سفيرا شعبيا كذلك، فكان على خلاف كثير من السفراء اليمنيين الذين سبقوه أو لحقوه فى علاقته الحميمة بالمجتمع المصرى، وكثيرا ما كان يرتاد الأسواق الشعبية، وزياراته الاستطلاعية لمدن وقرى دلتا مصر وصعيدها، ودائما كان على الرحب والسعة فى بيوتنا كما كنا كذلك فى بيته.

وحين سألته عن سر غرامه بمحافظة بنى سويف التى كان يتردد عليها حينًا وآخر.. عندئذ حكى لى أنه كان قد أوشك على الموت المحقق، حين كان ضابطا بالقوات المسلحة اليمنية وأصيب بإصابات بالغة فى إحدى معارك الدفاع عن ثورة اليمن ضد جحافل الثورة المضادة، وبعدها راح ينزف دماء غزيرة وهو يرفع سبابته بالشهادة إيذانا بالرحيل المحتوم!

فى تلك اللحظات العصيبة لمحه عسكرى مصرى اسمه محروس، وفى شهامة وإنكار للذات حمله على ظهره بعيدا عن ساحة المعركة وأهوالها، واستمر على هذا النحو دون كلل أو ملل زهاء ثلاثة كيلو مترات حتى أقرب وحدة طبية تابعة للجيش المصرى، حيث كتبت له النجاة بمعجزة.

محروس الجندى المصرى عاد إلى قريته يفلح الأرض ويزرعها بعد انتهاء مهمته فى اليمن، دون أن يغيب لحظة عن تفكير يحيى المتوكل، وذلك كان سر زيارته تباعا فى بنى سويف مسقط رأسه، حتى يقضى مع صديقه سويعات المحبة والإخلاص وهما يستعيدان شريط ذكريات الثورة اليمنية!

رحم الله يحيى المتوكل، فقد داهمه الموت فى حادث انقلاب سيارته، وليس شهيدا فى ساحة الدفاع عن اليمن كما كان يتمنى!

٨٩- اللحم قليل يا سيادة الرئيس

كلما تأزم الموقف السياسى فى اليمن مع بدايات ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، كانت القاهرة ملجأ التفاهم وحل الخلافات بين الفرقاء اليمنيين، وبينهم والحكومة اليمنية، وربما مع القيادة العسكرية المصرية فى صنعاء، وغالبا ما كان صدر الرئيس جمال عبد الناصر رحبا ومرحبا للقاء بهم والحوار معهم، وهكذا امتدت بينهم وبينه خيوط المحبة والتقدير والإدراك السياسى المتبادل.

فى إحدى زيارات المرجعيات اليمنية للقاهرة سأل الرئيس جمال عبد الناصر الشيخ على ناجى القوسى إحدى زعامات قبيلة «الحدا» إن كان مرتاحا خلال إقامته بالقاهرة، وكانت إجابته بالنفى.. ثم استدرك يقول إن اللحم قليل يا سيادة الرئيس.. قليل وغير مشبع!

فلما عرف أن إقامة الشيخ القوسى فى فندق شبرد، عندئذ طلب نقل إقامته إلى فندق «الكونتيننتال» القريب من محل «الحاتى» بوسط القاهرة، وأن يفتح له حسابا خاصا لما شاء من طلباته الكباب، وقد ذكرتنى هذه الواقعة بأخرى شبيهة لها حدثت مراراً خلال انعقاد مؤتمر حرض عام ١٩٦٦.

وكانت السعودية قد تكفلت بتجهيز معسكر ضخم فى منطقة حرض اليمنية لاستضافة الفرقاء اليمنيين، للتوصل إلى صيغة مرضية للوحدة الوطنية وفقا للاتفاق الذى جرى بين الرئيس جمال عبدالناصر والملك فيصل آل سعود، فكانت السعودية تمد المعسكر يوميا باحتياجاته من الطعام نظرا لقرب المكان من الحدود السعودية، بينما تعهدت مصر واليمن بالحراسة والتنقلات والشئون الإدارية.

ورغم أن كميات اللحوم فى طعام الغذاء والعشاء كانت وفيرة، إلا أن العقيد وجدى شرف المسئول عن الشئون الإدارية فى المعسكر، كان على أهبة الاستعداد لتلبية طلبات الشيخ على ناجى القوسى من لحوم الضأن الطازجة، عبر شراء الخراف وذبحها تباعا وتقديمها مشوية وساخنة، وأذكر الشيخ القوسى كان دائما يضع قطعة من لية الخروف على رأسه وهو جالس تحت أشعة الشمس، وعندما سألته عن السبب.. قال هذه العادة مقوية للنظر، ويوما كان أمامه خروف كامل مشو وهو ينتزع لحمه ويكوره ثم يقذف به فى حلقه.. وحين حاولت أن أمد يدى حتى أتذوق قطعة من اللحم خبط يدى بيده وقال: هذا حقى!

٩٠- هدية الزرقة للأستاذ هيكل

رحم الله الصديق العظيم محمد الزرقة، إذ كان فى طليعة رواد مهنة الصحافة باليمن، وتدرج فى مناصبها حتى أصبح نقيبا للصحفيين قبل الوحدة اليمنية، ورئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة مؤسسة الثورة.

وقد عرفت الزرقة لأول مرة عندما كان يدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة فى أواخر الخمسينيات على ما أذكر، وكان يداوم فى نفس الوقت الاشتغال بمهنة المتاعب عبر صحيفة الجمهورية لسان حال ثورة ٢٣ يوليو، حيث أسبغ الأستاذ الكاتب الكبير محمد عودة رعايته للزرقة وتوجيهه، وكان يصطحبه دوما إلى مجالس المثقفين والعروض المسرحية.

أذكر عبر حواراتنا المتصلة آنذاك أننى أدركت انتماءه لحركة القوميين العرب، وكان يعتبرها آنذاك رافدا من روافد الفكر القومى الحديث الذى تبناه الرئيس جمال عبد الناصر، وبعدها سافر الزرقة إلى عدن واشتغل بالكتابة فى صحيفة «الثورى» التى كانت ناطقة باسم حركة القوميين العرب قبل أن تتحول فيما بعد لسانا لحال الحزب الاشتراكى اليمنى.. وأذكر أن الكاتب الراحل عبد العزيز الوصابى كان رفيقه فى هذه التجربة!

والمدهش أن محمد الزرقة كان من المتعين احترافه للأدب، فقد بدأ حياته قاصا

بالتزامن مع عشقه للصحافة، بل وشدت إبداعاته الكثير من النقاد وبينهم الدكتور عبد العزيز المقالح!

والحقيقة أن مكتب الزرقة ظل مقصدى دوما كلما قدر لى زيارة صنعاء، فكان يضعنى مشكورا فى قلب الأحداث والتطورات التى يشهدها اليمن، وكانت أراؤه وتحليلاته ومواقفه تتسم بالنضج والواقعية والمصداقية!

كنت ألاحظ على إدارته العمل فى صحيفة الثورة، كم كان جادا وحاسما لا يقبل أخطاء المحررين حتى ولو كانت هفوات، لكنه فسر لى الأمر بأنه حريص على الجيل الجديد من الصحفيين حتى لا يقعوا فى شباك الإغراءات وتلفيق المعلومات واستسهال مهمة توجيه الرأى العام، لكنه كان مع ذلك أبا ودودا مع المحررين فى غير أوقات العمل، وكان إلى ذلك يشكو من ضآلة الإمكانات التى تنعكس بالتالى على ضآلة رواتب المحررين، ويرى أن توفير الحياة الكريمة لهم ضمانة لعدم الانزلاق للارتزاق.

والشاهد أن كتابات الزرقة الصحفية والأدبية كانت بمثابة الفأس الذى يقوض أركان الفساد والتخلف والقعود، ويدعو إلى المحبة والجمال والحوار، ولذلك يعتبره النخبة الثقافية فى اليمن صاحب مدرسة حرية الرأى والرأى الآخر، والمؤسس لإمبراطورية صحافة الثورة، وأنه كان رقما مهما فى الساحة الصحفية أو الساحة السياسية، وأذكر أن القاضى عبد الرحمن الإيريانى كان قد عرض عليه منصب وزير الثقافة والإعلام، لكنه اعتذر لكونه السمكة التى تموت حتما إذا بعدت عن مجالها الحيوى، ثم أذكر له دفاعه المجيد عن المناضل السياسى المخضرم أحمد الرعينى، وأن إعدامه كان ظلما وافتراء على تاريخه الوطنى، ووعد بأن يبرئ ساحته فى كتاب خاص!

على أنه فى يوم الجمعة.. كان لقاؤنا بعد الصلاة فى حمام السباحة بفندق حدة، فكان لا يشعر أبدا بالحرج لنحافة جسمه، حيث كان يسبح وأولاده إلى حين موعد الغذاء، ولا أنسى أنه طلب منى أن أحمل للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل هدية متواضعة من البن اليمنى، وفوجئت بأنه قد ترك لى فى فندق «سبأ» جوالا كبيرا من البن اضطررت إلى حمله إلى القاهرة.. وعندما سألنى الأستاذ هيكل عن

صاحب الهدية أعطيته اسم الزرقة وعنوانه فى صنعاء حتى يشكره . . ثم عاد يسألنى ماذا يفعل بكل هذا البن . . وقلت له وزعه على أصدقائك وأحبابك من قبيل الدعاية لليمن والبن اليمنى الفاخر!

٩١- المينا.. المينا يا سلال

كان الرئيس عبد الله السلال فى زيارة ميدانية عام ١٩٦٤ لمنطقة نائية فى شمال اليمن، كانت القبائل التى تسكنها لا تزال تعانى وطأة التخلف والعزلة، وهى بعد أن استقبلت السلال بالحفاوة والكرم وإطلاق رصاص الفرحة بقدومه ويهتفون للثورة وينشدون الشعر ويغنون «الزامل»، . . وراح السلال يخطب فيهم مؤكدا على أن الثورة جاءت لإنصافهم من المظالم والفقر والحرمان الذى اكتوا بويلاته أبا عن جد الجدود، وإذا به يفاجأ بهتافهم مدويا «المينا . . المينا يا سلال»، وأدرك الرئيس أنهم يطالبون بإنشاء ميناء فى منطقتهم، لعلهم يستقبلون البواخر المحملة بالبضائع المستوردة والمصدرة من اليمن، ويحصلون على الرسوم كما هو الحال فى ميناء الحديدة.

لم يكن بوسع السلال أن يرفض . . وكان عليه أن يتعامل بذكاء مع هذا القطاع من الشعب المغيب عن إدراك ماهية الميناء البحرى وضرورة توافر شروط إنشائه . . وقال السلال مخاطبا الجماهير القبلية : «الثورة على أهبة الاستعداد لتلبية مطلبكم . . وعليكم أولا أن توفروا مياه البحر اللازمة لتعويم البواخر وعلى الدولة أن تبنى منشآت الميناء فوراً، ثم وقف السلال رافعا يديه فى الهواء مودعا وكأن حلم الميناء قد أوشك على التنفيذ بمجرد عودة السلال إلى صنعاء . . ليبدأ تفكير القبائل بلا جدوى فى حل مشكلة توفير مياه البحر بمنطقتهم!

٩٢- ثورة القبائل عام ١٩٥٥

كان الاستعمار البريطانى قد انسحب وقواته العسكرية بالتزامن من عدن فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧، وبينما كانت الاحتمالات السياسية تشير إلى أن السلطة من نصيب

جبهة التحرير بزعامة عبد القوى مكاوى، بالنظر لدورها المشهود فى الكفاح المسلح ضد الإنجليز بدعم مصر، إلا أن السلطة كانت مع فجر الاستقلال من نصيب الجبهة القومية عبر الصراع المسلح الذى تنادت له الجامعة العربية آنذاك، ويقول بعض المراقبين إن الإنجليز فضلوا هذا الخيار بدعوى وقف امتدادات حركة القومية العربية المزدهرة آنذاك بزعامة جمال عبد الناصر، وربما لذلك حاولت قوى الثورة المضادة الإيقاع بين الجبهة القومية وثورة ٢٣ يوليو المصرية، رغم ما يجمع بينهما من الأفكار والتوجهات القومية المتماثلة لكن جمال عبد الناصر فوت عليهم أى احتمال للصراع المرتقب!

على أن انتصار ثورة ١٤ أكتوبر لم يقتصر على إنجاز الاستقلال فى الشطر الجنوبى من اليمن فحسب، لكنه حسم مصير وحدة التراب اليمنى، عبر إجهاض المخطط البريطانى الذى كان يطمح فى سلخ عدن عن المحميات والمشيخات وإقامة نظامين انفصاليين متقابلين!

جدير بالذكر أن القاهرة بدأت ترنو إلى دعم إمكانات الكفاح المسلح ضد الإنجليز فى جنوب اليمن منذ زيارة الصاغ صلاح سالم لليمن إبان حكم الإمام أحمد فى يوليو عام ١٩٥٤، وكانت القوات الإنجليزية فى عدن قد قامت بالعدوان المسلح آنذاك على منطقة البيضاء، ومن ثم نجح صلاح سالم فى إقناع الإمام باستعداد مصر لتسليح القبائل اليمنية فى الجنوب حتى تستطيع أن تدافع عن نفسها وتثير القلاقل ضد الإنجليز و. . وافق!

لكن مع وصول شحنة مصرية كافية للقيام بالمهمة من الأسلحة الصغيرة والذخيرة والقنابل، حتى صادر الإمام معظمها وأودعها بالمخازن واكتفى بتوزيع بعضها فحسب، ومع ذلك اندلعت شرارة الكفاح المسلح المعروفة بانتفاضة القبائل عام ١٩٥٥، حتى سارع الإنجليز بإخمادها، ولولا موقف الإمام أحمد المتشكك فى نوايا جمال عبد الناصر، حين منع وصول الدعم المصرى لكان من المتعين أن تتصاعد الانتفاضة وتتحول إلى ثورة شعبية مسلحة!

وهكذا ما أن اندلعت ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ فى شمال اليمن، حتى كان طريق ثورة الجنوب اليمنى سالكا إلى عقل وضمير ودعم ثورة ٢٣ يوليو، ومن هنا

كانت بداية العملية «صلاح الدين» التى نهضت بأعبائها القوات المصرية فى اليمن، عبر الدعم العسكرى لجبهة التحرير فى المرحلة الأولى، ثم تواصل الدعم المصرى بعد ذلك فى المرحلة الثانية منذ الأول من أكتوبر ١٩٦٣ بتوجيه من جمال عبدالناصر مع حركة القوميين العرب تحت مظلة الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى المحتل التى سيطرت على الساحة، بعد أن انضمت إليها فى ١٠ أكتوبر ١٩٦٣، عدة تنظيمات سياسية وعسكرية أبرزها تشكيل القبائل - الجبهة الناصرية - جبهة الإصلاح اليافعية - المنظمة الثورية لأحرار جنوب اليمن المحتل، ثم انضمت إليها بعد ذلك منظمة الطلائع الثورية ومنظمة شباب المهرة - والمنظمة الثورية لشباب جنوب اليمن المحتل!

والحقيقة أن الدور المصرى لم يكن مشهودا فحسب على صعيد الدعم العسكرى، لكنه امتد سياسيا عبر دور الدبلوماسى والقانونى فى دعم المفاوض فى الجنوب اليمنى أمام المحافل الدولية لنيل الاستقلال وفرض السيادة والإرادة الوطنية التى تحققت فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ عبر انسحاب قوات الاحتلال البريطانى من عدن!

٩٣ - العملية «صلاح الدين»

بعد عام من اندلاع ثورة ١٤ أكتوبر عام ١٩٦٣ فى الشطر الجنوبى من اليمن، كان جمال عبد الناصر يقف عام ١٩٦٤ فى مدينة تعز وسط الحشود الشعبية العارمة التى جاءت من مختلف ربوع اليمن لتحيته والاستماع إليه، فما أن بدأ خطابه حول الدور المصرى فى مواجهة تحديات العدوان التى تتربص بالثورة اليمنية إيمانًا بوحدة المصير العربى. . حتى مد ذراعه وأشار بسبابته نحو الجنوب، ثم فى صوت قوى كما الرعد قال: إن على الاستعمار البريطانى أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل من عدن!

كانت عبارة عبد الناصر لا تحتمل سوى معنى واحد مستقيم. . إيذانا بدعم مصر للثورة اليمنية الوليدة التى اندلعت منذ شهور فى منطقة «ردفان»، ونذيرا بتصعيد حرب العصابات ضد الإنجليز فى عدن.

لم تكن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية فى حاجة إلى تكليف رسمى بتوقيع عبد الناصر للنهوض بالمهمة، إذ سرعان ما تشكلت مجموعة عمل عسكرية ولوجستية ومخابراتية للإسهام فى دعم ومساندة قوى الثورة فى الشطر الجنوبى من اليمن، حيث اختارت لخطة التنفيذ اسما كوديا هو «صلاح الدين» تيمنا بالبطل الإسلامى خالد الذكر صلاح الدين الأيوبى محرر القدس وقاهر الصليبيين، فيما وقع الاختيار على مقر إدارة العمليات فى نفس المكان الذى شهد إعلان عبد الناصر حرب التحرير ضد الإنجليز على مشارف «تعز»!

فتحى الديب مسئول الشئون العربية برئاسة الجمهورية أسهم فى بداية التخطيط السياسى للعملية صلاح الدين، إذ كان له دوره السابق المشهود فى إدارة التواصل النضالى بين القوى السياسية والعسكرية والقبلية اليمنية التى كانت تتحفز لتفجير الثورة فى شمال اليمن، بينما كانت له إسهاماته من قبل فى إدارة عملية الدعم السياسى والإعلامى اللوجستى الذى قدمته ثورة ٢٣ يوليو للثورة الجزائرية، فكان مؤهلا بحكم خبراته السياسية للتعاون مع قيادة القوات المسلحة المصرية فى صنعاء - ممثلة فى اللواء عزت سليمان - لوضع العملية صلاح الدين موضع التنفيذ، وهو الذى خاض من قبل عملية إجهاض المخططات العدوانية ضد ثورة يوليو من قبل المخابرات الأمريكية وجهاز «السافاك» فى إيران!

٩٤- خطأ نابليون وهتلر

قيادة العملية صلاح الدين شرعت إلى تقييم الموقف فى الشطر الجنوبى من اليمن، حيث كانت قضية الشرعية والسيادة محسومة لصالح الاستعمار البريطانى، عبر هيمنة القوة وتزييف إرادة الشعب وفرض سياسة الأمر الواقع، فلم يكن للمشايخ والسلاطين فيما كان يسمى بالمحميات الشرقية والمحميات الغربية أكثر من سلطة التابع للسيادة البريطانية، ولأن عدن والمحميات كانت تعج عهدئذ بالأحزاب والروابط والقوى السياسية والنقابية - وأبرزها حزب رابطة الجنوب العربى، والمؤتمر العمالى، وحزب الشعب الاشتراكى، وحزب المؤتمر الدستورى، وحزب الاتحاد الوطنى، والاتحاد الشعبى الديمقراطى، إضافة إلى الجمعية الحضرمية والجبهة

القومية والمشتغلين وغيرهم من الجماعات السياسية فى حضرموت - من هنا كان قرار قيادة العملية صلاح الدين قصر التعامل السياسى والدعم العسكرى على القوى السياسية والقبلية الحادبة على الكفاح المسلح كآلية التحرير والاستقلال فحسب، واستبعاد كل من يرفض هذا الخيار ويراهن على الحلول السلمية عبر التفاوض مع الإنجليز ومصداقية وعودهم!

ولأن جمال عبد الناصر كان حريصا على تجنب الأخطاء الاستراتيجية التى وقع فيها نابليون ثم هتلر عبر فتح جبهة عسكرية ثانية مع روسيا ثم الاتحاد السوفيتى. . كذلك كانت المعادلة الصعبة تكمن فى شن المعركة ضد الإنجليز فى عدن مع تجنب الصدام المباشر مع القوات البريطانية بالتزامن مع الدعم السياسى والعسكرى للثورة فى شمال اليمن. . ولكن. . كيف ؟

لعل من مصادفات القدر السعيدة، حين أتيحت لى زيارة مقر العملية صلاح الدين فى تعز، وكانت قيادتها آنذاك تواصل نشاطها على صعيد التخطيط، أذكر بينهم الضابط محمود عطية والضابط عزت سليمان السفير فيما بعد، بينما كانت مجموعة أخرى من الضباط مشغولة بجمع المعلومات عن أوضاع القوات البريطانية فى الجنوب، ثم مجموعة الصاعقة المكلفة بالتجهيز لعمليات التفجيرات واغتيال أو اختطاف الإنجليز، وتدريب كوادر الثوار على حرب العصابات وبينهم حسن العجيزى ورجائى فارس ونبيل سعيد، والضابط المهندس فتحى أبو طالب الذى لا يزال يذكره تاريخ العملية صلاح الدين بالفخر والكفاءة، إذ كان صاحب الاختراع الخطير الذى دوخ الإنجليز وقتئذ، وكان قد توصل إلى تفجير العبوات الناسفة عن بعد عبر جهاز اللاسلكى.

مجموعة ثالثة من الضباط كانت مهمتهم تأمين العملية صلاح الدين من الاختراقات المعادية ورسم التوجهات السياسية والإعلامية والإشراف على تنفيذها، والبحث عن الحلول الصحيحة لما قد يطرأ من المشكلات وبينهم الضابطان فخرى عامر ورجائى فارس.

على أننى لن أنسى ما حييت عنف ضابط الصاعقة حسن العجيزى وكان الأكثر كفاءة وخبرة بشئون التدريب على حرب العصابات على مستوى القوات المسلحة

المصرية، إذ كان يختبر صلابة وقوة تحمل الثوار عبر القفز من السيارات وهى على سرعة ثمانين كيلو مترا، أو يغطس رءوسهم فى براميل المياه أطول مدة ممكنة حتى يكونوا مؤهلين لتحمل التعذيب فى حالة اعتقالهم بواسطة الإنجليز، وقد نجح على ناصر بتفوق فى اجتياز هذه التدريبات الشاقة، فكان مؤهلا بالتالى للالتحاق بدورة تدريبية عليا فى معسكر الصاعقة بأنشاص فى مصر. . وبعدها بنحو عشر سنوات كان على ناصر رئيسا لجمهورية اليمن الديمقراطى، وظل يزور حسن العجيزى بعد ترقيته إلى رتبة اللواء وبعد اعتزاله شخصيا أو عزله عن الحكم فى عدن!

ولعل من الأمانة سبر أغوار الوقائع التاريخية بدقة لكشف الحقيقة حول من بدأ الثورة فى جنوب اليمن، وهنا أدلى بشهادتى المتواضعة لعلها تسهم فى هذه المهمة، ومن ثم فليس صحيحا ما بادرت إليه حركة القوميين بالادعاء لنفسها مهمة تفجير الثورة يوم ١٤ أكتوبر ١٩٦٣، ومما يجزم بهذه الحقيقة أن حركة القوميين العرب رفضت فى البداية فكرة النضال المسلح كأداة لتفجير الثورة، وذلك أن اليمن جنوبا وشمالا كان يدرك أن جماهير منطقة ردفان التى عانت طويلا من الجوع والفقر والعرى والحرمان هى التى اختارت الثورة وسيلة وأداة لتغيير واقعها الأليم، وأن البطل الحقيقى الذى فجر الثورة هو الشيخ راجح بن غالب لبوزة، عندما حمل ورجاله السلاح وواجهوا الوجود البريطانى فى إقدام وشجاعة أسطورية.

والشاهد أنه بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ فى شمال اليمن استبشر أبناء الجنوب خيرا بدعم حكومة صنعاء لهم لمقاومة الوجود البريطانى. . وبالفعل ذهب إلى صنعاء مجموعة من أبناء الجنوب بقيادة راجح بن غالب لبوزة لبحث تنظيم العمل الفدائى ضد الاحتلال البريطانى، وعندما علم المندوب السامى البريطانى فى عدن بهذا صدر أمرا بمعاقبة كل من يتطوع أو يجند أو يدرب فى دولة أجنبية (يقصد صنعاء) وأعلن أنه سوف يحكم بالسجن على كل من يقدم على هذا التصرف بالسجن ٥ سنوات ويصادر سلاحه ويغرمه خمسة آلاف شان، ولم يكترث الشيخ راجح ورجاله للتهديد. . وبدأت حركة تمرد وعصيان واسعة فى جبال ردفان ضد هذا القانون. . فصنعاء بالنسبة لعدن ليست دولة أجنبية، هى جزء من الوطن، وفى يوم ١٢ أكتوبر ١٩٦٣ اصطدم راجح بن غالب بقوة بريطانية جاءت لمصادرة سلاحه

فرفض تسليم السلاح وقاوم إلى أن استشهد ومعه عدد كبير من أبناء ردفان، وانتشر هذا الخبر فتمردت القبائل فى ردفان وغيرها.

هكذا تواصل قتال أبناء ردفان وغيرها من القبائل مع قوات الاحتلال.. وبدأ العالم كله ينقل أخبار هذه الانتفاضة الشعبية.

ثم إن الحقيقة تؤكد كذلك أن قحطان الشعبى عندما كان مستشارا لحكومة صنعاء، وعقد مؤتمرا صحفيا أعلن فيه قيام الثورة فى الجنوب ونسب تفجير الثورة لحركة القوميين العرب، اعتبرت الحركة تصرفه فرديا ووصفته بالرعونة، ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة، أنه فى نفس هذا الوقت اجتمعت قيادة الإقليم لحركة القوميين العرب فى صنعاء واتخذت قرارا بإدانة تصرف قحطان الشعبى وقررت تجميد عضويته وأرسلت لجنة للتحقيق معه ومحاكمته تنظيميا، وفعلا ذهبت لجنة برئاسة على السلامى وكيل مجلس الشعب فى عدن فيما بعد إلى صنعاء لإجراء المحاكمة.. وما أن علم قحطان الشعبى بوصوله حتى فر إلى تعز وبقى مختفيا بعد أن علم أيضا أن بريطانيا رمت بقوة كبيرة إلى ردفان لسحق حركة التمرد بعد إذاعة البيان الأول عن الثورة المسلحة.

٩٥ ـ مصر وانتفاضة ردفان

فى تلك الظروف وبعد اشتداد قتال القوات البريطانية ضد أبناء ردفان وصلت بعثة عسكرية مصرية إلى صنعاء لبحث وسائل دعم أبناء ردفان، وبالفعل قدمت للمقاتلين دعما عسكريا كبيرا.

والحقيقة أنه منذ اليوم الأول لانتفاضة ردفان فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٣ كان لمصر دورها البارز فى مساندة الثوار الذين فجروا الشرارة الأولى للثورة الشاملة ضد الاستعمار البريطانى، إذ كانت صلات مصر المبكرة مع أبناء الجنوب اليمنى الفرصة المواتية لتصعيد المقاومة، حتى أمكنهم بالفعل هز الوجود الاستعمارى على امتداد ساحة الجنوب، وهو ما قفز بالقضية قفزات واسعة وسريعة على المستوى العربى والدولى سياسيا وإعلاميا جنبا إلى جنب مع تصعيد العمل النضالى المسلح!

كان واضحا أن الاستعمار البريطانى بدأ يتحرك منذ عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ نحو

قيام دويلة عميلة بالجنوب . . ومن هنا سارع بكل محاولاته السياسية لضرب الثورة المسلحة ، وبدأت حكومة المحافظين تدعو فى صيف عام ١٩٦٤ إلى مؤتمر بلندن . . بهدف احتواء قرارات الأمم المتحدة والإبقاء على القاعدة البريطانية فى عدن . . لكن المقاومة الشعبية التى أخذت تتعاظم أفشلت هذا المؤتمر ، واستطاع العمل المسلح الذى تصاعد على امتداد ساحة الجنوب أن يفشل أيضا مؤتمر لندن الثانى الذى دعت إليه بريطانيا ، بعد أن تسلمت حكومة العمال الحكم فى منتصف عام ١٩٦٥ .

وهكذا أعلنت بريطانيا صراحة أن الغرض الحقيقى من هذا المؤتمر هو الاحتفاظ بالقاعدة العسكرية وتسليم السلطة فى الجنوب إلى حكومة موالية ، لكن الظروف الصعبة التى كان يعيشها شعب الجنوب آنذاك كانت من أهم عوامل استمرار وتوسيع مساحة المقاومة وتحول القتال التلقائى من ردفان إلى عمل عسكرى منظم ومتكامل ، وفتح جبهات جديدة للنضال المسلح فى الضالع والحواشب . بالإضافة إلى عدن . . ثم شملت الثورة كل الجبهات بعد أن امتد القتال إلى الصبيحة بسلطنة لحج وحالمين والشعيب .

إذن فثورة الجنوب لم تفجرها الجبهة القومية . فقد كان قادتها مترددين فى الانخراط بالمقاومة الشعبية . . ثم جاء دورها لاحقا فى الكفاح المسلح بعدما فشل الاحتلال فى إجهاض واحتواء الانتفاضة .

٩٦ـ راعى الغنم وزيرا للدفاع

أذكر خلال زياراتى للعملية صلاح الدين فى تعز أن كان من حسن حظى المبكر التعارف على على عنتر الذى أصبح فيما بعد وزيرا للدفاع فى اليمن الديمقراطى ، وكان آنذاك شابا بسيطا وعفويا ، وعلمت منه أنه بدأ حياته راعيا للأغنام فى جنوب اليمن ، ثم عمل من بعد «فراش» فى الكويت بعد أن أمضى فترة عامل بناء فى السعودية ، ولم تكن له فترة تدريبية على حرب العصابات قبيل انتظامه فى العملية صلاح الدين ولا كانت له علاقة سياسية أو تنظيمية فى البداية مع حركة القوميين العرب ، لكن ما أن انضم إليها حتى تغير فكريا وسياسيا بنحو ١٨٠ درجة وسبق غيره فى التنظيم !

ولعله يذكر من قبيل التوثيق التاريخى أن مصر كانت على اتصال مع قيادات الكفاح المسلح فى الجنوب اليمنى قبل زيارة جمال عبد الناصر لمدينة تعز، وهم عبد الله المجعلى، بن ليل بن راجح لبوزى، محمد غالب لبوزى القطيبى، محمد ناصر الداعرى، عبد القوى بن ناجى، فضل محمد حجيلى، فضل عبد الكريم الداعرى، ثابت محمد البقلى عبد الله، هايل خالد حجيلى، وعبر تلك القيادات تسربت أول دفعة من الأسلحة المصرية سرا إلى منطقة ردفان قوامها ٣٠٠ بندقية حديثة مع ذخيرتها فكان اندلاع شرارة الثورة يوم ٢٧ يناير ١٩٦٣، عبر كمين نصبه الثوار لدورية من الجيش البريطانى أثناء مرورها فى ناحية ذى ردم التابعة لمنطقة المجلاوى بردفان، وتكبدت خسائر جسيمة فى الأفراد والأسلحة، حيث أعلن قيام جبهة تحرير اليمن الجنوبى المحتل أسوة بجبهة التحرير الجزائرية، لكن ظلت المشكلة التى تواجه الثوار ثم الجبهة بعد ذلك تكمن فى أن ما لديها من السلاح والذخيرة المصرية لم تعد تكفى لمواصلة النضال.

فى ذلك الوقت على وجه التحديد كنت وزميلى جمال حمدى الصحفى بمجلة روز اليوسف قد وقع علينا اختيار رئيس التحرير الأستاذ إحسان عبد القدوس للعمل مراسلين عسكريين معتمدين لأول مرة، وكنت قد وصلت صنعاء بالفعل قبل ذلك بشهور، حيث كانت مهمتنا متابعة وقائع الثورة التى اندلعت فى شمال اليمن، لكن ما إن وصلنا صنعاء حتى اختار جمال حمدى الانفراد بتقصى وقائع الثورة فى جنوب اليمن!

٩٧ـ الكولونيل جمال حمدى

ثم يأتى التسلسل الزمنى للحديث عن «الكولونيل جمال حمدى»، وهو صديقى وزميلى، وهو كان شخصية عذبة وطموحة ومغامرة، فهو قد شارك فى النضال الوطنى ضد الملكية والاستعمار البريطانى فى مصر، وسبق اعتقاله بتهمة العيب فى الذات الملكية ولم يزل فى الثالثة عشرة من عمره، وهو خريج قسم صحافة دفعة ١٩٦٠، وكان بطل الجامعات فى الملاكمة فى الوزن الثقيل، ومنذ بدأ العمل فى روز اليوسف عام ١٩٥٩ كان طريقه سالكا لإشباع عشقه للمغامرات

وخوض الصعاب، فكان أول صحفى يقتحم القاعدة البريطانية فى قبرص حيث قدم للعالم الكثير من الحقائق المصورة من داخلها، ثم كانت خبطته الصحفية الناجحة عندما اشترك مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى التفجيرات التى شهدتها إحدى المعسكرات الإسرائيلية، وبعدها كان جمال حمدى يتابع معنا حرب أكتوبر ١٩٧٣ وكان الصحفى المصرى الوحيد الذى تابعها ميدانيا من الجبهة السورية، إلى ذلك فقد كان - يرحمه الله - ممثلا فى عدة أفلام سينمائية ومخرجا لعدة أفلام تسجيلية، فضلا عن كونه مصورا بارعا، أقام العديد من المعارض لإبداعاته ونال الميدالية الذهبية للتصوير من شركة «كوداك»!

على أن جمال حمدى انكشف أمره للإنجليز بعد دخوله عدن عبر بريطانيا، رغم أن مراسل رويترز تنازل له عن بطاقته الصحفية الدولية وكانت بدون صورة له وهو الصحفى السودانى المرموق محمد ميرغنى - يرحمه الله - وهو نفس الدور الذى تكرر معى وأشرت إليه فى كتابى «السودان وأهل السودان - أسرار السياسة وخفايا المجتمع»، وهكذا عاد جمال أدراجه إلى صنعاء، ومنها سافر إلى الحديدة بصحبة المناضل سعيد الحكيمى ونجوى مكاوى قائدة الميليشيات النسائية فى عدن حتى يدبروا إجراءات سفرهم بحرا عبر الانضمام إلى طاقم باخرة كانت متوجهة إلى ميناء عدن، لكن ربان الباخرة رفض اصطحابهم عندما عرف نواياهم خشية مصادرة الإنجليز للباخرة . . حتى حين تدخل مالك الباخرة التابعة لشركة «جميل» لإقناع ربان الباخرة باصطحابهم، إلا أنه أصر على موقفه .

فى صنعاء التقى جمال حمدى بالضابط المصرى العقيد عبد المنعم خليل الذى أدرك إصراره على دخول عدن مهما كلفه الأمر حتى حياته، ووجهه للسفر إلى تعز والاتصال بمقر العملية صلاح الدين، وهناك التقى بضابط المخابرات المصرية فخرى عامر الذى نصحه بأن يطيل لحيته وأن يحاول إتقان اللهجة اليمنية دون أن يفهم لذلك سببا، ومضى نحو شهر وجمال حمدى يخضع لاختبارات أمنية ونفسية وبدنية دون أن يفهم لذلك سببا . . وحتى كان اليوم الموعود حين أفضى فخرى عامر إليه بعرض راق لجمال وابتهج له ونام ليلتها لأول مرة قرير العين كما صرح لى بعدئذ!

والحكاية أن مئات المناضلين من شباب شطر اليمن الجنوبى تحت قيادة راجح بن غالب لبوزة أبرز مشايخ قبائل ردفان، كانوا قد زحفوا بأسلحتهم القديمة صوب الشمال وخاضوا غمار الدفاع عن الثورة السبتمبرية فى مواجهة حشود القبائل الملكية والمرتزقة، خاصة فى مناطق البيضاء وحجة والمحابشة وهو نفس الدور الذى قاموا به عام ١٩٦٧ فى ملحمة صمود صنعاء فى مواجهة جحافل الملكيين والمرتزقة الأجانب على مدى سبعين يوما متصلة، وبعدها كان عليهم العودة إلى ردفان لتفجير الثورة فى الشطر الجنوبى!

فلما فشل عملاء الإنجليز فى إخمادها عبر ألف جندى تدعمهم المدرعات والطائرات العسكرية، إذ كان أحد عملاء الإنجليز قد استيقظ ضميره وأفشى خطة اجتياحهم المتوقعة لردفان، وإلى حد نجاح الفدائيين فى إسقاط طائرة بريطانية قاذفة، وعندئذ كانت الحملة الثانية أكثر قوة وشراسة، وتصدى لها الشيخ غالب حتى استشهد، وخلفه فى القيادة ابنه «بالليل» ولم يكن قد تجاوز العشرين عاما.

٩٨ـ الجمال تحمل السلاح إلى ردفان

كان الثوار فى سباق مع الزمن، فإما أن تجتاحهم القوات البريطانية وجيش الاتحاد بقوة وشراسة مع ضعف تسليحهم، وإما أن يحصلوا على السلاح والذخيرة بكميات كبيرة بعد أن امتدت شرارة الثورة لتشمل مختلف ربوع ردفان و.. تلك على وجه التحديد كانت المهمة المطلوبة من جمال حمدى، وعليه أن ينفذها على وجه السرعة، خاصة بعد أن أغارت الطائرات العسكرية البريطانية على منطقة ردفان وهدمت ٨٥ قرية وأحرقت جميع الزراعات.

من هنا كانت عناية العملية صلاح الدين بإمداد الثوار بكل ما تخلف من سلاح وعتاد وذخيرة القوات البريطانية بعد انسحابها من قاعدتها العسكرية فى قناة السويس، ونقلها بالطائرات تباعا إلى تعز، ومنها سرا إلى ردفان عن طريق البر، فإذا قدر للإنجليز ضبط هذه الشحنة الضخمة، عندئذ تستطيع القاهرة إنكار صلتها بها حيث كان تسليح الجيش المصرى قد تحول من الترسانة الغربية إلى الترسانة الشرقية عقب صفقة الأسلحة السوفيتية الشهيرة!

كذلك كان اختيار جمال حمدى لقيادة قافلة من مائة جمل تحمل هذه الكميات الضخمة من السلاح تربو على خمسين طنا إلى ردفان، باعتباره مدنيا وصحفيا فحسب، والادعاء فى حال اعتقال الإنجليز له بأنه ليست له أدنى صلة بالقوات المسلحة المصرية.

والحقيقة أن خط سير القافلة من تعز إلى ردفان كان مجهولا لقيادة العملية صلاح الدين إلى حد ما، كما كانت العواقب مجهولة أيضا.. إذ كان يلزم وفقا للأعراف والتقاليد الاستئذان مسبقا من مشايخ القبائل المتعين أن تمر القافلة فى المناطق التى يسيطرون عليها، وهذا لم يحدث بالنسبة للبعض، فيما كان بين مشايخ القبائل من تربطهم صلات العمالة بالإنجليز.

فلما جاءت ساعة الصفر كان ضباط العملية صلاح الدين فى وداع القافلة يتقدمها جمال حمدى وهو يرتدى الزى الشعبى فى جنوب اليمن.. العمامة والفوطة «الكشيدة»، حيث انطلقت إلى مهمتها يوم ٤ يونيو عام ١٩٦٤ صوب «ردفان»، فكانت القافلة التى تضم مائة جمل بحمولتها من السلاح والذخيرة تحث السير فى مجموعات متباعدة بعد غياب الشمس، ثم تتوقف المسيرة وتهجع إلى الكهوف الجبلية عند مطلع الفجر، حتى اكتشف جمال حمدى أن رفيقه ودليله «بالليل» يجهل مسالك الطريق، وأنه مختلف عن الطريق الذى دأب الثور على سلوكه بعيدا عن قلعة «حلين» المملوكة لأمير الضالع الموالى للإنجليز!

يوما شك جمال حمدى فى أحد الأدلاء من بين الثلاثمائة يمنى الذين رافقوه، وبينهم من يتولى الحراسة أو العناية بالجمال، ورفع بندقيته فى وجهه وإصبعه على الزناد، وانهارت معنويات ذلك المشكوك فى ولائه وجثا يقبل قدميه، ثم أفضى بما لديه من معلومات هامة، أسفرت عن تغيير مسار الرحلة، والإفلات من الكمائن المسلحة التى أعدها عملاء الإنجليز.

٩٩- إذاعة الـ بى بى سى

كنت آنذاك فى صنعاء وكانت خطيبة جمال حمدى الزميلة نرمين القويسنى الصحفية بروز اليوسف فى القاهرة، وكذا ضباط العملية صلاح الدين فى تعز

نواصل الاستماع تباعا إلى نشرات أخبار وتقارير الإذاعة البريطانية «بى . بى . سى» الناطقة بالعربية وهى تتابع مهمة جمال حمدى بعد أن خلعت عليه رتبة الكولونيل باعتباره ضابطا فى القوات المصرية، ثم ندعو له بالتوفيق والنجاة!

ومن حسن الحظ أن معلومات «بى . بى . سى» كانت مغلوطة ومبالغ فيها، حين نسبت إلى الكولونيل جمال حمدى تقدمه صوب اختراق الجنوب اليمنى على رأس قوة عسكرية مصرية كبيرة عند منطقة يافع السفلى، الأمر الذى أدى إلى تكثيف طلعات الطائرات البريطانية من جهة، وانسحاب القوات البريطانية من مناطق البكرى وجبل جبر والعرقوب ووادى تيم الذنبة فى ردفان، فى الوقت الذى اكتشفت المخابرات البريطانية فى عدن تنظيما سريا مواليًا للثورة داخل صفوف «جيش اللوى» العميل التابع لاتحاد إمارات الجنوب، وهو ما أدى إلى استبعاد عشرات الضباط ومئات الجنود الوطنيين واستبدالهم بالعملاء الذين جرى تدريبهم سريعا على حمل السلاح . . ولأنهم كذلك كانوا غرباء على المنطقة . . الأمر الذى أسفر عن فشل العمليات العسكرية للثورة المضادة، وإلى تردى الروح المعنوية لأفراد القوات البريطانية، حيث ابتكر ثوار ردفان آنذاك أسلوبا قتاليا يعتمد على المفاجأة بإطلاق النار مصحوبة بالصرخات المفزعة على غرار ثوار فيتنام!

على أى حال فقد كانت للعملية صلاح الدين وتكليفها جمال حمدى بمهمة نقل السلاح من تعز إلى ردفان انعكاسات شتى وعلى كل صعيد، بريطانيا العظمى التى لم تكن الشمس قد غربت عنها بعد فشلت فى الإمساك بدليل يدين مصر بتحريك الثورة ضدها أو دعمها فى الجنوب اليمنى، وتركت المهمة لإذاعاتها وصحفها للتنديد بالوجود المصرى فى اليمن فحسب على غير إرادة شعبها والإخلال بالأمن والاستقرار فى المنطقة، بينما كانت بعض القبائل فى اليمن لا تصدق أن مصر البعيدة آلاف الأميال عن اليمن بإمكانها مساعدتهم على التحرر من الاستعمار البريطانى، وأن الأمان والسلامة فى التعاون معه!

من هنا كان وصول جمال حمدى وهو يتقدم الثوار إلى ردفان وكم السلاح الذى تحمله قافلة الجمال، بمثابة انقلاب ثورى فى تغيير مفاهيم الخضوع والتبعية، والدعوة إلى الانضمام للثورة، فكانت الحفاوة التى استقبلت القافلة مفعمة بكل معانى الحماس والحب والتشجيع!

وهكذا بعد ١٨ يوما من الأهوال والمآزق والمفاجآت وصلت القافلة إلى ردفان، وناخت الجمال لتضع حملها من السلاح والذخيرة فى قرية «السورق»، وحمل الأهالى جمال حمدى وسط التقبيل والأحضان والهتاف بحياته، لكنه استأذن الجميع فى أن يخلد إلى النوم والراحة من الإرهاق، حيث اصطحبه بالليل بن راجح ومعه ثلاثة من إخوته وأعوانه، وفى منزل عائلتهم كانت شقيقتهم نعمة فى استقبالهم وقدمت لهم الطعام!

١٠٠ ـ الشيخ البكرى والفتاة الردفانية

يروى جمال حمدى فى تحقيقاته الصحفية التى نشرتها مجلة روز اليوسف، وكذا فى مذكراته الكثير من الوقائع المثيرة التى تمكن من تصوير بعضها بنفسه، وكانت بمثابة سبق صحفى كبير بكل المعايير:

صورة الشيخ عبد الكريم البكرى.. ثم يعلق عليها قائلا «جذب انتباهى مشهد غريب، رجل طاعن فى السن يحمل مدفعا رشاشا ضخما وإلى جواره كانت تجلس فتاة تحمل السلاح هى الأخرى.. إنها الفتاة الردفانية.. إحدى الأسطورات التى تعيش الآن فوق جبال ردفان.. أما الرجل المسن فهو الشيخ عبد الكريم البكرى.. رجل أدى فريضة الحج فى العام الماضى ووقف فى المدينة المنورة أمام قبر الرسول وأقسم بأنه لن يسمح ليده التى تلمس الآن قبر الرسول بعد اليوم بأن تصافح إنجليزيا.. لكنها سوف تطلق الرصاص إلى صدور جنود بريطانيا وضباطها.

ويعود الشيخ البكرى لينسى العداء القديم لقبيلة القطيبى التى قتلت والده فى عام ١٩٣٩م ويبدأ فى مد يد العون لها بالسلاح والذخيرة، وهو ما أزعج الإدارة البريطانية ودفعها إلى إرسال خطاب إليه تطلب فيه تسليم ابنه كرهينة لمدة أربع سنوات، فما كان منه إلا أن بعث إليها بالرد التالى: أن أبناء قبيلة البكرى بوصفهم جزءا من أبناء منطقة ردفان لا يقبلون بوجود أية قوات إنجليزية فيها وأن قبيلة البكرى تنذر حكومة الاتحاد بأنها إذا لم تسارع فى سحب هذه القوات الأجنبية من أرض ردفان فإن أبناء البكرى سوف يقومون بإهلاك هذه القوات.

وبالفعل قامت قبيلة البكرى فى اليوم التالى بضرب القوات الإنجليزية الموجودة فى مركز «نقيل رأس الربوة» حتى أجلتها عن المنطقة.

قصة أخرى وشخصية مختلفة هى «نور ناصر» المرأة الثائرة التى حصدت أرواح سبعة جنود بريطانيين، وقد بدأت القصة عندما هاجمت القوات البريطانية قرى قبيلة البكرى واقتحمت منزل محسن يحيى البكرى وقامت بقتله أمام زوجته.

يجن جنون الزوجة فتهجم على أحد الجنود البريطانيين فى غضب وشراسة وشجاعة نادرة ثم تخطف سلاحه.. وفى سرعة البرق تطلق نيران الرشاش الذى استولت عليه لتردى سبعة جنود بريطانيين قتلى فى الحال.. ثأرًا لزوجها الشهيد.

ولم تنته القصة عند هذا الحد فقد أخذت البطلة «نور ناصر» إلى أحد السجون ولقيت ألوانا من التعذيب حتى أصيبت ساقها وقطعت واستمر تعذيبها حتى لقيت ربها فى السجن، ولعل من مفارقات القدر أن تصاب ساق جمال حمدى بعد ذلك عام ١٩٩٤ بمرض فى ساقه أفضى إلى بترها، وقد صحبت الأخت جميلة على رجاء الملحقة الصحفية آنذاك بسفارة اليمن إلى المستشفى الذى كان يرقد فيه ومعها طاقم التليفزيون اليمنى، حيث أجرت معه حوارًا حول العملية صلاح الدين ودوره فى نقل السلاح إلى الثوار فى ردفان، ثم راح يبكى منفعلا وهو يحكى عن دوره القومى الجسور!

شخصية أخرى هى «دعرة سعيد» الفتاة الردفانية ذات الثمانية عشر ربيعا التى أصرت على الانضمام إلى الصفوف لتحارب داخل جبهة الثورة، وتقول دعرة إن انضمامها للثوار لن يقرب النصر ولكنها تصر على ذلك لتأكيد شىء واحد هو أن تثبت للعالم أنه ليس رجال ردفان الذين يقاتلون الإنجليز وحدهم بل النساء أيضا، وهى قد ظلت تحمل السلاح وتناضل مع إخوتها حتى تم الاستقلال ثم شاركت فى قتال المرتزقة الأجانب وقوات الإمام البدر عندما حاصرت صنعاء وسميت بحروب السبعين يوما.

جدير بالذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر منح دعرة سعيد رتبة الملازم أول وأهداها بندقية تفخر بها إلى يوم، وقد حصلت على رتبة عقيد فى الجيش اليمنى بعد الوحدة والطريف فى شخصية دعرة أنها ظلت ترتدى ملابس الرجال طوال

عمرها ولا تعترف بملابس النساء، وتقول إنها تزوجت اثنين ثورة ٢٦ سبتمبر وثورة ١٤ أكتوبر.

ثم يعود جمال حمدى إلى «نعمة» التى سبق واستقبلته بحفاوة وقدمت له الطعام وكانت هى من طلبت استمرار الهدنة بين قبيلتها وقبيلة أخرى فى يافع العليا وتوسلت فى حضوره أن يعمل على استمرار الهدنة كى يلتفت الجميع لقضية الوطن الأكبر.

ثم يصف جمال حمدى هذا الموقف من نعمة بتقدير بالغ وقد أخذ لها صورة بالبندقية فى عام ١٩٦٤م وعندما زار قرية السورق بعد ثلاثين عاما التقط لها صورة أخرى بنفس البندقية.

ويروى جمال حمدى كيف استسلم للبكاء عندما شاهد آلاف المشردين من جراء قصف الطيران البريطانى لقرى ردفان وكان قد تمكن الجوع من أجسامهم الهزيلة، بينما عشرات الأطفال وقد تحولوا إلى هياكل عظمية، وشاهد كبار السن وقد تساقطوا فوق الصخور كالذباب!

والشاهد أن جمال حمدى عندما انتهت مهمته القومية وعاد إلى القاهرة، فقد كان حريصا على أن تكون أول وجهة له هى منزل خطيبته نيرمين القويسنى بمصر الجديدة كنوع من الاعتذار والترضية لتأخره عن موعد الزفاف شهرين فقط.

على سلم العمارة نادى على الشغالة «أم علية» وكان الوقت السادسة صباحًا وتخرج أم علية لترى من الزائر وراحت تحدق فى جمال ثم أخبرت أهل المنزل بأنه «واحد عسكرى» فصرخ فيها قائلا:

«أنا جمال يا ولية».

فأطلقت أم علية زغرودة وصاحت قائلة «العريس وصل».

تلك كانت الملحمة الثورية القومية التى خاضها الزميل الصحفى وصديق العمر الجميل المرحوم جمال حمدى، وهى كانت محور تفاهم واتفاق بين وزارة الإعلام المصرية ونظيرتها إبان نظام اليمن الديمقراطى على تحويلها إلى فيلم سينمائى، حيث شرع جمال حمدى بالفعل إلى كتابة سيناريو الفيلم الذى تأجل مشروعه إثر

التطورات التى تمخضت عن أحداث ١٣ يناير الدامية فى عدن يوم ١٣ يناير ١٩٨٦ وقيام الوحدة اليمنية ثم رحيل جمال حمدى، ونحسب أن مشروع الفيلم ما زال يفرض ضروراته السياسية والقومية، ولا يحتاج سوى لفتة انتباه وقرار سيادى من الرئيس على عبد الله صالح، أسوة بأسطورة البطل اليمنى المغوار سيف بن ذى يزن الذى حرر بلاده من الأحباش فى «عام الفيل»، وجرى إنتاجها مسلسلا تليفزيونيا ضخما تكلف ملايين الدولارات مشاركة بين المؤسسة العامة للإذاعة والتليفزيون اليمنى وإحدى الشركات اللبنانية وكتب قصتها المؤرخ اليمنى مطهر الإريانى!

١٠١ - هنا إذاعة تعز

كأى عمل سياسى نضالى كبير، كانت العملية صلاح الدين التى استهدفت دعم الثورة فى جنوب اليمن للتحرر من الاستعمار البريطانى، فى حاجة إلى أن تواكبها آلية إعلامية قوية، لتنوير الجماهير وحشدها للتفاعل معها، والهجوم على خصومها وفضح مخططاتهم وأساليبهم الاستعمارية، ورفع الروح المعنوية للثوار عبر التنويه بمعاركهم وانتصاراتهم.

من هنا كانت عناية القوات المسلحة المصرية فى اليمن إنشاء أول إذاعة تبث برامجها فى أقرب مكان من ساحة المواجهة، فكان اختيار مدينة تعز، واختيار محمد الخولى المذيع الشاب فى صوت العرب للنهوض بالمهمة، ولعلنا من هنا نتساءل عن دوافعه الشخصية التى أملت عليه القيام بهذه المهمة وذكرياته عنها.

يقول محمد الخولى: تم تكليفى بإنشاء إذاعة تعز، وتم سفرى بالطائرة العسكرية إلى تعز وأقمت فى دار الضيافة الحكومية والتقيت بمهندس الإرسال وبدأنا نجمع مسجلات وشرائط غنائية من سوق تعز، واقتنع الناس بالفكرة وقدموا كل المساعدات اللازمة.. وذهبت إلى محل اسمه «شائف إخوان» وقدمت له نفسى فقال صاحب المحل: إنه يعرفنى من خلال إذاعة صنعاء وشرحت له المهمة التى جئت من أجلها وطلبت منه جهازى تسجيل وبعض الأشرطة فأحضرها لى متطلعا إلى الثمن، فقلت له ليس معى نقود لأدفع لك، فتبرع بها الرجل فكانت النواة لمكتبة إذاعة تعز، كذلك أحضر لى شرائط غنائية من صهره الذى يهوى أغانى ليلى مراد.

وبدأنا الإرسال لمدة ساعة يوميا وبدأ الناس يستمعون لـ «إذاعة الجمهورية العربية اليمنية من تعز» وكان مدير الإذاعة ومذيعها الأول ومعد المواد الإذاعية يكمن فى التكليف الذى صدر لى رسميا.

كانت مواد الإذاعة موجهة بالدرجة الأولى لمهاجمة الاستعمار البريطانى وعملائه فى جنوب اليمن، وكانت عبارة عن تعليقات إخبارية ولقاءات وبرامج ترفيهية واجتماعية مثل «ما يطلبه المستمعون» وفقرات غنائية.

أستطيع الآن أن اعترف بأننى كنت أمارس القرصنة على مواد الإذاعات الأخرى للدول المجاورة مستخدما راديو «سونى» أهدانى إياه كذلك صاحب محل بيع المسجلات «شائف» وكنت أقوم بتسجيل أغانى عبد الوهاب وليلى مراد وأغان من الخليج وأغان يمنية وغيرها.

بعدها تلقيت تهديدات بالفعل من شريف بيحان وبعض السلاطين فى إمارات الجنوب وما زلت احتفظ ببعضها. كل هذه التهديدات كانت من أجل إسكات هذا الصوت الذى فوجئوا به من تعز لأن الإذاعة كما ذكرت كانت موجهة تماما لمواجهة الاستعمار الإنجليزى ودعم ثورة الجنوب التى كانت مشتعلة منذ العام ١٩٦٣م ثم تأججت فى ردفان بعد خطاب الرئيس جمال عبدالناصر فى مدينة تعز عام ١٩٦٤، وأذكر أننى داومت على تسجيل مقابلات وكلمات لبعض قيادات الثورة من جنوب اليمن، وكان لهم مقر فى جبل صبر المطل على تعز فضلا عن التسجيلات التى كنت أسجلها مع كل مسئول يأتى من صنعاء وكلها تصب فى اتجاه واحد هو دعم وتشجيع قوى الثورة التحريرية فى جنوب اليمن.

١٠٢ - عملاء فى مكتب الاستعلامات الأمريكى

شتاء عام ١٩٦٦ كنت نزيلا فى بيت الضيافة التابع لإدارة الشئون العامة والتوجيه المعنوى بالقوات المسلحة المصرية فى اليمن، وكان عبارة عن شقة متواضعة بالدور الثانى فى عمارة تقع بشارع الزبيرى على بعد خطوات من ميدان التحرير فى صنعاء، وإذا بوافد جديد يشاركنى غرفتى وهو الزميل عبد الوهاب دنيا الكاتب الصحفى بجريدة التعاون المصرية، وكان قد كتب مقالا ناشد فيه المشير

عبد الحكيم عامر الموافقة على سفره إلى اليمن لمتابعة تداعيات ثورته، ولأنه كان قد فقد بصره تماما إثر ابتلائه بمرض خطير فى عينيه، من ثم وقع الاختيار على زميله منير القصبى الصحفى بجريدة التعاون حتى يرافقه فى رحلته إلى اليمن.

كانت حالة الطوارئ مفروضة على صنعاء آنذاك، فكان كل شيء يتوقف تماما عن الحركة عندما يحين موعد فرض حظر التجول فى السابعة مساء، وكان وراء هذه الظروف الاستثنائية ما كشف عنه العميد محمد الأهنومى وزير الداخلية حول القبض على شبكة تجسس خطيرة لحساب إسرائيل وأمريكا مركزها عدن وآخر فى أسمرة وثالث فى بيروت.

وكان عبد الرحمن جابر مدير مكتب المشير عبد الله السلال رئيس الجمهورية قد أبلغ سلطات الأمن عن محاولة لشرائه وتجنيده فى الشبكة مقابل مبلغ مالى كبير، على أن يمد عملاء الشبكة أولا بأول بأسرار ما يجرى فى القصر الجمهورى، فيما تزامن تسليم قيادة الجبهة القومية فى جنوب اليمن لسلطات الأمن بصنعاء عميلا مشبوها يدعى فاروق فيدامه من منطقة «الضالع» حيث أدلى باعترافات تفصيلية حول دوره كحلقة اتصال بين المتهمين فى حوادث الاغتيالات والتخريب التى شهدتها صنعاء أواخر عام ١٩٦٦، وقيل وقتئذ إن محمد الرعينى المستشار السابق لرئيس الجمهورية لشئون القبائل كان ضالعا فى هذه الشبكة وفى هذه الحوادث.. حيث تمت إدانته وحكم عليه بالإعدام رغم تاريخه النضالى الوضىء!

وفى تصريح صحفى للعميد محمد الأهنومى.. قال إن الشبكة يرأسها رجل من أصل لبنانى، كان قد وصل إلى اليمن مع بداية الثورة وافتتح محلا للتصوير فى صنعاء، وادعى أنه ينتمى إلى قبيلة «الحرازى» اليمنية، واستطاع بالفعل تجنيد بعض المدنيين والعسكريين كان يرأسهم مقدم فى سلاح المدفعية.

وعلى ما يبدو أن هذا المقدم أدرك أنه تورط أو أنه مراقب من قبل الأمن، ومن ثم ادعى السفر للعلاج بالقاهرة مرورا بأسمرة على غير العادة، ثم ثبت من واقع التحقيق معه أن قيادة الشبكة استدعته إلى أسمرة لمناقشته فى المعلومات العسكرية التى كان قد بعث بها من صنعاء!

وكانت أجهزة الأمن اليمنية قد سهلت له استخراج جواز السفر والحصول على

تأشيرة الخروج، وفى اللحظة المناسبة تم القبض عليه وعلى المصور زعيم الشبكة، حيث قدما إلى المحاكمة عام ١٩٦٤ وحكم عليهما بالإعدام، لكن بعض المرجعيات القبلية والسياسية والعسكرية اليمنية تدخلت فى القضية وتم الإفراج عن المقدم، وأبقوا على المصور فى السجن لإعدامه وحده!

وكان وزير الداخلية قد اختتم تصريحه قائلا إن السفارة الأمريكية اتصلت بوزارة الخارجية اليمنية محتجة على إقحام اسم أمريكا فى قضايا التجسس والتخريب التى عرضت على محكمة أمن الدولة العليا عام ١٩٦٦، ومن ثم قامت المحكمة بتسليم السفارة - عن طريق الخارجية - مجموعة من التسجيلات الصوتية لاعترافات المتهمين وكذا الصور والوثائق التى تؤكد عمالتهم للمخابرات الأمريكية.

والشاهد أن هذه الواقعة بحذافيرها رحت أرويها على عبد الوهاب دنيا فى معرض تنويره بالأوضاع السياسية والأمنية الراهنة فى اليمن، وبين حين وآخر أنهض إلى نافذة الغرفة لمشاهدة صنعاء من باب الترويح عن النفس، حتى لمحت وسط السكون وتوقف الحركة فى شارع الزبيرى بالباب «الصاج» ينفتح من داخل أحد المحلات التجارية فى المبنى الذى كانت تشغله القنصلية الجزائرية، وخرج رجلان يرتديان الزى اليمنى وأغلقا الباب «الصاج» من الخارج، ثم دخلا إلى مبنى القنصلية الجزائرية، ثم رأيتهما يمشيان على سطح العمارة حتى وصلا إلى سطح العمارة التى تضم مكتب الاستعلامات الأمريكى وكان مضاء بالكهرباء وقتئذ، حيث فوجئت بالرجلين وهما يدخلان ويلتقيان بأحد الموظفين الأمريكيين، حيث تقدم نحو نافذة الغرفة لإسدال الستار!

هكذا رويت ما شاهدته على عبد الوهاب دنيا بالتفصيل أولا بأول كما لو أننى أصف مباراة لكرة القدم. . وقلت له: تساورنى الظنون أن هذين اليمنيين ضمن شبكة التجسس التى أعلن عنها وشهد اليمن محاكمة الضالعين فى ارتكاب حوادث الاغتيالات والتخريب.

على أنه لم تمض سوى أقل من ساعة حتى رأيت أحد الرجلين يعود وحده من مكتب الاستعلامات الأمريكى. . ويفتح الباب الصاج من الخارج ويغلقه على نفسه من الداخل. . وهنا تضخمت ظنونى إلى حد اليقين، وسألت عبد الوهاب

دنيا إن كان يوافقني على الاتصال بالقيادة العامة للقوات المصرية في صنعاء حتى أنقل لها ما رأيت و. . وافقني على ذلك.

وعبر التليفون الميداني في بيت الضيافة رفعت السماعة وجاء صوت الجندي المكلف بالرد على المكالمات. . وطلبت منه أن يوصلني بأي مسئول في القيادة لأمر بالغ الأهمية. . وحتى جاء صوت أحد الضباط ورويت عليه ما حدث. . وأمهلني لحظات. . ثم قال: سوف نأتي إليك حالا. . والمطلوب منك أن تواصل مراقبة الموقف.

لم يمض سوى نصف ساعة حتى كان مبنى القنصلية الجزائرية ومكتب الاستعلامات الأمريكي وقد طوق بالسيارات المدرعة وفصيلة من جنود الصاعقة المصرية بقيادة رائد اسمه عباس وهو كان من أصول سودانية. . وعندما صعد إلى بيت الضيافة وعرف أنني الذي طلبت من قيادة القوات المصرية التحرك. . قال ربنا يستر وما يطلعشي بلاغك كاذب!

المهم أنه جرى التهديد بالسلاح حتى رفع اليمني الباب الصاج من الداخل. . وتم القبض عليه. . فيما كان عليَّ إعداد حقيبتي للسفر فجرا إلى القاهرة.

وتشاء مصادفات القدر أن التقي في القاهرة بعد نحو شهر بضابط الصاعقة عباس في كافيتريا «داى اند نايت» بفندق سميراميس القديم. . وسألته في لهفة عما أسفر عنه التحقيق في الواقعة التي أبلغت عنها. . وقال: سألنا عنك في اليوم التالي حتى نشكرك على قيامك بالواجب وتبين أنك سافرت إلى القاهرة. . فقد اتضح من التحقيقات التي شارك فيها الأمن اليمني أن المتهمين ضالعون تحديداً في حوادث الاغتيالات التي طالت أفراداً من قواتنا المسلحة في اليمن، من بقايا شبكة التجسس لحساب أمريكا!

١٠٣ ـ عبد الناصر يرفض اللقاء في عرض البحر

بعودة المشايخ الجمهوريين إلى اليمن عقدوا مؤتمر «الجند» للتداول حول ما جرى الاتفاق عليه في السعودية، وأصر الرئيس عبد الله السلال على حضور المؤتمر وإلقاء خطبة، لكنه اضطر إلى الانسحاب أمام مقاطعة بعض خصومه من المشايخ.

على أنه لم يمض من الزمن سوى أسابيع حتى كان اللقاء بين عبد الناصر والملك فيصل صيف عام ١٩٦٤ خلال انعقاد مؤتمر القمة الثانى بالإسكندرية، ثم الإعلان فى ١٦ أغسطس ١٩٦٥ عن لقاء قمة مرتقب بينهما للبحث عن حل للمشكلة اليمنية، وبينما اقترح الملك فيصل أن يتم اللقاء فى عرض البحر الأحمر، كان إصرار عبد الناصر على عقده إما فى مصر أو اليمن أو السعودية . . وقال إنه يرفض التعامل مع الملك فيصل باعتباره عدواً أو غريبًا!

وفى ١٨ أغسطس التقى عبد الناصر فى الإسكندرية بعدد من القيادات اليمنية بينهم السلال وحسن العمرى ومحسن العينى والإيريانى والأستاذ النعمان، واستمع لهم طويلا حول رؤاهم إزاء حل مشكلة اليمن قبل أن يلتقى بالملك فيصل فى جدة، حيث توجه إليها على ظهر الباخرة «المحروسة» تحرسها بعض قطع الأسطول المصرى برئاسة الفريق سليمان عزت قائد البحرية.

فى ذلك الوقت كانت القوات المصرية فى اليمن قد استكملت الخطة العسكرية التى سبق التنويه عنها، عبر اختصار تواجدها فى شتى ربوع اليمن، مما كان يستدعى طول خطوط الإمدادات وأعباء حراستها، على أن تتمركز فى مناطق استراتيجية تنطلق فيها لمواجهة القبائل الملكية والمرتزقة، ثم ترتد إليها بعد انتهاء مهامها القتالية، وقد نجحت خطة تركيز القوات إلى الحد الذى سمح بعودة أكثر من ٥٠٪ منها إلى مصر، ولم يبق فى اليمن سوى ٢٠ ألف جندى فقط، فى الوقت الذى انتهز السعوديون الفرصة وحشدوا ما يزيد على عشرة آلاف جندى على حدود اليمن، الأمر الذى دفع الفريق حسن العمرى رئيس وزراء اليمن إلى التصريح بأن الجمهورية اليمنية مستعدة لشن الحرب ضد السعودية بدعوى أنها العدو الوحيد لليمن.

وسط هذه الأجواء المتوترة كانت مصر والسعودية يجمع بينهما آنذاك هدف سياسى مشترك لفض خلافهما حول اليمن، عبر اتفاق عبد الناصر والملك فيصل فى جدة ما بين ٢٢ و ٢٤ أغسطس ١٩٦٥، على أن يجتمع أهل الحل والعقد الممثلون لمختلف الاتجاهات السياسية فى اليمن لتقرير مصيره!

وهكذا بناء على «اتفاقية جدة» جرى وقف إطلاق النار بين الجمهوريين

والملكيين ابتداء من يوم ٢٥ أغسطس، وانسحاب القوات المصرية من الأراضى اليمنية المتاخمة للسعودية، وتشكيل قوة سلام عسكرية مصرية سعودية تضم ممثلين للجانبين الجمهورى والملكى، بالتزامن مع دعوة السلال للجمهوريين المنشقين بالعودة من الطائف إلى صنعاء والإفراج عن المعتقلين السياسيين!

١٠٤ ـ التفريق بين خيام الجمهوريين والملكيين

كانت اتفاقية جدة مثار قلق الملك فيصل من غلبة تيار الجمهوريين اليمنيين، إذ كانت تنص على انضمام ثلاثة من الجمهوريين المنشقين إلى الوفد الملكى فى المؤتمر المزمع انعقاده فى حرض، بينهم الشيخ نعمان راجح الذى كان يدعى زعامته للقوة الثالثة فى اليمن.

وعلى صعيد مصر، فقد تحسبت احتمالات استمالة السعودية لبعض مشايخ الجمهوريين والجمهوريين المنشقين، ولذلك عقد اللواء أحمد شكرى سفير مصر فى اليمن يوم ١٩ نوفمبر جلسة سرية مع أعضاء المجلس الجمهورى برئاسة القاضى عبد الرحمن الإيريانى ورئيس مجلس الوزراء الفريق حسن العمرى.. حيث أسفر النقاش عن عدة قرارات ملزمة للوفد الجمهورى فى اجتماعات مؤتمر حرض الوشيك:

ـ التمسك بالنظام الجمهورى

ـ الرفض القاطع لعودة أى من بيت حميد الدين إلى اليمن.

ـ فى حالة عدم تحقيق أى من هذه الشروط، على الجانب الجمهورى أن يرفض وينسحب من المؤتمر ويعود إلى الشعب ليقول كلمته، وعلى مصر أن تكون مستعدة لدعم خياراته سلما أم حربا.

فى كل الأحوال يقتضى الأمر الإصرار على استمرار المجلس الجمهورى ورئيس الجمهورية ورئيس الوزراء فى عملهم، ولا يجوز أن يقدموا استقالتهم إلا بعد أن يصل المؤتمر إلى الحل والاتفاق الذى يرضى الجانب الجمهورى، وأى مخالف أو متهاون فى هذه الشروط من الجمهوريين يعتبر خائنا لله والوطن!

وقد شهد مؤتمر حرض الذى افتتح أعماله يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٦٥ فى خيمة كبيرة تتوسط المعسكر الذى يضم خيام الوفد المصرى برئاسة الفريق فريد سلامة والممثل العسكرى اللواء عبد العزيز سليمان، والوفد السعودى برئاسة الأمير السديرى والممثل العسكرى اللواء محمود عبد الهادى، وكذا خيام الجمهوريين وخيام الملكيين، وكان بينهما حاجز من السلك الشائك، لكن ما أن اكتملت الوفود حتى أزيلت الحواجز، وراح الجانبان يحتضن كل منهما الآخر ويستعيدان ذكريات المحبة والوئام التى طوحت بها الحرب، فيما زاد عدد المنشقين المنضمين إلى وفد الملكيين من ثلاثة إلى خمسة أفراد!

على أن المؤتمر بدأ بالخلاف بين الجانبين عندما تشدد الجمهوريون حول ضرورة استبعاد بيت حميد الدين من المباحثات، وفى اليوم الثانى أصر على بن ناجى الغادر شيخ قبيلة خولان على قيام دولة فى اليمن لا ملكية ولا جمهورية وليس فيها بيت حميد الدين، وفى اليوم الثالث تشكك الملكيون من الجمهوريين المنشقين لموقفهم المتشدد من استبعاد أسرة حميد الدين، ومن ثم كان التفريق بينهما فى الخيام، لكن مع تواصل الحوار اقتنع الجميع فى النهاية بضرورة استبعاد أسرة حميد الدين!

١٠٥ ـ الفريق العمرى يهدد باغتيال الجمهوريين

عندما أستعيد ذكرياتى عن مؤتمر حرض أتوقف عند بعض الوقائع المثيرة، وبينها لقائى وحوارى مع أحمد محمد الشامى وزير خارجية الإمام البدر، إذ كان الرجل على قناعة بخيار الجمهورية على عكس موقفه المعلن والمنحاز للملكية خلال مباحثات المؤتمر، بل إن الشامى صرح لى بأنه يود الانضمام للجمهورية فيما لو أمكن نقل أسرته من بيروت فى سرية وأمان إلى صنعاء، ولا أدرى لماذا أفضى لى بهذه الرغبة إلا أن يكون صادقا فى نواياه، وربما أراد اختبار صفتى المهنية كصحفى أم عميل للمخابرات المصرية . . والله أعلم.

على أن الشامى أفضى لى بسر آخر، وهو أن بروس كوندى مستشار الإمام البدر

موجود فى المؤتمر ضمن أعضاء الوفد الملكى، ووعدنى بأن يشير إليه عندما تنعقد حلقة غناء «الزامل» فى الصباح قبيل جلسات المؤتمر، ونقلت الخبر إلى زميلى صلاح قبضايا المراسل العسكرى لجريدة الأخبار المصرية حيث كانت تجمعنا خيمة واحدة، وهكذا صوبنا معا الكاميرات إلى بروس كوندى، وكان نحيفا أبيض البشرة فى نحو الستين من عمره ويرتدى الزى اليمنى التقليدى، ويضع «الجنبية» المعقوفة فى وسطه وقد أطلق للحيته العنان، وهو يهودى أمريكى كان يدعى الإسلام بعد أن غير اسمه إلى عبد الرحمن حيث عاش طويلا فى كنف الإمام أحمد وأقام بقصره فى مدينة تعز، وعندما اندلعت الثورة هرب إلى المناطق الشمالية باليمن يخطط ويحارب مع القبائل الملكية والمرتزقة الأجانب، وينقل الأخبار أولا بأول إلى المخابرات الأمريكية ويتلقى منها التعليمات، وقد ابتلى اليمن بأمثال بروس كوندى من رسل الاستعمار القديم أو الحديث منذ عهده برجل المخابرات البريطانية السرجنت وندل فليبس الذى ادعى أنه عالم آثار، سرق وتاجر فى أكبر مجموعة من الآثار اليمنية القديمة التى لا تقدر بثمن!

المهم أنه ما إن التقطنا بعض الصور لبروس كوندى، حتى فوجئنا بضابط المخابرات العسكرية المصرية فى مؤتمر حرض وهو العقيد محمود السركى، حيث انقض علينا فى خيمتنا ثم طلب أن نسلمه الفيلمين بلهجة ناعمة فى البداية، ثم فى لهجة أمر، عندما حاولنا المراوغة وعدم الاستجابة لرجائه بدعوى أنه سوف يحرمنا من «خبطة» أو «سبق» صحفى!

ثم تشاء الأقدار أن تنشر صحيفة الأهرام واحدة من تلك الصور التى التقطناها داخل مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل «بصراحة» وكان حول انسحاب القوات المصرية من اليمن بعد أن أدت دورها القومى فى دعم الثورة ونظامها الجمهورى!

أتذكر كذلك أننى هرعت مع مشايخ القبائل والسياسيين الجمهوريين إلى مطار حرض البدائى استجابة لاستدعاء الفريق حسن العمرى نائب رئيس الجمهورية اليمنية والقائد العام للقوات المسلحة، وكان قد وصل على طائرة عسكرية، وتحت جناح الطائرة اتقاء لأشعة الشمس الحارة، جلسوا جميعا أرضا فى مواجهته، حيث وضع يده على مسدسه متوعدا أيًا منهم بالقتل فى حالة انحيازه إلى خيار آخر لحكم اليمن غير النظام الجمهورى.

١٠٦ـ فشل مؤتمر حرض

أتذكر أخيرا الصحفى المصرى المخضرم عبد اللطيف المحى الذى عاش وخبر الأوضاع السياسية والقبلية فى الجزيرة العربية على مدى ربع قرن بصفته مراسلا لوكالة «الأسوشيتدبرس» فحين عقد الفريق فريد سلامة رئيس الوفد المصرى فى مؤتمر حرض اجتماعا موسعا مع الصحفيين العرب والأجانب فى حضور الأمير السديرى رئيس الوفد السعودى، إذ به يصرح بأن مصر والسعودية فاض بهما الكيل من المشكلة اليمنية و . . عندئذ مال على أذنى هامسا بكلمتين «فشل المؤتمر»!

وحين استفسرته بعد ذلك عن المغزى، قال إن الفريق فريد سلامة غاب عنه فهم العقلية البدوية، وذلك أنه أفضى بمتاعب مصر فى اليمن بما يعنى رغبتها فى الانسحاب منها، ومن المتعين إذن أن تنتهز السعودية الفرصة حتى تتشدد فى موقفها خلال أعمال مؤتمر حرض و . . صدقت نبوءة عبد اللطيف المحى، فقد وصل المؤتمر الدكتور رشاد فرعون مستشار الملك فيصل وعقد اجتماعات مطولة مع الملكيين، وبعدها لم تتقدم مباحثات مؤتمر حرض خطوة إلى الأمام فى أعقاب الجلسة الثالثة، بانتظار تفسير جمال عبد الناصر والملك فيصل للغموض الذى يكتشف الاتفاق بينهما فى جدة، حول إحالة القضية اليمنية لأهل الحل والعقد من اليمنيين، فكان الخلاف بينهم حول تفسير هوية الحكومة المؤقتة، وهل تكون جمهورية أم ملكية، وموعد انسحاب القوات المصرية من اليمن، وكذا موعد استفتاء اليمنيين على الخيارات المطروحة!

وهكذا توقفت أعمال مؤتمر حرض يوم ٢٤ ديسمبر مع حلول شهر رمضان المبارك، على أن تستأنف فى ٢٠ فبراير عام ١٩٦٦، لكن ما جد من تطورات على الساحة اليمنية والساحة الإقليمية حال دون انعقاد المؤتمر مجددا!

١٠٧ـ مبارزة شعرية بين الغادر والرويشان

أضاف حضورى مؤتمر حرض الكثير من مفردات إدراكى المعرفى بالتقاليد القبلية، باعتبارها واحدة من المكونات الأساسية للشخصية اليمنية، فعندما التقى

أنصار الجمهورية وأنصار الحكم الإمامى مع ما كان يسمى بالجمهوريين المنشقين، تبخرت العداوات السياسية والثأرات الشخصية، وراح الجميع يغتنمون الفرصة فى خوض غمار الحوار المتبادل حول شئون اليمن وشجونه، وكل فريق يناطح الفريق الآخر بالحجة وبالشعر حول صواب خياراته السياسية!

كان مشهد الحوار اليومى بين الفرقاء اليمنيين يبدأ بوقوف الجمهوريين صفا واحدا فى الصباح فى مواجهة صف الملكيين، وغالبا ما كانوا يذبحون ثورا يلتهمون لحمه فيما بعد، تأكيدا على المودة وحسن النوايا، وبعدها ينشد الجميع غناء جميلا متهدج الإيقاع اسمه «الزامل»، ثم تعقد حلقة الشعر الحر، وكل شاعر يأتى بما تجود به قريحته بشكل تلقائى ومن وحى اللحظة حول موقفه وخياراته السياسية، وذاك أضعف الإيمان وأكثر أمنا من طلقات الرصاص أو طعنات «الجانبيات» أى الخناجر اليمنية التقليدية.

كان الفريق الجمهورى يتصدره الشيخ على بن ناجى القوسى أبرز مشايخ قبيلة الحدا، وهو كان على غير أبدان اليمنيين. عملاقا طولا وعرضا، ولأنه لا يجيد قرض الشعر، لذلك كان أى من فطاحل الشعراء الجمهوريين ينوب عنه وأبرزهم الشيخ صالح بن ناجى الرويشان، بينما أنفرد على بن ناجى الغادر شيخ قبيلة خولان بالإنابة عن الفريق الملكى فى حلبة الشعر، وأذكر أنه أنشد يقول:

حيد - جبل - الطيال أعلن ونادى كل شامخ فى اليمن
ما بنجمهر قط.. لو نفنى من الدنيا خلاص
لو اليوم يرجع أمس ولا الشمس تشرق من عدن
والأرض تشعل نار وأمزان السما تنزل رصاص
ورد عليه الشيخ الرويشان على الغادر قائلا:
الشعب جمهر والقيادة أيدت
جمهورية ولو تنزل السبع سموات الطباق
والإمام من فوق عرش الله يطلع يدعى
ويذيع من الجنة.. وينزل من على ظهر البراق

١٠٨ ـ بريماكوف صحفى بريطانى

عرفت بريماكوف لأول مرة فى أوج ازدهار العلاقات المصرية السوفيتية خلال سنوات الستينيات عندما وقع عليه الاختيار مراسلا لصحيفة «برافدا» فى القاهرة خلفا لزميله السابق بلاييف، وكانا والحق يقال من أخلص أصدقاء مصر والعرب والدفاع عن قضايانا القومية المصيرية فى الإعلام السوفيتى آنذاك، وكثيرا ما كانا يطوفان بدور الصحف أو يوجهان الدعوة للكتاب والصحفيين والمفكرين إلى بيتيهما حيث تفتح الأبواب أمام الحوارات البناءة والمثمرة حول العلاقات المصرية السوفيتية وسبل تصويب مسيرتها خاصة فى الأوقات الحرجة التى كان يتحرك أعداؤها فى كلا البلدين لإجهاضها. . أذكر الآن من بينها ما كان يروجه أعداؤها فى مصر حول مسئولية الاتحاد السوفيتى عن نكسة الخامس من يونيو ١٩٦٧ بدعوى أنه كان يمدنا بالسلاح الدفاعى ويحجب عنا السلاح الهجومى أو ما كان يروجه أعداؤها فى الاتحاد السوفيتى من استنزافها لموارده وترسانته العسكرية خصما من استحقاقات منظومة الدول الاشتراكية.

وتشاء مصادفات القدر انفرادى بالحوار مع بريماكوف ومعايشته عن قرب عندما فوجئت به وبدبلوماسى فى سفارة موسكو بصنعاء يطلان برأسهما من خيمة مجاورة لخيمتى داخل المعسكر النائى الذى شهد مؤتمر حرض!

أقبلت على مصافحة بريماكوف فى ود وحرارة لكن المفاجأة الثانية كانت فى العقيد محمود السركى الضابط بالمخابرات العسكرية وهو يربت على كتفى قائلا: «ولا كأنك تعرف الرفيق بريماكوف من قبل» وحينها عرفت أنه جاء لمتابعة أعمال مؤتمر حرض تحت ستار صحفى بريطانى، بل إن اللواء عبد العزيز سليمان الذى كان يمثل مصر فى اللجنة العسكرية للمؤتمر استدعانى إلى خيمته وشدد على إسهامى بالسكوت والتمويه على هوية بريماكوف لأسباب عليا تتعلق باهتمام الاتحاد السوفيتى بما يجرى فى اليمن وشكل نظامه المرتقب وموقف مصر والسعودية إزاء ما قد يصل إليه أهل الحل والعقد من اتفاق أو خلاف!

أذكر الآن أننى تعاملت مع بريماكوف ورفيقه الدبلوماسى السوفيتى وكأنهما

مراسلان لصحيفة الجارديان البريطانية، ومن جانبهما كانت إجادتهما للغة الإنجليزية عاملا مساعدا على تأكيد الهوية والصفة المزيفة، بل إن العقيد وجدى شرف - يرحمه الله ـ المسئول عن الشئون الإدارية فى المؤتمر ظل يتعامل معهما علانية باعتبارهما إنجليز!

عدنا إلى مصر وبعدها فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ اندلعت حرب الخامس من يونيو، ولعلعت الإذاعة المصرية تزف أخبار سقوط عشرات الطائرات الإسرائيلية تباعا إيذانا بنصرنا المبين، لكن الشكوك بدأت تلعب فى «عبى»، فمنذ أيام كنت فى سيناء لأداء مهمتى كمراسل عسكرى لمجلة «روز اليوسف» وعدت بانطباع سلبى، فقد رأيت قواتنا فى حالة حشد وتعبئة وليست فى حالة أهبة الاستعداد للحرب، واتصلت تليفونيا بالصديق الكاتب الصحفى محمد عودة لاستطلاع ما لديه من أخبار وتوقعات واكتشفت أن الشكوك كذلك بدأت تلعب «فى عبه» واتفقنا على اللقاء. وتوجهنا فى العاشرة صباحا إلى مكتب صحيفة برافدا بالقاهرة، وهناك وجدنا كل العاملين والسكرتارية فى حالة ذهول وعندما شعر بريماكوف بوجودنا رفع رأسه من بين كفيه ورأينا ملامحه البيضاء النضرة وقد اكتست بالصفرة والشحوب، وقبل أن نبادره بالتحية والسؤال عن أخبار الحرب نهض من مكانه وأمسك أيدينا فى لهفة وعيناه تكادان تطفران بالدموع وقال فى عبارات فصيحة وحاسمة: انتهت الحرب لصالح إسرائيل فى السابعة من صباح اليوم قبل أن تبدأ المعركة. . بعد تدمير الأسطول الجوى المصرى على الأرض. . إنها مصيبة للاتحاد السوفيتى كما هى مصيبة مصر. . وعلينا أن نتكاتف سريعا وننهض من جديد فوق ركام الأحزان!

وكان بريماكوف قد زار القاهرة بعدما أصبح رئيسا للحكومة الروسية، حيث طلب من الدكتور أسامة الباز المستشار السياسى للرئيس حسنى مبارك اللقاء بعدد من أصدقائه السياسيين والصحفيين والمثقفين المصريين، وبالفعل التقيناه على ظهر باخرة تمخر عباب النيل. . وأكثر ما أثار دهشتى ليس لأنه لا يزال يعرفنى فحسب، ولكن لأنه تذكر لقاءنا فى حرض. . وراح يبدى إعجابه الشديد بخيار الوحدة اليمنية ودفاع الشعب اليمنى المجيد فى إجهاض المؤامرة الانفصالية التى تعرضت لها صيف عام ١٩٩٥.

١٠٩ ـ فضيحة كبير الخبراء السوفييت

كان المقدم حسين المسورى رئيسا لأركان القوات المسلحة فى الجمهورية العربية اليمنية، بينما كان لا يزال التوتر المسلح والشكوك متبادلة على أشدها بين النظام فى صنعاء وقرينه فى عدن إثر الحرب الأهلية التى اندلعت بين الشطرين عام ١٩٧٢.

ولأن الاتحاد السوفيتى كان مورد السلاح الوحيد لكلا النظامين فضلا عن نقل خبراته العسكرية سواء على الصعيد النظرى أو العملى والقيام بمهام التدريب، من هنا كان على عاتق كبير الخبراء السوفييت الإشراف على تنفيذ هذه المهام جيئة وذهابًا ما بين صنعاء وعدن وبالعكس!

يوما كان كبير الخبراء السوفييت على موعد مع حسين المسورى حتى يقدم له تقريره عن الأوضاع القتالية لجيش الشمال سواء فى حالة الدفاع أو حالة الهجوم، وعلى ما يبدو أن كبير الخبراء كان على عجلة من أمره، وذلك أنه حين وضع تقريره أمام رئيس الأركان وراح يقرأه تمهيدا للنقاش حول محتواه، إذا بالمفاجأة الصاعقة.. حيث كان التقرير عن أوضاع القوات المسلحة فى اليمن الديمقراطى فى حالة الدفاع أو فى حالة الهجوم.. وكان النظام فى شمال اليمن هو المعنى بالطبع!

على أى حال فقد لعبت الأعراف الدبلوماسية وكذا علاقات الدعم العسكرى شبه الوحيد من الترسانة السوفيتية دورهما فى تطويق محسن العينى رئيس وزراء اليمن للأزمة والتكتم على الفضيحة.

لكن لأننى سمعت عن هذه الحكاية عبر دبلوماسى عربى فى صنعاء، من هنا قررت التأكد شخصيا من مدى صحتها، وهكذا بينما كنت أركب سيارة وزارة الإعلام فى شوارع صنعاء آنذاك، رأيت باب السفارة السوفيتية مفتوحا على باحة واسعة، وطلبت من السائق الدخول.. وقلت للحارس إننى صحفى مصرى وأطلب مقابلة السفير واسمى فلان الفلانى وأعمل محررا فى مجلة روز اليوسف القاهرية.

لم يمض سوى دقائق جرى خلالها الاتصال بالسفير، وبعدها سمح لى

بالدخول إلى مبنى السفارة، حيث قادنى أحد الدبلوماسيين إلى صالون الضيافة بالدور الأرضى، وقدموا لى كوبا من العصير وطبقا يحتوى على حبات اللوز والزبيب.

لم أكن أعرف السفير السوفيتى ولا التقيت به من قبل، لكن عندما دخل الصالون عرفته على الفور، إذ كثيرا ما كان يظهر بجسمه البدين فى الصور التى تجمع بين جمال عبد الناصر والقيادة السوفيتية.. حيث كان يعمل آنذاك مترجما من العربية إلى الروسية وبالعكس.

لم يسألنى السفير عن السبب وراء زيارتى بدون موعد سابق، لكنه راح يستعرض شريط ذكرياته عن عبد الناصر، وإبداء رأيه فى بعض وزرائه ومعاونيه، وعن صداقاته مع كثير من الصحفيين المصريين وبينهم محمد حسنين هيكل ومحمد عودة وفيليب جلاب ومحمد سيد أحمد.. وحتى جاء دورى فى الحديث، ورويت عليه تفاصيل ما نما إلى علمى حول فضيحة كبير الخبراء السوفييت.

دهش السفير للوهلة الأولى لكنه لم يرتج للمفاجأة.. وراح يحاول تبرير ما جرى فى ذكاء وحنكة ولطف.. ثم رجانى عدم النشر حفاظا على العلاقات السوفيتية المصرية واليمنية.

على أننى حين فاتحت الأخ حسين المسورى ومحسن العينى حول هذه الواقعة.. لم ينكرها أى منهما، بل وأكدا مصداقية ما وصلنى من تفاصيلها.. وكان العينى قد قدم استقالة وزارته، وتنحى المسورى عن منصب رئيس الأركان وأصبح محافظا لصنعاء!

١١٠ـ حصار السبعين يومًا

كانت مصر قد بدأت منذ عام ١٩٦٥ فى سحب قواتها من اليمن والبالغ عددها ٧٠ ألف جندى بمعدل عشرة آلاف جندى شهريا ولمدة سبعة شهور على نحو ما أشارت إليه جريدة الأهرام، بحيث لم يتبق من الوجود العسكرى المصرى فى اليمن سوى قوة لا تزيد على لواء للمشاركة فى قوة السلام العسكرية مع السعودية!

ولم يكن الانسحاب العسكرى المصرى من ربوع اليمن بالأمر السهل، بل ودارت أعنف المعارك العسكرية بقيادة اللواء عبد القادر حسن مع فلول القبائل الملكية والمرتزقة واستخدمت فيها الطائرات الحربية بكفاءة عالية فيما تصدت القبائل الجمهورية والشعب اليمنى لهم ومنعتهم من احتلال الأراضى التى كان يسيطر عليها المصريون وكانت صعدة المتاخمة للسعودية أبرز مثال على ذلك.

وحتى الآن وبعد مضى زهاء ٤٠ عاما، لم يستقر التفسير على سبب يقينى وراء اعتقال شمس بدران مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر يوم ١٦ سبتمبر عام ١٩٦٦ للقيادات اليمنية الجمهورية التى وصلت إلى القاهرة للتفاهم حول تسيير أوضاع اليمن فى أعقاب عودة السلال إلى صنعاء بعد غيابه بالقاهرة، وكان على رأس الذين احتجزهم شمس بدران والقاضى عبد الرحمن الإيريانى والقاضى عبد السلام وحسن صبرة والأستاذ أحمد النعمان، وإلى حد إيداع معظمهم السجن الحربى، فى سابقة لا نظير لها فى العلاقات الدولية، وهو نفس ما حدث بعد ذلك إبان حكم أنور السادات حين فوجئ محسن العينى باحتجازه فى منزله بالقاهرة عام ١٩٧٦ دون سبب معلوم حتى اليوم إلى أن وقعت نكسة الخامس من يونيو ١٩٦٧، التى تقع مسئوليتها بالكامل على القيادة العسكرية ممثلة فى المشير عامر وشمس بدران، رغم أن جمال عبد الناصر أعلن فى خطاب تنحيه عن السلطة تحمله المسئولية بصفته القيادة السياسية!

من هنا كان الانسحاب الكامل للقوات المصرية من اليمن يوم ١٠ أكتوبر، وفى أعقابها كانت حركة الخامس من نوفمبر التى أطاحت بحكم الرئيس عبد الله السلال حيث تشكل مجلس جمهورى من ثلاثة أعضاء وحكومة جديدة برئاسة محسن العينى، لكنها لم تنجح للأسف فى الحفاظ على وحدة الصف الجمهورى، وفى يوم الأول من ديسمبر ١٩٦٧ بدأ حصار صنعاء عبر حشد ضخم لكل القبائل الملكية بقيادة الأمير محمد حسين نائب الإمام البدر، ونحو ٣٠٠ من المرتزقة الأجانب تحت قيادة الضابط الأمريكى المغامر «كومر» الذى اتخذت الصحافة الأجنبية اسمه عنوانا لحرب اليمن «حرب كومر».

ولا شك أن ملحمة صمود صنعاء أمام جحافل الغزو الرجعى الإمبريالى على

مدى سبعين يوما، كانت موضع التسجيل البانورامى المتابع لمراحلها يوما بيوم وخطوة بخطوة، وبينها كتاب الأديب والمفكر المناضل عمر الجاوى، وكتاب الحرب فى اليمن لأدجار أو بالانس وكتاب الصديق الصحفى على العلفى يرحمه الله، وكتاب «ساريمانى» للدكتور عبدالله حسين بركات الذى تولى وزارة الداخلية عدة مرات وكان له دور بارز فى حرب السبعين يوما ثم الكتاب الشامل لكل الشهادات والجامع لمختلف التفاصيل الذى صدر عن مركز الدراسات والبحوث اليمنية، فلم يبق بعده حدث لم يذكر ولا دور لجماعة ولا أفراد فى صنع هذا الحدث التاريخ العظيم لم ينل حقه بعد من الإشادة والتقييم.

ويظل الدور الذى قام به الفريق حسن العمرى مقدرا فى عمليات الدفاع عن صنعاء، إذ كان أقدم الضباط فضلا عن مكانته وهيبته، وكذا النقيب عبد الرقيب عبد الوهاب رئيس هيئة الأركان والقائد السابق لقوات الصاعقة والمظلات وهو من جيل ثورة سبتمبر، إذ كان وجودهما على قمة «القيادة» من أهم عوامل رفع الروح المعنوية ليس على صعيد المقاتلين فقط، ولكن بالنسبة لسكان صنعاء الذين كانوا يخشون سقوطها فى أيدى الملكيين وتكرار مأساة اجتياح القبائل ونهبها فى أعقاب فشل ثورة الأحرار الدستوريين عام ١٩٤٨!

وإذا كانت سوريا والاتحاد السوفيتى قد بادرتا إلى دعم صمود صنعاء سواء عبر توفير سوريا للطيارين لقيادة الطائرات العسكرية اليمنية، سواء عبر المشاركة الفعلية للطيارين السوفييت فى الإغارة الجوية على حشود الملكيين والمرتزقة لفترة محدودة وسقط منهم أحد الطيارين كما قدمت الجزائر معونة قدرها مليون دولار، وكذلك إمدادات الطعام والذخيرة التى قدمتها الصين إلا أن عبء الدفاع كان عبر الإمكانات العسكرية والشعبية الذاتية لليمنيين إثر انسحاب القوات المصرية من اليمن بعد أن خلفت وراءها قوات يمنية مدربة وكاملة التسليح وعقيدة قتالية ملائمة لظروف اليمن، ولعلنا نحسب أن دور القبائل اليمنية فى تطهير الطرق المؤدية إلى صنعاء أسهم فى كسر العزلة التى حاولت تطويق صنعاء، والحيلولة دون وصول إمدادات السلاح والذخيرة والطعام، ثم مبادرة النساء فى صنعاء والقرى المحيطة بها إلى تقديم وجبات الطعام إلى المقاتلين، ولاشك أن كل هذه العوامل كانت لها انعكاساتها المباشرة فى لملمة شتات الوحدة الوطنية والتمتين من لحمتها، وهو

ما أثار النخوة الوطنية لدى البعض من القبائل الملكية، وبينها قبيلة بنى حشيش وشيخها قاسم منصر الذى كانت تركب الجبال المحيطة بصنعاء، وتقذفها بوابل من حمم المدفعية الثقيلة، حيث انضمت بكاملها إلى صفوف المقاومة وأعلنت الولاء للثورة والجمهورية.

ولاشك أن زخم النضال الثورى لملحمة حصار السبعين يوما وصمود صنعاء، قد أسهم فى وضع اللبنات المؤسسية لإنطاقه النهوض الشامل الذى ترفل فيه اليمن اليوم، عبر وصل ما انقطع من حضاراتها الخالدة، مما يفرض الشروع لإنتاج فيلم تاريخى لا يقل فى روعة أحداثه النضالية وحبكته الدرامية عن فيلم صمود ستالينجراد فى مواجهة الحصار النازى!

والحقيقة أن تماسك الوحدة اليمنية وصمود صنعاء كان المدخل السياسى للنجاح المؤزر الذى حالف محسن العينى بعد تشكيله للحكومة يوم ٥ فبراير ١٩٧٠، حين خاض معركة استرداد كرامة اليمن والتأكيد على سيادتها ووحدتها الوطنية فى مارس ١٩٧٠، عبر دوره التاريخى المشهود فى إجراء المصالحة الوطنية بين اليمنيين الجمهوريين والملكيين المقيمين بالسعودية وتكريس انتصار النظام الجمهورى إيذانا بنهاية الحرب ورفع رايات السلام، ثم لم تمض شهور حتى أعلنت السعودية اعترافها بالجمهورية العربية اليمنية فى يوليو ١٩٧٠ وتبادل التمثيل الدبلوماسى بين البلدين.

ورغم أن مبادرة محسن العينى للمصالحة الوطنية مع الملكيين الذين نزحوا إلى السعودية ونجاحها كما لم يتصور أحد، إلا أن البعض من الجمهوريين اتهمها بالمجازفة والتفريط فى حق الثورة، وإلى حد توقع نهاية الجمهورية، وكان معظم هذه الاتهامات من جانب البعثين ونظام الجبهة القومية فى عدن، وكذا المخلصون من الضباط والمدنيين اليمنيين الذين تحملوا قسطا وافرا من الدفاع عن الثورة.

ثم إذا بالمشايخ والسياسيين الملكيين يعودون برا وجوا إلى صنعاء، ولم تمض ساعات حتى ذابوا فى المجتمع اليمنى وهم فى حالة انبهار بما تحقق من تقدم وازدهار خلال غيابهم سبع سنوات عن الوطن حسبما شهد بذلك أحمد الشامى وزير خارجية الإمام البدر سابقا، وبعدها كان استيعاب بعضهم فى السلك الدبلوماسى وغيرهم فى وظائف الدولة، بالتزامن مع توقف الحرب نهائيا بين الفرقاء اليمنيين!

١١١ ـ اغتيال مشايخ القبائل فى عدن

كان نظام الجبهة القومية الحاكم فى الشطر الجنوبى من اليمن قد نجح عام ١٩٧٢ ـ ولا ندرى كيف ـ فى كسب ثقة أعتى مشايخ القبائل الرجعية عداء وحربا شعواء ضد الثورة السبتمبرية فى الشطر الشمالى من اليمن ونظامها الجمهورى، ورغم أن هذا النظام كان موغلا فى نهجه اليسارى إلى حد اتهامه بالشيوعية، إلا أن هؤلاء المشايخ كانوا مطمئنين إلى أن دعوته لهم لزيارة عدن مدخل للارتزاق وجنى الذهب والسلاح فحسب مقابل مناهضة النظام فى الشطر الشمالى عبر التخريب والاغتيالات وليس ثمة احتمال آخر!

فلما وصلوا إلى عدن فى ركب من السيارات «اللاندروفر»، استقبلوا بالحفاوة والتكريم وذبح الخراف، وحين مدوا أياديهم لالتهام لحومها المشوية، عندئذ انهالت عليهم طلقات المدافع الرشاشة من كل جانب حتى تساقطوا جميعا مضرجين بدمائهم كما مذبحة المماليك فى القلعة على يد محمد على فى مصر، وكان أبرزهم الشيخ على بن ناجى الغادر، وهو كان اسمًا على مسمى، فحين صعد إليه الضابط المصرى سند حتى مخبئه فى جبال خولان، وكان قد منحه الأمان حتى يعقد معه مصالحة مع الثورة اليمنية، عندئذ غدر به وصوب إليه بندقيته حتى استشهد فى الحال!

كان مع الغادر نفر من أمثاله المرتزقة بينهم الشيخ حنتش والشيخ الهيال وآخرون، وهكذا وفقا للأعراف القبلية، حملت القبائل الجمهورية فى الشطر الشمالى سلاحها وأعلنت الحرب على الشطر الجنوبى، ولم يكن بوسع القاضى عبد الرحمن الإريانى رئيس المجلس الجمهورى سوى التنديد بالمذبحة فحسب، دون أن يتمكن من كبح جماح القبائل والجيش اليمنى فى التحشد على الحدود الوهمية الفاصلة بين الشطرين، خاصة ومعظم أفراد الجيش من أبناء القبائل . . بينما قوات اليمن الجنوبى كانت قد احتلت مدينة «قعطبة» . . وهكذا اشتعلت الحرب الأهلية بين الشطرين فى الثانى من أكتوبر ١٩٧٢ وراح ضحيتها المئات من الجانبين!

تداعت الجامعة العربية للكارثة واستدعت إلى مقرها بالقاهرة محسن العينى

رئيس حكومة صنعاء وعلى ناصر محمد رئيس حكومة عدن، فكان الهروب من كارثة الحرب الأهلية فى التعلق بأهداب النجاة عبر اتفاقية القاهرة للوحدة اليمنية يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٢ و . . بعدها خضعت الاتفاقية للتعديل وإعادة الصياغة عبر ميثاق طرابلس يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٧٢!

١١٢ - اتفاقية روز اليوسف للوحدة اليمنية

هنا يطيب لى الاعتراف بأنى كنت فى متابعتى لهذه الأحداث منحازا لموقف عدن وعلى غير وفاق مع موقف صنعاء، لا لأن هؤلاء المشايخ الذين جرى اغتيالهم فى عدن كانوا فى ركاب الإمام البدر والرجعية العربية ضد الثورة اليمنية فحسب، ولكن لأنهم نالوا جزاءهم الأوفى على غدرهم بالضباط والجنود اليمنيين والمصريين إلى حد التمثيل البشع بجثثهم، ثم لأن المجلس الجمهورى فى صنعاء كان فى موقف الإذعان للقبائل، حتى استمرأوا اختراق النظام الجمهورى على نحو بالغ الخطورة. . وهم الذين كانوا لا يجرءون على معارضة حكام بيت حميد الدين.

ثم يطيب لى التنويه والفخر كذلك بالدور الذى قمت شخصيا به فى سياق تعزيز خيار الوحدة اليمنية، حيث دعوت كلاً من الصديق الأستاذ محسن العينى والأستاذ على ناصر محمد إثر توقيعهما اتفاقية القاهرة فى الجامعة العربية يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٢ إلى زيارة مجلة روز اليوسف دون أن يدرى أيهما بدعوة الآخر، حيث كنت فى استقبالهما وتقديمهما إلى الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى رئيس التحرير وزملائى الكتاب والمحررين، ثم دار الحوار بينهما إيجابيا وودودا حول ما يتعين القيام به من مبادرات سياسية وشعبية لتكريس وتجسيد الوحدة اليمنية، وسبل التعجيل السياسى والشعبى للوصول إلى ذلك الهدف، ثم أطلقنا على مجمل الحوار والالتزامات المتبادلة بالتنفيذ «اتفاقية روز اليوسف للوحدة اليمنية»!

وقد ذكر محسن العينى هذه الواقعة بالتفصيل مع صور اللقاء فى كتاب «خمسون عاما فى الرمال المتحركة - قصتى مع بناء الدول الحديثة فى اليمن»، ثم عاد

وأشار فى موقع آخر من الكتاب إلى ما كتبته فى روز اليوسف حول الفترة القصيرة ما بين قبوله فى السبعينيات رئاسة الحكومة واستقالته ثم قبوله بعدها رئاسة الحكومة ثم استقالته . . وقلت إن دور محسن العينى على ما يبدو كان القيام بدور المحلل، إذ كانت الاستقالة فى المرتين موصولة برفضه الخضوع للنفوذ القبلى!

١١٣ ـ مدير الأمن العام اليمنى يتوعدنى بالقتل أو السجن

مع البدايات الأولى لثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ اليمنية التقيت بالرئيس إبراهيم الحمدى لأول مرة . . شابا فتيا ضامر الجسم قصير القامة حاد الذكاء، كان يرتدى زيا عسكريا بدون رتبة ولذلك لم أتبين للوهلة الأولى إن كان ضابطا أم جنديا . . سألنى عن مصر وسألنى أكثر عن جمال عبد الناصر . . قال لى إنه يحب عبد الناصر ويحتفظ له بكل خطبه وما تيسر له من صوره فى الصحف والمجلات . ولأنه يعتبره المثل الأعلى فى الانضباط السياسى والعسكرى والأخلاقى والتزامه بالمبادئ والثوابت القومية وإيمانه العميق بأن العرب أمة واحدة لا مفر من وحدتهم حتى يصبحوا قوة كبرى .

بعدها التقيته مراراً خلال زياراتى الصحفية المتتابعة لليمن وأكبرت فيه ذلك المجهود العصامى الذى يبذله حتى يثقف نفسه ذاتيا عبر القراءة الدءوبة لكل ما كتب فى الماضى وما يكتب فى الحاضر عن اليمن وعن القضية الفلسطينية وقضية الثورة العربية بوجه عام، حتى غامرنى شعور بأنه يعد نفسه لدور سياسى أو ثقافى ما .

أذكر أننى جمعت فائض مكتبتى من الكتب وأهديتها له، ومن يومها أصبحنا أصدقاء، فكان يهدينى كيسا من البن كلما زرت اليمن، وفى الزيارة التالية أحمل له هديتى من الكتب فى شتى المعارف، وعندما كاشفته بأن والده كان من عمال الإمام أحمد حميد الدين المنتقدين فى إحدى مناطق اليمن، كان جوابه : لولا ذلك ما أتيحت له فرصة الالتحاق بالكلية الحربية فى عهده والانضمام لحركة الضباط الأحرار .

على أنه حين اندلعت الحرب الأهلية الضروس بين شطرى اليمن عام ١٩٧٢ وكتبت سلسلة من المقالات تدين النعرات الانفصالية والنفوذ القبلى وعملاء

الرجعية العربية فى الشطر الشمالى دورهم فى اندلاع الحرب وتأجيجها وربما من هنا لم تسلم مقالاتى من النقد والاتهامات والإرهاب!

بعدها سافرت إلى صَنعاء بدعوة من محسن العينى لمتابعة التطورات السياسية عن قرب، وهناك قدم لى نائبه وفوجئت بأنه صديقى المقدم إبراهيم الحمدى ونهضت إلى مصافحته فرحا . . وأدركت آنذاك كم حقق من النجاحات . . وأن ذكاءه ودماثة خلقه واستيعابه لقراءة الكتب ومتابعاته لما يجرى من أحداث وتطورات على الساحة اليمنية والعربية والدولية كانت مؤهلاته لمنصب نائب رئيس الوزراء.

فى مكتبه بالدور الأول بمجلس الوزراء جلست أستمع إليه بشغف واهتمام حول رؤيته للأوضاع فى اليمن وضرورة وضع الخطوط اللازمة للتطوير . . وأهمية تسريع تنفيذ بنود اتفاقية الوحدة اليمنية . . وحتى دخل علينا الصديق على سيف الخولانى وزير الداخلية وهو كان من الضباط الأحرار الذين نهضوا بعبء تفجير ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢ . . حيث أبدى اختلافه مع مقالاتى المنشورة فى روز اليوسف حول الصراع السياسى المحتدم بين صنعاء وعدن وأدى إلى اندلاع الحرب الأهلية بين الشطرين . . واتفقنا على اللقاء لاستكمال الحوار فى المساء بمكتبه بوزارة الداخلية.

فى المساء ذهبت إليه مع مرافق وزارة الإعلام الأستاذ أحمد عبد الرب الذى يعمل الآن بفرع وزارة الثقافة فى تعز، فإذا بوزير الداخلية يبادرنى قائلا: فضلت يا أخ يوسف مشاركة قيادات الوزارة وضباطها فى الحوار معك حول مقالاتك هل لديك مانع ؟ وقلت موافقا: خير وبركة . . وقال: إذن عليك تلتقى بهم فى القاعة المجاورة . . وهكذا عندما دخلت القاعة . . وجدتهم جلوسا بملابسهم العسكرية فى انتظارى حيث جلست وعلى سيف الخولانى فوق المنصة فى مواجهتهم . . وأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها!

قدمنى على سيف الخولانى إلى الحاضرين بالحفاوة والترحاب وكلمات الثناء على مواقفى الصحفية المشرفة من ثورة اليمن . . ثم أبدى تحفظه على كتاباتى الأخيرة حول الحرب الأهلية . . واتهمنى بالانحياز إلى موقف عدن، وعندئذ

أدركت أن على سيف الخولانى استدرجنى إلى محاكمة وليس حوارا ثنائيا كما اتفقنا فى الصباح . . وقبلت التحدى وقلت : بداية يجب إحضار أعداد روز اليوسف وقراءة مقالاتى أمام الحاضرين . . وسوف أقبل بحكمهم لصالحى أو ضدى .

والغريب أن يمد وزير الداخلية يده إلى أحد أدراج المنصة أو المكتب الذى كنا نجلس عليه ويستخرج ملفا يضم مقالاتى ، حيث وقع اختياره على أحد الضباط لقراءة المقالة الأولى وكانت تتضمن سجلا لمشايخ القبائل الذين جرى اغتيالهم فى عدن وممارستهم الخيانة ضد الثورة . . ودور الشيخ الغادر شخصيا فى اغتيال الضابط المصرى الشهيد سند وهو أعزل من السلاح ، عندما كلفته القيادة العامة للقوات المصرية فى اليمن لإقناعه بالانحياز إلى الثورة اليمنية أو التزام الحياد . . وتساءلت فى مقالى عن دوافع صنعاء لفتح معركة مع عدن التى نفذت حكم القصاص فى هؤلاء الخونة والعملاء . . وعن سبب واحد يدعو مشايخ القبائل الجمهوريين الموالين للثورة إلى خوض المعركة فى مواجهة الشطر الجنوبى من اليمن إلا أن تكون السلطة المركزية فى صنعاء فرطت فى سلطاتها وصلاحياتها ووافقت على قيام دولة قبلية داخل الدولة . . أو أنها موافقة ضمنيا على تكريس القبيلة فى اليمن وتعطيل عجلة الحداثة والانفتاح على العصر .

انتهى الضابط من قراءة المقالة حتى ضجت القاعة بعبارات وهمهمات الحاضرين وكانت تشى باتفاقهم وعدم اختلافهم مع طرحى وموقفى من الحرب الأهلية . . لكن ضابط شرطة برتبة مقدم وقف يهاجمنى ويتهمنى باعتناق الماركسية . . ثم راح يهددنى فجأة بالسجن والاغتيال بدعوى انحيازى إلى الشيوعيين الكفرة الذين يحكمون فى عدن ، لكن وزير الداخلية أعفانى من الرد عليه ونفى ذلك . . مؤكدا على نهجى القومى وأن اختلاف الرأى لا يفسد فى الود قضية . . غير أن هذا الضابط عاد يكرر تهديدى فى عصبية ، وفى هدوء يخفى اضطرابى سألته عن اسمه . . وقال : أنا محمد خميس مدير الأمن العام . . وعندما أتوعدك بالسجن والاغتيال فأنا عند كلمتى !

ولأنه من العجز أن أكون جبانا إزاء ما ليس منه بد موتا أو سجنا . . قلت له :

آسف يا سيد خميس لأننى لم أتشرف بمعرفتك من قبل . . وآسف مرة ثانية لأن اسمك غير مدرج فى قائمة الثوار والمناضلين الذين تعرفت عليهم من أبناء اليمن، تستطيع أن تقتلنى بمسدسك - وكان يمسك به آنذاك - وأن تعتقلنى فى سجونك . . لكن الشعب المصرى لن يسكت على أفعالك ولا الشعب اليمنى وحكومته كذلك .

عندئذ ساد الهرج والصخب، المقدم محمد خميس يحاول الهجوم على المنصة والاشتباك معى بالأيدى والضباط من جانبهم يتدخلون لفض الاشتباك . . وعلى سيف الخولانى يسحبنى من يده إلى غرفة مكتبه وهو يبدى أسفه لما حدث . . وغادرت وزارة الداخلية ومعى مرافق وزارة الإعلام الذى جلس إلى جانبى فى السيارة صامتا لا يقوى حتى على الاعتذار فى حضور سائق السيارة التى حملتنى إلى الفندق .

فى غرفتى وجدت فى انتظارى هدية من المقدم إبراهيم الحمدى . . كيسًا من البن اليمنى كالعادة إضافة إلى قطعة من القماش الصوف، مع دعوة إلى اللقاء غدا للحوار ومضغ القات فى «مقيل» عبد الله حمران الممثل الشخصى للقاضى الإريانى رئيس المجلس الجمهورى آنذاك . . وهو كان عديل شقيقه المقدم عبد الله الحمدى قائد لواء العمالقة .

المرافق المسكين حين اطمأن إلى عدم وجود أحد معنا فى الغرفة راح يحكى على مسامعى تفاصيل الأهوال والبطش والتعذيب التى يتعرض لها أحرار اليمن ومختلف فصائل القوى الوطنية على يد محمد خميس . . وأنه بمفرده يمارس الإرهاب ضد كل من يخالفه الرأى حتى من كبار المسئولين فى الدولة .

من جانبى قررت العودة إلى القاهرة فورا صباح اليوم التالى احتجاجا على ما نالنى من تهديد ووعيد . . لكن عندما استفسرت عن مواعيد إقلاع الطائرات . . لم أجد سوى طائرة شركة «إيرفلوت» السوفيتية جاهزة للإقلاع من مطار الحديدة وعندما اتصلت هاتفيا بالشركة كان من حسن الحظ أن وجدت لنفسى فيها مقعدا . . وهكذا جلست أكتب رسالة إلى صديقى إبراهيم الحمدى أعتذر فيها عن عدم قبول هديته وأسفى لظروف طارئة حالت دون وداعه . . وكلفت المرافق بتسليمها إليه مع هديته فى الصباح!

في الصباح ركبت سيارة وزارة الإعلام في طريقي إلى الحديدة. . ولأن الطريق الذي شقه العمال الصينيون كان يرتفع إلى عنان السماء إلى حد الإحساس بقشعريرة البرودة. . وينخفض فجأة إلى أعماق سحيقة تستدعي اتقاء الحرارة الشديدة لذلك طلبت من السائق التوقف للراحة في قرية «خميس مزيور» لتناول الإفطار في مطعم أعرفه يقدم الحليب والشاي والقهوة وأطباق الكبدة المقلية الطازجة والفطائر تملكه ثلاث من الشابات اليمنيات ذات حسن ودلال وخبرة في التعامل مع الزبائن العابرين والمتعبين.

ألقيت نظرة على ساعتي. . وأدركت أن ثمة فسحة من الوقت على إقلاع الطائرة ومن ثم طلبت لنفسي وللسائق كوبين من الشاي ومداعتين ومفردها نارجيلة وسرحت بعيدا أسترجع واقعة الصدام العبثي مع مدير الأمن العام. . وأراجع قراري بالسفر فورا احتجاجا على ما آلت إليه الأمور في اليمن.

فجأة وجدت إبراهيم الحمدي أمامي بلحمه وشحمه وابتسامته المضيئة وكان قد وصل بسيارته وبأقصى سرعة عندما وصلته رسالتي في الصباح ومعها هديته وراح يقبل رأسي معتذرا عما بدر من محمد خميس في حقي ووصفه بأنه كلب وعميل. . وأن اليمن ابتلى به في خضم المصالحة الوطنية مع فلول الملكية والرجعية حالفا بأغلظ الأيمان حتى أعود إلى صنعاء. . لكن إصراري على السفر والامتناع عن قبول هديته كان أقوى ومن ثم لم يجد بدا من احتضاني مودعا وهو يهمس في أذني قائلا: أقسم لك أن يوم التغيير وتصحيح الأوضاع المقلوبة في اليمن لن يتأخر كثيرا.

١١٤ - اغتيال محمد أحمد نعمان

في يوم من شتاء عام ١٩٧٣ فوجئت أن مجلة روز اليوسف في كل طوابقها وحجراتها ومداخلها. . تبحث عن شخصي الضعيف!!

كان الأستاذ أحمد نعمان رئيس وزراء اليمن الأسبق قد ظل يطاردني بصوته الهادئ المتهوج عبر جميع تليفونات الدار.

فإذا قيل له: مش موجود هنا. . أو. . كان هنا وخرج!

كان جوابه إطلاق حكمة ما. . فالحكمة يمنية كما يقول الرسول ﷺ عليه السلام وكتب الأقدمين والمحدثين.

وهكذا لعبت بلاغته دورها فى انجذاب عقل وقلب كل من صادفه الحظ ورد على سؤاله عنى عبر التليفون. . وكأن بلاغته حجة نبى أو طلاسم ساحر. . فإذا بهم يتركون ما يشغلهم ليتعقبوا خطاى فى أنحاء الدار!

أخيرا. . وجدونى أو أوجدونى. . ووجدت نفسى فجأة أمامه، صوتا لصوت، وعقلا لعقل، وقلبا لقلب، وخشيت المواجهة، لم أكن مستعدا للحوار معه. . رغم أننى أيقنت موضوع الحوار وأسبابه سلفا، وتوقعت بداياته ونهايته، خاصة وقد ترك لى رسالة شفهية أملاها على زميلى سمير عزت يدافع فيها عن موقف ابنه محمد أحمد النعمان: «بلّغ الأخ يوسف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال. . على مثل الشمس فاشهد وإلا فالصمت أولى بك»، بمعنى أن ابنه محمد - رحمة الله عليه - شخصية عملاقة وشامخة وعلىّ أن أعترف بذلك دون لجاجة أو مناقشة، وهو كان كذلك بالفعل، شعلة من النشاط، ذكاء متقداً، محاوراً بارعًا، ودبلوماسيًا ناجحًا، ووزير خارجية مشهوداً بكفاءته، ولم يكن الاختلاف على شخصه، وإنما حول تفريطه على حد إجماع أهل اليمن آنذاك فى اتفاقية الطائف عام ١٩٣٤ التى ترسم الحدود اليمنية مع العربية السعودية!

على أى حال رفعت سماعة التليفون. . وقبل أن أبادر بالتحية. . بادرتنى الحرارة بالانقطاع. . لكأنها تبلغنى أن الرجل تعب فى البحث عنى. . وأنهى مطاردته وتعقبى. . فهكذا كان حال تليفونات القاهرة فى تلك الأيام!

لم أكن أخشى بلاغة الأستاذ وحكمته؛ ذلك أن تاريخه كله بلاغه وحكمة. . وهو تاريخ حافل بالخلاف والاختلاف داخل حركة الأحرار اليمنيين مع الجناح الذى كان يرى الثورة المسلحة السبيل الوحيد لقلب نظام حكم بيت حميد الدين. . وكسر أسوار العزلة والتخلف الذى يكبل خطوات اليمن إلى التحرر ومواكبة العصر، بينما كان الأستاذ النعمان يرجح العمل السياسى ويراهن على من يراهم بين أسرة حميد الأقدر على الإصلاح وتغير الأحوال إلى الأفضل!

ولم تجد بلاغة النعمان وحكمته . . وقامت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ . . بينما كان يؤمل خيرا فى الإمام البدر . . وهكذا سقط شعاره الذى كان ينادى بأن ما يؤخذ بالسيف يمكن أن يؤخذ باللين والسياسة والكياسة . . واختلف إلى حد ما مع خط الثورة وقادتها ، وتخلف عن الطائرة التى حملت زعامات حركة الأحرار من القاهرة إلى صنعاء ، ويومها قيل إن موقفه يعبر عن احتجاجه على اختيار المشير عبد الله السلال رئيسا للجمهورية فحسب!

وعندما شكل الأستاذ النعمان حكومته فى أعقاب مؤتمر خمر الذى انعقد فى اليمن إثر مقتل الشهيد القاضى الزبيرى أبو الأحرار اليمنيين . كانت القيادة السياسية والعسكرية المصرية آنذاك فى خشية من أمر تلك الحكومة ، ووصل الأستاذ نعمان إلى القاهرة والتقى بالمشير عبد الحكيم عامر واقتنعت القيادة العسكرية بحكمته وبلاغته وحكومته . . لكن المشير قال له : بقى أن تقتنع القيادة السياسية يا أستاذ نعمان!

والتقى الرئيس عبد الناصر بالأستاذ النعمان . . واستمع لحكمته وبلاغته ساعتين وأكثر وهو يدلل على مصداقية تشكيل حكومته وسلامة خطها السياسى واختياره الأمثل للوزراء من مختلف القوى والتيارات السياسية وبينها حزب البعث . . وحتى جاء دور عبد الناصر فى الحديث . . وقال : يا أستاذ نعمان . . لن تستطيع أن تقنعنى لا شعرا ولا نثرا!

ومما لا شك فيه أن فقدان الثقة بين النعمان وعبد الناصر لم يأت فجأة ولا من فراغ ، وذلك أن النعمان على سبيل المثال ، كان قد وجه بيانا إلى القاضى عبد الرحمن الإريانى بصفته رئيسا لمؤتمر خمر ، أكد فيه تأهبه لمديد الصداقة للملك فيصل ، بينما كان من الواجب التنسيق حول هذا الخيار مع مصر ولها فى اليمن آنذاك زهاء ٧٠ ألف مقاتل ، وهو نفس التجاوز عندما قام النعمان بناء على طلبه بزيارة الملك فيصل فى ١٧ يونيو ١٩٦٥ ، ثم كان بوسعه بعدئذ أن يعلن أن ملك العربية السعودية قد وافق على استقبال مبعوثين من الجمهوريين اليمنيين حتى يناقش معهم القضايا المعلقة ، فيما تردد أن النعمان التقى مع الشيخ ناجى بن الخضير شيخ مشايخ قبيلة خولان المحسوب على الجانب الملكى ، وأنه كان ينوى تشكيل

حكومة بديلة عن حكومة السلال ذات طابع قبلى على حد مزاعم كل من عبد القوى حميم وقاسم غالب، وكلاهما كان وزيراً فى حكومة العمرى، حيث طلبا حق اللجوء السياسى إلى عدن بدعوى أن حكومة النعمان تنوى اعتقالهما وقتلهما!

وهكذا فى ٢٣ يوليو ١٩٦٥ تسلل وفد من مشايخ القبائل الجمهوريين من اليمن إلى السعودية حتى لحقهم محمد أحمد نعمان، حيث كان الملك فيصل فى استقبالهم بمدينة الرياض، إذ كان يأمل فى أن يشكل منهم نواة القوة السياسية الثالثة تحت رعايته.

إلى ذلك كان دأب النعمان على افتعال الخلاف مع السلال وهو موضع ثقة مصر، إضافة إلى تلويحه دائما بضرورة سحب القوات المصرية من اليمن والشروع إلى تكوين جيش يمنى ليحل محلها، كما لو أن مصر غازية ومحتلة لليمن و. . لاشك أن تراكم اختلاف وجهات النظر بين الأستاذ أحمد نعمان ومصر عكست سلبياتها على العلاقات المشتركة بين الجانبين.

١١٥ ـ العمرى ينقذ الحجرى من الإعدام

عندما شكل القاضى عبد الله الحجرى حكومته. وكان محسوبا من قبل على أعداء الثورة. كان محمد أحمد نعمان وزيراً للخارجية. والحجرى كان من أوائل الذين اعتقلتهم الثورة. وقدم للمحاكمة فى الكلية الحربية، ولم ينقذه من الإعدام سوى نفوذ اللواء حسن العمرى الذى عمل معه فى وزارة المواصلات خلال حكم الإمام أحمد!

وظّف الحجرى نفوذه إبان حكم آل حميد الدين فى التنكيل بكل دعاة التقدم والتحرر باسم الدين عبر سطوة جماعة الأمر بالمعروف التى كان يتزعمها، بل وكانت حكومة الحجرى سيفا مصلطا على رقاب الحركة الوطنية بعد نجاح الثورة وتثبيت الجمهورية. . هكذا كان يدعى عليه خصومه!

كتبت تعليقا فى روز اليوسف ضمنته خلفية تاريخية للمشكلة الحدودية بين اليمن والسعودية بمناسبة اشتراك بعض اليمنيين من منطقة نجران فى حادث الاعتداء

على الكعبة خلال زيارة الحجرى والنعمان الابن للسعودية، وما تعنيه من احتجاج ضد التنازل الضمنى عن منطقة نجران وجيزان . . وكذا ما تردد بالحق أو الباطل «حول أموال تقاضاها الرجلان فى مقابل التوقيع . . وهذا كل ما وراء غضب الأستاذ النعمان وبحثه عنى!

فى ردى على رسالة الأستاذ النعمان قلت: أذكر . . ويذكر الأستاذ النعمان لقاءنا فى منزل القاضى عبد الرحمن الإيريانى فى تعز أوائل عام ١٩٧٣ لإجراء حديث معه حول تداعيات الأزمة السياسية التى كانت تشهدها اليمن آنذاك حول ما تردد عن تنازل اليمن عن حقوقها فى اتفاقية الطائف مع السعودية، وما أدت إليه من احتلال الطلبة اليمنيين مبانى السفارات اليمنية فى عدد من الدول العربية والأوربية . . وأذكر ويذكر الأستاذ نعمان مبادرته للدفاع عن موقف ابنه . . حين قال إن الأولى بى كصحفى أن أكتب عن الأرض العربية السليبة فى الجولان وسيناء . . أما نجران وجيزان فرب الدار أعرف بما يملك وما لا يملك!

ثم قال: وأما عن الطلبة اليمنيين الثائرين . . فهذا حال الطلبة فى كل نظام . . لقد ثاروا حتى على ديجول على حد قوله!

وقلت إن القاضى الإيريانى تدخل فى الحديث وقال:

«يا أخ يوسف عليك بقراءة اتفاقية الطائف . . ولك بعد ذلك أن تحكّم ضميرك الصحفى فيما تشهده اليمن من أزمات . . وسوف نقبل بحكمك لنا أو علينا!

هكذا نشرت نص ما جرى بينى وبين الأستاذ النعمان ومع القاضى عبد الرحمن الإيريانى كاملا فى مجلة روز اليوسف بتاريخ ٧ مايو ١٩٧٣.

ويرحم الله الصديق محمد أحمد النعمان . . فقد اغتيل فى شوارع بيروت بعد ذلك وعزيت فيه والده بمنزله فى صنعاء، وفى أعقابه كان اغتيال القاضى الحجرى فى لندن ـ رحمه الله ـ وتعددت الأسباب والتكهنات . . ولم أقطع بأن التنازل عن نجران وجيزان كان السبب . . قلت بدقة وحذر . . «تردد»!

وهى كلمة متداولة صحفيا عندما يفتقر الخبر لما يؤكد صحته، ولعلى فى «ترددى» وإعادة تأكيد «ترددى» قد أنصفت الشهيد ضمنيا، فلم يكن بعدها سببا حتى يغضب والده!

تنفست الصعداء على حد تعبير كتاب القصة . . ولم تنته قصتى مع رئيس وزراء اليمن الأسبق .

هكذا أفلت من حكمة الأستاذ النعمان وبلاغته إلى حين أهبة الاستعداد للحوار معه مباشرة فى وقت لاحق مع القبول سلفا بالهزيمة أمام منطقه وبلاغته ، ورحت أسترجع ذكرياتى مع الأستاذ أحمد نعمان . الحكيم ، الفقيه ، المؤرخ ، والمحدث ، والشاعر ، والسياسى والراوية الظريف !

تذكرته وأولاده فى القاهرة يشكلون حيزا هاما فى حركة المقاومة مع القاضى الزبيرى شاعر الثورة وأبوها الروحى فى مواجهة حكم حميد الدين . واستعدت ذكرياتى عن نشاطه السياسى فى مقره بالدقى . . إذ كنا نتردد عليه نستمتع ونستمع منه الكثير عن أمجاد اليمن الغابرة . . وانتفاضاته وثوراته المتواصلة لكسر أسوار العزلة القدرية حول شعب اليمن ليلحق بركب العرب ، إذ كان المعلم أبرز صفاته !

وتذكرت الأستاذ النعمان وهو يختلف مع الطلبة اليمنيين الذين كانوا يتلقون العلم آنذاك فى القاهرة . . وكيف حسم الخلاف لحساب الجديد الذى كان يتزعمه الطالب محسن العينى الذى تولى رئاسة الحكومة بعد ذلك فى اليمن عدة مرات !

وتذكرته فى مؤتمر حرض الذى عقد للمصالحة بين مصر والسعودية . . وجولاته بين خيام اليمنيين الذين يؤيدون الجمهورية بزعامة القاضى عبد الرحمن الإريانى . . والملكيين برئاسة أحمد الشامى . . والجمهوريين المنشقين برئاسة ابنه محمد أحمد نعمان .

وتذكرته عندما احتدم الخلاف بين اليمنيين وهو يخاطبهم قائلا : ما لكم يا أهل اليمن بعضكم متهم بالعمالة لمصر وبعضكم بالعمالة للسعودية . . لماذا لا تتوحدون على العمالة لليمن !

ويحكى الأستاذ النعمان فى سخرية لاذعة «أن المصريين عاملونا معاملة الأنبياء» ثم يقول : «ألم يضع فرعون مصر النبى يوسف عليه السلام فى السجن» ، فى إشارة إلى احتجازه ومجموعة من القيادات اليمنية فى السجن الحربى بالقاهرة بناء على أوامر شمس بدران وطلب الرئيس عبد الله السلال آثر اختلافه معهم كما أسلفنا !

كان ـ يرحمه الله ـ يدرك أن الخلافات السياسية والحروب الأهلية لا تنتهى إلا بالمصالحة والحل الوسط، بشرط أن يقبله الطرفان أو الأطراف، ومع ذلك انتهى مشواره السياسى بما يشبه النفى الطوعى فى جنيف حيث وافاه الأجل!

كان يرى أن الشعب اليمنى ظل يقدس حكامه منذ نظام الإمامة فى القرن الثالث الهجرى واستمر أحد عشر قرنا، ومن هنا يلزم التدرج فى التغيير، وقال إن الأحرار التفوا حول البدر ونصروه، حتى يضربوا السيوف جميعا «يعنى أمراء أسرة حميد الدين» مثلما حالفوا بيت الوزير ضد الإمام يحيى عام ١٩٤٨.

ولعلنا من هنا نحسب أن سيرة حياة الأستاذ أحمد نعمان فى مسيس الحاجة إلى مجموعة من الباحثين لجمع أطرافها المبعثرة فى الكتب والشهادات والمقالات حتى تكتمل الصورة البانورامية لهذا الشيخ الجليل والمناضل الصامد الصبور، وقد قرأت تفريغا لتسجيل أملاه بصوته فى الجامعة الأمريكية فى بيروت حول أطراف من سيرة حياته، لكنها لا تفى بالغرض المنشود فى استجلاء صورته بكل جوانبها وملامحها، ولعل أبرز ما استوقفنى منها بالدهشة والاستنكار.. حين وصف المعارك التى خاضتها الثورة ضد أعدائها بالحرب بين المصريين واليمنيين، وأظنه كان يرد على القيادة السياسية فى مصر ممثلة فى جمال عبد الناصر عندما اختلف معه!

على أن القاضى الإيريانى تمكن فى النهاية بذكائه وخبراته بأساليب السياسة اليمنية.. من التخلص من الشامى والنعمان والعمرى من المجلس الجمهورى ومجلس الوزراء، تباعا، فيما استبعد من اليمن معظم القيادات التى حاربت مع الإمام البدر ضد الثورة.. واستوعبهم فى السلك الدبلوماسى فى الخارج.. مثال ذلك الشامى الذى كان وزيراً لخارجية البدر وأصبح سفيرا فى لندن.. وهاشم بن هاشم وزير الإعلام سفيرا فى بيروت.. ومحمد عبد القدوس أحد المنتمين لأسرة حميد الدين سفيرا فى بيروت.. إلخ.

ورغم أن محمد أحمد نعمان نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى حكومة الحجرى صرح فى جدة بأن مختلف القوى فى الجزيرة العربية تبارك اتفاق الوحدة.

رغم كل هذه الظواهر السياسية المطمئنة.. إلا أن حقائق الأمور وأسرارها كانت تنبئ بأن هناك ضغوطا قبلية مرتزقة.. وضغوطا خارجية رجعية وإمبريالية

واحتكارية . . تحاول الآن بشتى الوسائل والمغريات تحريك الأحداث من وراء الستار لصالحها . . لوقف تيار المد الوطنى اليمنى المتصاعد وإجهاض الوحدة اليمنية قبل ولادتها!

١١٦ـ حارس التوراة

كان فى غرفة المحفوظات بقصر الإمام أحمد فى تعز عام ١٩٦٣ بالحديدة نسخة أصلية نادرة من التوراة وكانت عبارة عن رقائق جلدية وربما ورق مصفر بالغ القدم . . لا أدرى، وللأسف أنها كانت داخل «فاتيرنه» من الزجاج دون أن يوضع معها أى من المواد الكيميائية التى تحفظها من الحشرات والفطريات وتقلبات الجو، ولا كان قائما على حراسة ذلك الأثر التاريخى الذى مضى عليه القرون سوى جندى يمنى بسيط ليس لديه سوى بندقية «جيرمان» قديمة لا تتسع خزانتها سوى لطلقة واحدة!

والأدهى والأمر أن تلك البندقية كانت تحتاج إلى تعميرها بهذه الطلقة إذا دعت الضرورة لاستخدامها فى حماية التوراة حين تتعرض للتشويه أو النهب المسلح، ثم إننى لاحظت أن الحارس كانت تضطره الظروف أحيانا إلى دخول «التواليت» أو التفريج عن النفس عبر شرب الشاى والحديث مع زملائه بعيدا عن التوراة وغيرها من الآثار والمخطوطات اليمنية، ولعلى من هنا استشعرت الخطر فى سياق حوار أجريته مع إحدى الصحف اليمنية آنذاك!

أذكر خلال زياراتى لليمن لشهود الاحتفال بعيد الثورة فى أعقاب حرب السبعين لحصار صنعاء، وكان معى مجموعة من الصحفيين المصريين والعرب الذين أعدت لهم وزارة الإعلام زيارة للمتحف الوطنى فى تعز حيث كان فى استقبالنا الأخ عبد الله المقحفى الذى طاف بنا ربوع المتحف وهو يشرح لنا تاريخ وأصل وفصل كل قطعة من محتوياته الأثرية، وشدد على امتناعنا عن التصوير!

لكنى لاحظت فى الطابق الأول خزانة مغلقة إلى جوار خزانة العطور، ولما سألت الأخ المقحفى عنها رد الأخ قائلا إن بداخلها التوراة الأصلية، وطلبت

الاطلاع عليها، فأمهلنى حتى جاء بحلقة بها العديد من المفاتيح حتى فتح الخازنة ورأيت بأم عينى التوراة الأصلية، ولما سألته إن كانت هى نفس التوراة فى قصر الإمام أحمد وأجابنى بالموافقة!

وسألته فى تعجب: أنا لم أشاهد حارسا واحدا منذ دخولى المتحف. . لماذا ؟ وقال: «نحن يحرسنا أرحم الراحمين. . ثم شرع يعلن سخطه على الروتين والتسيب والادعاء دوما بضآلة الإمكانات. . ومضى من الزمن سنوات لا أذكر عددها حتى عدت لزيارة المتحف الوطنى وعلمت أن الأخ عبد الله المقحفى قد لاقى ربه بعد أن عاد على قدميه إلى بيته، وأنه أوصى أسرته وأولاده بتسليم مفاتيح بعض غرف المتحف الوطنى إلى الرئيس على عبد الله صالح شخصيا، وكذا مستندات الوثائق والمخطوطات التاريخية الهامة التى سبق وتعرضت مرارا للسرقة!

ويشاء السميع العليم أن يرحل ذلك الرجل الأمين فى الوقت الذى صدر قرار مجلس الوزراء رقم ٦٣ لعام ١٩٩٦ بتعيين خلف له فى وظيفة، فيما صدر قرار وزير الثقافة والسياحة رقم ٨٤ لعام ١٩٩٦ بتعيينه مديرا تنفيذيا ومستشارا لمكتب الآثار بتعز. . ومن هنا نتساءل إن كانت التوراة لا تزال فى مكانها بالمتحف الوطنى بتعز، أم أنها نفس التوراة التى أهداها الرئيس ياسر عرفات إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين إثر توقيع اتفاقية السلام فى أوسلو؟

١١٧ ـ جاسوس إسرائيلى خطير فى الحديدة

أعلن المقدم على سيف الخولانى وزير داخلية اليمن فى مؤتمر صحفى بصنعاء يوم ٢٦ مايو ١٩٧٢ خبر القبض على جاسوس إسرائيلى فى ميناء الحديدة، رغم أن السفارة المصرية بصنعاء سبق وحاولت مرارا وفشلت فى أن تثنيه عن هذا الإعلان، إلى حين وصول ضابط مخابرات مصرى رفيع المستوى لاستلام الجاسوس وتأمين وصوله القاهرة، على نحو ما تم الاتفاق عليه عبر الاتصال الرئاسى الذى تم بين أنور السادات والقاضى عبد الرحمن الإريانى رئيس المجلس الجمهورى آنذاك!

بوصول ضابط المخابرات المصرى واسمه الكودى «النمر» راح يستجوب

الجاسوس الإسرائيلى فى البداية على مدى ثمانى ساعات متصلة، تحت شعار كونه صحفيًا مصريًا نجح فى إقناع المسئولين اليمنيين بتمكينه من إحراز نصر صحفى، لكن لأن الاستجواب تم فى مبنى مصلحة الأمن الداخلى وتحت إشراف المقدم محمد خميس المشكوك فى ولائه، ولأنه إثيوبى يدعى عبد القادر كبير وصل إلى صنعاء فى ذلك الوقت بصفته محامى، وعرض دفع عشرة ملايين دولار مقابل الإفراج عنه وإغلاق ملف قضيته، من هنا أدرك المقدم إبراهيم الحمدى نائب رئيس الوزراء وقتئذ خطورة الموقف، وتدخل شخصيا لتسليم الجاسوس الإسرائيلى إلى ضابط المخابرات المصرية حتى يستجوبه بحرية وفى أمان وفى المكان الذى يختاره.

وهكذا فى سرية تامة جرت عملية نقل الجاسوس إلى منزل نائ جرى استئجاره فى إحدى ضواحى صنعاء، حيث عاش ضابط المخابرات والجاسوس الإسرائيلى معا وتحت سقف واحد، يتناولان نفس الطعام وينامان على سريرين متقابلين ويتبادلان الحديث على مدى ٣٢ يوما متصلة. . ولسببين:

الأول: حتى تمارس مصر لعبة التمويه على مكان الجاسوس اليهودى، سواء عبر نشر خبر غير صحيح فى صحيفة الأهرام حول وصوله القاهرة، وبداية التحقيق معه، وسواء عبر تحريك وحدات بحرية عسكرية مصرية فى البحر الأحمر وتمركزها قبالة الشواطئ اليمنية تمهيدا لتهريبه!

الثانى: حتى يتمكن ضابط المخابرات خلال تلك الفترة من ممارسة الضغوط النفسية على الجاسوس الإسرائيلى وتفريغ كل ما لديه من المعلومات الهامة حول مهمته فى اليمن، وحول الأوضاع والآليات المخابراتية فى جهاز الموساد.

باختصار تبين أن الجندى اليمنى البسيط الذى قبض على الجاسوس الإسرائيلى فى الحديدة كاد يفرج عنه باعتباره سائحا أجنبيا، لولا أنه فوجئ بالجاسوس يعرض عليه مبلغا كبيرا من المال لم يحلم به من قبل، وكان ألفى دولار!

فى البداية ادعى الجاسوس لنفسه اسم يوسف يعقوب وصفته تاجر مغربى، وتم الاتصال مع السلطات المغربية حتى انكشف كذبه وتزويره جواز سفر مغربيًا، وبالاتصال مع جهاز المخابرات المصرية لمتابعة ملفات اليهود الذين هاجروا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ عن مصر، تبين أن اسمه باروخ زكى مزراحى وكان من سكان حى

«الظاهر» وتخرج فى كلية التجارة بجامعة القاهرة وعمل فترة مدرسا فى مدرسة شبرا الثانوية!

كانت القشة التى قصمت ظهر البعير، حين واجهه ضابط المخابرات المصرى بالصور المبهمة التى كانت فى حوزته عند القبض عليه، وكان خبير مصرى فى التصوير الفوتوغرافى قد استدعى خصيصا لفحصها، حيث نجح فى تجميع أجزائها المتفرقة، وعندئذ ظهرت المنشآت والمواقع الحيوية سواء فى الحديدة أو البحر الأحمر، وباب المندب والجزر اليمنية، وبمواجهة الجاسوس الإسرائيلى بها، أدرك أنه لا فائدة من الكتمان والمراوغة، وراح يعترف بكل ما لديه من أسرار ومعلومات بعد أن وعده ضابط المخابرات المصرى بطمأنة زوجته على حياته، والتخفيف من العقوبة التى تنتظره فى القاهرة.

ومما لا شك فيه أن إسرائيل كانت لديها مخاوف حقيقية من احتمالات إغلاق باب المندب فى وجه الملاحة الإسرائيلية وذلك ما تحقق بالفعل مطلع حرب أكتوبر ١٩٧٣، فيما كانت مصر تتوقع أن تبذل إسرائيل قصارى جهدها للإفراج عن جاسوسها قبل أن يضطر إلى البوح بما لديه من أسرار ومعلومات عسكرية ومخابراتية بالغة الأهمية، الأمر الذى استغرق الصراع حوله بين المخابرات المصرية والمخابرات الإسرائيلية ما يزيد على شهر كامل، حيث شارك فى عمليات التمويه على مكانه ونقله من صنعاء وحدات من البحرية المصرية وإحدى الغواصات وطائرة مروحية تابعة لدولة صديقة.. إضافة إلى دور مقدر للمقدم إبراهيم الحمدى حين تدخل شخصيا للمرة الثانية وفى الوقت الحرج لإنقاذ العملية برمتها من الفشل المحقق.

فى مطار القاهرة كان المشير أحمد إسماعيل مدير المخابرات المصرية آنذاك فى استقبال الطائرة التى حملت الجاسوس الإسرائيلى بعد رحلة من الأهوال منذ إقلاعها سرا من اليمن مما يؤكد على أنه كان صيدا ثمينا، ولأن تلك الملحمة العجيبة حافلة بالكثير من الوقائع والتفاصيل المثيرة، من هنا يلزم انتظار كتاب الصديق محمد مصطفى الكاتب الصحفى بجريدة السياسة الكويتية بعنوان «حرب المخابرات بين العرب وإسرائيل»، وهو قد نشر الفصل الخاص بالجاسوس الإسرائيلى فى حلقتين منذ الأول من يناير ٢٠٠١ بمجلة الهدف الكويتية!

١١٨ - من قتل الرئيس إبراهيم الحمدى؟

بعد ٢٣عاما من صمت أسرته والغموض الذى لا يزال يكتنف مقتله وأخيه فى يوم ١١من أكتوبر عام ١٩٧٧، نشرت الصحف اليمنية والعربية ووكالات الأنباء أخيرا خبرا سياسيا هاما يؤكد اتهام الشقيق الأصغر للرئيس اليمنى الراحل إبراهيم الحمدى خليفته فى حكم صنعاء رئيس شمال اليمن - حينها - المقدم أحمد حسين الغشمى بقتل شقيقه الأكبر «إبراهيم» وشقيقه الأوسط «عبدالله» الذى كان قائدا لقوات العمالقة واللذان لقيا مصرعهما فى وقت واحد.

وفى أول حديث للصحافة المحلية منذ اغتيال الأخوين الرئيس «إبراهيم» وشقيقه «عبدالله» الحمدى قال شقيقهما الأصغر المهندس عبد الرحمن الحمدى إن أخاه إبراهيم فى اليوم الذى لقى فيه مصرعه كان قد أمره بتجهيز الغذاء فى منزله بحى حده من مدينة صنعاء، وخلال تجهيز الغداء وجده مرتديا ملابسه، وعندما سأله رد عليه (إبراهيم) بأن المقدم أحمد الغشمى الذى كان نائبه اتصل به للتو ودعاه للغداء فى منزله.

وزاد (عبد الرحمن) قائلا: إن السيارة التى نقلت الرئيس الحمدى من منزله إلى منزل أحمد الغشمى عادت من دونه وعندما أرسلت له سيارتين من حراسته الشخصية إلى بيت الغشمى للسؤال عنه قيل لهم إن الرئيس «مخزن» فى الداخل أى يتناول القات وطلب منهم الانتظار فى ديوان الغشمى ووزع القات عليهم وبعد فترة قيل لحرسه إن الرئيس الحمدى ونائبه الغشمى ذهبا إلى مقر القيادة (رئاسة الجمهورية).

وقال عبد الرحمن الحمدى إن جريمة مقتل أخيه الرئيس إبراهيم الحمدى تمت فى حقه وغدر به بحجة دعوته للغداء فى منزل نائبه الغشمى.

وكان بيان قد صدر فى الحادى عشر من أكتوبر عام ٧٧ من مجلس القيادة الذى كان يمثل رئاسة الدولة نعى وفاة الرئيس إبراهيم الحمدى وشقيقه المقدم عبد الله الحمدى فى ظروف غامضة، وترددت حينها أنباء وتفسيرات متباينة للحادث..

ويعد إبراهيم الحمدى من أبرز الرؤساء الذين عرفتهم اليمن فى تاريخها المعاصر، وقد وصل إلى حكم شمال اليمن فى الـ١٣ من يونيو عام ١٩٧٤ من خلال حركة انقلابية قادها مجموعة من ضباط الجيش ضد القاضى عبد الرحمن الاريانى رئيس المجلس الجمهورى المتوفى فى دمشق عام ١٩٩٨ بعد أن أجبر على تقديم استقالته ومغادرة صنعاء منفياً إلى سورية، وتبنى الحمدى برنامجا للإصلاح المالى والإدارى من خلال تنظيم سياسى جديد بعد حل الاتحاد اليمنى وضم فى صفوفه شخصيات عسكرية ومدنية تنتهج فلسفة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وأدت سياسة الحمدى إلى نقل اليمن خلال ثلاث سنوات نقلة نوعية فى ظل ظروف إقليمية ودولية مهيأة أتاحت له جنى ثمار كثير من علاقاته بالخارج فى سبيل توفير أمن واستقرار الداخل، غير أنه فى مقابل سياستها التقدمية استعدى أكبر الشخصيات القبلية فى الداخل ومنها الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر (رئيس البرلمان حاليا) والذى أجبر على التنحى من رئاسة مجلس الشورى، ويعتبر زعيم إحدى أكبر قبيلتين تؤثران فى اليمن هى قبيلة حاشد. . وأمام تجاوب القبائل مع النظام الجديد ظهر تقارب الحمدى الواضح تجاه حكام جنوب اليمن فى عدن وبالذات الرئيس الراحل سالم ربيع على اللذين كانا قد قررا إعلان، قبل اغتيال الحمدى، وحدة شطرى اليمن فى اليوم التالى لاغتياله.

ثم يواصل الخبر المثير سر المزيد من المعلومات: «إذ رغم أن اتهامات الشارع اليمنى طالت الرئيس الغشمى حول مسئوليته عن مقتل الحمدى حيث حولت جماهير المشيعين جنازته إلى مظاهرة لقذف الغشمى بالأحذية والحجارة وترديد الاتهامات المباشرة إليه وقد نشرت «صحيفة الثورة اليمنية صورة للمظاهرة فى اليوم التالى، إلا أن الغشمى لم يبق على كرسى حكم صنعاء سوى ثمانية أشهر فقط من اغتيال سابقه الحمدى، فقد أغتيل بقنبلة موقوتة حملها مبعوث من قادة عدن الماركسيين فى حقيبة فتحها المبعوث فى مكتب الغشمى فانفجرت مخلفة أشلاء من جسدى الغشمى والمبعوث الانتحارى الذى جاء من عدن إلى صنعاء تحت مبرر تسليم رسالة سرية من حكام عدن تتعلق بإعلان الوحدة اليمنية.

ثم يشير الخبر إلى أن إبراهيم الحمدى عرف بالرئيس المثقف والقائد العسكرى والسياسى الطموح، حيث تدرج بعد تخرجه من كلية الطيران والحربية فى عدة

مناصب عسكرية إلى أن صار نائبا لرئيس الوزراء للشئون الداخلية ثم قائدا للحركة التصحيحية ورئيسا لمجلس القيادة «رئاسة الدولة» وقائدا عاما للقوات المسلحة، ثم يؤكد أن إبراهيم الحمدى كان معروفا لدى بعض أسرته منذ صغره من أنه سيصبح ذا شأن عظيم فقد اهتم به والده محمد الحمدى الذى كان قاضيا ورجل فقه دونا عن باقى أبنائه. ويعيد عبد الرحمن سبب ذلك إلى رؤيا عجيبة رأها والده فى منامه عن ولده إبراهيم ورفض البوح بها إلى أن توفى لكنه كان يقول لباقى اخوته وأفراد أسرته إن إبراهيم سيكون له شأن عظيم»!

إلى هنا كانت نهاية نص الخبر الذى تناقلته الصحف ووكالات الأنباء من صنعاء فى الأول من أكتوبر عام ٢٠٠٠، ولعله قطع الشك باليقين حول ملابسات اغتيال إبراهيم الحمدى وشقيقه، والعناصر الضالعة فى الحادث خاصة أن الشهادة من أهلها!

١١٩ـ محاضرة فى نادى الضباط

هنا يأتى دورى للشهادة على ما جرى.. إذ كنت آنذاك فى صنعاء وبصحبتى المفكر والكاتب الكبير محمد عودة فى أول زياراته لليمن فى أكتوبر عام ١٩٧٧، والتقينا بالرئيس إبراهيم الحمدى وأجرينا معه حواراً لمجلة روز اليوسف، وقلت له إننى والأستاذ عودة سوف نلقى غدا محاضرة مشتركة فى نادى الضباط بصنعاء حول العلاقة القومية بين ثورة ٢٣ المصرية وثورة ٢٦ سبتمبر اليمنية، ثم رجوته إن كان لديه الوقت الفائض من مشاغله الرسمية حتى يشرفنا بالحضور!

قال: كنت أود الحضور بالفعل، لكنى أزف لكما خبر توجهى غدا إلى عدن للاحتفال بذكرى ثورة ١٤ أكتوبر، وقد أرسلنا لهذه المناسبة من صنعاء بأعلام الجمهورية العربية اليمنية وهدايا من العنب، وإن شاء الله تسمعون عن إعلان بيان يقرب للجماهير اليمنية أمانيها بنهاية التشطير وإعلان الوحدة!

ثم استدرك قائلا: هذا الكلام ليس للنشر الآن إلى حين عودتى من عدن!

ولأن الوقت بات محدوداً.. لذلك طلبت من سكرتير الرئيس إبراهيم الحمدى

وكان لقبه أو اسمه الثانى «الانسى» على ما أذكر . . أن يبعث إلى الفندق الذى نقيم فيه من أسلمه هديتى للرئيس، وقد تم ذلك بالفعل ظهر اليوم التالى!

والحكاية أننى فى زيارتى السابقة لليمن أبديت للرئيس إبراهيم الحمدى ملاحظة على النجفة «المودرن» التى تتدلى من سقف مكتبه، مما لا ينسجم مع الطراز المعمارى اليمنى العريق لمقر الرئاسة، ثم قلت له : اسمح لى سيادتك أن استبدلها بنجفة شرقية أكثر ملاءمة . . وابتسم الرئيس ولم يعلق . . ومن ثم اعتبرت سكوته دليلاً على الموافقة وقبول الهدية سلفا . . وكانت النجفة فى حوزتى منذ سنوات بعيدة وهى من الطراز التركى القديم يتفرع عنها ثمانية أفرع من الكريستال «البكاراه» تنتهى فى قمتها بالفنايير الزجاجية الحمراء .

١٢٠ - زيارة غامضة ورسالة مشبوهة

صباح اليوم التالى الموافق ١٢ أكتوبر عام ١٩٧٧ كنا فى الفندق بانتظار مجموعة من الشباب اليمنى ممن ينتمون للفكر القومى عامة والفكر الناصرى خاصة، ومضى على موعد اللقاء ساعة حين تنامى إلى سمعنا تلاوة متواصلة للقرآن الكريم من إذاعة صنعاء، ثم لم تمض دقائق حتى فوجئنا بزيارة شخصية يمنية محسوب وعائلته على اليمين الرجعى وعلاقاتها الوثيقة بنظمها الحاكمة فى الجزيرة العربية معروفة للجميع!

سألناه عما وراء تلاوة القرآن من إذاعة صنعاء بصفة مستمرة . . وكان حاضرا بالإجابة . . بل وكانت السبب فى حضوره كما تبين لنا فيما بعد، قال إنه جرى بالأمس اغتيال إبراهيم الحمدى وشقيقه عبد الله، وأمهلنا حتى نفرغ شحنات الانزعاج والأسى، ثم قال إن جماعة الأمر بالمعروف كانت على ما يبدو وراء الاغتيال . . فلما سألناه عما وراء الاغتيال؟ قال : لأنهما كانا يرتكبان جريمة الزنى فى منزل خاص مع فتاتين فرنسيتين!

والحقيقة أننى لم أدهش لحالة الصمت والسكون التى خيمت وقتئذ على الشارع اليمنى منذ إذاعة الخبر، إذ على ما يبدو أن عادة الثأر للقتلى المتبادلة بين الخصوم،

وكذا الإعدامات السياسية بحد السيف فى ميدان «العرضى» إبان إمامة بيت حميد الدين وغيرها من المشاهد التى يسفك فيها الدماء وتزهق الأرواح، باتت وكأنها القدر الوثيق الصلة بالمجتمع اليمنى ومتناقضاته السياسية وموروثاته الشعبية، لكن وهنا شفافية ومصداقية الضمير اليمنى كان هناك ثمة إجماع شعبى على أمرين:

الأول: أن إبراهيم الحمدى تحديدا كان اغتياله متوقعا.. إذ كان على رأس قائمة خصوم اليمن المرشحين للتصفية الجسدية قبل أن يتمادى فى توجهاته السياسية الوطنية والقومية على حساب النفوذ ومصالح الرجعية والإمبريالية فى المنطقة!

ثانيا: الرفض القاطع لمحاولة تلويث سمعة إبراهيم الحمدى وشقيقه عبر اتهامهما معا بجريمة الزنى.

على أننا حين ترددنا على «مقيل» عبد الله حمران الممثل الشخصى للرئيس إبراهيم الحمدى وعديل شقيقه عبد الله، لم نستشف فى حديثه سوى نبرة الحزن باعتبار أن الموت نهاية كل حى، إذا كان بذكائه وخبراته السياسية والثقافية والإعلامية يدرك أن القتلة لهم أذان مسلطة داخل مقيله.. ولذلك ظل - يرحمه الله - يردد عبارة لها مغزاها ولا يمكن أن يحاسب عليها «وفق الله الرئيس الغاشمى وسدد خطاه وجعله الله خير خلف لخير سلف»!

بعدها التقيت مراراً مع عبد الله حمران فى الخرطوم إثر تعيين الغاشمى له سفيراً لليمن بالسودان، وعندئذ كانت الأجواء آمنة وفى الوقت متسع للبوح حول مزيد من أسرار وتفاصيل اغتيال الحمدى وشقيقه عبد الله!

قال إنهما كانا لا يلتقيان أبدا فى مكان واحد، حتى إذا اغتيل أحدهما انبرى الآخر لمواصلة المسيرة، فإن استدعى الأمر ضرورة اللقاء ففى منزل نائ قريب من مطار صنعاء، وهو الذى نقلت إليه جثتاهما ثم جثتا الفتاتين الفرنسيتين بعد اغتيالهما، وقال إن المطلوب آنذاك كان جمع الشقيقين واغتيالهما فى مكان واحد!

وقال حمران إن الغاشمى كان قد اتصل تليفونيا بعبد الله الحمدى يدعوه إلى الغذاء فى منزله، فى الوقت الذى كان قد اتصل بإبراهيم الحمدى يلح عليه حضور الغذاء بمناسبة عودة عبد العزيز عبد الغنى رئيس الوزراء من العلاج فى الخارج، فلما دخل مقيل الغاشمى اصطحبوه إلى منزل متاخم بحى الصافية حيث وجد

شقيقه عبد الله جثة هامدة ملقاة أرضا، وعندئذ حاول أن يشهر مسدسه فإذا به يسقط صريعا إلى جانبه عبر طلقات مسدس كاتم الصوت. . وقال لى عبد الله حمران إن ملحقًا عسكريًا لإحدى السفارات العربية كان من شهود الواقعة، وأنه أقام فى تلك الليلة سهرة عارمة فى منزل امرأة لبنانية مشبوهة بصنعاء احتفالا بمصرع الحمدى وشقيقه. . ثم أضاف أن شقيقة الحمدى راحت تعزى بعد شهور فى مصرع الغاشمى. . فلما دخلت منزله اطلقت من حنجرتها زغرودة مدوية!

والشاهد أننى أحببت إبراهيم الحمدى إذ كان يجسد، على حد تقديرى، آمال الشعب اليمنى وطموحاته وكرامته. . وربما لأننى كنت أعتقد كذلك أنه نسخة يمنية من فكر وطموحات جمال عبد الناصر، لكن بعد فترة من الشكوك التى حامت حوله إثر زعامته للحركة التصحيحية التى أطاحت بالقاضى عبد الرحمن الإريانى وأعضاء المجلس الجمهورى تشككت فى موقفه، إذ كان بعض العناصر القيادية فى الحركة التصحيحية من عملاء الرجعية العربية المعروفين للكافة، وحتى نجح إبراهيم الحمدى فى إبراء ذمته عبر تنحية بعضهم عن السلطة تباعا وإلهائهم بالمناصب والثراء، فيما كانت علاقاته برموز الحركة الوطنية والقومية فى اليمن متصلة وقوية من وراء الستار، وكم من المرات التى كان يتدخل شخصيا للإفراج عنهم بعد اعتقالهم من قبل المقدم محمد خميس مدير الأمن العام آنذاك، وهو كان واحداً من أهم الضالعين فى خطة اغتيال إبراهيم الحمدى كما تبين فيما بعد!

١٢١ ـ لقاء مع الغاشمى

ماذا كان بوسعى كصحفى أن أفعله وسط التعتيم الرسمى حول الحادث؟

بادرت فى البداية إلى إرسال خبر نشرته مجلة روز اليوسف بعد خضوعه للرقابة التى فرضت على الصحف ووكالات الأنباء وقتئذ فى صنعاء، لمحنا ضمنيًا من خلاله لأسباب اغتياله، كونه محبوبًا من الشعب اليمنى وحافظ على ثوابته الوطنية والدفاع عن قضاياه، ولأنه تحقق فى عهده أمن واستقرار وتنمية لم تشهده اليمن من قبل.

بعدها طلبت والأستاذ محمد عودة لقاء المقدم حسين الغاشمى الرئيس الجديد لليمن، وأكد لنا أنه سوف يسير على نفس نهج وسياسات إبراهيم الحمدى، وكان الرجل خلال حوارنا القصير معه يحاول أن يخفى قلقه وتوتره. . حتى فاجأناه بالشائعة الموتورة التى تتهم الحمدى وشقيقه بارتكاب جريمة الزنى مع فتاتين فرنسيتين. . وحاول أن يوحى لنا بأنه يسمع هذه الشائعة لأول مرة. . وأنها غير صحيحة، وعندما سألناه حول معلوماته عن الحادث. . قال إن الإجابة مؤجلة إلى ما بعد إعلان نتيجة التحقيق فى الحادث!

ولأن علاقتى بالرئيس إبراهيم الحمدى معروفة، وسبق أن التقيته وتحاورت معه مراراً، ثم لأننى لم أتوان عن محاولة كشف ملابسات الحادث عبر كل من يجرؤ على البوح بالحقائق. . ثم لأننى كنت شبه الوحيد الذى كان يبكى كما النحيب فى جنازة تشييع جثمان الحمدى وشقيقه. . من هنا أحسست أن هناك من يراقب تحركاتى والأستاذ عودة ويتسمع إلى أقوالنا. . وقد تأكدت ظنونى بالفعل عبر الشاب الذى أختارته وزارة الإعلام لمرافقتنا وقتئذ!

وغادرنا الفندق فى طريقنا إلى المطار ومنه إلى عدن. . وهناك كان وداعنا بالابتسامات الباهتة وهدايا البن وكأنهم يتخلصون من ضيوف غير مرغوب فيهم إلى غير رجعة!

ويشاء حظنا العاثر الإعلان على تأجيل الرحلة إلى عدن لعطل فى الطائرة يستغرق إصلاحه وقتا، وكنا قد جلسنا فى مقاعدنا وربطنا أحزمة الأمان بالفعل.

ولم يكن لدينا ثمة استعداد للعودة إلى الفندق الذى استضافتنا فيه وزارة الإعلام، ولذلك هجعنا فى غرفة بفندق الزهراء دون أن نتصل بأحد، حتى كان موعد السفر إلى عدن صباح اليوم التالى!

١٢٢ ـ شهادة الرئيس سالم ربيع على

التقينا بالرئيس سالم ربيع على مباشرة بمقر الرئاسة فى عدن. . وكان الرجل حزينا ومهموما. . قلنا له إن إبراهيم الحمدى كان قد أبلغنا بسفره الوشيك إلى عدن

فى اليوم السابق لاغتياله - وقال إنه أرسل الإعلام والعنب وزف إلينا بشرى الإعلان عن خطوة سياسية متقدمة على طريق الوحدة فى مناسبة الاحتفال بذكرى ثورة ١٤ أكتوبر!

وقال سالمين: وصلتنا الإعلام وهدايا العنب بالفعل ولم يصل إبراهيم الحمدى.. إذ كنا على موعد لإعلان مجلس رئاسة وحدودى لشطرى اليمن، نتبادل فيه الرئاسة بشكل دورى.. ويبدو أنه كان على خصوم اليمن وأعداء وحدته تسريع وتيرة إجهاض هذه الخطوة بأى وسيلة عندما علموا بها.. ولذلك كان تنفيذ عملية اغتيال الحمدى وشقيقه متسرعة ومتخلفة ومكشوفة.

وقال: نحن نعتبر رحيل الحمدى خسارة كبرى لليمن وفى ظروف تاريخية عصيبة أحوج ما تكون إلى استمرار قيادته، وكنا قد أعددنا لأضخم الاحتفالات الرسمية والشعبية فى تاريخ اليمن الديمقراطية لاستقباله، وزيارته ليس فقط لعدن ولكن لكل محافظات الجمهورية باعتباره زعيمًا وطنيا يمنيًا، حقق لبلاده الكثير على صعيد استقلالها وإعادة بنائها وتحديثها ودفع مسيرتها باتجاه الوحدة بين الشمال والجنوب.

وأشعل الرئيس «سالمين» سيجارة وتلك عادة جديدة لم أعرفها عنه من قبل ثم عاد يقول فى نبرات حزينة: «قبل الحادث بأيام تلقيت عن طريق سفيرنا فى بيروت رسالة شخصية من القاضى عبد الرحمن الإريانى الذى يعيش فى دمشق منذ قيام الحركة التصحيحية بقيادة إبراهيم الحمدى فى ١٣ يونيو ١٩٧٤ أهم ما جاء فى رسالته أنه يبارك ويؤيد النهج السياسى الذى يتزعمه الحمدى فى الداخل والخارج. وأنه - أى الحمدى - قطع أشواطا بعيدة وصعبة على طريق تقدم اليمن ورفاهية واستقلال إرادته ووحدته. وأن هذه الإنجازات ربما تكون مدعاة لمزيد من التحديات والمؤامرات التى تحاك ضده فى الخفاء من أعداء اليمن، ثم يختم القاضى الإريانى رسالته الشخصية فيوصنى خيرا بإبراهيم الحمدى ومناصرته وشد أزره والتفاهم معه على ما يحقق مصلحة وطموحات الشعب اليمنى لإنهاء التشطير واستعادة اليمن وحدته»!

سألنا الرئيس سالمين: متى سمعت نبأ اغتيال الحمدى؟ قال: كنت أتتبع إذاعة

صنعاء بانتظار إعلان بيان رسمى متفق عليه مع الحمدى حول زيارته إلى عدن للتهنئة بالعيد العاشر لاندلاع ثورة ١٤ أكتوبر وإذا بسلسلة متوالية ومفاجئة لتلاوة القرآن ودون تفسير للأسباب وعندئذ سيطر عليّ شعور بالقلق وأحسست أن شيئا غير عادى قد حدث فى صنعاء. وتذكرت رسالة الإيريانى التى وصلتنى منذ أيام وطلبت الاتصال بالرئيس الحمدى تليفونيًا. وكان الرد من القصر الجمهورى فى صنعاء أنه غير موجود ومشغول فى اجتماع مهم. وطلبت الاتصال بنائبه المقدم حسين الغاشمى. وكانت الإجابة سلبية. وصدق ما توجسته من مخاوف فإذا نبأ اغتياله يذاع بدلا من نبأ زيارته لعدن.

١٢٣ - مقاومة حكم قحطان الشعبى

ولأن العلاقات الشخصية بين سالمين وإبراهيم الحمدى بدأت على حد علمى إثر نجاح ثورة ١٤ أكتوبر فى الجنوب عندما لجأ سالمين إلى شمال اليمن حتى يعد للمقاومة ضد حكم قحطان الشعبى، عندئذ تعرف على عبدالله الحمدى ثم إبراهيم الحمدى حيث كان لهما دور هام فى إخفائه ومساندته. وربما كان لتلك العلاقة الشخصية القديمة أثرها الواضح على العلاقات بين البلدين منذ تولى الحمدى السلطة، وخلال السنوات الثلاث من حكمه لم تثار مشكلة ما بين الشطرين فيما توقفت الاشتباكات العسكرية على حدود الشطرين، وقام سالمين بزيارة صنعاء ثلاث مرات وكانت هناك لقاءات أخرى جمعت بين الزعيمين فى المؤتمرات الدولية والعربية التى عقدت خارج اليمن، وكان بينهما حوار متصل وعمل مشترك.

وقال لنا سالمين: الحقيقة أن إبراهيم الحمدى كان مؤهلا لزعامة اليمن الموحد وهو لم يكن ينتمى إلى قبيلة كبيرة تسعى إلى الحكم والسلطة، لكنه تربى فى بيت علم ودين وثقافة وكان والده قاضيا، والحمدى كان يجمع ما بين تلك المقومات الاجتماعية والثقافية وبين احتكاكه المبكر بالحركة الوطنية وتنظيماتها السياسية، وخبراته فى السلطة وفى القوات المسلحة وشهادتى عليه أنه كان يعرف تماما ماذا يريد ومحددا بدقة لأهدافه السياسية وأسلوبه الواثق المبرمج فى إنجازها.

سألناه: يردد البعض فى اليمن أن زيارة الحمدى لعدن، كان وراءها إعداد

مشترك بينكما للإعلان عن خطوات وحدوية بين الشمال والجنوب وأنها كانت أحد الأسباب التى أدت إلى اغتياله قبل إعلانها؟

قال: «ربما كان ذلك صحيحا.. ونحن كيمنيين نشجب هذا الأسلوب الخسيس فى تصفية الحسابات. والشعب يكن للحاكم المحترم احتراما مهما كانت مواقفه وهويته مادام متمسكا بثوابت اليمن وسيادته، وإذا حدث وأقصى من منصبه فإن ذلك يتم سلميا وفى هدوء وتكريم، وهذا الأسلوب فى تصفية الحسابات. له مخاطره فى المستقبل فى بلد يعتبر ترسانة مسلحة. ومن ثم كانت قناعة الشعب اليمنى بأن اغتيال الحمدى كان فى إطار مخطط مشبوه ودخيل على الحياة السياسية فى اليمن و.. لعل المفارقة القدرية أن يتم اغتيال سالمين فيما بعد عبر نفس أسلوب اغتيال الحمدى!

١٢٤ ـ تهجير العمالة اليمنية للخارج

على أن سالمين واصل شهادته قائلا: «أحسب أن اغتيال الحمدى لم يكن يستهدف فى تقديرنا شخصه فحسب. وإنما كان لصالح قوى سياسية رجعية ورأسمالية داخلية وخارجية تتعارض مصالحها مع نهج الحمدى فى استقلالية الإرادة اليمنية وتوجهاته لبناء التنظيم السياسى. والميثاق الوطنى. وإرساء قاعدة اقتصادية تنأى بالحكم عن الوصاية والضغط على الخارجية!

أشعل سيجارة وبدا وكأنه يفكر فى موضوع هام ثم قال: «الحقيقة أن التطور الهائل فى وسائل التجسس وجمع المعلومات. ربما كان وراء علم أعداء الشعب اليمنى بما كان مقرراً إعلانه من خطوات وحدوية خلال زيارة الحمدى لليمن الديمقراطية ولذلك عجلوا باغتياله قبل أن تصبح حقائق ملزمة لغيره من القيادات السياسية من بعده.

فى مؤتمر «قعطبة» كان هناك اتفاق بيننا على تطوير العلاقات بين شطرى اليمن إلى مستوى أرقى. بدأنا بوضع كتاب موحد من جزءين عن تاريخ اليمن يدرس فى جميع مدارس المرحلة الأولى حتى ننأى بالجيل الجديد عن أوضاع التمزق والانفصال الذى عاشه الجيل القديم. وكان هناك اتفاق على تطوير التعليم هنا

وهناك وربطه بخطط التنمية وكذلك تنسيق البرامج فى التعليم الجامعى، بما يواكب حاجتنا وظروفنا وبيئتنا.

سألناه وعلى الصعيد الاقتصادى.. هل كان إنذار الحمدى للتجار بأن شهر العسل قد انتهى إيذانا بخطوات اقتصادية متفق عليها مع الجنوب؟

وقال: كان الحمدى حانقًا على الاقتصاد الاستهلاكى والترفى وكان عازمًا على وضع أسس جديدة للاقتصاد المبرمج يرتكز على قاعدة صناعية زراعية بما يمكنه من معالجة الاختلال فى ميزان المدفوعات الذى يجرى تمويله من الخارج ويجعل إرادة الحكم تحت طائلة الضغوط، وكان همه الأكبر إجهاض مخطط تهجير الشعب اليمنى للعمل فى الخارج لوقف تنفيذ مشاريع خطة التنمية الخمسية.

قلنا: بصراحة يا سيادة الرئيس ما هى الخطوات التى كان من المقرر إعلانها خلال زيارة الحمدى لعدن.. خاصة أنه ترددت معلومات حول مجلس اتحادى لليمن بشطريه كان واحدا من هذه القرارات وأن الحمدى كان مرشحًا لرئاسته؟

قال: لن أجيب بالنفى على هذا السؤال. فالحقيقة أنه كان من المقرر الإعلان عن علم واحد لليمن ونشيد واحد وخريطة واحدة وشعارات واحدة وسفارات موحدة فى عدد من بلدان العالم. والذى أود التأكيد عليه أن الرئيس حسين الغاشمى أعاد على مسامعنا التزامه بكل ما التزم به الرئيس الحمدى من خطوات ثابتة على طريق وحدة اليمن!

استغرق حوارنا مع الرئيس سالم ربيع حول دلالات اغتيال الرئيس الحمدى طويلا.. وحين حاولنا أن نطرح عليه عددا من الوقائع التى سمعناها فى صنعاء حول القوى التى يرجح مشاركتها فى الحادث.. إلا أنه لم يؤكد إحداها، فقط أشار إلى أن اغتيال الحمدى لم يكن مصادفة. وأنه يخشى أن يكون جزءًا من مخطط كامل يستهدف انفلات اليمن والردة عن مسيرته الثورية الوحدوية والحيلولة دون إطلاله على الحاضر والمستقبل، وحرمانه من التطلع إلى الاستقرار والرفاهية مثل بقية شعوب الأرض. خاصة بعد أن ذاق الشعب اليمنى طعم الحرية وأصبح يفكر فى الحياة أكثر من الحرب وإسالة الدماء والموت!

وقال: «نحن نشعر كيمنيين، فى ظل الأوضاع السياسية الدولية المعقدة التى تعيشها المنطقة، أن عدم الوصول إلى حل لمشكلة الشرق الأوسط سوف تتأثر بلادنا سلبا وإيجابا بهذه القضية الأساسية، وندرك أننا نتقوى أكثر كلما اشتدت ساعد حركة الثورة العربية، وأى انتصارات تحققها الأمة العربية فى أى مكان وعلى رأسها مصر، تنعكس علينا وتمدنا بأسباب الصمود، ومن هنا كان سعينا ودورنا المتواضع ألا ننعزل عن حركة الثورة العربية.

سألناه: بعد غياب الرئيس الحمدى.. كيف ترى القيادة الجديدة فى صنعاء؟

قال: حرصنا ألا يعلم أحد بنبأ وصولى إلى صنعاء للمشاركة فى جنازة وفاة الحمدى إلا عندما أصبحت طائرتى تحلق فوق مطار صنعاء، كانت معى زوجتى وعائلتى وكانت رغبتهم مشاركة أهل الفقيد أحزانهم.. اجتمعت مع أعضاء مجلس القيادة والوزراء فى القصر الجمهورى، كان الرئيس الغاشمى حزينا مهموما، وكان رافضا شغل منصب الحمدى وأكد أنه كان يحبه ويحترمه ويقدره، بينما كان عبد الغنى رئيس الوزراء منهكا بعد صدمته فى فقد الحمدى، وكان مصمما كذلك على الاستقالة.

وقلت لهم إن قضية اغتيال الحمدى لابد أن تأخذ مجراها الطبيعى للكشف عن المتآمرين والمنفذين للجريمة، ولكن المهم الآن أن يتماسك النظام ويتوحد الشعب فى مواجهة الخطر الذى يتهدد البلاد. حتى يمكن إفشال تنفيذ المراحل التالية للمخطط والذى يستهدف خلق انقسام فى السلطة يؤدى إلى الانقلاب الكامل!

وهكذا من عدن أرسلنا إلى روز اليوسف تقريرا تفصيليا عن الحادث وحوارنا مع سالم ربيع على!

فى القاهرة توجهت مباشرة إلى مجلة روز اليوسف والتقيت بالأستاذ عبد العزيز خميس رئيس التحرير، ووجدته قد كتب بالقلم الأحمر على التقرير الذى أرسلناه من عدن «لا ينشر لأنه يعتمد على منطق المؤامرة الانقلابية».. وقال إن الرئيس السادات ـ وهو كان زميله فى حادث اغتيال أمين عثمان باشا ـ غضب بشدة لنشر الخبر الذى أرسلناه من صنعاء حول اغتيال الحمدى.. ثم نقل إليه كذلك ولنفس السبب استياء سفير عربى لا داعى لذكر اسم دولته!

كانت معظم الصحف والمجلات المصرية قومية آنذاك أى تابعة للاتحاد الاشتراكى، ولم يكن أى منها على استعداد بالتالى لنشر ما لدينا من معلومات جديدة وخطيرة عن واقعة الاغتيال . . وحتى كان صدور «الأهالى» وهى كانت أول صحيفة حزبية صادرة عن حزب التجمع . . ولحسن الحظ أن الأستاذ محمد عودة كان أول رئيس تحرير للأهالى . . فكانت الفرصة لنشر التحقيق فى العدد الصادر يوم الأربعاء ١٥ فبراير عام ١٩٧٨ تحت عنوان «من قتل إبراهيم الحمدى»؟

١٢٥ ـ القصاص من المارقين عن الدين

قلت إنه منذ اغتيال الرئيس اليمنى إبراهيم الحمدى فى أكتوبر ١٩٧٧، والإجابة لا تزال غائبة على السؤال الذى ظل ملحا وصارخا عن القتلة، عن أسباب الحادث وطبيعته. وكيف تمت المؤامرة؟ ولماذا؟

ولأن السلطات فى صنعاء أذاعت النبأ مقتضبا وغامضا، ولأنها وعدت الجماهير الغاضبة بالتحقيق فى الحادث وكشف أبعاده وتقديم الجناة إلى العدالة . . ثم لم تفعل شيئا ولم تف بوعودها حتى الآن، من هنا كانت الاجتهادات والروايات المتعددة والمتناقضة التى تصور كيفية وقوع الجريمة سواء داخل اليمن أو خارجها، بل إن أجهزة مخابرات ووكالات إعلامية معروفة بخدماتها لقوى الرجعية والاحتكارات الإمبريالية، نشطت فى الترويج لروايات مثيرة تعيد للأذهان حكايات ألف ليلة الخرافية، لإبعاد الشبهات عن المدبرين والمنفذين للاغتيال. والتمويه على الأسباب السياسية المباشرة التى كانت وراء قرار التخلص من إبراهيم الحمدى، وإلى حد أن مستشرقًا أوربيًا له مكانته فى الأوساط الثقافية المتخصصة فى التاريخ والحضارة العربية، استدرج إلى حبائل اللعبة المشبوهة، وكتب بحثا مطولاً عن تقاليد الحب وأعراف الزنى والقصاص بالرجم والتشويه فى اليمن . . ثم أدرج البحث ضمن تحقيق مثير حول اغتيال الرئيس «الشاب» ابن الخامسة والثلاثين؛ نسبت فيه المجلة الأوربية أسبابا أخلاقية وراء اغتياله بيد العناصر المتعصبة فى اليمن.

هكذا صور الحادث على أنه مجرد قصاص للمارقين عل الدين الإسلامى، وأن

إبراهيم الحمدى وشقيقه كانا غارقين فى ملذات القات والجنس مع فتاتين فرنسيتين آية فى الجمال والشباب تنتميان إلى عالم الليل والأزياء والمغامرة.

وتتعدد الروايات فى الصحافة العربية والأوربية التى استثمرت عملية اغتيال إبراهيم الحمدى وشقيقه كمادة للإثارة الصحفية، فلم تكلف نفسها عناء البحث وتقصى الحقائق.. وبعضها تتسم للأسف باتجاهها التقدمى والليبرالى، وتطابقت فى نهجها وأسلوبها مع غيرها من الصحف والمجلات المشبوهة فى إثارة ضباب كثيف وملفق حول الحادث وإن اختلفت التفاصيل والتحليلات!

١٢٦ - أين تكمن الحقيقة إذن ؟

فى هذا التحقيق تتابع «الأهالى» القصة كاملة منذ بدايتها، ونعرى أسرارها وأبعادها لأول مرة، ودون استباق إلى استكشاف الحقيقة، فقد كان الهدف من اغتيال إبراهيم الحمدى، ليس فقط تصفيته سياسيًا وجسديًا، بل كان الهدف مقرونا بأسلوب «اغتيال الشخصية»، وهوأسلوب معروف طالما استخدم فى الصراعات بين القوى السياسية لتشويه سمعة الخصوم.. وإحداث التأثير المضاد فى أوساط الجماهير التى ما زالت تؤمن بمبادئهم السياسية والفكرية والنضالية وعلى سبيل المثال القريب للأذهان، فقد كان الرقم الذى رصدته مؤسسات الإعلام والنشر العالمية لحجم الاستثمار الذى دفعت به الاحتكارات الرجعية والإمبريالية لتمويل حملة الهجوم وتشويه جمال عبد الناصر - بعد وفاته - يقرب من ٣ مليارات دولار فى المنطقة العربية وخلال عامين فقط من الأعوام التى مرت بعد رحيله وفى مجال محدد، وهو مجال تأليف الكتب والدراسات والترويج لانتشارها وتوزيعها بين مختلف الطبقات والفئات فى العالم العربى، الذى كان يمثل محور نشاط وزعامة وشعبية عبد الناصر.. ونفس المخطط جرى تنفيذه فى الهند لتشويه سمعه نهرو واتهامه بالعديد من المسالب السياسية والشخصية.. منها أنه كان فى آخر أيامه زير نساء!

رغم ذلك فليس هناك صحفى أو دبلوماسى قريب الصلة بالأوضاع اليمنية إلا ويعرف حقيقة المشاعر الشعبية فى اليمن التى رفضت مؤامرة «اغتيال الشخصية»

التى استهدفت الزعيم الشاب منذ اللحظة الأولى لإعلان النبأ، بل إن الجماهير اليمنية أعلنت رأيها هذا بكل السخط والأسى خلال جنازة وداعه الوطنى فى صنعاء حتى مثواه الأخير فى مقابر الشهداء. فقد كان الرمز المشرق للزعامة الشابة الواعية والخلاقة الذى تعلقت به آمال اليمن كله، قبائله وحضره، أغنياءه وفقراءه، مدنيين وعسكريين، فهو الذى حقق على مسرح السياسة اليمنية لأول مرة-منذ ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ - ثلاث سنوات متصلة من الحكم المستقر الهادئ بلا حروب أو سفك دماء لخصومه السياسيين والمناوئين لحكمه، وقدم الكثير من الإنجازات على صعيد بناء الدولة والتنمية والوحدة الوطنية.

١٢٧ - رسالة القاضى الإيريانى

ولنبدأ بالمناخ السياسى العام الذى تولدت عنه مؤامرة اغتيال إبراهيم الحمدى.. ولنتتبع من خلاله فقرات «السيناريو المأسوية حتى لحظة النهاية».

القاضى عبد الله الإريانى؛ رئيس المجلس الجمهورى، الذى أزيح عن منصبه بعد قيام الحركة التصحيحية فى ١٣ يونيو ١٩٧٤ واستلام إبراهيم الحمدى ومجلس القيادة للسلطة فى صنعاء.. يبعث برسائل مكتوبة وشفهية إلى الرئيس سالم ربيع على ومن يهمهم الأمر فى اليمن، شمالا وجنوبا، فى الحكم أو من اللاجئين السياسيين، يفصح فيها عن قلقه على مصير الحكم فى صنعاء.. ومخاوفه من مؤامرة تدبر لاغتيال إبراهيم الحمدى كمقدمة للانقلاب الكامل والإجهاز على النفس الأخير فى ثورة ٢٦ سبتمبر وذلك ما أكده لى الرئيس سالم ربيع شخصيا!

موعد هذه الرسالة التى بعث بها الإيريانى مكتوبة وشفهية. كان قبل اغتيال إبراهيم الحمدى بأسبوع واحد.. والحس الوطنى والسياسى للقاضى الإيريانى ليس خافيا على أحد فى اليمن.. فهو العقل المفكر والمناور فى حركة الأحرار التى قادت نضال الشعب اليمنى ضد أسرة حميد الدين وهو الذى اكتوى بسجون الأئمة الخرافية سنوات طويلة. ونجا بأحابيله وفصاحته وعلمه من الإعدام مرتين بسيف الإمام.. وهو الذى مارس خلال حكمه لعبة التوازنات السياسية والقبلية بذكاء

ودهاء . . ووقف فى مواجهة الأطماع الخارجية التى ظلت تسعى لابتلاع أرض اليمن والدفاع عن كرامته . . ومن هنا كانت لرسالة الإيريانى أهميتها .

لم يكن وحده بين اليمنيين الذى كان يستشعر الخطر على إبراهيم الحمدى، هو نفسه كان يشعر بأن أمورا تدبر لاغتياله أو التخلص منه عبر انقلاب عسكرى، ولقد عرف - حتى الآن - واقعتين لاغتياله باءتا بالفشل : إحداهما استخدم فيها المدافع الرشاشة وهو فى طريقة إلى إحدى السفارات العربية فى صنعاء .

كان إبراهيم الحمدى يعرف خصومه جيدا . ويعرف عملاء خصومه داخل مؤسسات الحكم والقوات المسلحة والأمن، وكان مصرا على الإبقاء عليهم فى مناصبهم بدعوى ترويضهم وكسبهم إلى جانبه رغم كل نصائح الحركة الوطنية التى كانت ترصد تحركاتهم المشبوهة .

لكن طبيعة العملاء هى الولاء لمن يدفع أكثر، ولمن يحقق لهم مزيدا من النفوذ، ويبدو أن الحمدى أدرك تلك الحقيقة فى وقت متأخر جدا، وجاء اكتشافه لتلك الحقائق متوافقا مع اكتشافه لأجهزة دقيقة للتنصت والتسجيل فى سيارته ومكتبه بالقصر الجمهورى .

فهل كان مستغربا إذن حين أذيع نبأ اغتيال الحمدى وشقيقه فى لهجة مقتضبة وكأنه عزاء فى أحد وجهاء البلاد . . فلم يذكر متى قتل وأين وكيف ولماذا؟ وهو رئيس الدولة!

١٢٨ - سيف من خشب

السؤال الوحيد الذى كانت له إجابة فى كل ربوع اليمن . . لماذا قتل الحمدى؟

والجواب . . لأن قرار اغتيال الحمدى كان أمرا لا مناص منه . بعد أن ثبت للقوى المعادية أن الانقلاب العسكرى ليس مأمون العواقب ومفضوح ومرفوض بسبب شعبية الحمدى من جانب، وبسبب ولاء الجيش المطلق للسلطة المركزية .

بمعنى أكثر تحديدا «لم يكن اغتيال الحمدى مستهدفا فى حد ذاته بل كان مقررا له أن يكون مقدمة لانقلاب كامل على نظام الحكم وتوجهاته الوطنية»!

وفى اليمن ليس هناك بخافية على الشعب . فقد صهرته أحداث الثورات الدامية وعرف من خلالها عدوه من صديقه . . والوطنيين من العملاء . والكذب والتمويه الذى يعتم على الحقيقة . ولعله من الأهمية بمكان استجلاء بعض الملابسات السياسية القريبة والوثيقة الصلة بالحادث .

* الصدام المسلح بين الحمدى والقوى القبلية فى لواء (صعدا) والذى أعقبه لقاء الحمدى بالشيخ عبدالله الأحمر رئيس مجلس الشورى المنحل وشيخ مشايخ حاشد .

كان اللقاء فى السعودية . وخلال جلسة المواجهة . كان الحمدى متشددا فلم يوافق على عودة مجلس الشورى . ولا على عزل حكومة عبد العزيز عبد الغنى ، كما رفض تكوين جيش شعبى للقبائل . وثار عندما جاء الحديث عن التنازل والتفريط فى بعض الأرض اليمنية .

* لأن الحمدى كان يؤمن بسياسة النفس الطويل ولأنه كان يأمل أن يجتث سلطة مشايخ القبائل بشل نفوذهم وسحب البساط من تحت أقدامهم عن طريق نشر التعليم والخدمات والتعاونيات والتحديث . . لذلك لم يعلن عن تفاصيل لقائه بالشيخ عبد الله الأحمر . الأمر الذى أثار البلبلة وسط الحركة الوطنية إلى الحد الذى دفع بوزير إعلامه وصديقه أحمد دهمش وأقرب الوزراء إلى فكره السياسى إلى نشر مذكرته الشهيرة شديدة اللهجة ، يتهم فيها الحمدى بمهادنته للقبائل والتى قال فيها «كان الشعب اليمنى يرى فيك سيف بن زى يزل البطل اليمنى العظيم . . فإذا بك سيف من خشب» .

* إعلان الحمدى فى خطابه بمناسبة ذكرى ثورة ٢٦ سبتمبر فى الحديدة «أن شهر العسل الذى عاش فيه التجار والذى استمر خمسة عشر عاما منذ قيام الثورة قد انتهى» . وقد فسر هذا التصريح سخط الحمدى على جشع التجار وأرباحهم الخيالية حيث تؤكد الإحصاءات أن صنعاء وحدها تضم ٣٠٠ مليونير يعتمدون على التجارة فى السلع الاستهلاكية . فكان هذا الإعلان إيذانا ببرمجة الاقتصاد ودفعه نحو الإنتاج وتقنين الأرباح .

* إشادة الحمدى فى كل مناسبة بالدعم المصرى لثورة ٢٦ سبتمبر والتحامها

العضوى والمصيرى بالدم والشهداء مع ثورة ٢٣ يوليو . . وهو الموقف والدرس الذى لم تفق منه الرجعية والاحتكارات فى الجزيرة العربية حتى الآن .

وأخيرا . . ما أعلنت عنه شركة شل من وجود إمكانيات بترولية هائلة فى باطن الأرض اليمنية والذى بدأ التنقيب عنه بالفعل فى منطقة «الصليف» .

١٢٩ ـ التقاليد تكشف التشويه

تلك هى الحقائق والأسباب التى عجلت بالانتهاء من شخص الحمدى ـ عبر التحقيق الذى نشرته فى صحيفة الأهالى ـ كمقدمة لتفويض أركان النظام بكامله وعرقلة مسيرته والقضاء على رجاله ونهجه الوطنى .

ويبقى الحديث عن المخططين والمنفذين لاغتيال الحمدى . . وكيف وأين تمكنوا منه؟

ورغم الوعود التى قطعتها الحكومة على نفسها بالكشف عن التفاصيل . . ورغم إعلانها من حين إلى آخر عن كشفها لبعض خيوط الحادث . . إلا أن الوقت يمضى دون الوفاء بالوعود . . بل إن الحكومة فى بياناتها الغامضة كانت تعزف نفس اللحن النشاز الذى رددته أجهزة الإعلام المشبوهة فى أوربا . . عندما ذكرت أن الاغتيال تم «فى بيت خاص كان يتردد عليه الرئيس وشقيقه للراحة والاستجمام من عناء العمل»!!

كان انتهاز أول فرصة تجمع بين الشقيقين فى مكان واحد وأجهز عليهما ، لكننا نشير أيضا إلى عدد من الحقائق المؤكدة التى تكشف الغموض الذى اكتنف الحادثة :

* إن الحمدى كان يستعد فى صباح اليوم التالى لشد الرحال إلى عدن وإعلان خطوات وطنية صاعقة تستهدف وحدة اليمن . . فهل كانت لديه فسحة من الوقت للملذات أم لترتيب أمور الدولة خلال غيبته!

* التقاليد اليمنية المتوارثة . . تحول دون الجمع بين شقيقين فى الملذات فكيف يمكن تصور ما رددته أجهزة الإعلام ، بينما كان التقدير والاحترام المتبادل بينهما الذى يعرفه الجميع .

* أن أطباء المستشفى العسكرى أجمعوا على أن اغتيال الحمدى وشقيقه تم بعد قتل الفتاتين الفرنسيتين . . وبينما كان الشقيقان ينزفان الدماء عند اكتشاف الحادث . كانت الفتاتان قد نزفتا دماءهما تماما منذ ساعات واكتشفوا كذلك أن عبد الله الحمدى قتل أولا بعد مقاومة عنيفة أدت إلى كسر معصمه ، وبعد ثلاثة أرباع الساعة كان اغتيال الرئيس الحمدى !

* مما أكده أطباء المستشفى العسكرى أيضا أن الأعيرة النارية التى استخدمت فى قتل الحمدى وشقيقه تختلف تماما عن الأعيرة النارية التى قتلت الفتاتين .

* أما الروايات المختلقة التى رددتها بعض الصحف الأوربية حول التمثيل والتشويه الجنسى للجثث وحول رجم الشعب للفتاتين وفقا للشريعة . . فهى لا تحتاج أكثر من السخرية . . فأين وكيف تم ذلك فى مجتمع صنعاء الصغير ؟ !

وأما كيف ولماذا جاءت الفتاتان إلى اليمن . . فالجواب مدون فى سجل فندق «الزهراء» المتواضع بصنعاء ولو أنهما جاءتا بدعوة من الحمدى أو شقيقه لكانت استضافتهما فى فنادق الدرجة الأولى .

والأمر لم يعد سرا . . فقد جرى استدراجهما عبر عملية مخابراتية غربية وعربية إلى اليمن بدعوى السياحة ، وكالعادة ودون أدنى شفقة أجهزت عليهما فى سبيل تحقيق هدف أكبر يكمن فى التخلص من الحمدى وفقا للأسلوب السياسى المعروف باغتيال الشخصية ، وبعدها نجح وزير الدولة محمد سالم باسندوه والسفير الفرنسى باليمن فى ترتيب إجراءات نقل جثتى الفتاتين إلى باريس بعيدا عن عيون الصحافة ، حيث تولى الدبلوماسى اليمنى عبد الملك سعيد التفاهم مع السفارة الفرنسية حول مبالغ التعويضات المالية لأسرتى الفتاتين !

١٣٠ ـ المقدم عبد الله عبد العال

وهكذا فى محاولة لامتصاص النقمة الشعبية التى عمت اليمن كله إزاء اغتيال الحمدى ، صدرت العديد من البيانات التى تسخر مما يذاع حول تواصل التحقيقات لاستكشاف أبعاد الجريمة والتوصل إلى خيوط من شأنها معرفة القتلة والمدبرين

للحادث، وشغل الرأى العام عبر حملة إعلامية واسعة لإعطاء انطباع عام حول انتهاج النظام الجديد طريق الحمدى السياسى بدليل الإبقاء على كل الرءوس التى كانت تتصدر واجهات ومؤسسات الحكم فى عهده.

وعلى الرغم من أن الحركة الوطنية لم تنخدع فى أقنعة البراءة والطهارة السياسية التى كان يتخفى وراءها الغاشمى، إلا أن الحركة الوطنية لم تنخدع، وفضلت وفق حسابات سياسية معقدة أن تنأى بنفسها عن المبادرة بالهجوم خاصة أن معظم قياداتها وكوادرها كشفت عن نفسها باطمئنان فى عهد الحمدى، بعدما أفسح أمامها المجال للحوار والتعاون فى إنجاز مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية.

هكذا مرت الشهور الستة منذ رحيل الحمدى، لتبدأ فى أعقابها مباشرة مرحلة جديدة للردة السياسية المعلنة والمفضوحة فى أعقاب خطاب المقدم أحمد الغاشمى الذى ألقاه فى افتتاح مجلس الشعب التأسيسى، حيث لم يذكر فيه إبراهيم الحمدى بكلمة واحدة، ولا أبان عن نتيجة التحقيقات فى حادث اغتياله كما وعد الشعب من قبل، وكل ما ذكره عنه كان مجرد اتهام بالفردية والديكتاتورية، وإهدار الديمقراطية عندما حل مجلس الشورى الذى كان يمثل مفصل النفوذ القبلى والولاءات الخارجية المشبوهة، فى الوقت الذى قدم النظام الجديد نفسه باعتباره حامى حمى الديمقراطية بدليل دعوته مجلس الشعب للانعقاد!

لكن اللعبة لم تنطل على أحد، ولسبب بسيط أن جميع أعضاء مجلس الشعب تم تعيينهم، وليس عبر الانتخاب، ثم أن مهمته لم تكن أكثر من إبداء الرأى فيما يعرضه عليهم مجلس القيادة من قرارات وقضايا، وكان أول ما أحيل على المجلس لإجازته وإقراره «رئاسة الجمهورية».

وتم للنظام الجديد ما أراد، ووافق مجلس الشعب التأسيسى على إلغاء مجلس القيادة، وخلع منصب رئاسة الجمهورية على المقدم الغاشمى، خاصة وكان المهم وبشكل عاجل التخلص من المقدم عبدالله عبد العال عضو مجلس القيادة وقائد المظلات باعتباره من أبرز الدعامات العسكرية لنهج الحمدى، خاصة بعد فشل عدة محاولات جرت لاغتياله.

لم يكن هناك بد إذن من تأجيل الصدام بين الحركة الوطنية والنظام الجديد، واتخذت لنفسها موقف الدفاع عبر عدة محاور:

عقدت المؤتمرات الشعبية وصدرت البيانات التى تندد بتضييق الخناق على الحريات الديمقراطية والانفتاح على القوى القبلية وإفشال تجربة التعاونيات، ودق الأسافين لإفساد العلاقات المتحسنة بين الشطرين، فكان صدور «نداء أحرار قبيلة حاشد» وبيان «المؤتمر الشعبى الأول» الذى عقد فى لواء مأرب يوم ٣مارس ١٩٧٨، وبيان «مؤتمر القوى التضامنية» فى منطقة ريدة يوم ١٩ صفر، وبيان القوى التضامنية فى منطقة حرف سفيان يوم ٢٩صفر، وبيان اللجنة الوطنية للمؤتمر الشعبى العام.. غير كم هائل من البيانات التى صدرت عن المؤتمرات الجماهيرية التى عقدتها الأحزاب والتنظيمات الوطنية والديمقراطية فى طول اليمن وعرضها.

كشف النقاب عن سلسلة الإجراءات التى لجأ لها النظام لتصفية العناصر الوطنية داخل القوات المسلحة، لإحكام السيطرة على أهم وأقوى مؤسسات السلطة المركزية، واستخدامها أداة لقمع المعارضة والجماهير، وقد وصلت عملية رشوة القوات المسلحة عبر زيادة مرتباتها ستة ملايين ريال شهريا، أى ٧٢مليون ريال سنويا، بالإضافة إلى استمالة القيادة العسكرية عبر الهبات المالية وتوزيع أراضى الدولة والأوقاف!

تجنيد أعداد كبيرة من رجال القبائل فى القوات المسلحة معظمهم ينتمون إلى قبيلة الغاشمى «همدان ـ سنحان»، والاعتماد عليهم فى حراسة المواقع والطرق الهامة التى تحيط بالعاصمة صنعاء تحسبا لقيام انقلاب مضاد، الأمر الذى استدعى كذلك عزل المقدم القهالى قائد أول لواء مشاة الذى يمثل أقوى وحدات القوات المسلحة التى أسند لها الحمدى حماية العاصمة!

ومنذ يوم ١٨فبراير ١٩٧٨ بدأت حملة اعتقالات واسعة لعناصر الحركة الوطنية بمختلف فصائلها السياسية، حيث بلغت الدفعة الأولى ١٢٠ معتقلا فى سجن القلعة والسجن الحربى والبيوت الخاصة بجهاز الأمن الوطنى الذى يرأسه المقدم محمد خميس، وقائمة أسمائهم وغيرهم من الذين جرى اعتقالهم بعد ذلك معروفة للجميع، فى الوقت الذى استهدفت حملة الاعتقالات محاولة الضغط

على الحركة الوطنية لإعلان مبايعتها للنظام الجديد عبر سياسة الترغيب والتهديد، كمقدمة تستهدف ضربة انقسامية للصيغة الجبهوية المطروحة في مواجهة الردة السياسية.

وهكذا بعد التخلص من الحمدى كان الدور على النظام الحاكم فى عدن، عبر جمع شراذم اللاجئين السياسيين من القوى المعادية للنظام وإعادة تنظيمهم سياسيا وعسكريا. ومن بين هؤلاء حزب الرابطة وجيش الإنقاذ الوطنى وما يسمى بالجبهة الوطنية المتحدة لجنوب اليمن بزعامة عبد القوى مكاوى الذى عاد إلى الظهور فجأة على المسرح السياسى. . بالإضافة إلى عشال وناصر بريك ومحمد على هيثم ومحمد على الجفرى!

لكن مع وصول المقدم على عبدالله صالح إلى سدة السلطة فى صنعاء، انهارت مخططات القوى الخارجية والداخلية المعادية للاستقرار والتنمية فى اليمن. . كمقدمة لإنجاز الوحدة اليمنية، فلم يكتف بتبنى كل طموحات ومسارات حكم إبراهيم الحمدى فحسب، لكنه تجاوزها كذلك إلى أفاق أرحب من التطوير والملاءمة مع المتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية، ونجح كما لم يتوقع أى من المراقبين فى إنجاز الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠ والدفاع عنها فى بسالة عندما تعرضت للمؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤!

ملحوظة (١): لم تكن عنايتى بسبر أغوار اغتيال الحمدى لكونه أعظم زعامات اليمن، فغيره كثر من الزعامات التى تفوق دوره السياسى، ولكن لأنى كنت أعرفه من قبل، ولأنى كنت حاضرا فى صنعاء عند اغتياله، وهى كانت فرصة صحفية نادرة لاستجلاء غموض الحادث وأهدافه السياسية!

ملحوظة (٢): صدر مؤخرا كتاب مهم جدا للأستاذ محمد أحمد العفيف بعنوان (سنوات مجيدة من عمر الثورة اليمنية ١٩٧٤ - ١٩٧٧)، وأحسب أنه مرجع مهم للباحثين والمهتمين بالإطلاع على فترة حكم إبراهيم الحمدى، مع تفاصيل جديدة مضافة حول واقعة اغتياله!

١٣١ ـ اتفضلوا.. اتفضلوا

على غرار الرئيس إبراهيم الحمدى شرع الرئيس الجديد حسين الغاشمى إلى تأكيد أهليته وباعه الثقافى وهو الذى لم يقرأ كتابا فى حياته على حد سخريات خصومه، حين دعا أعضاء اتحاد الكتاب والأدباء فى شطرى اليمن للقائه بالقصر الجمهورى عام ١٩٧٧، وطال الاجتماع نحو ساعتين، وعندما سألت الصديق القرشى عبد الله سلام سكرتير تحرير مجلة الحكمة ـ يرحمه الله ـ عما دار من حوار مع الغاشمى فى هذا اللقاء الطويل؟ ـ قال إنهم طرحوا عليه قضايا الأدب والصحافة والإبداع وإشكاليتها فى اليمن؟ وسألته وماذا كان موقف الغشمى من هذه القضايا؟ قال القرشى: لم نسمع له صوتا سوى عبارة واحدة عند استقباله لنا «اتفضلوا» ثم ودعنا بنفس العبارة قائلا «اتفضلوا»!

الغاشمى من منطقة ضلاع شمال اليمن وينتمى إلى قبيلة «همدان» وكان من أكبر مزارعى «القات»، وهو لم يلتحق بالكلية الحربية ومع ذلك وصل إلى منصب رئيس أركان القوات المسلحة اليمنية، أما لماذا وكيف نال رتبة المقدم وهى كانت أعلى الرتب العسكرية وقتئذ، فلأن العادة جرت بعد قيام الثورة توزيع الرتب العسكرية على أبناء مشايخ القبائل من باب كسب ولائهم واتقاء شرورهم!

١٣٢ ـ عـــــدن للعــدنيين

قبيل اندلاع ثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣ كانت عدن قد شهدت ميلاد حركة القوميين العرب وكذا حزب البعث كفروع للتنظيمات الأم فى سوريا ولبنان، فى الوقت الذى نشأت حركات وطنية مستقلة فى الداخل ومثالها رابطة الجنوب وحزب الشعب واتحاد الشعب الديمقراطى، وكذا الجمعية العدنية والجمعية الإسلامية فى وقت سابق، حيث أفرزت بالضرورة تيارات سياسية متباينة ومتناقضة من حيث المنهج والأهداف. . بين تيار يرفع شعار عدن للعدنيين واستقلالها بالتالى عن بقية تراب الجنوب اليمنى، خاصة أن عدن كانت المستعمرة الثانية فى الأهمية

الاستراتيجية بعد بريطانيا ثم مستعمرة سنغافورة فى المرتبة الثالثة، بينما تيار آخر كان يدعو إلى استقلال الجنوب بمعزل عن بقية الوطن اليمنى الكبير، لكن مع تطور فكرة الوطنية اليمنية وتداعيات القومية العربية الوحدوية التى حملت لواءها ثورة ٢٣ يوليو فى مصر، ثم نجاح الثورة السبتمبرية فى شمال اليمن، وشارك فى الدفاع عنها المئات من شباب الجنوب وسقط منهم الشهداء . . من عدن وحضرموت وحتى المهرة، من هنا اختلفت الخريطة السياسية وتباينت أفكارها وتوجهاتها!

جدير بالذكر فى هذا السياق التاريخى الإشارة إلى دور ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، عندما فتحت أبوابها للمناضلين من أبناء الجنوب اليمنى على اختلاف توجهاتهم السياسية، وسمحت لهم بفتح مكاتب سياسية وإعلامية للدعوة والتنوير فى القاهرة!

من هنا تولد التيار الوحدوى فى الجنوب اليمنى مبكرًا واكتسب إطاره الفكرى والسياسى سواء عبر جبهة التحرير أو ما كان يسمى آنذاك «منظمة تحرير الجنوب المحتل» بزعامة عبد القوى مكاوى التى تأثرت على الصعيد الجماهيرى بثورة ٢٣ يوليو الناصرية، وسواء عبر هيمنة الجبهة القومية على مقدرات النضال فى مرحلته الأخيرة ضد الاحتلال البريطانى، ثم استيلائها على فصائل السلطة بشكل كامل بعد الاستقلال.

وإذا كان أبناء الجنوب قد تحملوا إلى حد ما ضريبة الوطنية والمصير الواحد عبر المشاركة فى الدفاع عن ثورة سبتمبر، لكن ثورة ١٤ أكتوبر لم تجد الدعم النضالى من الشمال اليمنى على نحو متكافئ من الثورة الأم، ربما لأنها غرقت فى صراعات السلطة من جهة، ومقاومة النفوذ القبلى من جهة، ثم العدوان الرجعى الإمبريالى الذى بلغ ذروته فى حصار السبعين يوما لصنعاء من جهة ثالثة!

ومع ذلك لم تعدم ثورة أكتوبر الدعم اللوجيستى والمادى والسياسى الذى قدمته مصر، ولعل العملية «صلاح الدين» التى أدارتها القوات المصرية فى اليمن لتحرير الجنوب أبرز مثال على هذا الدعم!

وإذا كنا قد نوهنا بأن الرئيس على ناصر محمد تلقى فى شرخ شبابه دورة عسكرية فى معهد الصاعقة المصرية بأنشاص عام ١٩٦٠، ثم أتبعها بدورة أخرى

فى سلاح المهندسين، فهو لم يكن وحده اليمنى الذى كان موضع إعداد القيادة السياسية لثورة يوليو بانتظار اندلاع الثورة فى شمال وفى جنوب اليمن، إذ كان معه كثير من المناضلين وبينهم على سالم البيض وعلى عنتر وهاشم عمر إسماعيل، وعبد الله المجعلى وعبد الكريم الذبيان وعبد الله مفلق ومحمد أحمد البيشمى وبخيت مليط وآخرون!

١٣٣ـ أطول حوار فى العالم

بعدها تمخضت الجبهة القومية عن قيام الحزب الطليعى ممثلا فى الحزب الاشتراكى اليمنى، فكان بمثابة الإطار الجمهورى الجامع لغيره من الأحزاب والتنظيمات الصغيرة التى ظلت نشطة على الساحة السياسية وبينها حزب الطليعة الشعبية بعد أن فك ارتباطه بحزب البعث وغيره من فصائل العمل الوطنى. . حيث استغرق الحوار بين الجبهة القومية وبينها زهاء خمس سنوات متصلة، إلى حد وصف سالم ربيع على الأمين المساعد للجبهة القومية آنذاك بأنه «أطول حوار فى العالم. . فى أصغر دولة فى العالم»!

وهكذا فى الخامس من نوفمبر ١٩٧٥، كان عقد المؤتمر التوحيدى وقيام التنظيم السياسى الموحد تحت مسمى «الجبهة القومية فى الحادى عشر من أكتوبر ١٩٧٥ وهو النسيج الذى شكل الحزب الاشتراكى فى اليمن، بينما ظل لحركة القوميين فرع فى شمال اليمن.

ومما لاشك فيه أن عبد الفتاح إسماعيل لعب دوراً فكريًا وسياسيًا وتنظيميًا مقدراً وراء هذه التحولات التى شابها الأخطاء السياسية بل والتصفيات الجسدية، وهو الأمر الذى دعا المرحوم جار الله عمر فى مرحلة لاحقة إلى تبنى الدعوة للمراجعة ونقد الذات، خاصة أن دستور دولة الموحدة الوشيكة، كان يعزز من نهج الديمقراطية والشفافية والتعددية السياسية.

وإذا كان عبد الفتاح إسماعيل قد نال من التكريم لدوره عبر التعزيز من سلطاته، حيث أصبح رئيسا للدولة وأمينا عامًا للحزب الاشتراكى، إلا أنه أخفق خلال

عامين من حكمه فى إثارة الحيوية والفعالية فى النواحى الإدارية والاقتصادية والخدمية للدولة، إذ كانت محصلة وعيه وثقافته النظرية بعيدة عمليا عن الجانب التطبيقى، والإخفاق بالتالى فى التوصل إلى حلول صحيحة للمشكلات. . وهكذا لم يجد عبد الفتاح إسماعيل بدا فى النهاية من الخضوع لنصائح وضغوط الرفاق بإجماع الأصوات فى اللجنة المركزية حيث قدم استقالته ثم الإنعام عليه بوسام ١٤ أكتوبر فى حفل كبير أقيم فى دار الرئاسة فى سابقة لم يحظ بها رئيس سابق، ولعل هذا الخيار أعفاه أو نجاه من مصير المواجهة والصدام السياسى الذى أدى إلى اغتيال سالم ربيع على فيما بعد!

ـ لكن عبد الفتاح إسماعيل لم يستسلم وهو فى منفاه الدراسى بالاتحاد السوفيتى وراح من وراء الستار يجتذب الأنصار إيذانا بعقد المؤتمر الثالث للحزب الاشتراكى، وللأسف إنه جر المؤسسات العسكرية والأمنية والمدنية لجولة جديدة من الصراع. . وعبثا تدخلت مرجعيات يمنية وشخصيات عربية ودولية لتجنب الصدام، لكن هكذا وقعت أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ المفجعة كمحصلة طبيعية لتراكم المتناقضات والخلافات على مدى ٢٣ عامًا من عمر ثورة أكتوبر ١٩٦٣ سواء داخل التنظيم السياسى أو مؤسسات الدولة، وإلى حد سقوط ١٣ ألف قتيل وحجم من الخسائر المادية بلغ ٤٠ مليون دينار وإلى انهيار الغطاء النقدى للدينار اليمنى إلى حدود ١٧ مليونًا بينما كان ١٢٠ مليونًا عام ١٩٨٥، إضافة إلى كارثة انقسام ولاءات القوات المسلحة بين على ناصر وبين جماع الإرادات السياسية داخل الحزب الاشتراكى، والأدهى والأمر أن أهوال الحرب الأهلية بين الرفاق واحتمال تجددها أدى إلى نزوح ما يفوق عن مائة ألف مواطن إلى الخارج، بينهم أعداد كبيرة من العسكريين بكامل أسلحتهم البرية والجوية والبحرية، غير الكوادر المؤهلة فى شتى التخصصات.

لكن المأساة لم تتوقف عند هذا الحد، إذ فضلا عن الشرخ السياسى الخطير، فقد صاحبه شرخ أكثر خطورة على صعيد الوحدة الوطنية، عبر التنكيل بأنصار على ناصر وعائلاتهم بمعيار الانتماءات المناطقية، إلى حد حرمان أبناء «أبين» مسقط رأسه من حق العمل والتعليم والعلاج والسكن والخدمة العسكرية والفصل من الحزب مع استمرار أعمال الملاحقة والاعتقال والتصفيات الجسدية وهو ما أدى

بالتالى إلى عزوف المغتربين عن مواصلة تحويلاتهم من العملة الصعبة بنسبة ٣٧٪، فكان توقف العديد من المصانع تباعا نتيجة العجز عن استيراد المواد الخام اللازمة لها وشح المواد الاستهلاكية الضرورية من الأسواق . . إلخ .

١٣٤ـ عــدن.. هادعــوه

عام ١٩٧٧ كنت فى الصومال وهى تستعد لخوض غمار حرب تحرير إقليم الصومال الغربى المعروف بـ «الأوجادين» من الاحتلال الإثيوبى، والتقيت بالرئيس سيادبرى وكان فى قمة الغضب والتوتر لأن الاتحاد السوفيتى شرع إلى تغيير بوصلة دعمه للصومال الاشتراكى إلى إثيوبيا الشيوعية إثر وصول منجستو هيلى ماريام إلى سدة الحكم فى أديس أبابا .

ثم لم يمض سوى وقت لا يتجاوز نصف ساعة على لقائى بالرئيس الصومالى وحوارى معه، حتى أفضى لى بسر خطير :

قال : إنه تلقى منذ أسبوع دعوة من الرئيس الكوبى فيديل كاسترو للاجتماع به فى عدن على وجه السرعة والأهمية، وهناك وجد فى انتظاره مؤتمر قمة تجمعه وكاسترو ومنجستو ورئيس اليمن الديمقراطى سالم ربيع على، حيث فوجئ بأن المطلوب منه تحديداً التراجع عن خوض الصومال معركتها الوشيكة لتحرير الأوجادين، إلى حد أن كاسترو هدده بشكل غير مباشر بأن بلاده والاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية برمتها لن تقف مكتوفة اليدين . . ولن تسمح بهزيمة إثيوبيا الشيوعية، بينما البديل الذى عرضه كاسترو يكمن فى التحالف السياسى والاستراتيجى بين الصومال وإثيوبيا واليمن الديمقراطى . . مع السماح بعلاقات اجتماعية وثقافية بين الشعب فى الأوجادين والشعب فى الوطن الأم الصومال!

وعندما سألت سيادبرى : وماذا كان عليه موقفك إذن؟

قال : بالطبع رفضت عرض الحلف الاستراتيجى لأنه مغلف بالإذعان السافر والتهديد الضمنى، بما لا نقبله على سيادة الصومال وكرامته ووحدة أراضيه التاريخية . . وسوف نتخذ فى غضون الساعات القادمة الرد المناسب!

لم يمض سوى ٢٤ ساعة على لقائى مع سيادبرى . . حتى وصل إلى سمعنا ظهر اليوم التالى نداءات عبر ميكروفونات سيارات عابرة فى الشوارع المجاورة لفندق «جوبا»، تدعو المواطنين إلى التجمع فوراً فى استاد مقديشيو الرياضى للاستماع إلى خطاب سياسى مهم للرئيس سيادبرى!

نزلنا وزميلى الكاتب الكبير محمد عودة وتوجهنا مع الجماهير الغفيرة صوب استاد مقديشيو، ودارت حلقات الرقص حول ساحة الاستاد بينما الجماهير تهتف من أعماقها بنداءات غامضة تنتهى بعبارة «هادعوه» . . كوبا «هادعوه» . . إثيوبيا «هادعوه» . . عدن «هادعوه»، وترجم لنا المرافق هذه العبارة من الصومالية إلى العربية وكانت تعنى الهتاف بالسقوط للنظم الثلاثة .

من مقديشيو توجهنا إلى مدينة «هيرجسيا» . . ومنها دخلنا إلى إقليم الأوجادين حتى وصلنا إلى منطقة «جيجججا» حيث كانت تدور المعركة الفاصلة بين حركة تحرير الصومال الغربى مدعومة من الجيش الصومالى وبين القوات الإثيوبية .

كانت الدلائل ومختلف الشواهد تشى بالهزيمة النكراء المتوقعة للصوماليين، فقد تمكنت القوات الإثيوبية من تحطيم دفاعات الصوماليين بعد أن كانوا قد تمكنوا من تحرير ٨٥٪ من مساحة الأوجادين، وكانت الطائرات العسكرية الصومالية والمدرعات المحطمة تؤكد هذه النتيجة بما لا يدع مجالا للشك بل ورأيت بأم عينى قائد سلاح الطيران الصومالى وهو فى طريقه إلى قيادة طائرة «ميج - ١٧»، حيث أقلع بها من مطار هيرجسا للإغارة على القوات الإثيوبية . . بمعنى أن معظم الطيارين العسكريين رحلوا مع سقوط طائراتهم فى حرب «الأوجادين»!

بعدها عدنا إلى مقديشيو والتقينا بالسفير المصرى عبد العزيز خيرت والملحق العسكرى المصرى اللواء أحمد عبد الحليم « المعلق العسكرى والباحث الاستراتيجى الآن»، وأكدا على ما شهدناه ميدانيا على أرض المعركة، وأنهما كانا على علم باجتماع قمة عدن بين كاسترو وسيادبرى ومنجستو وسالم ربيع على، لكنهما تحفظا فى البوح بما نما إلى علمهما حول ما دار فى هذه القمة . . ثم أضافا إلى علمنا دخول قوى خارجية إلى ساحة المعركة فى الأوجادين إلى جانب القوات الإثيوبية . . وحتى أزاحت الصحافة البريطانية والإيطالية والفرنسية أولى المعلومات

والتفاصيل عن مشاركة قوات مقاتلة من اليمن الديمقراطى إلى جانب القوات الإثيوبية كان بينها الدعم الجوى والمشاة الميكانيكية!

١٣٥ ـ صراعات دامية بلا نهاية

لعله من سوء الطالع أن تندلع الحروب الأهلية وتتوالى فى جنوب اليمن قبل الاستقلال وبعده، وبمعدل حرب كل بضع سنوات. . ؟

عشية استقلال جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ نشبت حرب ضروس بين الجبهة القومية وجبهة التحرير بقيادة عبد الله الأصنج وعبد القوى مكاوى، وبعد أن حسم القتال لصالح الجبهة القومية وتولى قحطان الشعبى رئاسة الجمهورية الوليدة استؤنفت الخلافات. . بل الصراعات الداخلية بين تيارات الجبهة القومية ذاتها!

فى ٢٢ يونيو ١٩٦٩ أقصى قحطان الشعبى عن السلطة وأودع فى السجن وأعلن أن اليسار قد انتصر فى صراعه مع اليمن، ثم فى ٢٦ يونيو ١٩٧٨ أقصى سالم ربيع على عن رئاسة الدولة ونفذ فيه حكم الإعدام بعد يومين فقط من حادث اغتيال أحمد الغاشمى رئيس الشمال اليمنى، يومها أعلن فى عدن أن اليسار قد تخلص من اليسار الانتهازى والطفولة اليسارية، لكن منذ إقصاء «سالمين» لم تستقر الأوضاع فى عدن، إذ فى أبريل ١٩٨٠، حيث أرغم عبد الفتاح إسماعيل على الاستقالة من رئاسة الحزب والدولة، وبعدها فى ١٣ يناير ١٩٨٦ أقصى على ناصر محمد بعد أبشع وأشرس حرب أهلية شهدتها عدن التى اعتادت وتعايشت مع هذا النمط من الصراعات التى تحولت إلى حروب، وما بين أنصار عبد الفتاح وأنصار على ناصر وقعت الكثير من الأحداث التى أدت فى محصلتها النهائية إلى غياب القادة التاريخيين للجبهة القومية تباعا!

لماذا حدث كل ذلك؟

الجواب لا يمكن اختزاله فى مقولة إن الثورة اعتادت أن تأكل أبناءها، فهناك الكثير والكثير من التفاصيل والأسباب تندرج فى إطار الظروف الموضوعية التى

عنى برصدها وتحليلها كتاب تجربة «اليمن الديمقراطى» وهو كان الرسالة التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه الدبلوماسى القومى المقتدر أحمد عطية المصرى قنصل مصر السابق فى تعز ثم عدن إبان أوج الثورة فى الشمال ثم اندلاعها فى جنوب اليمن!

هناك أيضا الكثير من الأسرار والخفايا يكشفها كتاب «الصراع فى عدن» ومؤلفه شاكر الجوهرى الصحفى والباحث المتخصص فى الشئون اليمنية . . وهو قد عاصر الأحداث والتقى مرات ومرات مع أشخاصها ودوَّن فى كتابه الذى لم ينشر بعد ـ على حد علمى ـ حصيلة معلوماته وعلاقاته إلى جانب قراءاته الغزيرة التى ساعدته فى تقديم هذا الكتاب الموثق .

والحقيقة أن النظام السياسى الذى آلت إليه السلطة فى عدن بزعامة الجبهة القومية، داهمته مؤامرات الركائز المحلية للاستعمار البريطانى حتى بعد رحيله، متحالفة مع الرجعية العربية فى تدبيرها تباعا تحت مبررات سياسية وفكرية ذات خلفيات قبلية ومناطقية، وهو ما أسفر عن الصراعات الدامية حتى بين رفاق الطريق الواحد، سواء عبر الجبهة القومية، وما تمخضت عنه من قيام الحزب الاشتراكى اليمنى، حيث ظل لعبد الفتاح إسماعيل مفكر وأمين عام التنظيم الدور الفاعل فى تأجيج الصراع على المسرح السياسى من وراء الستار، وهى كانت من الأسباب المباشرة وراء استبعاده فترة من الوقت فى موسكو بدعوى دراسة علوم السياسة والاقتصاد وحتى كانت نهايته المأسوية يوم ١٣ يناير ١٩٨٦، وحتى الآن لم يعثر له على أثر حيًا أو ميتًا!

أذكر من جعبة ذكرياتى وأوراقى أن جمعنى اللقاء والحوار مع عبد الفتاح إسماعيل فى استراحة جبل المعاشق فى عدن لأول مرة، ونشرت فحواه بمجلة روز اليوسف يوم الثانى من ديسمبر عام ١٩٧١ تحت عنوان:

١٣٦ ـ حوار مع عبد الفتاح إسماعيل

قلت إن الحوار مع الرجل القوى كما يلقبونه فى جمهورية «اليمن الديمقراطية الشعبية» لم يكن سهلاً .

فقد تناولنا بالتفصيل والتدقيق تجربة ثورة ١٤ أكتوبر وما يثار حولها. . وما تواجهه من تحديات.

وقلت له: لعل قضية الوحدة الوطنية هى أهم القضايا فى بلد يتعرض للحصار السياسى والعسكرى والاقتصادى المعادى لتجربة الثورة الاجتماعية فى اليمن الشعبية. . ترى ما هو تصور الجبهة القومية للصيغة الملائمة لتحقيق التحالف الوطنى الديمقراطى؟

قال: قضية التحالف ترتبط فى الأساس بقضية القوانين العامة التى تحكم تناقضات الطبيعة لأى مجتمع. . وطبيعى أن فهم تلك التناقضات مسألة ضرورية تحددها القوى الوطنية صاحبة المصلحة فى الثورة والتقدم فى مواجهة القوى المضادة لمسيرة الثورة. وبالقدر الذى تعتبر فيه الصراع بين القوانين مسألة حتمية لا يمكن حلها، فى نفس الوقت لابد من التنبه إلى أن قوى الثورة نفسها تحتوى فى داخلها تناقضات أخرى لا يمكن أن تختلف حول التمييز بين المتناقضات الأساسية والمتناقضات الثانوية.

ومن هنا كانت مسألة التمييز بين التناقض ضرورة للتحديد الواضح بين القضايا الاستراتيجية والتكتيكية للثورة.

قلت: إذا سمحت. . أحتاج إلى مزيد من الإيضاح عن قوى الثورة وقوى الثورة المضادة هنا؟

قال: قوى الثورة هم العمال والفلاحون والفقراء والجنود والبرجوازية الصغيرة. . وقوى الثورة المضادة تتمثل فى «الكومبرادور» أى طبقة الوسطاء المرتبطة بعجلة الرأسمالية العالمية والإقطاع وشبه الإقطاع.

قلت: ما مادى تأثير التناقضات الثانوية فى صفوف قوى الثورة على إنجاز قضية التحالف؟

قال: مهمتنا ألا تتحول إلى تناقضات رئيسية وتناحرية. . من هذا المنطلق نستطيع الحديث عن وحدة العمل الوطنى الديمقراطى التى لابد أن ترتبط بقوى طبقية محددة. . وبمهام محددة تكون أساسا لنضال العمل الوطنى الديمقراطى.

قلت : ما مدى جدية تطبيق الجبهة القومية لفكرها حول قضية التحالف الوطنى؟

قال : بدأت المشاركة بالفعل على صعيد السلطة التنفيذية والتشريعية فى مجلس الشعب . . كدليل على جدية الجبهة . . ولن تقتصر على هذه المجالات فحسب . . ولكن سوف تستمر الجهود لتحقيق العمل السياسى الموحد لكل من هذه الفصائل ضمن إطار الجبهة القومية . . والمشكلة تأتى من عدم وجود تنظيمات سياسية فى اليمن الشعبية ذات تراث تاريخى يضمن لمبادرة تحالف تحقق النجاح . . وهو ما يختلف عن الظروف التى تمر بها مثل هذه التجارب فى الدول الأخرى ، إلا أن إيماننا بقضية التحالف سوف يجعلنا أكثر قدرة على تذليل ما تتعرض له التجربة من صعوبات .

قلت : ما هى تلك الصعوبات التى تتعرض لها قضية التحالف . . وهل البديل إذا فشلت هو الحزب الطليعى؟

قال : فصائل التحالف وهى التنظيم الشعبى التابع لجبهة التحرير وتنظيم الشبيبة «الحزب الشيوعى» وحزب البعث «الجناح السورى» الذين أبدوا استعدادا طيبًا ومشجعًا للمشاركة فى التحالف فى إطار «الجبهة القومية» على أساس العمل الموحد . . والمشكلة تأتى من ترتيب تلك التنظيمات لطلائعها الثورية داخل الجبهة . . أما قضية الحزب الطليعى . . فلابد أن يكون اشتراكيا علميا ثوريا . . لأن الحزب الطليعى لا يتحقق إلا عبر نضال الجماهير . . وهو الذى يفرض شكله ومضمونه .

قلت : هناك ما يثير الغموض حول مدى ارتباط ثورة ١٤ أكتوبر وموقفها من الثورة العربية؟

قال : نحن نؤكد باستمرار أن الثورة فى اليمن الديمقراطية رافد من روافد الثورة العربية . . ولا يمكن إزاء هذه القضية الجدل والتجربة والفصل فيها . . وإذا كنا نناضل فى هذه المرحلة على الصعيد النظرى . . فإنما ذلك من قبيل الخطوة الأولى على طريق النضال المشترك لكل جماهير الأمة العربية من أجل قضاياها المشتركة فى التحرر والوحدة والاشتراكية ، ونعتقد فى نفس الوقت بأن اللقاء مع حركة الثورة العربية . . لابد وأن يكون واضحًا وصريحًا .

أولاً: من ناحية تحديد أعداء الجماهير العربية فى الوقت الذى نناضل فيه ضد الصهيونية التى احتلت الأرض العربية فى ١٩٦٧ ومن أجل استعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه المشروعة.

ثانيًا: لابد وأن يكون النضال واضحًا وحاسمًا ضد الأنظمة الغربية التى تعتبر ركائز للقوى الإمبريالية وفى مقدمتها أمريكا.

بمعنى آخر نؤكد أن النضال لابد أن يكون شاملا.. بحيث لا يمكن الفصل بين الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية.

قلت: هناك من يرى فى هذه المرحلة.. أن القضية الأساسية للثورة العربية قضية قومية تجتذب إليها كل الطبقات باعتبارها قضية قومية تتعلق بأن نكون أو لا نكون. كما حدث فى الصين فى مرحلة احتلال اليابان لأجزاء من أرضها.

قال: نعم.. ولكن الحزب الصينى هو الذى قاد كل طبقات المجتمع فى معركة التحرير.. والشعب الصينى تقوده طليعة واحدة تمثل القوى التقدمية من ناحية وقوة وطنية من ناحية أخرى.. ومن هنا كان لابد فى معركتنا القومية المصيرية أن تكون القيادة للقوى التقدمية.

قلت: فى تقدير الجبهة القومية ما هى العقبات التى تعترض طريق تحقيق الحركة العربية الواحدة؟

قال: إدراكنا أن أبرز المعضلات أمام فصائل حركة الثورة العربية يكمن فى تفتتها وتمزقها وهو ما يفتح ثغرات خطيرة يستغلها الاستعمار وعملاؤه لخلق المزيد من التفتت والتمزق.

بهذا الفهم نؤكد دائما دعوتنا إلى قيام الجبهة العربية التقدمية التى تناضل ضد أعدائها الرئيسيين الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية.

قلت: ما الصيغة التى تراها ملائمة فى هذه المرحلة للبدء فى خطوات الحركة العربية الواحدة؟

قال: لابد من ترجمة قناعة معارضة عملية لهذه القضية القومية.. والخطوة

الأولى تأتى من تحديد لقاء تمهيدى لتناقش تفصيليا قضايا المرحلة الراهنة للثورة العربية . . وبالتالى كيفية التنسيق فى النضالات المشتركة التى تتفق عليها . . وهى بداية ضرورية قد تؤدى إلى رباط عربى أكثر تماسكا بقيام الجبهة نفسها وتحديد مهامها .

قلت : ما هو موقع اتحاد الجمهوريات العربية من الثورة العربية فى تقديركم؟

قال : قيام الاتحاد جزء من استراتيجية الثورة العربية ولاشك . . فبقدر ما نعطى الاتحاد من اهتماماتنا على الصعيد الحزبى والرسمى والشعبى . . بقدر ما نعطى اهتماما لفصائل العمل الثورى الشعبى . . ونعتقد بأن وحدة فصائل حركة الثورة العربية مسألة مهمة ولها أسبقيتها فى إنجاح الوحدة الرسمية بالنسبة للوطن العربى كله . ونحن نتطلع من عدن إلى اليوم المرتقب الذى تنضم فيه جمهوريتنا إلى الاتحاد الوليد . . وهذا يتوقف على توحيد الرأى داخل الاتحاد إزاء هذا المطلب .

قلت : هناك دوائر عربية معينة تحاول الترويج لوجود حكم شيوعى فى اليمن الديمقراطية أو أنها فى طريقها إلى التحول نحو الشيوعية .

قال : إزاء كل نظام وطنى تقدمى يرفض الدوران فى عجلة الرأسمالية العالمية . . ويقضى على الاستغلال والاضطهاد والظلم الاجتماعى، توجه له تهمة الشيوعية والإلحاد . . ونحن اليوم نتعرض لحملة رهيبة من هذا النوع . . وهذه الحرب النفسية التى نتعرض لها مستغلة التخلف والمشاعر الدينية والتقاليد والعادات الاجتماعية، هى من طبيعة هذه القوى المعادية لتحررالشعوب . . بل إنها تمارس ضدنا التآمر والاغتيالات . . ولكن ذلك لن يلهينا عن مواصلة النضال لصنع المجتمع الجديد الذى ينهى استغلال الإنسان للإنسان ويقيم علاقات اجتماعية جديدة على أنقاض العلاقات الاستغلالية للأنظمة الاستعمارية الرجعية . . ووسيلتنا إلى ذلك انتهاج طريق الاشتراكية العلمية .

قلت : ما موقفكم من الدين؟

قال : الإسلام ثورة ضد الاستغلال والظلم الاجتماعى . . وهو دعوة للمشاركة فى صنع التقدم . . والإسلام يحارب احتكار فئة للثروات وحرمان غالبية الشعب الساحقة منها . . والشعب اليمنى فى الأساس أكثر الشعوب استجابة لما تضمنه

الإسلام من تراث إنساني ومن قيم جديدة . . جاءت تشكل ثورة على الوضع القبلي والعشائري، على الجهل والتخلف والاستغلال والعبودية وتوريث الحكم .

قلت : هناك موجة بين الأحزاب اليسارية فى أوربا ترى فى قيادة الجبهة القومية جنوحا إلى التروتسكية؟

قال : لقد حددنا موقفنا من التروتسكيين ونحن نحارب الأفكار اليمينية والأفكار اليسارية المغامرة ونعنى بها الأفكار التروتسكية .

قلت : وعلاقة الجبهة القومية بحركة القوميين العرب؟

قال : لا أحد يرغب فى تصديقنا عندما نعلن انفصالنا عن حركة القوميين العرب . . وقد تمت الخطوة تنظيميا بعد بداية مسيرة الثورة فى ١٩٦٥ . . ذلك أن الجبهة القومية تجاوزت حركة القوميين العرب من حيث نضالها التحررى ومن حيث مضمون هذا النضال . . ولم تعد لنا أى علاقة تنظيمية أو فكرية تربطنا بها على الإطلاق سواء قبل انقسامها أو بعد انقسامها .

قلت : ولكن هناك علاقات سياسية ما زالت ببعض أجنحة حركة القوميين العرب التى انشقت عنها؟

قال : لنا علاقات مع الجبهة الديمقراطية الشعبية والجبهة الشعبية . مثلها مثل العلاقة التى تربطنا مع بقية فصائل الثورة العربية . . سواء كانت «فتح» أو «الصاعقة» اليمنية . . أو فصائل التقدميين فى مختلف الأقطار العربية . . ودعمنا للجبهتين الديمقراطية والشعبية انطلاقا من إحساسنا لمسئوليتنا تجاه المقاومة الفلسطينية باعتبارها من أدوات النضال المقاتلة من أجل قضية الشعب الفلسطينى .

قلت : هل تعتقد أن الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربى تستند إلى واقع تنظيمى جبهوى . . وإلا ترى أن نشاط الجبهة بمعزل عن بقية التنظيمات التقدمية فى الخليج يضعف من وحدة النضال الوطنى فى هذه المنطقة؟

قال : نحن نسعى بكل الجهود الممكنة لتحقيق وحدة فصائل الثورة ودورنا أن نؤكد على هذه القضية ونتعاون إلى حد كبير مع الجبهة الشعبية والفصائل الثورية الأخرى فى الخليج للإسراع بقيام وحدة فى الخليج العربى المحتل . . بهدف تحقيق

جبهة وطنية عريضة معادية للاستعمار والإمبريالية . . تتمكن من تعزيز النضال المشترك ضد الوجود الاستعمارى الرجعى وانتصار الثورة .

قلت : حول مسألة الأرض وتوزيعها فى اليمن الشعبية على الفقراء . . أعلم أن هناك خلافا فى قيادة الجبهة حول هذه القضية .

قال : الثورة بقيادة التنظيم السياسى بعد صدور قانون الإصلاح الزراعى الجديد . . كانت أمام اختيارين . . إما أن تنفذ القانون بالطريقة التقليدية أو إبقاء الفلاحين على حالتهم النفسية الراكدة المستسلمة . . سواء عبر استخدام الشرطة للاستيلاء على الأرض من شبه الأقطار وتوزيعها . . أو أن يقوم الفلاحون بتغيير العلاقات الاستغلالية الإقطاعية بأنفسهم ، وعلى الرغم من صعوبة هذه الوسيلة . . إلا أنها كانت الطريقة الوحيدة لخلق حالة ثورية فى الريف وكانت انتفاضة الفلاحين الأداة الحقيقية التى تخدم التحولات الاقتصادية والاجتماعية لمصلحة القوى الطبقية صاحبة المصلحة الحقيقية . وقد حدثت بالفعل أخطاؤها وتثبت إيجابيات التجربة .

قلت : هناك أخطار تهدد اليمن الديمقراطية عبر محاولة التواجد العسكرى الصهيونى فى الجزر القريبة من جزيرة ميون اليمنية على مدخل باب المندب . . كيف تواجهون هذا التحدى؟ هو تقديركم لمعالجة هذه القضية؟

قال : طرحنا هذا الموضوع على الجامعة العربية فى بداية عام ١٩٧٠ وفى المؤتمرات العربية عام ١٩٧١ ولكن لم تنل للأسف الاهتمام الذى تستحقه . . ونحن نشعر أنه لا يمكن أن تطرح قضيتنا فى مجال أكثر من الدول العربية . . وهناك تفاهم كامل حول مواجهة هذا التحدى الصهيونى بيننا وبين مصر ، وعلى الصعيد الشعبى . . فإننا نعمل على توعية الشعب بهذا الخطر قبل أن يداهمنا . . ونجند قوى الشعب لمواجهة متطلبات الحرب الشعبية .

١٣٧ ـ اختطاف صحفى مصرى

مع اندلاع ثورة ١٤ أكتوبر عام ١٩٦٣ فى شطر اليمن الجنوبى ، كان أمين رضوان مواكبا لتطوراتها ووقائعها عبر ما كان يوافى به صحيفة الجمهورية المصرية من رسائله تباعا ، إذ كان آنذاك محرر الصحيفة للشئون العربية .

كان أمين رضوان شابا نوبيا أسمر البشرة وماركسيًا قحًا رغم ثقافته الأزهرية، وكان صديقا حميما لقحطان الشعبي وفيصل عبد اللطيف إبان إقامتهما بالقاهرة، وسافر في أعقابهما إلى عدن عندما استولت الجبهة القومية على السلطة، وأصبح قحطان رئيسا للدولة وفيصل عبد اللطيف أمينا عاما للجبهة القومية، فلما أطيح بالرجلين ظل أمين في عدن، واستطاع أن يكسب ثقة زعامات العهد الجديد، واشتغل في صحافته كاتبًا ومفكرًا حتى تقطعت صلاته بصحيفة الجمهورية بعدما قرر عدم العودة إلى مصر خشية الملاحقة الأمنية!

على أن الصراعات السياسية الدامية بين أجنحة الجبهة القومية التي تبنت الماركسية فيما بعد فكرًا وممارسة وأصبح اسمها الجديد الحزب الاشتراكي اليمني، انعكست تلقائيا على أمين رضوان، فكان كل جناح يحسبه على جناح آخر، وكلما قدر لي زيارة عدن، كنت أشعر بمدى المرارة التي يعانيها لهذا السبب، لكنه ظل صامدا في موقعه، رغم إلحاح أسرته عليه بالعودة حيث توفي والده ووالدته وأحد أشقائه.

ولعلي من هنا أدين له بفضل تنويري بالأوضاع السياسية والاجتماعية في اليمن الديمقراطي وببواطن الصراعات السياسية بين أجنحة الحزب الاشتراكي كما لم يتسن إدراكه لغيره من الصحفيين غير اليمنيين، وهي كانت مؤهلاته التي تقدمت بها للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مجلة روز اليوسف، فكان اختياره مراسلا لها في عدن.

في عام ١٩٧٤ كنت في زيارة عدن، وكالعادة توجهت من مقر إقامتي في فندق كريسنت إلى منزل أمين رضوان، وضغطت على زر جرس شقته مرارا دون مجيب، وعندئذ خرجت جارة له في الشقة المجاورة وهي تشير بيدها وتدعوني للاقتراب منها. . وروت لي همسا أن رجالاً مجهولين اقتادوه معهم منذ نحو أسبوعين، وأن الكلب الذي كان يقيم معه في شقته راح ينبح جوعًا وخوفًا حتى سكت عن النباح. . وقالت: أظنه مات داخل الشقة.

التقيت بالصديق الكاتب والمفكر عمر الجاوي وحكيت له ما حدث، وقال لي إن رجال «محسن» وهو الاسم الحركي لرئيس جهاز المخابرات سعيد علي الشرجبي،

هم الذين قبضوا على أمين رضوان، وعبر أصدقائى فى السلطة علمت بإيداعه فى معسكر «فتح» المخصص للاعتقال حيث يكابد وطأة التعذيب جلدا وضربا على القدمين، وأنه يخشى أن يفقد بصره، خاصة أنه يعانى مرضا فى عينيه، ثم طلب منى إنقاذه قبل تصفيته جسديًا عبر علاقتى بقيادات النظام فى عدن!

كانت العادة أن ألتقى فى مطلع زياراتى لعدن بصديقى رئيس الدولة سالم ربيع على أولا، ثم على ناصر رئيس الوزراء، ولأن «سالمين» كان خارج عدن وقتئذ، لذلك كان لقائى الأول بعلى ناصر محمد و. . سألته بغتة: كيف ترى موقفى الصحفى والسياسى من النظام فى عدن؟

ودُهش للسؤال. . ثم قال: أشهد أنك وقفت معنا بشجاعة وصلابة فى كل المحن والمآزق التى تعرضنا لها خاصة فترة احتدام الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب عام ١٩٧٢، بينما كانت الصحافة المصرية ضدنا على طول الخط!

قلت له: إذا كنت قد وقفت معكم. . هل تسمح لى إذن أن أقف مع صديق مصرى يقيم بعدن وإنقاذه من محنة؟

قال: من هو ذلك الصديق. . وما هى محنته؟

قلت: أمين رضوان الذى اختطف من منزله منذ أسبوعين!

فلما نفى على ناصر علمه بما جرى له. . قلت له: إن رجال المخابرات اقتادوه من منزله، وهو الآن نزيل معسكر «فتح» حيث يواجه محنة الاعتقال والتعذيب. . ما هى التهمة الموجهة له إذن؟

قال: تستطيع أن تسأل الرئيس سالم ربيع على ومحسن عن السبب بعد عودتهما من زيارة المحافظة الخامسة!

قلت: أنت رئيس الحكومة ولعلك تعرف ولا شك السبب بحكم منصبك

قال: سمعت أنه متهم بعلاقته المشبوهة مع المخابرات الأردنية!

قلت فى سخرية: هذا غير معقول على الإطلاق. . هل تسمح لى بزيارته فى معسكر فتح؟

قال: هذا الأمر يختص به الرئيس ومحسن كونه يتعلق بالأمن القومى!

قلت: أعلم أن السفير اللبنانى سمحتم له بزيارة معتقل لبنانى فى معسكر فتح بتهمة التجسس. . وأمين رضوان ليس جاسوسا وهو قد خدم النظام فى عدن بإخلاص وتفان. . ومن واجبى الدفاع عنه خاصة وأنه مراسل لروز اليوسف، ثم أننى أخشى أن يطرح موضوع اعتقاله فى الاجتماع الوشيك لاتحاد الصحفيين العرب بدمشق وهو ما قد يتسبب لكم فى فضيحة!

قال على ناصر: أمهلنا إلى حين بحث الموضوع مع الرئيس ومحسن.

وكان قد مضى أسبوع دون أن يعود الرئيس ومحسن إلى عدن، والتقيت بعلى ناصر مرة ثانية لإجراء حوار صحفى معه كالعادة وقلت له: أعتقد أننى مطالب أدبيا وصحفيا بطرح موضوع اختطاف أمين رضوان على صفحات روز اليوسف.

قال: أمهلنا أسبوعين!

عدت إلى القاهرة ومضى أكثر من أسبوعين وأمين رضوان لا يزال قابعا فى معسكر فتح. . ونشرت الخبر تحت عنوان «اختطاف صحفى مصرى فى عدن»!

ومن عدن تلقيت مكالمة هاتفية من محمد صالح مطيع وكان وزير الداخلية اليمنى الديمقراطى ووعدنى بحل مشكلة أمين رضوان فى غضون أسبوعين.

ثم مضى أكثر من أسبوعين دون أن يفرج عنه وأعدت نشر الخبر مع تفاصيل جديدة حول تعرضه للتعذيب، حتى تقرر الإفراج عنه والاعتذار له عما لحق به من شكوك واتهامات باطلة إلى حد اعتقاله وتعذيبه، ورغم ذلك رفض أمين رضوان أن يحكى شيئا عما جرى له، بل وأصر على أن يواصل إقامته وعمله فى عدن.

الحكاية كما عرفنا تفاصيلها فى وقت لاحق أن أمين رضوان كان يتردد على السفارة المصرية للحصول على جواز سفره، بعدما أعلن الرئيس السادات فى بداية ولايته قراره بالعفو العام عن اللاجئين السياسيين المصريين بالخارج ومنحهم جوازات سفر جديدة حتى يتمكنوا من العودة إلى مصر!

وعلى ما يبدو أن سمير عباس سفير مصر آنذاك فى عدن ماطل فى رد جواز أمين رضوان، وربما ساومه فى المقابل على الحصول منه على معلومات عن النظام الحاكم فى اليمن الديمقراطى، لكن أمين رضوان رفض أن يبوح بشىء، وذلك كان أرجح الاحتمالات، وربما من هنا راودت المخابرات فى عدن الشكوك فى أسباب تردده على السفارة المصرية فى عدن، فكان اعتقاله، وقال لى أمين رضوان بعد عودته للقاهرة وإلى عمله بصحيفة «الجمهورية» إنه كان قد قرر فى حالة حصوله على جواز سفره، التوجه مباشرة إلى إريتريا ليبدأ مشواره الصحفى والنضالى من جديد مع الجبهة الشعبية، خاصة أن زعيمها أسياسى أفورقى صديقه!

والحقيقة أن الرئيس على ناصر محمد بعد عزله من منصبه، ظل ضميره يؤنبه على ما يبدو من جراء تجاوزات الأجهزة الأمنية فى اليمن الديمقراطى فى حق أمين رضوان فكان يداوم زياراته ولقاءاته فى القاهرة والاطمئنان على صحته وتلبية احتياجاته حتى وافاه الأجل. . يرحمه الله!

١٣٨ـ طائرة اغتيال الدبلوماسيين

كان الصديق عبد الملك إسماعيل سفيراً لليمن الديمقراطى بالقاهرة أوائل السبعينيات، ولأنه لم يكن محسوبا على تنظيم الجبهة القومية الحاكم، لذلك كان الملحق العسكرى الرجل الأقوى فى السفارة، خاصة ومجال نشاطه يبدأ بالشئون العسكرية وينتهى بالشئون الأمنية.

يوما كنت فى زيارة صديقى الحاج سيد المليجى تاجر التحف النحاسية بخان الخليلى، ولأنه كان يعرف صلاتى باليمنيين واهتماماتى الصحفية بشئون اليمن، من هنا على ما يبدو كان حريصًا على أن يروى لى قصة غاية فى الغرابة بطلها الملحق العسكرى اليمنى لسفارة اليمن الديمقراطى. . قال إنه كان يتهرب على ما يبدو من تحويل الأموال التى ترسلها حكومته عبر البنوك كما يقضى القانون، ويلجأ إلى تحويلها عبر السوق السوداء إلى العملة المصرية ويحقق بذلك أرباحاً ضخمة.

وقال الحاج سيد المليجى إن الملحق العسكرى اليمنى كان يتعامل مع أحد تجار

العملة غير المشروعة فى خان الخليلى واستمرت الحال هكذا عدة شهور فى أمان «ولامين درى ولا مين شاف»، لكنه عندما جاء الشهر الماضى إلى خان الخليلى لم يجد هذا التاجر، حيث قدم نصاب نفسه إليه باعتباره الساعد الأيمن لهذا التاجر، وسلمه الملحق العسكرى المبلغ الضخم بعد الاتفاق على سعر تحويل الدولار إلى الجنيه المصرى. . ثم صحبه إلى أحد مقاهى خان الخليلى وجلس فى انتظاره إلى حين يأتى بالتحويل المطلوب!

ومضى من الوقت زهاء الساعتين ولم يظهر لذلك النصاب أثرًا لكأنه فص ملح وذاب.

ماذا بوسعه أن يفعل؟ هل يبلغ الشرطة وتفتضح تعاملاته المشبوهة؟ وما هو موقفه وهناك مرتبات للموظفين بالسفارة يجب الوفاء بها فى موعدها؟ وحتى أدركت الحكومة فى عدن ما حدث عبر البرقيات التى وصلتها بسبب تأخير الرواتب، ولما راجعت عدن الملحق العسكرى عبر المكاتبات الرسمية حول السبب اضطر للاعتراف بوقوعه فى شراك نصاب، ولا أحد يدرى إن كانت عملية التحويل غير المشروعة كانت بعلم حكومته أم لا!

على إننى حين نقلت الخبر إلى عبد الملك إسماعيل لم ينكره وتبرأ من الخطأ الذى ارتكبه الملحق العسكرى، وقال إن الشرطة المصرية قبلت البحث عن النصاب مع الحرص على ألا ينتقل الخبر إلى الصحافة حرصاً على علاقات البلدين. . وقال إن لجنة رسمية وصلت من عدن لتحرى الحقيقة!

ولأن عبد الملك إسماعيل كان محسوبًا سياسيًا من قبل النظام الماركسى فى عدن باعتباره من فلول جبهة التحرير التى كان يتزعمها عبد القوى مكاوى أو لأنه مستقل، من هنا كان اسمه مدرجا على قائمة التصفية الجسدية التى طالت عشرات الدبلوماسيين من غير الماركسيين عبر حادث الطائرة المشئومة أوائل السبعينيات.

وكان استدعاء هذا العدد الكبير من الدبلوماسيين إلى اليمن الديمقراطى بدعوى الإطلاع على ما تحقق من الإنجازات الاشتراكية وتجديد معلوماتهم حول التطورات التى يشهدها اليمن. . ومن حسن حظى شخصيا أننى كنت مدعوا ولم ألب الدعوة

فى آخر لحظة بسبب توعك معدتى المفاجئ، ومن ثم اعتذرت لوزير خارجية عدن سيف الضالعى والأديب محمد عبد الولى عندما جاءا لاصطحابى من فندق كريسنت!

على أن عبد الملك إسماعيل نجا بأعجوبة كذلك من الموت المحتوم، إذ كان يبحث فى المطار عن «كاميرا» كان قد نسيها على أحد المقاعد، فلما وجدها كانت طائرة الموت قد أقلعت. . وقيل فى حينها إن واحداً من أقربائه أو أصدقائه كان على علم سابق بالجريمة النكراء قبل وقوعها ولجأ إلى إخفاء الكاميرا وتعطيل لحاقه بالطائرة المشئومة!

١٣٩ ـ الاغتيال المحتوم بانتظار «سالمين»

كان أول لقاء صحفى جمعنى ورئيس اليمن الديمقراطى سالم ربيع على أوائل السبعينيات فى قصر الرئاسة المطل على المحيط الهندى، وهو نفس القصر الذى كان سكنا ومقرا للحاكم البريطانى قبل الاستقلال، واكتشفت كم هو بسيط ومتواضع، كما أن هدوءه وصوته الخافت يوحيان بالثقة والألفة، وقد اقتربت منه كثيرا وأحببته أكثر إثر جولة صحفية خارج عدن صحبنى خلالها زميلى محمد حجى الرسام بمجلة روز اليوسف، طوفنا خلالها بمناطق أبين ودثينة ولحج، حيث قدر لى زيارة والدته فى منزلها المتواضع!

كان الوقت ليلاً، حين خرجت علينا تحمل مصباحا صغيرا يشتعل بالبترول، وروت لنا أنها منذ نصف عام لم تر سالمين ـ وهو اسمه الحركى فترة الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطانى ـ بينما لم يكن يفارقها عندما كان يشتغل بالتدريس، ثم طلبت منا الإلحاح عليه حتى يزورها أو يستدعيها لزيارته فى عدن، ورسمها حجى ونشرنا صورتها وهى تحمل بيدها اللمبة الجاز فى مجلة «صباح الخير».

أذكر أننى أهديته فى إحدى زياراتى لعدن من الكهرمان رداً على هديته الوحيدة لى، وكانت علبة صفيح سبق استخدامها تحتوى على نحو كيلو من العسل «الدوعانى»، وفى لحظة صفاء كنا وحدنا خارج قصر الرئاسة قال لى بصوته

الخافت: أدركت مغزى أن تهدينى سبحة.. وأنا لمعلوماتك مسلم يؤمن بالله وعربى حتى النخاع، على عكس ما يتهمنا البعض بالإلحاد والتنكر للعروبة والولاء للاشتراكية، وأدركت وقتئذ السبب فى حرصه على أن يجرى الحديث بيننا دومًا فى الخلاء بعيدا عن آذان المخابرات اليمنية، حيث عرفت فيما بعد أنها تضعه تحت مجهر المراقبة ٢٤ ساعة فى اليوم رغم أنه رئيس الدولة.. وتوالت لقاءاتى وحواراتى الصحفية مع سالمين تباعا، وفى كل مرة ينتحى بى جانبا ويفضى إلىّ بأسراره وهمومه، وكان والحق واسع الصدر وهو يستمع لنقدى الصارخ لتجربة الانتفاضات الشعبية بدعوى أنها وسيلة لـ «تثوير» الجماهير الكادحة وتحريضها للاستيلاء على ما يسمى «وسائل الإنتاج»، وكانت للطرفة أو المأساة لا تتعدى أحيانا براد شاى وموقد بترول وبضعة أكواب ودكة خشبية هى كل محتويات مقهى شديد التواضع، وربما كانت وسائل الإنتاج مجرد «سنبك» أى قارب صغير لصيد الأسماك، بينما لا يتعدى عدد المنتفضين ثلاثة صيادين كانوا يقتسمون ثمن صيدهم مع صاحب «السنبك» فى محبة ووئام.

قلت لسالمين كذلك.. إن الإنجليز خلفوا وراءهم فى عدن أمهر العمال والحرفيين وأكفأ عناصر التكنوقراط من الأطباء والمهندسين والمحاسبين، لكن الجبهة القومية ثم الحزب الاشتراكى من بعد، ضيق الخناق عليهم أمنيًا وسياسيًا واقتصاديًا، وهكذا فقد تم أهم حلفاء مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية التى تروجون لها وتتباهون خاصة أن هذه الفئات اضطرت للهرب إلى الخارج!

كان سالمين يستمع لنقدى وملاحظاتى دومًا باهتمام ويجيب عليها فى تحفظ عندما يكون الحوار للنشر، بينما كان يقول عندما نكون منفردين والحديث بيننا ممنوع: أنا لست وحدى صانع تجربة اليمن الديمقراطى ولكنها القيادة الجماعية، وعليك أن تلتقى بهم جميعا وتطرح عليهم أفكارك ورؤاك.. وكنت أقول له إننى مجرد صحفى تقتصر مهمته على الكتابة والتقييم فى تجرد وأمانة، خاصة أننى لست طرفًا فى تجربتكم.. ثم إن أهل اليمن أدرى بشعابه!

صادف عام ١٩٧٣ إذ كان سالمين فى القاهرة لمتابعة تداعيات الحرب الأهلية بين شمال اليمن وجنوبه مع المسئولين المصريين حيث كانت خاتمة مباحثاته فى الجامعة

بصفتها الراعية لاتفاقية الوحدة اليمنية وبعدها وجدنى بانتظاره فى ردهة فندق الهيلتون الذى كان يقيم فى أحد أجنحته، وبادرنى قائلا: هل لديك مانع للسفر معنا إلى طرابلس والجزائر حيث نستكمل المباحثات حول اتفاقية القاهرة للوحدة اليمنية.. ورحبت على الفور.

فى صالة كبار الزوار بمطار القاهرة وجدت نفسى وسط حشد من المسئولين واليمنيين الذين جاءوا لوداعه، واستدعانى إليه، ثم كلف مرافقيه باصطحابى إلى الطائرة التى سوف يستقلها فى رحلته، واكتشفت أننى لم أختم جواز سفرى كالعادة لدى ضابط الجوازات حتى يسمح لى بالخروج من القاهرة، ثم اكتشفت أن الطائرة روسية وفاخرة وقد جهزت بكل وسائل الراحة، ولما عرفت أنها طائرة الرئيس السوفيتى بريجنيف وأنه كثيرا ما يسمح للرئيس اليمنى باستخدامها فى جولاته الرسمية خارج الوطن.. عندئذ سألت مضيفة الطائرة وأذكر أن اسمها «تمارا» عن عادة الرئيس السوفيتى خلال ركوبه الطائرة.. وقالت مشيرة لمقعد ضخم وثير من الجلد الطبيعى: هنا يجلس ويقرأ كتابا أو مذكرة ويتحاور مع مرافقيه.. وهو دائما يفضل ارتشاف الكونياك الأرمينى المعتق مع تناول قطع من الشيكولاتة السوداء تباعا!

فى طرابلس التقى العقيد معمر القذافى بوفدى الشمال والجنوب اليمنى، وجرت إضافات وتعديلات طفيفة فى صيغة اتفاقية القاهرة للوحدة اليمنية، وبينما كان وفد اليمن الديمقراطى برئاسة سالم ربيع، كان القاضى عبد الرحمن الإريانى رئيس المجلس الجمهورى ممثلا للنظام فى صنعاء خلال لقائهما بعد ذلك فى الجزائر مع الرئيس هوارى بومدين حيث صدر البيان الجزائرى الوحدوى.. وأذكر فى هذه المناسبة أننى عوملت من قبل المراسم الجزائرية باعتبارى يمنيا فى مرتبة وزير، ولذلك خصص لى مرافق وسيارة مرسيدس كانت رهن إشارتى، وفضلت استثمار الساعات التى قضيناها بالجزائر فى استعادة ذكرياتى مع بعض الشخصيات الحميمة والأمكنة التى كانت تستهوينى كلما زرت الجزائر إثر انتصار ثورة المليون شهيد، واستدعيت صديقى الفنان أمين بشيش وكان مديراً للإذاعة ومسئولا عن قطاع الموسيقى والطرب وقتئذ، ثم أصبح من بعد وزيرا للثقافة، وكنت قد تعرفت عليه لأول مرة حينما كان والمرحوم على مفتاحى دينامو حكومة الجزائر المؤقتة

بالقاهرة. . و. . لم نبرح سويا مقهى شعبيًا فى حى القصبة ونحن نحتسى أكواب «التاى» تباعا وهو الشاى الجزائرى الأخضر.

على أننى لا أنسى جارسون المقهى الذى كان يسترق السمع على حديثى مع أمين بشيش، حين بادرنى متسائلاً إن كانت جنسيتى يمنيًا، وقلت: أنا مصرى! وقال إن سائق سيارتى الرسمية قال له إننى وزير يمنى. . وضحكت قائلا: ليت ذلك كان صحيحا، وقال الجارسون إنه يعشق اليمن واليمنيين لأن أصوله يمنية، وروى لى أن جده الأكبر من قبيلة تسكن منطقة المهرة فى جنوب اليمن وتتحدث الأمازيجية التى لا يزال يتحدث بها الكثير من القبائل الجزائرية، وهو كان مقاتلا فى الجيش الإسلامى الذى فتح شمال إفريقيا، حيث استقر فى الجزائر وتزوج جزائرية.

على أن صحبة الرئيس سالم ربيع على خلال الرحلة إلى طرابلس والجزائر كان لها على ما يبدو مفعول السحر فى توثيق علاقتى به وثقته فى شخصى الضعيف إلى حد الإفضاء لى بعد عدة أسابيع بسر خطير للغاية، طلب منى وشدد على كتمانه.

كنت فى عدن شتاء عام ١٩٧٥ وبصحبتى صديقى وزميلى حجازى رسام الكاريكاتير بمجلة روز اليوسف، وكنت قد دعوت مجموعة من الأصدقاء اليمنيين على الغداء فى غرفتى، وكان قد أتحفنا مترودوتيل فندق «كريسنت» الصديق عبد الكافى بوجبة فاخرة من الشروخ أى الاستاكوزا، وبعدها رحنا نستمع بعزف الفنان اليمنى جميل غانم على العود ونحن نتعاطى مضغ القات واستحلابه فى نشوة!

فجأة دق جرس تليفون غرفتى. . وجاء صوت الرئيس سالم ربيع على قائلاً فى لهجة قاطعة: سوف أمر عليك فى الفندق بعد نصف ساعة. . جهز نفسك وزميلك الأستاذ حجازى لجولة ميدانية بالسيارة!

جلسنا مع الرئيس فى المقاعد الخلفية لسيارة الرئاسة بينما السائق وحارسه فى المقدمة، وحتى وصلنا سوق السمك المطل على المحيط الهندى، وتقدمنا سالمين وسط الترحيب والهتافات. . وبعدها كان علينا أن نستمع إلى الرئيس وهو يشرح فى سعادة وفخر إلى طريقة تشغيل الثلاجة الكهربائية الضخمة «ديب فريزر» التى جرى استيرادها حديثا لحفظ الفائض الوفير من الأسماك قبل تصديرها مجمدة. .

وقال: كانت أطنان من الأسماك مصيرها الفساد. . الآن نصدر الحبة الواحدة المجمدة من الشروخ «الاستاكوزا» إلى الخارج بدولار.

بعدها غادرنا سوق السمك دون أن نسأل إلى أين. . بينما كانت الشمس تؤذن بالمغيب. . توقفت السيارة فى الطريق ونزل حارس سالمين. . ومضى من الوقت القليل حتى غادرت السيارة عدن وأصبحنا فى ضواحيها أو مشارفها حتى توقفت فجأة وهبط السائق. . وجلس سالمين مكانه أمام عجلة القيادة. . ثم مضى من الوقت القليل حتى وصلنا إلى مزرعة ضخمة دون أن نرى فيها مزارع أو عاملا أو موظفا. . وحتى توغلت السيارة داخلها وكان الظلام قد أرخى سدوله حتى توقفت.

قال لنا سالمين بصوته الخافت إن هذه المزرعة الجماعية تحمل اسم «ناصر» تكريما واعتزازا بموقف الرئيس جمال عبد الناصر من دعم خيارات الشعب اليمنى فى الثورة والتحرر، وقال: واجهتنا مشكلة مع ماكينات رفع المياه الروسية لرى المزرعة. . إذ كانت كثيرة التوقف والأعطال بسبب حرارة الجو الشديدة. . ماذا نفعل؟

دلنا رجل أعمال يمنى من المهاجرين فى الخارج إلى طلمبات أمريكية لرفع المياه والرى تعمل بكفاءة ودون توقف مهما بلغت درجة الحرارة سخونة، وقال إنها تستخدم بولاية «نيفادا» فى أجواء مشابهة لأجواء الشطر الجنوبى من اليمن ولما نجحت تجربة تشغيل الماكينات الأمريكية فى هذه المزرعة بنجاح. . عممنا تشغيلها فى غيرها من المزارع الجماعية، ثم تساءل سالمين: لكن ماذا حدث؟ سكت قليلا ثم قال: الرفاق شككوا فى موقفنا واتهمونا بالتحريفية وبميولنا نحو الغرب!

أن يشكو الرئيس لنا ويفضفض بهمومه تلقائيا. . فالمطلوب إذن الإصغاء التام حتى ينتهى من البوح!

على أن سالمين استدرك قائلا: هذه المعلومات ليست للنشر. . وبعدها مشينا دقائق فى ممرات المزرعة حتى أمسك بذراعى فجأة وضغط عليه بشدة وهو يفضى لنا بسره الخطير.

قال بالحرف الواحد: ربما لن تجدنى فى زيارتك القادمة لعدن على قيد الحياة . . إننى محاصر ومراقب . . «لن يتورع عبد الفتاح إسماعيل ـ أمين عام الجبهة القومية ـ وجناحه عن اغتيالى . . إننى أكاد أجزم بأن المؤامرة باتت قيد النفاذ»!

ثم مضى بيننا فترة من الصمت الممض . . حتى قلت لسالمين: ماذا بوسعى أن أفعل إذن يا سيادة الرئيس . . هل أكتب؟ هل أدعو لمؤتمر صحفى بالقاهرة؟ هل أفشى بهذا السر الخطير لليمنيين والمصريين؟

قال لى فى نبرة آمرة: إياك أن تفعل ذلك بأى شكل من الأشكال إننى أثق بك وفى إدراكك لخطورة الموقف . . هذا السر لا يعلمه أحد سواك . . وعلىّ أن أواجه مصيرى المحتوم.

كان حجازى يسمع لسالمين مشدوها . . وعندما عدنا إلى فندق كريسنت قال لى: يبدو أن الاغتيال ليس وهمًا فى خيال سالمين . . لكن هل بوسعك أن تتكتم على هذا السر الخطير؟

قلت له: معظم الرءوس الكبيرة فى اليمن معرضة للاغتيال من خصومها . . وعلينا إذن الالتزام بوعدنا لسالمين بكتمان السر و . . الأعمار على كل حال بيد الله!

والشاهد أننى عندما التقيت سالمين بعد شهور بالقصر الجمهورى فى أعقاب اغتيال إبراهيم الحمدى عام ١٩٧٧، لفت انتباهى أن شخصين كانا حاضرين حوارى معه على غير العادة، دون أن يسمحا باختلائنا به، ويبدو أنهما من المخابرات، خاصة أنه ضغط على يدى بشدة عندما صافحته فى بداية اللقاء ثم فى نهايته على غير عادته!

وهكذا وقع المقدر المكتوب فى علم الله . . وجرى إعدام سالمين أو اغتياله . . كما جرى إعدام أو اغتيال محمد صالح مطيع وزير الخارجية . . وتناثرت الشائعات والتكهنات فى عدن تؤكد أن جريمة كل منهما تتعلق بالدعوة للانفتاح القومى وتحسين العلاقات مع دول الجوار العربى وتسريع وتيرة اتفاقية القاهرة للوحدة اليمنية!

ومن عجب أن يبادر الحزب الاشتراكى الحاكم فى عدن إلى رد الاعتبار لعدد من

القيادات التى طالها الاغتيال أو الموت الزؤام وفى مقدمتهم قحطان الشعبى وفيصل عبد اللطيف وسالم ربيع على ومحمد صالح مطيع، وكان الاتحاد السوفيتى قد انهار، وفقدت الماركسية زخمها وزهوها . . وتهيأت الأجواء السياسية والشعبية لمراجعة ونقد الرفاق لتجربة الثورة فى جنوب اليمن إيذانا بإعلان الوحدة اليمنية!

١٤٠ ـ الكـــل مغـــــلوب

لم تسفر أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ المشئومة عن غالب ومغلوب . . الجميع كانوا مغلوبين، والجميع شاركوا فى تمزيق نسيج الوحدة الوطنية، وفى تأجيج عمليات الانتقام والصراعات والتصفيات الجسدية بلا نهاية، ورغم الإدعاء بالانتماء القومى على الصعيد الفكرى، إلا أن الطفولة اليسارية جنحت بالنظام فى اليمن الديمقراطى بعيدا عن مرافئ العروبة، والولوج طوعا إلى متاهات التحالفات الخارجية الماركسية إلى حد تسمية العديد من الشوارع والمؤسسات فى عدن وغيرها من مدن بأسماء القيادات الماركسية، وحتى علم البلاد لم ينج للأسف من هذا الشطط!

ولاشك أن على ناصر نال جزاءه الفادح لدوره المقدر فى محاولة فتح مغاليق العلاقات مع الأشقاء العرب فى دول الجوار، إذ فى عهده شهدت الحدود والعلاقات المشتركة مع سلطنة عمان ومع السعودية هدوءا واستقرارا ملحوظا لأول مرة منذ حقبة من الزمان، ولعله نفس الدور والجزاء الذى كان من نصيب سالم ربيع على ووزير خارجيته محمد سالم مطيع، ثم إن على ناصر كان على منوال سالم ربيع على وإبراهيم الحمدى فى تمهيد الطريق وتهدئة الصراعات السياسية وبين الشطرين توطئة لإنجاز الوحدة اليمنية، ولعل هذا التواصل القومى كان وراء شبكة العلاقات الحميمة التى ربطت بين على ناصر ومعظم القيادات والزعامات اليمنية والعربية بلا استثناء، وهو ما يفسر ترحيبها بمساعدته بعد أن غادر السلطة، ومبادراتها لدعمه ماديًا بعد أن جمد نشاطه السياسى وتفرغ لإدارة «المركز العربى للدراسات الاستراتيجية» بتمويل قدره ٢٦ مليون دولار، حيث تخصص المركز فى سد النقص الخطير الذى يواجه صناع القرار فى المنطقة العربية، سواء عبر توفير الوثائق والبيانات ونتائج الدراسات التكاملية، والإسهام عبر شبكة معلومات واسعة عربيًا ودوليًا فى وضع الخطط وصياغة الاستراتيجيات القومية!

أذكر بالمناسبة أن على ناصر حين نزح ومعه أنصاره من المدنيين والعسكريين بكامل أسلحتهم إلى شمال اليمن، ولم يمانع الرئيس على عبد الله صالح فى محاولته استعادة السلطة، لكنه نصحه بإعادة دراسة وتقييم الموقف من مختلف زواياه، حتى اختار القبول بالأمر الواقع، ووقف الخسائر البشرية والمادية عند هذا الحد، ووجه باستيعاب العسكريين من أنصاره بالقوات المسلحة فى شمال اليمن، وهى قد لعبت دورها بعد خمس سنوات بحكم خبرتها بالأوضاع السياسية والجغرافية فى اليمن الديمقراطى فى إجهاض المؤامرة الانفصالية صيف عام ١٩٩٤.

أذكر كذلك عندما قمت بزيارته فى مقره الجديد الذى قدمه له على عبد الله صالح فى صنعاء، أنه كان حوله طاقم حراسة مسلحة تحت إمرة ضابط من ردفان أذكر أن اسمه قاسم معوضة، وكذا عشرات الصحفيين العرب والأجانب، لكنه رفض أن يتورط فى الهجوم المضاد على النظام الجديد فى عدن وسمعته يردد بيتا من الشعر حول من تلقى به المقادير إلى حكم اليمن:

وأتعس الناس فى الدنيا وأنكدها   من يركب الليث أو من يحكم اليمن

وخلال زيارات العمل بالقاهرة والتقائه بالباحثين والمفكرين المصريين لشئون تخص المركز العربى للدراسات الاستراتيجية، كنت ألقاه كثيرا وبدون موعد وهو يسرع وزوجته السعودية الخطى على «التراك» الدائرى فى نادى الصيد بالدقى، ونجلس دائما ونتحاور، ثم يتذكر نصيحة سمعها من الرئيس عبد الله السلال حول الثلاثية الذهبية التى تؤمن للإنسان الحياة السعيدة وتكمن فى الصحة والتفاؤل والرضا بقضاء الله. وأذكر أنه قال لى: عملا بهذا المثل لم أحزن لحرق منزلى فى أبين بقدر حزنى على ما جرته أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ من نكبات.

ثم أذكر له أخيرا تلك الندوة السياسية والفكرية القيمة التى دعا لها فى مقر الجامعة العربية بالقاهرة وأدار جلساتها الأستاذ محسن العينى، وكان موضوعها عن زخم الدعم السياسى والعسكرى والحضارى الذى قدمته مصر عبد الناصر لثورة اليمن فى الشمال ثم فى الجنوب، حيث حظيت لحسن الحظ بتقديم بحث ميدانى أقرب إلى الشهادة الصحفية حول هذا الدور.

١٤١ ـ محمد على الجفرى.. هل كان على حق؟

كنت فى حيرة إزاء موقف مصر الناصرية عندما منحت حق اللجوء السياسى بكل استحقاقاته المادية والأدبية والسياسية للمرحوم محمد على الجفرى، رغم ما كان يتردد بالحق أو بالباطل عن رجعيته تارة، أو حدثيته تارة أخرى على وحدة أو فصل الجنوب اليمنى عن الوطن الأم، لكن على الرغم من الاختلاف البين حول توجهاته المناطقية، أشهد أن الرجل على المستوى الاجتماعى والأخلاقى ظل أهلاً للصداقة والمحبة كأى «جنتلمان» متحضر!

محمد على الجفرى زعيم رابطة أبناء الجنوب التى طرحت نفسها حزبا منافسا للأحزاب القديمة والحديثة فى حلبة الديمقراطية والتعددية السياسية إثر قيام الوحدة اليمنية، كان يتسم بالمودة وعشق المؤانسة والحوار حتى مع ألد الخصوم، فهو قد ولد فى أسرة حضرمية ثرية ومتدينة، ثم شب عن الطوق فى ظل الحكم البريطانى ووسط مجتمع من السلطنات والمشيخات القبلية الموغلة فى التخلف، وتربى فى سهول «العوالق» وتعلم بالمدارس الدينية فى «حضرموت»، ثم فى الأزهر الشريف بالقاهرة. . وبعدها شق طريقه إلى حلبة السياسة داعيا إلى استقلال ووحدة الجنوب اليمنى، ولعله من هنا كان تحديد إقامته أولا فى «دار سعد» ثم نفيه بعد ذلك إلى خارج الوطن!

كانت لدى الجفرى خبرة لا تبارى فى معرفة قبائل وشيوخ الجنوب اليمنى والإدراك الواعى بأنسابها وتقاليدها وأعرافها ومذاهبها الدينية، ومن هنا كان نقده المرير لتجاوزات الجبهة القومية ثم الحزب الاشتراكى فى التعامل مع الخصوصيات القبلية، سواء بالقوة أو بالإلغاء الفوقى لمراحل التطور الاجتماعى، وهو قد أسس لفكره وتوجهاته السياسية على قاعدة توحيد أشطار الجنوب اليمنى، بدعوى التشابه أو التماسك فى أنظمتها القبلية الموروثة، ثم أنظمتها الإدارية التى تخلفت عن عهود الاستعمار، دون أن يسعفه الخيال السياسى لتجاوز مرحلة النضال السلمى المأمون العواقب نسبيًا والولوج إلى ساحة النضال المسلح وكلفته الباهظة!

ثم مضى نحو ما يزيد على أربعين عاما على معرفتى لأول مرة بالمرحوم محمد

على الجفرى ونحو ستة عشر عاما على رحيله ١٩٨٠ ، وما زلت أتذكر جلساتنا الموحية فى مقاهى ومنتديات القاهرة مع أبناء اليمن ومع النخب المصرية ، والحديث يدور دورته حول قضايا اليمن وهموم الوطن والأدب والشعر .

أتذكره فى سهراتنا المسائية شبه اليومية وهو يمارس الحوار وآيات ظرفه وذكرياته العذبة فى كافيتريا «داى اندنايت» بفندق سميراميس القديم ونحن نتحلق حول أستاذنا الكاتب الشاعر الظريف كامل الشناوى ، وأحيانا كان بصحبته بعض من أفراد أسرته وبينهم المرحوم عبد الله الجفرى وعبد الرحمن الجفرى وعدد من زعامات رابطة أبناء الجنوب أذكر منهم شيخان الحبشى والأمير على عبد الكريم العبدلى سلطان لحج السابق وعبد القوى مكاوى رئيس جبهة التحرير ، ومن العرب الكاتب الصحفى المصرى المرحوم وجيه أبو ذكرى ، وحسين الحلاق المناضل السورى والشاعر العراقى عبد الوهاب البياتى والأخضر الإبراهيمى سفير الجزائر . . وحتى رحل الجفرى عن القاهرة إلى بغداد حيث وافاه الأجل !

ولعلى أتساءل الآن فى ضوء التقلبات والصراعات السياسية والتصفيات الجسدية التى علقت بتجربة الجبهة القومية ثم الحزب الاشتراكى فى حكم اليمن الديمقراطى ، فيما إذا كنا على حق وغيرى كثر فى إغلاق الأبواب أمام الطرح السياسى الآخر الذى كان يمثله محمد على الجفرى ، واتهامه جزافا بالرجعية أو الخيانة ، دون أن نحسب له سبق الريادة الوطنية فى مقاومة التوغل البريطانى فى المناطق اليمنية الجنوبية التى لم تكن قد رزحت بعد تحت نير الاستعمار ، والتصدى للنعرات الانفصالية فى المحميات ، وكذا محاولات طمس عروبة المنطقة وإغراقها بالهجرات الأجنبية ، وكذا المحاولة المشبوهة الرامية لسيادة اللغة الإنجليزية فى المعاملات الرسمية كما هو الحال فى الهند ، إلى ذلك كانت معارضة الرابطة لمشروع الاتحاد الفيدرالى للجنوب بالتزامن مع منح عدن الحكم الذاتى خلال أعوام ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٩٥٨ ، وكذا مشروع البترول عام ١٩٥٦ .

ثم يحسب للرابطة أن نضالها السياسى السلمى على هذا الصعيد منذ أوائل خمسينيات القرن الماضى قبل ثورة ٢٣ يوليو فى مصر ، وقبل تبنى الكفاح المسلح كأداة لتفجير الثورة فى شمال وجنوب اليمن ، ثم لماذا نهيل التراب على مواقف

بعض سلاطين الجنوب من أمثال السلطان الفضيلى والأمير جعبل بن حسن العوذلى والأمير على عبد الكريم ودورهم معروف ومشهود فى فضح السياسات الاستعمارية، ثم نفيهم قسراً أو اختياراً إلى الخارج، حيث واصلوا كفاحهم السياسى الوطنى من القاهرة، أليس من الأهمية والمصداقية التاريخية، رصد وتقييم مواقفهم ومالهم وما عليهم فى ضوء الظروف الموضوعية فى ذلك الزمان؟

١٤٢ ـ التنافس بين الرأسمالية والاشتراكية

منذ اندلاع الحرب الأهلية بين شطرى اليمن عام ١٩٧٢ وتوقيع اتفاقية الوحدة فى القاهرة، عقدت فى أعقابها كم من الاتفاقيات جمعت بين زعامات النظامين فى صنعاء وعدن تحت شعار إنجاز الوحدة اليمنية و. . لكن دون طائل دون طائل، حتى نجح الرئيس على عبد الله صالح بالصبر والمرونة فى كسب ثقة وصداقة زعامات الحزب الاشتراكى الحاكم فى الجنوب، حيث بدأ التغيير الملحوظ فى أسلوب معالجة قضية الوحدة، وهكذا فى ١٣ يونيو ١٩٨٠ تم عقد اتفاقية بين الشطرين استهدفت دفع العمل فى لجان الوحدة، وتهيئة الأجواء السياسية والشعبية للمضى قدما فى إنجازها، عبر توفير سبل الأمن والاستقرار الذى يمكن المواطنين من حرية الانتقال بين الشطرين، وضبط العملية الأمنية مما حال دون أى نشاط مناهض لثورتى سبتمبر وأكتوبر، بل إلى حد وضع خطة مشتركة للدفاع عن التراب اليمنى وسيادته الوطنية. . وبعدها وقعت اتفاقية نوفمبر ١٩٨١ خلال أول زيارة للرئيس على عبد الله صالح إلى عدن، فكان لها دور ملموس فى التنسيق والتوحيد الشامل فى مختلف المجالات الثقافية والدبلوماسية والتنموية، وقيام المجلس اليمنى الأعلى الذى يضم القيادة السياسية فى الشطرين!

بعدها ثارت الخلافات وكادت تؤدى إلى الحرب الأهلية إثر اكتشاف الثروات النفطية فى الشطرين بالتزامن مع توقف الدعم السياسى والاقتصادى والعسكرى الذى كان يتلقاه نظام الحزب الاشتراكى فى الجنوب إثر انهيار الاتحاد السوفيتى، والانعكاسات السلبية لنهج البريسترويكا على اليمن. . ولا شك أن كل هذه العوامل وغيرها كان لها دور وراء تسارع خطى الوحدة!

ورغم أن برنامج الإصلاح السياسى والاقتصادى الذى تبناه الحزب الاشتراكى اليمنى فى الشطر الجنوبى كان سابقا لنهج البريسترويكا لكن ظلت المشكلة كامنة فى التمويل الذى كان من المتعين أن تسهم فيه المنظومة الاشتراكية بنصيب وافر.

من هنا السؤال إن كان الحزب الاشتراكى قد انخرط فى غمار الوحدة اليمنية كمهرب إلى الامام من مأزقه السياسى؟

والمعروف أنه كان من المقرر إعلان الوحدة فى ٣٠ نوفمبر ١٩٩٠.. لكن باختصار المدة ستة شهور كاملة أوحى وكأن أخطارا داهمة كانت تتهدد قيامها، إذ أن إلحاح الشعب من جهة واندفاع لجان الوحدة لإنجاز أعمالها بحس وطنى ودأب وتجرد كان من العوامل الضاغطة التى عجلت بموعد إعلانها، ومن حسن الحظ أنه لو لم تتوحد رؤى ومواقف الزعامات فى صنعاء وعدن، لما كان للظروف الكارثية التى طرأت على الوطن العربى وبينها أزمة الخليج تسمح بتحقيق الوحدة اليمنية فى موعدها.

كذلك لولا حل مشكلة قيادة دولة الوحدة ومشكلة التنافس أو المفاضلة بين تجربة النظام الاشتراكى فى الجنوب والنظام الرأسمالى فى الشمال.. لما كان من السهل التحرك خطوة واحدة لإنجاز أهداف الثورة اليمنية الثالثة.. أعنى نهاية عهود التجزئة والتشطير وإعلان الوحدة اليمنية!

كانت لدى الحزب الاشتراكى اليمنى فى الشطر الجنوبى - سابقا - قناعة جسدها فى برنامجه بأن القضية الوطنية ووحدة البلاد ليس فى مقدور الحزب وحده أن يحلها منفردا، لكن بإتاحة أوسع فرص المشاركة السياسية لمختلف الفصائل الحزبية الديمقراطية والوطنية.. ومن ثم فرضت التعددية السياسية نفسها على ساحة العمل الوحدوى.. بينما كان الشمال والجنوب يمارسان صيغة الحزب الواحد والحكم الواحد وكل شيء أحادى، ومن ثم كان من المتعين أن يتخلى الجميع عن هذا المنهج فى إطار معطيات العصر ومتغيراته وهكذا بات الشروع فى أى خطوات جادة من شأنها أن تمهد الطريق لبناء الوحدة ومعالجة قضاياها.. وبصراحة فإن السنوات الطويلة السابقة كانت كلها مشاكل ورواسب سلبية بين النظامين، ولم يكن هناك

ثمة إمكانية لتطور أى منهما منفصلا، ولذلك فإن الوحدة كانت طوق النجاة للجميع، خاصة أنه لم يتم أى تطور رأسمالى يذكر فى الشمال، كما لم يكن هناك تطور اشتراكى فى الجنوب، فكان لا مفر إذن من تخلى النظامين عن تلك الادعاءات حتى يمكن التحرك وصولا إلى رؤية مشتركة ومتكاملة بشأن مستقبل الوطن وصيغة الحكم الوحدوى!

وإذا كان شطرا اليمن يتبنيان ايديولوجيات مختلفة وكان هناك اقتصاد مخطط فى الجنوب واقتصاد حر فى الشمال. . ولكل نظام حزب مختلف فى توجهاته وبرامجه وأساليبه السياسية لذلك كان الحل التوفيقى الذى تبناه ودعا إليه الدكتور عبد الكريم الإيريانى فى قيام الوحدة عبر إطار من التحالف بين الحزبين بينما كان البعض من اليمنيين يخشى أن يكون قيام الوحدة مجرد فورة شعبية وحماس القيادتين السياسيتين.

وربما كانت لهذه المخاوف وجاهتها، لكن من الناحية العملية، كانت الشواهد تشير إلى أن الكلام عن الوحدة ظل مجرد عبارة تتسم بالمناورات والتكتيكات العقيمة، ولم تخرج إلى مجال الموقف العملى الصادق وبهذه الروح الوطنية المتجردة إلا فى ٣٠ نوفمبر ١٩٨٩، بعدها لم يتمسك الحزب الاشتراكى اليمنى أو حزب مؤتمر الشعب العام بأيديولوجياته السابقة وسعيه للاستئثار بالسلطة، حيث فرضت التحالفات السياسية والاجتماعية صيغة سياسية جديدة لتطوير اليمن وبناء الوحدة على أساس ديمقراطى وطنى شامل.

ولاشك أن قيام دولة الوحدة استعدى عليها قوى داخلية وخارجية عديدة، سلفية وماركسية ورجعية. . وهناك دول عربية تجاهلت هذا الحدث. . ثم جاءت أزمة الخليج تعكس تداعياتها السلبية على عملية بناء الوحدة اليمنية. . ومع ذلك ظل الرهان والضمان الحقيقى لبناء الوحدة اليمنية وديمومتها وتنامى إشعاعاتها السياسية والحضارية، يكمن فى وحدة القيادة السياسية المشتركة لمسيرتها، وتماسك نسيج الوحدة الوطنية فى خضم التحديات التى تواجهها من خصومها فى الداخل ومن الخارج.

ولاشك كذلك أن أخطر هذه التحديات كان الوضع الاقتصادى الصعب، خزانة الدولة فى الشطر الجنوبى السابق كانت مفلسة من أى دولار أو ريال عندما اندمجت فى دولة الوحدة الجديدة، بل وكان على ميزانية دولة الوحدة أن تفى بعبء مرتبات الموظفين والقوات المسلحة وقوات الأمن فى الشطر الجنوبى السابق، ثم كانت الطامة الكبرى فى عودة نحو مليون ونصف مليون يمنى من العاملين فى السعودية ودول الخليج، وانقطاع تحويلاتهم من العملة الصعبة من جهة وتفاقم أزمة البطالة من جهة ثانية، وتوقف الدعم العربى والدولى لليمن بسبب موقفه المنحاز إلى حل أزمة الخليج سلميا وعربيا، وتجنب حلها عسكريا وأمريكيا عبر التحالف الدولى!

١٤٣ـ افتتاح النفق الصينى

يوم توجه الرئيس على عبد الله صالح إلى عدن وفى صحبته وفد رسمى وشعبى ضخم للمشاركة فى الاحتفال بالذكرى الثامنة عشرة لجلاء القوات البريطانية يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٩٨٩ كنت هناك مدعواً للاحتفال، وكان الشعب اليمنى عن بكرة أبيه يتوقع إعلان قرار تاريخى ما فى هذه المناسبة يتوج العلاقات المتحسنة بين النظام فى الشمال والنظام فى الجنوب، عدن من جانبها كانت قد توقفت عن دعم النشاط السياسى والعسكرى لما كان يسمى بالجبهة الوطنية التى كانت تمارس الاغتيالات السياسية لمشايخ القبائل فى المناطق الوسطى من اليمن الشمالى بدعوى تصفية الرجعية ورموزها، والذى أدى فى أعقاب كمين خططت له مخابرات النظام الاشتراكى فى عدن إلى اغتيال عدد من كبار مشايخ القبائل الشمالية المحسوبين على الرجعية والعمالة لأعداء اليمن من بينهم الشيخ على بن ناجى الغادر والشيخ حنتش والشيخ الهيال. . فكان الحادث الذى أشعل فتيل الحرب الأولى بين الشمال وجنوب اليمن عام ١٩٧٢ .

صنعاء أيضا كانت لها مبادراتها لإثبات حسن النوايا تجاه عدن، فهى قد استقبلت فلول أنصار الرئيس الجنوبى السابق على ناصر والقوات العسكرية الموالية له بكامل معداتها وأسلحتها، ورفضت أن يمارسوا من حدودها نشاطًا سياسيًا معارضًا أو شن عمليات عسكرية لتصفية الحسابات ضد النظام فى الجنوب إثر

مذبحة الاقتتال الدامى بين رفاق الحزب الاشتراكى التى شهدتها عدن يوم ١٣ يناير عام ١٩٨٦ وراح ضحيتها ما يزيد على ١٣ ألف قتيل.

على أى حال عقدت اللجنة العليا للوحدة اجتماعاتها برئاسة راشد ثابت وزير شئون الوحدة فى الجنوب ويحيى العرشى وزير شئون الوحدة فى الشمال، ودار النقاش والبحث حول خطوة سياسية تقرب من يوم إعلان الوحدة التى طال انتظار تحقيقها باعتبارها الهدف الاستراتيجى الذى نصت عليه مواثيق ثورة سبتمبر وثورة أكتوبر، وإعادة التأكيد على الالتزام باتفاقية القاهرة للوحدة اليمنية التى تم التوقيع عليها فى الجامعة العربية ١٩٧٢ واتفاقية أخرى فى طرابلس وثالثة فى الكويت.

كان أقصى ما يطمح إليه الوفد القادم من صنعاء لإنجازه فى هذه المناسبة قبول النظام فى الجنوب بإعلان الفيدرالية التى تحافظ على النظام السياسى الراهن فى عدن وصنعاء وتوحيد السياسات الخارجية والدفاع والتنسيق بين الوزارات وتكامل الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية حفاظا على استمرارية الالتزام بالوحدة إلى حين تتهيأ الظروف الموضوعية لنقلة سياسية جديدة بإسدال الستار على زمان التجزئة والتشطير ودمج النظامين وإعلان الوحدة.

وبينما كان وزيرا شئون الوحدة فى نقاش محتدم حول مضمون وصيغة القرار الذى تترقب الجماهير إعلانه بفارغ الصبر.. كان الرئيس على عبد الله صالح وعلى سالم البيض الأمين العام للحزب الاشتراكى الحاكم فى الجنوب يفتتحان النفق الذى شقه العمال الصينيون فى الجبال لتسهيل حركة ازدحام المرور فى عدن.. وفجأة توقف البيض فى منتصف النفق ومال على رأس على عبد الله صالح وقال: لماذا نتلكأ وإلى متى نؤجل القرار وما فائدة التسويف إذا كانت رغبة الجماهير فى إعلان الوحدة الاندماجية.. عندئذ أصابت على عبد الله صالح الدهشة للمفاجأة وقال: أخشى أن يكون ثوب الوحدة الاندماجية فضفاضًا.. لكن هل أستطيع سوى القبول.. وقال البيض: سوف نتعاون معا بإخلاص وتجرد حتى يصبح الحلم حقيقة وقال صالح: على بركة الله و.. تلك كانت رواية الدكتور عبد الكريم الإيريانى الذى شهد الواقعة فى النفق الصينى كما سمعتها على لسانه!

١٤٤ ـ عاشت الوحدة اليمنية

كنت الصحفى الوحيد بين عشرات الصحفيين العرب والأجانب الذى استدعاه الدكتور عبد الكريم الإيريانى لشهود حفل التوقيع بقاعة فلسطين فى مقر إقامة السيد على سالم البيض فوق قمة جبل المعاشق المطل على خليج عدن . . كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل ، وكانت توقعات الصحفيين فى الخارج تشير إلى احتمالين إما إعلان قرار قيام مجلس الرئاسة اليمنى الذى تأجل صدوره منذ عام ١٩٧٧ وكان السبب المباشر وراء اغتيال الرئيس الشمالى الأسبق إبراهيم الحمدى والرئيس الجنوبى الأسبق سالم ربيع على . . أو ربما كان الإعلان المتوقع عن قيام وحدة فيدرالية بين عدن وصنعاء من باب الإفراط فى التفاؤل ! !

أمسك على سالم البيض بالقلم ووقع على وثيقة إجازة عرض دستور الوحدة الاندماجية على برلمانى الشمال والجنوب إيذانا بالاستفتاء الشعبى على قيام الوحدة اليمنية وقع فى أعقابه على سالم البيض الأمين العام للحزب الاشتراكى بنفس القلم . . ثم راح كل منهما يتلهف على الاحتفاء بقلم التوقيع . . فكان من نصيب على عبد الله صالح .

عندئذ دار فى رأسى شريط طويل من الذكريات والمآسى والتضحيات ومشاهد الشهداء اليمنيين والمصريين الذين جادوا بأرواحهم الطاهرة حتى تأتى هذه اللحظة التاريخية العظيمة ، واكتشفت بعدها أننى هتفت بأعلى صوتى . . عاشت الوحدة اليمنية . . عاش اليمن . . ثم انهمرت دموعى تلقائيًا أمام الملايين الذين كانوا يتابعون الاحتفال عبر شاشات التليفزيون !

وعلى ما يبدو أن عقلى الباطن وربما ضميرى كان دافعى لهذا الهتاف والبكاء ، فهذه الوحدة المباركة انتصار وطنى وقومى يضاف إلى أمجاد بلدى مصر ، ولم لا وقد جاءت الوحدة اليمنية من حيث التوقيت فى زمان الردة عن كل ما آمنت به ثورة يوليو وسعت إليه بزعامة جمال عبد الناصر على صعيد إنجاز المشروع الوحدوى الشامل للأمة العربية ، لتجبر انكسار الوحدة المصرية السورية ، وقد لا أبالغ القول إن حدث الوحدة اليمنية كان فى حد ذاته بمثابة نفحة روحية طال انتظارها وشحنة

غير مسبوقة من الفخر والحماس، هبت فى الوقت المناسب لترطيب وجدان زوجات وأولاد وآباء وأمهات الشهداء المصريين، حين أدركوا أن عطاءهم وتضحياتهم لم تذهب سدى، خاصة بعد كم وألوان حملات التشهير المشبوهة بالدور المصرى فى اليمن.

ليلتها سهر اليمنيون حتى منتصف الليل إلى جوار الراديو بانتظار خبر سعيد يقرب من طموحاتهم فى قيام الوحدة، وإذا بالمفاجأة السعيدة تكتمل بالإرادة السياسية المشتركة حول إعلان الوحدة دون تلكؤ أو مماطلة، وخرج الجميع إلى الشوارع فى شتى ربوع اليمن يهتفون ويرقصون ويهنئون بعضهم البعض بفرحة الوحدة، وحين عدت فى اليوم التالى إلى صنعاء فى موكب الرئيس على عبد الله صالح، إذا بالحشود البشرية العارمة التى كانت بانتظاره فى مدينة تعز تذكرنى بمواكب جمال عبد الناصر التاريخية الهادرة والهتاف بحياته وبالمجد والخلود للثورة والجمهورية والوحدة!

هكذا فى عام ١٩٩٠م شهدت فى صنعاء التوقيع على اتفاق إعلان الجمهورية اليمنية عبر الاندماج الكامل بين مؤسسات الشطرين، ثم شهدت من بعد إجراء أول انتخابات نيابية ديمقراطية شهد لها المراقبون بمحاكاتها لأرقى الديمقراطيات الغربية، ولم يمض سوى عامين على الفترة الانتقالية حتى كانت الانتخابات النيابية الثانية فى ظل دولة الوحدة، وعندئذ حدث ما لم يكن فى حسبان أحد، حين رفض على سالم البيض تولى منصبه كنائب لرئيس الجمهورية وتمترس فى عدن، وراح يمارس السلطة والمعارضة معا.

١٤٥ـ مكتب نائب الرئيس الأمريكى

لم يكن اعتكاف نائب الرئيس فى عدن السابقة الأولى عبر ممارسة أسلوبه الخاص فى الاحتجاج السياسى، سبقها اعتكافان: أحدهما فى عدن والثانى فى مسقط رأسه حضرموت، وفى المرة الأولى والثانية كانت مبادرة الصلح والوفاق من جانب الرئيس على عبد الله صالح، لكن ظل الخلاف بينهما مكتوما وداخل الغرف المغلقة!

والحقيقة أن البيض كان ساعيا بجدية إلى الالتزام بخيار دمج وتوحيد حزبى السلطة الاشتراكى والمؤتمر لإغلاق الأبواب فى وجه الخلافات والتناقضات، إذ كان رأيه أن الوحدة جاءت عبر أسلوب الاندماج . . والحزبين تحملا معا مسئولية إعلان الوحدة . . ولا مفر من أن يستكملا معا بناء دولة الوحدة وتحديثها وتسيير شئونها . . الأمر الذى ووجه بمعارضة شديدة من الرموز المتشددة فى الحزب الاشتراكى بدعوى أن هذه الخطوة تعنى تلاشى الحزب الاشتراكى وتجربته وتاريخه . . أو بدعوى أن الاندماج يعنى ابتلاع حزب المؤتمر للحزب الاشتراكى والغاءه . . حتى انسحب فريق من هذه الرموز المتشددة وأعلنوا انشقاقهم عن الحزب .

قال لى أبو بكر العطاس الاشتراكى رئيس حكومة الوحدة . . إنه يعزو اعتكاف النائب فى عدن إلى أن دوره فى إنجاز الوحدة لم يقدر، ولا قدر موقفه من ضرورات دمج حزبى السلطة . . وأكد على أن قراره بالاعتكاف «مزاجى» وخلاف الرئيس ونائبه أدى إلى خلخلة تماسك وحدة القيادة السياسية وتباين إرادتها، الأمر الذى عطل أعمال الحكومة حتى أن عملية تسيير أجهزة الدولة أصبحت فى حالة ركود وانتظار . . وقال لى جار الله عمر عضو المكتب السياسى للحزب الاشتراكى إن اعتكاف النائب فى عدن كان قرارا شخصيا من جانبه من دون استشارة الحزب بعد أن اكتشف من خلال ممارسته للسلطة أنه بلا سلطة .

كان البيض قد غادر صنعاء إلى العاصمة الأردنية عمان ومنها إلى واشنطن، وبعدها التقيت مع الأستاذ محسن العينى رئيس وزراء اليمن الأسبق وسفيرها فى أمريكا فى القاهرة أوائل أغسطس عام ١٩٩٤، حيث دعانى والأستاذ محمد عودة لتناول الغداء بفندق شيراتون . . وقال لنا إن نائب الرئيس السيد على سالم البيض وصل إلى واشنطن وطلب منه التكتم على خبر إقامته فى أحد المستشفيات والسيدة حرمه للعلاج، وإنه لا يعتزم القيام بأى اتصالات مع الإدارة الأمريكية ولا ممارسة أى نشاط دبلوماسى، ومن ثم استأذنه لقضاء إجازته السنوية فى القاهرة وصنعاء!

على أن محسن العينى تلقى تعليمات فجأة من وزير الخارجية اليمنية بالعودة سريعا إلى واشنطن، بعد أن وصلت معلومات تفيد لقاء النائب فى واشنطن بنائب

الرئيس الأمريكى فى غيبته . . وقيل أيضا إنه التقى بالأمير بندر بن سلطان سفير السعودية فى واشنطن من دون إبلاغ صنعاء أو موافاتها بتقرير عن نشاطاته ومباحثاته الأمر الذى جعل الرئيس على عبد الله صالح يضرب أخماسًا فى أسداس!

١٤٦ - التعديلات الدستورية والاعتكاف بعدن

وهكذا ما أن وصل البيض من أمريكا إلى عدن فى ١٩ أغسطس ١٩٩٤ - قادما من أمريكا - حتى بدأت الأزمة السياسية تتفاقم تباعا، حيث بدأ يمارس سلطات السيادة والسلطة التنفيذية معًا فى ربوع الجنوب كما لو أنه لا يزال مشطرا . . وعبر لقاءاته الجماهيرية والحزبية وخطبه فى المناسبات وزياراته للمنشآت بدأ الغمز واللمز دون الكشف عن المستور حول أسباب خلافه مع الرئيس، قال: فوجئت بأن مكتبى فى صنعاء يفوق فخامة وأبهة مكتب نائب الرئيس الأمريكى . . وأنه لن يعود إلى صنعاء لأنه ظل بلا عمل ولا كلف بمهمة على مدى ثلاث سنوات! ومن ثم اندلعت فى أعقاب خطبه وأحاديثه حملات إعلامية متبادلة وضارية بين الحزب الاشتراكى وحزب المؤتمر تزعمتها صحيفة صوت العمال التى تصدر فى عدن وصحيفة ٢٢ مايو التى تصدر من صنعاء . . وقيل فى حق الرئيس ونائبه أكثر مما قاله مالك فى الخمر . . تجريحا وتشكيكا فى الذمة السياسية والمالية واتهامات بالتآمر ومحاولة الاحتواء وإلغاء الطرف الآخر.

لكن مكتب النائب الفخم الأبهة فى صنعاء من دون عمل أو مهام محددة لم يكن بالطبع السبب المباشر لغضب النائب ولا كان وراء اعتكافه وخلافه مع الرئيس، وإنما ما سفرت عنه نتائج الانتخابات النيابية من فوز حزب التجمع اليمنى للإصلاح بعدد أكبر من الدوائر أهلته لاحتلال المركز الثانى بعد حزب المؤتمر . . وبالتالى تراجع الحزب الاشتراكى إلى المركز الثالث . . الأمر الذى فرض صيغة ائتلافية جديدة للحكم ونهاية ثنائية سلطة السيادة التى ظلت قاصرة على المؤتمر والاشتراكى خلال الفترة الانتقالية . . وهكذا خلال غياب النائب فى أمريكا، استقر الإجماع فى مجلس الشعب على طرح تعديلات دستورية تواكب نتائج

الانتخابات، من بينها منح الرئيس صلاحيات اختيار نائبه، الأمر الذى فسره البيض بمحاولة الرئيس التراجع عن الاتفاقات التى تمت بينهما حول استمرارية اقتسام السلطة وإدخال تعديلات دستورية فى غيبته رغم تمثيل الحزب الاشتراكى بنوابه فى مجلس الشعب والتزامهم رأى الأغلبية الديمقراطية، ومشاركتهم فى مناقشة التعديلات . . وإذا كانت البداية انتزاع رئاسة البرلمان من الاشتراكى لحساب حزب الإصلاح . . ومنح الرئيس خيار انتقاء نائبه وليس عبر الانتخاب، فأى مصيرٌ إذن كان ينتظر نفوذ الاشتراكى فى قسمة السلطة بعد أن بلغت التعددية الحزبية فى اليمن نحو ١٣ حزبا وقتئذ!

١٤٧ ـ تشاؤم دون أمل فى الوفاق

سألنى الرئيس على عبد الله صالح كعادته عن رؤيتى للأوضاع فى اليمن عندما التقيته بالقصر الجمهورى فى صنعاء منتصف شهر سبتمبر ١٩٩٤ وقلت: لعلها الزيارة الأربعون لليمن . . وعلى مدى ثلاثين عاما من المتابعة الصحفية لمسيرة الثورة اليمنية فى الشمال والجنوب لم أفقد قط إيمانى فى حكمة شعبها العظيم وصبره وميراثه النضالى التاريخى وقدراته الذاتية على اجتياز المأزق وابتكار الحلول الخلاقة للمشكلات والخروج من المحن والكوارث التى يتعرض لها أكثر قوة وتفاؤلا بالمستقبل . . لكنى يا سيادة الرئيس أشعر فى هذه الزيارة بالتشاؤم الشديد دون بصيص أمل فى الأفق يطمئننى على قرب أو إمكانية انفراج الأزمة السياسية المحتدمة الآن بينكم ونائبكم السيد على سالم البيض الذى عاد من رحلته العلاجية فى أمريكا إلى عدن وليس صنعاء ليعتكف للمرة الثالثة احتجاجا على شروع البرلمان إلى إدخال تعديلات دستورية فى غيبته من شأنها الإخلال بقسمة السلطة بين حزبى المؤتمر الشعبى العام والحزب الاشتراكى كونهما شريكى قرار قيام دولة الوحدة اليمنية، وفشل كل مساعى الوساطة فى التوصل إلى استعادة القيادة السياسية مصداقيتها ووحدة إرادتها إلى الحد الذى أدى إلى تعطيل أعمال الحكومة والمؤسسات التنفيذية ومصالح الشعب بالتالى، بينما طفت على السطح ظواهر سلبية خطيرة تمثلت فى تبادل الاتهامات بين الحزبين وتجريح الرموز التاريخية التى

صنعت الوحدة وصحيفتا صوت العمال التى تصدر فى عدن و٢٢ مايو التى تصدر من صنعاء شاهد على ذلك، والأخطر من كل ذلك أن القوات المسلحة لا تزال على حالها منقسمة على صعيد التشكيلات، وحتى الآن وبعد مضى أكثر من ثلاث سنوات على الوحدة لم تشملها إجراءات الاندماج، ولا يزال لكل جيش عقيدته القتالية وولاءاته السياسية كما كان عليه الحال إبان التشطير، وأخشى ما أخشاه يا سيادة الرئيس أن ينعكس الخلاف السياسى بينكم ونائبكم على القوات المسلحة عبر الزج بها فى محاولات تغليب كفة ميزان القوى لطرف على حساب كفة الطرف الآخر وعندئذ سوف يستحيل تدارك الكارثة بعد اشتعال الفتنة، وربما استدعى الأمر انتهاز القوى القبلية الفرصة وتأجيج الصراع ودعم نفوذها ووراثة السلطة!

الرئيس اليمنى بعد أن استمع إلى تحليلى وتوقعاتى لم يأخذ مخاوفى محمل الجد. . واعتبر رؤيتى نابعة من حرصى على الوحدة فحسب. . ووصف الأزمة السياسية بأنها مجرد سحابة صيف مالها أن تنقشع واكتفى بالتنوير. . ثم استبعد التنوير من النشر ضمن سياق الحوار الذى أجريته معه وقال: أعلم أنك سوف تواصل الحوار فى المقابل مع الأخ النائب فى عدن. . إذن فلتطرح عليه كذلك تحليلك وتوقعاتك ومخاوفك.

فى عدن التقيت بالسيد على سالم البيض فى مقر إقامته بجبل المعاشق، وكان سكرتيره الصحفى قد حاول أن يتحسس القضايا والأسئلة التى اعتزم طرحها على السيد النائب. . لكننى اكتفيت بترديد عبارة «حسب الظروف» وقلت له حتى لو انتهى اللقاء دون طرح أسئلة أو تلقى أجوبة. . فسوف أكون راضيا. . ويكفى أننى التقيت بصديق تربطنى به صلات صحفية ونضالية منذ اندلاع ثورة أكتوبر فى مواجهة الاستعمار البريطانى وقال: الحقيقة أن السيد النائب لا يرغب فى خوض غمار الأزمة السياسية مع الصحفيين ووسائل الإعلام كونها مسألة داخلية. . وربما لذلك بدأ السيد على سالم البيض عند لقائه به متحفظا ومتجهمًا. . لكننى لم أعدم الوسيلة فى إقناعه بجدوى الحوار، حيث نقلت إليه تحيات زميلى وصديقى الحميم جمال حمدى الكاتب الصحفى بروز اليوسف الذى كان يرقد فى مستشفى جامعة عين شمس إثر سلسلة من العمليات الجراحية الصعبة التى أجريت له بسويسرا ومصر انتهت ببتر ساقه اليمنى. . وعندئذ اكتسى الألم والحزن ملامح وجهه

وكلماته وقال: لقد قرأت مقالك الذى كتبته عنه فى روز اليوسف بعنوان «الكولونيل جمال حمدى» وحاولت الاتصال للاطمئنان لكن تليفون منزله لا يرد. . ثم روى لى تفاصيل جديدة حول الدور الباسل الذى قام به جمال حمدى حين غامر بنقل الأسلحة والذخيرة التى تخلفت عن القوات البريطانية فى قاعدة قناة السويس وقاد قافلة من مائة جمل حملتها من مدينة تعز فى الشطر الشمالى من اليمن إلى منطقة ردفان التى شهدت اندلاع ثورة أكتوبر فى الشطر الجنوبى وهى القصة التى عرضناها من قبل!

١٤٨ ـ البيض يكشف الستار عن خلافه مع الرئيس

بعدها قلت لنائب الرئيس: مبروك أولاً أعياد اليمن المتلاحقة هذه الأيام واحتفالاته بذكرى الثورة فى شمال اليمن ثم فى جنوبه!

اعتدل السيد على سالم البيض فى مقعده أكثر توثبا للحوار وقال: هل تعتقد أن اليمنيين من قلوبهم سعداء بهذه الاحتفالات بينما يعانون من كم وألوان المشكلات التى أفرزتها تجربة الوحدة. . وهل علينا كقيادة سياسية أن نقف على المنصة أمام الميكروفونات وكاميرات التليفزيون نستعرض الاحتفالات وكأنه ليس فى الإمكان أفضل مما كان. . أنا لا أستطيع أن أهنأ بالجلوس على كرسى السلطة بينما داخلى يتمزق لما صارت إليه الأوضاع فى اليمن. فأنا لا أشتهى منصبًا وكرسيًا. . لكنى وصلت إلى ما وصلت إليه بالشعب ومن أجل الشعب والحفاظ على مصالحه. . إننى أرفض أن أكون مجرد «مشجر» وهو نبات الريحان الذى يضعه اليمنيون على رءوسهم للزينة وجلب الروائح الزكية!

قلت: سيادة النائب. . ماذا حدث إذن لا قدر الله حتى تنزوى فى عدن وأنت على قمة السلطة والمسئولية. . وما هى حقيقة خلافك حول تسيير شئون البلاد؟

قال: المسألة ليست انزواء. . وإنما تعبير عن الاحتجاج. . فأنا لا أشتهى أن أكون مشكلة أو سببا لمشكلة فى اليمن بعد هذا العمر الطويل من الممارسة السياسية، ثلاث سنوات يا أخ يوسف من عمر الوحدة اليمنية وأنا أقاوم. . ثلاث سنوات يتنازعنى حبى للوطن وطموحاتى الكبيرة ورغبتى فى العمل ودوافعى للإصلاح،

وبين الممارسات الخاطئة . . ناس عايشة على الأرض وتتطلع إلى العدل والإصلاح والاستقرار وقلة من المنتفعين تسكن القصور وتملك كل شيء ولا تريد الخير للجميع ولا التقدم لليمن!

قلت: اسمح لى أن نعود إلى نقطة البدء حين توحدت رؤاك والرئيس على عبد الله صالح فى إرادة سياسية واحدة حول قرار إعلان الوحدة . . ألم يجر بينكما اتفاق تفصيلى مبرمج حول مسيرتها وخطواتها وأهدافها؟

قال: دعنى أروى لك ما حدث يوم الخميس ٣٠ نوفمبر عام ١٩٨٩ عندما وصل الأخ الرئيس إلى عدن للمشاركة فى احتفالات الشطر اليمنى الجنوبى بانسحاب القوات البريطانية، هنا فى هذا المكان تبادلنا الحديث هادئا وعقلانيا حول همومنا الوطنية المشتركة . . وكيف نستأصل شأفة الخلافات التى تولدت عنها مظاهر الحروب الأهلية بين الشطرين فى الماضى . . وأملنا معا فى خير اليمن . . وفجأة قررنا فى أجواء الحوار والتفاهم والثقة المتبادلة أن نبادر إلى خطوة سياسية نوعية ينتظرها الشعب . . وقلنا إذا كانت الوحدة هى الخطوة والقرار المنشود، إذن علينا أن نهيىء أنفسنا لها عبر اتخاذ إجراءات مصيرية واثقة ومدروسة نكون فى مستواها على صعيد الجدية والالتزام.

قلت: تذكر سيادة النائب أننى كنت هنا فى هذا المكان وواحدا من شهود ذلك القرار التاريخى الذى كان مفاجأة لليمنيين وللعالم . . رغم أن المطروح الذى كان يتوقعه الجميع تراوح آنذاك بين صيغة فيدرالية أو كونفدرالية بين شطرى اليمن . . كيف إذن كان قراركم المشترك بإعلان الوحدة؟

قال: قلنا فلتكن وحدة بين فقراء وأغنياء . . لا بأس . . وكلفنا وزيرى شئون الوحدة - راشد ثابت ويحيى العرشى - بصياغة اتفاق الوحدة . . وعندما عرضت علينا وجدنا فراغا متروكا لنا حتى نحدد مدة الفترة الانتقالية للوحدة وإجراء الانتخابات النيابية . . الرئيس قال: لتكن ستة شهور، وقلت: لتكن ثلاثة شهور . . ومن الطريف أننا كنا قد اتفقنا من قبل فى الكويت عام ١٩٧٩ على أربعة شهور فإذا بنا نتخذ قرار الوحدة بعد عشر سنوات فى عام ١٩٨٩ . وهذا مكيال إذا كانت ثمة حاجة أو ضرورة لأن نكيل المواقف لبعضنا البعض.

قلت: هل جرت مناقشات حول قرار الوحدة مع رفاقكم فى الحزب الاشتراكى والوفد الذى صاحب الرئيس من قيادات المؤتمر الشعبى العام؟

قال: الشعب اليمنى كان سهران يترقب فى لهفة نتائج اجتماعاتنا حتى الساعة ١٢ منتصف الليل وفى أول خمس دقائق من صباح اليوم التالى أعلنا اتفاق الوحدة والناس «موش مصدقين». . كان الموقف مهيبا وجليلا لا يستطيع أحد أن يعترض علينا، فذلك كان أمل الشعب اليمنى ومحور طموحاته ونضالاته وثوراته المتعاقبة. . وأذكر أن جار الله عمر عضو المكتب السياسى فى الحزب الاشتراكى أول من دخل علينا وعرف الخبر. . لكننا للتاريخ والحقيقة لم نشاور أحدا من القيادات السياسية التى كانت تنتظر فى القاعة المجاورة رغم أن هذا الأسلوب فى اتخاذ القرارات - ما بالك إذا كانت مصيرية - غير مطروق فى حزبنا، واعتبر الجميع أن ما فعلناه أمر عظيم وطيب، وصفحة جديدة نسطرها بمعاناة الأجيال الماضية وشهدائنا، وقلنا إن الذى يكتب هذه الصفحة الجديدة المفعمة بالمعانى الكبيرة فى لحظة من لحظات التجليات الوطنية التاريخية لابد أن يكون القدوة وأحرص الناس على مكتسباتها ومصداقيتها.

قلت: لكنكم والرئيس اتفقتم بعد ذلك فى اجتماع «ميكراس» على مد الفترة الانتقالية عاما لإنجاز مهام دولة الوحدة. . لماذا؟

قال: حماسنا غلبنا لحظة توقيع اتفاق الوحدة. . وحين استقرت الأوضاع وهدأت المشاعر وشرعنا ندرس وسائل ومشاريع دمج مؤسسات الشطرين وجدنا أننا بحاجة إلى وقت أكثر. . وهكذا أجريت الانتخابات متأخرة عن موعدها فى أبريل الماضى.

١٤٩ - لماذا تتخانق القرود؟

قلت: قبل أن نستعرض الأسباب والدوافع وراء الخلاف الراهن على مستوى القيادة السياسية. . يحتاج الأمر بداية أن نتعرف على ملامح الاتفاق والخيارات التى كانت مطروحة للتنفيذ آنذاك؟

قال: اتفقنا على أن تنتقى دولة الوحدة الأفضليات والإيجابيات التى برزت على الساحة اليمنية فى الشمال وفى الجنوب سواء فى الإدارة والخدمة المدنية والاقتصاد والخدمات والقوانين والعلاقات الخارجية، كان هناك طريقتان وأسلوبان فى السياسة وإدارة دفة المؤسسات والحياة عموما بحكم التشطير الطويل الذى عاشه الشعب اليمنى سواء قبل الثورة أو تحت مظلة الأنظمة التى تعاقبت على حكم الشمال والجنوب.

قلت: كيف كان الالتزام بالأفضليات والإيجابيات على صعيد الممارسة بعد إعلان الوحدة؟

قال: اليوم نواجه للأسف الشديد تعثرا ولا نقول تباطؤا فى إنجاز المشروع الكبير للوحدة.. فبدلا من أن نقدم للشعب ما يشجعه على أن يظل متماسكا أكثر رغم الظروف الصعبة التى واجهت الوحدة فى أعقاب انقطاع المعونات التى كانت تقدمها دول الخليج وعودة أكثر من مليون يمنى من العاملين فيها كانت تحويلاتهم من العملة الصعبة تسهم بشكل أساسى فى استيراد احتياجاتنا من مكونات الإنتاج.. إذ بهذا العدد يشكل عبئا ضاغطا ومضاعفا على قدراتنا لحل مشكلة البطالة.. ناهيك عن انهيار الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية التى كانت تقدم للشطرين معوناتها السخية المادية والفنية والعسكرية وكذا انقطاع معونات الدول الغربية عقابا على موقف اليمن من أزمة الخليج، وهكذا بدلا من أن تبادر القيادة السياسية إلى مزيد من الخطوات لبناء اليمن الحديث.. إذ بالممارسة تواجه صعوبات جمة.. ونشعر إزاءها بأن هناك تناقضا بين المشروع الكبير لتحديث اليمن عبر حل مشكلاته الموروثة والطارئة كمقدمة للإصلاح والبناء والاستقرار، وبين غيره من المشاريع الصغيرة.. بين الجمهورية التى اتفقنا على إطارها وملامحها وبين مصداقية القيادة وقوتها وحماسها ووحدة إرادتها فى ممارسة السلطة.

قلت: نتوقف قليلا عند أزمة الخليج.. ما مدى صحة ما تردد آنذاك حول تباين ما فى موقف السلطة من قرار اليمن الذى رفض حل الأزمة فى إطار الخيار العسكرى؟

قال: فى أزمة الخليج رفضنا أن نسمح أن يسجل أحد على الآخر موقفا مختلفا،

موقفنا كان معروفا فى حينه . . لكننا اضطررنا إلى ذلك نتيجة ومحصلة للموقف على الساحة اليمنية وأوضاعها التى كانت لا تزال فى دور الاندماج . . ولدينا مثل يمنى معروف يقول : «لما تتخانق القرود حافظ على قربتك» ولذلك كان يحدونا آنذاك الحفاظ على اليمن وإن نظهر معا غصب عنا فى موقف واحد حتى لا ينعكس تباين المواقف على الساحة الوطنية . . خاصة أن الموقف القومى كان بالغ الاضطراب والخلاف والتشتت .

قلت : اسمح لى يا سيادة النائب أن أكرر أمامكم ما أفصحت عنه فى لقائى بالرئيس على عبد الله صالح . . حيث شعرت لأول مرة بالتشاؤم والإحباط منذ متابعاتى على مدى ٣١عاما لمسيرة الثورة اليمنية . . فى البداية كان الانقسام المفتعل والخلاف الموروث طائفيا بين الزيود والشوافع حتى تجاوزها الشعب اليمنى ، ثم تبعه الخلاف والانقسام بين النظام الاشتراكى فى الجنوب والنظام السياسى الرأسمالى فى الشمال إلى حد خوض الحرب الأهلية . . الآن وبعد قيام الوحدة ونهاية عهود التشطير إذا بالخلاف الآن بين الحزب الاشتراكى وحزب المؤتمر . . وإذا شئنا الدقة والموضوعية فإن الخلاف يبدو محدودا بين الرئيس ونائبه . . هل تلاشى زخم الثورة والوحدة . . وكيف عجز خيار الديمقراطية والتعددية السياسية عن حل الخلاف عبر الحوار؟

قال : نحن كقيادة للحزب الاشتراكى وشركاء فى القيادة السياسية وعلى مستوى المسئولية لا نعرف تلفيق القصص وما تنطوى عليها من «شغلانات باطلة» . . الحزب الاشتراكى موجود وشريك فى الائتلاف الثلاثى الحاكم مع حزب المؤتمر والتجمع اليمنى للإصلاح . . وعليه أن يواصل مسيرة الإصلاح مع كل أحزاب الحكم والمعارضة حتى نحمل ونتحمل معا مسئولية وهموم بناء اليمن الحديث . . فإذا استلهمنا طموحات الشعب اليمنى كان معنا وإذا تخلينا عنه انقض عنا ، لقد قبلنا أن نحل النظام فى الجنوب من أجل قيام الوحدة ، قبلنا أن نراجع تشكيلاتنا الحزبية وأن تتواءم أفكارنا وأدبياتنا السياسية مع الأوضاع الجديدة من أجل إنجاز المشروع الحضارى الكبير الذى لا يستطيع أن يبنيه الاشتراكى وحده ولا المؤتمر منفردا . . فكلاهما يمثلان النواة التى يلتف حولها الكتلة ، تاريخيا بجميع أحزاب اليمن وقواعدها .

قلت: فماذا حدث إذن؟

قال: نحن تمسكنا منذ البداية بضرورات الخيار الديمقراطى والتعددية السياسية كآلية لإنجاز مهام دولة الوحدة.. وتحديثها.. قلنا نحن حزبان حاكمان ولدينا إرادة سياسية واحدة وفرصة تاريخية للتغيير قلما تتكرر، لكننا فوجئنا بأنهم أسقطوا كل القضايا التى تمثل المشروع الحضارى وبدأوا يفكرون فى شىء آخر.. وذلك كان اعتراضنا وخلافنا معهم!

قلت: هل كانت التعديلات المقترح إدخالها على نصوص الدستور سببًا مباشرًا للخلاف؟

قال: كل قضايا الإصلاح والتطوير التى يشملها المشروع الحضارى للنهوض كانت موضع اتفاق بين القيادة السياسية على تضمينها فى التعديلات الدستورية وفى مقدمتها كيف نبنى الوحدة وتفعيل آلياتها عبر قيام مجلس شورى لضبط التوازن السياسى فى النظام اليمنى الجديد، يضم المحافظين المنتخبين، ووفق تمثيل متساو لعدد سكان المحافظات رعاية لمصالحهم وشئونهم، وقيام جمعية وطنية تضم مجلس النواب ومجلس الشورى فى اجتماع عام يعقد مرة واحدة فى السنة أو عندما يتطلب الأمر ذلك لمراجعة مسيرة الوحدة على كل صعيد، واتفقنا كذلك على ترسيخ أقدام وفاعلية الحكم المحلى، وقلنا أعلنوا ما تم الاتفاق عليه لكنهم تراجعوا حتى نشرت الصحف تفاصيل الاتفاقية، لقد تدارسنا وناقشنا طويلا تفاصيل الاتفاقية حتى النخاع.. وكان هناك تباين فى الرأى بشأنها.. واتفقنا على الأسلوب الأمثل لتقريب وجهات النظر وعالجنا الأمر بطريقتنا الخاصة.. لكن حزبنا أدرك بعد ذلك أن الطرف الثانى لم يكن صادقًا فى نواياه.

قلت: ألا ترى أن المواجهة المباشرة عبر الحوار وتواصل الحوار أفضل على أى حال من إعلان الخلاف على الملأ وترويج الشائعات ووطيس الهجوم المتبادل بين صحيفة «٢٢ مايو» لسان حال حزب المؤتمر التى تصدر من صنعاء وصحيفة «صوت العمال» التى تصدر من عدن مؤيدة لمواقف الحزب الاشتراكى؟

قال: هناك فرق بين الحوار بأشكاله المختلفة عبر اللجان والهيئات المشتركة وفرق بين المواجهة خاصة فى ضوء الوضع السيكولوجى للشعب اليمنى فى هذه

المرحلة . . الدكتور ياسين النعمان رئيس مجلس الشعب السابق اخترق جدار منزله صاروخ كاد يفتك به . . والمهندس حيدر أبو بكر العطاس تعرض منزله كذلك لمحاولة تفجير . . العقيد يحيى المتوكل وزير الداخلية وهو من العناصر البارزة التى تتميز بالكفاءة والجدية والوطنية فى حزب المؤتمر . . كان نصيبه بعد وضع الخطة الأمنية الحازمة محاولة التعريض بنسب عائلته إلى «السادة» رغم أنه من الضباط الأحرار الذين كان لهم دور مشرف فى اندلاع ثورة سبتمبر .

قلت : الحال من بعضه . . إذن ولا فرق لدى أعداء الوحدة والديمقراطية بين قيادات حزب المؤتمر والحزب الاشتراكى؟

قال : لقد تعرضت قيادات الحزب الاشتراكى لمعظم حوادث التفجيرات والاغتيالات السياسية خلال الفترة الانتقالية ، ونحن نعرف تحديدا القوى التى تقف وراء هذه الحوادث . . ورغم ذلك هناك تلكؤ فى القبض على المتهمين وتقديمهم إلى المحاكمة . . المطلوب أن يتنازل الطرف الآخر عن طريقته السابقة فى الحكم كما تنازلنا حتى نتواءم مع الوضع وتتشكل الإرادة السياسية الواحدة . . لكنهم يتمسكون بكل ما تم خارج الاتفاقية والشعارات المطروحة ويصرون على طريقتهم السابقة لإنجاز الوحدة ، ٢٥ عاما ونحن نحكم الشطر الجنوبى ومع ذلك تنازلنا عن مشروعنا عن قناعة ورفضنا أن نعممه على دولة الوحدة . . فليتنازلوا كذلك عن مشروعهم ونهجهم فى إلغاء الآخرين واحتوائهم . . وذلك هو الأسلوب المقبول والملائم الذى يحقق الاستقرار ويكسب للوحدة مصداقيتها وللتجربة الديمقراطية زخمها . . ثم لماذا تخريب كل ما هو قائم وناجح فى المديريات الجنوبية؟

قلت : تخريب؟

قال : نعم . . وأضرب لك أمثلة على ذلك . . هل تعلم مثلا أن لدينا فى دولة الوحدة مؤسستين للطيران المدنى ، «اليمنية» فى صنعاء ، للسعودية فى رأس مالها ٤٩ فى المائة والباقى يمنى . . وفى عدن «اليمدا» كامل أصولها ملك اليمن . . ومع ذلك ليس من حق «اليمدا» أن تنقل ركابا من صنعاء إلى الخارج؟ جابوا إلى هنا المؤسسة الاقتصادية العسكرية من صنعاء وألغوا كل شىء لتحل محل شركة التجارة وهى قطاع عام .

١٥٠ ـ حل القطاع العام

قلت : بأى معيار يتم حل القطاع العام؟

قال : العدوى «جايه من بره» قلنا القطاع العام الفاشل موافقون على حله والناجح يستمر فى أداء خدماته عبر التنافس مع القطاع المختلط والتعاونى والخاص والبقاء للأفضل وما يحقق الخير ويرفع المعاناة عن الشعب . . وقلنا إذا كان القطاع الخاص سوف ينفرد بالساحة الاقتصادية والتجارية والخدمية فذلك نهج شمولى أيضا ، ناهيك عن انفجار مشكلات الإسكان والأراضى الزراعية التى طالتها قرارات التأميم فى الماضى . . وهذا يخلق توترات واضطرابات .

قلت : هل تعنى الطعن فى قرارات السلطة المركزية؟

قال : نعم فلا يزال جهاز الجمهورية العربية اليمنية السابق يدير شئون البلاد من صنعاء ، رغم أنه عامر بالوطنيين والأكفاء بنفس الأسلوب المركزى السابق للوحدة . . ولذلك كان موقفنا واتفاقنا على ضرورة قيام الحكم المحلى بالانتخاب . . إذ لا يعقل أن يصرف الأمور فى صعدا والحديدة وحضرموت المسئول الجالس فى صنعاء . . بينما اللامركزية والحكم المحلى أدرى بشئون هذه المنطقة أو تلك بإمكاناته أن يقوم بواجبات الرقابة الشعبية ويعطى الحماس والثقة ، تلك قصة كبيرة ولا يمكن التنازل عنها لأنها تتعلق بمصير البلاد وتنميتها واستقرارها . . تكلمنا كثيرا ومفيش فايدة ، قلنا من الخطأ التلاعب بالدستور باعتباره العقد الاجتماعى والسياسى بين الشعب والدولة . . وهو الدستور الذى توحدت فى ظله اليمن ويتضمن القواسم المشتركة فى الشطرين . . ويحتاج إلى أن تفضى إلى الوضع الجديد للمشروع الكبير . . لكن يشاء البعض أن يعلق خلافنا على شماعة منصب نائب الرئيس فحسب بهتانا وزورا .

قلت : ألا ترى أن إقامتك فى عدن بعيدا عن مقر عملك فى صنعاء من شأنه أن يثير شبهات انقسامية؟

قال : الناس هنا فى المديريات الجنوبية منحت كل أصواتها فى الانتخابات

للحزب الاشتراكى حتى الواجهات السياسية السابقة فى الحزب التى رشحت نفسها لم تحرز نجاحا . . وذلك من شأنه أن يفرض علينا مسئولية حماية الناس هنا من الممارسات السلبية الوافدة عليهم ومن السلوك والمواقف المنقصة للوحدة باسم الوحدة . . هنا غير مسموح لأحد حمل «الجنبية» وهو الخنجر اليمنى التقليدى، ولا حمل السلاح النارى داخل المدن . . حتى شكل العصا ووزنها خاضع لمواصفات دقيقة، تربية الناس سياسيا وثقافيا ترفض أن تستفزها مثل هذه المظاهر . . أمين عام الحزب وأكبر شخصية كانت فى الدولة هنا كانت لديه سيارة واحدة وسيارة حراسة . . نحاول إذن أن نحافظ على كل جميل وإيجابى فى الحياة وقلنا يا جماعة الخير ليس عيبا أن تظل مثل هذه الأفضليات وأن نعممها على ربوع البلاد . . لكن الإخوان يعتقدون أن تلك الإيجابيات من شأنها أن تنسب الفضل للنظام السابق فى الشطر الجنوبى . . هل من الخطأ إذن الحفاظ على الحد الأدنى من إيجابيات التجربة السابقة أو الارتداد إلى الحد الأدنى أمام هذا الوضع المخلخل الذى يهدد طموحنا لإنجاز مشروعنا الكبير . . ؟ أترك لكم الحكم.

قلت: العام الماضى كانت لكم سابقتان فى الإقامة بعدن وحضرموت . . لماذا قررتم العودة فى النهاية إلى صنعاء؟

قال: ما كنت أشتهى العودة . . مفيش شغل . . النهج الوحدوى . . لا نقبل من أحد أن يزايد علينا، عدت للمساهمة فى الانتخابات مع الآخرين، شوف إحنا تعبنا، إذا جلسنا موش عاجبين، وإذا تكلمنا موش عاجبين . . هكذا تعالج الأمور وكأننى إنسان بلا قضية ولا تاريخ سياسى . . ليس عندى هم شخصى سوى اليمن . . كان أملى أن نقدم نموذجا يمكن أن يساهم فى صنع المشروع الوطنى القومى الكبير . . الصدمات إذن كانت نتيجة تلك الممارسات، الإرادة التى صنعنا بها الوحدة وبدأت تضعف أمام المصالح الخاصة والصغيرة . . وأنا لن أقبل أن تدار اليمن بعقلية الإمام الذى كان يدير اليمن من صنعاء عبر العسكر والجباة . . والمنفذين . . لقد تعودنا فى حزبنا أن نقول نعم أو نقول لا، وأن نلتزم بما تعاهدنا عليه، لكن نعم وأمارس شيئا آخر . . هذا وضع غريب.

قلت: ملاحظة عابرة حول ما وراء لقائكم بنائب الرئيس الأمريكى خلال فترة علاجكم هناك؟

قال: أعرف ما يقولون. . فقد سبق أن وجهت له الدعوة لزيارة اليمن بناء على رغبة الرئيس على عبد الله صالح لحضور احتفالنا بضخ البترول من حقول المسيلة وكان السفير اليمنى محسن العينى قد سافر فى إجازة إلى القاهرة وصنعاء عندما أجرينا مباحثات مشتركة.

قلت: بالمناسبة كيف تفسر التحسن الطارئ فى العلاقات اليمنية الأمريكية؟

قال: نحو عشرين شركة أمريكية تعمل الآن فى مجال اكتشاف البترول فى اليمن، وزارنا مبعوث أمريكى على مستوى عال للتهنئة بنجاح الانتخابات وبالتجربة الديمقراطية. . وزارنا كذلك الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر. . والأمريكان حريصون فى هذه المرحلة على التعامل مع الأنظمة الديمقراطية التى تحافظ على حقوق الإنسان، ولديهم رغبة فى حل النزاعات المحلية بالمنطقة سلميا. . وعلينا أن نرسخ علاقاتنا معها فى إطار المتغيرات الدولية باعتبارها دولة كبرى، وأن نحافظ على مصالحنا المشتركة.

قلت: ألا ترى سيادة النائب أن أبواب الحوار أصبحت مغلقة لوضع حل للخلاف القائم على مستوى القيادة السياسية. . خاصة أن المهندس حيدر أبو بكر العطاس أكد لى أنه بدون استعادة الإرادة السياسية وحدتها فسوف يصبح من المستحيل قيام الحكومة بأعبائها وتنفيذ برنامجها الذى أجازه مجلس النواب؟

قال: هذه القيادة الموجودة لا تحافظ على البلد. . لا ترعى المشروع الكبير. . نحن صغار فى الممارسة وأنا لا أتنصل من المسئولية وقد شاركت فيها وقبلت بذلك. . أنا الآن فى حالة تجليات أشبه بالحاج الذى يتوجه إلى الأراضى المقدسة ويسعى إلى أن يتخلص من عيوبه ويكفر عن سيئاته. . ثم وراءنا وطنيون ومناضلون وشعب يضغط على هذه المشاعر. . فإذا لم تسر الأمور إلى الأفضل يكفى أننا وضعنا الشعب على أول طريق المشروع الكبير وعلى غيرنا أن يواصل المسيرة. . لكن ما نجعلش منها مشكة فلان أو علان. . أنا موش زى بعض القيادات العربية التى تفشل وتصر على الاستمرار فى الخطأ بدعوى الصح، قلت: سؤال أخير يا سيادة النائب. . هل أفهم من حديثك إصرارا على موقفك ويأسك من جدوى الحوار والوفاق؟

قال: نحن نشكل كابوسا على العقلية السائدة.. خلّى الحوار يستمر بين أحزاب الائتلاف الثلاثى ودعنا نتمنى له النجاح أو أن نتنحى جميعا أنا والأخ الرئيس والشيخ عبد الله الأحمر بعد أن تحولت مناصب السلطة إلى مجرد مراسيم بروتوكولية.. إننا لا نشتهى أن تظل دولة الوحدة اليمنية شكلا بلا مضمون وإنما نشتهى أن يتحقق أمل الشعب فى قيام مشروعه الحضارى الكبير.. نموذجا يحتذى على الصعيد القومى نحو مزيد من الكيانات الوحدوية.. وتناقص عدد الدول العربية تدريجيا!

١٥١ ـ الأزمة السياسية مدفوعة الأجر

بعد نشر حوارى مع البيض تكهربت الأجواء فى صنعاء وتحفزت للرد على طرحه أو اتهاماته.. الرئيس فى مقابلة بثتها محطة تليفزيونية قال إن الأزمة السياسية مدفوعة سلفا.. والذين فجروا الأزمة تقع عليهم مسئولية محاصرتها وإطفاء جذوتها، وقال إنه وافق على كل شروط الحزب الاشتراكى التى تتضمن ١٨ بندا، لكن الحزب يرفض التنفيذ، وقد ذهبت إلى عدن وفود من مجلس الشعب ومن كافة الأحزاب ومن المرجعية اليمنية الرئيس السلال يرحمه الله والشيخ سنان أبو لحوم ومجاهد أبو شوارب من دون طائل للوساطة فى إقناع البيض بالعودة لممارسة عمله من صنعاء وحلف اليمين الدستورى بعد أن تأجل بحث التعديلات الدستورية وتم انتخابه نائبا للرئيس حفاظا على الوحدة.. وتعثرت اجتماعات مجلس الوزراء ومجلس الرئاسة لغياب ممثلى الحزب الاشتراكى، وفى كل مرة يتفق الجانبان على وقف الحملات الإعلامية المتبادلة وبعدها يشتد وطيسها أشد نكيرا.. وقالت صحف المؤتمر إن النائب طبخ الأزمة مع أعداء الوحدة خلال رحلته إلى أمريكا.. وزاد الطين بلة مقالات تتهم البيض بصرف ٦٠٠ ألف دولار للعلاج فى أمريكا من خزينة الدولة.. وصرف مليونى دولار على تأسيس قصره فى صنعاء، وأن الحزب الاشتراكى الذى نجح فى الهروب من مصيره المحتوم عبر خيار الوحدة الاندماجية، يسعى الآن إلى التشطير واستعادة سابق نفوذه وانفراده بالحكم فى الجنوب!

وعلى حين غرة فاجأ سالم صالح الأمين العام المساعد للحزب الاشتراكى الجميع، عندما طرح خيار الفيدرالية بدعوى أنها الأنسب من الوحدة الاندماجية، وقال لى الدكتور عبد الكريم الإريانى: قلت لرئيس الوزراء أبو بكر العطاس عندما علمت بتصريحات سالم صالح وكنا فى بيته.. حرام أن تجرونا إلى الوحدة الاندماجية رغم أن مطلبنا كان مجرد إنجاز الفيدرالية.. واليوم بعد أربع سنوات تتراجعون إلى الفيدرالية!

ولم يقتصر الخلاف على الجانب السياسى وتداعياته الإعلامية فحسب، ولكن قوات الشطرين اشتبكتا فى مناوشات ومعارك عسكرية حادة تحمل فى ثناياها سيناريو الخطر الداهم.. وتحركت الوساطات العربية وتشكلت لجنة عسكرية يمنية أردنية عمانية أمريكية فرنسية لفض الاشتباك والحيلولة دون انفجار الصدام الدامى، ونهضت أحزاب السلطة والمعارضة لتحمل المسئولية.. وجرى بينها حوار موسع لبلورة مشروع اتفاق لحل الأزمة مشمول بإجراءات التنفيذ والاتفاق، وكان العاهل الأردنى الملك حسين قد استضاف الرئيس ونائبه وأحزاب اليمن ومرجعيته التاريخية للبحث عن سبل حل الخلاف.. حيث تم توقيع الجميع على وثيقة العهد والاتفاق.

لكن ما حدث قبل هذه الخطوة كان مدعاة للعجب، فقد طال انتظار نائب الرئيس فى مطار عمان، ووصل متأخراً عن موعده بينما ظلت حرمه فى الطائرة ترفض مغادرتها، لكن رجال المراسم نقلوا إليها رغبة الملك حسين فى أن تطول زيارة النائب حتى تنتهى مراسم التوقيع.. وإتاحة الفرصة أمام الرئيس ونائبه للحوار وبناء جسور الثقة.. لكن النائب بعد أن وقع على الوثيقة طالب الرئيس وحزب المؤتمر بتنفيذ البنود الأمنية الخاصة بتعقب المتهمين بارتكاب حوادث التفجيرات والاغتيالات السياسية، وقال الرئيس إنه لن يقبض على المتهمين حتى لو رأهم يتحركون أمامه فى القصر الجمهورى، لأن المطلوب أن يلتئم اولا شمل المؤسسات التى اختلت أعمالها وفقدت مصداقيتها نتيجة تمرتس الوزراء الاشتراكيين فى عدن وغيابهم عن أداء وظائفهم، كما رفض الرئيس أن تكون مسئولية ضبط الأمن على عاتق حزب المؤتمر وحده.

١٥٢ ـ دول «المع» ودول «الضد»

الكاتب الصحفى الكويتى فؤاد الهاشم صاحب أسلوب ساخر ولاذع، وكم تسبب مرارا فى مشاكل للصحف التى يكتب بها، وبينها تلك القصة الشهيرة التى رواها عن المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، فهو حين التقاه العاهل الهاشمى الملك عبد الله عام ١٩٤٨ وطالبه بأن يضع القضية الفلسطينية فى بؤرة اهتمامه و . . نصب عينيه، فما كان من الملك عبد العزيز إلا أن أكد استعداده لإنقاذ فلسطين . . مشيرا بسبابته إلى عينه التى فقدت نور الإبصار!

وبينما أكد الدكتور عبد الكريم الإريانى وزير خارجية اليمن إبان احتدام أزمة الخليج عام ١٩٩٠ أنه كاد ينجح عبر مهمته إلى بغداد فى إقناع الرئيس صدام حسين بسحب القوات العراقية من الكويت، لولا الضغوط السياسية الخارجية التى لم تسعفه فى الوفاء بما وعد، حتى إننى اقترحت عليه إصدار كتاب أبيض حول دور اليمن فى تلافى كارثة الخليج إلا أن بعضًا من المسئولين والكتَّاب الكويتيين لم يرق لهم موقف اليمن عندما رفضت تدخل أمريكا لإخراج القوات العراقية من الكويت بالقوة العسكرية، وانحيازها لحل الأزمة سياسيا وعربيا!

وهكذا عندما اندلعت المؤامرة الانفصالية لإجهاض تجربة الوحدة اليمنية الوليدة التى كبدت اليمن نحو عشرة مليارات دولار، بينما بلغ حجم التمويل الخليجى للانفصال مليار دولار، وأسفرت هزيمة الانفصالية عن هروب سبعة آلاف من عناصر الحزب الاشتراكى السياسية والعسكرية إلى الخارج، عندئذ انبرى فؤاد الهاشم إلى كتابة مقاله الثأرى من اليمن فى صحيفة الوطن الكويتية يوم ١٥ أكتوبر ١٩٩٣ تحت عنوان «دعاة الانفصال وشمال النحس» بدون تعليق . . قال فيه:

يسعدنى أن نزف البشرى إلى كل أبناء الشعب الكويتى حول أحداث غير سعيدة يمر بها حاليا اليمن «السعيد» بوادر الانفصال آتية لا ريب فيها بين الشمال والجنوب والتى من مصلحتنا أن نغذيها من أجل مصلحة الكويت ودول الخليج وكل العرب، لن يستطيع كائن من كان أن يلومنا الآن لأننا دعاة انفصال اليمنيين بعدما كنا دعاة توحيدهما، لقد جعلنا من أصابعنا «طوال سنوات» شمعا يحترق من أجل تلزيق

الشمالى مع الجنوبى وحين حدث ما حدث فى الثانى من أبريل ١٩٩٠ وجدنا أن من «علمناهم الرماية حتى اشتد ساعدهم قد توجهوا بسهامهم . . نحونا»!!

وقفوا مع القاتل ضد القتيل ومع الظالم ضد المظلوم ومع الاحتلال ضد الاستقلال . . «الشعب العدنى» وقف معنا خلال أزمتنا ووقف الشعب الصنعاوى ضدنا حتى النخاع . . شعب الجنوب لا يريد هذه الوحدة المزيفة مع الشمال، وها هو قد خرج فى شوارع عدن يمزق صورة على عبد الله صالح ويرفع شعارات الحزب الاشتراكى!

يجب علينا أن نساعد العدنيين فى نضالهم المشروع ضد قبلية الشمال وجاهليته، علينا أن نمد يد العون لهم فى كل مجال . . علينا أن نوضح لهم بأن علاقاتهم مع الكويت وشعب الخليج أكثر مصداقية وأشد عروبة من علاقة هشة مع عملاء العراق الشماليين . . علينا أن نزكى فيهم روح المواطنة اليمنية الجنوبية ونحيى معه ذكرى «جمهورية اليمن الديمقراطية» . . شعب الجنوب ليس بحاجة إلى هياكل الشمال، فهو الأكبر مساحة والأهم جغرافية والأغنى مستقبلا . . إن الانفصال بينهما الآن فى عام ١٩٩٣ أهم بكثير من الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ . . فما كان يصلح قبل أربعة عقود . . الآن عملة بالية لا تساوى حبرها .

لقد ارتدت عصابة الشمال مسوح الرهبان حتى تمت الوحدة ثم ظهرت أذناب الشياطين ترقص على النيران العراقية وتدفع بشعبين سحقهما حكم الأئمة وديكتاتورية العسكر فجعلهما هباء منثوراً!

لقد أنفقنا على حرب تحرير وطننا أكثر من أربعين مليار دولار، ولو صرفنا مليارا آخر حتى ولو كان آخر ما لدينا على ترسيخ الانفصال وتأكيده فستزيد عدد دول «المع» ونتنقص عدد دول «الضد» دولة . . لا نريد هذه الوحدة إذن ؟!

فلنعمل على تمزيقها . . فما دامت الوحدة عقاقير مسكنة تحقن داخل جسم نخرت عظامه أوراماً خبيثة فإن الانفصال هو المشرط الذى يبتر أصل الداء . . ساندوا أهل عدن وامنحوهم كرامة سلبها منهم لصوص الشمال .

ولا تعليق . . !

١٥٣ـ داعية الانفصال «على الهواء»

أهوى اليمن وتربطنى بشعبه العظيم وشائج مطرزة بالحب والبهجة والإخلاص وكم هائل من الذكريات العزيزة المختزنة فى أعماق العقل والقلب والضمير منذ وطأت قدماى أرض صنعاء إثر اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ ، وكلما تباعدت الأيام والشهور عن آخر زيارة لليمن ومتابعة معاركه على درب التقدم واللحاق بالعصر ، غالبا ما أشد رحال الحنين إليه عملا بالمثل العتيق «لابد من صنعاء وإن طال السفر»!

لكن لأن للظروف أحكامًا ، وحيث يستحيل التنبؤ بمفاجآت القدر ، من هنا بادرت إلى الاعتذار عن تلبية دعوة القناة الفضائية «أوربيت» للحوار فى برنامجها اليومى الشهير «على الهواء» الذى يقدمه الإعلامى اللامع الأستاذ عماد أديب حول الانتخابات النيابية التى شهدها اليمن بعد دحر المؤامرة الانفصالية ، وذلك أن وفاة شقيقتى الأديبة عايدة الشريف ـ يرحمها الله ـ حال دون متابعتى لهذا الحدث الديمقراطى العظيم ، ومن ثم رشحت غيرى من الزملاء ممن أتيحت لهم فرصة مواكبة وقائع الانتخابات اليمنية عن قرب .

غير أننى رحبت بالمشاركة فى البرنامج حين قبلت «أوربيت» تغيير موضوع الحوار وشمل مختلف الأوضاع السياسية فى اليمن بشكل عام ، خاصة أن قضية الثورة والوحدة اليمنية ظلت إلى جانب شئون السودان محور اهتماماتى الصحفية على مدى يزيد على ٤٠ عاما متصلة ، فلماذا لا أدلى إذن بدلوى . . فلعل فى تجربتى شيئًا طيبًا يستحق الإفضاء والبوح والإفادة .

على أننى عدت للاعتذار للمرة الثانية عندما سألت عن الطرف الثانى فى الحوار ، وكان الجواب : الأستاذ / عبد الرحمن الجفرى ـ السياسى اليمنى المخضرم وزعيم حزب رابطة أبناء اليمن ، وقلت للزميل محمود نافع الصحفى بجريدة الجمهورية وهو معد البرنامج الذى وجه إلىّ الدعوة : إننى على أهبة الاستعداد للمغامرة بالحوار مع بنيامين نتانياهو رئيس وزراء إسرائيل كونه عدوا واضحا

ومبينا، ولعلها فرصة سانحة لكشف تعنته السياسى وتعرية ادعاءاته التوراتية المزيفة التى يبرر عبرها اغتصاب الأراضى العربية والتنكيل بالفلسطينيين وتهويد القدس وتكريس احتلال الجولان والضفة الغربية وجنوب لبنان.

أما الحوار مع الجفرى وجها لوجه وعلى مرأى من المشاهدين للبرنامج فهو خيار مرفوض، أولاً لأن الرجل تنكر لأمانى وطموحات الشعب اليمنى الذى ذاق ويلات حكم أئمة بيت حميد الدين ومرارات الاستعمار البريطانى، وقدم التضحيات الجسيمة وآلاف الشهداء الأبرار حتى استعاد فى النهاية سابق وحدته، ورغم ذلك استباح لنفسه أن يعلن من عدن انفصال الشطر الجنوبى عن الوطن الأم.

هناك إذن فرق بين العدو المبين وبين مواطن تلاحق أمته بتهمة الخيانة العظمى التى شملت ١٦ من قيادات الحزب الاشتراكى، فإن لم يكن من الحوار معه بد، فعليه أولاً أن يبرئ ساحته أمام القضاء اليمنى، وبعدها تتهيأ الظروف والمصداقية السياسية والفكرية التى تؤهله للحديث عن الوطن والحوار معه حول شئون اليمن وشجونه.

والحقيقة أننى وجدت نفسى بين نارين أو خيارين، كلاهما صعب وممض، فقد أفقد ثقة الشعب اليمنى إن حاورت الجفرى الذى سد بفعلته الشنعاء أبواب العفو العام الذى شمل كل من غرر بهم أو تورط فى جريمة الانفصال وهم بالآلاف، كما أن الانسحاب من الحوار معه قد يحسبه غير اليمنيين نكوصا عن الشهادة أو كتمانها مثل شيطان أخرس، وربما انتهز الجفرى الفرصة حتى يصول ويجول زيفا وبهتانا من غير معقب ولا رقيب، إذا وقع الاختيار على محاور له يجهل أوضاع اليمن، وربما من دعاة الردة وخصوم القومية والوحدة العربية!

باختصار وافقت فى النهاية على خوض معركة الحوار مع الجفرى فى برنامج أوربيت «على الهواء» عملا بنصيحة المفكر القومى المعروف محمد عودة الذى شجعنى على مواجهته ما دمت أملك الحجة والمعلومة، ومن جانبه وافق الكاتب الصحفى عماد أديب مقدم البرنامج على مشاركة محمد عودة فى الحوار، وأن يقتصر دوره إلى الحكم على المسيرة السياسية فى اليمن ومواقف قيادته وفصائله وفقا للثوابت الوطنية والمبادئ القومية.

١٥٤ـ جبهــة « مــوج »

بدأ عبد الرحمن الجفرى حديثه فى الحلقة الأولى من البرنامج التى استغرقت أكثر من ثلاث ساعات بتعريف جبهة المعارضة اليمنية «موج» التى شكلها تحت قيادته فى لندن ضد نظام الحكم القائم فى صنعاء . . وقاطعته قائلا إن حزب الرابطة معروف منذ نشأته بنهجه الانفصالى عبر تبنيه لمطلب استقلال الجنوب اليمنى ، والحقيقة أنكم واصلتم هذا الدور بعد غياب مؤسس الحزب المرحوم محمد على الجفرى . . عندما تآمرت على وحدة اليمن وأعلنتم شخصيا من عدن فصل الجنوب عن الشمال ، ومن هنا كان حرصكم على أن تظل غالبية عضوية جبهة «موج» قاصرة على أبناء الجنوب فحسب !

وقال الجفرى إنه يتزعم حزبًا قديمًا ومناضلاً سعى فى ظل الاحتلال البريطانى للجنوب اليمنى إلى وحدته عندما كان ممزقا ومقسما إلى العديد من السلطنات والمشيخات ، واعترف أن معظم المشاركين فى جبهة موج من أبناء الجنوب ، ثم عرج إلى الانتخابات اليمنية واتهمها بالخروقات وتزييف إرادة الجماهير .

هنا انبرى له محمد عودة ، وقرأ فقرات من تقارير لجان وبعثات المراقبين المحايدين لمسيرة الانتخابات اليمنية وبعضها عربى والبعض الآخر أوربى وأمريكى وكلها أجمعت على شفافيتها ونزاهتها ، ومدى إقبال الناخبين ، خاصة النساء ، على الإدلاء بأصواتهم فى صناديق الانتخابات .

عندئذ استشهد الجفرى بشاهد من أهلها وهو الشيخ عبد الله الأحمر ـ زعيم حزب تجميع الإصلاح المشارك فى الحكومة الائتلافية التى أشرفت على الانتخابات ، ونسب إليه اتهامه للانتخابات بالافتقار إلى النزاهة والمصداقية ، وأن حزبه انتزع المقاعد التى فاز بها فى الانتخابات من الوحوش . . ويعنى حزب المؤتمر الشعبى العام الذى يتزعمه الرئيس على عبد الله صالح ، فيما وصف الانتخابات اليمنية التى جرت بعد الوحدة فحسب بأنها كانت الأكثر نزاهة ومصداقية .

وقلت له إن حزب الرابطة خاض الانتخابات الأولى ـ التى أشدتم بها ـ فى

عشرات الدوائر ولم ينجح حتى فى دائرة واحدة، واسمح لى أن اسألك . . أين هى قواعد وجماهيرية حزب الرابطة على الساحة السياسية اليوم بعد ارتكابكم لجريمة الانفصال، وهنا ألقى الجفرى على المائدة بعدة أوراق قال إنها تقارير لمراقبين يشككون فى سلامة الانتخابات الثانية.

١٥٥ ـ ممارسة الديمقراطية مثل تعليم السباحة

وقال الأستاذ محمد عودة إنه شاهد جموع الشعب اليمنى عبر القنوات الفضائية المختلفة وهى تهلل فرحا وبشرا فى طريقها إلى مقار الانتخابات، فإذا كانت هناك سلبيات وتجاوزات فهى من طبائع الأمور فى مجتمع شديد التخلف يمارس الديمقراطية الوليدة، وعندما سئل الزعيم الهندى الراحل جواهر لال نهرو: كيف يمكن للمجتمع الهندى ممارسة الديمقراطية على النمط الأوربى الحديث . . قال: ممارسة الديمقراطية مثل تعليم السباحة لمن يجهلها عبر إلقائه فى الماء . . وعندئذ سوف يحاول جاهدا الوصول إلى بر الأمان، وأذكر أن مفكرًا أوربيًا معروفًا وصف الديمقراطية بأنها أفضل نظام للحكم حتى الآن . . أى حتى إشعار آخر بظهور البديل الأفضل، فإذا كان هناك من يختلف مع النظام القائم فى اليمن فأولى به أن ينضم إلى صفوف المعارضة ومن حقه أن يعرى النظام من أى مصداقية وفقا للمعايير الديمقراطية والثوابت الوطنية، لا أن يتآمر وهو شريك فى السلطة على الوحدة عبر الاحتكام للسلاح!

هنا استدركت قائلا: إننى أشارك فى الحوار بصفتى شاهدا على عصر الثورة والوحدة والديمقراطية اليمنية ولذلك أنا مع هذه الخيارات الشعبية فحسب، أما الحديث أو الدفاع عن النظام القائم فى صنعاء فهو أولى به، ويقينى أن الديمقراطية ليست نظاما طوباويا مبرأ من الخطأ والتجاوزات، وذلك أن نموذج ديمقراطية «ويست مينستر» البريطانية التى يضرب بها المثل لم تخل فى بداياتها من النقد والاتهامات، حين كانت هناك شركات ومكاتب متخصصة فى بيع أصوات الناخبين لمن يشاء من المرشحين، وهل هناك أفضل من الديمقراطية وسيلة لاجتياز

هوة التخلف السحيقة فى اليمن والتغلب على مشكلاته الموروثة مثل الطائفية والقبلية والمناطقية والتباينات الجهوية والاجتماعية والثقافية سلميا ؟!

فلما استدعى الأستاذ / عماد أديب الشيخ عبد الله الأحمر للشهادة عبر الأثير، نفى بشدة أن تكون فى تصريحاته الصحفية قد شكك فى سلامة الانتخابات، ووصفها بأنها انجاز وطنى عظيم وحدث تاريخى تفتخر به اليمن وتباهى غيرها من الأمم والشعوب، وعندما سأله عماد أديب هل تقبل بنتائج الانتخابات رغم عدم فوز حزبكم بنصيب وافر من مقاعد مجلس النواب، قال: نعم.

وسألته: إن كان قد تابع الحلقة السابقة من البرنامج، ورأيه فيما دار من حوارات ورؤى، وقال. . إنه سعيد بدفاعى شخصيا عن حضارة وديمقراطية وثورات ووحدة اليمن كدأبى منذ ثلاثين عاما ويزيد. . ثم وجه حديثه إلى عبد الرحمن الجفرى وقال إنه كان مبعدا أكثر من ربع قرن عن اليمن لمواقف حزبه الانفصالية. . وعندما أبدى حدبه على وحدة اليمن فتحنا أمامه الأبواب واحتضناه. . لكنه عاد إلى سيرته الأولى وقاد المؤامرة الانفصالية من عدن، فإن كان يرغب فى العودة إلى اليمن فعليه أن يختار له محامياً للدفاع عنه أمام القضاء.

١٥٦ـ من أين لك كل هذه الأموال ؟

ولعل أعجب الاعترافات التى أدلى بها الجفرى فى البرنامج عندما سأله عبد الملك منصور ـ نائب الأمين العام لحزب المؤتمر من صنعاء: من أين لك كل هذه الأموال الطائلة التى تصرف منها يا عبد الرحمن على جبهة «موج» ومطبوعاتها ودعاياتها وإقامة وتنقلات رموزها. . بينما لم يعرف عنك اشتغالك بالتجارة والتربح، وقال: إن استثماراته فى اليمن تقدر بستة ملايين دولار غير ممتلكاته فى الخارج. . وعاب على السائل جهله بمصادر جمع ثروته عبر اللجوء السياسى فى دول عديدة قرابة ٣٠ عاما ولا يزال.

والشاهد أن سخونة الحوار. . وعشرات المداخلات المتوازنة التى بادر إليها معظم اليمنيين وبعض المصريين والعرب الذين شاركوا فى الدفاع عن ثورة اليمن

ووحدته سواء عبر الهاتف أو الفاكس، كانت وراء قرار عماد أديب المفاجئ مواصلة الحوار فى حلقة ثانية من برنامج «على الهواء» حتى امتد الحوار فى الحلقتين قرابة السبع ساعات، ورغم دفاع الجفرى المجيد عن مواقفه وتبرير خياراته السياسية، إلا أن الإجماع كان منقطع النظير على إدانته بجريمة الانفصال النكراء وأن الديمقراطية خيار اليمن الوحيد والأفضل.

وبصرف النظر عن قناعاته بالانفصال عن النظام وليس الوطن من باب الاقتداء بالمذهب الزيدى - على حد قوله - رغم أنه ينتمى إلى المذهب الشافعى - عندما يكون نظام الحكم ظالما، بدليل حرص النظام فى عدن على استبقاء علم الوحدة ودستورها، لكن متى كان استبقاء مجرد قطعة قماش أو كتاب وضعى اختزالا مقبولا للحقائق الثابتة أو تعبيرا عن المواقف السليمة والمبادئ السياسية التى تحكم الخيارات الوطنية والقومية للشعوب، وإلا لكان علينا أن نلغى عقولنا ونستنكر ذاكرة التاريخ القريب ونغفر لدعاة الردة جريمتهم الانفصالية التى كبدت اليمن زهاء عشرة مليارات دولار وآلاف الشهداء والموتى والمصابين، وذلك الزمن الثمين الذى تبدد عبثا فى الخلافات والأوهام.

١٥٧ - استبعاد الحبيب من مصر

قيل والعهدة على الراوى إن الداعية الإسلامى الحبيب على الجفرى ظل يلح على والده عبد الرحمن الجفرى بالانسحاب من زعامة جبهة «موج» التى تضم فلول المعارضة للوحدة اليمنية، فما من حديث صحفى أو حوار مفتوح معه، إلا وكان يواجه دوما بالنقد الصارخ لمواقف والده المشبوهة، فهو كان قد بعثه الرئيس على عبد الله صالح إلى عدن لإقناع على سالم البيض بالعودة إلى صنعاء حتى يمارس مهامه بعد اختياره نائبا له، لكنه انزلق إلى الضلوع فى المؤامرة الانفصالية، وأعلن بنفسه البيان الأول لقيام الدولة الانفصالية وعاصمتها عدن.

كذلك واجه الحبيب على الجفرى انتقادا حادا لوالده، حين جمع فى جبهة «موج» أبناء الجنوب اليمنى دون أبناء الشمال، مما يلقى بظلال من الشكوك المضافة على نهجه الانفصالى وعلى حزب «رابطة أبناء الجنوب» الذى يتزعمه، وربما من

هنا اضطر إلى أن يؤكد فى حديثه لقناة «العربية الفضائية» أن الأصل فى أسرة الجفرى طلب العلم والدعوة إلى الله تعالى وخدمة الدين، وأن العملية السياسية طارئة، وأن موقف والده من الوحدة اليمنية مجرد اجتهاد، ثم تابع قائلا : إن ما اسميه انزعاجا هو توجه والدى إلى السياسة، لأن السياسة نقيض للإنسان صاحب المبادئ.

يقول: اسمى على، وسمانى أبى «على زين العابدين» نسبة إلى الإمام على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنه، ومن مواليد عام ١٩٧١ ولى زوجتان وأربعة من الأولاد والبنات.

والمعروف أنه تلقى مبادئ الدين وبعض علومه فى حضرموت، ثم رحل مع والده - خلال ابتعاده عن اليمن إلى السعودية، وفى أوائل العشرينيات من عمره، أذن له مشايخه بالوعظ والإرشاد فى المساجد والمناسبات!

على أن الحبيب وجد فى السعودية اعتراضا على مجالسه الدينية، بدعوى ترويجه للصوفية من جهة، ولأنه يفسر الدين على المذهب الشافعى السنى، فى وقت تمنع المؤسسة الدينية فى السعودية ذلك، ولا ترضى إلا أن يكون على منهجها، على خلاف السائد إبان عهد الملك عبد العزيز آل سعود الذى أباح حلقات التعليم الدينى على المذاهب الإسلامية الأربعة على حد قوله!

فى مصر كان حبل دعوته ممتدا - كما يقولون - على غاربه، حيث أصبح الحبيب نجما متألقا فى المجالس والندوات والفضائيات والصحف، وكان - والحق - ناجحا عبر أسلوبه الهادئ فى التأسيس لشعبيته، خاصة فى أوساط الأثرياء والفنانات، وبعضهن اعتزلن التمثيل أو الغناء اتباعا لإفتائه!

وقد صادف حضوره إلى مصر فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وإعلان الرئيس بوش الحرب على الإرهاب، إلى حد إعلانه، عمدا أو سهوا، عن شن الحرب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، ورغم ذلك لم يلجأ الحبيب إلى طرح أى قضية صدامية مع أمريكا والغرب بوجه عام!

على أن نجم الحبيب الذى تألق فى القاهرة سرعان ما أفل، حين تلقى رسالة

مهذبة من الجهات الأمنية تدعوه إلى مرافقة رجالها والتوجه إلى المطار، إيذانا بالمغادرة، دون أن يسألهم لماذا ؟ وهل استبعاده من مصر نهائيا أم مؤقتا؟

وحين سؤاله عن موقفه من الفن ومدى مشروعيته باعتبار صلته الوثيقة باعتزال بعض الفنانات المصريات وتحجبهن - عندئذ استفاض فى الشرح و. . قال:

الفن وسيلة فى حد ذاته وللوسائل حكم المقاصد إن أحسن استخدام هذه الوسيلة لمقاصد حسنة وبكيفيات وضوابط مرتبطة بالدين فهو حسن، وإن استخدم لمقاصد سيئة أو صاحب استخدامه مخالفات للأحكام الشرعية فهو سيئ، وأما مسألة الطرب بمعنى تحريك النفوس بالصوت الجميل واللحن الشجى والكلمة الحسنة فهو مشروع عندى وقد كان فى عهده ﷺ يطرب للأصوات الحسنة تلاوة وشعرا، وكان من الصحابة من ينشد له فى السفر وفى الحضر وقد استنشد أحد الصحابة مائة بيت من شعر أمية بن أبى الصلت وهو يقول «هيه. . هيه» أى زدنى والصحابى يستزيده، وقد دعا للشاعر حسان بن ثابت الذى كان ينشد الشعر فى مسجده ﷺ بأنه مؤيد بروح القدس جبريل عليه السلام، لكن الإشكال ليس فى أصل الحكم، الإشكال فى وسائل التعامل ووسائل عرض هذا الأمر. . ثم إن الطرب وسيلة لتحريك النفس البشرية فإن أحسن سوق النفس البشرية بهذه الوسيلة إلى الفضائل فهو فضيلة وإن استخدم هذا الأسلوب فى تحريك الغرائز والشهوات أو فى تهميش الفكر وتشتيت التوجهات فهو سيئ بلا شك وقبيح، والإسلام لا يأذن به ولا يجيزه ولا يرتضيه، وأما الآلات الموسيقية فهى محل خلاف بين العلماء ولم يأت الخلاف فيها إلا لوجود السعة ووجود الترشيد من جهة أخرى، السعة أى لا يحكم على أحد بكفر أو خروج على الإسلام بسماع الآلات فى نفس الوقت لترشيد ما هو أثر الآلة فى نفس المستمع، وهناك من الآلات ما رجح عند أهل العلم بإباحته كالدفوف والإيقاعات وهناك ما اختلف عند العلماء فى تحريمه كالناى وهناك ما جاءت النصوص صريحة بالنهى عن المزمار، وهناك ما جاءت نصوص اختلف العلماء فيها بين الحسن وبين الضعيف كالوتريات فهى محل اختلاف، والذى يريد أن يتورع ويترك ما اختلف فيه لا يقال عليه إنه متزمت، والذى مال إلى سماعها لا يقال عليه إنه فاجر، ولكن الذى مال إلى سماعها يخاطب أن سماعك لها ينبغى أن يكون مرشدا، أن تتقى الله فى الآثار التى تحدثها فى نفسك. . هل

تهيج فيك معنى إيمانيا أو معنى ساميا . . هل تنفس عنك فتكون ثمرة النشاط، التنفيس عن النفس بعد ذلك إيجابية فى الواقع الذى تعيشه أم أنها تحولك إلى إنسان مسئول يعيش صخبا فى طربه، يعيش الضياع والشتات، يكون كتلة من الغرائز تتعامل مع الآخرين و . . هذا هو الضابط الصحيح للتعامل مع الصوت الحسن والآلة التى تطرب النفس.

١٥٨ ـ الأذان فى مالطـــة

كان الصديق أمين يسرى سفيرا لمصر فى صنعاء عندما أعلنت الوحدة اليمنية يوم٢٢ مايو ١٩٩٠، ومر يوم توقع خلاله أن تبادر القاهرة تلقائيا إلى سبق الاعتراف سريعا بإعلان الوحدة اليمنية قبل غيرها من الدول . . «أولا» بحكم ثقل أوزان مصر السياسية والشعبية والحضارية فى اليمن . . موصولا بالدور الجسور الذى قامت به قواتها المسلحة فى دعم الثورة والدفاع عن نظامها الجمهورى، وظل محسوبا ومقدرا باعتزاز فى سجل النضال القومى حتى بعد انسحاب القوات المصرية من اليمن وها هى الثمار قد أينعت بإعلان وحدة اليمن!

ثم مضى زهاء يومين وأمين يسرى يواصل فى حرارة وغضب حث وزارة الخارجية تباعا على سرعة إعلان مصر اعترافها بالوحدة اليمنية ونظامها الجديد، لكن أحدا لم يأبه لبرقياته ورسائله الدبلوماسية التى واصل إرسالها ليل نهار، عندئذ ضاق صدره وتساءل فى غضب عن سر هذا التلكؤ فى إعلان اعتراف مصر وتهانيها بإعلان الوحدة اليمنية عبر مكالمة هاتفية من صنعاء مع مسئول فى الخارجية المصرية كبير وقال مرددا المثل الشائع بعد نفاذ صبره: هو أنا بأذن فى مالطة؟

ولم تمض أيام حتى صدر عن وزارة الخارجية قرارها العاجل بنقل السفير أمين يسرى من اليمن إلى مالطة، فى الوقت الذى كان بدر الدين همام مساعد وزير الخارجية يبلغ صنعاء اعتراف مصر رسميا بالنظام الوحدوى الجديد، ثم لم تمض أسابيع حتى كان الرئيس حسنى مبارك فى تعز يوم ٧ يوليو ١٩٩٠ لتهنئة الشعب اليمنى والرئيس على عبد الله صالح بنهوض دولة الوحدة اليمنية باعتبارها دعما للوحدة العربية!

١٥٩ - قرار مجلس الأمن أم قرار أبها...؟

ظل اندلاع الاقتتال الدامى فى اليمن بين طرفى الصراع محتدما، وكل منهما يرى مشروعيته فى تجريد خصمه من المشروعية بقوة السلاح وممارسة أساليب التهويل الإعلامى واستنفار أنصاره فى الداخل وفى الخارج، وهو ما يفسر كم وألوان التصريحات المتناقضة التى أدلى بها المسئولون هنا وهناك وتنوع مهام المبعوثين والوفود الرسمية والشعبية التى شهدتها العواصم العربية والدولية للتداول بشأن الأزمة، ومحاولة إضفاء المصداقية أو عكسها على مواقف صنعاء أو عدن من الأزمة تحسبا لصدور قرارات جديدة من مجلس الأمن إيذانا بالتدخلات الأجنبية والإقليمية المتربصة بالوحدة وعاصمتها صنعاء أو الاعتراف بالدولة الانفصالية وعاصمتها عدن، وهكذا ظلت مهمة مبعوث الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمى تراوح مكانها، دون أن يتحقق لجولاته المكوكية بين صنعاء وعدن والمكلا سوى الحصرم والحنظل!

الخبراء العسكريون فى تحليلاتهم المتباينة لسير العمليات العسكرية أجمعوا آنذاك على غياب الهدف الاستراتيجى للحرب فى اليمن، كونها مجرد حرب أهلية دفاعا عن الوحدة أو تجاوزا لها بين شعب واحد متلاحم بشريا واجتماعيا وتاريخيا وجغرافيا، وأنها لذلك لا تعدو صراعا على قسمة السلطة أو على مستوى القيادة السياسية التى اتخذت قرار الوحدة الاندماجية بين شطرى اليمن يوم ٢٢ مايو عام ١٩٩٠، ولم يعد من صلاحياتها الدستورية التراجع عنها أو تغيير صيغتها قبل الرجوع إلى الشعب واستفتائه مجدداً على الخيارات المطروحة!

وصف هؤلاء الخبراء الأساليب القتالية للقوات العسكرية النظامية التى تتلقى أوامرها من قيادتها فى صنعاء بأنها مجرد عمليات «تعبوية» أشبه بمهام قوات الشرطة التى تستهدف ضبط الأمن وتعقب الخارجين على القانون، وأبعد كثيرا عن نهج وأساليب وأهداف الحرب الحديثة، حيث كان الباب مفتوحا أمام الجميع للمشاركة فى دحر الانفصال سواء عبر المشاركة العسكرية أو تقديم السلاح والطعام ووسائل النقل، بينما كانوا يصفون موقف القوات التابعة لعدن تساندها الميليشيات

الشعبية بأنها «عقائدية» دفاعا عن الكيان السياسى للحزب الاشتراكى ونفوذه الجماهيرى كونه شريك قرار إعلان الوحدة اليمنية وصاحب الأغلبية البرلمانية على مستوى المديريات الجنوبية، ثم ادعائه من هذا الزاوية بحقه وإرادته المنفردة فى تقرير مصير الجنوب والتراجع عن الوحدة واستعادة الاسم والشرعية السابقة لما كان يسمى بجمهورية اليمن الديمقراطية.

على أن الإدارة الأمريكية أعلنت فى وضوح حدبها على الوحدة اليمنية ورأت فى قيامها عامل استقرار وأمن فى شبه الجزيرة العربية، وأشادت بخيارها للتعددية الديمقراطية وإنجاز انتخابات نيابية نظيفة للمرة الثانية، ولعل موقف الولايات المتحدة موصول كذلك بنشاطات ٢٠ شركة أمريكية تبحث عن البترول فى اليمن بتكلفة استثمارية فاقت عشرة مليارات دولار عززت من نشاطها بشكل حاسم عندما أعلنت شركة «هنت» حسما للنزاعات الحدودية مع جيران اليمن أنها تبحث عن البترول على هدى خرائط البنتاجون الأمريكى!

وقد بذلت أمريكا مساعيها الدبلوماسية لرأب الصدع على صعيد القيادة السياسية إلى حد قيام رئيسة شئون الجزيرة العربية بوساطة مكوكية بين الرئيس على عبد الله صالح فى صنعاء ونائبه على سالم البيض بعد اعتكافه فى عدن، إلا أن واشنطن التزمت تماما موقف السكوت والصمت والحياد التام بمجرد اندلاع الصراع المسلح ثم عادت تؤكد بعد فترة من الحرب عبر تصريحات السفير روبرت بلليترو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأوسط على إمكانية استمرار الوحدة اليمنية، وأن فرص الحوار لا تزال متاحة لتسوية الخلاف السياسى الذى تولد عنه القتال بين الجانبين، وساق فى تصريحاته عبارة «الجمهورية اليمنية» بدعوى أنها لا تزال النظام الشرعى الوحيد لشعب اليمن فى المحافل الدولية، وانتقد ضمنيا الإعلان عن الدولة الانفصالية فى عدن الذى تسبب فى تصعيد النزاع لكن أمريكا لم تعلن بوضوح دعمها السياسى أو اللوجيستى لصنعاء!

كانت الإدارة الأمريكية قد عممت خطابا تحذر فيه عددا من العواصم العربية المعنية بالأزمة اليمنية من التدخل السياسى وتزويد الطرفين بالسلاح وهو ما يؤكد إضافة إلى تصريحات روبرت بلليترو - على أن موقف واشنطن اتسم بالتأنى وعدم

استباق الأحداث انتظارا لما تسفر عنه الحرب اليمنية من نتائج على الأرض لصالح هذا الطرف أو ذاك.

لكن أمريكا فى حقيقة الأمر كانت مع الوحدة اليمنية لعدة أسباب أولا : باعتبارها عامل أمن واستقرار فى المنطقة، وثانيا : لأنها اختارت الديمقراطية نهجا للحكم، ومن هنا يرى المراقبون أن قبول صنعاء بما كانت ترفضه سابقا إزاء تدخل مجلس الأمن والالتزام بقراراته مرتبط بمدى النجاحات العسكرية التى حققتها قواتها عبر تحرير المديريات الجنوبية من القوات التابعة للحزب الاشتراكى وفرض الحصار على عدن والمكلا عاصمة حضر موت، بينما ظلت حكومة عدن الانفصالية تلح على تدويل الأزمة عبر المطالبة بإرسال قوات دولية لفض الاشتباك وتشكيل آلية تابعة للأمم المتحدة لمراقبة إطلاق النار، على النحو الذى يجسد ضمنيا شرعية قيام الدولة الانفصالية وكسب الاعتراف الدولى بها وهو ما رفضته صنعاء بشدة.

ولعلى لا أذيع سرا أن محمد سالم باسندورة أكد لى فى حديث معه يوم ١٦ مايو ١٩٩٤ أوائل اندلاع الحرب أن قوات الشرعية الدستورية لن تقتحم عدن، وإنما سوف تقتصر على محاصرتها.. لكن على ما يبدو أن قصف قوات الحزب الاشتراكى صنعاء بالصواريخ «اسكود» وإثارة هلع السكان من جهة، إضافة إلى أن الدكتور بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة وقتئذ لعب دورا بالغ الأهمية حين نصح عبدالله الأشطل ممثل اليمن فى مجلس الأمن أن تسارع قوات الشرعية الدستورية إلى حسم الموقف عبر الدخول مباشرة إلى عدن وحضرموت قبل عقد مجلس الأمن وصدور قرار قد يفضى إلى إرسال قوات إلى اليمن وتدويل الأزمة بالتالى!

أما عن السر الثالث عندما طرح الوفد المصاحب للسيد النائب فى لقاء «صلالة» بسلطنة عمان سحب قوات الجنوب من الشمال وعودة قوات الشمال من الجنوب وهو ما يؤكد على أن رفض الحزب الاشتراكى دمج القوات المسلحة فى الشطرين سابقا إنما كان إرهاصا بالمؤامرة الانفصالية المبيتة بعدما باتت واضحة وضوح الشمس ولذلك قال الدكتور الإيريانى إن اتهامى برفض عودة قوات الشمال

والجنوب إلى مواقعها قبل الوحدة وتمسكنا ببقاء الأوضاع العسكرية على ما هى عليه إثباتا لحسن النية من جانبهم كان بمثابة وسام على صدرى!

تبقى ملاحظة هامة وتكمن فى موقف الرئيس على عبد الله صالح حين رفض مشاركة القبائل الشمالية فى اقتحام عدن أو حضرموت، والسماح للشعب كأفراد بالدفاع عن الوحدة خشية تكرار اجتياح القبائل لصنعاء إثر فشل ثورة ١٩٤٨ من جهة، وحتى لا يتمادى خطور النفوذ القبلى من جهة أخرى!

١٦٠ - الرئيس يكشف أسرار المؤامرة الانفصالية

ما إن جلست للحوار مع الفريق على عبد الله صالح رئيس الجمهورية اليمنية والقائد الأعلى للقوات المسلحة فى مبنى القصر الجمهورى بصنعاء منتصف شهر أكتوبر ١٩٩٤ حتى بادرنى قائلا: «طبيعى أن يكون سؤالك الأول عن أسباب ودوافع الأزمة السياسية التى عاشها اليمن واكتوى بنارها دما وضحايا ودمارا، إذن دعنى أقول لك الآن إننا تصورنا مخطئين أنه آن الأوان أخيرا لعلاج وإصلاح أحوال اليمن ونهاية مآسيه وأحزانه يوم ٢٢ مايو ١٩٩٠ المجيد حين استعاد الشعب وحدته بعد قرون سوداء عانى خلالها محنة التشطير والتجزئة، لكن الذى حدث ولم يكن أبدا فى الحسبان أن تندلع الفتنة من قبل العناصر الانفصالية «النائمة» فى الحزب الاشتراكى عندما قبل طائعا بالوحدة وشارك فى صنعها وسار شوطا فى تفعيلها.. لكأنهم كانوا يضمرون التآمر على الوحدة وعلى الوطن وعلى الشعب، رغم أن الوحدة جاءت عبر الحوار السلمى الديمقراطى وجرى الاستفتاء الشعبى على دستورها كما تمت فى ظلها الانتخابات النيابية التشريعية بطريقة حرة ومباشرة!

عندئذ أدركت لماذا كان ولوج الرئيس مباشرة إلى المؤامرة الانفصالية بداية للحوار، حيث وقته مشغول فى ترتيب أوضاع ما بعد انتصار الوحدة، عبر التعديلات الدستورية التى صححت مضامين الدستور الذى جاء توفيقيا عام ١٩٨١ وعدلت شكل رئاسة الدولة.. وجاءت به رئيسا للجمهورية بعد إنهاء صلاحيات مجلس الرئاسة التى كانت مثارا للنزاع على سلطة السيادة واختلاف القرار

السياسى . . وتشكيل الحكومة الائتلافية الجديدة بين حزب المؤتمر والإصلاح واستبعاد الحزب الاشتراكى من قسمة السلطة .

قلت متى كانت القشة التى قسمت ظهر البعير إيذانا باندلاع الحرب؟

الرئيس : فى «دوفس» بمحافظة أبين عندما فجر الحزب الاشتراكى عشية التوقيع على وثيقة العهد والاتفاق فى عمان الموقف عبر التآمر عسكريا ضد قوات العمالقة التى أرسلت بعد الوحدة إلى محافظة أبين بينما حيث أرسل وحدات عسكرية تابعة له من محافظة حضر موت ووحدات أخرى من محافظة عدن لمحاصرة لواء العمالقة وتدميره ، تلى ذلك تصعيد الموقف عسكريا فى منطقة عمران حيث كان هناك اللواء الثالث مدرع وكان يخضع للحزب الاشتراكى وكان متواجدا مع اللواء الأول مدرع ويضمهما معسكر واحد ، حيث قام اللواء الثالث بالاعتداء على أفراد اللواء الاول فى الوقت الذى كان أفراده يتناولون طعام الغداء ، على الرغم من وجود لجنة عسكرية مشتركة شارك فيها الملحقان العسكريان الأمريكى والفرنسى للتخفيف من التوترات التى حدثت عقب الاعتداء على العمالقة فى أبين . . فكانت كارثة الصدام المروع الذى أدى إلى تدميراللواءين ، وعلى الفور أعلنا أن المصاب مصاب اليمن كله واعتبرنا كل من استشهد شهداء اليمن والوحدة . . ونقلنا المصابين إلى المستشفيات ومن كانت حالته خطيرة أرسلناه للعلاج فى الخارج . . وبالنسبة لمن بقى حيا من قوة اللواء الثالث مدرع منحناهم تعويضات كافية وأعدنا تسليحهم ومنحناهم إجازة محددة يعودون بعدها إلى وحداتهم . . وهكذا فوتنا على الحزب الاشتراكى الفرصة لتفجير الصراع عسكريا على نطاق أوسع ، لكن الحزب عاد يحرض قواته فى معسكر «باصهيب» فى منطقة ذمار على الانتشار خارج المعسكر ثم توجيه نيرانها فجأة على كتيبة الحرس الجمهورى . . وعلى المقرات الحكومية والمواطنين وتدمير محطة الكهرباء الرئيسية . . وبعدها صدرت الأوامر منا إلى الحرس الجمهورى بعدم الرد بالمثل . . لكن بعد مضى أقل من ساعة كانت قوى أخرى من الأمن المركزى تتعرض للإبادة فى عدن إثر قصفها بالمدرعات والمدفعية . . وكذلك قوات اللواء الثانى مدرع فى لحج . . هكذا أشعلت قيادة الحزب الاشتراكى الانفصالية الحرب واستمرت منذ يوم ٤ مايو ١٩٩٤ حتى تحقق الانتصار على الانفصاليين يوم ٧ يوليو .

١٦١ ـ حساب الوطنية اليمنية

قلت: لماذا فى تقديركم أخطات توقعات معظم المحللين العسكريين التى غلبت فى البداية انتصار القوات الانفصالية ؟

الرئيس: لأنهم حسبوها بأرقام التمويل والتسليح الضخم الذى يحصل عليه الانفصاليون فقط، ولم يحسبوا حساب الوطنية اليمنية بينما كانت حسابتنا مبنية على إرادة الشعب ومبادرته التلقائية لصيانة الوحدة وتمسكه بحبل الله الذى لا فرقة بعده أبدا، وبينما كانت القضية التى ندافع عنها وطنية وقومية وشريفة فى أسلوبها وغاياتها، لم يكن للانفصاليين قضية سوى تحقيق أطماعهم الانتهازية حتى لو تمزق اليمن إربا، إلى حد توجيه صواريخهم «الاسكود» لقتل الأبرياء من المواطنين وتخريب البيوت والمنشآت داخل المدن فى إطار ما يسمى بمشروعهم الحضارى الذى تشدقوا به كثيرا كمنطق للنهوض باليمن، وبينما كانت ميزانية الدولة تئن تحت وطأة الديون الخارجية وانقطاع المعونات الدولية والعربية ناهيك عن البطالة، هب الشعب اليمنى عن بكرة أبيه يدافع عن الوحدة ويسد العجز فى تمويل الإنفاق على المجهود الحربى عبر تقديم كل ما يمكن من وسائل النقل والإغاثة والإمداد لقوات الوحدة والشرعية والانخراط للقتال فى صفوفها وتشكيل احتياطى عسكرى كثيف وبأكثر مما كنا نحتاجه، فضلا عن حراسة خطوط الإمدادات لآلاف الكيلو مترات، وكل ذلك غاب عن تحليلات الخبراء العسكريين وعن الكتاب والمحللين السياسيين الذين لم يدركوا مفردات الشخصية اليمنية!

قلت لماذا إذن طالت مدة الحرب ؟

الرئيس: اخترنا منذ البداية تحقيق النصر وفق أسلوب «مرحلى» بديلا عن «الضربة القاضية» لعدة اعتبارات أهمها تقليص الخسائر وتجنب الدمار إلى أقصى حد ممكن بالإضافة إلى إتاحة الفرصة لكشف الانفصاليين على حقيقتهم ويفصحّوا عن نواياهم الخيانية المبيتة، ولم تتأخر حساباتنا كثيرا حيث أعلنوا بيانهم الانفصالى، وتكشف للعالم الكم الذى تدفق عليهم من الأموال والأسلحة من الخارج والتعاقد على صفقة طائرات الميج ٢٩ والمدافع ذاتية الحركة الحديثة والقواعد

الصاروخية المتطورة وغيرها بهدف تدمير قوات الوحدة والشرعية . . وضرب المنشآت الاقتصادية الحيوية مثل محطات الكهرباء والنفط والمستشفيات وغيرها بواسطة طيارين وخبراء أجانب تم استئجارهم كمرتزقة، وحتى الآن نجحنا فى رصد جملة المبالغ التى تسلمها الانفصاليون «نقدا» من الخارج، بينما لا يزال الكثير من الأسرار التى نواصل البحث فى كشفها!

قلت: سيادة الرئيس: بعض من الحقائق حول التمويل الخارجى؟

الرئيس: نحمد الله إننا انتصرنا بقوانا الذاتية، فلا أحد ساعدنا بريال واحد أو دولار ولا بقطعة سلاح أو طلقة بندقية أو مدفع أو صاروخ، وما يجعلنا نحمد الله أكثر عليه ونفتخر به ذلك التلاحم الشعبى الرائع والاصطفاف الوطنى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ اليمنى. . فعلى مدى أيام الحرب تقلصت الجريمة تباعا حتى اختفت. . أما فى جانب الانفصاليين فلم يخف عن العالم وأعلامه مصادر السلاح الحديث الذى ظل يتدفق على ميناءى ومطارى عدن والمكلا وغيرهما من المنافذ الجوية والأرضية، أما عن نفقات تمويل الإنفاق العسكرى والإعلامى فقد تمثلت الدفعة الأولى لكسب نتائج الانتخابات النيابية بنحو ١٧٠ مليون دولار، إثر التوقيع على وثيقة العهد والاتفاق، وخلال الأزمة والحرب تتابع التمويل بمبالغ كبيرة تصل إلى المليارات وكانت آخر دفعة يوم ٢١ مايو ١٩٩٤ أى يوم إعلان بيان الانفصال ناهيك عن دعم ومساعدات خارجية أخرى و. . اعذرنى إن تحفظت عن الأسماء لعل وعسى ننجح فى رأب الصدع الذى تخلف عن المأساة!

١٦٢ ـ شركة كنديان إوكس

قلت: ما مدى صحة مشاركة شركة كنديان إوكس التى تمارس نشاطاتها البترولية باليمن فى تمويل الانفصاليين بمبلغ ٣٧٠ مليون دولار؟

الرئيس: الشركة قالت إنه لا علم لها بذلك. . ولكن اتضح أن وزير النفط السابق من الحزب الاشتراكى بن حسينون وبعض القيادات المنفذة فى الاشتراكى رفعت التكلفة المقدرة لمد خطوط أنابيب البترول من حقول المسيلة حتى ميناء

التصدير إلى أكثر من ٣٧٠ مليون دولار ثم ارتفع المبلغ إلى أكثر من الضعف، ولجأوا إلى أساليب ملتوية لتمرير هذا المبلغ الذى نهب لصالح تلك المجموعة وربما لتمويل المؤامرة الانفصالية وما زال التحقيق جاريا فى هذا الموضوع . . علما بأن الحزب الاشتراكى لم يصرف على المؤامرة إلا أقل القليل من المليارات التى تقاضاها من الخارج . . ونحن نطالب الآن بعض الدول التى تعاقدوا معها على شراء سلاح باسم الجمهورية اليمنية بتسليم ما تبقى وما لم يسلم من تلك الصفقات للدولة، ومن الغريب أن القيادات المتقذة فى الحزب الاشتراكى أخفت فور إعلان الوحدة مبلغ ٢٨٠ مليون دولار كانت فى البنك المركزى بعدن، ولكن هل تساوى أموال الدنيا الفرار من الوطن والتآمر على وحدته وأمنه ومصيره؟

وقلت للرئيس على عبد الله صالح : لاشك أن وثيقة العهد والاتفاق كانت تتعلق بمعالجة أخطاء متبادلة فما هو مصيرها الآن ؟

الرئيس : الوثيقة انتهت كمسمى بعد إشعالهم الفتنة وتفجيرهم الحرب، إذ كان قبولها من جانبنا وتوقيعها مجرد ابتزاز قبلناه عن رضى صيانة للوحدة وتجنبا لما حدث، لكن هناك بنوداً فى الاتفاقية نحن عازمون على تنفيذها من خلال المؤسسات الدستورية بما يلبى طموحات الشعب ورغباته بدون أى اعتبار للبنود الخارجة عن الشرعية والدستور ؟

عندئذ دخل أحد رجال الرئيس ينبهه إلى اقتراب موعد الاحتفال بتكريم أسر شهداء الشعب وقواته المسلحة والأمن لكن الرئيس قال : لدينا فرصة أخرى لاستئناف الحديث . . ونهضت شاكرا إلى لقاء آخر . . وانتظرت أياما حتى ظهر الرئيس فجأة فى مدينة المكلا عاصمة محافظة حضرموت وعبر شاشة التليفزيون كانت الجماهير تستقبله بالحفاوة والاحتفالات الحماسية . . وأدركت أن الأمل فى مواصلة الحوار معه كاد يتلاشى . . وأن المكلا ليست سوى خطوة ونقطة انطلاق فى زيارة الرئيس ربوع المحافظات الشرقية الجنوبية والاطلاع على أحوالها والتعرف على الخراب والدمار الذى خلفته الحرب . . وإحياء الأمل فى التحرر والبناء والنهوض من كبواته .

١٦٣ - استدعائى إلى المكلا

لكن فجأة وعلى غير انتظار فإن الرئيس أشار إلى سكرتيره الصحفى الأستاذ عبده برجى سرعة استدعائى من صنعاء . . ووصلت إلى المكلا فى الطائرة العسكرية التى حملت محمد سالم باسندوة وزير الإعلام الجديد لحلف اليمين الدستورية . . وهناك عرفنا أن موكب الرئيس تحرك إلى مدينة «سيئون» . . ومن جديد ركبنا الطائرة إلى هناك . . ومنها ركبنا طائرة عسكرية لمرافقة الرئيس فى زيارة منطقة «العبر» الحدودية فى محافظة المهرة المتاخمة لسلطنة عمان . . وفى القرية السياحية المطلة على المحيط الهندى عاد الرئيس للإقامة فى المكلا حيث استدعانى فى العاشرة مساء لاستكمال الحوار الذى بدأناه فى صنعاء .

وقال الرئيس : لعلك شاهدت فى جولاتنا بمحافظة حضرموت . . كم الإهمال والتسيب الذى تخلف عن هيمنة الحزب الاشتراكى على ما كان يسمى بالشطر الجنوبى على مدى ٢٧ عاماً ، وكيف استمر الحال إلى ما هو أسوأ بعد الوحدة ، مشاكل بسيطة مثل رصف طريق أو شبكات الكهرباء والماء ناهيك عن سلب ممتلكات الناس وأراضيهم وتوزيعها على أعضاء الحزب الاشتراكى ومحاسيبه ، وذلك الإرهاب والقهر الذى كان سيفا مصلتًا على الشعب ، وأظنك سمعت فى لقاءاتى مع مشايخ القبائل ومختلف الفئات والمثقفين والبسطاء عن ٨٠٠ مواطن تعرضوا للقتل والسحر والاختطاف . . بينهم ٨٠ من الضحايا علماء ومثقفون فى حضرموت وحدها . . وكلهم معروفون بالاسم . . رغم أن حضرموت مسقط رأس معظم الزعامات الانفصالية للاشتراكى مثل البيض والعطاس وبن حسينون .

قلت : الأمر إذن يحتاج إلى ثورة سياسية وتنموية جديدة ؟

الرئيس : نعم نحتاج إلى حلول غير تقليدية لمشكلاتنا الموروثة من عهود الإمام والاستعمار والتشطير ، وفى ظل الاستقرار وتوحد الإرادة السياسية لا مفر من العمل الجاد والمثابر لرفع المعاناة عن كاهل الجماهير ، بداية بالقضاء على الفساد وتطبيق القانون ومتابعة كل الذين أثروا على حساب الشعب بالحرام وكل من تآمر على الوطن وتعامل مع الخارج لوأد مسيرته الوحدوية!

وقلت: سيادة الرئيس. . ألا تخشى على الوحدة؟

الرئيس: مهما تآمروا. شكلا وموضوعا، ومهما كانت آلياتهم ودعمهم وأساليبهم للتآمر ضد الوحدة. فسوف يفشلون لا محالة. . وسوف يواجههم الشعب وقواته المسلحة والأمن. . بعدما تكشفت المخططات التآمرية للانفصاليين، وها نحن الآن فى حضرموت التى بيتوا لتحويلها إلى دويلة إذا ما فشلت المؤامرة للعودة باليمن إلى ما قبل الـ ٢٢ من مايو ١٩٩٠.

١٦٤ - الوحدة أم احتلال عدن

قلت: من الناحية الأمنية بعد فترة الحرب يبدو أنه لا مفر من استبعاد بعض الشخصيات فى الحزب الاشتراكى من الحكام والولاة لكن هذه المسألة يمكن استغلالها استغلالا سيئا وتعج الصحف الخارجية الموالية للانفصاليين بالحديث عن تفتيش بيوتهم وكان أحد الكتاب اليمنيين ممن كنت أثق فى مصداقية رؤاهم السياسية ووطنيتهم وإيمانهم بالوحدة أعتبر ما حدث احتلالا لعدن؟

الرئيس: عندما يقول لك أحدهم إن هناك احتلالا لعدن، فقل له إذا كان هذا مفهومك وأنت من غير مواليد صنعاء فأنت محتل لصنعاء لأنك من مواليد منطقة أخرى فكيف تفسر وجودك فى صنعاء إذًا، هل المواطن يوسف الشريف لكونه من مواليد صنعاء وموظفا فى عدن ومقيما فيها يكون محتلا. . نحن شعب يمنى واحد موحد منذ الأزل من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. . لا أحد يمكن أن يكون محتلا فى وطنه.

قلت: رغم ضرورات تأمين الوحدة إلا أننى أتمنى أن تكون هناك عناصر من أبناء جنوب اليمن فى الجيش والبوليس. . متى يتحقق ذلك؟

الرئيس: أولا ليس هناك ما يسمى بعناصر جنوبية أو شمالية. . هناك عناصر يمنية من أى منطقة كانت. . ولمعلوماتك فإن الجيش الآن سواء الموجود فى عدن أو بقية محافظات الجمهورية هو من كل أنحاء اليمن وبشكل موحد حتى أن بعض العناصر العسكرية التى كانت موجودة فيما كان يسمى بالشطر الجنوبى سابقا

وأعلنت التمرد ووقفت مع الانفصاليين موجودة الآن فى صعدة وفى حجة والمهرة ولحج وكذلك العكس . . الجيش كله انخرط فى إطار مؤسسة وطنية واحدة، فأنت حينما ترى وحدات فى حضر موت، سوف تلاحظ أنها مندمجة وتجسد الوحدة الوطنية، الجيش الآن اندمج وأصبح من كل اليمن، الإدارة أيضًا شكلت على أساس وطنى، فمثلا فى حضرموت - وأنت موجود فيها - ستلاحظ أن الإدارة معظمها إن لم يكن كلها من أبناء المحافظة والقيادات العسكرية من أبناء المحافظة وبقية المحافظات و . . يمكنك أن تقوم بتحقيق صحفى واستطلاع مع الوحدات العسكرية الموجودة وأجهزة الأمن . . من أين أفرادها وقياداتها وضباطها وستجد كلها مختلطة وإن الدمج تم بشكل جاد وعلى أسس وطنية!

قلت: لاحظت فى حديثكم على المستوى الرسمى والشعبى أنكم لم تذكروا الحزب الاشتراكى ولكن ذكرتم الانفصاليين . . ألا تعتقد أن الحزب الاشتراكى بعد إعادة تشكيل مؤسساته ومراجعة خطابه العام برىء من المؤامرة الانفصالية؟

الرئيس: الانفصاليون لم يكونوا فقط من كانوا فى الحزب الاشتراكى، لأن البعض انجروا وراء الانفصاليين من خارج الحزب الاشتراكى مثل الجفرى وهناك من ساند الانفصاليين ووقف مع الانفصال ولم يكونوا من الحزب الاشتراكى .

قلت: ما هى الأخطار التى تتوقعها . . الثورة مستمرة والوحدة مستمرة وأنتم موجودون كيف تتوقعون شكل التآمر ؟

الرئيس: لن يكون التآمر الذى سيأتى أكثر مما حدث، الآن التآمر اقتصادى، تآمر على معيشة المواطنين، لكن المواطن يعرف كيف يفشل كل المؤامرات، وهذا ليس شيئا جديدا علينا، ونحن منذ ٣٢ سنة نواجه التحديات . . وباستطاعة إرادة شعبنا أن تفشل كل المؤامرات . . كما أفشلتها فى الماضى .

١٦٥ - قيادة الحزب الاشتراكى الجديدة

قلت: هل هناك حاجة لاشتراك الشعب فى تحمل نصيبه من المسئولية الأمنية خاصة أن ما شاهدته أمس خلال جولاتك فى منطقة وادى حضرموت ومحافظة شبوة يؤكد على ضعف الآليات الأمنية؟

الرئيس: الأمن موجود ومستقر، فمثلا حضرموت فيها حوالى ثلاثة آلاف من رجال الأمن الذين كانوا تحت سيطرة الانفصاليين ولا يزالون يستلمون رواتب.. لكن أداءهم الأمنى ضعيف بالنسبة لمعظمهم، نحن أبقينا على رواتبهم فيما أصدرنا تعليمات لإعادة تدريبهم وتأهليهم فإذا لم يحسنوا الأداء ويثبتوا الولاء للوحدة فيتم تغييرهم بآخرين من أبناء المنطقة.

قلت: التقيت بعلى صالح عباد الأمين المؤقت للحزب الاشتراكى وقال لى إنه ما زالت عملية التفتيش العشوائى مستمرة لبعض أعضاء الحزب، إلى حد موت اثنين من رجال الأمن خلال تفتيش بيت أحد عناصر الحزب فى عدن وبالمناسبة ما هو عدد المعتقلين السياسيين؟

الرئيس: لا يوجد أى معتقل سياسى ولكن لأن الاشتراكى كحزب منى بهزيمة سياسية فمن الطبيعى ألا يتقبلها بسهولة ولذلك يرفع شعار أنه مطارد وأن هناك اعتقالات حتى يبدو فى صورة الضحية لا الجانى، وأؤكد لك كمسئول أول أنه لا يوجد أى معتقل سياسى ومعروف دائما أن قيادة الحزب الاشتراكى الانفصالية - وليس على صالح عباد - كان نهجها وأسلوبها دائما أنه فى حالة إذا ما سجن شخص على قضية جنائية يقولون هذا من حزبنا وأنه معتقل سياسى والحزب الاشتراكى يدفع بخلاياه التنظيمية إلى السجون لتبحث عن المجرمين والجنائيين المودعين فى السجون لارتكابهم جرائم ويدعى أنهم من أعضائه وأنهم معتقلون سياسيون، وهذه ما زالت من آثار وممارسات الماضى بهدف الإثارة والضجيج لغرض فى نفس يعقوب، وربما غاب عن أذهان البعض أن هذه الممارسات أصبحت مكشوفة وقد عرفها شعبنا واتضحت له أهدافها ومراميها السيئة.

قلت: سيادة الرئيس ما مدى قناعتك بمصداقية القيادة الجديدة فى الحزب الاشتراكى؟ وإيمانها بالوحدة؟

الرئيس: أنا مقتنع بالقيادة الجديدة إذا بدأت تنهج نهجا وطنيا يتسم بالموضوعية، والتحرر من ممارسات القيادات الانفصالية السابقة التى لم تجن من ورائها البلاد سوى الحرب والخراب!

قلت: الحزب فصل أربعة من قياداته الانفصالية بينما أمر النائب العام بإلقاء

القبض على القائمة التى تضم ستة عشر شخصا وعلمت أنك ناقشت القيادة الجديدة حول هذا الموضوع حيث تأجل البحث إلى حين عقد الحزب لمؤتمره الرابع وعندئذ يتم عبر الحوار الديمقراطى بحث كل جوانب الأزمة التى أدت إلى الحرب فما هو وضع الذين عادوا إلى الوطن من الخارج؟

الرئيس : وصلت مجاميع كبيرة من الخارج بالفعل، سواء ممن أيد أو راهن على الانفصال أو غرر بهم. . لكن القيادات والعناصر الانفصالية لن تعود، والقيادة الانفصالية ليست ١٦ شخصا بل أكثر من ذلك، نحن حددنا ذلك العدد كعمل سياسى على سبيل الحرص على الوحدة الوطنية لكنهم يعرفون أنفسهم، ونحن نرحب بعودتهم ونأمل أن يعلنوا نقدهم الذاتى لمواقفهم!

قلت : وإذا رجع الـ ١٦؟

الرئيس : سنحيلهم إلى القضاء فإن برأهم فأهلا ومرحبا وإلا فيتحملوا مسئولية جريمتهم كل بحسب دوره وحجم مشاركته.

قلت : وتفتيش بيوت عناصر الحزب الاشتراكى؟

الرئيس : من حقك كصحفى أن تذهب إلى كل المحافظات لتسأل عامة الناس وكل الأحزاب عن هذا حتى تتأكد من الحقيقة ونشرها!

قلت : خروج الحزب الاشتراكى من توازنات السلطة جعله الآن فى المعارضة وأن هذا التغيير ألحق أضرارا بكوادره مثل وكلاء الوزارات؟

الرئيس : الحزب الاشتراكى خرج من الائتلاف الحكومى. . أما الكوادر فيحكم وضعها قانون الخدمة المدنية، لأن الائتلاف قام على المناصب السياسية العليا كالوزراء ونواب الوزراء والمحافظين والوكلاء، أما مدراء العموم ورؤساء المؤسسات فمن أثبت ولاءه للوطن وأثبت كفاءته فلا غبار عليه.

قلت : الاختيار أو التعيين للمجلس الاستشارى المزمع قيامه هل وفقا لمعيار سياسى أم معيار الخبرة ؟

الرئيس : سيكون المعيار هو الولاء للوطن والإيمان بالوحدة والخبرة والكفاءة،

وسيراعى جانب تمثيل المحافظات وليس ضروريا أن يكون ذلك على أساس المعيار الحزبى . . فإذا كانت هناك عناصر وطنية ذات كفاءة من الحزب الاشتراكى أثبتت ولاءها للشعب ووحدته وأدانت الانفصال وحاكمت المنحرفين والخونة فالطريق أمامها مفتوح للمشاركة!

قلت : لمن سلطة انتقاء أعضاء المجلس الاستشارى وهل له علاقة بما يجب على الحكومة أن تقوم به ؟

الرئيس : الدستور يحدد ذلك ضمن الصلاحيات المخولة لرئيس الجمهورية ، ولا شك أن المجلس الاستشارى سيساعد الحكومة بالرأى وقد وجهنا الحكومة الجديدة برئاسة الأخ عبد العزيز عبد الغنى بتفعيل قانون الحكم المحلى لتقليص المركزية الحادة ، وإعلان الحرب على الفساد وكافة المظاهر الموروثة عن حكم الإمامة وعهود الاستعمار والتشطير ورفع المعاناة المعيشية عن المواطنين وبالذات محدودى الدخل . . لقد كان لرئيس الوزراء الاشتراكى الخائن حيدر العطاس صلاحيات تفوق صلاحيات رئيس مجلس الرئاسة آنذاك لكنه على مدى أربع سنوات لم يقم بمعالجة مشكلة أو تنفيذ مشروع واحد عن عمد وسبق إصرار لتفشيل الوحدة وتكفير الجماهير بهذا الإنجاز الوطنى العظيم مقدمة لتهيئة أجواء الانفصال . . وحتى لا تدين الجماهير فترة الحكم الشمولى للحزب الاشتراكى .

١٦٦ - المعاهد العلمية وتخريج الأصوليين

قلت : المعاهد العلمية التى صدر قرار من مجلس النواب بتبعيتها لوزارة التربية والتعليم . . حتى الآن لم يحدث ذلك بينما شرع التيار الأصولى فى بناء جامعة أهلية غير مختلطة والإسلام فى اليمن كما أعلم عميق وسمح ولا فضل لتوجه دينى على آخر؟

الرئيس : أى تطرف سياسى يمينى أو دينى أو فوضوى هو رد فعل على ممارسة العلمانيين الماركسيين ، فلو أوجدوا الاعتدال فيهم وعاشوا الواقع وانطلقوا من العقيدة الإسلامية وأمنوا بالوطن والانتماء القومى لن يوجد تطرف إسلامى . .

فمثلا الحركات الإسلامية فى العالم وجدت نتيجة أن الماركسية فشلت والعمل القومى فشل، إذا لماذا نضج على الإسلاميين أينما كانوا ولم نضج على الماركسيين؟ دعونا نجرب . . المهم الولاء والإخلاص للوطن . . والالتزام بالدستور والتسليم بالشرعية الدستورية والتداول السلمى للسلطة وهذا ما حدث . . فمثلا نحن فى مجلس الرئاسة كنا خلال الحرب شريكين أساسيين، المؤتمر والإصلاح وجاءت التعديلات الدستورية وسلم الإصلاح بالتداول السلمى للسلطة وخرج من مجلس الرئاسة، لماذا أسلم بوجود الاشتراكى كعلمانى وأكون حجر عثرة أمام الإسلاميين . . طيب سالم صالح أنا أعتبره وصوليا وانتهازيا أما البيض فخائن وباع الوطن، أيهما الأفضل؟ أنا مع الإسلاميين بقدر ولائهم للوطن وحرصهم على مصالحه وأمنه ووحدته الوطنية، فلو كان الاشتراكى الانفصالى وطنيا وقوميا ومؤمنا بالثوابت الوطنية ما حصلت أى مشكلة، لكن الإنسان هكذا يصيب أو ينحرف، الإسلاميون يجب أن يكون لهم وجود مثل وجود الاشتراكيين والقوميين، المهم ثقة الشعب والالتزام بالنهج الديمقراطى والثوابت الوطنية.

قلت: د. حسن مكى نائب رئيس الوزراء يقال إنه لن يرجع إلى اليمن بعد محاولة الاعتداء على حياته؟

الرئيس: مقاطعا: من قال لك هذا ؟ هذا غير صحيح د. حسن مكى عزيز على قلوبنا ومناضل وطنى كبير وهو الآن يستكمل علاجه.

قلت: لقد ناقشت الشيخ عبد الله الأحمر رئيس مجلس الشعب ورئيس حزب الإصلاح وحكى لى ما حدث بين الدكتور مكى وبين الشيخ الشايف، الشىء الثانى أن على صالح عباد اعتدى عليه من طارق الفضلى ولم يحدث قصاص فى الحالتين؟

الرئيس: أولا على صالح عباد كأمين عام للحزب الاشتراكى يعرف خلفية ما حدث بينه وبين الفضلى وهما الآن على تفاهم.

قلت: إلى متى تحتكمون إلى الأعراف الشعبية والقبلية؟

الرئيس: نحن نحتكم إلى الشريعة وإلى العرف الموروث الذى يرتضيه ولا يزال الشعب اليمنى ولا يتعارض مع عقيدته.

قلت: كيف تفسر سيادتكم ظاهرة تلاشي الاغتيالات والتفجيرات التى سادت الوحدة قبل التآمر عليها؟

الرئيس: كان هناك حملة إعلامية عدائية لغرض الانفصال، ولم تكن هناك اغتيالات أو تفجيرات سياسية. . كان هناك شيء متفق عليه بين الانفصاليين وبين من مولوا الانفصاليين بقيام عناصر بالتفجيرات مقابل الحصول على أموال، وعلى هذا الأساس مولوا تلك العناصر باتفاق مع الحزب الاشتراكى لإحداث التفجيرات ولإحداث الضجة الكبيرة فى العالم، وانحصرت ادعاءاتهم بارتكاب الحوادث ضد ١٥٢ من عناصر الحزب الاشتراكى بينما ثبت فيما بعد ارتكاب جرائم سياسية فى حق ٧ حالات عندما تم بحث الأمر فى اجتماع لمجلس الوزراء قبل تفجير الحرب والحالات السبع فيها شبهة وهو ما أكده تقرير وزير الداخلية الذى شارك فى التوقيع عليه اثنان من وكلاء وزارة الداخلية وهما عناصر من قيادات الحزب الاشتراكى.

قلت: كان هناك اتفاق على استبعاد وجود الجيش داخل المدن متى يعاد النظر فى هذا الاتفاق؟

الرئيس: لمعلوماتك كان فى صنعاء معسكران وفى عدن ١٥ معسكراً لأنها كانت مستعمرة من الإنجليز وكدسوا فيها المعسكرات والأسلحة، الآن لم يعد هناك وجود للجيش داخل المدن، وأجهزة الأمن والشرطة وحدها هى التى تمارس صلاحياتها فى الحفاظ على الأمن والاستقرار.

قلت: هناك فهم لاختياركم الدكتور الإريانى وزيرا للخارجية كونه يمثل خطا سياسيا متشددا بينما باسندوة جاء فى أعقاب أزمة الخليج ليعبر عن خط سياسى يتسم بالمرونة السياسية. . هل هذا صحيح؟

الرئيس: الأشخاص تحكمهم مؤسسات ودستور، لكن بعض الدول لم تسلم بعد بأننا بلد ديمقراطى وبلد مؤسسات. . ونحن نحكم فى إطار رسم سياسة عامة، الإريانى سواء رضيت عنه أم لم ترض سينفذ سياسة اليمن. باسندوة أيضا كذلك، فأى واحد سينفذ سياسة اليمن، ليس هناك شيء اسمه شخص متطرف أو متشدد فى سياسته، خاصة وليس الفرد هو الحاكم، الدستور والسياسات التى

يقرها البرلمان والحكومة هى التى تحكم عمل الجميع، حتى لو وضع أى شخص مهما كان فى أى موقع فهو سينفذ سياسة محددة ومقرة!

١٦٧ ـ انزعـــاج مصـــر

قلت: هناك انزعاج مصرى من وجود متطرفين مصريين فى اليمن؟

الرئيس: أى مصرى يخل بأمن مصر ويتآمر على أمن مصر فى اليمن اكتب لى اسمه للتحقيق فى أمره وعقابه أو لكى يمنع عن العمل السياسى ضد مصر أو يطلع خارج البلد، فالدولة لا تدعم ولن تسمح لأى قوة مضادة للشعب المصرى ولن تحتضنها كما هو الحال الآن بمصر حيث يتواجد على أرضها بعض الانفصاليين ويمارسون أنشطة معادية للشعب اليمنى ووحدته.. فنحن لن نسمح لأى قوة مهما كانت أن تعادى النظام أو الشعب المصرى الشقيق.. ونتمنى فى المقابل أن تتخلص مصر من العناصر الانفصالية اليمنية الموجودة على أرضها وألا تكون منطلقا للعمل المعادى لليمن الموحد!

قلت: فى لندن أعلنت القيادات الانفصالية تكوين ما يسمى بالجبهة الوطنية المعارضة «موج» كيف ستتعاملون معها؟

الرئيس: من خرج من الوطن مصيره مصير البدر المخلوع، وأى إنسان يعادى الوطن يصبح الآن فى حكم النظام الرجعى المباد وفى مزبلة التاريخ.

قلت: بالنسبة لعدن بشرت بانتقال الحكومة إليها فى الشتاء خاصة وهناك طموحات بأن تكون عاصمة اقتصادية؟

الرئيس: الحكومة ملتزمة بما تم إعلانه لممارسة أعمالها من هناك طول الموسم الشتوى!

قلت: هناك مخاوف يمنية وعربية ودولية إزاء احتمالات تقلص مساحة التعبير الديمقراطى فى ضوء ما أسفرت عنه الحقائق حول المؤامرة الانفصالية خاصة بعد التضييق الرقابى الذى تعرضت له إحدى صحف المعارضة مؤخرا!

الرئيس: أكـتب على لسـانى تقطع يدى ولا أوقع على قـرار بالتـراجع عن الديمقراطية والتعددية السياسية، لقد كانت هناك رقابة مؤقتة على الصحف خلال فترة الحرب وهذا استثناء طبيعى تلجأ إليه أكثر الدول التى تتسم نظمها بأرقى صيغ الحكم الديمقراطى فى أوقات الحروب حفاظا على أمنها القومى، الآن زالت تلك القيود الرقابية تماما وشملت حتى الصحف العربية والأجنبية ولم تعد الدعوى التى رفعتها تلك الصحيفة ضد وزير الإعلام ذات موضوع الآن!

١٦٨ـ عـرس الديمقراطيـة

يجمع المراقبون على أن اليمن كان محظوظا منذ تسعينيات القرن الماضى بثالوث الخير. . الوحدة، التنمية، الديمقراطية الليبرالية فى صورتها المتقدمة، عبر مساحة الحريات والتعددية السياسية، ثم عبر الانتخاب الشعبى المباشر، وهكذا انتقلت سلطة الرئاسة فى اليمن من الشرعية الثورية إلى الشرعية الديمقراطية، وهو حدث سياسى عظيم ونقلة حضارية غير مسبوقة فى دول العالم الثالث بوجه عام، حيث الوصول إلى سدة الرئاسة غالبا بالوراثة أو الانقلابات العسكرية غصبا عن إرادة الشعب.

وهكذا على مدى ١٥ يوما كنت على موعد لشهود عرس الديمقراطية الباهر فى مختلف ربوع اليمن، حيث هبط الشعب من قمم الجبال ومن كل فج عميق للتحشد حول المرشحين للتنافس حول منصب رئيس الجمهورية بين على عبد الله صالح ونجيب قحطان الشعبى للاستماع إلى برامجهما السياسية، وتقدير مدى تلبيتها لطموحاته فى حل المشكلات الوطنية، وتحقيق نقلة نوعية من: الاستقرار والتنمية والعدالة الاجتماعية والتحديث تواكب مستجدات القرن الواحد والعشرين!

ثم لا أنسى ما حييت مشهد العجائز والمعوقين حتى العميان وكذا جموع النساء أمام مقرات اللجان الانتخابية للإدلاء بأصواتهم وهم فى حالة من النشوة والفرح والحماس، رغم أن النتيجة كانت محسوبة سلفا لعلى عبد الله صالح!

وإذا كان الشعب اليمنى لا يزال يعانى إرث التخلف الثقيل وفى مقدمته ظاهرة

الأمية الثقافية، إلا أنه أكد بما لا يدع مجالا للشك فى أكثر من مناسبة على براءته من الأمية السياسية، عندما اجتمعت إرادته على انتصار ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، وتقويض أركان نظام الإمامة الكنهوتى البغيض الذى تجرع ويلاته قرونا من الجور والاستبداد والأوبئة والمجاعات فى أسر العزلة المستحكمة عن العالم الخارجى، وهو نفس الشعب الذى بادر تباعا إلى تفجير ثورته الثانية عام ١٩٦٣، فى مواجهة الاستعمار البريطانى فى عدن ونحو ٢٣ مشيخة وإمارة وسلطنة فى الشطر الجنوبى من اليمن!

ولا شك أن انحياز الشعب اليمنى بقوة وإيمان إلى صف الوحدة ودحر المؤامرة الانفصالية، كان بمثابة الاختبار العملى للوعى الوطنى وإدراك الشعب مسئوليته إزاء استعادة حضاراته الخالدة وتسريع وتيرة لحاقه بركب العصر، وحسم خياره التاريخى الوحيد وإلى الأبد إيذانا بنهاية التشطير والحروب الأهلية الضارية رغم ما كان من اختلاف التوجهات السياسية المترددة وغير المسئولة بين النظام فى صنعاء والنظام فى الجنوب.

والشاهد أن الديمقراطية كانت الاختيار الوحيد لمسيرة الحكم فى دول الوحدة، بل المدرسة التى أنضجت الوعى الشعبى، وعبر الممارسة الديمقراطية جرى الاستفتاء فى إطارها على دستور الوحدة، وخوض معركتين للانتخابات البرلمانية من قبل، إذ رغم شيوع ظاهرة حمل السلاح فى اليمن وتأصل عادة الثأر القبلى إلا أنها تمت بسلام دون أن يسقط قتيل واحد ولم يسمع صوت طلقة رصاص واحدة!

وأيا ما كانت المماحكات السياسية التى رافقت استبعاد الحزب الاشتراكى من الترشيح فى انتخابات الرئاسة، وما رافقها من حديث حول انصياع قيادة الحزب الاشتراكى فى الداخل لضغوط قيادته فى الخارج بمقاطعة الانتخابات، إلا أن على عبد الله صالح ومنافسه نجيب قحطان الشعبى فقط حازا على النسبة القانونية التى تؤهلهما للمنافسة على رئاسة الجمهورية اليمنية لمدة خمس سنوات قادمة وهو ابن قحطان الشعبى أول رئيس لليمن الديمقراطى، فى الوقت الذى قطع الشيخ عبد الله الأحمر زعيم حزب الإصلاح المعارض الطريق على الشيخ عبد المجيد الزندانى الذى يمثل التيار الأصولى فى الحزب لترشيحه نفسه، اتقاء فتنة تحشد جماعات التطرف الإسلامى وراءه، وتورطها فى حوادث الإرهاب واختطاف الأجانب!

ولا شك أنه كان بوسع على عبد الله صالح الاستمرار فى منصب الرئاسة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، لا لأنه قابض على زمام السلطة فحسب، ولكن لشعبيته الكاسحة التى اكتسبها كبطل قومىٰ عبر إنجازه للوحدة اليمنية، ونجاحه فى إنقاذها من شراك الانفصال، وتسيير دفة الحكم فى الإطار الديمقراطى والتعددية السياسية عبر نحو مائة حزب ومائة صحيفة ومطبوعة، والسير قدما فى تنفيذ مشروعات التعاونيات والتنمية والتحديث، ولا أدل على ذلك من ٢٠ جامعة حكومية وخاصة الآن فى اليمن ونحو خمسة ملايين تلميذ وطالب، وهو ما يؤكد على أن الشعب تواق للحاق بركب القرن الواحد والعشرين، واستكمال خيار الديمقراطية بمبدأ التداول السلمى للسلطة، ومن ثم كان قرار الرئيس تجاوز مرحلة الشرعية الثورية لولايته إلى اكتسابها للشرعية الديمقراطية عبر الانتخاب المباشر من الشعب لا البرلمان، ولو بنسبة ٥١٪ من أصوات الناخبين على حد قوله لى، وهكذا بعد أن فاز بأغلبية الأصوات أصبحت مسئوليته مضاعفة وأكثر تأهيلا لتنفيذ وعوده بالتغييرات الجذرية، على كل صعيد، وفى مقدمتها اقتلاع مظاهر التسيب والفساد، ومعالجة الاختلالات الأمنية والاجتماعية والاقتصادية. وتلك كانت فرصة الشعب المواتية لممارسة حقه الديمقراطى فى اختيار حاكمه وإلزامه بخياراته ومحاسبته على مدى وفائه بها!

١٦٩ـ الرهان على انتهاج الديكتاتورية

على أنه صادف هذه التحولات العظيمة حدثان على درجة كبيرة من الأهمية، «الأول» ويكمن فى الاكتشافات البترولية التى عظمت من شأن الوحدة، ووفرت لها دعما ماديا وتعويضا نسبيا عن المعونات والمساعدات العربية والأجنبية التى توقفت اثر اندلاع أزمة الخليج، وعززت موقف اليمن المحايد وإرادته المستقلة من إمكانية احتوائها غربيا، خشية المخاطر السياسية والاقتصادية الماثلة فى عودة النفوذ العسكرى والسياسى الأجنبى إلى المنطقة، أما الحدث «الثانى» فكان النجاح المؤزر الذى أحرزته دولة الوحدة اليمنية، إزاء حل مشكلاتها الحدودية التاريخية مع جيرانها، عبر نموذج التراضى والوفاق مع سلطنة عمان، وإلى حد تبادل الأراضى

والمنافع، حتى عندما اجتاحت إريتريا جزيرة «حنيش الكبرى» اليمنية، رفض على عبد الله صالح الاستجابة للضغوط السياسية والشعبية لاستعادتها بالوسائل العسكرية وفضل التحكيم الدولى الذى أعادها من جديد للوطن الأم!

ولاشك أن هذا النهج العقلانى وهذه التحولات الكبرى أثارت على اليمن موجات من العداء المستحكم، من قبل قوى خارجية محسوبة على أقصى اليمين الرجعى وقوى محلية محسوبة على أقصى اليسار، فكانت المؤامرة على فصم الوحدة، والرهان على إعادة الأوضاع إلى زمان التشطير والتجزئة، ويخطئ البعض من المراقبين عندما يتصورون أن حسم الصراع انتهى لصالح الوحدة والديمقراطية والتحديث، فما زال التحالف الرجعى اليسارى يسعى بكل الوسائل للإجهاز على التجربة اليمنية، فإن كان قد فشل فى بلوغ أهدافها «بالضربة القاضية» فالمجال لا يزال متسعا لإنجازه تدريجيا «بالنقط» عبر استغلال المتناقضات المحلية، والمتمثلة فى شيوع ظاهرة حمل السلاح الخفيف والثقيل، واستثمار عادة الانتقام للثأر، وكذا شوق القبائل فى المناطق المهمشة لنيل نصيبها من التنمية والخدمات مقابل فك أسر الرهائن من الأجانب والسواح!

ولا أعتقد ثمة تحاملاً فى نقد مسلك الحزب الاشتراكى، حين أعاد الاعتبار إلى عدد من قياداته النافذة بعد أن ثبت تورطها فى جريمة الانفصال على الرغم من صدور العفو الشامل لكل من غرر بهم فى المؤامرة، وعادوا من الخارج يمارسون حقوقهم السياسية ويباشرون أعمالهم السابقة، بينما كان المأمول ولم يصدر قرار سلطوى بحل الحزب الاشتراكى، أن يتجاوز إصراره على إثارة خلافاته الثانوية مع النظام حول هذه الإشكالية، بديلا عن التحشد المطلوب لمواجهة التناقض الأكبر، عبر تصاعد حدة المخاطر الخارجية التى تتهدد وحدة اليمن واستقراره، كما لا أظن أن ثمة تحاملا بالمقابل إزاء نقد مسلك النظام عندما رفض ترشيح الأمين العام للحزب الاشتراكى على صالح عباد «مقبل» للمنافسة فى معركة انتخابات الرئاسة، إذا كان بمقدور النظام أن يتجاوز عدم حصوله على نسبة الترشيح المقررة من مجلس الشعب، إعمالا لمبدأ التداول السلمى للسلطة، والتأكيد على الخيار الديمقراطى، خاصة أن المنافسة محسوبة سلفا لصالح الرئيس على عبد الله صالح، لا لإنجازاته الوطنية وفى مقدمتها ردع الانفصال والحفاظ على دولة الوحدة فحسب، وإنما

باعتباره ضرورة مرحلية حتمية فى هذا الظرف العصيب الذى بات فيه اليمن مهددا من كل حدب وصوب، ولعلنا نزيد فى النقد إزاء ترشيح نجيب قحطان الشعبى ابن أول رئيس لليمن الجنوبى فور استقلاله عن الاستعمار البريطانى فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧، فلم يكن له رصيد سياسى وشعبى ولا رؤية سياسية متميزة تؤهله لرئاسة اليمن، ثم إنه عضو فى حزب المؤتمر الشعبى الحاكم، وكأن النظام ينافس نفسه، فلماذا إذن كانت كلفة الوقت والجهد والمال سدى فى الوقت الذى أعلنت أحزاب المعارضة مقاطعة انتخابات الرئاسة ؟!

أيا ما كانت أوجه النقد والاجتهادات التى تحتمل الخطأ أو الصواب إلا أن الخطر لا يزال يدق أبواب اليمن يوما بعد يوم، ومؤامرات الداخل الموصولة بالتآمر الخارجى المبيت ضد اليمن لا تمل ولا تهدأ.

وأخشى ما يخشاه الحريصون على استقرار اليمن أن تتفاقم تلك الممارسات العبثية وتداعياتها المغرضة فى الإعلام الغربى المشبوه الذى يحاول تشويه وجه اليمن الصبوح ووقف تدفق السياحة والاستثمارات الأجنبية فى مشاريع التنمية، والرهان بالتالى على نفاد صبر الرئيس على عبد الله صالح فى النهاية وإعلانه التراجع عن الديمقراطية، وتشديد قبضته على زمام السلطة بدعوى مواجهة الأخطار المحدقة باليمن عبر انتهاج الديكتاتورية أو النهج الشمولى، ولاشك أنه رهان خاسر، إذ إن التحديات التى تواجه اليمن اليوم، تهون كثيرا عن حجم وهول التحديات الكبرى التى واجهته بالأمس، وخرج منها ظافرا منتصرا بإرادة الشعب فى الحرية والوحدة والتقدم!

لكن من الخطأ أن تضع الحكومة اليمنية رأسها فى الرمال حتى لا ترى الخطر المتربص بالوحدة وبالديمقراطية، عبر التهوين للأخطار المدلهمة واستغلال الأوضاع الاقتصادية الصعبة، مما يفرض على الرئيس على عبد الله صالح الانفتاح كعادته على المعارضة والاستماع لها فى مواجهة ظاهرة جمع المليون توقيع التى تطالب بالإصلاح، ونهج أسلوب التحريض الذى تمارسه حركة «ارحلوا» عبر الموقع الإلكترونى «الناس برس» الذى يديره الكاتبان المعارضان عبد الرحيم محسن ورشاد سالم، وكذا ما يسمى «ملتقى أبناء المحافظات الجنوبية» الذى يسعى إلى وراثة الدور المناطقى لحزب الرابطة!

١٧٠ ـ مشكلات الحدود وتطبيع العلاقات

على الرغم من تراكم المشكلات التى ورثتها دولة الوحدة اليمنية عن عهود التجزئة والتشطير، وتفاعلها السلبى مع الإشكاليات التى أفرزتها مسيرة الوحدة والخيار الديمقراطى، إلا أن الثقات من أهل الحل والعقد فى اليمن كانوا يهونون من خطورتها ويضخمون من قدرة الشعب اليمنى على مجابهتها وعلاجها، بالنظر إلى كم المآسى والأهوال التى كابدها على مدى قرن ونصف القرن وإبان حكم الأئمة فى الشمال، والاستعمار البريطانى فى الجنوب، فكان العالمون ببواطن الشخصية اليمنية بتراكيبها الحضارية والإنسانية يراهنون على قدراتها فى معالجة مستجدات المشكلات والإشكاليات عبر خيار الديمقراطية والتعددية وعلى أوسع مدى سياسى وإعلامى متاح، وكذا تفعيل آليات الرقابة الشعبية وضماناتها، بل وكانت ظواهر الصخب والعنف السياسى فى تقديرهم دليل صحة وعافية ديمقراطية، بعد طول كبت للحريات وانفراد بالسلطة، خاصة بعد تنازل الحزبين الحاكمين المؤتمر الشعبى العام والحزب الاشتراكى عن نهجهما الشمولى السابق، ورفع الحظر عن تشكيل الأحزاب وإصدار الصحف وإطلاق حريات التعبير.

على أنه مهما كانت درجة التفاؤل بحل معضلات الداخل، ظلت مشكلة أو مشكلات العلاقة مع الخارج هاجس الجميع، حكومة وشعبا، حيث تزامن خيار الوحدة وعملية بناء مؤسساتها الدستورية مع اندلاع أزمة الخليج وتداعياتها السلبية بسبب موقف اليمن المناهض لمعالجة الأزمة خارج التحالف العربى والدولى!

وإذا كان ما يزيد على مليون يمنى قد طالهم قرار الحكومة السعودية المفاجئ الصادر فى ١٩ سبتمبر ١٩٩٠ بإلغاء الامتيازات التى حصلوا عليها منذ عشرات السنين، بدعوى المساواة بينهم وغيرهم من أشقائهم العرب والمسلمين، تمثلت المشكلة فى انقطاع ما كانوا يسهمون به من تحويلاتهم النقدية بـ «مليارى دولار» لاستيراد مستلزمات الإنتاج وإعاشة ذويهم والإسهام فى مشاريع التنمية والتعاونيات، كما أنهم أصبحوا عبئا إضافيا على مشكلة البطالة السابقة فى اليمن، فى الوقت الذى توقفت معونات المنظومة الاشتراكية لليمن إثر تفكك أوصالها، وكذلك معونات الدول الخليجية والأوروبية فى سياق موقفها السياسى من اليمن!

وهكذا فى ظروف الضائقة الاقتصادية وتفاقم البطالة وتصاعد الإنفاق الحكومى على إعاشة وتسكين فائض الموظفين فى إطار دمج مؤسسات الشطرين، والتمويل المطلوب لإجراءات الانتخابات النيابية، ودعم شركات ومصانع القطاع العام المتعثرة التى ورثتها دولة الوحدة عن النظام الاشتراكى فى الجنوب، كان من الطبيعى أن يتوجه النظام الحاكم إلى رأب الصدع فى علاقاته الخارجية على نحو جاد متسارع وخلاق حتى يتفرغ لحل مشاكله وإشكالياته الداخلية، باعتبار أن العلاقات الداخلية والخارجية تحكمها رابطة تفاعلية!

وبينما بدأت مسيرة تصحيح علاقات اليمن الخارجية بشكل عام على الصعيد العربى والأوربى والأمريكى، إلا أن علاقات اليمن بدول الجوار نالت عناية واهتماما خاصا مكثفا، فكان قرار حيدر أبو بكر العطاس رئيس الوزراء فى بداية الوحدة اليمنية تخفيض حجم القوات المسلحة، مؤشرا على التوجه إلى البناء والتنمية فى الداخل . . والتأكيد على أن قيام دولة الوحدة اليمنية عامل أمن واستقرار فى المنطقة!

وتلك كانت الخطوة أو مدخل اليمن إلى الحوار مع دول الجوار حول سبل معالجة مشكلات الحدود المشتركة، بينما كان اكتشاف البترول فى اليمن العامل الحاسم وراء دوافع ومبررات اليمن لحل مشكلات الحدود مع سلطنة عمان ومع السعودية :

أولا : لأن النجاح فى حل مشكلاتها الحدودية مع الدولتين، من شأنه أن يفتح الطريق أمام تطبيع علاقاتها المجمدة آنذاك مع بقية دول مجلس التعاون الخليجى!

ثانيا : استعادة العون والمساعدات التى كانت تقدمها الدول الخليجية لليمن، وعودة اليمنيين إلى العمل فى مواقعهم السابقة!

ثالثا: توفير الأمان القانونى للمناطق التى اكتشف فيها البترول فى اليمن وبعضها كان لا يزال موضع نزاع حدودى تاريخى!

المعروف أن مجلس الشعب فى صنعاء كان قد صادق على الاتفاقية التى وقعتها حكومتا اليمن الديمقراطى سابقا وسلطنة عمان لإعادة رسم الحدود المشتركة، الأمر الذى مثل فى تقدير المراقبين - سابقة حضارية متميزة فى حل المشكلات الحدودية المزمنة بالوسائل السياسية، سواء على الصعيد العربى أو مع دول التخوم

غير العربية كما هو الحال بين دول الخليج وإيران، وبين السودان ومصر وإثيوبيا وكينيا وأوغندا . . إلخ.

كانت مشكلة الحدود المشتركة بين عمان والشطر الجنوبى اليمنى قد فرضت نفسها منذ رحيل الاستعمار البريطانى عن المنطقة، حيث تفاقمت بشكل خطير إبان معارك حرب العصابات التى كانت تشنها ما يسمى سابقا بجبهة تحرير ظفار ضد الأراضى العمانية بدعم من النظام الماركسى السابق فى عدن، والتى انتهت بقمعها عسكريا من قبل القوات العمانية وإجراء المصالحة الوطنية مع زعاماتها العمانية وعودتهم إلى الوطن الأم، وحيث استأصل وجود نشاط الجبهة بشكل كامل إبان فترة رئاسة على ناصر محمد لليمن الجنوبى، لكن أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ الدامية فى عدن بين الأجنحة المتصارعة داخل الحزب الاشتراكى وتنحية جناح على ناصر من السلطة والحزب . . حال دون البدء فى الخطوة الأولى على صعيد حل مشكلات الحدود المتنازع عليها بين البلدين.

بإعلان الوحدة اليمنية فى ٢٢ مايو ١٩٩٠، وسقوط شمولية النظامين السابقين فى الشمال والجنوب وانتهاج الديمقراطية والتعددية أسلوبا للحكم والمشاركة فى صنع القرار السياسى عندئذ كانت الظروف مهيأة والمناخ مواتيا لفتح صفحة جديدة فى العلاقات اليمنية العمانية، ومدخلا لحل مشكلة الحدود المشتركة دبلوماسيا وقانونيا تجسيدا للحكمة العربية التى تؤكد على أن «الجار قبل الدار» وتعزيزا للثقة والأمن المتبادل وحسن الجوار.

وقد استغرقت الاجتماعات المشتركة للخبراء والدبلوماسيين والقانونيين زهاء عامين جرى خلالهما تبادل الوفود الرسمية على كافة المستويات للتهنئة والمشاركة فى الاحتفالات الرسمية فى كلا البلدين، وساد الأوضاع الحدودية هدوء واستقرار إلى حد السماح للقبائل ذات الأصول والمصالح المشتركة بحرية التنقل بين أراضى عمان واليمن دون قيود أو بطاقات هوية، وهو الأمر الذى اعترفت به الاتفاقية وجسدته فى بنودها سواء على صعيد جمع شمل القبائل أو تمكينها من رعى قطعان الماشية هنا أو هناك وجنى ثمار ممتلكاتهم من النخيل، عبر مد خط عرضى مستقيم يفصل حدود البلدين بلا التواء!

تعليقا على توقيع الاتفاقية قال فهد بن محمود آل سعيد نائب رئيس الوزراء العمانى للشئون القانونية وقتئذ « إن اتفاقية الحدود خطت مسارا جديدا للعلاقات بين البلدين على قاعدة مؤسسة من الروابط الأخوية وخدمة العلاقات والقناعات المشتركة بشأنها، وشاهدا على حسن النوايا وأسلوبا حضاريا لفتح آفاق الاستقرار والتعاون الإيجابى فى شتى المجالات وتأكيد الاحترام المتبادل للسيادة الوطنية».

وأكد حيدر أبو بكر العطاس رئيس وزراء اليمن أن المفاوضات المشتركة التى سبقت توقيع الاتفاقية كان لها دورها الإيجابى المباشر فى تأسيس نهج جديد لما يجب أن يكون عليه الحوار الأخوى على قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» باعتبارها الأسلوب الصحيح والأسلم فى حل مختلف مشكلات الحدود العربية ومع غيرها من دول الجوار توخيا للمصالح المشتركة على أسس وثوابت السيادة والقانون وحسن الجوار وصلات العروبة والإسلام!

من جهتها أصدرت الأمانة العامة للجامعة العربية بيانا يرحب بتوقيع الاتفاقية باعتبارها حدثا سياسيا وسابقة حضارية على صعيد توطيد دعائم التعاون والاتفاق وتواصل الجسور وحسن الجوار بين البلدين مؤكدة على أن الأمة العربية - فى ضوء تلك التجربة الرائدة - قادرة بالفعل على حل خلافاتها عبر الاتفاق والحوار.. وأن الآمال معقودة الآن فى عكس نجاحات هذا الأسلوب البناء على صعيد التوصل إلى حل كافة النزاعات الحدودية فى الشرق الأوسط بالطرق والوسائل السلمية!

على أن ما يجسد المصالح السياسية والاقتصادية التى تسعى إليها اليمن عبر حل مشكلات الحدود ما أسفرت عنه مناقشة أعضاء مجلس نوابها لتقرير اللجان الفرعية التى قامت بدراسة الاتفاق وتوصياتهم الخاصة بوضعها موضع التنفيذ مع الحكومة العمانية عبر إنشاء طريق برى يربط بين البلدين لتسهيل انتقال المواطنين تعميما للتلاحم والألفة الشعبية، وتبادل السلع والمنتجات ذات المنشأ اليمنى والعمانى، ودعوة رءوس الأموال العمانية إلى إقامة منطقة استثمارية مشتركة، وتعزيز خطوط المواصلات البحرية والجوية بين البلدين وتبادل الخبرات الفنية والتعليمية والتكامل الثقافى والاجتماعى بين البلدين!

١٧١ ـ لا ضـــرر ولا ضـــرار

والشاهد أن نجاح اليمن وعمان فى حل مشكلات الحدود المشتركة وفق أسلوب الحوار وحسن الجوار على قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» قد عكس آلياته ونتائجه الإيجابية بشكل تلقائى وسريع على أجواء الاجتماعات التى بدأت فى أعقابها بين السعودية واليمن بحثا عن مخارج التراضى والأسس القانونية الكفيلة بحل مشكلات الحدود المزمنة بين البلدين.

وكانت الجولة الأولى للمفاوضات قد بدأت فى أعقاب المفاوضات اليمنية العمانية بنحو عام ونصف العام فى جنيف وبعدها اجتمع الجانب السعودى برئاسة وزير التربية والتعليم السعودى والجانب اليمنى برئاسة وزير الدولة للشئون الخارجية تحت شعار «لا تورطونا ولا نورطكم» وفى إطار الرغبة المشتركة لحل مشكلات الحدود بالتراضى ودون اللجوء إلى استخدام القوة، كان اتفاق الطرفين على مواصلة الاجتماعات على مستوى الخبراء والمتخصصين، بينما تأجل الاتفاق على المرجعية التى يسمح باللجوء إليها للتحكيم إذا ما اختلف الجانبان على تفسير الاتفاقيات والمواثيق الحدودية باعتبار أن هذه الخطوة ليست واردة الآن مع توالى الاجتماعات وتعزيزا للثقة المتبادلة.

الجولة الثانية من المفاوضات بدأت فى الرياض وليست فى جنيف أو غيرها من المدن الأجنبية بعد أسبوع واحد من توقيع اتفاقية الحدود اليمنية العمانية، وهو ما يشير إلى الرغبة المشتركة فى تواصل الحوار والبحث عن حلول مرضية للطرفين، وحيث انتقلت الاجتماعات بعد أيام إلى جدة، وضمت مجموعة من خبراء البلدين الذين قطعوا أشواطا متأنية فى البحث عن الآليات والأسس والوسائل الملائمة للتغلب على مشكلات الحدود والبحث عن حلول مرضية لها، خاصة أن بعضها يرجع تاريخيا إلى «المذهب الإدريسى» الذى ساد المنطقة لفترة من الوقت، وبعضها الآخر يعود إلى الحروب التى خاضها الملك عبد العزيز آل سعود لتوحيد المناطق والقبائل فى الجزيرة العربية وقيام المملكة العربية السعودية وكذلك الحرب التى

نشبت بين السعودية واليمن إبان حكم الإمام يحيى حميد الدين وتوقيع اتفاقية الطائف بين البلدين عام ١٩٣٤ .

١٧٢ ـ مليون برميل بترول يوميا

على أن حرص اليمن على حسم مشكلات الحدود لم يكن يستهدف استقرار أمنها المتبادل مع الجيران ، ولا فتح الطريق نحو تطبيع علاقاتها الخليجية فحسب . وإنما كانت تستهدف معالجة هواجس الاستكشافات البترولية الجديدة ، خشية أن تقع فى المناطق المتنازع عليها . . أو تسفر المفاوضات الحدودية عن وقوعها فى أراضى الجيران .

وذلك كان مبعث قلق شركة «هنت» الأمريكية باعتبارها أولى شركات البترول العالمية التى حصلت على امتيازات التنقيب فى اليمن . . حين أعلنت من جانبها للسعودية أنها تهتدى بالخرائط الرسمية الخاصة بالبنتاجون الأمريكى قبل أن تشرع فى أعمال التنقيب والمسح الجيوفيزيائى فى مناطق الجوف ومأرب فى سبتمبر عام ١٩٨١ ، حيث بدأ ضخ أول بئر عام ١٩٨٤ بمعدل ٧٨٠٠ برميل يوميا الأمر الذى شجعها على مواصلة التنقيب وحفر عدد آخر من الحقول على اتساع ٣٨ ألف كيلو متر مربع ، وإنشاء مصفاة للتكرير فى مواقع الإنتاج ومد خط أنابيب من منطقة «صافر» فى الربع الخالى حتى منطقة «رأس عيسى» على ساحل البحر الأحمر حيث مرسى الخزان البحرى المتحرك بطاقة ٤٠٠ ألف طن . . إلخ .

بعدها توالت عروض نحو ٢٠ شركة بترول عالمية للحصول على امتيازات للتنقيب عن البترول فى الأراضى اليمنية اعتمادا على خرائط البنتاجون الأمريكية ، حيث قدر الخبراء أن يصل حجم إنتاج البترول بعد مضى ست سنوات على قيام الوحدة اليمنية بنحو مليون برميل يوميا ، إضافة إلى قيام صناعات تنقية النفط ومشتقاته فيما قدر الخبراء حجم احتياطات الغاز الطبيعى بنحو ١٣ إلى ١٥ ترليون متر مكعب ، الأمر الذى كان وراء إعادة تخطيط اليمن لاستغلال الغاز فى إدارة مصانعها وتشغيل محطات الكهرباء بديلا عن البترول ، وإعادة تحديث مصفاة عدن بواسطة ١٢ شركة عالمية بتمويل من البنك الإسلامى وعدد من المستثمرين العرب ،

والأمل كبير فى أن يصل دخل اليمن من الغاز الطبيعى فقط إلى ٣٣ مليار دولار خلال الخمسة والعشرين عاما القادمة، غير قيام السوق الحرة فى العاصمة الاقتصادية عدن مما يسهم فى التخفف - بعد إجراءات التقشف الاقتصادى الصارمة - تباعا من أعباء الديون الخارجية التى كانت زهاء تسعة مليارات دولار وباتت الآن نحو أربعة مليارات فقط!

ومن هذه الزاوية الاقتصادية المتفائلة نفى لى الدكتور سعيد العطار نائب رئيس الوزراء ووزير الصناعة اليمنى آنذاك ما يتردد حول الاتجاه إلى القروض والاستدانة من الخارج على حساب رهان الإنتاج البترولى المتوقع، وأشار إلى أن توالى الاكتشافات البترولية فى اليمن . . شجعت على تحسين شروط المشاركة فى عمليات التنقيب والإنتاج، بحيث تتحمل الشركات وحدها غرم النفقات إذا فشلت فى اكتشاف البترول فى مناطق الامتيازات، مؤكدا على أن اليمن قد نجح إلى حد كبير فى سياسة الاعتماد على الذات فى مواجهة الضائقة الاقتصادية فى الوقت الذى تشهد الدول التى تطل على الساحل الغربى للبحر الأحمر فى القرن الأفريقى كارثة المجاعات ونزوح الآلاف إلى اليمن!

وكنت قد سألته عن الدور المتوقع لعائدات البترول فى حل مشكلات الضائقة الاقتصادية، وقال الدكتور سعيد العطار حتى الآن لا يزال قرار اليمن بعدم صرف دولار أو ريال واحد من عائدات البترول لحل المشكلات الاقتصادية العارضة . . وإنما لتمويل مشاريع التنمية المستدامة والتى من شأنها توفير فرص العمل وقيام الصناعات التصديرية، وتحويل ميناء عدن إلى منطقة حرة وعاصمة اقتصادية لدولة الوحدة!

١٧٣ - الساتر الأمنى السعودى

والشاهد أن حل مشكلة الحدود المشتركة بين اليمن والسعودية عبر مذكرة التفاهم التى وقعها الأمير سلطان بن عبد العزيز والشيخ عبد الله الأحمر رئيس مجلس النواب اليمنى فى مكة عام ١٩٩٥، تداعت لها المشكلة الأمنية بين البلدين بالإيجاب، عبر التخفيف بالتالى من أعباء وكلفة القوات المسلحة التى كانت

محتشدة على الحدود المشتركة، بل وتوقف الصرف البذخى الذى كان يمثل مصدر ارتزاق بعض مشايخ القبائل الذين كانوا يحترفون إثارة المشاكل والمناوشات العسكرية بين البلدين!

وبينما شرعت قوات يمنية وسعودية إلى مناورات عسكرية مشتركة، إذ بمشكلة جديدة تلقى بظلالها الكآبية على التحسن الملموس الذى طرأ على العلاقات بين البلدين، حيث رفضت قبائل وائلة بمحافظة صعدة شمال اليمن قيام السلطات السعودية باستحداث أى نقاط أو مواقع حدودية من شأنها تحول بينهم وبين الأراضى التى تمتلكها قبائل وائلة وتمتد على طول الحدود اليمنية السعودية، وطالبت قبائل وائلة السلطات السعودية بوقف بناء الجدار العازل الذى كانت قد بدأت فى بنائه على الحدود الشمالية اليمنية بمسافة تصل إلى أربعين كيلو مترا مؤكدا رفضها لأى مساومة للتخلى عن الأراضى المملوكة لها أو تجزئة هذه الأراضى التى تملكها القبائل المشتركة!

وحذرت فى بيان صادر عنها من إقدام السلطات السعودية على أى عمل يخالف ذلك من شأنه أن يؤدى تغيير الحدود القبلية التى تربط وائلة بقبيلة يام السعودية والتى سبق وأن أقرت فى اتفاقية جدة لترسيم الحدود بين صنعاء والرياض الموقعة بينهما فى عام ٢٠٠٠، وأشار البيان إلى أن العلامات والحدود القبلية بين قبيلة «وائلة» وبين القبائل المجاورة لها فى الجانب السعودى وهى «قبيلة يام» موثقة باتفاقيات قبلية مكتوبة قبل نشوء الدولتين الحاليتين فى السعودية واليمن وأن تلك العلامات والحدود تم الاعتراف بها رسميا من قبل سلطة الملك السعودى الأول عبد العزيز آل سعود وسلطة المملكة المتوكلة اليمنية فى عهد الإمام يحيى حميد الدين كما أقرتها معاهدة الطائف الحدودية الموقعة بينهما فى العام ١٩٣٤.

ثم اتهم البيان السلطات السعودية بدفع رشاوى للشركة المنفذة للعلامات الحدودية بين اليمن والسعودية لاستحداث علامات حدودية جديدة فى عمق الأراضى اليمنية، واصفا إقدام المملكة العربية السعودية على إنشاء السور الحدودى بين البلدين بأنه أشبه بالجدار الإسرائيلى العازل، فى الأراضى الفلسطينية مضيفا أن قبائل وائلة قد تلجأ للقوة لإزالة هذا السور.

وكانت مصادر يمنية قد أكدت أن اجتماعا طارئا لمسئولى سلطات الحدود فى البلدين سيعقد بهدف نزع فتيل الخلاف القائم بينهما بشأن بناء الجدار العازل، وقالت إن الاتصالات التى أجريت بين البلدين نجحت فى وقف تداعيات هذه الأزمة حيث أوقفت السلطات السعودية عمليات البناء التى كانت قد بدأت منذ نحو شهرين وهو ما أكده وزير الخارجية اليمنى أبو بكر القربى فى القاهرة.

يذكر أن الحكومة اليمنية كانت قد أبلغت الحكومة السعودية رسميا اعتراضها على إقامة الحاجز فى منطقة نصت معاهدة ترسيم الحدود بين البلدين على أن تكون منطقة خالية، وأكدت فى اعتراضها على أن إقامة الحاجز يعد مخالفة لاتفاقية ترسيم الحدود التى وقعت فى ١٣ يونيو ٢٠٠٠ فى جدة بين البلدين وذلك بسبب إقامته فى منطقة حددت بموجب الاتفاقية كمنطقة حدودية خالية.

على أن الرئيس على عبد الله صالح صرح من القاهرة بعد لقائه بالرئيس حسنى مبارك فى فبراير عام ٢٠٠٤ بأنهما نجحا فى إغلاق الملف الأمنى بين البلدين، وقال إن مشكلة الساتر الأمنى الذى تبنيه السعودية على حدودها من المتعين أن يتم حله كذلك بشكل ثنائى وودى بين البلدين، ولا حاجة إلى عرضه بالتالى على الجامعة العربية، فيما قال الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية إن بلاده واليمن متفقان على مراقبة الحدود لمنع تسلل المهربين والإرهابيين، ومن المعروف أن الحدود تمتد بين البلدين بنحو ٨٠٠ كيلو متر بينها الحاجز السعودى!

كذلك طال التحسن فى العلاقات مع السعودية مشاركة شركاتها فى النشاط الذى يشهده قطاع البترول، حيث أعلنت شركة «نمر بتروليوم» السعودية الانتهاء من مسحها الزلزالى الجديد فى القطاع ١٦ فى محافظة المهرة أقصى شرق اليمن. وكانت بدأته فى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٩٦. وأفاد بيان صحفى وقعه نائب رئيس الشركة فيصل بن شملان أن المسح شمل ٥١٩,٣ كم وبعدها سوف تخضع البيانات للتحليل لتحديد الموقع المحتمل لوجود النفط.

وأوضح البيان أن «نمر» قامت خلال الأشهر الستة الماضية بمسح جيوكيميائى للسطح ومسح جيولوجى حقلى، ومعلوم أنه بموجب اتفاق موقع مع وزارة النفط اليمنية عام ١٩٩٢، حفرت «نمر» ثلاث آبار فى البحر العربى وأنجزت ٣٣٩٠ كم

من المسح الزلزالى وأنفقت ٧٢ مليون دولار فى المرحلة الأولى، فى حين أن إجماع التزامات إنفاقها فى المرحلة الثانية يصل إلى ٣٠ مليون دولار!

ثم نخلص فى النهاية إلى حقيقتين:

الأولى: أنه كان من المستحيل التوصل إلى اتفاقية ترسيم حدود اليمن مع السعودية، لولا أن الرئيس على عبد الله صالح أسهم بدوره التاريخى المشهود فى إنجاز الوحدة اليمنية والدفاع عنها، باعتبارها كانت قضية الشعب المصيرية التى تفجرت من أجلها الثورات وضحى بالشهداء، ولأنه نجح كذلك فى الفوز بمنصب رئيس الجمهورية ديمقراطيا عبر صناديق الاستفتاء الشعبى، بما يعنى تفويضه فى حل القضايا الوطنية المصيرية.

الثانية: أن العلاقات بين البلدين حتى تستكمل ثباتها وتكتسب شفافيتها بانتظار وفاء السعودية بتصحيح موقفها من العمالة اليمنية التى أسهمت بدور فى نهضتها العمرانية، إذ من الظلم عقابها على موقف حكومتها من أزمة الخليج، وإذا كان العاهل السعودى الملك عبد الله بن عبد العزيز، قد بادر عندما كان وليا للعهد إلى مشاركة الشعب اليمنى احتفالية العيد العاشر للوحدة، وصحب معه ١٩ أميرا وأكثر من ٣٠٠ من المسئولين والفعاليات الشعبية.. فعلينا أن ننتظر فى عهده بالوفاء بوعد إعادة العمالة اليمنية إلى السعودية، خاصة أن اليمن باتت على وشك العضوية فى مجلس التعاون الخليجى!

١٧٤ ـ الإصرار على عضوية مجلس التعاون

من حيث الضرورات السياسية والمصالح المتبادلة والموقع الجغرافى والحضارة والتاريخ والعلاقات الاجتماعية والثقافية المشتركة، كان من الطبيعى التجاوب مع رغبة اليمن فى الانضمام إلى مجلس التعاون الخليجى منذ تحققت الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠، ومع ذلك جوبهت هذه الرغبة بالاعتذار تارة والرفض تارة أخرى، لكن الحكومة اليمنية لم تتقاعس عن مواصلة مساعيها الدءوبة على هذا الصعيد!

يذكرنى موقف اليمن بموقف تركيا من الانضمام إلى الاتحاد الأوربى، وفى سبيل

تحقيق هذه الرغبة، خضعت أنقرة لكل الشروط التى طلبها الاتحاد الأوربى تباعا، وبينها تغيير القوانين المقيدة للحريات وإعادة النظر فى تردى أوضاع السجون، وتجميد تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحق زعيم حزب العمال الكردستانى المعارض، فى الوقت الذى أبدى رئيس وزراء اليمن باجمال دهشته لأن بعض الأصوات فى مجلس التعاون الخليجى أشارت إلى أن اليمن لم تستوف بعد شروط الانضمام إلى المجلس. . وتساءل: ما هى هذه الشروط إذن حتى تستكمل اليمن المؤهلات المطلوبة؟ لكأنه كان يرنو إلى المثل المصرى الدارج «مالقوش فى الورد عيب. . قالوا يا أحمر الخدين»!

أذكر أننى كنت فى الدوحة عام ١٩٩٧ عندما وصل عبد الله غانم وزير الشئون القانونية اليمنى فى مهمة خاصة، وعبر أصدقائى بالسفارة اليمنية علمت أنه يحمل رسالة خاصة جدا من الرئيس على عبد الله صالح إلى أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثانى، تتضمن تجديد رغبة اليمن فى الانضمام إلى مجلس التعاون الخليجى، حتى يتولى عرضها على قمة مجلس التعاون خلال اجتماعه بالدوحة، وللأسف أن الطلب قوبل بالرفض!

على أنه لم يمض سوى خمس سنوات حتى تغير الموقف الخليجى نسبيا عام ٢٠٠٢، من حيث الموافقة على انضمام اليمن إلى بعض المؤسسات التابعة لمجلس التعاون الخليجى، وهى خطوة لا بأس بها على طريق الاندماج الكامل، فيما تباينت رؤى وتحليلات المراقبين عن الأسباب الكامنة وراء هذا التغيير المفاجئ.

البعض من المراقبين يربط بين هذه الخطوة التى تأخرت كثيرا، وبين الحملة الدولية التى تتزعمها أمريكا لمكافحة الإرهاب، والتجاوب مع تفاعلات المواجهة المطلوبة لتحديات العولمة والمتغيرات الاقتصادية والسياسية والأمنية على الصعيد الإقليمى أو الدولى.

هناك أيضا من يرى فى عضوية اليمن الخليجية، فرصة ذهبية لخلق صيغ متباينة من الوحدة أو التكامل على أرض الجزيرة العربية والخليج أسوة بتجربة الاتحاد الأوربى، رغم عدم التجانس السياسى بين الدول الأعضاء، ثم إن اليمن لم تشهد بعد نضوب ثرواتها النفطية، إضافة إلى غنى اليمن بأهم أدوات الإنتاج والتى تكمن

فى الثراء البشرى الذى أسهم من قبل فى البناء والنهوض الذى تحقق لدول الخليج، ولا يزال الآلاف من أبناء اليمن يعملون فى مجالات عديدة بينها الأمن والشرطة بوجه خاص.

عوامل أخرى ترجح ضرورات ومصداقية عضوية اليمن فى المنظومة الخليجية، بينها توسيع رقعة السوق الذى يخدم أربعين مليونًا بينهم ١٩ مليون يمنى، إضافة إلى توفير الاستقرار الأمنى لشعوب المنطقة خاصة بعد حسم المشكلات الحدودية بين اليمن وعمان والسعودية، وتعزيز البعد الاستراتيجى عبر موقع اليمن الجغرافى المطل على البحر الأحمر والبحر العربى والمحيط الهندى، ولعله من هنا يمكن إدراك المساعى الأمريكية من وراء الستار لتعزيز انضمام اليمن للمنظومة الخليجية، مما يعزز وحدة الأمن الإقليمى فى هذه المنطقة الحيوية من العالم.. وتأمين المصالح الأمريكية بالتالى.

ويلاحظ أن القمة الخليجية التى عقدت فى ديسمبر ٢٠٠٥ فى أبى ظبى، تجاوبت إلى حد كبير مع مطلب اليمن على حد تصريح وزير خارجيتها الدكتور أبو بكر القربى، وأشار إلى أن مجلس التعاون هى البيئة السياسية الطبيعية لليمن، تعليقا على قرار القمة توجيه صناديق التنمية والتمويل الخليجى لدراسة مشاريع التنمية والاستثمار التى تقدم بها الجانب اليمنى.

ويبقى فى السياق إعلان واشنطن دعمها الكامل لانضمام اليمن إلى مجلس التعاون الخليجى، وهو ما أكده نائب السفير الأمريكى فى صنعاء نبيل خورى، كون اليمن - على حد تقديره - جزءاً من الجزيرة العربية وما تؤثر فيه فالعكس صحيح، وأمريكا تعمل من خلال سفاراتها فى دول الخليج على تقريب هذه الخطوة المنطقية والحتمية!

١٧٥ - اتحاد الدول العربية

ظلت الدعوة للوحدة العربية تراوح مكانها منذ إجهاض الوحدة المصرية السورية دون أن يتحقق على هذا الصعيد سوى استعادة الشعب اليمنى سابق وحدته فى ٢٢ مايو ١٩٩٠، ولعلنا من هنا نثمن المبادرة التى أطلقها الرئيس اليمنى على عبد الله

صالح لتطوير الجامعة العربية إعمالا للقرار الصادر عن القمة العربية بشرم الشيخ فى مارس ٢٠٠٢، ودعا كافة الدول الأعضاء إلى تقديم ما تراه من اقتراحات ورؤى فى هذا الشأن القومى الحيوى، خاصة وقد تغيرت فى عالم اليوم الكثير من موازين القوى القومية والإقليمية والدولية التى عكست ظلالها السلبية على مصداقية العمل العربى المشترك وعلى غياب فاعلية الجامعة العربية فى مواجهة مستجدات الحرب الأمريكية البريطانية على العراق، وتفاقم حدة الصراع العربى الإسرائيلى بشكل غير مسبوق لغير صالح الشعب الفلسطينى، وتضاؤل فرص السلام الشامل والعادل فى المنطقة، وإذا كانت المبادرة المصرية قد ركزت على ضرورات قيام السوق العربية المشتركة كآلية تطوير العمل العربى المشترك، إلا أن المبادرة اليمنية اتسمت بشمولها لكل مؤسسات وآليات العمل المشترك عبر تجسيد قيام «اتحاد الدول العربية» كبديل للجامعة العربية من جهة، ومخرج لتعثر إنجاز الوحدة العربية الاندماجية من جهة ثانية فى الظروف الراهنة!

والواضح أن القراءة المتأنية لهذه الفكرة يلاحظ عنايتها باستقراء تجارب المنظمات والنظم الاتحادية والفيدرالية الحديثة والقديمة فى العالم، وبينها الاتحاد الأوربى والاتحاد الإفريقى الوليد وكذا الولايات المتحدة الأمريكية، بحيث تظل النظم العربية الحاكمة قائمة كما هى، سواء كانت جمهورية أو ملكية أو إماراتية أو عشائرية، وأن تقبل بالمشاركة فى عضوية «اتحاد الدول العربية» وأن يجرى تجميد هذه العضوية حين تفقد شرعيتها، عبر وصول أى نظام جديد إلى السلطة متجاوزا الدستور أو على غير إرادة الشعب!

والشاهد أن المبادرة اليمنية التى توافر على إعدادها طاقم من الدبلوماسيين والسياسيين والاقتصاديين والقانونيين، كانت حريصة على وضع النقاط فوق الحروف بشكل جيد ومتوازن، على النحو الذى يؤسس لدستور شامل للاتحاد يستوعب مختلف التناقضات العربية، محددا أهدافه فى تحقيق التكامل السياسى والاقتصادى على نحو تفصيلى ومبرمج، على صعيد حل الخلافات العربية سلميا، والمواءمة بين التشريعات السائدة فى الدول الأعضاء، وتفعيل عملية التنمية المستدامة، وتشجيع قيام المؤسسات الديمقراطية ومنظمات المجتمع المدنى واحترام حقوق الإنسان، وإفساح أوسع المجالات للمشاركة الشعبية فى مؤسسات وأنشطة

العمل العربى المشترك، فيما راعت المبادرة اليمنية كذلك اعتماد النهج المؤسسى الذى يستوعب كافة أعمال الاتحاد وتسيير أنشطته، عبر المجلس الأعلى الذى يضم الملوك والرؤساء وقيام محكمة العدل العربية، ومجلس الدفاع والأمن، ومجلس لوزراء الخارجية، ومجلس لوزراء التنمية والاقتصاد، وصندوق للدعم والتطوير، وبنك للتنمية الاتحادية يستهدف تحقيق التكامل الاقتصادى وقيام السوق العربية المشتركة، ومجلس للأمن يضم مجلس نواب وآخر للشورى، إضافة لمجلس رؤساء الحكومات.. إلخ!

لكن وفى كل الأحوال تظل المبادرة اليمنية حبرا على ورق رغم كل ما بذل فيها من جهد وإخلاص وشفافية، ورغم الجهد الدبلوماسى والإعلامى على نفس المستوى للتعريف بفكرة «اتحاد الدول العربية» والتنوير بأهميتها وضروراتها القومية العاجلة، إيذانا بتشكيل رأى عام عربى يتبنى الفكرة ويدافع عنها، ويمارس ضغوطه السياسية والمعنوية على الحكومات العربية حتى تكتمل إرادتها حول تطبيقها على أرض الواقع، لكن تظل الإرادات العربية فى زمان الاختلاف والمتناقضات وفى ظل الضغوط الخارجية، العقبة الكئود أمام إنجاز فكرة اتحاد الدول العربية، لكننا نحسب أنها باتت مدرجة ضمن أولويات واهتمامات الرأى العام العربى والأحزاب ومنظمات المجتمع المدنى ومراكز الدراسات السياسية والنقابات والاتحادات العربية، وفى مقدمتها اتحاد الصحفيين العرب واتحاد المحامين، ولا شك أن المحصلة النهائية لهذا الزخم سوف يكون عاملا هاما حتى ترى الفكرة اليمنية النور فى وقت لاحق، وربما دمجها مع غيرها من المبادرات لتطوير الجامعة العربية فى إطار المشروع القومى الذى يستحيل بدونه أن تنهض الأمة العربية من كبوتها، علما بأن اليمن كان صاحب اقتراح عقد القمة العربية دوريا مرة كل عام!

١٧٦ ـ مغزى تعويض أسرة حميد الدين

لا أكاد أعرف سببا واحدا يبرر الموقف المفاجئ الذى اتخذه الرئيس اليمنى على عبد الله صالح بتعويض أسرة حميد الدين عن ممتلكاتهم وأموالهم المنهوبة.. مما عجل بمصادرتها إثر اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، ونجاحها عبر آلاف

الشهداء وأنين المحرومين والمظلومين فى تقويض حكمهم البغيض، وذلك أن أخشى ما نخشاه أن يفضى قرار الرئيس إلى بث الشكوك بأثر رجعى حول حتميات الثورة ومصداقية تجسيدها لطموحات الشعب اليمنى فى التحرر من العزلة والتخلف ومكابدته لألوان المجازر والمظالم واستباحة المال العام والخاص عبر الممارسات الكهنوتية للدين، بينما الدين من شناعة أفعال أسرة حميد الدين برىء وطاهر وناصع البياض!

ربما أفهم جيدا مغزى الدوافع السياسية والإنسانية التى أملت على الرئيس مواقفه ونهجه البرجماتى منذ وصوله سدة السلطة فى اليمن عام ١٩٧٨، خاصة والأمثلة التى تؤكد ذلك تجل عن الحصر والوصف، حين غض الطرف عن عناصر الجبهة الوطنية التى كانت تنطلق من اليمن الديمقراطى سابقا لارتكاب جرائم التفجيرات واغتيال مشايخ القبائل فى «المنطقة الوسطى» بالجمهورية العربية اليمنية، وهكذا نجحت مرونته السياسية فى كسب ود وثقة قيادات الحزب الاشتراكى الحاكم فى عدن، فكان الطريق سالكا لتجاوز الخلاف الذى احتدم بين النظامين حول الثروة البترولية وقيام شركة مشتركة لاستثمارها لصالح الشعب اليمنى فى الشمال والجنوب، مما عجل تباعا فى إسدال الستار على عهود التجزئة والتشطير ثم إعلان الوحدة اليمنية يوم ٢٢ مايو ١٩٩٠، فلما انقلبت زعامة الحزب الاشتراكى على الوحدة وأعلنت من عدن انفصال الجنوب، ودارت رحى الحرب الطاحنة التى كبدت اليمن عشرة مليارات دولار غير ضحاياها من اليمنيين، عندئذ كان نجاح الشعب اليمنى وقواته المسلحة فى الدفاع عن الوحدة وتثبيت أركانها، ورغم ذلك ظل النهج البرجماتى الذى يتبناه على عبد الله صالح حاضرا سياسيا وإنسانيا، عبر إسقاط جريمة الانفصال عن آلاف المتورطين وحصر الاتهام فى ١٦ من قيادات الحزب الاشتراكى فحسب، مع فتح أبواب احتكامهم للقضاء لإثبات براءتهم، بالتزامن مع السماح للحزب الاشتراكى بممارسة نشاطه السياسى وحتى كان صدور قرار العفو الرئاسى بعد ذلك عن رءوس المؤامرة الانفصالية دون استثناء!

والشاهد أن الرئيس اليمنى كانت رعايته مشهودة للمشير عبد الله السلال أول رئيس لجمهورية اليمن، حيث أتاح له حريات الاجتماع والمشاركة السياسية وكفل له من المخصصات ما وفر له الحياة الكريمة، وحظى بهذا التكريم كذلك القاضى

عبد الرحمن الإيرياني رئيس المجلس الجمهوري السابق ومختلف أعضاء تنظيم الضباط الأحرار الذى فجر الثورة اليمنية وغيرهم من المرجعيات السياسية والقبلية، دون أن ينفرد على عبد الله صالح بسلطة القرار فى هذا الشأن، وإنما عبر لجنة الحوار بين أطياف الفصائل والقوى الوطنية أوائل الثمانينيات، وأسفرت عن إجازة الميثاق الوطنى، فكانت المشروعية السياسية التى أتاحت الإفراج والعفو عن المتهمين بالضلوع فى الأحداث السياسية المناوئة للحكم منتصف سبعينيات القرن الماضى، ثم استمرت وتيرة العفو والإفراج السياسى بعد نهوض الوحدة حتى عن بعض من صدرت بحقهم أحكام قضائية، ولعله من هنا لم يكن مستغربا ولا مستهجنًا قناعة الرئيس اليمنى بالإفراج عن عشرات المعتقلين فى حوادث التمرد المسلح الذى تزعمه حسين الحوثى فى محافظة صعدة العام الماضى، رغم عنفه ودمويته التى أدت لسقوط نحو ألف قتيل، ورغم أن أهل اليمن أدرى من غيرهم بشعابها ولاشك، يظل دور المراقبين قاصرا عن الرصد والتحليل، إلا أننا نحسب أن أولويات القضايا الوطنية التى تستحق المعالجة تكمن فى ضرورات تفعيل آليات النقد الذاتى للتسيب والإهمال الأمنى والإدارى وغياب الرؤية الدينية الصحيحة التى تحالفت جميعها وراء اندلاع فتنة الحوثى، ووضع الدراسات والخطط السياسية وسن القوانين الكفيلة باجتثاث ظواهر الفساد و«الهبر» التى طالما ندد الرئيس بخطورتها، أما الإفراج أو تعويض أسرة حميد الدين عن ممتلكاتهم، فليكن ذلك للدواعى الإنسانية البحتة، حتى لا يحسبها أعداء اليمن اعترافا ضمنيا بمشروعية جرائمهم فى حق الشعب ونهب أموال وممتلكات الدولة، أو انحيازا للمذهب الشيعى، وربما خضوع اليمن للإملاءات أمريكا والرجعية العربية لا قدر الله!

١٧٧ - هل يتنحى الرئيس عن السلطة ؟

ضرب الرئيس على عبد الله صالح بنفسه مثلا عمليا من المتعين أن يحتذيه أقرانه من الرؤساء العرب، حين أعلن مفاجأته الكبرى فى ذكرى مرور ٢٧ عاما على توليه الحكم، مؤكدا عزمه التنحى عن الترشيح مجددا فى الانتخابات الرئاسية المقرر إجراؤها عام ٢٠٠٦ بينما أشار نائبه عبد ربه منصور إلى أن حزب المؤتمر

الشعبى العام «الحاكم» سوف يعلن ترشيح الرئيس خلال انعقاد مؤتمره العام السادس، ولعله من هنا السؤال: إن كان اختلاف الرؤى والخيارات بين الرئيس ونائبه من قبيل ممارسة لعبة تقسيم الأدوار لاستكشاف ردود الفعل المتباينة لقرار الرئيس، سواء على الصعيد الجماهيرى أم على صعيد أحزاب المعارضة.

وهكذا بينما أشارت صحيفة «الثورة» الموالية للنظام إلى أن على عبد الله صالح جسد التأكيد على أن منصب رئيس الجمهورية ليس حكرا على أحد، ومن حق الجميع بالتالى التطلع لشغل المنصب، وأنه طرح فى التعديل الدستورى المرتقب تحديد فترة الرئاسة بدورتين انتخابيتين، فى نفس الوقت الذى بادر حزب رابطة أبناء اليمن «راى» المعارض إلى الترحيب بخطوة الرئيس، واعتبارها منطلقا أساسيا يفضى إلى مفصل تاريخى فى حياة الشعب اليمنى ويؤسس لمستقبل راسخ الجذور، ثم إذا بقرار حكومة باجمال رفع أسعار المحروقات واندلاع المظاهرات التى تندد بهذا القرار، مما أدى إلى التغطية على موقف الجماهير اليمنية حول تعزيز موقف الرئيس من عدمه، خاصة أنها سبق وخرجت فى مظاهرات عارمة من قبل مرتين تطالب على عبد الله صالح بالعدول عن رغبته فى التنحى والاستمرار على قمة السلطة!

نقول إنه رغم ثقل موازين حكمه بالإنجازات والدفاع عن مصالح اليمن واستقراره، وتبوئه دورا مرموقا على الساحة العربية والإقليمية والدولية، إلا أنه كان صادقا على ما يبدو حين أعلن رغبته فى الراحة بدعوى أنه مل الناس وملوه، إيذانا بفتح باب الترشيح للرئاسة أمام الأجيال الجديدة والتمكين لرؤاها وطموحاتها من صياغة المستقبل الأفضل لليمن، وهكذا عبر معرفتى الوثيقة وحواراتى المتصلة بالرئيس اليمنى على مدى سنوات حكمه، من هنا يجوز لى الرهان على جدية ما خلص إليه من قرارات وخيارات، وثباته بالتالى أمام الضغوط الداخلية والخارجية الرامية لإقناعه بالتراجع وحثه على الاستمرار تباعا على سدة السلطة، وكأن الأمر كله مجرد فورة عاطفية، أو أنه يستهدف إفساح الطريق أمام ابنه أحمد قائد القوات الخاصة حتى يحل مكانه . . «وكأنك يا بوزيد لا رحت ولا جيت».

طبيعى إذن أن يتمسك حزبه «المؤتمر الشعبى» بإعادة ترشيحه وطبيعى أن تصر

الغالبية الشعبية على ذلك، كما أنه من الطبيعى كذلك أن تثمن أحزاب المعارضة هذا الخيار وتحث الرئيس على الثبات عند موقفه، لكن وفى كل الأحوال يظل المطلوب من على عبد الله صالح كما عودنا دائما أن يضرب المثل لشعبه ولغيره من القادة العرب عبر التخلى عن السلطة وهو ممسك مفاصلها بقوة، تماما كما فعلها سوار الذهب فى السودان، بالنظر إلى أن الرؤساء العرب لا يقبلون أبدا بالتغيير إلا عبر الانقلاب العسكرى أو الموت باستثناء لبنان، وربما كان اعتزال الحكم والرئيس فى أوج نفوذه وهيلمانه أكثر فائدة وعطاء لليمن عبر توظيف خبراته فى التخطيط للنهوض تباعا من كبوات التخلف وموروثات العزلة والتشطير.

على أن ابتلاء اليمن بفتنة الداعية الشيعى بدر الدين الحوثى، ووقوع زهاء الألف قتيل عندما تصدت قوات الأمن للفتنة، ثم عودتها مجددا، وما تكشف عن قوى أجنبية ومحلية وراء تأجيج الفتنة بالسلاح والمال، ثم بروز تيارات سياسية مشبوهة تروج لإعادة تشطير اليمن و. . من هنا تبدو الضرورة وأحكامها إلى جانب تجديد رئاسة على عبد الله صالح عبر الاستفتاء الشعبى أو صناديق الانتخابات.

لكن تشاء الأقدار والتوازنات السياسية أن تفرض على الرئيس خيار تجديد استمرار السلطة و. . كتب أقول تحت عنوان «لماذا تراجع الرئيس؟».

هنا أحسب أن على عبدالله صالح كان محقا وصادقا عندما وعد بمتابعة مشواره مع الإنجازات وهو خارج السلطة، وذلك أفضل على حد تقديره، وربما من هنا كان حرصه على الحوار الجاد والمتواصل مع أحزاب المعارضة لإقناعها بالتراجع عن مقاطعة الانتخابات الرئاسية، والتجاوب مع ما يتعلق من مطالبها بضمانات الحياد والشفافية، حتى يطمئن بالتالى على سلامة وسلمية التغيير المرتقب فى حالة غيابه، لكن تشاء تصاريف القدر ألا تتحقق أمنية الشعوب العربية حول تنازله عن الترشيح وعدم فوزه وفخره بلقب الرئيس السابق وهو فى كامل أهليته السياسية والعقلانية والصحية، وعلينا إذن أن تستعيد تصريحاته الحاسمة خلال جلسات اليوم الأول للمؤتمر الاستثنائى الذى عقده حزب المؤتمر الشعبى العام لإقناعه بالترشيح لولاية جديدة. . قال: «أريد أن أسلم السلطة بطريقة ديمقراطية وحرية مطلقة». . «أنا

لست مريضًا أو عاجزًا عن تحمل المسئولية» . . «موقفى ليس مسرحية سياسية» . . ليس هناك قلق على مسيرة الوحدة ولا على طريق الديمقراطية ولا على مسيرة التنمية، الملعب الآن مهيأ للتبادل السلمى للسلطة . . لا عنف ولا إعدام . . لا مؤامرات . . لا اغتيالات»!

على أن أخطر ما تناوله الرئيس اليمنى فى خطابه رصده لمراكز القوى الجديدة حين قال : «أنا لست تاكسى أجرة يستأجرنى المؤتمر أو أى قوى سياسية أخرى لمصلحة ما» . . «أنا أرعى فى المقام الأول مصالح هذه الأمة» . . «لست مظلة لفساد أى حزب أو قوى معينة، ولعل على عبدالله صالح أقل وأدل حينما عرض لمشكلة الفساد الكأداء التى طالما وعد باجتثاثها من الجذور، واستدعى لها الخبراء وعقدت من أجلها المؤتمرات وورش العمل، وإذا كان قد تراجع عن قراره بعدم الترشيح بعد أن مد حزب المؤتمر أعماله لليوم الثانى، وهددت قياداته وكوادره بالاعتصام وتقديم استقالاتها، فقد صارح الشعب فى خطابه الثانى بأن المستقبل ليس مفروشا بالورود على الإطلاق . . لكننى واثق بأنكم سوف تقفون بجانبى، ونحسب أنه قد مس كبد الحقيقة، فلا يزال اليمن يواجه العديد من التحديات . . فلا تنمية مستدامة ولا ازدهار للاستثمارات الأجنبية والسياحة مع ظواهر الفساد والعنف والإرهاب، ولا تزال تداعيات فتنة الداعية الشيعى بدر الدين الحوثى تطل بين حين وآخر بوجهها الكئيب، ويبقى فى النهاية انتظار مبادرة سياسية سريعة من على عبدالله صالح تتيح أوسع الفرص للمنافسة مستقبلا على مقعد الرئاسة خارج شرط الحصول على ٥٪ من أصوات مجلس النواب الذى ينتمى معظم نوابه إلى حزب المؤتمر الحاكم، وأن يبدأ ولايته الرئاسية الجديدة على مدى السبع سنوات القادمة عبر برنامج واعد للنهوض الوطنى باليمن وهو الرهان الشعبى والسياسى المتوقع، بعد انتصاره المؤكد على خمسة من منافسيه فى معركة فى مقدمتهم فيصل بن شملان مرشح «أحزاب اللقاء» المعارضة، فيما لم يسعف الحظ بقيد أربعة وستين مرشحًا فى الحصول على نسبة الخمسة فى المائة، مما يؤكد على أن هناك إدراكا عاما بين اليمنيين على ضرورات التغيير والإصلاح السياسى والاقتصادى والإدارى!

١٧٨ - بريطانيا تدرب الإرهابيين

انقلب السحر على الساحر، إذ بعد اتهام الحكومة البريطانية لليمن بمسئولياتها عن قتل ثلاثة من مواطنيها ضمن ١٦ سائحا أجنبيا كانت قد اختطفتهم جماعة الجهاد خلال تجوالهم بأسواق محافظة أبين يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٩، وإلى حد استدعاء الخارجية البريطانية حسين العمرى سفير اليمن فى لندن ثلاث مرات للإعراب عن استيائها، إذا بالتحقيقات التى قامت بها السلطات اليمنية حول الحادث، تؤكد على أن المسئولية تقع على أم رأس بريطانيا، حين سمحت بإيواء جماعات الإرهاب الأصولى فى أراضيها، والتخطيط لعملية خطف السياح فى اليمن من لندن!

وكانت بريطانيا قد بادرت إلى إرسال فريق من جهاز «سكوتلانديارد» إلى اليمن للتحقيق فى الحادث، ثم لحقه فريق آخر من مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى، لكن الحكومة اليمنية رفضت تسهيل مهمتهم، واعتبرتها تدخلا سافرا وتجاوزا لخطوط السيادة الحمراء، الأمر الذى كاد يؤدى إلى أزمة دبلوماسية حادة بين صنعاء وكل من لندن وواشنطن، فيما حاولت بريطانيا الانتقام الفورى تارة عبر إعلان رفضها انضمام اليمن إلى منظومة الكومنولث، بدعوى أن المعايير المطلوبة للعضوية غير متوفرة فى اليمن، وتارة عبر اتهام «كوماندوز» الأمن اليمنى بإطلاق النار أولا على الخاطفين دون إتاحة الفرصة للتفاوض حول تحرير السياح المختطفين بسلام، مما دفعهم إلى قتل ثلاثة بريطانيين وسائح رابع يحمل الجنسية الأسترالية.

وزاد الطين بلة، عندما وجهت بريطانيا وأمريكا وألمانيا رعاياهم إلى مغادرة اليمن أو مجرد تحذيرهم من زيارة محافظتها الجنوبية، فى محاولة لتفريغ شركات البترول ومشاريع التنمية من الخبراء الأجانب ووقف سيل السواح الذى كان قد بدأ يتدفق على اليمن بمعدلات متزايدة فى السنوات الأخيرة، لكن تشاء تصاريف القدر أن يكشف رئيس وزراء اليمن الدكتور عبد الكريم الإريانى عن أن وزير خارجية بريطانيا السابق مالكولم ريفكند كان صاحب مبادرة انضمام اليمن إلى الكومنولث خلال زيارته صنعاء عام ١٩٩٦، وقال الإريانى: إذا كانت حكومة العمال قد اتخذت نهجا مغايراً فهذا شأنها وحدها.

من جهة أخرى كانت شهادة عدد من المختطفين الذين تم تحريرهم بمجرد وصولهم إلى لندن بمثابة صفعة لبريطانيا، حيث أكدوا على أن الخاطفين كانوا البادئين بإطلاق النار، وأن السلطات اليمنية لم تمارس معهم أيا من ألوان الضغوط أو الترغيب حتى يشهدوا لصالحها، ولولا تدخل الكوماندوز فى الوقت المناسب، لكان الخاطفون قد نفذوا تهديدهم بقتل جميع السياح تباعا!

على أن تصاريف القدر كانت تخبئ مفاجأة مدوية لصالح اليمن، فإذا كانت اليمن بحكم وراثتها لأوضاع اجتماعية وسياسية معقدة منذ قيام دولة الوحدة، إضافة إلى الانعكاسات السلبية التى أفرزتها عملية تسلل العرب الأفغان إلى أراضيها نهاية الحرب الإسلامية ضد الوجود السوفيتى السابق إلى أفغانستان، وكذا تدفق آلاف من النازحين المروعين بالحرب الأهلية فى الصومال، وهو ما أدى فى جملته إلى ظاهرة الاختلال الأمنى، فالشاهد أن عملية التمشيط الواسعة النطاق التى قامت بها الأجهزة اليمنية مؤخرا لترحيل المتسللين والنازحين إلى بلادهم، أسفرت عن اكتشاف خلية أصولية تضم خمسة يحملون الجنسية البريطانية من أصول يمنية وجزائريًا واحدًا يحمل الجنسية الفرنسية وباكستانيًا!

والملاحظ أن سلطات الأمن اليمنية نجحت فى القبض على عناصر الخلية قبيل حادث اختطاف السياح الأجانب بخمسة أيام، وفى حوزتهم وثائق وخرائط تؤكد عزمهم على تنفيذ عمليات إرهابية ضد مبنى الأمم المتحدة وسكن خبراء إزالة الألغام الأمريكيين وفندق موفمبيك ومبنى كتيبة البادرى والقنصلية البريطانية فى عدن، لكن الأمن اليمنى تكتم على واقعة اكتشاف الخلية إلى حين انتهاء التحقيق مع عناصرها، فما أن طلب الخاطفون بالإفراج عنهم ضمن مطالبهم برفع الحظر الدولى عن العراق وليبيا والسودان حتى توجه المحققون إلى استبيان الصلة التنظيمية بينهم وبين الخلية الإرهابية، حيث تبين أن كليهما ينتمى إلى تنظيم أصولى فى بريطانيا يدعى أنصار الشريعة يتزعمه الشيخ أبو حمزة المصرى إمام مسجد «فينسبورى بارك» شمال لندن، وهو كان من الزعامات العسكرية بأفغانستان، وعبر قناة الجزيرة الفضائية هدد من معقله فى لندن بعمليات انتقامية ضد اليمن وتوعد كذلك بمجازر ضد النصارى الغربيين إن لم يتم إفراج اليمن عن زين العابدين المحضار الملقب بأبو الحسن.

واللافت للنظر أن معظم الجماعات الأصولية فى بريطانيا نظمت مظاهر عارمة فى برمنجهام تطالب بالإفراج عن أقرانهم المعتقلين على ذمة التحقيق أو المحاكمة فى اليمن، رغم اعترافهم الكامل بجرائمهم، وأنهم تدربوا على العمليات الإرهابية فى بريطانيا على أيدى ضباط سابقين فى الجيش البريطانى، وبعدها توجهوا إلى اليمن تحت ستار زيارة ذويهم وتعلم اللغة العربية، حيث كانوا على اتصال دائم بالشيخ أبو حمزة المصرى عبر الأقمار الصناعية، وتلقوا توجيهاته بارتكاب سلسلة من الحوادث الإرهابية والتعاون مع جماعة الجهاد اليمنى فى عملية اختطاف السياح الأجانب، وإلى حد صب المتظاهرين الأصوليين فى برمنجهام جام غضبهم على الحكومة البريطانية بدعوى تقاعسها عن بذل مساعيها للإفراج عن المعتقلين كونهم يحملون الجنسية البريطانية!

قنصل بريطانيا فى عدن ديفيد بيرس بعد لقائه بهم وإطلاعه على سير التحقيق معهم، نقل إلى السفير البريطانى فيك أندرسون ما يفيد حسن معاملتهم وتورطهم فى الإرهاب وانطلاقهم من أوكار فى بريطانيا إلى اليمن، وهو نص المكالمة الهاتفية الاحتجاجية التى أجراها الدكتور الإريانى مع وزير الخارجية البريطانى روبين كوك، بما يعنى أن اليمن وبريطانيا كليهما يعانى وطأة الاختلالات الأمنية، وأن ما جرى من إرهاب على أرض اليمن وفى مصر من قبل نخطئ كثيرا إذا استبعدنا أن يكون لغرض فى نفس يعقوب، وإلا لماذا تصر بريطانيا على فتح أبوابها لمختلف ألوان الطيف الأصولى والإرهابى، وتسمح لهذه الجماعات بنشر فكرها الظلامى من منابرها السياسية والإعلامية، ولماذا ظلت ترفض الاستجابة لإلحاح القاهرة حول تحجيم هذا النشاط وكبح جماح شروره!

١٧٩ ـ الضربة الصاروخية الأمريكية فى مأرب

حسنا كان اعتراف الحكومة اليمنية بأنها كانت على علم بالضربة الصاروخية التى شنتها طائرة بدون طيار تابعة للمخابرات الأمريكية فى مأرب، واستهدفت سيارة تحمل ستة من المشتبه فى علاقاتهم بتنظيم القاعدة، بينهم سليم الحارثى المعروف بـ «أبو على» الحارس الشخصى السابق لأسامة بن لادن، والعقل المدبر للهجوم

الذى أسفر عن الدمار الذى لحق بالمدمرة الأمريكية كول عام ٢٠٠٠ وراح ضحيته ١٦ من جنودها، إذ على ما تبدو الشواهد أن هذا الاعتراف الرسمى من جانب اليمن جاء متأخرا عن موعد إعلانه زهاء عشرة أيام، وهو ما يؤكد على أن الحكومة اليمنية فوجئت بالحادث ولم تعلم به إلا بعد اعتراف المخابرات الأمريكية بمسئوليتها عن تدبيره وارتكابه، وأنها خضعت للضغوط والإملاءات الأمريكية لتبرئة ساحة أمريكا من تهمة انتهاك سيادة اليمن، ومن ثم كان اعتراف الحكومة بأنها كانت على علم به وشاركت أيضا فى تنفيذه، وبصرف النظر عن حقيقة النوايا والبيانات ومصداقية التكهنات حول مواقف اليمن أو أمريكا، إلا أن الصحافة الأمريكية ومراكز الدراسات الاستراتيجية العالمية تكفلت بكشف المستور، وأكدت على أن الطائرة التى استخدمت فى الحادث طراز «بريدتور»، وسبق تجربتها بنجاح فى تعقب فلول طالبان والقاعدة فى أفغانستان، حيث خضعت بعدئذ لعمليات التطوير والتحديث، ثم تقرر أن تكون السلاح الأول فى مطاردة العناصر الإرهابية فى مخابئها داخل الجبال والأحراش النباتية، وقد تم توجيه الطائرة بواسطة المخابرات الأمريكية فى القرن الإفريقى التى اتخذت لنفسها مقرا عسكريا لها فى جيبوتى، تعاونها قاعدة على ظهر حاملة طائرات تجوب المحيط الهندى وتختص بعمليات الرصد والاتصالات والإنزال البحرى، وتشير المعلومات إلى أن الصاروخ الذى أطلق على السيارة المستهدفة من طراز «هليفاير» ويبلغ طوله متراً ونصف المتر، وهو شديد الانفجار إلى الحد الذى استحال معه التعرف على ضحايا الحادث بسهولة بعد أن تناثرت أشلاؤهم ذرات، وبينهم أحمد حجازى اليمنى المولد والأمريكى الجنسية، وتتهمه سلطات الأمن الفيدرالية بزعامة خلايا القاعدة النائمة فى نيويورك.

على أن أول بصيص من الحقيقة وسط التعتيم وتضارب المعلومات حول الحادث، كان عبر المرحوم يحيى المتوكل الأمين المساعد لحزب المؤتمر الحاكم فى اليمن، حين وجه انتقاداته اللاذعة للسفير الأمريكى فى صنعاء وهو أكبر خبير لدى أمريكا فى مقاومة الإرهاب، واتهمه المتوكل بجولاته المشبوهة فى ربوع اليمن، ولقاءاته بمشايخ القبائل فى «مقايل» تعاطى القات، فى إشارة مباشرة إلى تواجده فى مأرب قبل يومين من وقوع الحادث ورشوته مشايخ القبائل مقابل تتبع حركات

الإرهابيين الستة، وإبلاغ المخابرات الأمريكية عن وقت خروجهم بالسيارة إلى الصحراء، وهو ما مكن الطائرة بدون طيار من اصطيادهم واغتيالهم، ولم تمض أيام حتى استدعى الرئيس على عبد الله صالح إلى العاصمة الاقتصادية عدن معظم الوزراء وزعامات أحزاب المعارضة ومشايخ القبائل، وعلى مائدة إفطار رمضانية راح يشرح فى غضب وبالتفصيل أسرار مهمته فى أمريكا إثر أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وكيف نجح فى إثناء الرئيس بوش عن الخطة الأمريكية العسكرية المبيتة التى كانت تستهدف اليمن كأول محطة فى الحرب ضد الإرهاب، وشدد على ضرورة الوقاية من اتهام اليمن بالضلوع فى الإرهاب واستهدافها بالضربات العسكرية الأمريكية، ثم دعا الأصوليين المتطرفين إلى الاستفادة من مظلة الأمان، بالكف والتوبة عن ممارسة الإرهاب والعنف، ومثولهم أمام محاكم عادلة لتبرئة ساحتهم، وشن حملة ضارية تدين التفجيرات التى طالت السفارتين البريطانية والأمريكية والمدمرة كول وحاملة النفط الفرنسية «ليمبورج»، ونحسب أن الرئيس اليمنى كان واضحا وواقعيا إزاء اعترافه بافتقار اليمن إلى التوازن العسكرى والاقتصادى مع أمريكا، وهو الأمر الذى حدا ببلاده إلى الشراكة مع أمريكا فى تعقب الإرهاب والإرهابيين فى اليمن، ولعله من هنا وضع الجميع أمام مسئولياته الوطنية فى الحفاظ على أمن ووحدة وسيادة اليمن، فلا مجال إذن أمام أحزاب المعارضة لانتقاد ضعف الحكومة أو خضوعها للابتزاز الأمريكى، وأن الضمانة الوحيدة لدفع الضرر والهيمنة والتدخلات الأجنبية يكمن فى المكاشفة وتماسك الجبهة الداخلية وتطهيرها من مظاهر العنف والتعصب والإرهاب بديلا عن المزايدات والمماحكات السياسية!

١٨٠ ـ خريطة الإسلام السياسى

لم يعرف اليمن استفحال ظواهر الإسلام السياسى والإسلام الأصولى المتطرف، ولم يعان وطأة تبنيها لأساليب العنف أو التكفير، إلا بعد انتهاج الوحدة اليمنية للديمقراطية.

وتقول المصادر اليمنية المطلعة إن الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر لم يكن ليفكر فى إنشاء وزعامة حزب «تجميع الإصلاح» لو أنه لم يستبعد من قسمة المناصب العليا للدولة بين حزبى «المؤتمر الاشتراكى» بصفتهما شركاء قيام الوحدة، وحين أدرك أن اختياره مجرد عضو فى المجلس الاستشارى لا يمثل التقدير المناسب لوزنه الوطنى والقبلى عبر دفاعه وقبيلته «حاشد» عن الثورة والنظام الجمهورى وصراعها السابق مع الإمام أحمد حميد الدين والذى انتهى بإعدام والده وأخيه حميد واستبقائه رهينة فى سجن المحابشة لمدة ثلاث سنوات، من هنا لجأ الشيخ الأحمر إلى اختيار المنصب الذى يرضيه عبر زعامته لحزب الإصلاح، لكن على ما يبدو أن خبرته السياسية والتنظيمية المتواضعة من جهة، وانفراد التيار الإسلامى بشئون الحزب من جهة، كانت السبب المباشر فى انسحاب أهم الزعامات القبلية من الحزب وهو الشيخ عبد العزيز الشايف شيخ مشايخ قبيلة بكيل بدعوى أن ظنه لم يكن فى محله حين انضم إلى حزب الإصلاح باعتباره منقذ البلاد وإصلاح أحوالها التى أفسدتها الأحزاب فى الداخل والخارج خاصة على صعيد معالجة أزمة الخليج، ومن ثم أعلن آنذاك عن تفكيره فى زعامة حزب جديد فى إطار الصيغة القبلية الإسلامية على غرار حزب الإصلاح!

على أن الساحة السياسية فى اليمن وخيارها الديمقراطى ليست قاصرة على التيار الإسلامى الذى يتزعمه الشيخ عبد المجيد الزندانى فى حزب الإصلاح، فهناك العديد من التيارات الإسلامية المنافسة له بتوجهاتها ومذاهبها وانتماءاتها الخارجية فى مقدمتها:

السلفيون: بزعامة الشيخ مقبل بن هادى الوداعى، وقد دأب هذا التيار إلى تكفير حزب الإصلاح بدعوى اعتناقه لمبدأ الرأى والرأى الآخر عبر حواراته وتحالفاته مع العلمانيين تحت شعار الديمقراطية الليبرالية!

جماعة بن لادن: بزعامة أسامة بن لادن وهو شخصية لم تكن معروفة فى الحياة السياسية أو العامة وينتمى إلى منطقة حضرموت، وهى أقرب فى فكرها وأساليبها من جماعة التكفير والهجرة فى مصر، التى تتهم المجتمع بالجاهلية الثانية، وهى وراء العديد من الاغتيالات والتفجيرات التى استهدفت المصالح الأمريكية!

حزب الحق: وهو تنظيم شيعى مستقل بزعامة مجد الدين المؤيدى ويضم رموزا من غلاة المذهب الشيعى الزيدى والمعروفين بعدائهم للثورة اليمنية من أنصار خلافة أئمة بيت حميد الدين بينهم آل «الحوثى» الذين روعوا اليمن مؤخرا بالفتنة الكبرى المسلحة فى صعدة!

حركة التوحيد والعمل الإسلامى: ويتزعمه إبراهيم بن الوزير أحد رموز طبقة السادة والهاشميين المعروفة بولائها لعرش الإمامة السابق و. . غير ذلك من تيارات الإسلام السياسى والأصولى التى لا تزال فى دور النمو والعمل فى الخفاء!

١٨١ ـ تداعيات المذهب الشيعى والمذهب الوهابى

من الملاحظ أن التيارات والقوى الإسلامية فى اليمن على تنوع مفاهيمها ومذاهبها وولاءاتها تعرضت منذ الوحدة اليمنية إلى عملية جذب واستقطاب شديد تنافس على ممارسته كل من المذهب الشيعى فى إيران والمذهب الوهابى السائد فى الجزيرة العربية، عبر التمويل المالى والمساندة الإعلامية فى الخارج، ويبدو أن الاستقطاب الخارجى، إضافة إلى بروز قيادات ورموز كانت محسوبة فى الماضى على قوى الثورة المضادة. . من هنا ثارت الشبهات والشكوك حولها فى البداية واتهمت بعض هذه التيارات الإسلامية بارتكاب حوادث التفجيرات والاغتيالات السياسية، بدعوى إعادة عقارب الثورة والوحدة الديمقراطية إلى عهود الإمامة والطائفية، والعمل على إضعاف فاعلية وجماهيرية الحزب الاشتراكى عبر اتهامه بالماركسية والعمالة ضمنا. . خاصة أن مسلسل العنف والإرهاب استهدف عددا من قياداته فى بداية الوحدة بأكثر من استهدافه قيادات وكوادر حزب المؤتمر، إضافة إلى الظواهر الدينية المستهجنة التى وفدت على اليمن، عبر التخريب الذى طال مسجد العيدروس فى عدن وضريح الملكة أروى بنت أحمد فى جبلة بمحافظة آب!

ولاشك أن الاغتيالات التى طالت بعض قيادات الحزب الاشتراكى، كانت ضمن أسباب اعتكاف نائب الرئيس على سالم البيض فى المكلا وعدن، وحتى توصلت أجهزة الأمن إلى القبض على معظم المتهمين، ولكنها فضلت أن تظل الحقائق فى إطار ضيق من السرية بين القيادات العليا فى الحزبين الحاكمين إلى حين

إعلان التفاصيل كاملة على الجماهير، وذلك أن بعض المتهمين ينتمون إلى قبائل قوية أو لجأوا فى إطار الأعراف السائدة إلى قبائل أخرى طلبا للحماية، الأمر الذى كان يحتاج إلى الحكمة والتأنى فى إقناع القبائل بتسليم المتهمين إلى سلطات الأمن مع كفالة ضمانات التحقيق معهم، خشية تداعى الأعراف القبلية لمناصرتهم ظالمين أو مظلومين بقوة السلاح، الأمر الذى قد يؤدى إلى تفاقم الاضطراب الأمنى خاصة فى ظروف المرحلة الانتقالية العصيبة التى كان يجتازها اليمن آنذاك إلى حين إجراء الانتخابات التشريعية الأولى منذ قيام الوحدة اليمنية!

على أن التحقيق مع معظم المتهمين بحوادث تفجير العبوات الناسفة التى تحدث دويا هائلا دون أن يكون لها آثار مادية أو إنسانية، أسفر عن كونهم العاطلين الذين احترفوا الارتزاق مقابل عمولة مالية تدفعها جهات خارجية عن كل حادث فى إطار الخطة المشبوهة لزعزعة الأمن والاستقرار والتكفير بالوحدة اليمنية!

١٨٢ ـ وزير الداخلية آخر من يعلم

كان نائب وزير الداخلية قد أبلغ الدكتور ياسين نعمان القيادى البارز فى الحزب الاشتراكى بمعلومات حول احتمال تفجير منزله واغتياله دون أن يبلغ وزير الداخلية المختص إلا بعد وقوع الحادث!

على أن معظم الاغتيالات ومحاولات الاغتيال التى طالت عناصر الحزب الاشتراكى كانت تصفية لحساب وصراعات سياسية من قبل مجموعة المعارضين لنظام اليمن الجنوبى سابقًا، وكان قد سبق القبض عليهم وإعدام تسعة أشخاص من هذه المجموعة عام ١٩٨٢ بعد اعترافهم بعمالتهم للمخابرات الأمريكية، أما المتهمون بالثأر وتصفية الحسابات المذهبية بعد الوحدة اليمنية فقد ثبت أنهم من اليمنيين العائدين من أفغانستان!

فى الوقت نفسه كشفت النيابة العامة تفاصيل مخطط الاغتيالات الذى أعده تنظيم «كتائب التوحيد» وكان بين المستهدفين عبد القادر باجمال رئيس الوزراء، وعبد الله على عليوة وزير الدفاع، واللواء غالب الغمش رئيس جهاز المخابرات

العامة ورشاد العليمى وزير الداخلية والدكتور عبد الكريم الإريانى وزير الخارجية آنذاك والأمين العام للمؤتمر الشعبى الحاكم.

وبينما روعت اليمن باغتيال السياسى المحنك جار الله عمر القيادى البارز فى الحزب الاشتراكى، خلال مشاركته فى المؤتمر العام لحزب الإصلاح، وتبين أن القاتل واسمه أحمد جار الله خريج المعاهد العلمية ثم جامعة الإيمان التى يرأسها الشيخ عبد المجيد الأندانى، إذا بزميل له من الأصوليين المتطرفين وبالتنسيق مع قاتل جار الله يغتال ثلاثة من الأمريكيين الذين يعملون منذ سنوات فى مستشفى المعمدان بمنطقة «جبلة».

وكانت الحكومة اليمنية قد رصدت مبلغا ضخما من الريالات لمن يقبض على بدر الدين الحوثى، وهى سابقة الأولى من نوعها، ثم إذ بالرئيس على عبد الله صالح يطالب خطباء المساجد والدعاة بدعوة الشباب إلى تجنب الانزلاق فى إثارة الفتن والجرائم التى ارتكبتها تنظيمات «القاعدة» و«الجهاد» و«مجموعة صعدة»، محذرا من خطورة الترويج لكتب الجعفرية وعداء النظام للمذهب الزيدى، وهو ادعاء غير صحيح يستهدف إثارة التناقض الذى لم تعرفه اليمن من قبل بين المذهب الزيدى والمذهب الشافعى، والهدف يكمن فى محاولة تسييس الدين الإسلامى، وقال إن تفجير المدمرة كول فى عدن أسفر عن خسائر تربو على ٢٥٠ مليون دولار كانت تدفعها السفن الأجنبية مقابل مرورها وتموينها فى ميناء عدن، مشيرا إلى أن اليمن دفع مؤخرا لشركات التأمين خمسين مليون دولار، فيما حذر مصدر مسئول فى الحكومة لصحيفة خليجية من وجود ٥٠٠٠ منشأة دينية لا تخضع للرقابة وتخرج قنابل موقوتة من المتطرفين والإرهابيين الإسلاميين!

١٨٣ ـ تفجيرات الخبر وكول وليمبرج

لاشك أن تفجير عبوات الديناميت الملغومة عام ١٩٩٦ فى مجمع سكنى لعسكريين أمريكيين فى مدينة «الخبر» السعودية، وأسفر عن مقتل ١٩ وجرح ٣٧٢ أمريكيا، يشى بنفس دلالات حادث تفجير المدمرة الأمريكية كول فى خليج عدن عام ٢٠٠٠، وأودى بحياة ١٧ عسكريا أمريكيا وإصابة غيرهم، فكلاهما تعبير عن

استياء قوى عربية وإسلامية ترفض الوجود العسكرى الأمريكى المتزايد فى المنطقة منذ أزمتى الخليج الأولى والثانية، كما أن محاولة السلطات الأمريكية الانفراد بالتحقيق فى الحادثين أثار أزمة حادة مع السعودية واليمن، كون هذا الإجراء يمثل تجاوزا لسلطة السيادة الوطنية، وربما من هنا كان التأخير الملحوظ فى إعلان نتائج التحقيقات والتضارب فى توجيه الاتهامات والخلاف حول تحديد الجهات المسئولة عن تدبير الحادثين والعناصر التى قامت بعمليات التنفيذ!

والشاهد أن الحكومة السعودية رفضت أن تقطع برأى إزاء اتهام سلطات التحقيق الأمريكية لإيران بضلوعها فى الحادث، بل إنها عقدت اتفاقا أمنيا لمكافحة الإرهاب مع إيران بعد وقوع الحادث، لكن واشنطن ظلت على موقفها، حيث واصل فريق مكتب التحقيقات الفيدرالية مهمته بدعم كامل من الخارجية الأمريكية وتحت إشراف مباشر من السفير الأمريكى فى الرياض وقتئذ «ويش فولر» حيث وجهت تهمة التنفيذ إلى ثمانية مواطنين سعوديين ولبنانى، كما وجهت تهمة التآمر لخمسة آخرين من السعوديين وتردد عن انتمائهم تارة للشيعة فى منطقة الظهران، وتارة أخرى حول علاقتهم بحزب الله اللبنانى وبإيران وبن لادن.

ولأن شحنة المتفجرات التى استخدمت فى الحادث بلغت ٥٢٠٠ كيلو جرام بما يفوق الكمية التى استخدمت فى تدمير مبنى الحكومة الفيدرالية فى «أوكلاهوما سيتى» عام ١٩٩٥ وضعف حجم المتفجرات التى استخدمت فى تدمير مبنى المارينز فى بيروت عام ١٩٩٣، فلعله من هنا كان تأكيد لويس فريه مدير مكتب التحقيقات الفيدرالى أمام جمع من أسر الضحايا أن أمريكا لن تنسى ما حدث فى الخبر، وأن الحادث كان مأساة وعملا من أعمال الحرب ضد الولايات المتحدة!

لكن الحكومة السعودية أبدت استياءها الشديد لمفاجأتها بإعلان الاتهام فى حادث الخبر دون مشاورتها وقبيل خمسة أيام فقط على سقوطه بالتقادم، فهل كانت تخشى أن يطال الاتهام إيران وتتعرض بالتالى إلى الانتقام العسكرى الأمريكى، وانعكاساته الخطيرة على السعودية وعلى منطقة الخليج فى الوقت الذى تعانى وطأة الحصار الأمريكى للعراق.

أن تطلب أمريكا تسليمها للمتهمين ومحاكمتهم، فى الوقت الذى طردت ممثل

حكومة طالبان من أراضيها بعد رفضها تسليم بعض العناصر السعودية المتهمة فى تفجير الخبر، من هنا رجح المراقبون أن تتولى السعودية محاكمة المتهمين فى جلسة سرية ثم إعدامهم سريعا كحل للأزمة مع واشنطن، وقالت صحيفة عكاظ السعودية إن الرياض لن تسمح بالتدخل فى شئونها الداخلية، ثم حسم الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية الموقف حيث أعلن أن تسليم المتهمين لمحاكمتهم فى أمريكا خيار مستحيل.

وعلى الرغم من إشادة واشنطن بالتعاون الكامل بين أجهزة الأمن اليمنية وفرق المحققين الأمريكيين فى استجلاء غموض حادث تفجير المدمرة كول إلا أن صنعاء رفضت تجاوزهم خطوط السيادة الوطنية الحمراء ومن ثم قفلوا راجعين إلى أمريكا، لتبدأ حملة الاستفزازات الأمريكية لليمن عبر إغلاق القنصلية الأمريكية فى صنعاء وقتئذ، حيث بادرت التقارير الأمريكية الرسمية والأهلية إلى إدانة اليمن فجأة بانتهاك حقوق الإنسان والحريات الديمقراطية، وزاد من حدة الأزمة الدبلوماسية إلغاء اليمن مناورة بحرية مع الأسطول السابع الأمريكى فى البحر الأحمر، احتجاجا على تمادى أمريكا فى دعمها للتنكيل الإسرائيلى بالفلسطينيين، والأدهى والأمر أن يلتقى الرئيس على عبد الله صالح بنائب مساعد وزير الخارجية الأمريكى لشئون الأمن فان ديين بحضور السفيرة الأمريكية فى صنعاء بربارا بودين، ويعرض عليه شروطا مجحفة للسيادة اليمنية مقابل عودة المحققين الأمريكيين فى حادث المدمرة كول، من بينها حسب مصادر صحفية - منح أمريكا قواعد وتسهيلات عسكرية فى جزيرة سقطرة وميناء عدن، فى الوقت الذى كان الرئيس اليمنى يستعد لزيارة أمريكا!

ولم يكن ذلك صحيحا، بينما الصحيح أن أمريكا اتخذت لنفسها قاعدة عسكرية وبحرية وجوية فى جيبوتى بدعوى الحرب على الإرهاب فى الوقت الذى وقعت محاولة تفجير ناقلة البترول الفرنسية «ليمبرج» قبالة السواحل اليمنية، حيث قدم ١٦ من مرتكبى الحادث إلى المحاكمة برئاسة القاضى أحمد الجرموزى / بينما هتف المتهمون بحياة كل من أسامة بن لادن والحوثى وتجديد البيعة لهما، وهو ما يؤكد استهداف خيارات الشعب اليمنى فى الوحدة والديمقراطية والاستقرار والتنمية من قبل القوى الرجعية الظلامية من خارج اليمن ومن داخله!

المعروف أن أمريكا أعلنت عن تقديم ٦٠٠ مليون دولار لتمويل برنامج رفع كفاءة قوات الأمن فى مواجهة جماعات الإرهاب عبر شراء معدات وأجهزة اتصال وزوارق بحرية مسلحة لتأمين السواحل اليمنية التى تمتد ألفين ومائتى كيلو متر، لكن رئيس الوزراء عبد القادر باجمال صرح لصحيفة «ساهو شمبيون» اليابانية فى أكتوبر ١٩٦٣ بأن أمريكا تنصلت من دعواها بدعم اليمن فى هذه المجالات ولم تقدم سوى ١٣٪ مما وعدت به من الدعم، فيما عرضت اليمن على مؤتمر المانحين فى باريس عام ٢٠٠٢ حاجتها إلى ٧٥٠ مليون دولار لهذا الغرض، خاصة أن اليمن كانت أسبق من دول المنطقة فى التحالف الدولى ضد الإرهاب!

١٨٤ ـ من وراء فتنة الحوثى ؟

ماذا يراد لليمن على وجه اليقين ؟ فمنذ نهضت الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠ والمؤامرات تترى والفتن لا تنتهى، وهكذا وقعت أحداث المخطط الانفصالى عام ١٩٩٤ تجسيدا للتحالف المشبوه بين أقصى اليسار اليمنى والرجعية العربية بقضها وقضيضها السياسى والإعلامى واللوجيستى والنفطى، ونجح الشعب اليمنى كما لم يتوقع معظم المراقبين، فى الحيلولة دون رجوع عجلة التطور والديمقراطية إلى زمن التخلف والعزلة والتجزئة والاستبداد، وعلينا من هنا أن نتمهل فى الحكم على الداعية الإسلامى حسين بدر الدين الحوثى الذى احتل مساحة يومية واسعة من اهتمامات الإعلام والرأى العام داخل اليمن وخارجه على ما يزيد على شهرين، إثر تمرده على السلطة المركزية فى صنعاء وتكفير العباد والبلاد، وتنصيب نفسه وليا وخليفة للمسلمين سواء بدعوى انتماءاته الهاشمية لآل البيت، وسواء انتماءاته للشيعة الزيدية الاثنى عشر إثر لجوئه المفاجئ وأتباعه إلى الجبال الوعرة بمنطقة «صعدة»، واحتمائه بقبائلها المسلحة إعمالا للمقولة التقليدية «أنا فى وجهك» مما يفرض عليها حمايته ونصرته وشروعه فى مقاومته قوات الأمن والجيش، رغم سقوط مئات القتلى والجرحى من الجانبين، ورغم توالى الوسطاء، وبينهم شقيقه، لإثنائه عن التمرد وخوض غمار الحوار مع الحكومة والأحزاب حتى تتاح أمامه فرصة التعبير عن دعوته بكل حرية وأمان.

وإذا كان اليمن دون غيره من الدول العربية الذى يتيح تشكيل الأحزاب حتى على أساس دينى، كون الشعب مسلمًا برمته إضافة إلى بضع مئات يهودى يمنى فى شبه عزلة عن الحياة السياسية، فلماذا كان خيار الحوثى نشر دعوته فى الظلام وتجنيد الكوادر المناصرة له سرا، بينما كان بوسعه أن يتزعم حزبا سياسيا شرعيا فى إطار الصيغة الديمقراطية الراهنة، ثم إن عائلة الحوثى تنضوى سياسيا تحت مظلة «حزب الحق» الإسلامى، ألم يكن الأسلم بالتالى ممارسة نشاطه السياسى علانية من خلال هذا الحزب على غرار والده البرلمانى السابق وشقيقه عضو مجلس النواب؟

١٨٥ ـ وعود بالجنة والحور العين

الحوثى من مواليد عام ١٩٥٦ فى قرية آل الصيفى بمديرية حيدان التابعة لمحافظة صعدة، ويعتبر والده بدر الدين من أبرز المراجع الدينية للمذهب الزيدى، وقد خطب وبكى وأعلن معارضته لدعوة ابنه من فوق منبر أحد مساجد صعدة. . حتى اعتقله ابنه وتحفظ عليه، وهو قد تلقى تعليمه الأولى فى المعاهد العلمية التى كان يشرف عليها الشيخ الزندانى، ثم نال ليسانس الشريعة من جامعة صنعاء والماجيستير من الجامعة الإسلامية فى أم درمان بالسودان، ثم قام بتمزيق هذه الشهادات فى حضور عدد من أتباع المذهب الزيدى عام ١٩٩٢، معلنا تمرده السياسى والدينى الذى أعلنه من جبل مران، وقيل آنذاك إنه سبق وجرى إعداده بأيدى وفكر خارجى.

كان حسين الحوثى عضوا فى مجلس النواب عن حزب الحق عام ١٩٩٣، ثم استقال من البرلمان ومن حزب الحق ومنح نفسه حق الإمامة والولاية والمهدى المنتظر، وقيل إنه لقى الدعم السياسى من الحزب الاشتراكى ومن حزب المؤتمر الحاكم بدعوى مواجهة نفوذ جناح الإخوان المسلمين فى حزب تجمع الإصلاح، وقيل كذلك إنه تلقى من مصادر مجهولة ولسنوات العديد من شحنات السلاح والذخيرة التى استخدمها فى مواجهة قوات الجيش والأمن، حيث جند عشرات المئات من الشباب العاطل عن العمل وتدريبهم على استخدام السلاح عبر مرتبات مالية تراوحت بين ٥٠ إلى ١٠٠ دولار شهريا، إضافة إلى وعوده بالجنة والحور

العين التى تنتظرهم مقابل جهادهم المقدس ضد المجتمع اليمنى والنظام الحاكم الكافر!

المعروف أن الرئيس على عبد الله صالح أفرج عن الحوثى الأب بعد أن فقد ابنه، وسمح له بمباشرة نشاطه السياسى وحياته الطبيعية، لكنه وقبل أن يمضى عام على قمع الفتنة، عاد يكرر نفس الأخطاء، مجددا المقاومة ضد النظام والمجتمع تحت دعاوى مذهبية لا أساس لها فى الدين الإسلامى!

وكان الرئيس اليمنى فى خطابه أمام مجلس الشورى بمناسبة مرور ٢١ عامًا على توليه سدة السلطة، قد كشف الغطاء رسميا حول ما يتردد عن الحوثى من حقائق أو مغالطات، واتهمه بالعمالة لأجهزة مخابرات أجنبية لكنه لم يحددها، واكتفى بالتأكيد على أنها تسعى إلى إدخال اليمن فى حالة من عدم الاستقرار، محددا مساحة الصراع المسلح بين الدولة والحوثى بما لا يزيد على ثلاثة إلى أربعة كيلو مترات مربعة، ونفى أن تكون دعوة الحوثى تندرج تحت فكر معين أو مذهب دينى سواء زيدى أو شافعى أو هادوى، وإنما هى عمل استخباراتى أجنبى يستهدف قسمة الوحدة الوطنية وتعطيل التنمية والاستثمار!

ونحسب أن هذا الاتهام أقرب إلى الحقيقة فى ظل غياب الكثير من المعلومات حول أفكار الحوثى وأهدافه السياسية ومصادر تمويله بالمال والسلاح والذخيرة والمتفجرات، مما استدعى استخدام المدفعية والمدرعات والطائرات العسكرية إلى ساحة المواجهة فى صعدة وإلى حد سقوط ما يزيد على ٢٠٠٠ قتيل من الجانبين كما لو أنها حرب بين دولتين!

١٨٦ - شعارات حزب الله

لكن تظل الشبهات تحيط بهذا الداعية من كل جانب، فإذا كان يرفع شعار الموت لأمريكا وإسرائيل، فكم من الزعماء والمفكرين والأحزاب العربية والإسلامية التى ترفع هذا الشعار دون أن تملك الرؤية السياسية والآلية الإعلامية أو الإمكانات العسكرية القادرة على هزيمة أمريكا وإسرائيل، بل إن دعوة الحوثى من حيث

التوقيت وانتهاج العنف، إنما تؤدى أكبر خدمة لأمريكا وإسرائيل عبر وصم الحركات الإسلامية بالإرهاب، بينما تطل علينا عمليات ذبح المختطفين الأجانب فى العراق عبر شاشة التليفزيون باسم الإسلام، أما أن يتشبه الحوثى بالشيخ حسن نصر الله وحزب الله فى الزى والعلم أو الحوزات الدينية، فالمقصود على ما يبدو - ضمنيا - اتهام حزب الله أو إيران بدعمه وتمويله، مما لا يخدم سوى أمريكا وإسرائيل، فأى مصلحة للشيخ حسن نصر الله أو إيران وراء هذه الفتنة، كما أن السعودية بريئة كذلك من فتنة الحوثى ويكفيها الصراع مع الشيعة فى أراضيها، ثم إنه إلى جانب اكتوائها بالإرهاب الذى يمارسه تنظيم القاعدة، فالعلاقات السياسية والأمنية بين الرياض وصنعاء سمن على عسل، خاصة وقد سلمت السعودية اليمن بموجب اتفاقية ترسيم الحدود المشتركة نحو ١٥ مركزا حدوديا فى المرحلة الأولى من تنفيذ اتفاقية ترسيم الحدود المشتركة، ثم إن قيادات الحزب الاشتراكى المسئولة عن المؤامرة الانفصالية عادت إلى اليمن بموجب العفو الرئاسى، أما حزب الإصلاح بزعامة الشيخ عبد الله الأحمر، فهو قد اتهم الحكومة فحسب باستخدام القوة المفرطة فى مواجهة الحوثى من قبيل المماحكات السياسية، وهو قد تراجع عن موقفه عندما نجحت السلطة المركزية فى إجهاض الفتنة ودرء شرورها الوبيلة التى جرى الإعداد لها منذ زمن بعيد، من وراء ظهر الدولة!

ولعله من الواجب والإنصاف التأكيد على أن الشيخ عبد الله الأحمر كان يرى منذ البداية أن الحوثى وجماعته ليسوا أكثر من شرذمة لا تمت بصلة إلى المذهب الزيدى كما يزعمون، فالمذهب الزيدى مذهب معتدل من أبرز سماته التسامح والتعايش مع المذاهب والأفكار الإسلامية الأخرى، وهو موجود فى اليمن منذ نحو ١٢٠٠ عام، ولكن هذه المجموعة التى فجرت الفتنة خارجة عن الزيدية، وهم من غلاة الشيعة المتعصبة، القائمة على المفاهيم العنصرية والطائفية، فاليمنيون يتعايشون مذهبيا فى تسامح وتآخ على مدى التاريخ الإسلامى فى اليمن، ولم تحدث مثل هذه الفتنة بهذا الأسلوب الدموى، الذى هو بعيد تماما عن سماحة الإسلام ورحمته بين الناس وبالأولى بين المسلمين وأبناء الوطن، لكن وفى كل الأحوال يظل السيف أو الحسم أصدق وأسلم من ترك الحبل على غاربه، فى الوقت الذى تتربص باليمن مخاطر الدعوات الانفصالية، فى ضوء شروع بعض المعارضين

اليمنيين فى لندن إلى تأسيس تنظيم سياسى برئاسة عبد الله أحمد مستشار الدفاع فى عدن قبيل عام ١٩٩٠ وكذا عبد الله الأصبح وزير خارجية اليمن الأسبق وتحركاته المشبوهة، ويستهدف التنظيم قيام دولة مستقلة فى جنوب اليمن . . على أنقاض الوحدة اليمنية بالطبع!

وأعتقد وقد أتيحت لى زيارة اليمن عشرات المرات، والتردد على منطقة صعدة التى شهدت الصدام المروع بين الحوثى والشرطة والجيش، وعلاقاتى المتصلة بزعامات قبائلها المستنيرين الذين أعلنوا ولاءهم للثورة ونظامها الجمهورى منذ البداية من أمثال فايق حمود مجلى وفيصل الصيربى، أن اليمن بات فى مسيس الحاجة إلى ثورة ثقافية فاعلة تحفظ عليه تراثه ووحدته ومكتسباته، ثورة خلاقة ومبتكرة وقادرة على إنقاذ اليمن من ركام الخلافات وألوان القعود وإلى حد لجوء الحوثى وأتباعه إلى الجبال الوعرة والكهوف الحصينة واتخذوا منها معاقل وثكنات الدعوة الظلامية بعد مضى زهاء ٤٠ عاما على الثورة، وكذا نشاطات البلطجية الذين دأبوا على خطف الأجانب وارتكاب جرائم الإرهاب فى مقابل المعلوم!

١٨٧ - يهود صعدة وريدة وخارف

ذكرنى اتهام يهود اليمن عام ٢٠٠٥ بمساندة المتمرد الأصولى بدر الدين الحوثى، بالاتهام المرسل دون دليل الذى طال اليهود المصريين بالعمالة للحركة الصهيونية أواخر أربعينيات القرن العشرين.

كان لى صديق مصرى يهودى وزميلى فى مدرسة العقادين الابتدائية، وأذكر أنه روى لنا يوما أن والده يوسف سموحة الذى كان يملك محلا للصرافة بشارع «القبوة» فى حى مصر القديمة تلقى خطابا مجهولا بتوقيع «عصابة اليد السوداء» تهدده فيه بمغادرة مصر سريعا وإلا كان مصيره وأسرته الاغتيال!

عندئذ كان المطلوب من يوسف سموحة أن يطمئن أفراد أسرته المذعورة و . . قال لهم إن عصابة اليد السوداء تتبع الحركة الصهيونية . . وإن تهديدها يستهدف وقوعنا بالتالى فى شراك الجمعيات السرية المتخصصة فى تهريب اليهود إلى فلسطين لدعم قيام دولة إسرائيل!

وبينما نجحت تهديدات عصابة اليد السوداء بالفعل فى نزوح الآلاف من اليهود المصريين للخارج . . إلا أن يوسف سموحة ظل يمارس مهنة الصرافة، وأولاده يواصلون الدراسة فى المدارس الحكومية، ويخرجون معنا فى المظاهرات التى تطالب بجلاء الإنجليز عن مصر ووحدة وادى النيل!

على أنه لم يمض سوى عام واحد، حتى ذكر لنا أحد أولاد يوسف سموحة وأظنه «باروخ» أن أسرته لم تعد تسلم من الوشايات المجهولة المغرضة لدى جهات الأمن، بدعوى أنها تتآمر على مصر ولديها أسلحة ومتفجرات ومنشورات سرية، وهكذا توالت عمليات تفتيش البوليس لمنزلهم إلى حد تمزيق مراتب النوم وأثاث الصالون بحثا عن الأسلحة والمنشورات، بالتزامن مع استجواب يوسف سموحة وأولاده تباعًا و . .

هكذا اختفت عائلة يوسف سموحة فجأة بعد أن باع محل الصرافة، وخرج وأسرته كما غيرها من مصر إلى إسرائيل، بسبب الأخطاء التى وقعت فيها الجهات الأمنية فى حق اليهود، فى الوقت الذى جرى اكتشاف دور الحركة الصهيونية وراء فضيحة «لافون» الشهيرة!

من هنا تخشى أن يضطر القلة القليلة الباقية من يهود اليمن إلى الهجرة لإسرائيل مكرهين فى أعقاب الاتهام غير المسئول بضلوعهم فى فتنة الحوثى، رغم أن يهود صعدة ـ مهد فتنة الحوثى ـ أسرة واحدة لا يزيد عدد أفرادهم على ٣٠ يمنيًا!

وكان الدكتور عبد الكريم الإيريانى عندما كان وزيرا للخارجية اليمنية، قد أكد فى أغسطس عام ١٩٩٢ أن اليمن لا تحجب جوازات السفر عن اليمنيين وبينهم اليهود، حتى لو كانت نيتهم السفر إلى إسرائيل، ولكن ليس بطريقة مباشرة! فكان لجوؤهم إلى القنصليات الأمريكية أو غيرها للحصول على تأشيرة دخول إسرائيل . . ومع ذلك ظلت هذه القلة من اليهود متمسكة بالبقاء فى اليمن ولم تفكر فى الهجرة إلى إسرائيل!

والحقيقة أن تصريح الدكتور الإيريانى كان موصولا بالزيارات الدورية السابقة التى قام بها مسئولون أمريكيون من أصل يهودى إلى اليمن، ونجحت فى تسهيل إجراءات هجرة يهود اليمن إلى الخارج ومنها إلى إسرائيل .

والمعروف أن هؤلاء المسئولين الأمريكيين ينتمون إلى منظمات يهودية تعنى بالتحقق أولا من صحة اعتناق يهود اليمن للدين اليهودى أبا عن جد الجدود قبل ترحيلهم إلى إسرائيل، وبعض هذه المنظمات شاغلها البحث عن عشر قبائل يهودية مفقودة فى اليمن فى إطار خطة التهجير المنتظمة لليهود سواء من اليمن وغيرها من بلدان العالم، وجمع الأموال اللازمة لعملية الهجرة عبر الادعاء بجمع التبرعات اللازمة لتمويل أنشطة الكليات «التلمودية».

والقصة قديمة ويعود تاريخها إلى ما بين عامى ١٧٢٠ إلى ١٨٠٩ ميلاديا، حين قام يعقوب سافير وهو حاخام يهودى ومعه المبشر اليهودى هارون ستيرون بزيارات متعاقبة لليمن، وبعدها كان دور الملياردير اليهودى المعروف روتشيلد الذى تعهد بكلفة تمويل عمليات تهجير اليهود اليمنيين، لكن الإمام يحيى بن حميد الدين فى عام ١٩٢١ أمر بمصادرة ممتلكات كل يهودى يغادر البلد، ثم كان تسربهم سرا إلى عدن فى عهد الإمام أحمد الذى أباح الهجرة لمن يشاء من اليهود!

فى عامى ١٩٤٨و ١٩٤٩ وبمساعدة الإنجليز جرى ترحيل أول دفعة قوامها ٥٠٠٠٠ من يهود اليمن إلى فلسطين، فى إطار الخطة الصهيونية المعروفة بـ «بساط الريح» عبر القاعدة الجوية البريطانية فى حى الشيخ عثمان بعدن، وكان قوام الترحيل إلى مطار اللد الإسرائيلى بمعدل ٥٠٠ يهودى يمنى يوميا!

وقد أتيحت لى زيارة مواقع فى اليمن يسكنها اليهود عام ١٩٩٨ بمنطقة صعدة فى ريدة التابعة لمحافظة عمران بدعوة من الشيخ مجاهد أبو شوارب أحد زعامات قبيلة حاشد، وأذكر أننى التقيت خلالها بأهم شخصية يهودية فى ريدة، ورغم أن البعض حذرنى من الفشل مسبقا فى إجراء حديث معه لأن بعض الصحفيين غير اليمنيين شوهوا كلامه، إلا أننى لم أعدم وسيلة حتى وصلت إليه عبر ابنه حايم وتحدثت معه، وهو العليوم «يعيش بن يحيى» الحجة فى الديانة اليهودية والحافظ لتراثها وطقوسها مما يؤهله لمرتبة الحاخام، فهو صاحب الكلمة المسموعة وسط يهود ريدة، فلا يحل الزواج ولا ختان للأطفال إلا بحضوره ومباركته، كما لا يحل طعام حيوان أو طير إلا قبل ذبحها بمعرفته، ليس عن طريقة فصل الرأس عن الجسم عبر تمرير السكين على الرقبة وفقا للشريعة الإسلامية، وإنما عبر تمريرها حتى منتصف الحلقوم وفقا للشريعة اليهودية.

وعندما سمح لنا بدخول بيته الذى تقف بعض السيارات أمامه كان العشرات من المرضى اليمنيين . . يهودا ومسلمين . . بانتظار أن يأتى عليهم الدور حتى يستكشف طبيعة ما يعانونه من الأمراض . . وأحيانا يعالجهم فورا أو يكتب لهم العلاج فى بيوتهم ، بل إن شهرة العليوم فى علاج الأمراض المستعصية جلبت إليه المرضى من السعودية والخليج .

على أن العليوم يعيش بن يحيى الذى ناهز من العمر السبعين عاما عندما قدّمت له نفسى . . هاج وماج لأن صحفيًا مصريًا سبق والتقاه وتحدث معه ، ثم إذا به يشوه أقواله . . وظل هكذا يرفض الحديث معى حتى عاد إلى هدوئه .

وقال ربما لأن هذا الصحفى مسكين لم يفهم اللهجة اليمنية ، وعندئذ أدركت استعداده للحديث معى . . وقلت له إن أصدقائى اليمنيين من الحاضرين سوف يوضحون لى ما قد يغمض علىّ من حديثك . . يعنى أن المسئولية تضامنية فاطمأن . . وضحك!

سألته عما يشاع عن فهمه للقرآن الكريم وحفظه لبعض سوره؟

انتبه جيدا وطلب أن أعيد عليه السؤال . . ثم قال : الأديان السماوية تتعاقب وهى تكمل بعضها البعض . . لأنها جميعا تدعو إلى الإيمان بمعبود واحد هو الله . . وتحض على الفضيلة والعمل الصالح ، وأنا معرفتى بالقرآن عبر السماع ، لأنى لا أجيد الحديث والكتابة بالعربية!

كيف تعالج مرضاك ولم تتعلم الطب؟

أعتمد على كتب العلاج الموروثة ومنها تذكرة داود ، وكذا الخبرة التى سبقنى إليها الآباء والأجداد فى العلاج الشعبى عبر الأعشاب وأنواع العطارة ، والأهم من ذلك بث إرادة الشفاء فى نفس المريض!

هل تلجأ إلى السحر أحيانا؟

بقدر ما يساعدنى فقط على فك السحر كأن تكون الزوجة عملت مربوطًا لزوجها . . لكن ليس عن طريق الجن كما يدعون .

أين تعلمت العبرية؟

عبر اليهود الذين رحلوا عن اليمن . . كان بينهم العلماء والمدرسون .

وأولادك ؟

ابنى يحيى درس العبرية على من هو أقدر منى على تدريسها، وهو قد تلقى العلم فى المدارس الحكومية ١٦ عاما مثل غيره من بعض الأطفال والأولاد اليهود. . ونحن نطالب الحكومة بأن تخصص مدارس أو برامج دراسية لأبناء اليهود حتى يتعلموا العبرية ومبادئ الدين اليهودى!

لماذا لا يترشح اليهود فى الانتخابات اليمنية؟

لو أنهم لم يرحلوا عن اليمن لكان ذلك متاحا.

ما هو رأيك فى الثورة اليمنية ؟

كانت خيرا على اليمن. . عرفنا الدنيا وعرفنا التقدم اللى وصل إليه غيرنا، ونجينا من دفع الجزية للإمام!

والديموقراطية؟

خير وبركة. . اليمنيون الآن يحلون مشاكلهم بالتفاهم بدلا من الاحتكام للسلاح!

هل لديكم مشاكل مع الحكومة ؟

نعيش فى أمان و«مابيناش» مشاكل قط. . نحن نمارس شعائرنا الدينية بحرية، ولدينا كنيس للعبادة اليهودية، كما أننا دائما نزور ونتبرك بالحاخام الأكبر «الشيزى» المدفون فى تعز، ولا أحد يضايقنا ولا نتعرض للضغوط! لكن أنا عندى مشاكل مع غير الحكومة. . والشيخ مجاهد أبو شواب يأخذ على عاتقه حل مشاكل يهود ريدة وكلهم فى كنفه وموضع رعايته كما أننا وأبناء قبيلته يجمعنا حب اليمن والدين لا يفرقنا، ونحن مرتاحون لأن القبائل فى محافظة عمران التى نسكنها تدعونا إلى أفراحهم ونعزى فى موتاهم. . وهم كذلك يشاركون فى أفراحنا وأحزاننا!

ما هو سر تربية رجال اليهود شعورهم جدائل؟

شعيرة دينية كما أنها من التقاليد الموروثة طوعا. . و«الزنانير» تميز اليهود عن غيرهم.

لماذا لم تهاجر إلى إسرائيل مثل غيرك من آلاف اليهود اليمنيين؟

أنا ولدت فى اليــمن يمنيــا . . وســوف أمــوت وأدفن فى اليــمن مــثل أبى وجدودى . . والذين هاجروا من اليهود إلى إسرائيل يبعثون لنا برسائلهم محذرين من اللحاق بهم لأنهم يعاملون من قبل اليهود المهاجرين من أوربا كما لو أنهم درجة ثالثة من الآدميين!

كان العليوم يعيش بن يحيى قد انفتحت شهيته للحديث دون محاذير . . حتى سألته عن رأيه فى إسرائيل ، وقال ما معناه إن فلسطين أرض طيبة وفيها الكثير من عائلتى ومن يهود اليمن . . لكن إسرائيل تحكمها الصهيونية وهم متشددون ومتعصبون ، بينما فلسطين تسع الجميع يهودا ومسلمين .

قلت له : الموسيقى والغناء اليمنى انتقل مع اليهود إلى إسرائيل . . هل ذلك صحيح؟

قال : هذا صحيح . . وأشهر المطربين فى إسرائيل يهود من أصول يمنية ، وبينهم المطربة عفرة هزاع وشقيقها والمطربة نوال وكلهم يغنون للحب والسلام والوئام فى كل أنحاء العالم . . والصهيونية لا يعجبها ذلك . . وهى تسعى إلى إخفاء وتلاشى الغناء والموسيقى والعادات والتقاليد التى رحلت من اليمن مع رحيل اليهود إلى إسرائيل . . ولذلك يتواصلون مع بعضهم البعض حتى لا تندثر شخصيتهم وتراثهم .

ملحوظة : كانت المطربة نوال اليمنية الأصل الإسرائيلية الجنسية قد غنت للسلام فى المهرجان العالمى الخامس للموسيقى الذى أقيم عام ٢٠٠٥ فى المركز الثقافى لباب مكينة بمدينة فاس وحضره جمهور غفير ، بينما كان أولى بها أن تغنى للسلام فى إسرائيل التى تحاول فرض الاستسلام على العرب بالسلاح والترويع والموت والدمار!

والشاهد أن عدد اليهود فى مختلف ربوع اليمن لا يتعدى الآن ٤٠٠ يمنى ، معظمهم يسكنون ريدة وخارف وعائلة واحدة فى صعدة . . فكيف نصدق إذن ما يشاع عن دعم اليهود للتمرد الأصولى الذى تزعمه بدر الدين الحوثى ، ومعظمهم لا يحمل سلاحا ناريا ، وليس بينهم عسكرى فى الجيش أو البوليس ولا حتى موظف حكومى واحد ، ولا يحترفون سوى التجارة والحدادة والنجارة وصناعة الفضة وحلى النساء ورتق الأحذية!

ثم إن الحوثى يدعو إلى العداء لأمريكا والجهاد ضد الاحتلال الإسرائيلى، فكيف نصدق إذن أن اليهود فى صعدة يقفون إلى جانبه ودعمه فى مواجهة سلطة الدولة.. بل إلى حد اتهامهم بتخريب مشاريع المياه بدعوى أن بعضهم زار إسرائيل، ومن هنا نحسب أن هذه الاتهامات التى لم تثبت التحقيقات صحتها، إنما مجرد إثارة صحفية ومحاولة من بعض المسئولين البحث عن شماعة لأخطائهم.. والله أعلم!

المدهش أن بعض يهود اليمن يرسلون أولادهم للتعليم والعمل بالخارج، بينما يتشبثون هم باليمن ويفضلون الحياة فى ربوعها، وقد أسمعنا فى ريدة وخارف من يؤكد هذه الظاهرة، وبينهم حيم بن العليوم يعيش بن يحيى، فله ثلاث بنات فى أمريكا وبعضهن متزوجات، وما زلن يتحدثن العربية والعبرية إلى جانب الإنجليزية، كذلك عمران بن يحيى النجار الذى لا يفارقه الحزن لأن أولاده سافروا واستقروا بالخارج منذ ٢٥ عاما، وهو قد سافر إليهم ولم يعجبه الحال وعاد أدراجه وحيدا إلى اليمن، وقد عرفت أن من بين أسباب الهجرة إلى الخارج ارتفاع كلفة الزواج الباهظة فى اليمن، وأن كثيراً من الفتيات اليهوديات وعائلات يهودية اعتنقن الإسلام وتزوجن مسلمين!

إلى ذلك فلا تزال إسرائيل تمارس ضغوطها على اليمنيين الذين هاجروا إلى أمريكا حتى يرحلوا إليها، فى الوقت الذى كشفت صحيفة «المنار» الفلسطينية عن أن وفد الوكالة اليهودية كلف عدداً من الجمعيات اليهودية الأمريكية بالتوجه إلى اليمن للالتقاء بالطائفة اليهودية وإقناعهم بالهجرة إلى إسرائيل!

من جهته حمل الشيخ عبد الله الأحمر رئيس مجلس الشعب بشدة على تحركات توماس جرايكى السفير الأمريكى فى صنعاء. بسبب تجواله المريب فى ربوع اليمن ولقاءاته مع المشايخ والأعيان والأحزاب ومنظمات المجتمع المدنى والطائفة اليهودية واعتبره تدخلا فى الشأن اليمنى ومساساً بالسيادة الوطنية، فيما بادر مصطفى نعمان وكيل وزارة الخارجية اليمنية للشئون الأمريكية إلى صدور قراره بمنع دخول اليمن بجوازات سفر إسرائيلية أو السماح لإسرائيليين بزيارتها حتى لو كانوا يحملون جوازات سفر أمريكية!

١٨٨ ـ من الزينة والفخر إلى الإرهاب والموت

لاشك أن ظاهرة انتشار وحمل واستخدام السلاح فى اليمن، باتت اليوم على خلاف ما كانت فى الماضى مظهرا للرجولة والزينة أو الفخر، بعدما أصبحت هاجسا خطيرا يهدد الاستقرار والتنمية والسياحة وعاملا ذاتيا يسىء إلى سمعة اليمن ويشوه ما يزخر به من فضائل وجماليات!

وإذا كان تعداد اليمن يربو ما بين ١٨ و ١٩ مليون مواطن، تجمع المصادر والإحصائيات الرسمية على أن حجم التداول والمكتنز من السلاح ثلاثة أضعاف عدد السكان، ولا تقتصر نوعياته على البنادق القديمة الموروثة، بل ومختلف أنواع السلاح الحديث . . من الكلاشينكوف والبنادق الأمريكية «اف ـ ام ـ جى» وحتى «الأربيجى» المضاد للدروع والمدافع والهاون والمورتر، وكذا القنابل اليدوية والألغام الأرضية، ومن المضحك والمبكى معا أن يقود يمنى دبابة إلى بيته ويدعى أنها من حقه كغنيمة إبان مشاركته فى الحرب ضد المؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤!

حتى فى ظل حكم أئمة بيت حميد الدين كانت «الجنبية» وحدها أى «الخنجر» اليمنى التقليدى المظهر الوحيد المسموح به رمزا للرجولة والزينة والدفاع عن النفس، بينما كان السلاح النارى وقفا على القبائل الموالية لبيت حميد الدين بكميات ضئيلة ونوعيات متخلفة، وكانت أداة القتال فى حرب «الخطاط» التى يؤججها الإمام ضد القبائل المتمردة أو المشكوك فى ولائها وفقا للمعادلة المعروفة «فرق تسد»!

فلما اندلعت ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢، وبدأ الدعم من وراء الحدود للقبائل الموالية للإمام البدر بالسلاح والذهب، كان لا مفر من توسع دائرة حيازة السلاح لتشمل القبائل الموالية للجمهورية، خاصة وكان الجيش النظامى ضعيفا قليل العدد، ثم كان من رابع المستحيلات أن تتحمل القوات المصرية عبء الدفاع وحدها على اتساع رقعة اليمن (٢٠٠,٠٠٠) كيلو متر مربع تتخللها سلاسل الجبال العاتية.

ثم لأن حدود اليمن البرية والبحرية ظلت مفتوحة، ولأن القبائل الملكية عادت إلى اليمن بأسلحتها بعد المصالحة الوطنية فى السبعينيات، ولأن القوات الموالية لرئيس اليمن الديمقراطى على ناصر محمد نزحت إلى الشمال بسلاحها فى أعقاب أحداث ١٣ أكتوبر ١٩٨٦ فى عدن، ولأن تهريب السلاح إلى اليمن تسارعت وتيرته عندما احتدمت الحرب القبلية فى الصومال وبأسعار كانت فى متناول المواطن البسيط، ولأن الكم الهائل من السلاح تسرب من قاعدة «العند» فى عدن إبان الحرب ضد الانفصال عام ١٩٩٤ وأثرى من ورائه أسماء معروفة للجميع.

لكل هذه العوامل راجت تجارة السلاح، بل ورأيته بأم عينى وهو يباع فى أسواق مفتوحة كما فى سوق «الطلح» بمحافظة صعدة، المتاخمة للسعودية، وكذا الحال فى مأرب وخولان وخمر، والأدهى والأمر أن تجد بائعًا جائلاً ينوء بحملة من الأسلحة فى شوارع العواصم اليمنية. كأنه الفاكهة والخضراوات، حتى صدر قانون تنظيم حمل السلاح عام ١٩٩٢ الذى أباح حيازة البنادق الآلية وبنادق الصيد والمسدسات وقدر من الذخيرة للاستخدام الشخصى، مع حظر الدخول بالسلاح أو حمله فى صنعاء وبقية عواصم المحافظات إلا بترخيص من الأجهزة المختصة، ولا يجوز منح الترخيص لمن هم دون الثامنة عشرة، أو سبق ضلوعهم فى جريمة جسيمة أو كان مختلا عقليا، كذلك ينظم القانون الاتجار بالسلاح والذخيرة، وتوقيع عقوبة السجن ودفع غرامة لا تتجاوز عشرة آلاف ريال على المخالفين.

ورغم أن القانون أحاط بمشكلة حمل واستخدام والتجارة فى السلاح، إلا أن المشكلة بعد ذلك ظلت تكمن فى تطبيق القانون، فمن النادر على سبيل المثال - أن يخاطر رجل الشرطة بمفرده على انتزاع السلاح من مواطن، ولذلك تلجأ الجهات الأمنية بين الحين والآخر وبشكل موسمى لتنظيم حملة تفتيشية لهذا الغرض، بينما تتحاشى إلقاء نفسها فى التهلكة لفض النزاعات المسلحة بين القبائل، وتؤكد البيانات الرسمية أن ضحايا قوات الأمن فى تقرير صادر عام ٢٠٠٠ نحو ٥٢٠ قتيلاً، ولذلك تواضع دورها من فض الاشتباكات المسلحة بين القبائل واكتفت بمجرد الوساطة بين المتنازعين فحسب!

١٨٩ ـ المرافقون المسلحون

ويؤكد التقرير الأمنى الصادر عن وزراء الداخلية اليمنية عام ١٩٩٩ حول أسباب ودوافع استخدام السلاح النارى، عدم وجود رابطة عضوية بين السلاح النارى والجريمة، وأن معظم ضحاياه عبر حوادث الثأر، واستخدامه عشوائيا فى الأعراس والحفلات، وكذا الحال فى عمليات الاغتيال السياسى أو اختطاف الأجانب عبر الاشتباك المسلح مع قوات الأمن، حتى أصبحت تلك الظاهرة تجارة رائجة وابتزازاً للدولة، إضافة إلى الممارسات الإرهابية لجماعات التطرف الأصولى!

وإذا كان معظم الاتهامات حول سوء استخدام السلاح تقع مسئوليتها على القبائل والجهلة وأنصاف المتعلمين، فكيف الحال بالمتعلمين والصفوة السياسية، الذين طالهم الاتهام بظاهرة المرافقين المسلحين، حيث لكل نائب فى مجلس النواب أربعة منهم فى المتوسط، يتبعونه كظله أينما ذهب فى سيارة خاصة وهم مدججون بالبنادق الآلية، بما يقارب مجموعهم قوة لواء مشاة، هذا فى حالة إذا ما وضعنا فى الحسبان أن نصف النواب لا يتبعهم مرافقون.

وأحصى تحقيق صحفى يمنى تعداد سلاح المرافقين من البنادق الآلية ١١٢٠، وتبلغ ذخيرتها بنحو ١٠٠٨٠٠ طلقة رصاص، و١١١٤٠ مسدسًا، و٣٣٦٠ قنبلة يدوية، ويصل عدد سيارات النواب ومرافقيهم ٤٥١ سيارة معظمها ذات الدفع الرباعى، حيث تستهلك السيارة فى اليوم الواحد ٤٠ لتر بنزين، ثم يأتى السؤال بعد ذلك عن أجور المرافقين وكلفة الحراسة الباهظة التى تشير إلى ثراء النواب المشروع وغير المشروع!

ولشد ما أدهشنى أن الصديق المسالم عبد الرحمن النعمان ابن الزعيم التاريخى أحمد النعمان، ما إن تزعم حزبًا سياسيًا، إلا وكان يتبعه جمع من المرافقين المسلحين يتكفل بإعاشتهم وأجورهم وحتى توفير مزاجهم اليومى من القات!

نفس المشهد رأيته حين دخل الدكتور عبد الرحمن البيضانى صنعاء بعد الوحدة

اليمنية، حيث أضاف أولا إلى اسمه كلمة «المرادى» تأكيدا على نسبه إلى قبيلة «مراد»، ولأنه اكترى ثانية مجموعة من المرافقين المسلحين!

العجيب حقا أن عسكريين تابعين لوحدات القوات المسلحة جرى تفرغهم رسميا لمرافقة بعض أعضاء مجلس النواب مع صرف رواتبهم ومكافآتهم الإضافية من خزانة الدولة، والأكثر عجبا أن يحاول بعض النواب استدعاء مرافقيه إلى قاعة المجلس أو ممارسة إرهاب الوزراء خارج المجلس على نحو ما جرى لرئيس الوزراء عبد القادر باجمال عندما طرح خطة حكومته الاقتصادية التى استدعت رفع أسعار بعض السلع الضرورية كالمحروقات!

١٩٠ ـ مقال عبد البارى طاهر

وإذا كان للسلاح ضروراته فى الماضى لحراسة الماشية والزراعات والقوافل التجارية وقتل الوحوش الضارية، إضافة إلى التفاخر والهيبة والزينة، إلا أن هذه الظاهرة لم تختف بل وتفاقمت مع ارتفاع مستويات التقدم والتحديث والتعليم والثقافة التى أحرزها اليمن تباعا منذ اندلاع الثورة ثم نهوض الوحدة اليمنية، الأمر الذى يشى بالعجز عن مواجهة الظاهرة خاصة مع ولوج العالم من حول اليمن إلى القرن الواحد والعشرين!

ومن المؤسف حقا أن تنتقل ظاهرة حمل السلاح إلى المدارس والجامعات، ومع صغر السن والافتقار إلى القدوة أو النصح الثقافى والروحى، كثيرا ما يحتكم التلاميذ والطلبة إلى السلاح لفض ما بينهم من خلاف وسوء تفاهم، فيما تجمع المصادر الطبية فى المستشفيات اليمنية، أن معظم المصابين نتيجة إطلاق الرصاص عشوائيا أو بسبب الخلافات أو حوادث الثأر وأن معظم الضحايا من رجال الأمن وفى معظم الأحوال يصعب إنقاذهم من الموت المحتوم!

على أننى حين استطلعت رأى الشيخ عبد الله الأحمر شيخ مشايخ قبيلة حاشد ورئيس مجلس النواب حول ظاهرة حمل السلاح، قال لى إن هذا الكم الهائل من السلاح لو كان فى دولة أخرى غير اليمن لسقط نظام الحكم عندما يتعرض لسخط الجماهير، وقال إن العرف القبلى أقوى من القانون فيما يتعلق باستخدام القبائل

للسلاح . . والمطلوب إذن ليس منع السلاح بالقانون وإنما ترخيص حمل السلاح وتعظيم هيبة السلطة المركزية، وإثارة الوعى بالتداعيات السلبية للظاهرة، وحبذا تخفيض عدد المرافقين المسلحين للنواب إلى اثنين فقط، ومنع دخولهم إلى قاعة المجلس باعتباره مظهرا غير حضارى بالمرة!

ثم ننتهى أخيرا إلى مقال هام للكاتب اليمنى الكبير عبد البارى طاهر فى صحيفة الراية القطرية تحت عنوان «الجهل المسلح سيد الموقف باليمن» يقول فيه :

لم يكتشف اليمنيون بشكل كبير بعد، أن اللجوء إلى حمل السلاح لا يحل مشكلة، بل إن الاحتكام للسلاح وحمله فى الحل والترحال، فى اليقظة والمنام، لا يحمى الأمن ولا يوطد السلام، ولا يحقق الطمأنينة، فحمل السلاح والاحتكام إليه بسهولة ورعونة غير معهودة لا يحل المشاكل، وإنما يعقدها، فقد حاول الآباء «الأحرار» تجنب استخدام السلاح، ولكن البيئة المحيطة ومحاولات أسلمة انقلاب ١٩٤٨ قد فرضت الحرب و. . لعله أقل فأدل حول واحد من أهم الأسباب السياسية والدينية الدالة فى تاريخ اليمن على الظروف الموضوعية التى حتمت الاحتكام للسلاح فى تفجير الثورة السبتمبرية، حيث كان من رابع المستحيلات أن يفل الحديد سوى الحديد فى تقويض أركان حكم بيت حميد الدين، ولعله كشف فى الوقت نفسه عن فقدان هيبة السلطة المركزية وقصورها المعيب فى وضع الخطط السياسية الكفيلة ببناء دولة المؤسسات واجتثاث ظاهرة شيوع حمل السلاح من الجذور بعدما وضعت الحرب أوزارها!

١٩١ - لا بد من صنعاء وإن طال السفر

«الطيرمانة» أو «المنظرة» أو «المفرج» أسماء لغرفة صغيرة مفتوحة النوافذ على شتى الاتجاهات فى الطابق العلوى من بيوت صنعاء القديمة، وأحيانا تستخدم كمقيل، ودائما يختص بها رب الأسرة للعبادة والتأمل والراحة بعد جلسة مضغ القات مع الصحاب ساعات القيلولة، ولعلى أحسب أن المشهد البانورامى لصنعاء القديمة عبر نوافذ «الطيرمانة» لا يفوقه إبهارا وانبهارا فى أى مكان تراثى آخر من العالم.

يقول الشاعر اليمنى :

صنعاء يا مهد الحضارة والرقى ومحط كل سميدع ومليك

باريس دونك فى الجمال ولندن وعواصم الرومان والأوبك

فجمال تلك مزيف وزخرف وجمالك المطبوع فى باريس

صنعاء عتيقة فى تاريخها وحضاراتها، بل إن العائلات العريقة من سكانْ صنعاء القديمة اليوم، هم نسل بناتها والرعيل الأول من سكانها، وهى مدينة محروسة بعناية الله، ويروى وهب بن منبه أن أهل الجزيرة العربية عندما اتفقوا على غزو صنعاء، أقبل طائر وألقى من منقاره على جمعهم كتاب كان مطلعه يقول «بسم الله الرحمن الرحيم. . من الله تعالى لا من أحد سواه، من أراد صنعاء بسوء كبه الله ورد كيده»!

ولصنعاء أسماء تاريخية عديدة، ويذكر «معجم البلدان» أن صنعاء منسوبة إلى جودة الصنعة، سواء جودة الحرف اليدوية، أو جودة الزراعة والمهن الموروثة كالتعليم والتجارة والعمارة. . ، ولعل البيوت القديمة التى ترتفع إلى ثمانية طوابق وكذا سقوف الحجرات آية فى العبقرية والهندسة والإبداع وإتقان الصنعة قبل أن يعرف العالم ذلك النمط العمرانى بمئات السنين، هذا إلى جانب المساجد المعمرة التى يرجع تاريخها إلى عهد النبى عليه الصلاة والسلام وأولها المسجد الكبير وهو الثالث فى الإسلام، وبينها مسجد «فروة بن مسيلك» فى صنعاء ومعاذ بن جبل فى «الجند»، وهناك مساجد أخرى بنيت فى العصر النبوى كذلك وبينها مسجد سعد بن أبى وقاص ومسجد الطاووس الذى أسسه طاووس اليمانى ومسجد «نقم» ومسجد الهادى ومسجد أين الحسين، وغيرها كثرة وتنتمى كلها إلى مجموعة المساجد الألفية.

وذلك أن مساجد صنعاء بلغت الألف مسجد فى نهاية القرن الثانى الهجرى. . ثم انخفضت فى القرن الثالث الهجرى إلى مائة وستة فقط، بينما نجد أن الكتاب الذى ألفه القاضى الحجرى عام ١٣٥٨ هجرية، أشار إلى أن صنعاء كانت تضم فى تلك المرحلة من الدعوة الإسلامية نحو ٧٥ مسجدا دراسيا، مع ملاحظة ظاهرة

مجاورة المسجد لمسجد أو مسجدين ملاصقة، فكان يحلو لأهل صنعاء أداء الصلوات الخمس تباعا فى أكثر من مسجد، فيما تباينت طرز المساجد بين العناية بالقباب ذات الزاوية الواحدة أو عدة زوايا وبين الأروقة ذات الأعمدة يجاورها فناء رحب، حيث كان بعضها بمثابة مدارس أو معاهد لحفظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الإسلامية!

١٩٢ ـ سوق الجنابى

يروى وهب بن منبه أن أول حجر وضع على حجر بعد الكعبة المشرفة كان بناء سيدنا نوح عليه السلام قصر «حران» بالجزيرة ثم قصر «غمدان» بصنعاء الذى بناه سام بن نوح، وفيه يقول الشاعر الحسن بن أحمد الهمدانى :

ما زال سام يرود الأرض مطلبا ... دهرا لخير بقاع الأرض يبنيها

حتى تبدأ غمدانا وشيدها ... عشرون سقفا يناغى النجم عاليها

فإن تكن فوق وجه الأرض قد خلقت ... فذلك بالقرب منها أو يصاليها

وإذا كان الإمام الشافعى صاحب المأثورة القائلة «لابد من صنعاء وإن طال السفر»، فلعله لم يتجاوز الحقيقة والشهادة على جاذبيتها، إذ بقدر المهابة الحضارية لصنعاء القديمة، بقدر ما كانت ولا تزال تنبعث منها الإشعاعات الروحية والصوفية والثقافية، بل ودائما أفكر إن كان لأحداث ألف ليلة وليلة مسرح وأجواء وشخوص غير ما هو كائن فى صنعاء القديمة، بعماراتها العتيقة الشامخة المبنية بالأحجار البركانية و«الياجو» الذى يمنحها طول العمر لنحو مائة عام، بالرسوم والزخارف التى تزين واجهاتها فى تناسق هارمونى بديع، بشوارعها اللولبية وأزقتها الضيقة، بأسواقها الشعبية العديدة، حيث يختص كل سوق بسلعة أو صناعة ما. . سوق «الجنابى» أى الخناجر اليمنية، سوق الفضة والعقيق، سوق الملح، سوق المخايطة، سوق النحاسين، سوق الحدادين. . إلخ، ودكاكينها تبرز منها مختلف السلع والمنتجات الحرفية، ثم تزداد صنعاء القديمة سحرا وفتنة عندما يأتى المساء، حيث كانت تضاء بالمسارج إلى توارت لتفسح مكانها للإضاءة الكهربائية، حيث ينساب

ضياؤها مع همهمات السكان وأصوات التسجيلات الغنائية وهى تتهادى إلى السمع والفؤاد من وراء الأبواب وعبر الشبابيك.

ثم إن صنعاء ظلت منذ تاريخها البعيد ملتقى الأديان السماوية، الإسلام، ومن قبله النصرانية منذ دخلها المسيح عليه السلام وصلى فيها حسبما ذكر الرازى فى كتابه «تاريخ مدينة صنعاء» حيث قام فى نفس المكان كنيس لليهود حتى بعد هجرتهم تباعا إلى إسرائيل وغيرها من بلاد العالم.

كم ترددت فى بداية الثورة على بيوت صنعاء القديمة ضيفا أو مقيما، وكنت أرصد شبابيكها القليلة الضيقة فى الطوابق السفلية التى تستخدم فى الأفراح والعزاء، وحيث آبار المياه قبل دخول المياه الجارية، وكذا المخازن وفرن الخبيز ورحى طحن الحبوب وسكنى للخدم ومأوى للخيل والبغال والحمير وربما الأبقار والخراف، ثم تزداد الشبابيك عددا واتساعا فى الأدوار العليا وهى سكن أهل البيت والضيوف، حيث تكسو الزخارف الحوائط وهى مصنوعة من الطين والجص و«القضاض» وبينما الأسقف من الخشب الطبيعى غير قابلة للتسوس، فيما تعلو القمريات الشبابيك وهى مصنوعة من الزجاج الملون المعشق بالجص، وحيث تضفى على الداخل ألوانها الخافتة الرومانسية، ودائما ما يكون الدرج فى الجهة الشمالية من البيت الصنعائى، إضافة إلى «المزاغل» وهى فتحات فى الحوائط وأسوار الأسطح كانت تركب عليها البنادق لاصطياد الأعداء واللصوص.

١٩٣ ـ مصحف على بن أبى طالب

وإلى وقت قريب كانت تتوسط كل مجموعة من بيوت صنعاء «المقاشم» ومفردها «مقشامة» وهى بستان أو مزرعة صغيرة تمد السكان باحتياجاتهم من فاكهة البرقوق والتين والرمان والخوخ والأعناب، وأنواع الزهور والورود والرياحين، وخضراوات «الطماطيس» أى الطماطم والجرجير والبقدونس والبردقوش والخس والجزر، وكما كانت متنفسا للسكان، كانت كذلك ملاعب للأطفال!

والحقيقة أننى أفضل قضاء بعض من أيامى كلما قدر لى زيارة اليمن فى صنعاء

القديمة والبعض الآخر فى قصورها القديمة التى تحولت إلى فنادق رائعة يقبل عليها السواح فى شغف وبينها فندق «دار الحمد»، الأمر الذى يفرض النهوض الجاد والمسئول لإنقاذ بيوت صنعاء القديمة من التهالك والانهيار والاندثار، نتيجة إهمال الصيانة والنظافة وتهالك مواسير المياه والصرف الصحى، وكذا تجديد طلاء واجهات البيوت دوريا كما هو الحال فى باريس، حتى تظل بحق متحفا مفتوحا يسر الناظرين ويحكى بشكل تلقائى تاريخ اليمن وحضارته وفنونه وآيات إبداعاته ومعايشه، خاصة أن مظاهر التسيب والإهمال بات يهدد صنعاء القديمة بالخروج بعد ١٩ عاما من قائمة العالم التراثية العالمية التى ترعاها هيئة اليونسكو، حيث رأت من واجبها دعوة المنظمات الوطنية والعربية والدولية إلى مؤتمر عقد فى يونيو عام ١٩٧٩ بصنعاء لحماية هذه المدينة العريقة، ثم جرى إدراجها فى لائحة التراث العالمى الجدير بالرعاية فى مؤتمر عام اليونسكو المنعقد فى بلجراد عام ١٩٨٠، لكن العقبات البيروقراطية وقفت حائلا أمام اللجنة التى شكلتها الحكومة للقيام بمهام إنقاذ صنعاء القديمة، رغم أنها تلقت نحو ٣٠٠ مليون دولار من المعونات لإنجاز المهمة، حيث جرى صرفها على إعادة رصف الشوارع وترميم سور صنعاء والعديد من البيوت وتحسين شبكة المياه والصرف والصحى، الأمر الذى دعا الرئيس على عبد الله صالح إلى استشعار الخطر الذى يهدد صنعاء القديمة، حيث أصدر مرسوما بتشكيل لجنة وطنية عليا لهذا الغرض تضم أمانة العاصمة والوزارات والهيئات ذات الاختصاص.

وكما أهفو دوما إلى صنعاء والتجول فى ربوعها، يستبد بى الحنين إلى قضاء الأوقات الممتعة فى الجامع الكبير ومكتبته الزاخرة التى تضم ٢٤٠٠ مجلة غير المخطوطات والكتب التراثية المكتوبة والمنسوخة، وكذا بخط يده المصحف الشريف النادر الذى كتبه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وارتياد المقايل والاشتباك فى الحوار مع الأصدقاء، وزيارة مؤسسة العفيف الثقافية ثم لا تفوتنى زيارة مركز الدراسات اليمنية للتزود بالجديد من الكتب والدراسات الجديدة عن اليمن، نهاية بالطواف بحى «بير العزب» وهو أجمل أحياء صنعاء القديمة، وكان فى زمن الدولة العثمانية سكنا لكبار الموظفين، ولذلك يغلب على عمارته اليمنية مسحة من الطابع التركى، وبعدها كان الحى سكنا للأثرياء حتى قيام الثورة، حيث شارك الخبراء

المصريون فى التخطيط لبناء مدينة جديدة على طول الجدار الغربى لمدينة صنعاء القديمة، لكن مع تقدم العمر، لم أعد أقوى على الماء الساخن والبخار وعملية الغطس والاستسلام للتدليك والتكبيس فى حمامات صنعاء القديمة!

لكن يظل حرصى شديدا على واجب زيارة النصب التذكارى للجندى المجهول على طريق «صنعاء ـ تعز» وهناك أتذكر كم المعارك التى خاضتها القوات العربية دفاعا عن خيارات الشعب اليمنى فى الثورة والحرية والوحدة، وإذ كنت شاهدا على سقوط الآلاف من مئات اليمنيين والمصريين والجرحى.. ثم أقرأ الفاتحة على أرواحهم الطاهرة، ولعلهم الآن وهم فى رحاب الرفيق الأعلى مرتاحون لأن نضالهم الجسور لم يذهب سدى!

١٩٤ ـ سفاح صنعاء

من الخطأ الاطمئنان والرضا لما وصل إليه اليمن من مراحل التقدم والانفتاح على العصر، وبينما المطلوب أن ترنو السلطة التنفيذية إلى تحقيق تلك الطموحات بالتزامن مع ضرورات توافر عوامل الانضباط والشفافية وفقا للمعايير العلمية والأمنية، وذلك ما لم يتوافر للأسف عندما شرعت جامعة صنعاء إلى افتتاح الكليات العملية وبينها كلية الطب، فكان تسرب واحد من غير المؤهلين علميا ولا أخلاقيا ليتولى أعمال مشرحة الموتى التابعة لجامعة صنعاء، وهو محمد آدم السودانى الجنسية الذى روع المجتمع اليمنى عبر ارتكابه جرائم الاغتصاب والقتل لنحو ما يزيد على ١٦ فتاة يمنية، فاستحق عن جدارة لقب «سفاح صنعاء»، والمفزع حقا أن يعترف بارتكابه جرائم مشابهة قبل قدومه إلى اليمن، فى معرض المباهاة بشذوذه الجنسى والدموى.

على أن التحاقه بالعمل فى جامعة صنعاء وكم الحوادث التى ارتكبها على مدى خمس سنوات، كان وراء استدعاء سلطات التحقيق عددًا كبيرًا من المسئولين لاستجوابهم حول الثغرات القانونية أو الإدارية التى استغلها المتهم، بعدما أثار الحادث اهتمامات الرأى العام والأحزاب والمنظمات الجماهيرية فى اليمن مما أدى إلى خلط الكثير من الملفات الأمنية على الاجتماعية على السياسية، اعتبارا لخطورة

القضية وانعكاساتها السلبية، وهو ما شعب البحث حول الأسباب الكامنة وراء ارتكاب تلك الجرائم، خاصة أن المجتمع اليمنى متدين ومحافظ إلى حد التشدد فى كل ما يمس الشرف والعرض.

ولأنه ضبطت فى حوزة سفاح اليمن ١٢ فيلما تحتوى على مشاهد للجماع الجنسى، وغيرها مما كان بحوزته فى السودان، اعترف بأنه كان مدمنا على مشاهدتها لعدة ساعات يوميا، وأنها وراء شحنه نفسيا لارتكاب جرائم الاغتصاب والقتل بدم بارد، من هنا دارت حملة تفتيشية على محلات بيع وتأجير شرائط الفيديو والأقراص المدمجة قادتها الجمعية اليمنية لنشر الثقافة والمعرفة وهى منظومة أهلية غير حكومية، وأسفرت بالفعل عن انتشار المواد الإباحية المصورة فى السوق اليمنى بشكل واسع مع غياب الأجهزة الرقابية المتخصصة، والأدهى والأمر أن ١٥ من البلطجية المسلحين الذين استأجرتهم تلك المحلات تجمهروا أمام مقر الجمعية اليمنية مطالبين برد الأشرطة والأسطوانات الخلاعية التى صادرتها بل وحاولوا رشوة أعضاء الجمعية لإثنائهم عن مواصلة حملاتهم التفتيشية!

كنت أتابع سير التحقيق فى تلك الحادثة الكارثية أواخر شهر يونيو ٢٠٠٠، وكانت هناك حالة من القلق والمخاوف إثر افتضاح تلك الجرائم البشعة، وكثيرا من أولياء الأمور امتنعوا وقتئذ عن إرسال بناتهم إلى المدارس والجامعات، وربما الحرص شخصيا على توصيلهن إلى دور العلم ورجوعهن إلى منازلهن فى الوقت الذى صال وجال بعض خطباء المساجد المتطرفين فى التنديد بإباحة التعليم للجنس اللطيف، وضرورة منع خروجهن للتعليم فى المدارس والجامعات، فيما كشفت التحقيقات عن ورود أسماء فتيات من ضحايا سفاح صنعاء، كان أولياء أمورهن قد امتنعوا عن إبلاغ الشرطة بغيابهن ربما خشية فضيحة اختطافهن أو هروبهن للزواج سرا.

والشاهد أن هذه القضية فجرت معها قضايا السماوات المفتوحةأمام القنوات الفضائية التى تبث أفلاما فاضحة ليل نهار، حتى باتت مشاهدتها مشاعا بين أوساط الشباب بمختلف طبقاتهم الاجتماعية، وأن بعض الفنادق فى العاصمة اليمنية تعرض مثل هذه الأفلام على روادها لمدة أربع ساعات مقابل ٣٠ ريالاً يمنيًا..

وهكذا الحال من بعضه ـ كما يقولون ـ إذا أن هذه الظاهرة راحت تنتشر كالوباء فى معظم الدول العربية والإفريقية .

على أى حال فقد أعلن وزير الداخلية اليمنى أن ضغوطا تتعرض لها سلطات التحقيق فى الحادث من قبل شخصيات نافذة لإطلاق سراح ثلاثة من أساتذة جامعة صنعاء ، وأن رئيس الحكومة الدكتور عبد الكريم الإريانى أمر بالإفراج عنهم مما أثار موجة من البلبلة الكاذبة!

كذلك شهدت القضية عدة ملابسات عجيبة ، منها أن الدفاع عن السفاح قدم إلى المحكمة شاهدة نفى ، وهى الطالبة ندى ياسين كونها واحدة من الفتيات التى ادعى السفاح قتلهن ، كذلك شقيقتها عائشة ، حيث اتضح أنهما شخصيتان وهميتان ، ولأن الشك وفقا للقانون لصالح المتهم . . من هنا على ما يبدو كان الدور الغامض لهاتين الفتاتين .

والدة الضحية زينب العراقية الجنسية ، كانت وراء تتبع نشاط سفاح صنعاء وكشفه ، إلا أنها اكتفت بهذا الدور ورفضت المثول أمام المحكمة ، بعد أن أصابها الحزن والتعب والإحباط ، واكتفت بطلب السماح بدفن جثة ابنتها فى العراق .

قبيلة همدان كذلك ، شكلت ضغوطا على أسرة العدالة فى قضية السفاح ، حتى استجيب لطلبها الخاص بتنحية أحمد هائل رئيس نيابة بنى الحارث الذى يمثل سلطة الادعاء فى قضية حسن عطية وهى إحدى الضحايا التى تنتمى إلى قبيلة همدان إلى غير ذلك من سقوط أسماء بعض الضحايا أو تهديد ذويهم بالقتل من قبل مجهولين حتى يتواروا عن الأنظار والامتناع عن حضور جلسات المحاكمة!

بعدها كان ضباط وزارة الداخلية يجلسون فى قاعة كبار الزوار بانتظار البروفيسور «فان خاخ» أستاذ الطب الشرعى فى ألمانيا ومساعده «مورا لان كاف» لمشاركة فريق التحقيق والطب الشرعى فى اليمن ، إيذانا بحلف اليمين أمام القاضى يحيى الأسلمى قبل شروعهم فى معاينة مشرحة كلية الطب وما تخلف فيها من الجثث والأجزاء البشرية ، وتقديم التقرير النهائى إلى المحكمة حول ما توصلت إليه اللجنة من الحقائق! و . . حتى حكم على سفاح صنعاء بالإعدام وجرى تنفيذ الحكم غير مأسوف عليه من ذويه والجالية السودانية فى اليمن!

١٩٥ـ رواية «صنعاء مدينة مفتوحة»

فى واحدة من أغرب القضايا التى نظرها القضاء اليمنى شرعت محكمة جنوب غرب صنعاء فى شهر يوليو عام ٢٠٠٠ إلى محاكمة «سمير اليوسفى» رئيس تحرير صحيفة «الجمهورية الثقافية» الأسبوعية الأدبية التى تصدر فى مدينة تعز لنشرها فى سبع حلقات من رواية القاص اليمنى «محمد عبد الولى» «صنعاء مدينة مفتوحة».

جاءت محاكمة اليوسفى بعد حملة تكفير قادها حزب الإصلاح المعارض أحد أحزاب الحركة الإسلامية ضد اليوسفى وصاحب الرواية بدعوى إساءتها للذات الإلهية والدين الإسلامى حيث حرص حزب الإصلاح على إثارة القضية فى ١٤ من يونيو ٢٠٠٠ إمام مجلس النواب عن طريق أحد نوابه، ثم راح يؤجج حملته التكفيرية ضد الراوى والناشر بعد ذلك عبر حشده خطباء المساجد اليمنية على مدى ثلاثة أسابيع الذين انبروا فى خطب الحمق إلى اتهامه بالإلحاد والشيوعية والناشر بالكفر، وطالبوا بمحاكمة الأخير وإغلاق صحيفة «الثقافية» وإحراق رواية صنعاء مدينة مفتوحة، حيث تمكن حزب الإصلاح من جمع توقيع مليون يمنى بالإجماع على محاكمة «الثقافية» والقائمين عليها رغم أن أكثرهم لم يقرأ الرواية، ثم تقدم عدد من أعضاء نفس الحزب بدعوى احتساب إلى نيابة الصحافة والمطبوعات التى بدورها رفعت قضية ضد «اليوسفى» واستدعته النيابة للتحقيق معه . . ولم تفلح محاولة ما يزيد على ٤٠٠ مثقف يمنى أصدروا بيانا طالبوا فيه بعدم محاكمة الثقافية وإثارة قضية ضد «صنعاء مدينة مفتوحة» وإقفال ملف الرواية، إذ كان هؤلاء المثقفون يعتقدون أن المشكلة برمتها تتعلق بحزب الإصلاح الذى يريد غلق المنابر الثقافية وتكميم أفواه المبدعين خاصة أن الرواية صدرت فى كتاب قبل عشرين عاما وكان صاحبها محمد عبد الولى قد توفى قبل ٢٧ عاما فى حادث طائرة بمدينة عدن هو ومجموعة من الدبلوماسيين اليمنيين إبان الحكم الماركسى للشطر الجنوبى من اليمن قبل الوحدة!

وفى الوقت الذى ناشد «هشام على بن على» وكيل وزارة الثقافة والسياحة برد اعتبار رئيس تحرير «الثقافية» والقاص «محمد عبد الولى» وروايته مؤكدا على أن

إثارة القضية بهذا الشكل لا يمس الراوى وروايته فقط بقدر ما هى مخطط مبيت لمصادرة وإحراق كل ما هو ثقافى . . وقال : على المتعصبين الاحتكام إلى الحوار بدلا من لغة التكفير!

كانت مجموعة من الأدباء والمثقفين اليمنيين قد أصدروا بيانا مذيلا بتوقيع «النوارس»، أعلنوا فيه تضامنهم مع صحيفة «الثقافية» محتجين على الحملة التكفيرية ضد رئيس تحريرها «اليوسفى» ورواية «صنعاء مدينة مفتوحة» وراويها «عبد الولى» وقالوا فى البيان : «لأن وباء القمع يتسع وعدد المحتسبين يتزايد وتهمة المروق والكفر تلحق كل من يحاول فتح ثقب فى جدار الوطن، لذلك كله نحن فصيلة «النوارس»، نعلن الهروب من هذا القفص المسمى وطنا، واتهموا الحكومة والمعارضة بالتنافس لإغلاق المنابر وفتح المقابر ومحاكمة الأديب محمد عبد الولى بعد أكثر من ربع قرن على وفاته .

ويعد محمد عبد الولى واحدا من أوائل كتاب القصة القصيرة ومبدعيها فى اليمن وتتميز إبداعاته بالشاعرية والعمق، وله مجموعة من القصص المنشورة فى كتب منها «الأرض يا سلمى» و«يموتون غرباء» وروايته الأخيرة محل الخلاف التى طبعت ونشرت من قبل ووزعت ست مرات وتدرس حاليا فى جامعة تكساس الأمريكية وترجمت إلى لغات عدة منها الإنكليزية والفرنسية غير أنها سحبت من مكتبة جامعة صنعاء بعد الحرب ضد الانفصال صيف عام ١٩٩٤ .

من عجب أن يغيب الوعى السياسى المتقد فى اليمن بينما يتعرض لهجمة عاتية من الترهيب على يد حفنة من غلاة الأصوليين الذين يدعون نيابتهم عن الشعب اليمنى فى فهم الإسلام والدفاع عن حياضه، وأن يقيموا الدنيا ولا يقعدوها لمجرد نشر رواية يمنية سبق وأضيفت للمناهج الدراسية بجامعة صنعاء وتحولت إلى مسلسل إذاعى ناجح دون أن تثير من حولها مثلما تتعرض له الآن من اتهام مؤلفها بالكفر والإلحاد .

هنا أدلى بشهادتى على رواية صنعاء مدينة مفتوحة موضوع الأزمة المفتعلة ومؤلفها الصديق الأديب الراحل محمد عبد الولى فقد كنت من أوائل الذين أهداهم الرواية فور صدورها ممهورة بتوقيعه وبضع كلمات رقيقة تشى بدورى فى

التوسط لدى القاضى عبد الرحمن الإيريانى رئيس المجلس الجمهورى فى اليمن ـ آنذاك ـ للإفراج عنه وصديقنا المشترك الكاتب الناصرى عز الدين ياسين ورئيس تحرير صحيفة «الوحدة» يرحمه الله، وب٥عدها بأيام سافرنا معا من تعز برا إلى عدن، وهناك قدر الله سبحانه أن أتخلف ـ لوعكة صحية ألمت بى ـ عن رفقته عندما جاء يصطحبنى من فندق «كريسنت» للحاق برحلة الطائرة التى أقلت الدبلوماسيين الممثلين لليمن الديمقراطى فى الخارج، ولم تمض بضع ساعات حتى أذيع خبر سقوطها وموت كل ركابها أو اغتيالهم . . بمعنى أكثر مطابقة لواقع المؤامرة التى استهدفت تصفية فلول الجبهة الوطنية التى كان يتزعمها عبد القوى مكاوى قبيل استيلاء الجبهة القومية «حركة القوميين» على السلطة فى الشطر الجنوبى من اليمن فور استقلاله!

ومن عجب أننى وغيرى كثر ممن أتيحت لهم فرصة قراءة الرواية فى حينها وعلى مدى هذه السنوات الطويلة، لم نلحظ ما يدعيه عليها اليوم غلاة المتشددين من إساءات إلى الدين أو الذات الإلهية، فى الوقت الذى بادر اتحاد الصحفيين العرب إلى إعلان تضامنه مع سمير اليوسفى وشجب الحكم عليه بالسجن الذى أحدث موجة من الاستياء فى أوساط الصحفيين والمثقفين اليمنيين والعرب، ولعلنا من هنا نحسب أن اليمن حكومة ونخبا سياسية وثقافية فى مسيس الحاجة إلى وقفة عقلانية فى وجه الانتقائية المشبوهة المبيتة لأولويات القضايا الوطنية المفترض أن توحد الشعب اليمنى ولا تفرقه، وتحشد جهوده وتوحد إرادته فى مواجهة الضغوط الأمريكية الإسرائيلية التى تحاول جذبه إلى شراك التبعية والتطبيع، والهيمنة على واحدة من أهم المناطق الاستراتيجية فى العالم، وصرفه عن السير قدما فى تكريس نهج الصحوة والوحدة الوطنية والتنمية!

١٩٦ ـ أعجوبة الدنيا الثامنة فى مأرب

كثيراً . . ما أحرص على زيارة محافظة مأرب، لا لأنها كانت ساحة للصراع المسلح فحسب بين قوى الثورة اليمنية والقوات المصرية وبين قوى الثورة المضادة، لكن لأنها موطن حضارة سبأ الخالدة، بل وكانت إبان عهدها بالحميريين تمتد

بنفوذها وزخمها الحضارى حتى جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر وإريتريا وإثيوبيا ومختلف مناطق القرن الإفريقى!

سبأ كانت مقرًا لحكم الملكة بلقيس، وهى التى حاولت اختبار سيدنا سليمان عليه السلام إن كان رسولا من رب العالمين من عدمه، عبر ما قدمته له من هدايا ثمينة يسيل لها لعاب المتبتلين. . حسبما ورد فى القرآن الكريم.

على أن مأرب كشفت عن كنوزها المخبوءة تباعًا فى العصر الحديث لأول مرة عبر وندل فليبس، ذلك الرحالة المغامر الذى سرق وهرب العديد من تراثها الأثرى، لكن فى عهد الثورة ثم قيام الوحدة اليمنية كان الطريق سالكا ومنضبطا لأعمال الحفر والاستكشاف والترميم، وبينها البعثة الألمانية لمعهد برلين للآثار التى تواصل مهمتها على هذا الصعيد منذ ١٣ عاما متصلة!

الحديث عن أسطورة جنتى سبأ لا يزال ماثلا عبر موقع معبد بران الذى يبعد نحو كيلومترين عن أسوار مأرب، وكذا محرم بلقيس الذى كان يحج إليه السبئيون فى مواقيت محددة، ويعرف بمعبد «أوام» أو «معبد القمر»، ومن المرتقب أن يتواصل التنقيب للكشف المدفون من عرش بلقيس. حسبما يؤكد العالم الأثرى الألمانى بوركهارد فوكت، فيما تتواصل أعمال التنقيب على قدم وساق فى العديد من مناطق اليمن عبر البعثات الألمانية والإيطالية والكندية والأسترالية والبولندية!

وإذا كان المغفور له الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات الراحل، قد وقع فى غرام اليمن، وأكد على ذلك عبر تمويل مشروع إعادة ميناء سد مأرب عبر إحدى الشركات التركية، فلعلنا نستعيد تاريخ السد القديم الذى يعود تاريخ بنائه إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وكان يروى الأراضى الزراعية آنذاك على اتساع عشرة آلاف هكتار، ولا تزال هناك آثار لسهلين زراعيين عادت لهما خضرة الخصوبة عبر الرى من مياه سد مأرب الجديد، وهما الجنتان اللتان جاء ذكرهما فى القرآن الكريم!

ويذكر التاريخ كذلك أن مملكة سبأ كانت،تسيطر على طريق القوافل التجارية بين جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها وحتى بلاد ما بين النهرين ومصر وفلسطين، وكانت مملكة سبأ آنذاك سوقا عالميا لتجارة التوابل والبخور واللبان، وربما عبر

احتكاك السكان بالتجار العرب والآسيويين . . من هنا كان تأثيرهم الثقافى الباقى فى حضارة سبأ وعمارتها!

ويشاء السميع العليم أن ينخر الفأر الملعون فى سد مأرب العظيم، حتى انهار بنيانه وجف ماؤه وعطشت الأرض التى كان يرويها حتى تصحرت، وأن يتزامن هذا الحدث الجلل مع ظهور الإسلام، ومن هنا كان انخراط اليمنيين فى جيوش الفتح الإسلامى التى وصلت إلى الصين جنوبا والأندلس «إسبانيا» شمالا.

ثم يعود زخم مملكة سبأ مجددا فى نهاية القرن العشرين عبر سد مأرب الجديد، وتعود إلى الأرض الشراقى خضرتها وخصوبتها بالتزامن مع اندلاع الثورة اليمنية، إيذانا بترقب الكشف العظيم عن معبد أوام أو القمر وأن تشهد مأرب أعجوبة الدنيا الثامنة، والرهان بالتالى على ازدهارها السياحى!

١٩٧ـ كوكبان موئل الشعر والطرب

كلما قدر لى زيارة مدينة . . قرية . . أو ناحية فى ربوع اليمن يغلبنى عشق الوصال بكل جديد قديم من معالمها العمرانية والحضارية، لكأنها تفتح أبوابها تلقائيا للضيوف وهى تتغزل فى محاسنها، ومن عجب أن لكل شىء فى اليمن تاريخًا أو حكاية وخصوصية ينفرد بها، بل إن اليمنيين يختلفون عن شعوب غيرهم بالافتقار أو كراهية النمطية، ويندر أن تجد بيتا يمنيا أصيلا يتشابه مع غيره، كذلك البشر.

والحقيقة أنه كان بودى لو أننى أحطت فى كتابى هذا بكل بقاع اليمن، تعبيرا عن مودتى وعرفانا بالمحبة وبالأيام أو الساعات السعيدة الموحية التى عشتها هنا أو هناك على مدى زياراتى المتعددة لليمن، لكنى خلصت من هذا المأزق عبر المثل القائل «ما لا يدرك كله لا يترك جُلُّه».

واسمحوا لى إذن ركوب الريح تارة واستخدام طاقية الإخفاء تارة أخرى عبر ما وعته الذاكرة عن بعض مشاهدها، ثم نحط الرحال، كما كنا دوما فى صنعاء وحضرموت!

أذكر دعوة وربما دعوتين من الدكتور عبد العزيز المقالح لزيارة مدينة «شبام

كوكبان» وسط صحبة من الأصدقاء اليمنيين أذكر من بينهم الأديب العظيم زيد مطيع دماح مؤلف الروايتين الرائعتين «الرهينة» و«العقرب» يرحمه الله، والأديب الذى يقطر دماثة وظرفًا وثقافة الصديق خالد الرويشان وزير الثقافة اليمنى الآن.. أطال الله عمره والشاعر السورى الرقيق سليمان العيسى.

كنا قد دخلنا كوكبان عبر طريق يفضى إلى قلعة، ومنها دخلنا إلى المدينة ثم جلسنا على ارتفاع يربو على ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر، نعبق الصدور بالنسائم الندية ونمتع العيون بأجمل بانوراما للطبيعة، وندغدغ أجسامنا بالبرودة اللذيذة فى عز الصيف!

ثم جلسنا نستمع إلى فنان عجوز من شبام كوكبان وهو يلقى من أجلى شعرا شعبيا اسمه الحسينى.. ثم يمسك العود ويغنى بصوته الجميل المطبوع بالبيئة الجميلة، ثم كان مضيفنا، على ما أذكر، واحدًا من علية القوم فى المدينة وكان، على ما أذكر، من رجال الأعمال المغتربين، وراح يحكى بعضا من تاريخها المجيد، وكيف لقى ٢٠٠٠ جندى عثمانى مصرعهم على يد المقاومة الكوكبانية عام ١٢٨٨ ميلاديا، وربما لصد جحافل الغزاة لجأ أهلها إلى بناء العديد من خزانات وآبار المياه ومخازن الحبوب، حتى يمكنهم الصمود إذا ما تعرضت المدينة للحصار.

وروى الدكتور المقالح طرفا من تاريخ المدينة وأن أحد أشقاء الناصر صلاح الدين اتخذ من كوكبان عاصمة لليمن، وأنها مفخرة لكثير من الشعراء والمطربين اليمنيين وبينهم محمد عبد الله شرف الدين الذى اشتهر بشعره الرومانسى وكان دائما على شفاة المغنين.. وبينهم ابن كوكبان المطرب الشهير محمد الحارثى.

وصدقونى حينما أقول كم غمرتنى حالة من الصوفية والوجد لم أشهد لها مثيلا فى مكان آخر وأنا بين الطبيعة فى كوكبان وصوت المطرب الشجى وهو يعزف على أوتار العود!

١٩٨ ـ تعز أهل الشطارة والتكنوقراط

لشد ما يثير الفضول أن تختص مدينة تعز بمعظم فئة التكنوقراط التى ظلت تتوالى على شغل العديد من الوزارات ورئاسة المؤسسات منذ اندلاع الثورة اليمنية،

وكذلك تقاسم صفات الشطارة مع منطقة «الحجرية» والاشتغال بالتجارة، ربما لأن تعز كانت الأقرب إلى عدن إبان عهود التشطير!

أبرز المعالم التى استوقفتنى فى تعز مستوى تحضرها النسبى عن غيرها من مدن الشطر الشمالى سابقا، ومن المعالم التاريخية القلعة، وتكاد تتطابق مع قلعة محمد على فى القاهرة من حيث الطراز المعمارى والدور الوظيفى فى الدفاع ضد الغزوات التى ابتلى بها اليمن على مر التاريخ، ثم هذا التحرر المنضبط للجنس اللطيف الذى يسكن جبل صبر، إذ كان منظرهن مميزا فى شوارع تعز!

وأحسب أن من بين كل نساء اليمن تحظى المرأة الصبرية بأفضل مكان فى قلب الرجل، بأحلامه، وأشواقه، وملاطفته، وغنائه.. بشق الأنفس وصولا إلى قامتها السامقة وهى تطل من فوق سبعة آلاف متر عن سطح الأرض حيث تسكن.

السحاب يعانقها والهواء الندى ينعشها والخضرة وينابيع المياه عالمها ومصدر رزقها، جمالها بكر، وعيونها سابية، ولسانها الشهد، سافرة ومتحررة، متزينة ومتكسبة، الأمر والنهى بيدها، تنهض بمجرد انبلاج نور الفجر تخبز العيش، تجلب الماء، وتزرع أو تجمع الخضراوات والفاكهة أو القات، وتنزل السوق، ثم لا تخجل أو تخشى زبائنها من الرجال، وما أسعد الزوج الذى يستمتع بمباهج الطبيعة ويمضغ القات وينجب الأطفال!

تعز من أكثر مناطق اليمن أمنا، تكاد لا ترى سوى القليل من الرجال ممن يحملون الأسلحة النارية أو يتمنطقون بالجنبيات أى الخناجر، وربما من هنا يفضلها السواح الأوروبيون أكثر من غيرها، خاصة أنها بمثابة محطة تتوسط اليمن، وفيها عاش على عبد الله صالح أجمل سنوات عمره قبل تنصيبه رئيسا للجمهورية عام ١٩٧٨، وهو وإن أقام فى تعز بحكم عمله بالقوات المسلحة فى ذلك الوقت، فقد كانت تعز عاصمة اليمن فعلا إبان حكم الإمام أحمد إثر ما بدا له من كراهية أهل صنعاء، بعد أن أذاقها الويلات لنصرتها ثورة الأحرار عام ١٩٤٨.

ثم إن تعز عاصمة الثقافة اليمنية، وفيها كانت ولادة أعظم كتاب القصة القصيرة فى اليمن المرحوم محمد عبد الولى، ومنها كذلك خرج أعظم الفنانين التشكيليين، ولا تزال صحيفة الثقافة واسعة الانتشار تصدر من تعز، وتفتح صفحاتها للأدباء

والمثقفين على اختلاف توجهاتهم، كما أنها تحتضن مؤسسة المرحوم هايل سعيد أنعم للعلوم والثقافة ورعايتها المقدرة للاحتفاليات الثقافية ورصد الجوائز القيمة للمبدعين!

وفى اليمن ظرفاء وحكماء من طراز حضارى حين يطلقون الأوصاف على مدن اليمن . . وتسمع من يقول «ذمارى» أى من أهل ذمار يساوى «اثنين صنعانى» أى من أهل صنعاء أو أن ذمار عاصمة النكبة وتعز عاصمة الثقافة وحضرموت عاصمة التراث ومأرب عاصمة الاختطاف وصعدة عاصمة السلاح وآب عاصمة الجمال كما أن عدن عاصمة الإقصاء والحديدة عاصمة الأدب وتعز عاصمة المزاج . . وأزرع «تهامة» تأكل حتى يوم القيامة!

١٩٩ـ عروس البحر الأحمر

الحديدة ليست ميناء فحسب، لكنها عروس البحر الأحمر، وهى التى تحتضن زبيد والمراوغة والخوخة والدريهمى . . وغيرها من مناحى العلم والزراعة والصيد والملاحة، أهلها من أصحاب الوجوه الجادة التى لوحتها الطبيعية بلون القمح أو السمرة!

ولأن العين تعشق كل جميل، فاللحديدة عشاق كثر . . عشاق السحر والكمال والدهشة والأصالة والبهاء، شامخة شموخ جبل «راس» حيث يحلو عناق السحاب، وحين تهبط إلى الساحل والوديان، سوف ترى الحديدة وهى تطوق البحر بالبنايات والقباب والمنارات البيضاء كما لو أنها حبات عقد فريد من اللؤلؤ.

ودائما هى الموانئ فى كل بقاع المعمورة، أهلها منفتحون على الثقافة والمغامرة والهجرة، ويعرفون الأصول، ويجيدون التعامل مع الأجنبى، ويكسبون المال بعرق الجبين، ويتذوقون أطايب الحياة وأفراحها حتى الثمالة!

قدر لى زيارة الحديدة عبر ما كان يرويه عنها صديق يمنى من مواليدها . . كان زميلا لى فى كلية الحقوق، ثم غاب عن ناظرى فجأة بعد أن وصله خبر وفاة والده، ثم التقيت به فجأة وأيضا عند زيارتى للحديدة أوائل السبعينيات حين كان صديقى

الشيخ سنان أبو لحوم محافظا لها، وكان قد أصبح من رجال الأعمال وأصحاب التوكيلات التجارية. . ولا أذكر الآن للأسف سوى اسمه الأول نعمان.

والحقيقة أن علاقتى بالحديدة متقلبة، فهى بردا وسلاما وانتعاشا عند زيارتها شتاء، وهى دافئة بل وحارة مشبعة بالرطوبة صيفا كما أجواء بور سودان وجيبوتى و . .

كم كانت سعادتى بالحديدة حين قدر لى زيارتها فى شهر مايو ٢٠٠٦ وقد أصبحت مدينة عصرية باسمه ومتجددة وهى تحتفل بالعيد السادس عشر للوحدة اليمنية وهى سنة ابتدعها الرئيس على عبدالله صالح للاحتفال بالعيد الوطنى عاما بعد عام فى مدينة يمنية مختلفة!

٢٠٠ـ صم بكم فى قرية قريع

كنت والأخ الشامى مرافقى من وزارة الإعلام اليمنية نتجول بالسيارة فى المناطق الريفية المحيطة بمدينة تعز، حين قال لى السائق فجأة: «هل تود أن تشاهد قرية يمنية مثيرة للدهشة؟ وقلت له بالطبع» . . وإذا كان ذلك بالإمكان فلنعجل بزيارة هذه القرية؟

كانت قريع تطل على سفوح الجبال الشاهقة المفروشة بالخضرة، طرقاتها ضيقة ومتعرجة، بيوتها من الحجارة الكبيرة والصغيرة الحجم. . سكانها قليلون وهادئون فى الحركة والصوت.

قال مرافقى: معظمهم صم وبكم!

يا إلهى - كيف حدث لهم ذلك؟ هل مرض أصابهم جميعا؟ أم من غضب الله عليهم؟

لا أحد فى القرية يرغب فى تفسير الظاهرة. . حتى الأصحاء الذين يسمعون جيدا لا يتكلمون!

لاحظت أن معظم الفتيات كاشفات الوجوه. . وفى حالة دهشة لوجودنا. . إذ

كن يرقبننا دون حراك كما لو أنهن على أهبة التقاط صور تذكارية . . إذ كانت حركتهن وملامحهن . . فى حالة سكون!

قال لى مرافقى : الصم والبكم هنا وراثى منذ ما يزيد على ٢٠٠ عام - هكذا قرأت في تحقيق صحفى عن قرية «قريع»، بينما يروج البعض لدور ما للجن والشياطين، وإلا لماذا عجز الأطباء عن علاج أى من السكان المرضى . . والبعض من الأخصائيين من أطباء الأنف والأذن والحنجرة يعزون الظاهرة إلى العامل الوراثى، حيث يحرص اليمنيون على الزواج من الأقارب .

وسكت مرافقى وهو من المواليد والمقيمين فى تعز . . ثم تابع قوله : لكن أغرب ما سمعته من تفسير لهذه الظاهرة، أن سبب العلة يكمن فى حجارة البيوت فى قرية «قريع»، وأنها تبعث بإشعاعات ضارة ومستمرة تصيب السكان بالصم والبكم!

هنا تذكرت صديقى المعمارى العالمى المصرى الشهير المهندس حسن فتحى الذى بنى قرية «القرنة» فى صعيد مصر الجوانى وصاحب لقب مهندس عمارة الفقراء، إذا كان حريصا على أن يرقم الحجارة التى يتم قطعها من الجبال، كما يحدد موقفها بدقة من الشمس ومن الجهات الأصلية للكون، حتى يجرى نقلها ووضعها فى المبانى كما كانت فى الطبيعة قبل قطعها .

كنت دائما ما أتردد عليه فى بيته ذى الطابع المعمارى الإسلامى المبنى من الحجارة فى درب اللبان بالقلعة . . حين سألته يوما عن مغزى أسلوبه فى قطع الأحجار وتركيبها، وقال رحمة الله عليه إن الجبال الحجرية ليست جامدة كما يخيل للناس، لكنها كائنات حية تتنفس وتتألم وتتأثر بالطبيعة كالشمس والظلال والقمر والهواء والرطوبة وتؤثر فيها كذلك . . ولذلك فإن قطع الحجارة وإعادة تركيبها فى المبانى عشوائيا له آثاره الجانبية الضارة على صحة الإنسان وعلى حالته النفسية، ثم ضرب لى أمثلة عديدة لمبان سكنية أو مساجد جرى بناؤها من الحجارة بشكل سليم وبينها مسجد «السيدة نفيسة»، حيث يشعر الإنسان داخله بالراحة النفسية والتهوية السليمة ولا يشعر بالحرارة فى الصيف أو البرودة فى الشتاء، إضافة إلى أجوائها الروحية!

وربما من هنا قد يكون المدخل العلمى السليم فى تفسير ظاهرة الصم والبكم فى قرية «قريع» اليمنية وعلاجها والله أعلم!

٢٠١ـ الشجـــرة الباكيـــة

أواخر الخمسينيات خاضت مجلة «صباح الخير» المصرية تجربة طريفة ضمن سلسلة من التحقيقات الصحفية المثيرة لكشف الخرافات، وتعريتها من أى مصداقية. . حين حمل بعض المحررين جيفة حمار ميت وقد غطوه بالقماش وساروا وراءه فى جنازة حزينة ودفنوه فى إحدى قرى محافظة الجيزة، ثم راحوا يروجون الأكاذيب حول الجثة التى جرى دفنها على أن صاحبها الشيخ جعفر، وأنه من أولياء الله الصالحين وكراماته مشهودة فى علاج الأمراض وفك العنوسة وإبطال مفعول السحر. . وأنه تاجر مغربى كان قد جرى دفنه منذ زمن بعيد فى حى مصر القديمة حتى جار الزمن عليها حيث تجرى بناء عمارة سكنية مكانها!

بعدها تابعت المجلة تداعيات الأكذوبة عبر ما كان يردده الناس الذين كانوا يزورونه فى المنطقة المهجورة التى دفن فيها الحمار، ويتلمسون قضاء مصالحهم وتفريج كرباتهم، بل ووضعوا الحجارة حوله إيذانا ببناء ضريح للشيخ جعفر. . وحتى كشفت مجلة صباح الخير الملعوب.

تذكرت هذه الواقعة حين قرأت حكاية طريفة مشابهة عن شجرة «المريمرة» التى تبكى بحرقة فى عدن، وكم الحكايات الخرافية التى تروى عنها بالنظر إلى جوارها لقبر ميت مجهول، حتى شرع مركز الدراسات وعلوم البيئة بجامعة عدن فى البحث عن سبب بكاء شجرة المريوم، حيث تبين أن إفرازات فطرية داهمتها، وأن الإصابة مجرد عدة سنتيمترات على الساق لكنها لم تؤثر على المنطقة الخشبية، وهى السبب وراء ظاهرة البكاء المكذوب ولم تستبعد الدراسة أن يكون السبب لوصول المياه فجأة إلى جذور الشجرة!

واذا كانت عدن مدينة النور والعجائب فى نظر القبائل اليمنية التى كانت تسكن المناطق النائية المنعزلة فى اليمن، فلأنها كانت مستعمرة للجيش البريطانى وسكنا

للإنجليز وغيرهم من الجاليات الأجنبية التى كانت تمارس نفس نمط الحياة الاجتماعية فى بلادها، ومن هنا ولكثير من الخصائص الذاتية لعدن ظل حسنها وسحرها لا يخبو أبدا، لكأنها البوتقة التى انصهرت فيها حياة البر والبحر وجوامع الأساطير والخيال والشعر والموسيقى وخليط البشر والتقاليد والعادات والثقافات عبر الوافدين عليها من شتى ربوع العالم وعلى مر العصور وبينهم الأتراك والزنوج والهنود واليهود والإندونيسيون والصينيون والأوربيون، وربما من هنا كان أبرز سمات العدنيين التسامح والعشرة الطيبة!

واحدة من تلك الأساطير الموروثة تقول إن قابيل جاء فارا من غضب أبيه وانتقامه إلى عدن بعد أن قتل شقيقه هابيل، وراح ينعم بالأمان واللهو والغناء، وقيل إن يوم القيامة سوف يبدأ من أعماق جبل حيرة فى عدن إعمالا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام ما يعنى أن نار جهنم سوف تندلع من قاع عدن إيذانا بيوم القيامة، وفى الحقيقة أننى كلما قدر لى زيارة عدن فى الصيف كان يهيأ لى من شدة الحرارة والرطوبة أننى فى «بروفة» تمهيدية لجهنم والعياذ بالله.

وزاد عدن تجهما حين ابتلاها الله فى السبعينيات بتوالد آلاف من الغربان السود ونعيقها البغيض، ولم يخلصها من هذا الوباء سوى خبير من بلغاريا صنع لها السم الزعاف ودسه فى الطعام، لكن عدن تكشف عن مفاتنها المخبوتة فى الصيف، وعندما يأتى المساء، يحتضن ساحل البحر آلاف المتنزهين وهواة صيد الأسماك ومشاهدة السلاحف البحرية وهى تتجول فى المياه الضحلة، وتعمر المطاعم والمقاهى بالزبائن، ويتوجه العشاق ومعهم مالذ وطاب من الطعام والشراب إلى جبل المعاشق وجبل سمشان، ولا أدرى لماذا وأنا المحب للتجربة حتى التهلكة رفضت الاستجابة لإلحاح صديقى على خينة مدير الإعلام فى السبعينيات حينما راح يحبب لى مضغ وتذوق «التمبل»، وهو عبارة عن أوراق نباتية صغيرة تلف كما أصابع محشى «ورق العنب» على مادة لا أعرفها، ثم يرش فوقها سائل أحمر لم أعرفه كذلك، وكان معظم باعة التمبل والزبائن من الهنود.

كنت أهفو دائما للسهر والمؤانسة مع الأصدقاء العدنيين فى جزيرة العمال بعيدا عن صخب البارات التى كان يديرها الخشن واللطيف من الجنسيات الصومالية

والإريترية والجيبوتية والحبشية، وهذه الجزيرة كانت فيها قبل القرن العشرين محطة تجميع العبيد الذين كان يتم اختطافهم من أواسط وشرق أفريقيا، ومنها يتم تصديرهم إلى أمريكا وأوربا وتركيا إبان الحكم العثماني!

مع توالى السنين تكاثر حفر الآبار وبناء الصهاريج التى أصبحت الآن من المعالم الأثرية فى عدن، إذ كانت أهم موانى البحر الأحمر ومركزا لتموين السفن بالماء والغذاء وحلقة التواصل التجارى بين ميناء السويس وبومباى مع بداية تشغيلها بالفحم والبخار، مما استدعى تعميق مياه الميناء لاستقبال السفن العملاقة وناقلات البترول، خاصة بعد أن أصبحت عدن مستودعا ضخما للبترول ومخزنًا هائلاً لكافة أنواع السلع والبضائع، وراحت تستقبل زهاء ٧٠٠٠ سفينة سنويا، حتى أصبحت مركزا تجاريا أشبه بالسوق الحرة فى هونج كونج آنذاك.

من معالم عدن التى لا أنساها صهاريج المياه التراثية فى الطويلة، وبوابة عدن الممتدة على جبال شمسان، وبقية سور عدن العظيم الذى أزاله الإنجليز لتسهيل مرور السيارات وبقية منارة عدن التاريخية، وهو تحفة فى هندسة البناء، ثم منطقة الملاحات ومشهد عربات السكك الحديدية وهى تحمل جبالا من الملح الأبيض، ثم مشهد الطيور الجميلة النادرة وأشهرها طائر الفلامنجو.. إلخ.

أذكر أن البناء على مخرات السيول والأمطار الموسمية فى عدن، كانت الشغل الشاغل إبان حكم الحزب الاشتراكى، كما وأن البناء العشوائى للآبار بات يهدد الآثار التاريخية، ولا أعلم إن كانت المشكلة قد وجدت لها حلا أم لا.

ثم تطوف بذاكرتى معارك الفدائيين ضد الاحتلال البريطانى التى لم يسلم منها حى واحد فى عدن، ثم معارك ١٣ يناير ١٩٨٦ الضروس بين الرفاق فى الحزب الاشتراكى!

وأتذكر أن عدن رغم الاحتلال كانت ملجأ للأحرار الفارين من بطش أئمة بيت حميد الدين فى الشطر الشمالى، وكانوا يصدرون الصحف والمجلات ويقيمون الندوات السياسية والفكرية، وبينهم القاضى الزبيرى والمعلمى والأستاذ النعمان والمرونى ومحسن العينى والعزى السنيدار.

وأتذكر أصدقائى الصحفيين والأدباء والفنانين وفى مقدمتهم المفكر المناضل

الوحدوى عمر الجاوى والشاعر الأديب عبد الرحيم سكرتير مجلة «الحكمة» وأستاذ العود الفنان جميل غانم والكاتب والمفكر الكبير محمد سعيد الجناحى، ولا أنسى الفنانة التشكيلية فرزانة عبد الغفور المضيفة الأرضية بشركة طيران «الباسكو» ثم شركة «اليمد»، ثم لا أنسى بالمناسبة المضيفة الجوية «سعادة» وهى من أصول صومالية، وكم من المرات التى التقيتها على متن الطائرة الأولى أو الثانية لشركة «الباسكو» وكانت غاية فى اللطف والمودة مع الركاب، وكنت دائما أهيئ نفسى للرحيل، كلما قدر لى السفر على إحدى الطائرتين المتهالكتين ذهابا من القاهرة إلى عدن وبالعكس، ومساعدة المضيفة سعادة أو سعادات وهى تعد بنفسها سندويتشات الجبن و«اللانشون» وتزودها بالمخلل قبل تقديمها للركاب!

٢٠٢ - ناطحات السحاب فى شبام

دائما ما كان يستبد عشقى لعناق الحضارة اليمنية فى حضرموت، بل أكاد أتخيل أن كل مبنى وشارع أو مسجد أو مواطن أو نسمة هواء أو قطرة من عسل السدر أو الدوعنى موصول أو نتاج للحضارة اليمنية، ربما لأن حضرموت موغلة فى قدم استشرافها للحضارات التى تعاقبت على اليمن، فضلا عن شهرتها الثقافية واحتكارها لتجارة البخور واللبان والبهارات بين الشرق والغرب!

وقفت مشدودا لأول مرة وأنا أتأمل ناطحات السحاب فى مدينة شبام كما أن اسم سبأ يتكرر ملازما لأسماء مدينة تريم، وحضرموت، ويقال إنها منسوبة إلى أحد أبناء ملكة سبأ، ثم تساءلت كيف دار فى فكر اليمنى منذ ٦٠٠ عام بناء هذه الصروح العمرانية الشامخة قبل أن يعرفها العالم، وللعجب أنها مبنية بالطين وبدون استخدام خامات التسليح من الأسمنت والحديد والرمل والزلط، وأى إنسان ذلك الذى كان يصل إلى الطابق الخامس عشر على قدميه قبل اختراع المصاعد الكهربائية.

ثم إن الدهشة لا تتوقف عند هذا الحد.. حيث تمتد إلى منارة «المحضار» البديعة الشكل والتكوين المعمارى المثير للدهشة، وكذا حصن «الغويزى» الشهير.

ولما لا تستأثر حضرموت بمثل هذه العجائب الحضارية، وهى التى أسهمت فى

إثراء الثقافة العربية والإسلامية بعمالقة المبدعين وإبداعاتهم، وبينهم الأديب الكبير على أحمد باكثير وشعراء الغناء الذين امتدت شهرتهم إلى ربوع الجزيرة العربية وبينهم الشاعران حسين أبو بكر المحضار وحداد بن حسن الكاف ومن المطربين المتميزين أبو بكر سالم بلفقيه وعبد الرب إدريس وكرامة مرسال.

حضرموت أكبر المحافظات ومساحتها ثلث اليمن، وهى مسقط رأس كبار التجار اليمنيين الذين جابوا الآفاق وحققوا الثروات ونشروا أجمل ما فى اليمن من العادات والتقاليد والثقافات عبر تجسيدهم للقدوة فى الرقة وحسن المعاملة وروحانية «الشحر» وفقه «تريم» وترف«سيئون» وعملقة «شبام» وسحر «المكلا» التى هى دواء لكل علة على حد وصف الشاعر لبناتها عبر الأغنية الشهيرة للمطرب مرشد ناجى، وعلى غرارها ترددت من باب الغيرة العديد من الأغنيات اليمنية التى تنسب لبنات عدن كذلك الدواء، لكل علة!

وأنت حين تقف وتمعن النظر والوجدان بجماليات العمارة الحضرمية البيضاء فى المكلا القديمة، سوف يغمرك الحبور وأنت تشاهد على جدرانها النقوش الإسلامية البديعة، والأسقف الانسيابية والشرفات الملونة والأعمدة السامقة التى تنتهى بالعقود المربعة والأقواس المدببة، كما فى الجهة الشرقية من «سكة يعقوب»، وربما تخيلت نفسك فى الأندلس وربما فى جنوب شرق آسيا، وما أجمل النظر لمسجد الروضة من الخارج بمئذنته المخروطية وبمنظر الداخل حيث يجلس الطلبة حول فقهاء التفسير والحديث النبوى الشريف وعلوم النحو والصرف.

ولا يزال يطالعك على مدخل جامع «عمر» فى حى الحارة بقبته الفخيمة حديث شريف للرسول عليه الصلاة والسلام «ما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم.. فإنما أهلك الذين قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»، وإلى جوار الجامع مكتبة تراثية عريقة عامرة بنفائس الكتب والمخطوطات، ثم يطالعك حى «جاوه» بألوان شتى من الزهور يتوسطها قصر السلطان «القعيطى» مقصد طلاب المعرفة وإشباع الفهم بعبق التاريخ.. فهل ترى بعد كل هذا الزخم الحضارى مفرا من أن تدرك لماذا ظلت السماحة والهدوء والرغبة فى التأمل أو الحوار شيمة أهل حضرموت.

على أنه فى زياراتى لمدينة «تريم» وجدت نفس ظاهرة مسجد عمر ومكتبته وطريقة تلقى التلاميذ العلم جلوسا حول الفقهاء فى مسجد الأحقاف ومكتبته التى تحوى العديد من المخطوطات والكتب النادرة، وبينها مصحف شريف مكتوب بماء الذهب يعود تاريخه إلى ٢٥٠ عاما مضت وكان قد كتبه بخط اليد وزخرفته الفنان الخطاط محمد رفعت بن على على النمط العثمانى وكذا كتاب «الشرف الوافى» وعمره يناهز ٦٠٠ عام وهو من تأليف اسماعيل بن أبى بكر المقرى صاحب الإرشاد، والكتاب من أربعة كتب مدمجة، حيث تتم قراءته بشكل عمودى، الكتاب الأول للعروض بلون أخضر، والعمود الثانى للتاريخ باللون الأصفر، والأحمر للغة العربية والبرتقالى للأدب والقوافى.

كانت المكلا قبيل الاستقلال عاصمة الدولة «القعيطية»، وكانت سيئون عاصمة الدولة «الكثيرية»، وقد ظلت سيئون مدينة العلم والأدب، ويقال إنها كانت تضم ٣٦٥ مسجدا، فكان الناس يصلون كل يوم فى مسجد بعدد أيام السنة، ثم تناقص العدد إلى ١٠٠ مسجد فقط بسبب إهمال الصيانة والترميم وضآلة الإمكانيات.

على أن أهم وأعظم ما تخلف عن حكم السلاطين «قصر آل الكاف» الذى تحول إلى متحف وطنى، وهو على مساحة ٥٤٦٠ متراً مربعًا وجرى بناؤه على الطراز الهندى وأقرب إلى قصر تاج محل، وهو مكون من ستة طوابق، وفى كل ركن من زواياه الأربع تمتد منارة جميلة على شكل قبة، وبها «مزاعل» وهى فتحات تستخدم للدفاع عبر البنادق والمدافع الخفيفة، ويضم القصر عشرات الغرف الكبيرة والصغيرة والحمامات الفاخرة، فضلا عن ١٨٣ بابا للدخول والخروج، بعضها للسادة سكان القصر، وأخرى للحريم، ثم الخدم والحرس.. ولعلى من هنا أتعجب لماذا أخفق اليمن فى اجتذاب ملايين السواح العرب والأجانب للاستمتاع بكل هذا السحر!

ولأن الحضارمة أهل فن وسماحة وحكمة وثقافة معتقة، ربما من هنا تقاعسوا عن نصرة الأمين العام للحزب الاشتراكى على سالم البيض ابن المكلا عندما تزعم المؤامرة الانفصالية صيف عام١٩٩٤، حيث رفعت حضرموت قبل غيرها من مدن الجنوب أعلام الوحدة!

٢٠٣ـ صابونة بازرعة

ولأن الحديث عن حضرموت، فلعلى من هنا أتذكر الباحثة والمهندسة المعمارية السيدرة ريم عبدالغنى حرم الرئيس اليمنى الأسبق على ناصر محمد، وهى تنتمى إلى أسرة سورية عريقة، وعبر الرفقة الزوجية عام ١٩٩٢، كان طريقها إلى زيارة اليمن عدة مرات، حيث وقعت فى عشق حضرموت وعمارتها الحضارية المبنية من الطين فيما يقرب من ٤٠ ألف قرية، ومن ثم كانت موقع رسالتها الأكاديمية للماجستير، حيث تستعد الآن لنيل الدكتوراه حول نفس الموضوع، كما صدر لها كتاب قيم عن مساجد مدينة تريم، فيما تعطى جانبا كبيراً من اهتمامها لمشروع مركز التدريب المهنى فى مدينة «تريم» للحفاظ على الموروث الحضارى فى العمارة الطينية بوادى حضرموت، ويحمل اسم الروائى الألمانى العالمى جونتر جراس الحاصل على جائزة نوبل، وهو قد زار حضرموت ووقع مثلها فى هواها!

أذكر كذلك الفنان التشكيلى العالمى على غداف الذى ينتمى إلى حضرموت، وهو قد حقق شهرة واسعة خلال معارضه التى ضمت لوحاتها البديعة التى استوحاها من العمارة والنقوش والزركشات والخطوط الحضرمية التراثية الموروثة!

ثم أتذكر الصديق محمد سعيد بازرعة زميل الدراسة بمدرسة الإبراهيمية الثانوية أوائل الخمسينيات، وكان يحمل الجنسية المصرية واليمنية وتمتد أصوله إلى حضرموت، خجولا ودودا ينتقى أصدقاءه كما لو أنه جواهرجى خبير، أذكر له عشق سماع أم كلثوم، وكانت لديه معظم أسطوانات أغانيها التى طالما جمعنا لسماعها وتبادل الحوار حولها فى غرفته الخاصة التى كانت تفضى إلى حديقة «الفيلا» المنيفة التى تسكنها أسرته آنذاك فى حى الدقى!

يوما أهدانى صابونة كما لو أنها كرة صلبة من الرخام الملون. . قال لى إنها أثمن مفردات تجارة فى وكالة بازرعة من الصابون النابلسى، ثم أوصانى بوضعها فى دولاب الملابس أو فى الصالون لأن عطرها الفواح سوف يعبق المكان ولا ينفد أبدا!

وقد ظلت تلك الصابونة النابلسية تؤدى دورها فى همة وأمانة سنوات متصلة فى تعطير أرجاء منزلنا حتى اختفت فجأة ولا أدرى كيف، وعندما نقلت الخبر لصديقى

بازرعة، ابتسم وقال إنها مثل السبحة يجوز سرقتها إذا غفل صاحبها عنها، ووعدنى أن يعوضنى عنها. . ثم عاد يقول آسفا إن هذا النوع من الصابون جرى توزيعه على الأحباب والمتعاملين مع الوكالة من التجار. . ومن غير المتوقع أن يأتى مثل هذا الصابون الفاخر من نابلس بسبب الاحتلال الإسرائيلى لمعظم الأراضى والمدن الفلسطينية، ثم أهدانى قطعة قماش لا تزيد على خمسة سنتيمترات على سبيل البركة وقال إنها من كسوة الكعبة الشريفة!

اصطحبنى يوما لزيارة وكالة بازرعة فى حى الجمالية، وكم بهرت بعمارتها الإسلامية ونوافذها ومشربياتها «الأرابيسك» المصنوعة من الخشب العزيزى المعروف باسم «بيتش باى»، وكانت متسعة الجنبات من أربعة طوابق على ما أذكر، بعضها لإقامة التجار الذين كانوا يفدون من ربوع مصر ومن الخارج والركائب وبعضها لسكنى آل بازرعة منذ عقود بعيدة، ثم اكتشفت أن تجارة الوكالة تعتمد أساسا على «بن المخا» وهو الاسم الشائع آنذاك للبن اليمنى الفاخر الذى دخل مصر لأول مرة عبر الجد المؤسس محمد بازرعة، إضافة إلى أنواع اللبان والبخور والمستكة والحبهان والعنبر وشتى أنواع المكسرات من اللوز والبندق وعين الجمل!

على أن محمد بازرعة كان قد أسس وكالته على هذا النمط المعمارى التراثى وكان اسمها فى السابق وكالة «الكخيا»، وكانت تبيع الأخشاب لورش تصنيع الموبيليا فى حى المناصرة، وتقع بشارع «التمبكشية»، وقد اكتسب الشارع هذا الاسم من كثرة الوكالات التى كانت تبيع دخان «التمباك» بأنواعه اليمنى والشامى والتركى، وكذا دكاكين بيع «النراجيل» وهى الشيش ومستلزماتها.

بعدها توسعت تجارة محمد بازرعة، ومن ثم اشترى عددا آخر من الوكالات القديمة فى نفس المنطقة، وعنى ببناء المساجد وترميم وتعمير القديم فى شتى ربوع مصر، ومن هنا اكتسب محبة الناس فضلا عن حرصه الذى استمر سنوات على تجهيز الجمال التى تحمل هدية مصر لكسوة الكعبة الشريفة عاما بعد عام، إذ كانت تتم صناعتها وتطريزها بخيوط موشاة بالذهب والفضة فى حى الخيمية المجاور لحى الجمالية!

ولشدة ما كانت سعادتى حين قرأت خبر شروع الهيئة العامة للآثار إلى ترميم

وكالة بازرعة بعد أن أصبحت تراثا تاريخيا . . وبعدها قامت السيدة سوزان حرم الرئيس مبارك بافتتاحها بعد أن استعادت رونقها فى ١٨ مارس عام ٢٠٠١ ، حتى تظل ذكرى حميمة للتواصل التجارى والثقافى اليمنى مع مصر ، خاصة بعد أن ذابت أسرة بازرعة فى المجتمع المصرى عبر الزواج والمصاهرة والعمل فى شتى النشاطات . . ولا أدرى إن كانت الحكومة المصرية قد دفعت للورثة حتى الآن ما وعدت به من التعويض المجزى الذى يقدر بالملايين!

على أن بازرعة لم يكن التاجر الحضرمى الوحيد فى مصر ، كان غيره كثر من الجيل القديم ، أما الجيل الجديد من رجال الأعمال فلاشك أن أحمد سالم باحبيش وباجنيد وشاهر عبد الحق فى مقدمتهم!

٢٠٤ـ مخبازة الشيبانى

على بلاج «جولد مور» فى عدن التقيت مصادفة بالصديق المصور الفوتوغرافى المصرى الفنان أحمد نور الدين وكانت بصحبته الفنانة المناضلة محسنة توفيق .

أحمد جاء لزيارة زوجته التى تعمل طبيبة نفسية ، ومحسنة جاءت مع فيلم العصفور الذى قامت ببطولته لشهود عرضه فى عدن .

عندما ذهبت مع أحمد نور الدين للسلام على زوجته ، فوجئت بقطع بنية اللون أشبه بالباسطرمة تتدلى فى خيوط متناثرة من البلكونات والشبابيك . . قال لى إنها نواة كفيار يمنى فى مرحلة النضج!

المعروف أن الكفيار تتم صناعته فى مصر بطريقة مختلفة ويطلق عليه اسم «بطارخ»، وهو مرتفع الثمن ولا يقبل على شرائه سوى الذواقة المغرمين أحيانا والموسرين دائما ، ولأننى لم يسبق أن رأيت مثيلا للبطارخ خلال زياراتى لعدن ، لذلك سألته أن يروى لى الحكاية!

قال : تعرف أننى من مواليد حى الأنفوشى ملتقى الصيادين ومراكب الصيد وبيع الأسماك بالإسكندرية ، ومن هنا درايتى الكافية بطريقة صناعة البطارخ من البيض الموجود فى بطون بعض أنواع الأسماك ، وبينما كنت أتجول فى سوق الأسماك

بعدن، اكتشفت أن التجار يرتكبون أخطاء اقتصادية فادحة، «أولا» لأنهم يقطعون رءوس الأسماك ولا يستفيد منها سوى الفقراء بالمجان، والباقى مصيره الصرف الصحى، رغم أن هذه الرءوس يلتصق بها غالبا بعض من لحم الأسماك، ولذلك تصلح وجبة شهية اسمها «صيادية». . والخطا «الثانى» أنهم يستخرجون البيض من جوف الأسماك ولا يستفيد منها أحد ربما لعدم استساغة مذاقه. . بينما يشكل ثروة ثمينة كونه المادة الأساسية فى صناعة الكفيار أو البطارخ.

وحين تذوقت قطعة من البطارخ التى صنعها أحمد نور الدين ووجدتها كاملة المواصفات وطيبة المذاق، من ثم حملت بعضا منها إلى السيد على ناصر رئيس حكومة اليمن الديمقراطى آنذاك، وحكيت له الحكاية، وتذوق البطارخ فى لذة. . وقال: من حسن الحظ أننا على وشك عقد اتفاق مع الاتحاد السوفيتى لتعبئة وتصدير الثروة اليمنية من الأسماك والجمبرى والشروخ، ولعلها فرصة حتى نضيف صناعة الكفيار إلى الاتفاق!

والشاهد أن اليمن يتميز بإطلاله على مساحات شاسعة من البحر الأحمر والمحيط الهندى إضافة إلى كثرة جزره وخلجانه البحرية، ومن هنا كان لتباين درجات حرارة الطقس من مكان لآخر، عاملا إضافيا لجذب شتى الأسماك والحيوانات البحرية، وكلها تتميز بوفرة الفيتامينات والسعرات الحرارية والفسفور، مما يوفر طعاما كافيا لكل أفراد الشعب اليمنى، لكن تخلف وسائل الصيد يظل أبرز العوامل السلبية التى تحول دون تحقيق ذلك.

كذلك كان ضعف وسائل الرقابة والتفتيش البحرى، مثار أطماع شركات ودول كانت تجور على المياه الإقليمية لليمن، وتجنى أرباحا مهولة من وفرة صيدها الأسماك والحيوانات البحرية، وصحيح أن هذه الظاهرة تقلصت إلى حد كبير منذ إعلان دولة الوحدة اليمنية واستكمال وسائل التفتيش والرقابة البحرية وشراء الزوارق البحرية الحديثة، لكن لا تزال إريتريا تمارس الصيد غير القانونى فى المناطق البحرية المحيطة بالجزر اليمنية، وما زلنا نسمع ونقرأ من حين لآخر عن المساعى الدبلوماسية لدى اليمن للإفراج عن المراكب والصيادين المصريين، حيث يصل ثمن كمية الأسماك التى يتم اصطيادها فى كل محاولة للجور على مياه اليمن الإقليمية

زهاء مائة ألف جنيه للمركب الواحد . . ولا تزال هذه الظاهرة فى دور التقنين عبر إنشاء شركة يمنية مصرية مشتركة لصيد الأسماك!

أذكر أننى وأصدقائى اليمنيين كنا نتسوق حاجتنا لوجبة عشاء من الأسماك الطازجة، لا عبر التجار، وإنما عبر الشراء مباشرة من المواطنين والعائلات التى كانت تشم الهواء ساعات العصارى والمغربية على شاطئ خليج عدن، حيث تمتد أياديهم بسنارات الصيد وتأتى غالبا بمحصول وافر من الأسماك.

بعدها نحمل الأسماك الطازجة إلى «المخبازة»، وهى دكاكين صغيرة أشبه بالمقاهى والمطاعم الشعبية فى عدن، متخصصة فى شوى الأسماك وتصنيع الخبز عبر لصق العجين بجدران فرن أسطوانى مشتعل، وما أحلى الأكل الجماعى للأسماك بعد تتبيلها بالبهارات وغمسها فى «البسباس» أى الشطة السائلة!

على أن المخبازة فى صنعاء ومعظم مدن الشمال اليمنى متخصصة فى شوى الخراف الصغيرة والماعز حيث تقدم قطعا كبيرة من اللحم اللين ملتصقة بالعظام مع الشوربة والخبز المعجون بالسمن البلدى والسلاطة «والبسباس»، وغالبا ما تسمى مخبازة «الشيبانى» نسبة لعائلة واحدة من قبيلة بنى شيبان التى تسكن فى منطقة قريبة من تعز، وهى متخصصة فى هذه الوجبة الغذائية الشهية، حتى أننى أطلقت عليها عبارة تقول: من أكل يوما فى مخبازة الشيبانى، عاد إلى اليمن وإن طال السفر ليأكل فى مخبازة الشيبانى!

٢٠٥ـ شرب الشاى فى حضرموت

اصطحبت معى فى زيارة لليمن عام ١٩٧٣ صديقى حجازى رسام الكاريكاتير الشهير بمجلة روز اليوسف، وأذكر عندما غادرنا مطار المكلا ودلفنا إلى قلب المدينة، عندئذ قال لى حجازى وقد غمره الحماس والسرور: «قرأت وسمعت كثيرا عن حضرموت. . لكننى لم أتوقع كل هذا السحر والجمال. . إنها الجنة العربية الإسلامية الآسيوية. . فلا تكاد تعرف بمن تأثرت فى العادات والتقاليد. . أهى الهند أم أندونيسيا. . أم بالعالم كله على اختلاف جنسياته وتقاليده! فما أن وقع نظره فى عرض الطريق على مطعم يخبز العيش ويقدم الفول المدمس مع «البسباس»

حتى نزل من السيارة وطلب وجبة من الفول راح يلتهمها وقوفا فى شهية وقال : حضارة الشعوب تعرف من طعامها . . لقد أحببت حضرموت من أول وهلة . . ليتنى أقضى فى ربوعها بقية عمرى .

كان من رفاق زيارة حضرموت الفنان اليمنى محمد سعيد عبد الله الملقب بمطرب العبيد كناية عن تعبيره عن مشاعر ووجدانيات الطبقة الكادحة، وكان معنا أيضا عازف وأستاذ آلة العود الموسيقية فى عدن جميل غانم، ومن هنا كانت إقامتنا فى المكلا مجموعة من الاحتفاليات المسائية التى جمعتنا مع عدد من الموسيقيين والمطربين والشعراء الحضارمة الذين أسعدونا بالموسيقى والغناء والشعر الحضرمى، أذكر بينهم الشاعر الشاب الفذ لطفى أمان الذى كتب العديد من الأغنيات التى مزج عبرها بين الوطنية والرومانسية وبينها نشيد فى موكب ثورة أكتوبر مطلعه يقول :

يا مزهــــرى الحزين   من ينعش الحــــنين

إلى ملاعــب الصبا   وحبــــــنا الدفـــين

أذكر أن كان للشاى وتقاليد إعداده واحتسائه فى حضرموت نكهة مميزة، حيث يلزم فى البداية الجلوس المريح أرضا بعد لف الوسط بالفوطة «الكاروهات» التقليدية، ولا أبالغ أن تتابع احتساء الشاى عدة مرات فى الجلسة الواحدة، كاد يصيبنا بداء الإدمان اللذيذ، إذ فى كل مرة كان المذاق يحلو أكثر فأكثر، وكان أمام كل واحد من الجالسين صينية معدنية صغيرة عليها براد صغير للشاى ووعاء للسكر وكوب صغير، وعليه أن يخدم نفسه بنفسه ويتحكم فى مذاق الشاى ودرجة حلاوته . . وتلك مجرد لمسة بسيطة من رقى أهل حضرموت فى كل مناحى الحياة!

٢٠٦ - على أحمد باكثيـــر

قد لا يعلم البعض أن الأديب اليمنى على أحمد باكثير الحضرمى الولادة كان صاحب الصياغة المسرحية البارعة لأوبريت «يا ليل يا عين» المستوحاة من الأسطورة الشعبية التى اكتشفها الباحث والأديب المصرى توفيق حنا وجرى عرضها بنجاح منقطع النظير على مسرح الأوبرا أوائل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ويشاء حظى السعيد أن التقى به فى جلسة الجمعة بمنزل العلامة محمود شاكر بمصر الجديدة وكان بين الحضور الأديب الكبير يحيى حقى، ويومها استمتعت بالحوار الممتع بين العمالقة الثلاثة حول شئون التراث وشجون الأدب وجماليات اللغة العربية، عملا بالمثل القائل «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب» ومن حسن الصدف أن باكثير ركب معى فى سيارتى إثر نهاية جلسة الجمعية.. وعندما سألته عن وجهته، كانت سعادتى غامرة حين اكتشفت أنه جارى فى حى منيل الروضة، وبعدها التقيناه وشقيقتى الأديبة الراحلة عايدة الشريف مراراً فى منزل شيخ النقاد الدكتور محمد مندور فى نفس الحى وكانت بينهما مساجلات مفيدة وممتعة حول فن المسرح!

ولد باكثير فى مدينة «سورابايا» بأندونيسيا عام ١٩٠٦ حيث كان والده مغتربا بها ويعمل فى التجارة، وكان قد تلقى تعليمه الأولى بمدرسة الإرشاد الحضرمية، حين قرر والده العودة به إلى مسقط رأسه حضرموت عام ١٩٢٠، حيث التحق وأكمل تعليمه الثانوى بمدرسة النهضة فى «سيئون»، وبعدها سافر إلى القاهرة وحصل على ليسانس الآداب عام ١٩٢٩.

من سيرة حياته العطرة أنه قطع شوطا من دراسته وإدراكه المعرفى بالدين والأدب يدعمه الفقيه محمد بن محمد باكثير، كما أنه تولى إدارة مدرسة النهضة التى كان واحدا من تلاميذها من قبل، ثم أصدر عام ١٩٢٠ مجلة «التهذيب» الشهرية مع رفيق دربه محمد بن حسن بأرجاء وكانت آنذاك مجلة خطية وغير مطبوعة ولذلك كانت تعتمد على تداول نسخها المحدودة بين القراء، لكن المجلة لم تستمر طويلا بعدما طالها النقد المعارض لتوجيهاتها الاجتماعية المتحررة.

والشاهد أن باكثير كان على عادة الحضارمة ولوعا بالسفر والترحال والتجربة، فهو قد غادر سيئون عام ١٩٢٢ إلى الصومال، ومنها إلى إثيوبيا، وبعدها سافر إلى الحجاز، حيث استقرت إقامته أخيرا فى مصر وحصل على الجنسية المصرية عام ١٩٥٢، كما نال جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٢، ومنحه الرئيس جمال عبد الناصر وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى تقديرا لدوره البارز فى إثراء الحركة الأدبية العربية وإبداعاته الثرية التى لا تحصى

ولا تعد، فهو إلى جانب كتاباته المسرحية وترجماته للآداب الأجنبية، يظل باعه في التأليف مثارا للتأمل والإعجاب والتقدير وبينها على سبيل المثال فى مجال القصة والرواية: «وإسلاماه» التى تحولت إلى فيلم سينمائى - الثائر الأحمر - ليلة النهر - سلامة النفس - «ملحمة عمر» ومن مؤلفاته المسرحية: إخناتون ونفرتيتى - الفرعون الموعود - أبو دلامة مضحك الخليفة - عودة الفردوس - الدكتور حازم، ومن التمثيليات الإذاعية: مأساة أديب - شعب الله المختار - إمبراطورية فى المزاد، إضافة إلى مسرحياته العديدة التى كان المسرح القومى غالبا ما يفتتح بها موسمه الشتوى، ثم كتابه القيم «فن المسرح من خلال تجربتى» فضلا عن إسهاماته المعروفة فى كتابة سيناريوهات وحوارات الأفلام السينمائية وترجمته المميزة لروميو وجولييت عن النص الذى كتبه شكسبير!

على أن باكثير كان بحق رائد الشعر الحديث الذى كان يسميه «الشعر المرسل» وقد شهد له بهذه الريادة الشاعر العراقى بدر شاكر الثياب، كما كان رائدا كذلك فى معالجة القضية الفلسطينية مبكرا منذ عام ١٩٤٤ حيث كتب مسرحية «شيلوك الجديد» التى تنبأ فيها بالنكبة، ثم مسرحياته الثلاثية «إله إسرائيل» و«شعب الله المختار» و«التوراة الضائعة»، حيث كان فى كل إبداعاته مميزا بفكره القومى المستنير وباعه الثقافى الموسوعى، وطابع التحدى لبيئته المختلفة التى تهتم بالشعر الغنائى، فإذا به ينطلق ويتفوق فى كتابة الأوبرا والأوبريت وتشهد على ذلك أعماله فى هذا المجال الصعب وبينها «قصر الهودج» و«شادية الإسلام» و«الشيماء».

وإذا كان باكثير قد خلف وراءه زهاء مائة عمل أدبى بين الشعر والقصة والمسرح والأوبريت والتمثيليات الإذاعية، ومعظمها مستوحى من تراث الإسلام والعروبة والفرعونية، فأولى به التكريم والحفاوة الواجبة المتجددة عبر الندوات والدراسات الأكاديمية والمواسم الثقافية، ونحسب أن ثمة خطوات جادة قد بدأت بالفعل على هذا الطريق، سواء عبر جمعية أصدقاء باكثير فى مصر، ومؤسسة باكثير للآداب والفنون باليمن.

المعروف أن باكثير وافاه الأجل يوم ١٠ نوفمبر ١٩٦٩ إثر بلوغه ثلاثة وستين عاما، وكانت وصيته أن يدفن فى وطنه الثانى مصر!

٢٠٧ ـ عمر الجاوى المناضل الصوفى

كان المناضل الأديب والمفكر المرحوم عمر الجاوى رئيس اتحاد كتّاب اليمن، وهو كان وحدويا حتى النخاع فى زمان التجزئة والتشطير، وأشهد أنه كان قبلتى دوما إلى فهم أبعاد الشخصية اليمنية، ورغم تقلب الحكام ومناهج الحكم فى شطر اليمن الجنوبى، إلا أنه ظل وحده نسيجا فريدا فى إيمانه المطلق بالوحدة والقومية العربية، وعندما وقعت أحداث الحرب الأهلية بين شطرى اليمن عام ١٩٧٢، سارع بنفوذه وفكره وباعه الشعبى إلى الإسهام بدوره فى تجاوز المأزق، ولعب من وراء الستار دورا مقدرا فى التوصل إلى اتفاقية القاهرة للوحدة اليمنية، وكان مسئولا عن تسيير إحدى اللجان التى تفرعت عنها.

وأذكر وكنت معه فى عدن قبيل أيام من اللقاء الموعود بين على عبد الله صالح وعلى سالم البيض الأمين العام للحزب الاشتراكى يوم ٣٠ نوفمبر عام ١٩٨٩، وهو ذكرى جلاء القوات البريطانية من عدن، وإذا بعمر الجاوى شعلة من النشاط المتأجج ليل نهار وعلى مدى ثلاثة أيام، وهو يواصل اتصالاته بكل رموز اليمن السياسية والثقافية وكذا الاتصال بأهل الحل والعقد، حتى يمارسوا ضغوطهم على الزعيمين على عبد الله صالح وعلى سالم البيض للتعجيل بالوحدة اليمنية فى هذه المناسبة التاريخية، وكان يستخدم التليفون ويستحث أصدقاءه وتلاميذه لاستكمال الاتصالات بمختلف ربوع اليمن وخارج اليمن، وأظن أن جهوده أسهمت بامتياز فى إعلان القرار التاريخى المنشود بإعلان الموافقة على إعلان الوحدة اليمنية من حيث المبدأ، إيذانا بإجازة دستور الوحدة فى المجلسين النيابيين فى صنعاء وعدن.

بعدها انخرط عمر الجاوى فى العمل الحزبى، فكان الأمين العام لحزب التجمع الوحدوى، فارسا وشامخا يتصدر المعارضة وملح الأرض الذى لا غنى لآرائه ورؤاه فى الأوساط السياسية الثقافية والاجتماعية، صوفيا ينأى بنفسه عن النفاق والانتهازية والكذب دون أن يقع فى شراك المغريات، إذ كان حب اليمن ثراءه ومحور حياته، دون أن يثنيه النضال يوما فى سبيل اليمن ووحدتها رغم ما تكبده من عذابات، فكان القدوة فى المثالية.. جسورا وعنيدا ولا يخشى التضحية حتى

الموت فى سبيل إعلاء ما كان يؤمن به من القيم والمبادئ الوطنية والقومية والوحدوية .

عرفته مطلع ثورة أكتوبر فى جنوب اليمن عاشقا لمحبوبته وزوجته فيما بعد من الباحثة التاريخية الأستاذة ثريا المنقوش وكانا مضربا للأمثال فى التلاقح الفكرى والرومانسية الثورية إن جاز هذا التعبير ، حتى بعد انفصالهما ظل حبل الود والحوار بينهما متصلا ، رغم أن ثريا خُيل لها أنها الامتداد العصرى للأنبياء والمرسلين ، بل كانت لا تتحرج فى بث الدعوة عبر التردد على «مقايل» الرجال ، تحاورهم وتقارعهم الحجة بالحجة وهى القارئة النهمة والمثقفة والباحثة المعروفة !

كان وهو ابن الجنوب اليمنى يعشق صنعاء ، وعندما تعرضت لحصار السبعين يوما ، كان فى طليعة المدافعين عنها ، وله كتاب قيم عن تلك الملحمة التاريخية وقد سمعته ذات أمسية يمنية وهو يتغنى فى وصال صنعاء أبياتا من الشعر اليمنى أذكر منها :

ما مثل صنعاء اليمــن كلا ولا أهــلها — صنعاء حوت كل فن
يا سعد من حلها تنفى جميع الشــجن — ثلاث فى ســـفحها
الماء والخضرة رباها الفائقــة والوســامة — وكل وجـه حســن
يا ليت شعرى متى الأيام تسمح برجعـة — إلى مدينـــــة أزال
ونستعيض ما مضى يا سيد نفديه جمعه — تطوى بســاط المطال

كان يرحمه الله أديبا فحلا ، وخطيبا ، ومحدثا ، ومؤانسا ، وظريفا ، ولشد ما كان حزنه ومخاوفه عندما ابتليت الوحدة اليمنية بالحرب وبالانفصال واجترار النعرات والأحقاد والأطماع المكبوتة التى راحت تعبر عن نفسها بأشكال شتى وفى مجالات متعددة ، وكان يرى أن التحالف الثنائى بين حزبى المؤتمر والإصلاح واستبعاد الحزب الاشتراكى قد يؤدى إلى الاستبداد ، وأن مستقبل اليمن وأمنه يكمن فى الائتلاف الثلاثى أو فى الصيغة الوحدوية الجبهوية التى تؤمن أوسع مجال للمشاركة السياسية الديمقراطية !

يرحمه الله فقد هدّه المرض ولكنه ظل متفائلا مبتسما حتى وافاه الأجل !

٢٠٨ ـ أركنهـــا الفقيـــه

سمعت عن اسم السيدة عزيزة عبد الله لأول مرة فى القاهرة قبيل اندلاع ثورة ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ بنحو شهرين فى منزل القاضى الشاعر محمد محمود الزبيرى أبو الأحرار اليمنيين طيب الله ثراه، وكنت آنذاك على صلة صحفية حميمة به ورموز غيره من قادة المعارضة اليمنية وبينهم الأستاذ أحمد النعمان والأستاذ محسن العينى ممثل اليمن آنذاك فى اتحاد العمال العرب وعدد آخر من الطلبة اليمنيين الذين كانوا يدرسون عهدئذ فى جامعة القاهرة والمدارس الثانوية النائية فى حلوان وطنطا وبنى سويف.

أذكر فى منزله الكائن بحى الدقى أننى كنت فى زيارته والصديقان الأديبان غالب هلسا «الأردنى» ووحيد النقاش «المصرى» ـ يرحمهما الله ـ عندما زف إلينا الأستاذ الزبيرى خبر خطبة الأستاذ محسن العينى على الآنسة عزيزة عبد الله التى جاءت من اليمن مع أخيها وسكنت مع أسرته، وقدم لنا فى هذه المناسبة السعيدة أكواب الشربات وأطباق الزبيب واللوز، وهو يحكى لنا أمر تلك الخطبة العجيبة، وكيف أنها تمت شفاهة فى عدن بين شقيقها سنان أبو لحوم أبرز مشايخ قبائل بكيل وواحد من ألمع قادة حركة الأحرار الدستوريين وبين الأستاذ محسن العينى الذى كان يعمل مدرسا آنذاك فى عدن دون أن يرى حتى صورتها أو يلتقى بها وجها لوجه إلا ليلة الزفاف التى شهدتها ومع جمع غفير من النخب المصرية واليمنية!

على أن علاقتى باليمن واليمنيين سواء على الصعيد الصحفى أو على الصعيد الشخصى لم تتوثق وتدم إلا بعد اندلاع الثورة السبتمبرية، حين قدر لى السفر سريعا إلى متابعة مسيرتها والكتابة عنها، وأن تتواصل العلاقة وتزداد وثوقا عبر زهاء أربعين زيارة لليمن، وخلالها تبوأ الأستاذ محسن العينى العديد من المناصب الرفيعة فى اليمن وخارج اليمن ومن هنا أسمح لنفسى ـ بحكم صداقتنا العائلية التى لم تنقطع أبدا ـ الإدلاء بشهادتى عن زوجته الفاضلة السيدة عزيزة عبد الله ومشوارها فى التثقيف الذاتى، إذ شاء قدرها وقدر المرأة اليمنية إبان عهود الإمامة الظلامية الانزواء فى ظل الرجل، وأن يقتصر تعليمها ـ وغالبا فى البيت ـ على

مبادئ القراءة والكتابة فحسب، وربما حفظ بعض سور القرآن الكريم فى أحسن الأحوال، وتلك كانت ميزة تخص بها بعض العائلات بناتها وليس كل العائلات والبنات!

على أننى عندما قرأت السيرة الذاتية للسيدة عزيزة عبد الله عبر حوار معها نشرته صحيفة «رؤى» بمناسبة صدور روايتها الأولى «أحلام . . نبيلة» أدركت أن ثمة فرصة محدودة أتاحت لها قسطًا من التعليم النظامى فى الصغر بمدرسة الزمر، وكانت التلميذة الوحيدة بين تلاميذها الذكور، وبعدها أصبح عدد البنات أربعًا، صحيح أنها لم تكن مدرسة بالمعنى المتعارف عليه الآن، لكنها كانت على أى حال أفضل قليلا من كتاتيب ذلك الزمان.

ويرجع الفضل لوالدها فى الخروج على تقاليد ذلك الزمان التى كانت تحرم تعليم البنات، إذ كان من أبرز قادة القبائل الذين تعاونوا مع حركة الأحرار الدستوريين التى فجرت ثورة ١٩٤٨، ودوره معروف فى قيادة المحور الغربى فى شبام كوكبان، وظل فى موقعه صامدا حتى سقطت صنعاء، حيث أودع مع رفاقه سجن حجة الرهيب بعد فشل الثورة.

ولأنه خالط قادة الثورة ومعظمهم من العلماء ورجال الدين، واتخذ لنفسه بيتا من صنعاء كانوا يترددون عليه ويتحاورون، لذلك كان حريصا على أن يتسلل نور العلم الذى حرم منه إلى عقول أولاده وأولاد عائلته، وإلى الحد الذى أباحه لابنته الوحيدة من إحدى زوجاته.

وربما لولا هذا القسط من العلم، لما كان لها أن تقرأ منشورات الثورة التى تأثرت بها كثيرا وأدركها الوعى مبكرا بمأساة اليمن من خلال كتاب «معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن» الذى تعرفت فيه على فكر كاتبه الأستاذ محسن العينى قبل أن تلتقى به وتزف إليه، وتنفتح عبر الرفقة الزوجية المباركة على العالم وتقدمه وثقافاته ولغاته، مما أهلها للولوج بخطى ثابتة إلى مجالات العمل الاجتماعى التطوعى، سواء فى أوساط نساء المهاجرين والسلك الدبلوماسى العربى فى الخارج، وسواء داخل اليمن، فكان تكريمها أخيرا بجائزة اتحاد نساء اليمن، لكنها لا تزال تصبو إلى أرفع

وسام، حين تتكلل جهودها الراهنة بتحويل قصر غمدان التاريخى فى صنعاء من مجرد قصر للسلاح إلى قصر للثقافة!

والشاهد أننى استمتعت كثيرا عندما قرأت «أركنها الفقيه» ووجدت فيها نضجا فنيا ورؤية إبداعية تمثل نقلة نوعية مقارنة بروايتها الأولى، لكنها سألتنى إن كانت لدىّ ملاحظات على الرواية سواء من حيث الصياغة أو المضمون والمعالجة، قد يكون من المفيد تداركها قبل تقديمها إلى الناشر، وقلت لها: إن ملاحظاتى أنا وغيرى على الرواية الآن أشبه بمن يقترح على الرسام أو الموسيقى التغيير بالحذف أو الإضافة أو التعديل بعد اكتمال العمل، وبدورى سألتها إن كانت روايتها قد اكتملت بالفعل أم لا تزال مجرد «بروفة»؟ وقالت: لقد اكتملت بالفعل. قلت لها: إذن الحديث عنها مؤجل إلى حين طبعها ونشرها!

فإن كانت هناك كلمة حق فى الكاتبة وروايتها، فيكفيها سبق الريادة الذى لم تنتصر فيه على ذاتها فحسب، وإنما كان انتصارها الأعم والأشمل للمرأة اليمنية وكل امرأة عربية تواقة إلى التغيير واستشراف المستقبل الأفضل، ولعل عزاءها وفرحتها معا يكمنان فى القبول بإبداعاتها.. سواء من النقاد والمثقفين وسواء من جمهور القراء فى اليمن وخارجه، وإنها ما زالت تملك الإرادة والموهبة حتى وافقت دار الشروق بالقاهرة ودار النهار البيروتية على نشر روايتها الجديدة المثيرة للجدل «عرس الوالد» وهو ما يؤكد على أن قافلة التقدم والتنوير والديمقراطية فى اليمن تواصل مسيرتها صوب غاياتها النبيلة، غير آبهة بالقاعدين والمعترضين الذين لا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب!

٢٠٩ - رحلة فى البلاد العربية السعيدة

مع بداية زياراتى لليمن ومعرفتى الميدانية بأوضاعها، كنت كلما سألت غيرى من الصحفيين العرب والأجانب عن الدور الحديث للمرأة اليمنية بعد اندلاع الثورة، كانوا يقدمون لنا ممرضة أذكر أن اسمها «عاتكة الشامى»، بينما كان للمرأة شأن آخر فى جنوب اليمن الذى كان منفتحا آنذاك على العالم والرازح تحت نير

الاستعمار البريطانى، ثم فى ظل الحزب الاشتراكى الحاكم . . إذ كانت المرأة اليمنية تشغل العديد من المناصب حتى عضوية المجلس النيابى وتمارس مختلف المهن .

اليوم وبعد إنجاز الوحدة اليمنية راحت المرأة تشق طريقها فى ثقة وكفاءة وعن علم لاستعادة زخم حضارة تاريخ «العربية السعيدة» حين تربعت الملكات سدة الحكم تباعا وبينهن الملكة بلقيس فى القرن العاشر قبل الميلاد، وحتى نالت اليمن الحكم الذاتى بعد صراع طويل عام ١٩١٧ إثر الانفصال عن الحكم التركى . . وبعدها غطت المرأة فى سبات عميق من التخلف والعزلة والتقاليد القاسية، ومارست دورها كربة بيت أو فلاحة أو عاملة أو بائعة فى ظل الرجل!

كانت المرأة اليمنية بائسة ومرهقة ومحرومة من نعمة التعليم فما بالكم بالترفيه على حد ما رصده الكاتب نزيه العظم فى كتابه «رحلة» فى بلاد العربية السعيدة، حيث لاحظ فى عيون نساء اليمن اصفرارا يشبه المصابين باليرقان، وصحتهن معتلة للغاية، وأن بعضهن يعملن على مطحنة التمباك من طلوع الفجر حتى الظهر، مقابل ما يسد حاجتهن للطعام المتواضع .

كانت نسبة الوفيات ٨٠٪ بين الأطفال مع انتشار الأوبئة والمجاعات، وكانت النساء المريضات يصرخن من آلام المرض حتى الموت بغياب الرعاية الصحية، وفى كتابها الشهير «كنت طبيبة فى اليمن» تصف مؤلفته الفرنسية كلودى فايان وضع المرأة حينها: «قد يخيل للإنسان أنه يستطيع أن يتصور فظاعة وشناعة كهذه، ولكن مشاهدة هؤلاء النسوة فى هذه الزرائب أكثر سوءا من كل ما قد يخطر على البال، لقد قرأت كما قرأ الناس أوصاف معسكرات الإبادة والإفناء، ولكنى هنا رأيت بأم عينى المرأة تحتضر وهى راقدة فوق برازها، رأيتها تنهض وتتناول طفلها المبلل وهى فى النفس الأخير . . تتضرع وتتوسل!

حتى المرأة الفقيرة عندما تصل إلى سن العمل، كان مصيرها خادمة فى بيوت الأمراء والسادة، وإذا رفض والدها أو زوجها يزج به فى السجن، وكانت المرأة مجبرة على الزواج ولم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، بينما تقف «العنوسة» على رأس قائمة المشكلات الاجتماعية الآن فى اليمن لأسباب شتى بينها المغالاة فى

المهور والشبكة وكلفة حفلات الزواج، وهى من أهم الدوافع وراء الغربة وهجرة الرجال والعمل بالخارج للوفاء بتكاليف الزواج!

الآن نستطيع الحكم الموضوعى باطمئنان إلى أن المرأة اليمنية استفادت إلى حد كبير من كسر الثورة لأسوار العزلة عن اليمن، حيث أقبلت على العلم عن قناعة وشوق جارف وفهم، وشغلت أعلى المناصب ونالت من العلم درجاته الجامعية كالماجستير والدكتوراه، وقد شهد على هذه الطفرة الحضارية لنساء اليمن الكاتبة الأديبة المصرية نعم الباز!

٢١٠ـ نشتهى أمة الرزاق

أذكر أننى التقيت فى صنعاء عام ١٩٧٧ بالصديقة والزميلة العزيزة نعم الباز، وكانت آنذاك مرافقة لزوجها المهندس فؤاد كامل عبدالحليم كبير خبراء الأمم المتحدة باليمن، وعلى عادتها دوما فى التواصل الاجتماعى الحميم مع ا لناس. . كان بيتها فى صنعاء مزارا لليمنيين ومجلسا للحوار.

ورغم أنها عنيت فى المقام الأول بتوظيف معظم وقتها وخبراتها المعرفية فى رعاية ونجاح مهمة زوجها، إلا أن ملكاتها الأدبية وفضولها الصحفى فرض عليها أداء سنة العطاء والإبداع حسبما تقول «لم تكن الكتابة نائمة. . لعن الله من أيقظها»، فكانت المفاجأة فى صدور كتابها الذى ضم روايته الجميلة من وحى اليمن تحت الجميلة عنوان «نشتهى أمة الرزاق»!

تقول فى مقدمة الكتاب تحت عنوان حكاية فى عمق العرب. . «أمة الرزاق التى نعيشها هنا ـ تقصد اليمن ـ هى أنا فى القاهرة وغيرى فى الكويت وعمان والإمارات والسعودية وكل بلادنا. . إنها ضمير المرأة ومشوارها عبر الرجل. . إنها نون النسوة تشق الشرنقة وتخرج فراشة من أجل المجتمع العربى الذى عاش مشلول النصف مئات الأعوام، فكان لا بد من التضحية الشريفة لبعض منا حتى يعيش البعض الآخر»!

هى قصة فتاة تدعى أمة الرزاق تتسلل فى ذكاء وإصرار من واقعها المتخلف

شديد التزمت عبر تسخير المتناقضات الاجتماعية حتى تصل إلى ما انقطع من حضارة اليمن الخالدة، عندما اقتضت فرصة التعليم التى أتاحتها الثورة اليمنية للجنس اللطيف، ونصب عينها ما كان للمرأة اليمنية من حول وطول فى زمان بلقيس والملكة أروى بنت أحمد. . دون أن تثنيها عواطفها الشخصية عن تحقيق طموحاتها للعلم والاستنارة والتقدم ما وسعها الوقت والجهد!

ونظلم القصة كثيرا حين نستسهل المغامرة إلى تلخيص وقائعها المثيرة فى بضعة سطور، ولا مفر إذن من الإقبال على قراءتها كاملة فى تأن وشغف، والاستمتاع بأسلوب الكاتبة الرقيق الأنيق، وإلى أى مدى ولعها باليمن بعد أن عاشت أجواءها وتنسمت عبقها الفواح على مدى ثلاثة أعوام ونصف العام متصلة، لكأنها العاشقة الولهانة وهى تجتر ذكرياتها الجميلة عبر السرد الروائى والحبكة الدرامية، بالتوازى مع استعراض مناخات اليمن عبر الفصول الأربعة وانعكاساتها على الطبيعة والمناشط الاجتماعية، إلى حد التأريخ الضمنى للأزياء والتقاليد والعادات واللهجات. . لكأن نعم الباز المصرية القح باتت يمنية قحًا أبا عن جد الجدود!

يقينى أن قصة «نشتهى أمة الرزاق» حلقة أدبية متميزة فى عقد التواصل الثقافى المصرى اليمنى، وهى نموذج يتسم بالشفافية والإخلاص دأب الكثير من الإبداعات المصرية واليمنية المعروفة وتلك التى طواها النسيان، مما يحتاج إلى مزيد من الاهتمام والجهد لإعادة اكتشافها والتعريف بها خاصة لدى الأجيال الجديدة فى البلدين التى لم تعاصر عناق ثورة ٢٣ يوليو للثورة اليمنية، عناق الدم والشهداء والمصير القومى إلى الأبد!

٢١١ـ من الوزيرة إلى الكابتن روز

كذلك استفادت المرأة اليمنية من النهج الديمقراطى للوحدة إلى حد بعيد، حيث تشير أرقام الانتخابات التشريعية عام ١٩٩٣ إلى أن عدد الناخبات بلغ ٤٧٨٧٩٠ ناخبة، حيث تصاعد العدد إلى مليون و٠٧٣ , ٢٧٢ ناخبة فى انتخابات عام ١٩٩٧ وفوز ٣٥ امرأة فى الانتخابات المحلية، ثم تضاعف العدد فى انتخابات الرئاسة، ولعله الحجة والدليل على أن المرأة اكتسبت دورها المجتمعى، ومن كان يدور فى

ذهنه أن تقطع المرأة اليمنية هذا القدر من أشواط التقدم حتى أصبحت تشارك فى العمل السياسى وعضوية الأحزاب، وتبوأت أعلى مناصب القضاء والسلك الدبلوماسى، وأصبحت أمة العليم السوسوة وزيرة لشئون حقوق الإنسان بعدما نجحت كسفيرة لليمن فى هولندا وحتى جرى اختيارها مؤخرا مساعدة لسكرتير الأمم المتحدة ومديرة للبرنامج الإنمائى الخاص بالمنطقة العربية، بل واقتحمت المرأة الميدان الثقافى والإبداعى بقوة واقتدار، والأمثال كثيرة بلا حصر ولعل ذاكرتى لا تخوننى حول معرفتى بالعديد من اليمنيات ممن باتت لهن أدوار بارزة فى المجتمع، وبينهن المفكرة الحضرمية أبكار السقاف، والشاعرة هدى إبلان التى أقام لها «أتيليه» القاهرة ليلة شعرية، وشفاء منصور مؤلفة «النافورة» التى تحكى فصلا من بطولة المقاومة الشعبية، واعتدال ديرية وقصتها «صور من الماضى» عن الكفاح المسلح فى جنوب اليمن، ونفس الصورة والمضمون النضالى فى قصة «المهمة» للأديبة افتكار منصور، والمذيعة المتألقة فوزية الرموش التى بدأت مسيرتها فى برنامج «روضة الأطفال» ونجمة الفضائية اليمنية مها البريهى، والمذيعة مايسة ردمان، والسيدة «الباشا» خبيرة الاستثمار بوزارة الاقتصاد والباحثة سامية الأغبرى التى نالت الماجستير حول قضايا المرأة فى الصحافة اليمنية، ونبيلة الزبير مؤلفة قصة «إنه جدى» التى نالت المركز الأول فى مسابقة جائزة نجيب محفوظ والفنانة التشكيلية آمنة النصرى، والصحفية رضية إحسان الله ومصممة الأزياء مها الخليدى، ومنى باشرحيل عضو مجلس الشورى، والدكتورة ميرفت مجلى الأستاذ بكلية طب جامعة صنعاء، وحورية مشهور نائبة رئيس اللجنة الوطنية للمرأة، والدكتورة أروى الربيع مدير عام مستشفى السبعين، وفوزية النعمان رئيسة جهاز محو الأمية، وفايزة بامطرف عميدة كلية البنات بجامعة الأحقاف وشذى ناصر أول محامية يمنية، والدكتورة خديجة الهيصى أستاذ العلوم السياسية بكلية تجارة جامعة صنعاء، والباحثة ثروة أحمد شعلان المعيدة بكلية تجارة جامعة صنعاء، والمحامية نبيلة الحكيمى الناشطة فى مجال الدفاع عن حقوق الإنسان والدكتورة رءوفة حسن أستاذة الصحافة بجامعة صنعاء، ثم الدكتورة وهيبة فارع أول وزيرة لشئون حقوق الإنسان ورئيس جامعة الملكة أروى، نهاية بخديجة السلامى أول مخرجة سينمائية وأول إنتاجها الفيلم التسجيلى «الغريبة فى مدينتها» الذى نال الجائزة الأولى فى مهرجان بيروت للأفلام

التسجيلية، غير جائزة تقديرية فى مهرجان هولندا، وبعدها حققت مجدا إبداعيا جديدا فى مهرجان «سانت مالو» للأفلام السينمائية والكتب عام ٢٠٠٦، حيث عرضت عددا من أفلامها بينها «اليمن ألف وجه ووجه»، «سقطرى جزيرة الرجل ذو الرجل الذهبية» بالإضافة إلى فيلم «الغريب»، وفيلم «أمينة»، وفى مجال الكتابة عرضت كتابها «دموع ملكة بلقيس، بينما نجحت فى استقطاب أكثر من مخرج أوربى عنى بتصوير أفلام سينمائية عن اليمن، بينهم المخرج بى إتش سلفانى الذى قدم فيلم «سائح فى اليمن»، والمخرج الفرنسى كارل بروكوب وفيلمه «اليمن بين القبيلة والمدينة».

كذلك الممثلة الواعدة فتحية إبراهيم، والكاتبة روز عبد الخالق الرزاق على محمد أول طيارة مدنية محترفة فى تاريخ اليمن والجزيرة العربية و. . حتى جرى اختيار الدكتورة أمة الرزاق على أحمد وزيرة للشئون الاجتماعية والدكتورة خديجة الهيصى وزيرة لحقوق الإنسان!

المعروف أن الكثيرات فى الجنس اللطيف خلعن الحجاب عن وجوههن إبان حكم الحزب الاشتراكى لليمن الديمقراطى، بينما فى الشمال ظلت النساء سافرات فى منطقة تهامة، أما فى غيرها فكانت القلة القليلة ممن خلعن الحجاب، وقد أعلنتها الباحثة الأكاديمية الدكتورة إلهام المانع حربا شعواء على الحجاب، بأنواعه بشرط التزام الحشمة. . تقول إن من يرى خلع الحجاب مجلبة للإثارة الجنسية، يفترض أن المرأة مجرد وعاء جنسى والرجل حيوان جنسى، ثم ما هى العلاقة بين قطعة قماش والإيمان بالخالق الذى منح الإنسان العقل ليفكر ويعبر عن رأيه. فهل كانت الدعوة لتحرير المرأة مأمونة ومتاحة لو لم تندلع الثورة فى اليمن واستعادة وحدته وخياره للديمقراطية أساسا للحكم؟

والشاهد أن جمال المرأة اليمنية وليد عالم التنوع البيئى والمناخى الذى تزخر به مختلف ربوع اليمن، فساكنات ذرى الجبال الخضراء لهن ملامح وسمات وبنية مختلفة عن ساكنات المدرجات والسفوح والوديان والسواحل أو الصحراء، ورغم أن المرأة اليمنية فى الغالب تشارك الرجل فى كسب المعايش، إلا أنها لا تنسى الحفاظ على ما وهبها الله من الجمال، عبر اختيار زينتها من الطبيعة دون اللجوء إلى

المساحيق الصناعية والأصباغ الكيميائية، فهى تكحل عينيها بما يسمى «الأثمد» وهو مسحوق حجر طبيعى أسود اللون يميل إلى الزرقة، وتغسل شعرها وتستحم كذلك بأوراق شجرة الدر والنبق والدوم بعد غليه فى الماء، والحناء من الزينة الأساسية للشعر وصبغه، وكذا تزيين الأيدى والأقدام بنقوش جميلة من الحناء كما لو أنها لوحات تشكيلية، كما تستخدم رماد بعض جذور النباتات بعد حرقها فى عملية تزيين الصدر والوجه والأنامل وحول العين فى أشكال هلالية، مما يشى باستيحائها من العمارة اليمنية، وكذلك تتعطر المرأة بالنباتات ذات الرائحة الذكية كالشذاب والريحان والمشموم والكاذى أو تلف بها شعرها فى عصابة حول رأسها، وتسمى هذه الطريقة «مشاقر» بمعنى علو البناء، ثم هناك طيوب طبيعية أخرى مثل المسك أو العنبر والزيوت المستخرجة من «قط الزباد» فى جزيرة سقطرة، وكذلك الظفر المستخرج من الحيتان البحرية.

٢١٢ـ الفضة زينة الزينات

وتميل المرأة اليمنية إلى التزين بالمصوغات والإكسسوارات الفضية أكثر من الذهبية، ويقولون عنها فى اليمن إنها زينة الزينات ولا تزال بعض العائلات اليمنية العريقة تحتفظ بالحلى القديمة دقيقة الصنع، وتعرف بالفضة «البوسانى» نسبة لعائلة يهودية كانت تشتهر بصناعتها فى الماضى.

وتتزين المرأة اليمنية بعقود الفضة من باب الزينة والإدخار، ولذلك تتدلى منها فى الغالب عملات من الفضة أو الذهب والعقيق واللؤلؤ الحر، وهى دليل على المكانة الاجتماعية، بينما تلف خصرها أو يتدلى من رأسها حزام من الفضة يسمى «العصبة»، أو يتدلى على الخدود ويسمى «زين الخد»، إضافة إلى الأساور العريضة وتسمى «قبور العشاق»، وكذا الخلاخيل التى تطوق الأقدام وغالبا ما يرصعها الحلى وكذا الخواتم بفصوص من العقيق اليمنى والمرجان واللؤلؤ.

وإذا كان الزى النسائى التقليدى الموروث فى اليمن وخاصة الشمال عبارة عن «الستارة» والشرشف والعباءة والمعرفة والملحفة، فقد ظهرت مؤخرا أكثر من محاولة لتطويرها مع الحفاظ على أصالتها التراثية، وكانت البداية فى أزياء الطالبات

الجامعيات، عبر الدعوة التى تبنتها الصحفية رضية إحسان الله، إذ تقول «لماذا نرتدى زى شعب آخر ونحن أمة عريقة فى الحضارة، ولماذا تقلد المرأة العربية الموضة الأوربية ونتخذها مثلا أعلى فى الأناقة، ولماذا نسايرها فى قص الشعر ورسم الوجه حسب الملامح الأوربية».

ثم تجيب على هذه التساؤلات قائلة: لاشك أن التبعية الحضارية تؤدى حتما إلى التبعية الاقتصادية ومن ثم التبعية السياسية بشكل أو بآخر، ومن هنا فإن التحرر الحضارى يعنى التحرر النفسى والروحى من تبعيتنا للغرب، والزى القومى هو وسيلة من وسائل التحرر كما حدث فى معركة التحرر بالهند - حيث كانت الدعوة إلى زى وطنى من أهم أهدافها ورغم أخذه باللغة الإنجليزية والكثير من الثقافة الإنجليزية!

٢١٣ - جمعية الزى الوطنى

بعدها كان السؤال عن الزى الوطنى الذى يجب تعميمه والتمسك به، وقد أثارت هذه القضية اهتماما واسعا من الإعلام اليمنى، واتفقت الآراء فى النهاية على أن مجموعة الأزياء اليمنية الشعبية الموجودة فى قرى ومدن اليمن المرشحة للاختيار والتطوير!

وهكذا على صعيد الزى النسائى الوطنى، بدأ اهتمام الباحثين اليمنيين بجمع مفرداته من مختلف ربوع اليمن، والتعريف بها، مثل الأزياء الصنعائية والتهامية، والتعزية، والعدنية، والحضرمية، وتسليط الضوء على الحلى والزينة المكملة لها.

فى الوقت الذى نشطت شركات ومؤسسة السياحة فى تكليف الخياطين المهرة لحياكة الأزياء اليمنية الشعبية المنتقاة، وإنتاجها وبيعها للجمهور وللأجانب، وهو ما شجع ربات البيوت على إتقان وممارسة حياكة هذه الأزياء وتسويقها، لكن يظل الدور المطلوب يكمن فى تنفيذ مشروع «دار الأزياء اليمنية» النسائية أولا إلى حين يأتى الدور على الأزياء الرجولية!

والمدهش أن رضية إحسان الله صاحبة دعوى التمسك بتكريس وتطوير الزى

النسائى الشعبى فى اليمن عملت بالقانون واحترفت المحاماة فترة من الوقت، ثم أتيح لها السفر إلى الخارج مراراً، حتى هداها التفكير إلى ضرورة العودة إلى الحضارة العربية الإسلامية والتمسك بها عبر تكوين جمعية «الزى الوطنى»، وقد باركها ودعمها الرئيس على عبد الله صالح، حيث انضم إليها الكثير من الرموز الثقافية والنساء العاملات بالدولة والمهتمين بالدعوة، وبعدها روجت الصحافة للفكرة وتداعت لها الأديبة اللبنانية غادة السمان فى مقال بعنوان «دعونا نرتدى جلدنا» حيث بدأ العمل فى هذا الميدان بأسلوب علمى وفى إطار خطة مبرمجة!

كانت البداية فى إجراء دراسة ميدانية وتاريخية شاملة، عبر تسجيل الملابس الشعبية من المتاحف والمعارض والرسوم والتماثيل الأثرية، بالإضافة للاجتهاد عبر القراءة الاجتماعية للشعر والتاريخ والاقتصاد للدولة اليمنية عبر العصور، وذلك كان خلاصة الكتاب الذى توافر على وضعه الباحث اليمنى عبد الرحمن هجوان!

على أن مصممة الأزياء اليمنية مها الخليدى كان لها منهج وأسلوب مختلف، فهى كانت قد بدأت العمل مساعدة لمصمم الأزياء «لويجى» بالقاهرة، ثم درست هذا الفن واشتغلت عارضة أزياء كذلك فى اليونان، ومن هنا كان مفهوم التطوير فى تصاميمها للأزياء اليمنية متميزا بالحداثة ودون التفريط أو تزيد فى استلهام العراقة التراثية اليمنية، وهى قد بادرت وحدها إلى جولات ميدانية لجمع تراث الأزياء اليمنية، والاهتمام بإعادة تصنيع بعض أنواع القماش اليمنى الذى أوشك على الاندثار، وبعدها . . بعد مجهود شاق استغرق سنوات، عرضت باكورة تصاميمها فى حفل عام نال إعجاب الجميع كما نجحت فى تسويق إنتاجها، مما شجعها على التفكير فى إنشاء شركة أو بيت أزياء متخصص، يتبعه ورشة لتصنيع الثياب النسائية اليمنية المبتكرة، وتطريزها، ومحاكاة الحلى الفضية القديمة التى مضى على تصنيعها ٢٠٠ عام!

ثم كان للباحثة اليمنية أمة الرزاق حجاف دور فى دراسة ميدانية هامة حول الأزياء الشعبية ورصد أنواعها والفروق بينها ومنابعها البيئية والمناطقية، وهى ترى ضرورة توحيد أزياء المرأة اليمنية تأكيدا على علاقة المجتمعات ببعضها البعض وعلاقة اليمن بالآخر، وذلك هى مهمة «الجمعية النسوية لتأهيل ورعاية المرأة والطفل».

٢١٤ـ الزواج «الفريند» لمولانا الزندانى

يفسر مولانا الداعية الإسلامى اليمنى الشيخ عبد المجيد الزندانى فتواه العجيبة التى أطلق عليها وصف الزواج الفريند، فيقول: هو زواج شرعى وليس سفاحا، خاصة وقد توافرت له أربعة أركان، أن يتم الزواج فى حضور ولى الفتاة الأجنبية كالأب أو الأخ أو من كان من عصبتها وأقرب إليها، لعله يتمكن من الدفاع عنها عندما تتعرض هى أو مصالحها للضرر، كذلك لا بد من توافر شاهدين لإثبات صحة العقد وما يترتب عليه من حقوق وواجبات، وما ينتج عن المعاشرة الجنسية من خلفة الأولاد والبنات، ثم إنه من الضرورة كذلك من منطوق صيغة عقد الزواج الشرعى، أن يقول الولى عن المرأة لمن يزوجها به «زوجتك ابنتى أو أختى أو فلانة» ثم يجيبه الزوج «قبلت الزواج لنفسى بها» وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول فى شأن مهر الزوجة «التمس ولو خاتما من حديد» فالمعنى إذن أن تتم إجراءات «زواج الفريند» سهلة سريعة دون تعقيد كما الوجبات السريعة «تيك أواى»!

والزواج الشرعى كما يقول الزندانى لا يشترط بيتا مستقلا للزوجية على خلاف مختلف الفتاوى والسوابق القضائية فى أحكام الأحوال الشخصية، فالبدوى على سبيل المثال من أين يأتى بالبيت وهو لا يملك حتى خيمة، كما لا يشترط أن يكون الزوج ذا مال أو سيارة أو حتى وظيفة، ثم يتساءل صاحب الفتوى: هل يعنى فقره وقلة حيلته أن يظل أعزب محروما ومعذبا؟ بينما كانت المجتمعات الإسلامية قد وجدت لهذه المشكلات حلولا عبر التضامن الاجتماعى، كأن يخصص للابن العريس مكانا خاصا فى بيت الأسرة حتى يعاشر فيه زوجته، أو تدخل الزوجة البيت فى الوقت الذى تخرج منه أم العريس مثلا بدعوى زيارة الجيران أو قضاء أخته حاجة فى الخارج!

لكن كيف غابت فكرة «الزواج الفريند» ١٤٢٦ عاما هجرية منذ ظهور الإسلام، وظلت تحوم فى الفضاء الإسلامى حتى هبطت كما الوحى على الشيخ الزندانى.. يقول: لأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ولأن ما يناسبنا فى أوطاننا قد لا يناسبنا فى أوطان غيرنا، من هنا كان لا مفر من البحث عن حلول لكم

وألوان المشكلات التى وصلتنى من أولياء أمور المسلمين، حول عجزهم عن مواجهة ظواهر التحرر التى تكاد تفتك بأولادهم خلال اغترابهم فى أوربا وأمريكا، فالولد يأتى بصديقته إلى منزل عائلته وكذلك الفتاة دون أن يملكوا ولا يستطيعوا الاعتراض، وقالوا لى إن هذه الأمور وهذه الظواهر تكاد تدمر حياتهم الأسرية التى تحكمها تعاليم الإسلام ونواهيه، فما كان بوسعى إلا أن عرضت عليهم الفتوى عبر فكرة «الزواج الفريند» حتى أصل لأذهانهم وأخاطبهم بعقلية المجتمعات التى يعيشون فيها بالخارج، وإذا كان الإسلام يشترط الإعلام بالزواج وأن يولم للزواج ولو بشاة، فمن الممكن أن يتم ذلك عبر احتفالية بسيطة، خاصة وظروف التقشف وكون المسلمين أقلية فى المجتمعات الغربية التى لا يستطيعون الانسلاخ منها تبيح لهم مثل هذه التسهيلات، ولأنهم بين نارين للفتنة، فإما أن يتركوا أولادهم وبناتهم يسيرون فى طريق الزنى والفجور، أو أن يعقدون زواجهم وفقا للأصول والقواعد الشرعية مع التخفف من الأعراف والتقاليد الموروثة لكون الضرورات تبيح المحظورات.

كذلك طالب الزندانى بتطبيق هذه الصيغة من الزواج فى الوطن العربى وفى الجامعات اليمنية إذا ما خاف الآباء على أبنائهم وبناتهم من الانحراف، وعلى الرئيس على عبد الله صالح أن يسعى لتزويج العوانس جماعيا أسوة بالإمام أحمد حميد الدين.

على أن الزندانى بعد أن قوبلت فكرة زواج الفريند بالنقد والسخرية من عامة الناس واستهجان بعض رجال الدين، عاد يؤكد على أنه يدعو فى حقيقة الأمر إلى «الزواج الميسر». . بمعنى أنه صورة ميسرة للزواج الشرعى!

تلك كانت فتوى «الزواج الفريند» وتفسير صاحبها على نحو ما تواتر حولها من حوارات وأحاديث الشيخ عبد المجيد الزندانى وعنينا فى نقلها بكل دقة وأمان، ورغم وعينا بصحيح الدين الإسلامى، إلا أننا نتواضع كثيرا فى مناقشة أفكاره، تاركين الساحة لغيرنا من ثقات المرجعيات الدينية حتى نخلص إلى القول الفصل قبل أن تقع الفأس فى الرأس كما يقولون، ويندفع شبابنا وشاباتنا إلى طريق الغواية باطمئنان زائف!

وإذا كانت الفتوى لا تشترط توثيق عقد «زواج الفريند» لدى المأذون أو الشهر العقارى، فكيف يدفع الزوج عن نفسه الضرر إذا اكتشف خيانة زوجته مثلا أو دست عليه أطفالا أنجبتهم من غيره، أو حتى لم تنهض بواجباتها الزوجية أو المنزلية، وهل يستطيع فى مثل هذه الأحوال أن ينال حقه بالذوق، وإذا لم ينفع الذوق هل يستدعى ولى أمرها لحل هذه المشكلات بالعافية والخناقات أو الشرطة ؟

ثم إن الفتوى كما فسرها الشيخ الزندانى تكمن فى الأساس حول حل مشكلة الرغبة الجنسية العارمة كبديل للزنى، ولا تعطى أدنى أهمية لتأسيس الحياة الزوجية وبناء الأسرة الفاضلة كنواة للمجتمع الإسلامى الفاضل، فما قول فضيلتكم إذا كان مجرد اللقاء بين الزوجين عند الضرورة لممارسة الجنس دون أى التزام متبادل، إنما وقوع الزنى بعينه الذى يستوجب عقوبة الرجم فيما أعلم!

كذلك فإن تركيز فتواك يا شيخ زندانى على الشباب المسلم المغترب فحسب دون أن تنال الشابة المسلمة المغتربة نصيبها الواجب من تفسيرك يعنى أنك أوقعت نفسك فى شراك لا فكاك منها، إذ إنها تعنى فى المقابل أن تنال حقوق الشاب فى أن يكون لها أيضا «بوى فريند» وهل من الضرورى إذن أن يكون مسلما، أم أن الضرورات كذلك فى هذه الحالة تبيح المحظورات، فلا مانع إذن لدرء أضرار الكبت والحرمان من زواجها بخواجة، بعد نطقه الشهادة أولا بلغة أجنبية أو بالعربية المكتوبة باللاتينية وسط ضحكات وسخريات المدعوين بالطبع!

وإذا كنت على سبيل المثال تسمح لابنك بالزواج «الفريند» من خواجاية، فقل لنا بربك هل تسمح لابنتك بالزواج «الفريند»، فلماذا إذن تبيحه لغيرك إذا كنت تحرمه على نفسك فى حالة إجابتك بالنفى، ثم أعود فأسألك عن مصير «الزواج الفريند» حين يعود الشاب أو الشابة المسلمة من الغربة أو الدراسة إلى أرض الوطن، هل مصيره الطلاق تلقائيا، أم إعادة عقد القران من جديد وفقا للأصول الشرعية الصحيحة، والأدهى والأمر مصير الأولاد والبنات الذين جرى إنجابهم عبر «الزواج الفريند» إذ أخشى ما نخشاه أن يعاملوا فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية منبوذين كأولاد السفاح، مع كم وألوان المشكلات التى تنتظرهم بداية من استخراج شهادات الميلاد مرورا بإلحاقهم فى المدارس الحكومية نهاية بصعوبة تعليم اللغة العربية وانسجامهم مع أقرانهم. . إلخ. . إلخ.

على أننى بحكم معرفتى بالشيخ عبد المجيد الزندانى ليس بوسعى إلا أن آخذ فتوى «الزواج الفريند» مأخذ الهزل، فربما كانت دعابة أو سقطة معيبة لا علاقة لها بالاجتهاد أو التفسير، أو كانت سحابة صيف بانتظار أن تنقشع مع أول هطول لأمطار الحقيقة والشفافية، وأغلب الظن أن فضيلته كان نصب عينيه تجاوزات الهيمنة الأمريكية وإعلانها للحرب الصليبية الحقيقية ضد العرب والمسلمين، بداية بمحاولة إذعانهم لتغيير الخطاب الدينى وثقافاتهم ومؤسساتهم التعليمية والإعلامية، وأنها تؤسس للفكر السلفى المتشدد الذى يولد المقاومة ويفرخ أجيالا من الإرهابيين الذين تتهمهم بالضلوع فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

٢١٥ـ هزيمة المفكرين والعلماء الغربيين

كنت قد ذهبت للحوار معه وأستاذنا المفكر والكاتب الكبير محمد عودة فى منزله بصنعاء أوائل التسعينيات، وكانت اليمن تستعد آنذاك لخوض تجربة أول انتخابات نيابية بعد نهوض دولة الوحدة، وبدلا من أن يرد على تساؤلاتنا وإلحاحنا للتعرف على برنامج حزب تجمع الإصلاح الذى يتزعم جناحه الدينى بينما يتزعم الشيخ عبد الله الأحمر جناحه القبلى إلى جانب رئاسته للحزب، ومضت ساعتان ونحن نحاول الحوار معه، والرجل المعجبانى الذى كحل عينيه وصبغ لحيته بالحناء الحمراء لا يتوقف فى الحديث عن نفسه وجولاته وصولاته الفكرية والعلمية التى خاض غمارها مع عشرات المفكرين والعلماء والأطباء الغربيين تباعا، وكيف أنه أفحمهم بالحجة والبينة حتى دخلوا جميعا فى حظيرة الإسلام طوعا!

وبينما الإسلام يدعو إلى التضامن والوحدة وينبذ الخلاف والفرقة، إلا أن الشيخ الزندانى أعلن عن شكوكه ومخاوفه من الوحدة بين الشطر الشمالى وبين الشطر الجنوبى من اليمن، بدعوى بطلان التحالف مع «المراكسة» الملحدين، وهكذا فى اليوم الذى تحدد لإجازة دستور الوحدة اليمنية، كان الشيخ الزندانى حاضرا لاستقبال موكب الاحتجاج الذى ضم عددا من غلاة رجال الدين ومن والاهم من مشايخ القبائل المغيبين عن الوعى، وأمام مبنى مجلس النواب رفعوا المصاحف باليد

اليمنى والجنبيات أى «الخناجر» فى اليسرى، لكنهم فشلوا فى تحقيق مآربهم وجروا أذيال الخيبة فى النهاية وتحققت الوحدة!

بعدها كان اسم الزنداني يقرع كما الطبول فى «مقايل» مضغ القات التى تمثل البرلمانات الشعبية التى يتداول فيها اليمنيون شئونهم وشجونهم، والحكاية أن «لينا» ابنة عبد الواسع سلام وزير العدل السابق فى شطر اليمن الجنوبى ارتبطت بعلاقة صداقة وزمالة دراسية مع أسماء ابنة الشيخ الزنداني، وكثيرا ما كانت تبيت فى منزلها للمذاكرة معها، وكثيرا ما كان الشيخ يحنو على لينا الرقيقة المسكينة ويبادلها الحديث فى الدين والسياسة . . والقضية بعد ذلك باتت بكل تفاصيلها معروفة للكافة، فقد اكتشفت جثتها فى الطريق العام، وحامت الشبهات حول علاقتها بالزنداني ووصلت إلى تحقيقات الشرطة والنيابة والصحف ومجالس النميمة!

وكانت صحيفة «الشورى» التى تصدر فى صنعاء، قد نشرت لرئيس التحرير عبد الله سعد وشقيقه عبد الجبار سعد معلومات عن الشيخ عبد المجيد الزنداني تعرى مصداقيته كداعية إسلامى، وبينها قصيدته الشهيرة التى يمدح فيها الإمام أحمد حميد الدين، وسبق أن نشرتها صحيفة «سبأ» فى حينها، وكذا فتوى أصدرها الزنداني إبان المؤامرة الانفصالية صيف ١٩٩٥م، يدعو فيها إلى نهب واستباحة عدن، وسبق ونشرتها صحيفتا الأهرام والسياسة الكويتية نقلا عن وكالة الأنباء الألمانية، دون أن يبادر الزنداني إلى تكذيبها!

وعلى ما يبدو أنه أدرك أن سمعته فى مسيس الحاجة إلى حكم قضائى قاطع يبرئ ساحته، حيث حكم على الصحفيين بالجلد والسجن ودفع غرامة قدرها مائة ريال مع حرمانهما من مزاولة مهنة الصحافة مدة عام وإغلاق صحيفة الشورى ستة شهور، وعندئذ أعلن الصحفيون اليمنيون على اختلاف انتماءاتهم السياسية الإضراب عن العمل لمدة ساعة احتجاجا على هذا الحكم الجائر، ولولا تدخل وسطاء الخير لكان من المتعين نفاذ الحكم الذى أصدره القاضى طه الأغبرى، ولكان مصيرهما الموت المحتوم من أول عقوبة الجلد، بالنظر لهزالهم وضعفهم البدنى الذى لمسته عند لقائى بهما فى صنعاء!

على أن الزنداني كاد يوقع اليمن فى ورطة طالبان فى أفغانستان، فهو قد نجح فى

غفلة من النظام فى فرض وصايته على ما يسمى بالمعاهد العلمية التى كانت تخرج عشرات الآلاف من المتأسلمين المتطرفين، وبينهم عشرات المئات من جنسيات عربية وأجنبية وكذلك هيئة التدريس، وحتى ضرب الرئيس اليمنى على عبد الله صالح ضربته، حيث قرر خضوع هذه المعاهد لإشراف وزارة التربية والتعليم والالتزام بمناهجها الدراسية، وتصفية طلابها وأساتذتها من المتطرفين والمتخلفين، فلم يتبق للزندانى من السلطات على مؤسسات اليمن الدينية غير رئاسته الشرفية على جامعة الإيمان إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا.

وأغلب الظن كما يتردد فى اليمن أن الرجل قد أدرك أن سجله بات حافلا بالحقائق أو الشبهات حول دوره فى التهييج الدينى أو التحريض على ممارسة الإرهاب، منذ بداية وصول أفواج العائدين من أفغانستان إلى اليمن، نهاية بحوادث تفجير المدمرة «كول» وناقلة البترول «ليمبرج» واختطاف السواح الأجانب.. ومن هنا أدرك أنه فى بؤرة الرصد والمراقبة من أجهزة الأمن الأمريكية التى أدرجت اسمه ضمن قوائم الإرهابيين، فلم يعد بوسعه غير أن يفسر الدين الإسلامى ويصدر الفتاوى المشبوهة التى تبيح الزنى والدعارة تحت مسمى «الزواج الفريند» المسخرة، لعله وعساه ينجح بمنهجه الجديد المتحرر فى إلهاء الرأى العام عن أخطائه وخطاياه و.. الله أعلم بالنوايا!

٢١٦ـ الزواج السياحى

فى يناير ٢٠٠٣ قرأت بحثا أكاديميا يشير إلى أن اليمنيين يتجهون للزواج بأجنبيات، وكذلك اليمنيات، ثم يؤكد على صحة هذه الظاهرة من واقع الإحصائيات الرسمية.. يقول: يفوق عدد الأجانب المتزوجين من يمنيات على اليمنيين المتزوجين من أجنبيات خلال العام الماضى ١٠٢ مواطن، فيما بلغ عدد الأجانب الذين تزوجوا بيمنيات ٣٣٢ شخصا، وأشار تقرير صادر من وزارة الداخلية إلى أن عدد الأجنبيات اللاتى حصلن على موافقات بالزواج من يمنيين وصل إلى ١٠٢ حالة، من بينهم ٥٠ يحملون الجنسية العربية و٣٦ يحملون الجنسية الأوربية و ١٤ من جنسيات إفريقية و١٠ آسيويات وأمريكيتان اثنتان، وفيما يتعلق

بالأجانب الذين حصلوا على موافقات بالزواج من يمنيات فقد كان من بينهم ٣٠٤ أشخاص من جنسيات عربية و ١٢ آسيويا و١٧ أوربيا و ٦ أمريكيين و ٣ أفارقة وخلال نفس العام حصل ١٨٠ يمنيا ومنهم ١٢ أنثى على موافقات لاكتساب الجنسية الأجنبية، بحيث وصل عدد الموافقات الخاصة باكتساب الجنسية السعودية ١٤٥ حالة و٣٢ حالة لاكتساب الجنسية الألمانية، حيث كان عدد النساء اللاتى اكتسبن الجنسية اليمنية بحكم تبعيتهن لأزواجهن ٧٢ حالة منهن ٣٤ فتاة عربية و٣٨ أجنبية.

ومع ازدهار الحركة السياحية فى اليمن، مع التطلع إلى حياة الرفاهية، ومع تصاعد نمط السلوك الاستهلاكى، من هنا ابتلى المجتمع بظاهرة الزواج السياحى وتصاعد أعداد ضحاياه من الفتيات صغيرات السن اللاتى يقبلن على الزواج من الأجانب فترة زيارتهن أو عملهن باليمن طمعا فى الثراء والحياة المرفهة، رغم فارق السن غالبًا واختلاف العادات والتقاليد.

وبينما يصف البعض هذه الظاهرة بالزواج السياحى، هناك من يصفونه كذلك بالزواج المؤقت أو الزواج الصيفى، حيث يفد السياح من الخليج غالبا فى فصل الصيف، ولا يجدون غضاضة فى الزواج من يمنيات مقابل تقديم الشبكة والهدايا أو بعض المال لأهل الزوجة، ويتحايلون على مشروعية هذا الزواج بحضور شاهدين لعقد القران، ثم يعودون إلى بلادهم بعد أن تكون المعاشرة الزوجية قد تولد عنها جنين فى أحشاء الزوجة، وعندما تحاول أن تبشر زوجها بهذا الخبر السعيد، إذا بها تكتشف أنه انتحل اسمًا آخر عند عقد القران وأن عنوانه كذلك غير صحيح.

هذا عن حالات الزواج السياحى الذى يخضع للتسجيل الرسمى، لكن ما يفوق أضعافه عبر رجال الدين بالطريقة التقليدية المتوارثة التى تعتمد على حسن النوايا فحسب دون تسجيل عقد الزواج رسميا، الأمر الذى دعا يحيى النجار وكيل وزارة الإرشاد إلى التحذير من هذا الزواج، باعتباره غير أخلاقى وغير قانونى، ولأنه كذلك لا يخضع لشروط الزواج الشرعى الذى يلزم الزوج بحيازة منزل للزوجية وديمومة الارتباط.

وكانت جامعة «آب» قد نظمت ندوة بحثية تحت إشراف الدكتور فؤاد حمود الشبامى تناولت ظاهرة الزواج السياحى أو الزواج الصيفى، واستهدفت دراسة حالة ٤٠ فتاة من ضحايا هذه الظاهرة، ومن غريب ما أسفرت عنه أن معظمهن نال قسطا من التعليم الإعدادى والثانوى والجامعى أو يجدن القراءة والكتابة، مما ينفى الجهل بعواقب مثل هذا الزواج، وأن هناك عوامل أخرى وراء هذه الظاهرة أولها جهل أولياء الأمور بالشريعة، وإنما النظام الاجتماعى لتكوين الأسرة الكريمة على أسس من التكافؤ الاجتماعى والثقافى وتوافر الاستقرار وحسن المعاشرة.

ودلت الندوة البحثية على أن معظم الفتيات من ضحايا الزواج السياحى الصيفى، كن فى لهفة للهروب من أوضاعهن الاجتماعية المتدنية، أو من التمزق الأسرى والتطلع بالتالى إلى الهجرة والحياة الأفضل، وربما مخافة أن يفوتهن قطار الزواج، والوقوع فى براثن العنوسة واليأس والإحباط ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولعله من هنا كان إقبال الفتيات اليمنيات كما فى معظم المجتمعات الشرقية على نسج العلاقات المأمونة مع الجنس الخشن عن بعد عبر «الإنترنت» من باب التنفيس عن العواطف المكبوتة والأمر كذلك بالنسبة للشباب اليمنى.. إلى حين ادخار المال الوفير لزوم تدابير الزواج وعش الزوجية!

٢١٧ ـ نهارك فل.. مساؤك فل

فى عدن وحضرموت ظلت ساعات العصارى والمغربية مرتبطة دائما فى ذاكرتى بمشاهد باعة الزهور والورود والفل والريحان، وكان الزبائن يشبكون بعضها فى ملابسهم أو غطاء رءوسهم أو داخل سياراتهم ويسمونها «مشجر» إلى حين العودة إلى بيوتهم حتى يضعوها فى ماء «الزهريات» حفاظا على رونقها ورائحتها الذكية أطول وقت ممكن، وربما ينتظر غيرهم إهداءها لحبيب أو احتفالا بالزواج أو عيد ميلاد أو عيادة مريض!

لكن هذه العادة، سواء الزهور والورود أو اقتناؤها، لم يكن لها وجود فى مدن شمال اليمن مثل صنعاء والحديدة وتعز، ربما لأسباب تاريخية تتعلق بالعزلة والفقر

والشقاء إبان حكم الإمامة، بينما كان الفلاحون يعرفون الزهور البرية والنباتات العشوائية ويشمونها ويستمتعون بألوانها ويعرفون أسماءها.

بعد نهوض الوحدة اليمنية لاحظت ولأول مرة فى صنعاء محلات أنيقة تبيع الورود والزهور بألوانها الجميلة وروائحها الذكية، وعبر حديثى مع أحد الباعة أدركت أن معظمها مستورد من مصر وسوريا ولبنان ومن أوربا أحيانا تلبية لطلب الأجانب المقيمين باليمن والعاملين بالسلك الدبلوماسى والمنظمات الدولية خاصة فى عيد الحب ورأس السنة الميلادية، وبينها الورود البلدية «رزو» وزهور «الجلادونيس» وعصفور الجنة «الجاربيرا» و«اليلوم»، وبعضها ينمو الآن فى مشاتل يمنية محدودة، إضافة إلى الفل المفرد والمجوز والمعروف فى اليمن باسم الباجلى والمغراس!

الطريف أن بعض الزبائن اليمنيين وخاصة الجنس اللطيف يطلبن من البائع وضع باقة الورود أو الزهور فى علبة كارتون أو كيس بلاستيك أسود، من باب الخجل والقيل والقال ومزاح الفضوليين، ولكن مع انتشار التليفزيون واستقبال الفضائيات ومشاهدة الأفلام الرومانسية والتعرف على العالم الخارجى وتقاليده وعاداته المرتبطة بهدايا الورود راح الخجل يتوارى تدريجيا، وأصبحت الورود والزهور هدية محببة وزينة فى الأفراح، وفى صالونات بيوت علية القوم.

من العادات المرتبطة بزهرة «الفل» مشاهدتها دوما فى سيارات التاكسى والباصات لجذب الركاب، خاصة أن رائحته تدوم طويلا ولأن الفل رخيص ومتوفر دوما خاصة فى فصل الصيف، وهو زينة للمرأة وليس للرجل، وتقتنيه دائما فى شكل عقود تزين الرقبة والمعصم، وغالبا ما تكون المرأة متزوجة وليست عذراء، وبقدر جودة الفل وازدحام عقوده بقدر سعادة المرأة وفخرها عند حضورها حفلات الزواج والمناسبات السعيدة وأحيانا تزين المرأة رأسها بالفل وتسمى هذه العادة الشروجة أو الهش، وكثيرا ما تدب الخلافات بين المرأة وزوجها إذا ما أهمل أو قصر فى شراء الفل، ومن هنا أصبح الفل تجارة رائجة وزراعة مربحة ومظهراً حضاريا جميلا ومصدرا للتجاذب والتحية بين اليمنيين واليمنيات عبر عبارة «نهارك فل» أو «مساؤك فل»!

٢١٨ - «العوامى» والعبرة بالبلوغ

يرحم الله فنان الشعب زكريا الحجاوى، فهو عندما قدمنا له مطربًا واعدًا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره حتى يتبنى موهبته، قال بعد أن استمع إليه: صوته شجى: ولكن العبرة بالبلوغ ؟

والمدهش أن يتلاشى الجمال والشجن من صوت هذا الفتى بمجرد وصوله سن البلوغ!

تذكرت هذه القصة عندما سألت عن «العوامى»، ذلك الفتى اليمنى ابن الحديدة الذى وهبه الله صوتا أسرا مغردا كما الكروان، وكنت قد استمعت إليه لأول مرة وجذبنى صوته الغنائى إلى حالة وجدانية موحية لم ألمسها فى غيره من الأصوات الغنائية اليمنية وقتئذ!

فى بدايات الثورة، كان العوامى يتنقل خلف راكب دراجة نارية «موتوسيكل» من حفل عرس إلى احتفالية وطنية، وكان يبشر بمستقبل زاهر وشهرة ممتدة إلى خارج اليمن، فلما بلغ سن البلوغ اخشوشنت حنجرته الذهبية وتلاشى جرسها الجميل ومن ثم اختفى عن الساحة الغنائية، ويبدو أنه راح يجرب حظه فى أعمال ومهن شتى.

ولا شك أن الحديدة تزخر بالبيئة والأجواء الملائمة للإبداع الأدبى والفنى، على نحو ما نسمعه من الأصوات الجميلة التى تنتمى لها، وبينهم المطرب الشهير أحمد فتحى التى كرمته جامعة الحديدة مؤخرا ومنحته الدكتوراه الفخرية، وهو الذى طالما شنف الآذان وأبهج الوجدان كلما زار القاهرة، وقد سمعت أن له تلميذا نابغة ينهل من مدرسته الغنائية اسمه معمر الزريقى، ولم يسعفنى الحظ للاستماع إليه بعد!

والحقيقة أن صلتى بالغناء اليمنى كانت مبكرة عبر سماع أسطوانات المطربين الحضارمة والعدنيين فى بيوت زملاء الدراسة من اليمنيين المقيميين فى القاهرة وغيرهم من المتمصرين، لكن مع زياراتى لليمن فى أعقاب تداعيات الثورة فى شمال اليمن، ثم اندلاع ثورة أكتوبر وتداعياتها فى جنوب اليمن، كانت الفرصة

سانحة للتعرف على بعض المطربين والاستماع إلى ألوان من الطرب اليمنى، حيث كانت البداية مع «الزفة الصنعانى» التقليدية البديعة عبر الغناء والتواشيح الدينية، ونحن جلوس أرضا متحولقين بالعريس.

على أن الفنان على الأنسى كان أول صوت غنائى يتهادى إلى سمعى أوائل مراحل الثورة عبر إذاعة صنعاء، وهو إلى ذلك كان موسيقيا وملحنا ورساما تشكيليا، وقد انفعل بصدق وحماس انتصارا للثورة على أعدائها عندما حاولوا إجهاض الجمهورية الوليدة، لا عبر غنائه فى الإذاعة والحفلات فحسب، وإنما كذلك فى مواقع الأحداث والمعارك ووسط الجنود والمناضلين عبر أغانيه المشبوبة بالوطنية بمصاحبة عزفه على العود، وأذكر أن مقدمة نشيده «فى ظل راية الوطن» أصبحت فيما بعد السلام الجمهورى، وأحسب كذلك أن الفنان فرسان خليفة سار على درب الأنسى حين ارتبط بثورة ٢٦ سبتمبر وجال بصوته وصال جنديا فى خدمة أهدافها، وهو حين تلقى خبر اندلاعها وهو فى القاهرة، سرعان ما انهمك فى تلحين وغناء كلمات من إبداع الشاعر قيس غانم نعمان.. ثم أرسلها مسجلة إلى إذاعة صنعاء أذكر منها:

الثـــورة.. اليمنيـــــة	**ذى وثبة عربية**
لا قبليـة ولا عصبيـــة	**كلنا أمة عربية**
ثـورة الشــعب الأبيــة	**نحو غاياتها فتية**
ضـــربت ضـــربة قـوية	**وأقمنا الجمهورية**
وانتهى عهــد المهــازل	**والمجازل.. والمقاصل**
ومضى الشعب يناضل	**فى رحاب الجمهورية**

كذلك كان الحال مع غيره من المطربين فى شمال اليمن وبينهم الصديق أحمد السنيدار الذى يجود علينا أحيانا بغناء بعض من أغنياته الكلاسيكية منذ قدومه القاهرة مستشارا ثقافيا بالسفارة اليمنية، ثم أهفو كثيرا إلى سماع المطرب المحبوب حمود الحارثى، وشهرته ليست بحاجة إلى التقريظ!

وإذا كان الغناء الصنعانى يذكرنى دوما بالعمارة الصنعانية وشموخها

وزخارفها، فإن غناء «الزامل» يهزنى من الأعماق كما هدير الشلالات ويذكرنى بالقبلية اليمنية بتضامنها ووشائجها وشجاعتها!

فى جنوب اليمن جذبنى من المطربين اللامعين مرشد ناحى وأيوب طارش والممثل الشخصى للغناء العدنى المطرب يحيى مكى الذى تخرج على يديه معظم المبدعين الشبان فى فن الغناء، وكم حقق من النجاحات تباعا فى حسن اختياره لكلمات وألحان أغنياته، وأشهد لصديقى المرحوم أستاذ العود الموسيقار جميل غانم فضل إرشادى وتعريفى بقيمة وقامة الفنان يحيى مكى!

ولأننى عاجز بحكم الظروف عن الإلمام بكل ألوان المبدعين فى فن الغناء اليمنى، فلا أقل من التنويه بالنجوم المتألقة، وعلى القمة يقف الفنان القدير أبو بكر سالم بلفقيه الذى شق صوته اليمنى الأصيل مختلف ربوع السعودية والخليج، وكان له التأثير الملحوظ فى مدارسها الغنائية، فيما انتشرت أغنياته فى معظم الدول العربية، فكان مؤهلا للغناء الثنائى أو التلحين للعديد من المطربين والمطربات ابتداء من نجاح سلام ووردة الجزائرية وأنغام وسعاد محمد ونازك حتى طلال المداح وعبد المجيد عبد الله وغيرهم كثر!

لأبى بكر سالم ما يزيد على ٥٠٠ أغنية، معظمها من اللون العاطفى، أشهرها تلك التى نال عنها جائزة الأسطوانة الذهبية، من اليونان عام ١٩٦٨، بما يعنى أن توزيعها بلغ المليون نسخة، أذكر من هذه الأغنيات «٢٤ ساعة، يا حامل الأثقال، يا عينى لا تزف الدمع، كذلك فاز فى المسابقة التى ينظمها اليونسكو بالمرتبة الثالثة للأصوات العالمية.

وكان الفنان الكبير قد توقف تماما عن الغناء فى أعقاب نكسة يونيو ١٩٦٧، ثم عاد فجأة عام ١٩٧٤ أكثر تجددا وعطاء، وقد تعتق صوته وأصبح أكثر قدرة على أداء الصعب من الألحان الشعبية القديمة فى التراث الحضرمى، وبينها «فرصة من العمر» و«ليالى الأنس» وكلاهما من كلماته وألحانه، وكانت آخر حفلاته الباهرة التى تابعتها عبر الفضائيات خلال مهرجان الأغنية فى الدوحة عام ٢٠٠٦!

ثم لا أنسى المطرب السعودى محمد عبده، فحين التقيته فى السبعينيات بفندق «دار الحمد» فى صنعاء، كان حريصا على أن يذكرنى بأنه يمنى الأصل!

٢١٩ ـ المغتربون وحنين العودة للوطن

لليمن فى شتى ربوع العالم آلاف من مواطنيه المهاجرين، وإذا كان التاريخ القديم يشهد لليمنيين بارتياد الآفاق بحثا عن المعارف وممارسة التجارة أو جنودا فى جيوش الفتح الإسلامى، لكن الحال تغير إلى حد ما فى العصر الحديث، فعندما اندلعت الحرب الأولى انخرط المئات من اليمنيين فى العمل بالبواخر الحربية والمدنية التى كانت تدار عهدئذ بالفحم، وتلك كانت مهنة شاقة تستدعى وقوف العمال اليمنيين ساعات طويلة أمام أفران المراجل الساخنة فضلا عن احتراف مهنة الطهى، ومن ثم كان غيابهم الطويل عن الأهل والوطن، لكن كل هذه المشاق كانت تهون فى سبيل جمع ما يكفى لسد احتياجات الأسرة التى كانت تعانى عهدئذ محنة الفقر والجوع، وربما فاض من المدخرات كلفة تحقيق حلم بناء بيت متواضع بالكاد!

كذلك شارك اليمنيون فى النهضة الصناعية الحديثة التى شهدتها أوربا، باعتبارهم اليد العاملة الرخيصة فى سوق العرض والطلب، فكانت المشكلة التى واجهتهم ذات شقين على نحو ما لمسته شخصيا عندما قدر لى زيارة الجالية اليمنية عام ١٩٨٢ فى مدينة «شيفلد» التى تبعد عن لندن عشرات الأميال، الأولى تكمن فى صعوبة الاندماج الطوعى فى المجتمع البريطانى والمجتمعات الغربية بشكل عام، لا بسبب اختلاف العادات والتقاليد والمعتقدات الدينية فحسب، ولكن لأن اليمنيين يعشقون الوطن ويحنون للعودة يوما إلى اليمن، ويتمنون أن يدفنوا فى ثراه عندما يوافيهم الأجل، والمشكلة الثانية أن القوانين البريطانية العنصرية متحيزة بشكل واضح ضد العمال اليمنيين، وتقف حجر عثرة أمام هجرة الزوجات والأبناء كما لو أنها تدفع باليمنيين إلى العودة للوطن قسرا بعد أن أسهموا بنسبة ٧٠٪ فى بناء مصانع الحديد والصلب وتشغيلها فى «شيفلد» منذ أوائل خمسينيات القرن الماضى، وبعدها راحوا يعانون ويلات البطالة، وبينما كان تعدادهم زهاء خمسة آلاف يمنى تناقص عددهم الآن إلى ألفين فقط، وبعضهم اجتذبته مشاريع التنمية وانتشار الخدمات فى اليمن، وغيرهم كان عليه أن يبحث عن عمل فى أوربا وسط تجمعات الجالية اليمنية فى برمنجهام وليفربول فى بريطانيا وديترويت وغيرها من

المدن الأمريكية، خاصة بعد عودة ما يزيد على مليون يمنى إلى الوطن فى أعقاب أزمة الخليج كانت تحويلاتهم وغيرهم فى دول أخرى تربو فى المتوسط على مليار دولار سنويا!

ورغم آلام الغربة عن الوطن ورغم مشكلات العمل والإقامة، إلا أننى فوجئت بترابط الجالية اليمنية فى شيفلد اجتماعيًا وسياسيًا، وعلى دراية ومتابعة دقيقة لما يجرى فى اليمن والوطن العربى من تطورات، ولهم مقاه ومطاعم خاصة تقدم المشروبات والوجبات اليمنية الشهيرة.. وقال لى قاسم سعيد سكرتير اتحاد العمال اليمنى فى «شيفلد» عندما عرف جنسيتى المصرية: إن دور عبد الناصر فى دعم ثورتى سبتمبر وأكتوبر مادة معرفية أساسية نلقنها للجيل الجديد من أبنائنا الذين ولدوا بعيدا عن اليمن بالتزامن مع تلقينهم التاريخ اليمنى وتعليمهم اللغة العربية واللهجة اليمنية ومبادئ الإسلام وحفظ القرآن ومداومة الصلاة!

وأضاف أن الجالية اليمنية هنا تحلم باليوم الذى تستقبل فيه بث التليفزيون اليمنى والمصرى، حتى تظل على صلة ثقافية وسياسية ووجدانية باليمن ومصر والتجاوب مع أشواقهم لسماع الأغانى!

أذكر بالمناسبة أن قيادة الحركة التصحيحية الحاكمة فى شمال اليمن كانت قد دعت إلى عقد مؤتمر عام للمغتربين عام ١٩٧٦، أسفر عن قيام اتحاد عام للمغتربين اليمنيين، وإنشاء فروع له فى شتى دول العالم التى يتواجد فيها المغتربون، رغم أن بعض أجهزة الدولة لم تكن قد استوعبت الفكرة بعد، وقد لعب الاتحاد دوره فى تجميع وتصنيف مشاكل المغتربين فى كل دولة من دول العالم، والتعاون مع الوزارات فى حلها خاصة وزارات العدل والداخلية والخارجية!

وقد أسهم الاتحاد فى القيام بمهام التوعية والتثقيف للمغتربين، عبر توزيع الصحف والنشرات اليمنية، وشرح جوانب الخطة الخمسية للتنمية، وطريقة المشاركة فى تنفيذ مشاريعها، وخلال زياراتى لدولة قطر كانت الجالية اليمنية بالتعاون مع السفير اليمنى عبد السلام العنسى قد طورت فكرة مجلس الجالية اليمنية، من حيث الدور الاجتماعى الفعال على صعيد تقديم العون الإنسانى للمحتاجين، وإنشاء صندوق خيرى للمتضررين من الحوادث وكفالة الأيتام،

والنهوض بتنظيم المحاضرات والمهرجانات الثقافية والسياسية، لكن تظل الجاليات اليمنية من الناحية التاريخية السباقة إلى تنظيم شئونها وتوفير العناية الثقافية والصحية والاجتماعية لليمنيين، وقد تعزز هذا الدور عبر اتحادات وروابط الطلبة اليمنيين، وكان إنشاء المركز الثقافى اليمنى مؤخرا بالقاهرة بداية إيجابية لما بعدها، فقد كانت الأستاذة جميلة على رجاء بمثابة المضيفة للطلبة والجالية اليمنية على الصعيد الثقافى والاجتماعى، وأظن أن الصديق خالد السودى الذى حل مكانها مؤخراً سوف يبتكر مناهج وأساليب جديدة تجعل من هذا المركز نموذجا يحتذى يمنيا وعربيا! وهو قد نظم مهرجانا ثقافيا وفنيا كان الأستاذ حسن اللوزى وزير الإعلام اليمنى قد افتتحه فى المركز بمناسبة زيارته القاهرة، وتشاء الصدفة مشاركة ابنتى نهى - وهى فنانة تشكيلية - بعدد من لوحاتها فى هذا المعرض، وأن أشاهد الحدث عبر التليفزيون اليمنى خلال زيارتى الأخيرة لصنعاء!

٢٢٠ـ الحوار الأخير مع البردونى

كنت أهجع دوما إلى أديب وشاعر اليمن الكبير المرحوم عبد الله البردونى كلما قدر لى زيارة صنعاء، إذ كانت له بصيرة نافذة - وهو الضرير - فيما كانت تشهده اليمن تباعا من تطورات وأحداث، ولم يكن الحوار معه فى دروب الأدب والسياسة وتاريخ الفلسفة فحسب، بل كان الحديث بيننا يطرق فى ود وألفة أبواب الخصوصيات المتبادلة.

ومنذ اللقاء الأول فى الستينيات بمنزله فى «سوق الملح» أدركت أنه جال بخاطره ما كان يجول بخاطرى من تساؤلات عنه . . عن بداياته الأدبية والمعرفية، وقال لى إنه من مواليد عام ١٩٣٠ بقرية «البردون» وسط قبيلة «الحدا» فى لواء «ذمار»، ويذكر أنه أصيب وهو فى السادس من عمره بمرض الجدرى، وعولج بالوسائل الشعبية حيث فقد بصره، لكنه تجاوز محنته وأقبل على التعليم فى نهم بأحد مساجد ذمار، ومنها اكتسب الثقة التى أهلته إلى حد الإشباع الذاتى من العلوم الفقهية والإلمام بجماليات اللغة العربية!

وتلك كانت بداياته الأدبية إثر التحاقه بدار العلوم فى صنعاء وبعدها صار أستاذا

للأدب العربى، وقال إنه كان ونحو عشرة من زملائه يراجعون دروسهم معا وحتى الكتب والدواوين كلما أتيحت لأى منهم قراءتها لا بد من أن تستوعبها بقية المجموعة!

وأكثر ما كان يثير دهشتى عندما كان يتبادل مع زوجته الأولى الدعابات وهى من وراء الستار، وكيف كان يتحرك فى جنبات المنزل فى يسر وسلاسة، وينتقى من مكتبته ما يرغب فى الاستشهاد به من الكتب، لكأنه المعنى بالآية الكريمة ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ (الحج: ٤٦)

ثم أذكر له مطلع قصيدة إثر اندلاع الثورة يقول فيها:

افقنا على فجــر يوم صبى ... فيا ضحــوات المنى أطربى

أتدرين يا شمس ماذا جرى ... سلبنا الدجى فجرنا المختبى

ومما لاشك فيه أن عطاء البردونى وإبداعاته عبر عشرات الكتب والدواوين وآلاف الأبحاث والمحاضرات، لما يعجز عنها زمرة من الشعراء والكتاب والدارسين، ومن هنا تكمن الخسارة التى يستحيل أن تعوض.. على الأقل فى زماننا الردىء.. وهذا نص حوار طويل وممتع معه نشرته صحيفة الشرق القطرية فى حلقات ابتداء من ٢١ أكتوبر ١٩٩٣.

٢٢١ - قوة القبائل لا تمثل خطورة فى اليمن

البردونى يكاد لا يذكر عدد وأسماء مؤلفاته فى دروب الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع، وكذا دواوينه العديدة التى رشحته لجائزة صدام حسين وترشيحه أمير الشعراء العربية وجوائز أخرى عربية ذات عائد مادى سخى.. إلا أنه رفضها جميعا مؤثرا التواضع والابتعاد عن الأضواء.. حتى يخلو إلى نفسه وكتبه وتلاميذه وزوجته الثانية وحياته الفكرية والاجتماعية التى يمارسها بلا خوف من سلطة أو خشية على مصير الذرية التى لم يغنم منها شيئا.

عبر جهاز «الإنتركم» جاءنى صوته: من بالباب؟ وقلت: يوسف الشريف وقال: من معك.. قلت: وحدى قال: ادخلوها إن شاء الله آمنين.. وانفتح

الباب أتوماتيكيا ودلفت إلى داخل المنزل حتى وصلت إلى مجلسه . . وكان قد نهض لاستقبالى وجلسنا للحوار .

قلت له : أدهشنى اختيارك موقع منزلك الجديد فى شارع الأمن القومى «المخابرات العامة» . . وضحك البردونى . . وقال : هذا الاختيار يسهل الأمور . . ويختصر الوقت إذا دعت الحاجة . . ماذا تشرب؟ . . قلت : لا داعى . . قال : زيارتك أدعى للحفاوة وتناول الشاى أو البن معك . . فالوقت لا يسمح الآن بتناول العيش والملح . . ثم نهض من مكانه وتجول فى ردهات المنزل فى سهولة وحيوية كأنه مبصر حتى يأمر أهل البيت بإعداد الشاى!

قلت له : قرأت لكم مؤخرا ما يوحى بنقد حول تسريع إعلان قرار الوحدة اليمنية ومسيرتها أين ترى القصور والإيجابيات فى هذه الخطوة التاريخية وتداعياتها؟

قال : نعم كان القصور فى السرعة ودرجة إيقاعها ، كان المعروف أن صنعاء أكثر تهربا من الوحدة وعدن كانت أدنى من الوحدة ، ولكن فى عام ٨٩ جاءت البادرة من صنعاء والإلحاح جامع الوحدة ، وعنها تسمع عن دعوة الوحدة لابد وأن تسأل عن الداعى ومن يكون وما يمكن أن يدعو إليه وهو فى غير صالحه . . لأن ما فى غير صالحه هو فى صالح الشعب حتما ، وكنت ألاحظ أن هناك استعجالا والاستعجال فى عالم السياسة والمصالح ليس بالضرورة لدوافع وطنية وإنما لحماية النظامين فى شمال اليمن وجنوبه . . كانت عدن لا تزال تئن من مأساة ١٣ يناير الدامية وإفرازاته التى دمرت ما بين رفاق الحزب والثورة من وشائج ، بينما كانت الأسرة الحاكمة فى خوف شديد من مخاطر محدقة بالحكم فى صنعاء من الداخل ومن الخارج . . ومن ثم كان قرار القيادتين السياسيتين فى عدن وصنعاء الاحتماء ببعضهما البعض عبر إعلان الوحدة اليمنية!

قلت : لكن الوحدة كانت طموح الشعب اليمنى وعلى رأس قائمة أهداف ثورة سبتمبر وثورة أكتوبر ؟

قال : نعم كانت الوحدة مطمح الشعب ونضالاته وثوراته المتعاقبة ، لكنها خالفت الرغبة ، حيث انزوى الشعب بعيدا ولم يعد يصدق أن الوحدة قادرة على

حل مشكلاته وتدبير معاشه اليومى، كل يمنى الآن فى بلدته أو قريته يعانى غلاء الأسعار ومشكلات السكن والخدمات ولا يعرف ولا التزم أحد أمامه بحل مشكلاته فى زمن معلوم، وعندما جاءت الوحدة كان الشمال قد أفلس نهاية الحرب الأهلية التى ابتلى بها اليمن فور اندلاع الثورة، وكان اليمنيون خلالها قد انقسموا إلى ملكيين وجمهوريين ويبدون ولاءهم لمن يدفع أكثر، وكانت هناك مقولة ترددها القبائل التى تحترف الحرب «الله يبقى على نصف السلال ونصف الإمام» وكان فى اليمن ولا يزال ثلاث عشائر من محترفى الحروب وألاعيب السياسة نموا عبر جيل وراء جيل وبات من المعروف أنه يستحيل البناء على سدة الحكم إلا لمن هو ألين للخضوع وأقدر على الإخضاع!

قلت: تبدو الظاهرة القبلية فى اليمن مثل ظاهرة مضغ القات ولا أحد من المسئولين أو المثقفين ينتظر لها حلا فى القريب ولا بعد ربع قرن. . لماذا؟

قال: هذه التحديات اكتسبت منذ زمن وأصبحت عادة شعبية. . وكل اليمنيين يتعاطون القات بمقادير من دخولهم، فيما تراخت الحكومات المتعاقبة عن وضع حلول لها تتوازى مع حملات التوعية الصحية والاقتصادية والاجتماعية ومع خطط ومشاريع مثل زراعة الفاكهة والخضراوات والمحاصيل ذات العائد الاقتصادى وتعويض المزارعين فرق الأسعار وتحريم مضغ القات أياما فى الأسبوع، وتحديد شروط للالتحاق بالخدمة العسكرية وبعض الوظائف العامة من بينها عدم تعاطى القات. . وتشجيع الرياضة والهوايات وارتياد المسارح فى المساء، وتصور كم بلغت مشكلة القات الآن مرحلة عبثية. . حيث لا يستطيع رب البيت الذى يضم عشرين فردا أن يصرف عليهم. . بينما يحرص كل الحرص على شراء القات. . المشكلة تكمن فى الأنظمة والحكومات التى تعاقبت على اليمن وتدعى الوطنية بينما حل المشكلات وهموم الناس ومساعدتهم على الإقلاع عن العادات الضارة فى نظرهم خارج اهتماماتهم الوطنية.

وعندما جاءت حكومة محسن العينى وحاولت أن تضع خطة لمقاومة زراعة وتعاطى القات ثارت فى وجهه القبائل التى تربح الثروات من زراعة القات وتجارته. . المسألة إذن فى حاجة إلى سلطة مركزية قوية تستطيع أن تفرض هيبتها على الوعى والإدراك بالتعامل المقبول مع الشخصية اليمنية.

٢٢٢ ـ العسيل والعجيل

قلت: والظاهرة القبلية؟ كيف ترى إشكالياتها؟

قال: الإمام يحيى حميد الدين ابتكر لنفسه نظاما وجيشا وشرطة ورهائن من أبناء القبائل المتحاربة بينما كان الأئمة قبله يستعينون بالقبيلة وعلى رأسها أربعة من العبيد لجمع الضرائب من الشعب وهؤلاء كانوا يحملون الناس فوق ما يطيقون قهرا وتعذيبا ونهبا لأموالهم وكل ما يملكون، وتلك كانت فترة من أحلك ما مر بالشعب اليمنى، بينما الإمام يحيى كان قد وضع أساسيات للمجتمع تمثلت فى معسكرات للجيش ومدارس ومدرسين ودار للمعلمين وبينها دار الرشدة، كان التعليم فيها محدودا ولكن كل دارس فيها استفاد واستوعب حيث بدأ وكانت هناك سلطة مركزية وتوجه إلى بناء المجتمع إلا أن تلك البادرة لم تستمر فى أعقاب اغتياله . . الآن أعتقد أن قوة القبائل لا تمثل خطورة لو توافرت القيادة الواعية والرشيدة . . لكن العكس هو الصحيح الآن.

فوضى فى الحكم ودوائر الحكومة والذين يديرونها من العقول القبلية . . صنعاء الآن تدار شئونها بواسطة القبائل أكثر من أهلها بعد أن زاد عدد سكانها من ٤٠ ألفا عندما اجتاحتها القبائل عام ١٩٤٨ إلى أكثر من الثلثين . . البيوت بيوتهم والمتاجر متاجرهم، لم يعودوا كما كانوا فى الماضى يخبئون أموالهم فى الجبال أو تحت الأرض . . الآن يشاركون فى النشاطات الزراعية والمالية والتجارية . . وأصبح فى كل بيت قبلى خريج وأكثر من الجامعات . . باختصار الزمن والعصر والتوعية والإيمان بالخطة وقيام السلطة المركزية القوية الواعية من شأنها تحديث القبيلة واستيعاب الظاهرة وتحديثها!

قلت: وظاهرة حمل السلاح وإشكالياته؟

قال: متوارثة كلون من مظاهر الزينة والتفاخر والرجولة، وقد بدأ اقتناء السلاح النارى بعد انتشار المزارع حماية للنفس فى مواجهة الوحوش البرية المفترسة مثل الذئاب والضباع وممارسة هواية الصيد، صحيح أنه كانت تنشب حوادث بين قبيلة وأخرى أو قرية سواها . . لكن سرعان ما يتدخل الوسطاء ويقبل المقاتلون بالتحكيم

الشعبى، لكن بعد انسحاب الأتراك من اليمن تعطلت القبائل التى كانت تحترف نهب ما لديهم من سلاح ومال ومنقولات وانتشرت عادة «الخطاط» عبر ممارسة الإغارة ونهب القبائل الضعيفة التى تملك المزارع. . كانت تلك المغامرات والإغارات تعرف آنذاك بالعسيل أو العجيل، فكان العسيل يعنى قطع ثمار الفاكهة فى مرحلة التحول إلى براعم أو حرق مزارع الشعير والقمح. . وكانت القبائل المغيرة تقطع حتى الأشجار من جذورها وهو ما يسمى بالعجيل، وقد دخل اصطلاح «العسيل والعجيل» إلى القاموس اليمنى كمؤشر على المحنة رغم اندثار تلك الظاهرة خلال حكم الإمام يحيى وابنه أحمد. . وطبيعى أن يستمر اقتناء وحمل السلاح فى اليمن كلما كانت هناك حاجة إليه وأن تندثر الظاهرة كلما اطمأن الناس على حياتهم ومصالحهم فى ظل هيبة القانون والانضباط الأمنى.

٢٢٣ ـ مجلة «المنار» المصرية تدعو للرأسمالية

قلت: كيف ترى مصداقية الدعوة الإسلامية فى ضوء اعتماد بعض الجماعات لأساليب العنف والإرهاب بدعوى أن الغاية لإقامة الدولة الإسلامية تبرر مثل هذه الوسائل؟

قال: يخطئ من يصور الإسلام دينا خالصا. . لأنه دعوة وحكم وشريعة وهداية، الإسلام بالقطع ضد التعصب، وعندما كان مرعيا من قبل السلطات والقادة والرعية قطع الإسلام أميالا من الفتوحات الإسلامية التى امتدت إلى الصين وأوربا عدلا ونورا وحضارة. . وحتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه فى تاريخنا العربى المعاصر عندما انخدع بعض المسلمين بدعوات شيوعية ومن والاها من الأفكار اليسارية وانخدع بها فئات من المثقفين والقادة العرب وبدأوا يعادون الإسلام. . بينما كان الفريق الآخر يستخدم الإسلام مطية وسلاحا لمحاربة الشيوعية والأفكار اليسارية المتطرفة، مجلة المنار المصرية على سبيل المثال ظلت تشيد بالرأسمالية الغربية وكانت تراها حامية من الغزو الأحمر الذى تتزعمه موسكو، والمسألة الثانية وهى ذات جذور حية الآن وقد بدأت باحتلال فلسطين عبر العقيدة التوراتية والتعصب اليهودى، وجاء ما يسمى بالأحوال العامة الدولية التى خضع لها الحكام

العرب دون أن يواجهوا الخطر بنفس الأسلوب عبر التمسك بالعقيدة الإسلامية والتعصب للقومية العربية فى المقابل . . هذا الخلط وهذا الاستيراد للأفكار والعقائد الأوربية الشرقية والغربية ، مع فشل الأنظمة العربية فى تبنى مشروعات للتغيير والنهوض وحل مشكلات المجتمع ، كان الطريق ممهدا والمناخ ملائما لظهور الحركات الإسلامية الحديثة بجماعاتها المختلفة وتياراتها المتباينة . . والمشكلة فى تقديرى أن بعضها يتسرع الوصول إلى الحكم عبر وسائل غير إسلامية . . بينما المجال متسع لإقامة الدولة الإسلامية عبر التربية الإسلامية الصحيحة ووحدة الحركة الإسلامية وبعدها الوصول حتما إلى الحكم تلقائيا وديمقراطيا !

قلت : إذن تؤكد على أن ظاهرة التطرف والإرهاب ليست أصيلة فى الإسلام ؟

قال : لا . . بل الحقيقة أنها أصيلة والقتل والقصاص فى الإسلام لثلاثة . . كفر بعد إيمان والزنى بعد إحصان والقتل عمدا وعدوانا . . لكن تغيير النظام بالقوة لا . . إذ يجب طاعة الحاكم الذى تتوافر فيه شروط البيعة الصحيحة . . وما دام يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله لا يجوز قتله دينيا .

قلت : فيما يبدو أن الإسلام تعرض لموجات من التداخل والاختراقات الفلسفية المادية . . وأنه فى مسيس الحاجة إلى تنقيته من هذا التأثير الضار؟

قال : الإسلاميون عرفوا مبكرا خطورة هذا الترتيب غير الحقيقى لأوضاع الشريعة والفلسفة الغربية . . إذ بينما كان فلاسفة الشرق يكتبون تلفيقا وتوفيقا بينهما ، كانت الفلسفة قد صبغت - بعد الميلاد - بالروحية المسيحية ، الأمر الذى فتح الأبواب فى أوروبا أمام شرعية الإسلام وفلاسفته إلى حين ، حيث ساد اعتقاد بأنه ما دام الكتاب مبدوءا بسم الله فهو كتاب إسلامى ، وفى فترات التعطل واضطراب السلطة ظهرت الحادية لأبو علاء المعرى ولم يكن يعاقب عليها آنذاك ، لأن جماعة الإسماعيلية والجعفرية إذا تعطلوا سياسيا فما تعطلوا اجتماعيا وكأنما محمى بهؤلاء ، كذلك أحبت الطوائف كلها الفكرة فيقولون إن الفلسفة انتهت كلها بابن رشد . . لا فى الحقيقة أنها التوت وتغير مسارها . . وأبوحامد الغزالى أسكت كل التفلسف وكان هناك إجماع أن العقل محدود وأن إرادة الإنسان مقيدة ، ابن رشد هو الذى قال الغزالى كان الشوط الأول تلاه الشوط الثانى بعد قرنين عبر ابن

سيميه الذى كان يطوف بالجامع ويحرم السير الشعبية مثل سيرة عنترة بن شداد . . باعتبارها ضربا من الخيال بينما الكتاب والسنة جامعة لكل الحقائق ومن صنع حكيم عليم .

٢٢٤ـ كاد القهوجى يفتك بى

قلت : لكن الفلسفة الإسلامية بعد ذلك خاضت غمار متغيرات تاريخية بعد ذلك . . والسؤال إذن عن مصداقيتها فى ضوء ثوابت العقيدة ؟

قال : تعلم أن الطبرى رضوان الله عليه تظاهروا ضده ووقعت معارك فكرية حادة لأنه لم يؤرخ لأحمد بن حنبل ، ثم وقعت معارك الغزوات الصليبية والتتارية فى ظل ظروف التعصب . . فيما أدى سقوط الخلافة فى تركيا إلى نشأة تنظيمين إسلاميين فى ضوء غلبة العقيدة اليهودية التى احتلت فلسطين وانتصرت على كل العرب .

وهنا يقول الداعية والمفكر الإسلامى رشاد الغنوشى إن الدين أوصل اليهود إلى فلسطين ومكَّن لهم النصر بينما العلم الذى استقيناه من الغرب لم يمنحنا إلا الهزائم . . القضية إذن ترجع إلى كفاءة الحكومات ومدى استنارتها وتبعيتها وإيمانها بأن السلام البديل الصحيح للمستورد من الأفكار والمناهج التى لم تصلح حالنا أو العكس . . بينما نلاحظ أن المسيحية أخذت من الإسلام فكرة العدل الاجتماعى وأن الحكم بين الناس شورى وبالتساوى ، الإسلام فيه ما يسمى بالمصلحة العامة والمصلحة المرسلة وهذه كلها يعرفها الحاكم ، إذا كانت هناك مصلحة عامة فى الاشتراكية مثلا يأمر بها . . وأذكر أننى كنت فى مصر عام ٨٨ خلال شهر رمضان وكان هناك من يعترض على أن يستغل شهر رمضان فى الإباحة التجارية .

إلى حد جماعة الإخوان المسلمين أعلنت آنذاك عن صلب كل من يدخل للإفطار فى المطاعم نهارا . . وكنت قد خرجت من عيادة أحد الأطباء ودخلت إلى المقهى وتناولت جرعة من الماء حتى كاد القهوجى أن يفتك بى . . وقلت له روح

اقتل الدكتورة التى أباحت لنا الإفطار . . وقال الإسلام يطهر المعدة بالصيام طول العام . . فقلت له هذا كلام غناء والله يقول : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ البقرة : ١٨٥)

الإسلام إذن يبيح الإفطار عندما تكون على سفر أو تخاف أن تقع فى الضرر وإلا فأنت منتحر . . مشكلة بعض الجماعات الإسلامية فى الخلط أو عدم التعمق فى الدين أو الاستئثار بالتفسير واتهام غيرهم من المسلمين بالباطل .

والأمر كله يحتاج إلى فتح أوسع الأبواب أمام الاجتهاد وتنقية الإسلام من الخرافات والأباطيل . . وإن يعرف الحكام أن الدين الإسلامى وسع كل شىء علما . . وهم إن لم يتدخلوا فى شئون الدعوة أو يحرضوا على تغييره على هواهم فذلك فيه صلاح الرعية والاستقرار والعدل وما لقيصر لقيصر وما لله لله!

٢٢٥ـ الشــاعر هــو.. الزمــان

غالبا ما تأتى إجابات الشاعر اليمنى الكبير عبد الله البردونى «موسوسة» ، حتى لو كان السؤال حول معلومة محددة ، حيث يترك لفكره العنان محلقا فى كل ما يتعلق بالموضوع من حواش وتدخلات معرفية متشعبة ، وتلك من أبرز سماته كأستاذ ومعلم ملتزم بتثقيف تلاميذه وتنوير قرائه .

وهكذا عندما ذهبت إليه فى منزله بصنعاء كنت أحمل شريطا واحدا للتسجيل مدته ساعة ، فإذا بالحوار معه ذو شجون وتداعياته شتى غير متوقعة حتى بادر أحد تلاميذه متطوعا للبحث عن دكان مفتوح فى الهزيع الأول من الليل ليبتاع منه شرائط إضافية للتسجيل .

قلت للأستاذ البردونى : غاب الأدب اليمنى عن المكتبة العربية زهاء قرن من العزلة حتى اندلعت الثورة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ وسرعان ما تألقت أسماء الأدباء والشعراء اليمنيين . . أين ترى مكانتهم على ساحة الأدب العربى؟

قال : رغم أن الأدب اليمنى الحديث أصبح يعج بالشعراء وكتابة القصص . . إلا أنه يظل هناك تفاوت بين الأدب اليمنى والمدارس الأدبية الحديثة . . حيث لا يزال

هذا التفاوت ملحوظا بين الأدب اليمنى ومستويات الزخم والتنوع والعطاء الذى تشهده فى الأدب المصرى والسورى والعراقى واللبنانى . . بل وأعتقد أن أمام الأدب اليمنى مسافة عشر سنوات حتى يلحق بالأدب السعودى والخليجى بوجه عام الذى يشهد خطوات تحديثية تستحق التأمل والدراسة، على أن الأدب اليمنى فى مجال الشعر حقق أشواطا مقدرة فى دروب الحداثة منذ الأربعينيات أى قبل اندلاع الثورة، كونه أرفع فنون الأدب اليمنى وأكثرها عراقة فى التاريخ، سواء الشعر العربى الفصيح أو الشعبى العامى اللهجة ولا يزال الشعر يملك ناصية الساحة الأدبية فى اليمن لأنه يتنقل بالحفظ والإنشاد من مكان لآخر . . بينما تحتاج القصة أو الرواية إلى أن يصل للجمهور عبر فنون أخرى مساعدة وإلى مسرحة المجتمع اليمنى أولا، إذ يستحيل قيام نهضة مسرحية بدون جمهور يتذوق فن المسرح.

٢٢٦ ـ الزبيرى أبو الأحرار

قلت: كيف يرى الأستاذ البردونى الشاعر والأديب والكاتب والمفكر والمؤرخ نفسه أكثر انسجاما وعطاء؟

قال: فى الشعر وكل أعمالى خارج الشعر وظيفية ولا أشتهى لها إلا أن تكون كذلك!

قلت: لكن من خلال متابعاتى لنشاطاتك وإبداعاتك ألاحظ ارتباطك بالواقع اليمنى والحركة السياسية . . هل لأن المقال أكثر قولا وشيوعا من الشعر ؟ قال: ربما لأن أدباء اليمن المعاصرين ارتبطوا بالحركة الوطنية حيث كانت القضية المركزية تكمن فى حتميات الثورة والتغيير فكانت السياسة الأغلب تأثيرا على إبداعاتهم الأدبية وفى مقدمتهم الشاعر الكبير الشهيد محمود الزبيرى أبو الأحرار.

قلت: وربما لذلك كان عطاؤك فى ميدان الصحافة يفوق عطاءك الشعرى؟

قال: هذا ما يبدو لقارئ الصحف . . لكن قارئ الشعر يعرف أننى صاحب أحد

عشر ديوانا . . بينما ما ألفته لا يتعدى سبعة كتب، وذلك أن الكتابة بالضرورة تقتضى الأحداث وتتلمس نظائرها من وقائع الحاضر اليومى وتاريخ اليمن وموقعه من التاريخ الإنسانى كله، لكن القصيدة وليدة لحظات تفعل المشاعر وتستدعى ما يؤكد حرفتى للشعر الذى أجد نفسى فيه أكثر من غيره، ولا شك أن دواوينى طويلة بالنسبة للدواوين المعاصرة . . وقصائدى الأخيرة اتسمت كذلك بالطول بالقياس إلى شعر السبعينيات .

قلت : المتابع لعطائك الغزير فى شتى دروب الأدب والكتابة يخيل إليه أنك تجسد أكثر من بردونى واحد . . كيف إذن تمارس حياتك وتنظم أوقات إبداعاتك ولماذا تعنى بالتفاصيل كأنك تكتب للعامة قبل الصفوة؟

قال : نشأتى الثقافية جاءت مبكرة مع انتظامى فى التعليم الابتدائى حيث كانت وسيلتى لنهل العلم الفقهى والثقافة العامة عبر السمع فحسب، بعدها دخلت دار العلوم صنعاء، ثم عدت أستاذا فى هذه الدار وكاتبا فى الإذاعة إلى جانب كتاباتى الخاصة، إما أن أخصص وقتا للكتابة ووقتا لكذا وكذا فهذا لم يحدث قط لأن القراءة بالنسبة لى فى حالة استمرار حتى فى الصمت وهذا ما جعل أوقاتى أطول وأكثر ثراء من المبصرين غيرى، طبعا عندما تخرجت فى الابتدائية كان لى زملاء وكنا نقرأ ما تلقيناه من دروس، وكانت لنا طريقة خاصة فى مراجعة الدروس من خلال قراءة ما سوف نقرأه غدا من المقرر، كان زملائى عشرة تجمعنا اهتمامات ثقافية وفكرية مشتركة . . فلا يقرأ أحدنا كتابا فى غيبة الآخرين، أما استغراقى فى التفاصيل فتلك خاصية ذاتية لازمتنى منذ رحلة التلقى عن أساتذتى خلال النشأة الدراسية والثقافية المبكرة . . فكانت الموسوعية التى يعنى بها النقاد .

قلت : ودأبك على الجدلية فى كتاباتك ؟

قال : هناك كتابتان . . السياسية والأدبية وهناك الكتابة الشعبية التى جسدتها فى كتابى «فنون الأدب الشعبى فى اليمن» والثانى «الثقافة اليمنية» فاليمن منجم للهجات اللغة العربية كما فى المهرة وسوقطرة لكن فى كتابى «اليمن الجمهورى» عنيت بتاريخ نشأة الأفكار التى شكلت المذاهب، وبالمذاهب التى أحدثت جدلها

خصوصا وأنها تميز اليمن عن سائر أقاليم الجزيرة العربية . . أعنى الملوك وعلماء الفقه وعلماء الحديث وعلماء البلاغة وعلماء الشعر . . وهؤلاء مع أبناء القحطانيين أوجدوا حركة جدلية مستمرة أصبحت تراثا يمنيًا خاصا . . والحركة الوطنية الحديثة نهضت على أساس من الجدل الفقهى والجدل البيانى . . وهذا تحول بدوره إلى جدل سياسى ، واليمن عموما تدين تاريخ الأئمة باحتكار السلطة بحجة أنه لاشىء غير الإمام ظل الله فى الأرض . . لكن هناك فترة حكمت فيها الإمامة كانوا خلالها مقبولين من الشعب وكانوا يحكمون اليمن فى فترة واحدة تتعاقب خلالها ثلاثة أنظمة . . نظام الهادى فى صعدة ونظام الزياديين فى تهامة ونظام اليعفوريين فى صنعاء . . أما ما مكن للأسرة الواحدة أن تتوارث الحكم فلأن الإمامة كانت تقوم آنذاك على أساس الثقافة والاستنارة والعدل .

ويتواصل اللقاء ويمتد الحوار مع الشاعر الكبير عبد الله البردونى و . . قلت : إذا طالبتك أن تعرف بنجوم الأدب اليمنى فماذا تقول ؟

قال : فى الحقيقة إن الذى ينهض إلى هذه المهمة لابد أن يحدد معايير الاختيار ، طبعا بالمقياس العام للشعر العربى المعاصر ومقدار التجارب ، هناك على سبيل المثال عبد الودود سيف وعبد الرحمن فخرى ويحيى البشارى وهؤلاء شعراء مجددون ومتميزون . . لكنهم مقلون . . أما د . عبد العزيز المقالح فهو الذى تمكن من إصدار دواوينه على التوالى ، وفى الحقيقة إن أدباء اليمن كانت ثقافاتهم وإبداعاتهم انعكاسا لواقع اليمن ، لكنهم فى مجموعهم مثلوا بشكل عام الثقافة العربية أكثر مما مثلوا المجتمع اليمنى كنوع من الأرستقراطية . . لكن الشعب اليمنى بما له من أمثال وحكايات وأساطير شعبية كان أكثر من أدبائه تعبيرا عن واقع حاله وتراثه وشخصيته .

سألته : عن علاقته بالدكتور عبد العزيز المقالح ؟

قال : هناك من يحاول الوقيعة بيننا كما حدث للعلاقة بين أحمد شوقى وحافظ إبراهيم ، بينما ربطتنى بالمقالح صلات حميمة ووشائج ثقافية وحوارات نقدية منذ زمن بعيد ولا تزال !

٢٢٧ ـ رحيل الشاعر صلاح عبد الصبور

قلت : كيف تفسر تراجع مدرسة الشعر الحديث بعد رحيل صلاح عبد الصبور وأمل دنقل وغيرهما من الرواد . . هل لأن الشعر الحديث كان وثيق الصلة بالمد القومى الذى أفل نجمه أو انحسر عنه؟

قال : لا . . إذ فى الحقيقة أن حركة الشعر جزء لا يتجزأ من التحرك العام وبينها حركة الشارع السياسى وتأثره بتتابع الانقلابات الأيديولوجية وتبنى أفكار القومية والاشتراكية واليسارية والإسلامية وأنا ضد وصف فلان بالرائد . . إنما الأكثر دقة أن المجتمع كله رائد . . لأنه إذا كان اختلاف النغمة مطلوبا . . فإن النغمة الأولى أفلست إلى حدود ، فاضطر المجتمع إلى ابتكار نغمات جديدة فى الشعر وفى الموسيقى وإلى ألوان وتشكيل مختلف فى الصورة ، المجتمع هو الذى طلب هذا الجديد وليست بالقضية هى التأثر بأوروبا أو بغيرها .

قلت : هل أفل نجم مدرسة الشعر الحديث إذن؟

قال : فى الحقيقة ما أفل ولا أفل نجم هؤلاء الشعراء الذين أبدعوا هذه الدواوين وما زال عبد الصبور ومدرسته باقية ومستمرة فى عطائها ، والذى يكتب له الخلود هو ما يفيد الناس ويستروحون فيه إبداعا متميزا وما يضطر الباحث إلى الرجوع إليه . . الشعر الضرورى هو الذى يكتب له البقاء ولكن الشعر الكمالى لا يقتنيه إلا المترفون .

قلت : لماذا انحسرت الممارسات النقدية التى كانت تبشر بالمبدعين والإبداعات الجديدة وتفسرها . . هل لأن المشكلة فى عدم توافر النقاد المؤهلين لهذه المهمة أم لانصراف النقاد إلى أعمال تدر عليهم دخلا ماديا أكثر؟

قال : كل هذه الأسباب مجتمعة صحيحة ، لكن ليس معنى ذلك أنه لم يعد لدينا نقاد مؤهلون أو لأنهم فقدوا دورهم . . أو لأنه لم يعد أمامهم مجال للنشر والاهتمام حتى يدلوا من خلاله بدلوهم ، المشكلة أن هناك مئات البيوت والحارات فى كل حى عربى لم تعد تتابع الأدب والثقافة بعد أن جذبتها المسلسلات

التليفزيونية التى شكلت كما يقولون واحدة من عناصر أزمة الثقافة إلا أننى أرى غير ذلك . . فمهما بلغت الحضارة ذروتها . . تظل الإجادة والأصالة فى أى شكل من الثقافة والفنون هى الباقية .

قلت : لماذا إذن اختفى النقاد العمالقة بعد رحيل الدكتور محمد مندور والمازنى والعقاد وأنور المعداوى؟

قال : هؤلاء وغيرهم من النقاد العمالقة مثل الناعورى ومارون عبود وعبد الجبار المصرى . . وغيرهم من الناشئة القائمة من النقاد بارت تجارتهم فى عالم النقد بعد أن دخل السوق شعراء وأدباء لا يتسابقون على الإجادة وبالأخص فى مصر جريا وراء الشهرة والمال . . وفى اليمن لا أظن أن أدباءَها وشعراءها تأثروا بعد بإغراءات أو متغيرات مماثلة لعصر أفلام ومسلسلات تليفزيونية تجذب المبدع والمتلقى بعيدا عن الإجادة والثقافة الجادة .

قلت : هل تتفق مع المثل الشعبى الدارج فى مصر «الانصاص قامت والقوالب نامت» بمعنى أن عصر العمالقة انتهى ليبدأ عصر الأنماط المتشابهة ؟

قال : هؤلاء العمالقة تفرغوا للتثقيف الذاتى والإبداع المتميز فى زمن الهدوء وقبل زمن القلق، فاستطاعوا أن يستوعبوا معارفهم ومعارف عصورهم ومعارف العالم كله فى زمن خاص وفى ظروف تقبل النمو، وكان لديهم فى الأصل قابلية للنمو والتحدى وفعلا . . شىء غريب أن تجد طه حسين فى هذا الزمن يكتب عن الأدب اليونانى والعقاد يكتب عن هتلر وشكسبير وعن سعد زغلول وعمر بن الخطاب، هذه الموسوعية تأتى فى زمان السياسات الكبرى، فماذا ننتظر فى زمان الردة والانحطاط سوى أن تقف الانصاص وتسود الأنماط المتشابهة وأن تنام القوالب .

٢٢٨ـ فلسفة عربيــــة خاصــــة

قلت : هل تعتقد أن لدى العرب فلسفة خاصة ومتميزة . . وما هى أبرز ملامحها؟

قال : فى الحقيقة الفلسفة العربية لها ملامح خاصة ومتميزة بما تحمله من تفكير عربى ولغة عربية ثم إن طبع الفلسفة العربية طبع هام، بمعنى اقترانها بالإنتاج وبالعمل فى المعامل، مثلا . . ابن الهيثم كان يصنع نظارات أصبح مهندسا بصريا عن طريق الفلسفة، وكان الطبيب الذى عالج أخطر الأمراض فيلسوفًا مثل ابن سينا وابن النفيس، وفى العصر الحديث كان لدينا فلسفة من نوعين الفلسفة الدينية والفلسفة السياسية وهى بدأت مع التحولات منذ بدء التوفيق بين الشريعة والحكمة . . والفلسفة العربية تتميز بالجمع بين النقيضين أو ما يمكن أن يأتلف .

قلت : هل هى فلسفة خاصة ؟

قال : نعم عندنا فلسفة خاصة وهذه واضحة حتى فى التعبير العادى وفلسفتنا الآن أكثر مادية بينما الفلسفة المثالية الخالصة كانت عند الغزالى والفلسفة العربية المعاصرة تجمع بين المادة والمثالية كجناحى طائرة، وأظن أن الدكتور زكى نجيب محمود كان علمانيا متفلسفا أكثر منه فيلسوفًا مطلقا !

وكان الوقت قد اقترب من منتصف الليل بينما كان الأستاذ عبد الله البردونى فى قمة اليقظة . . وكان علىّ أن أرحل أدبا ومراعاة لظروفه . . وسألته : هل أطمع منك بنقد ذاتى للعقل اليمنى ؟ قال : العقلية اليمنية فى الحقيقة كونتها عصور بعيدة ومتتابعة، فالذى كان يهندس العمارات اليمنية العريقة فى اليمن هم اليهود لكن أصحاب العمارة كانوا يكونون فكرة عن المبنى قبل تنفيذه . . والعقل اليمنى تمثل فى العمارة وتمثل فى التعليم أيضا وتمثل أيضا فى صورة التجارة وتمثل فى الأنظمة، وكان فى اليمن عرف سائد يقول : لو تعطلت السلطة فإن المدينة تحكم بفلان وهو أحد الشيوخ دون النظر إلى كنه هذا النظام أو شخصية الحاكم . . لكن فى الغالب كان أفضل من نظام الحكومة وهذا النظام لم ينقرض إلى الآن فهم حين وضعوا نظاما حديثا للحراسة بديلا عن نظام الحراسة السابق لم يجدوا حراسا من الشرطة .

قلت له ونحن وقوف للوداع أمام باب منزله : قرأت لك كثيراً فى الصحف ما يشى بميولك السياسية للحزب الاشتراكى أكثر من أحزاب اليمن الجديدة ؟

قاطعنى قائلا : الحقيقة المسألة ما كانت يمينية أو يسارية . . المسألة صدفة . . فالموقف الذى كنت أفقده فى صنعاء كان التعبير عنه فى عدن ولو بشكل ومضمون

غير مطابق بالضرورة وكذلك الكتاب الذى كنت أبحث عنه، ثم جاءت فكرة اتحاد الكتاب والأدباء اليمنيين الذى لعب دورا فكريا وإبداعيا وسياسيا مرموقا كان من الأساسيات التى أسفرت عنها الوحدة اليمنية. . كنت وما زلت أفضل التسامح مع الثقافة وتدعيم الكتاب وكنت أفضل مزايا معينة فى الجنوب وأميل لأوضاعه الثقافية حتى السبعينيات. . وكنت وما زلت أرى ضرورة استبقاء وتعميم الأفضليات والإيجابيات التى كان يتميز بها النظامان فى الشمال والجنوب على دولة الوحدة.

يرحم الله شاعرنا ومفكرنا الكبير واأسفاه على زمانه الجميل!

٢٢٩ - لمسات من الوفاء والتقدير

قليل هؤلاء الدبلوماسيون الذين نظل نتواصل معهم طوعا بعد رحيلهم عن مصر، فلا بد أنهم كانوا يمارسون أعمالهم بوعى وصدق، وينسجون علاقاتهم الاجتماعية بخيوط من الود لا ينقصهم الذكاء والحضور الغامر!

وربما من هنا أحسب أن الحفل الباهر الذى شهده النادى الدبلوماسى العريق «كلوب محمد على سابقا» بمناسبة انتهاء فترة عمل السيدة جميلة على رجاء المستشارة الصحفية بسفارة اليمن إنما كان على وجه اليقين حدثا اجتماعيا غير مسبوق، لا لكونه تجسيدا لمظاهر النبل والمحبة التى بثتها فى نفس كل من تعاملت معه إعلاميا أو دبلوماسيا أو ثقافيا، بل وكل ما خالطتهم اجتماعيا وإنسانيا من المصريين على مدى يزيد على عقد من الزمن!

وتكمن القيمة الإنسانية المدهشة التى حفلت بها تلك المناسبة، أن عددا من الصحفيات والصحفيين المصريين لا يزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة، حملوا على عاتقهم ماديا تلبية واجب التكريم والحب والعرفان، فكانت مفاجأة سارة لها وزهاء مائتى مدعو على رأسهم الصديق حسين العواضى وزير الإعلام اليمنى بذلك الإخراج الشائق الذى كان عليه الحفل، فضلا عن العشاء الحاتمى الفاخر، والحرص على اختيار زهور هذه الباقة الجميلة التى جمعت بين مختلف ألوان الطيف الصحفى والدبلوماسى والثقافى، وذلك التنافس الطوعى عبر تبادل الكلمات الرقيقة التى تشى بمآثر السيدة جميلة على رجاء!

ولا أدرى لماذا غلبتنى المشاعر الفياضة التى أكنها لها على مدى ثلاثين عاما، فما أن بدأت كلمتى حتى تدفق شريط الذكريات العزيزة وكادت تختلط بالدموع، وذلك أن فراق الأصدقاء مر، وكل ما يسرق الإنسان من إنسان على حد قصيدة شاعرنا الكبير أحمد عبد المعطى حجازى.

ولقد عرفت السيدة جميلة لأول مرة أوائل السبعينيات فى صنعاء، بالتزامن مع معرفتى بصديقتها الأثيرة السيدة أمة العليم السوسوة، وكانتا آنذاك تلميذتين بالثانوية، وبينما شقت أمة العليم طريقها إلى الإذاعة كمذيعة ناجحة ومحاورة لا يشق لها غبار، ومهمومة بالعمل السياسى، وخاصة قضايا المرأة، وبعدها أصبحت وكيلة وزيرة الإعلام ثم سفيرة فى هولندا، حتى وقع عليها الاختيار لشغل منصب وزيرة حقوق الإنسان، فى الوقت الذى غابت جميلة سنوات حتى ظهرت فى القاهرة أواخر الثمانينيات بصفتها صحفية ومراسلة لإذاعة وتليفزيون صنعاء، وبعدها كان طريقها سالكا إلى وظيفة ملحق ثم مستشارة صحفية بسفارة اليمن.

الجدير بالذكر فى هذه المناسبة، الإشارة إلى أن المرحوم على رجاء والد جميلة كان دبلوماسيا عريقا وأنيقا منذ عمل تحت رئاسة السيد على المؤيد أول سفير لليمن بالقاهرة إبان الأربعينيات وربما لاستنارته وعمله الدبلوماسى بالخارج، كان حريصا على تعليم بناته جميعا فى المدارس والجامعات الأجنبية، فى وقت لم تكن اليمن قد عرفت بعد مدارس تعليم البنات!

وتشاء مصادفات القدر أن يحتفل اتحاد كتاب وأدباء اليمن فى نفس الوقت بالدكتور حمدى عبد الله المستشار الثقافى المصرى فى صنعاء، عبر منحه العضوية الشرفية للاتحاد مع إحدى عشرة شخصية أدبية عالمية فى مقدمتهم الأديب الألمانى جونتر جراس الحائز على جائزة «نوبل»، وذلك فى ختام الدورة الثقافية الثالثة التى تحمل اسم المناضل المثقف الشهير جار الله عمر!

بل إن الجمعية اليمنية للتاريخ والآثار بادرت كذلك إلى منحه عضويتها الشرفية وذلك أن الدكتور حمدى عبد الله أثبت بحق أن الإنسان يضفى المهابة والأهمية

على المنصب وليس العكس، وهو منذ وطئت قدماه العاصمة صنعاء، وهو شعلة مضيئة لا تخبو أبدا، فإلى جانب محاضراته وبحوثه ومقالاته حول التاريخ والحضارة والعمارة اليمنية، لا يفوته أبدا حضور المنتديات الأدبية والثقافية والمشاركة فى حواراتها، حتى لو عقدت تلك المنتديات فى مجالس تعاطى القات ساعات القيلولة!

وإذا كانت جميلة على رجاء قد نقلت اليمن وشواغله السياسية والثقافية إلى مصر تباعا، وظلت الدينامو المحرك لاستقطاب الاهتمام باليمن ونصرة قضاياه، خاصة إبان فترة تعرض دولة الوحدة اليمنية للمؤامرة الانفصالية عام ١٩٩٤، حيث أدارت المعركة الإعلامية المضادة من القاهرة بكفاءة واقتدار، بل كان عطاؤها الإعلامى مقدرا على صعيد تنوير الشعب اليمنى بالأبطال المصريين الذين خاضوا غمار الدفاع عن ثورته ونظامه الجمهورى وفى مقدمتهم الصديق والزميل الراحل جمال حمدى الكاتب الصحفى بروز اليوسف، فلاشك أنه يحسب للمستشار الثقافى المصرى أنه ظل ينقل مصر بزخمها الثقافى والإبداعى والوجدانى إلى اليمن، فلم يكن يمر شهر واحد إلا وكان الشعب اليمنى على موعد مع معرض للفنون التشكيلية أو الفنون الشعبية المصرية، وربما أسبوع لأفلام واحد من نجوم ونجمات السينما المصرية، فضلا عن الندوات التى نظمها للأدباء والشعراء والكتاب المصريين.

ولعل ما يثير الدهشة حقا أن الدكتور حمدى عبد الله الذى يسعى ما وسعه السعى للتعاون فى استضافة الشخصيات والأنشطة الثقافية المصرية مع وزارتى الإعلام والثقافة فى اليمن، لكنه وفى كثير من الأحوال وبشهادة مثقفين مصريين يستضيفهم فى منزله بصنعاء ويضع نفسه وسيارته فى خدمتهم، وهو لذلك وجميلة على رجاء نموذجان نادران ومشرفان وسط الدبلوماسيين، كما لو أنهما وجهان لعملة واحدة فى العطاء بلا حدود على صعيد توثيق العلاقات الثقافية بين مصر واليمن.

إلى ذلك كان سفر الفنان المبدع أحمد نوار إلى صنعاء على رأس وفد من وزارة الثقافة المصرية بمثابة خطوة أولى فى مشوار طال انتظاره للتفاعل الثقافى بين مصر

واليمن، خاصة ويجمع بين البلدين أواصر وعلاقات حضارية ونضالية ومحبة خالصة.

على أنه لا يفوتني في النهاية التنويه بعدة ملاحظات ضرورية في هذا السياق:

أولا: أنه من الأهمية التاريخية القيام بعملية رصد وتكريم مختلف الشخصيات المصرية التي أسهمت في الدفاع عن ثورة اليمن من العسكريين، وكذا من أسهموا بدور حضاري في انتشال اليمن من التخلف ووضعه على عتبات العصر، وأنا أعلم أن الرئيس على عبد الله صالح يلح على السفارة المصرية في صنعاء حتى تمد اليمن بأسماء هؤلاء المصريين!

ثانيا: إذا كان المؤرخ المصري مصطفى سالم قد حظى بالجنسية اليمنية، تقديرا لدوره في سبر أغوار التاريخ اليمني، وتأصيل العلاقات المصرية اليمنية، من هنا أحسب أن المطلوب في المقابل البحث عن وسيلة وأسلوب لتكريم الكاتب والمفكر اليمني المرموق الدكتور عبد العزيز المقالح رئيس مركز الدراسات اليمنية بصنعاء، لا لأن إسهامه وافر على صعيد التأصيل التاريخي للعلاقات الثقافية المصرية اليمنية، ولكن لأن الرجل لم تطأ قدماه أرض مصر ولا خرج من اليمن منذ ترحيله عنوة من القاهرة إبان العهد الساداتي لموقفه المناوئ لاتفاقية كامب ديفيد، لذا يلزم رد اعتباره وترضيته، وحبذا أن ينهض اتحاد الكتاب المصريين بهذه المهمة الثقافية والسياسية الملحة!

وفي زيارتي الأخيرة لصنعاء حاولت استثارة كوامن محبة الدكتور المقالح لمصر وثقافتها ومنفذيها لعل وعسى إقناعه بزيارة محبوبته القاهرة، لكنه ظل على موقفه بالاقتناع عن مغادرة اليمن وزيارة مصر وغيرها.. وقال لي إن الدكتور جابر عصفور يواصل إلحاحه في قبول دعوته لزيارة القاهرة ولا يزال وغيره من المثقفين يواصلون الإلحاح حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا!

ثالثا: منذ نحو ثلاث سنوات افتتح بالقاهرة المركز الإعلامي اليمني وأسندت رئاسته للسيدة جميلة على رجاء، وحتى بات كعبة يقصدها المثقفون والإعلاميون وكل المهتمين بالشأن اليمني، ومن هنا نرى ضرورة أن تتبنى القاهرة فكرة افتتاح مركز ثقافي مصري باليمن في المقابل حتى تتكامل الجهود على هذا الصعيد.

٢٣٠ ـ فرقة رضا للفنون الشعبية

والشاهد أن خالد الرويشان وزير الثقافة اليمنى وهو شاعر وكاتب وأديب مرموق، كانت له مبادرات إيجابية واضحة على صعيد توثيق اللحمة الثقافية مع مصر، فمنذ أن وقع مع الدكتور خالد الكومى السفير المصرى فى صنعاء البرنامج التنفيذى الثقافى بين البلدين، ولا يكاد يمر شهر واحد إلا وكانت صنعاء تستضيف علما ثقافيا من مصر، شاعراً وأديبًا أو فنانًا تشكيليًا لتعريف الجمهور اليمنى بألوان الإبداعات المصرية، وفى إطار هذا البرنامج الثقافى كانت استضافة اليمن البعثة الثقافية المصرية الضخمة برئاسة الفنان التشكيلى الكبير أحمد نوار، وضمت العديد من الفنانين التشكيليين وإبداعاتهم، وكذلك ٣٠ راقصًا وراقصة ومطربًا موسيقيًا من فرقة رضا للفنون الشعبية وقدمت عروضها المبهرة ووراءها خلفية من المشاهد الحضارية الخالدة لصنعاء القديمة، وقد تجاوب معها الجمهور اليمنى فى شوق وفرح غير مسبوق وخاصة رقصة «العروسة».

وعلى الصعيد اليمنى فلا تمر مناسبة ثقافية إلا وكانت موضع اهتمام خالد الرويشان عبر الاحتفال بها ثقافيا، إلى ذلك دعوته نجوما من الكتاب والأدباء العرب والأجانب للمحاضرة والحوار، إضافة إلى المهرجانات الكبرى حول مدن اليمن الحضارية باعتبارها عواصم ثقافية، وذلك أنه يؤمن بأن الثقافة تمثل الأساس السليم للتنمية والتقدم، وأنه حين تتجرد التنمية من الثقافة يتعرى الإبداع!

٢٣١ ـ خمسون عاما من الذكريات اليمنية

والحقيقة أننى سعدت خلال زيارتى الأخيرة لليمن أيما سعادة للخطة التى تبناها وزير الثقافة الأستاذ خالد الرويشان فى تفجير ينابيع الثقافة فى كل محافظات اليمن، لكأنه يجسد عبارة كبير المؤرخين العرب جواد على . . حين وصف اليمن بأنها «مصنع العرب»!

لم تعد إبداعات الشباب الفنية والأدبية تعانى وطأة الإهمال والنسيان، وذلك أن

باب النشر والعرض بات مفتوحا أمامهم عبر وزارة الثقافة، وعندما ذهبت للقاء الوزير فى دار الثقافة كان الاحتفال بمهرجان الحصان العربى الأصيل، عبر مئات اللوحات التى أبدعها شباب الفنانين الذين يخوضون تجربة المشاركة فى المعارض لأول مرة، وهم بعض من ٢٠٠ فنان تشكيلى جرى اكتشافهم ووضعهم على أول مداج الشهرة!

وإذا كان نصف الشعب اليمنى شعراء أو من المتذوقين للشعر كما يقولون، فقد عنى خالد الرويشان بإذكاء عملية التنافس والاحتكاك بين الشعراء اليمنيين، وبينهم وبين أقرانهم من الشعراء العرب.

كذلك حظيت خلال زيارتى بحضور حفل التكريم الرائع فى دار الثقافة بالشاعر الكبير محمد حسين هيثم، وأذكر أنه ألقى قصيدة سماها «سيرة الهائيين»، وأهداها لأولاده المبدوءة أسماؤهم بحرف الهاء.. وهم هيثم وهوزن وهند.. يقول فيها:

فى أول يوم لخروج الهائى الأول
من بيضتـــه
كان على جبل
فتمـــطى
فتدحـــرج
من قمم نائيـــة
نحو بلاد زرقاء
رأى عـــدنًا
فيما تشبه حلما تنتخب
ورأى العدنيات
على الأســطح
ينشرون شموسًا

لا تمرض أعينها

أو يشرعن من الهند

مراكب من حناء

وبخـــــور

وتوابل لا حد لها

فيجىء من البحر

جنـــود رزق

وقـــرود.

وقد شمل التكريم كذلك الشاعر الغنائى أحمد الجابرى، الذى انتابته حالة جديدة ومتوثبة من النشاط الإبداعى، استعاده بعدها تعاونه الخلاق مع كبار المطربين.

حتى فن المسرح كان ضمن اهتمامات وزير الثقافة خاصة أنه من قديم مضى زهاء ١٠٢ عام على ظهوره فى مدينة عدن، وهكذا كانت اليمن حاضرة للاحتفال يوم ٢٧ مارس بعيد المسرح فى المركز الثقافى بصنعاء من حيث تتابع عرض العديد من المسرحيات المحلية والعربية والعالمية.

حتى شخصى المتواضع كان محل حفاوة وزير الثقافة.. حيث فاجأنى بالإعلان عن ندوة صباحية فى دار الثقافة تحت عنوان «يوسف الشريف وخمسون عاما من ذكرياته اليمنية»، حضرها جمهور غفير تصدره عدد من المرجعيات السياسية اليمنية فى مقدمتهم حمود بيدر عضو تنظيم الضباط الأحرار الذى فجر الثورة السبتمبرية واللواء على عبد الله السلال والعميد محمد على الأكوع والدكتور عبدالرحمن بركات وزير الداخلية الأسبق و.. عدد من الصحفيين والأدباء اليمنيين وأعضاء السلك الدبلوماسى العربى!

وهكذا على ما يزيد على ساعتين كان خيالى يغترف تباعا من بئر ذكرياتى العزيزة عن اليمن بشكل تلقائى، فلم أكن بحاجة إلى القراءة من أوراق أعددتها للمناسبة!

على أى حال فقد خلصت إلى أن خالد الرويشان قد حقق ثلاثة إنجازات مقدرة، «الأول» حين نجح فى هدم الحاجز المانع للتفاعل بين المثقف والسلطة، و«الثانى» إدارته لشئون وزارته ميدانيا وسط المبدعين وخارج المكاتب والنظم البيروقراطية «الثالث» محاولاته الدءوبة عبر منافسة الثقافة للعمل الدبلوماسى فى كسب صداقة الشعوب والتواصل معها!

على أننى حين ودعته انطلق عقلى وضميرى بشكل عفوى وقلت لخالد الرويشان «دائما ما كانت لقاءاتى وحواراتى مع الماضى قاصرة على المرجعيات اليمنية.. وأشهد أنك عبر إحاطتى بشباب المبدعين قد وضعتنى على طريق المستقبل الزاهر الذى ينتظر اليمن»!

٢٣٢ ـ وظفونى

صديقى سفير اليمن بالقاهرة الدكتور عبد الولى الشميرى رجل ولوع بالثقافة والأدب، وهو شاعر معروف غزير الإبداع، وكان ضابطا سابقا لعب دورا هاما فى الملحمة الضروس التى خاضتها القوات المسلحة ووراءها الشعب اليمنى لدحر المؤامرة الانفصالية صيف ١٩٩٤، وقد ألهمه حسه الوطنى وذاكرته ومعايشته لتلك الأيام المجيدة فى تأليف كتابه الموسوعى الذى يسجل لأحداثها بأمانة وشفافية فى جزءين بعنوان (١٠٠٠ ساعة حرب).

على أن الدكتور الشميرى لم يرض لنفسه أن يظل أسير دائرة نشاطه الدبلوماسى الرسمى فحسب، إذ كانت عنايته فى توظيف دوره الأدبى والثقافى وإبداعه الشعرى فى المجال الأرحب للدبلوماسية الشعبية، وهكذا على نفقته الخاصة استأجر باخرة راسية على شاطئ النيل الغربى فى القاهرة مقرا لنادى ثقافى أسماه «المنتدى العربى» وعلى مدى بضع سنوات كان المنتدى قد تجاوز عقد العشرات من الندوات الناجحة والمحاضرات التى نظمها فى شتى دروب الثقافة والأدب والتاريخ، فيما صدرت عن المنتدى مجلة دورية متميزة تعنى بمتابعة هذه الأنشطة.

الطريف أن الدكتور الشميرى كان تعيينه فى البداية مندوبا لليمن بالجامعة

العربية، وصادف أن نشر قصيدة له بعنوان «وظفونى» فى نفس الفترة التى كان قد صدر قرار من الخارجية اليمنية بنقل السفير عبد العزيز صادق الكميم إلى صنعاء وتعيينه خلفا له مع احتفاظه بمنصب المندوب الدائم بالجامعة العربية فى إطار خطة التقشف التى تتبناها الدولة، لكن على ما تبدو الشواهد أن هذا التعيين صادف تفسيرا آخر على نحو الخبر الذى نشرته صحيفة السياسة الكويتية فى العدد رقم ١٣٢٥٨ بتاريخ ٨ رمضان عام ١٤٢٦ هجريا. . وهذا نصه:

يقال والعهدة على الراوى إن الأديب الكبير والشاعر الفذ الدكتور عبد الولى الشميرى أرسل قبل مدة قصيدته الموسومة بـ «وظفونى» إلى الرئيس على عبد الله صالح الذى أعجب جدا بها، فوجه باعتماد الدكتور الشميرى سفيرا لليمن فى العاصمة المصرية ومندوبا لها فى الجامعة العربية.

المصادر أكدت أن الأديب الشميرى كان يسعى إلى منصب وزارى داخل اليمن وليس خارجها، لكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن.

وفيما يلى القصيدة وهى من سبعين بيتا كما أوردها موقع «إيلاف» الإلكترونى أمس من مراسله فى صنعاء محمد الخامرى ومطلعها:

وظفـــــونى

إننى والله يشهد

قادر كفء

ضعيف القلب واليد

وظفـــــونى

لن أحرك ساكنا مهما تعفن أو تجمد

وعلى العهد والميثاق الوعد المؤكد

وظفـــــونى

إننى احتفظ بالتأكيد أبجد

سوف أمضى صادق الحب وفيا

للزعيم القائد الكفء المقلد
الممجد والمخلد
هو معبودى ومحبوبى، ودينى
وأبــى
والأم
والجـــد
وهو القانون والشرع
ومن خالفه بالدين مرتد
وأنا المؤمن بالله إذا شاء
وإن شاء سأجحد

بعدها بأيام نشرت صحيفة السياسة بيانًا من سفارة اليمن بالقاهرة. . «نود الإشارة إلى أن الدكتور عبد الولى الشميرى عين سفيرا لليمن لدى الجامعة العربية فى القاهرة منذ أربع سنوات، وبعد انتهاء فترة السفير اليمنى لدى القاهرة وفى إطار إجراءات التقشف التى أعلنتها وزارة الخارجية اليمنية فقد أوكلت له مهمة رئاسة البعثة الدبلوماسية اليمنية لدى مصر إضافة إلى عمله كمندوب لدى الجامعة العربية وليس بسبب القصيدة كما جاء فى الصحيفة، لذلك وجب التنويه.

٢٣٣ـ مقــدمى مـن ســنحان

ظل الرئيس على عبد الله صالح ولا يزال يطرب للنكتة ويسعى لسماعها دون أن يغضب أو عاقب قائلها حتى لو كانت تمسه شخصيا، كون النكتة تنفيسًا طبيعيًا عن مكبوتات الشعوب ودليلا على حيويته وعشقه للسخرية والمرح!

يوما كان فى ضيافة اليمن زائر أجنبى، حيث نظم له برنامجا للطواف الحر بين معالم الريف والحضر!

فى صنعاء شاهد قصرا مشيدا بالوقيص وهى الأحجار الصخرية الملونة، حيث يحتاج قطعها من الجبال ونحتها ثم بناؤها مبالغ باهظة . . وسأل الضيف مرافقه: لمن هذا القصر المنيف الذى تقف السيارات الفارهة أمامه؟

قال المرافق: مقدمى فى «سنحان» أى رجل هام ذو شأن وشنشان!

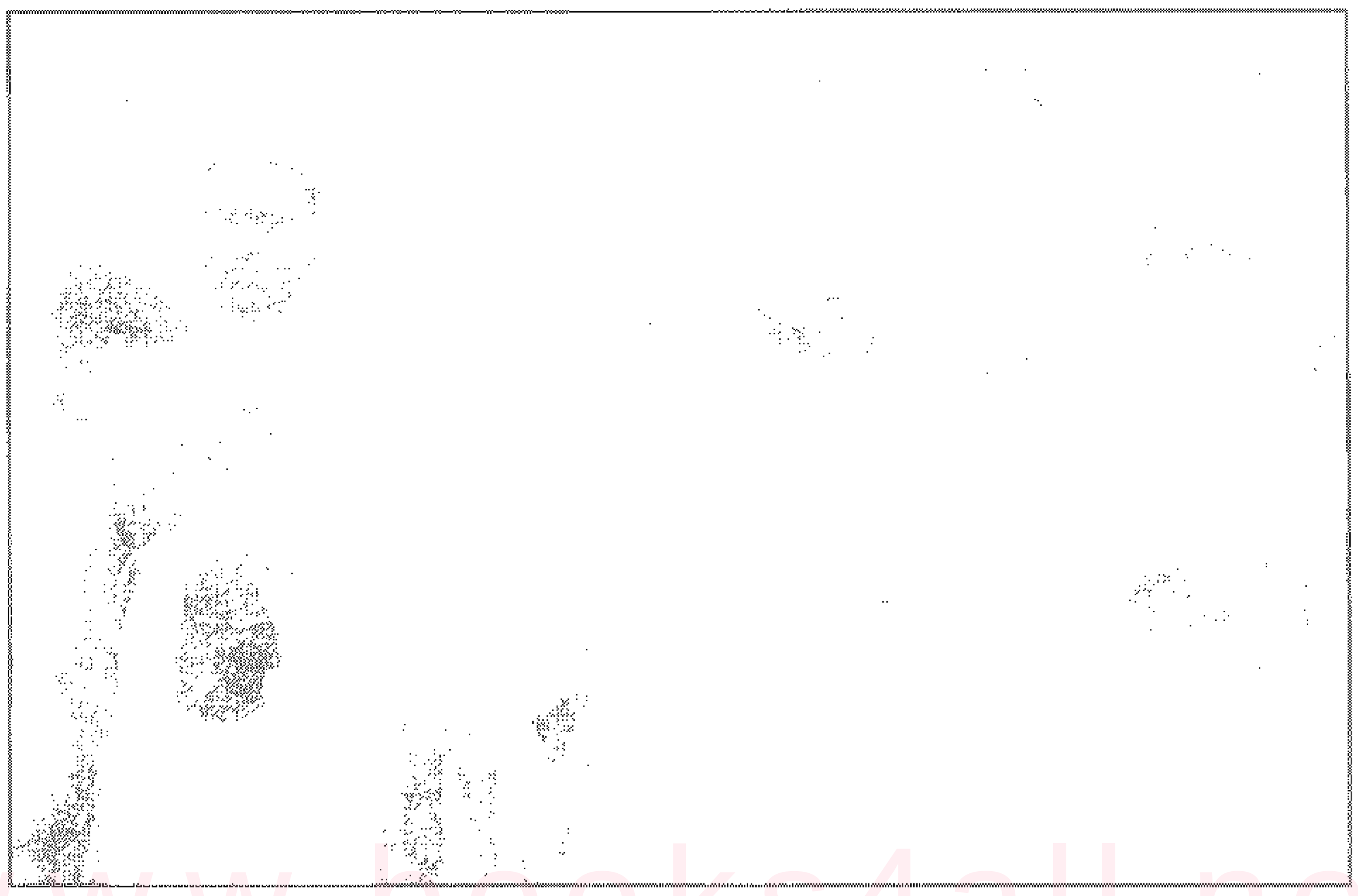
وفى محافظة آب بهر الضيف الأجنبى ووقف مشدوها وهو يجول أنحاء مزرعة شاسعة خضراء تتوسطها استراحة أنيقة فوق قمة جبل شاهق وعاد يسأل عن صاحبها . . وقال المرافق: مقدمى من «سنحان»!

فلما زار الضيف الأجنبى مدينة تعز وطاف جنبات مصنع ضخم . . لم يتوان عن تكرار السؤال: لمن هذا المصنع الحديث ؟ وقال المرافق: هو أيضا لمقدمى من «سنحان» .

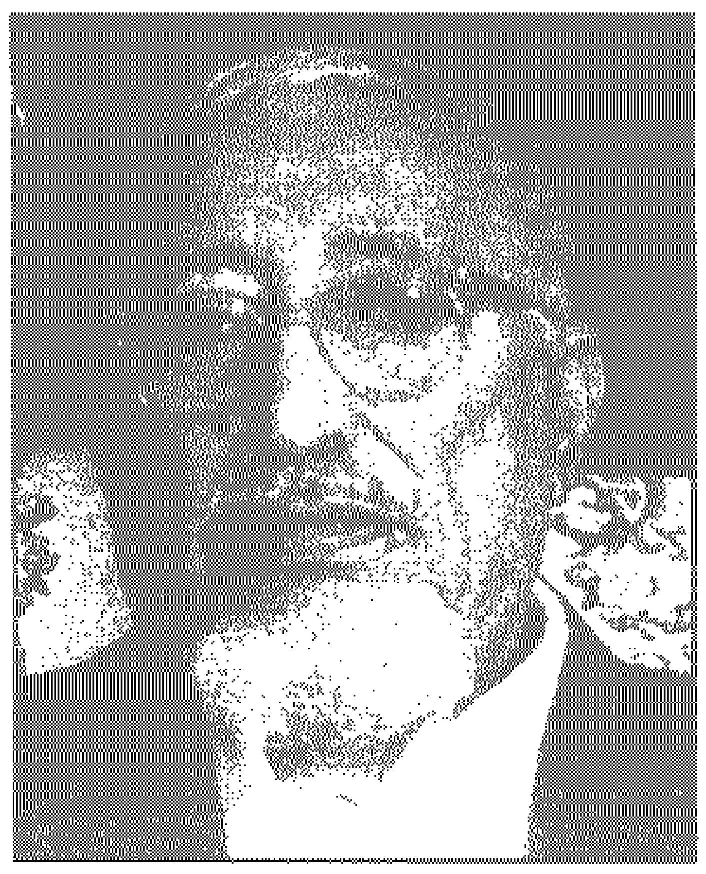
عندئذ ضرب الضيف كفا بكف فى دهشة وقال: يا سنحان الله!

«سنحان» مسقط رأس على عبد الله صالح!

ملحـــق الصـــور



الإمام أحمد فتشيا إثر فشل انقلاب الثلايا



الإمام البدر قبيل رحيله



الفضيل الورتلاني



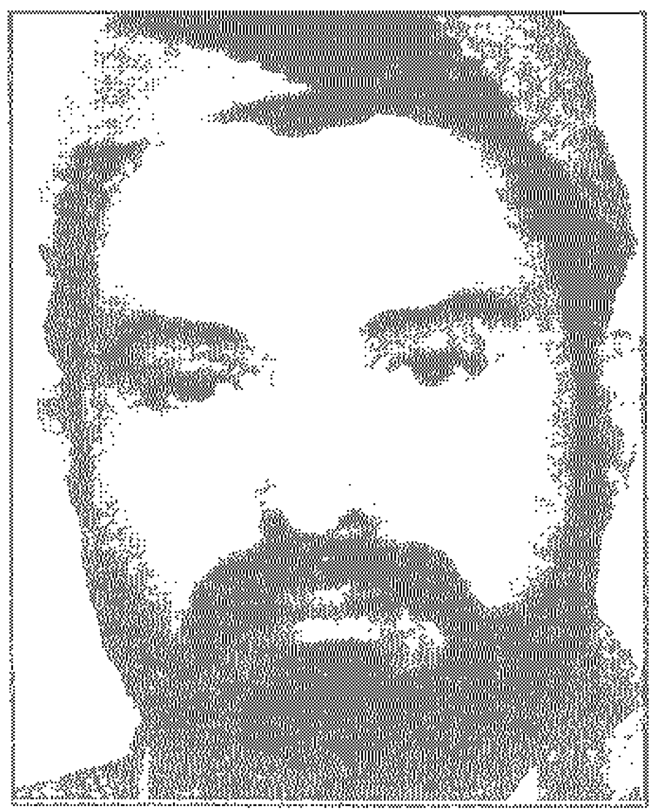
الصاغ صلاح سالم فى صنعاء قبل الثورة اليمنية



طاقم إذاعة صنعاء ليلة الثورة ـ المتالح ـ المرونى ـ حمران

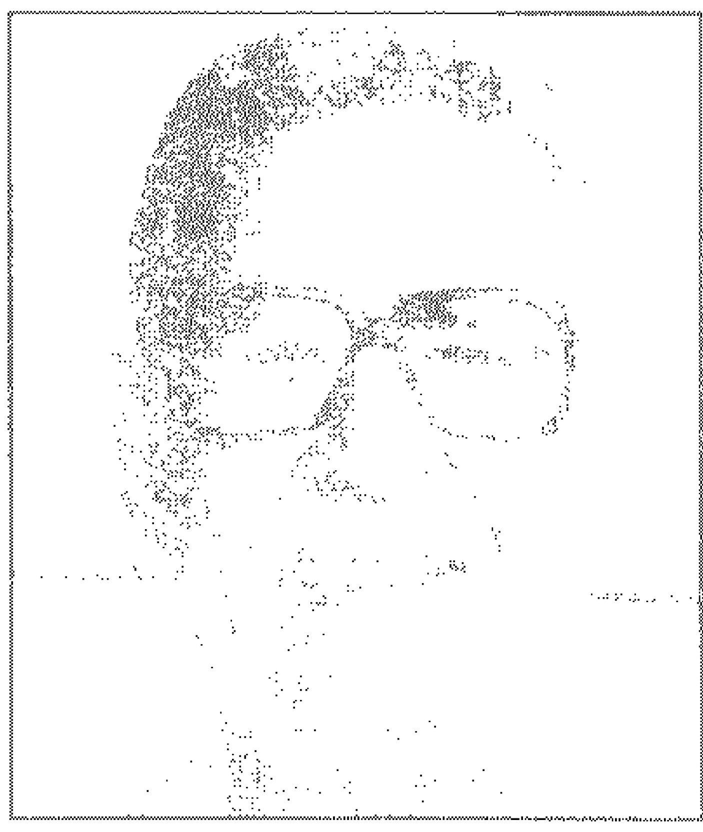


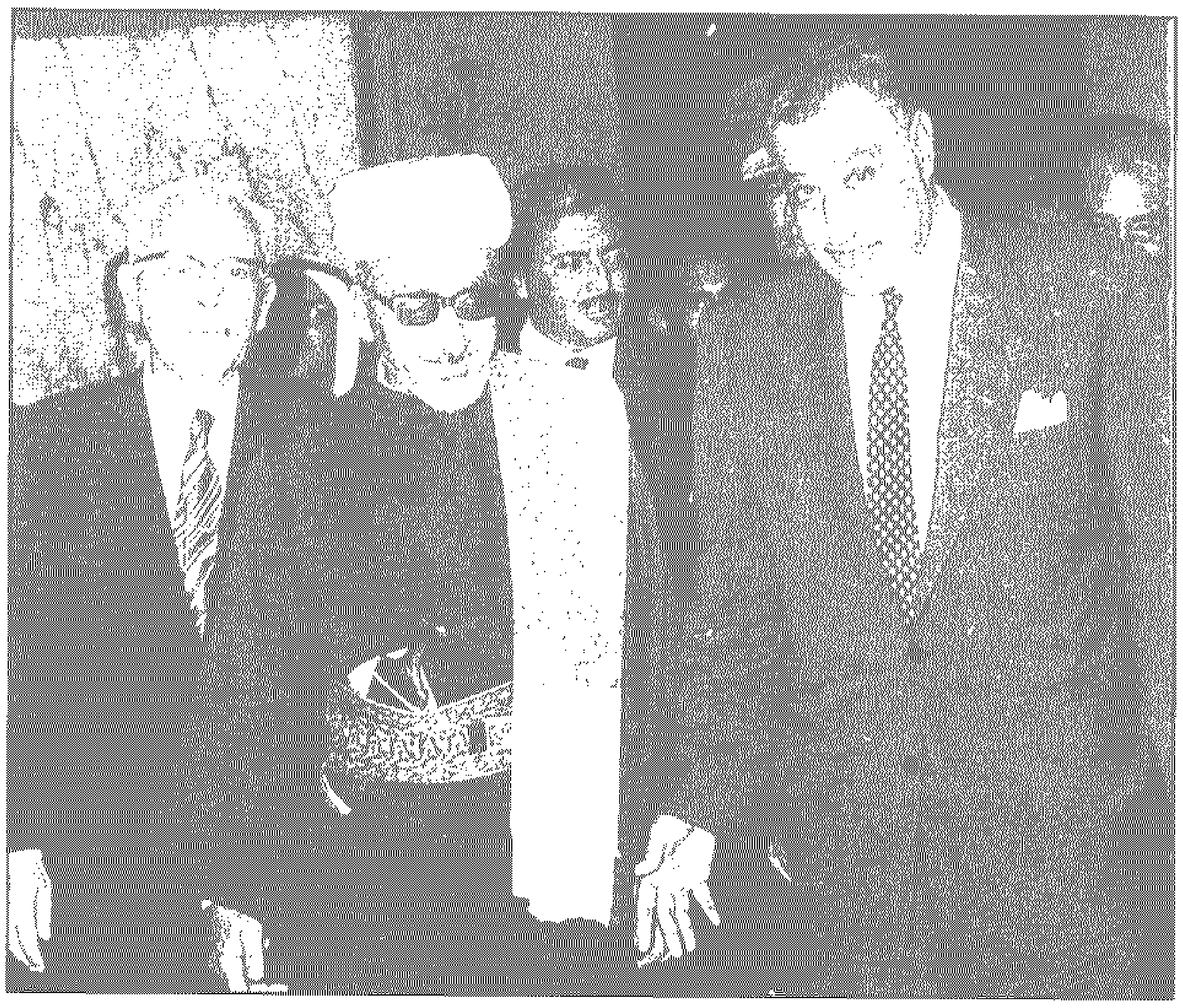
جمال عبد الناصر مع الفريق عبدالمحسن مرتجى قائد القوات المصرية باليمن



الحـوثى

القـريق أنور القـاضى أول قـائد للقوات المصرية باليمن





عبد الناصر والقاضى عبد الرحمن الإيريانى وفى الخلف الرئيس سالم ربيع



قبيلى يسأل عبد الناصر عن إسماعيل يس



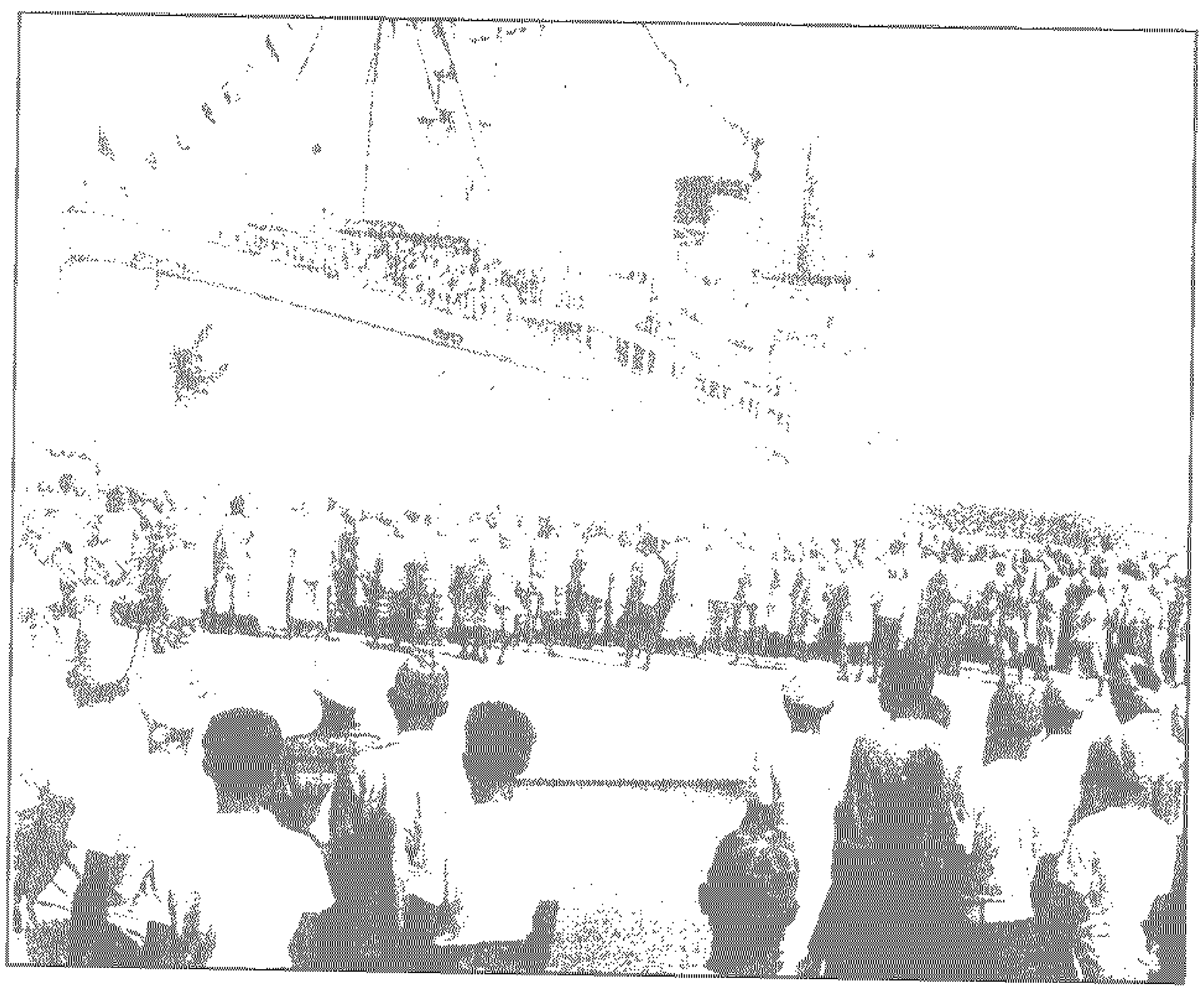
السلال والقاضي الزبيري أبو الأحرار اليمنيين



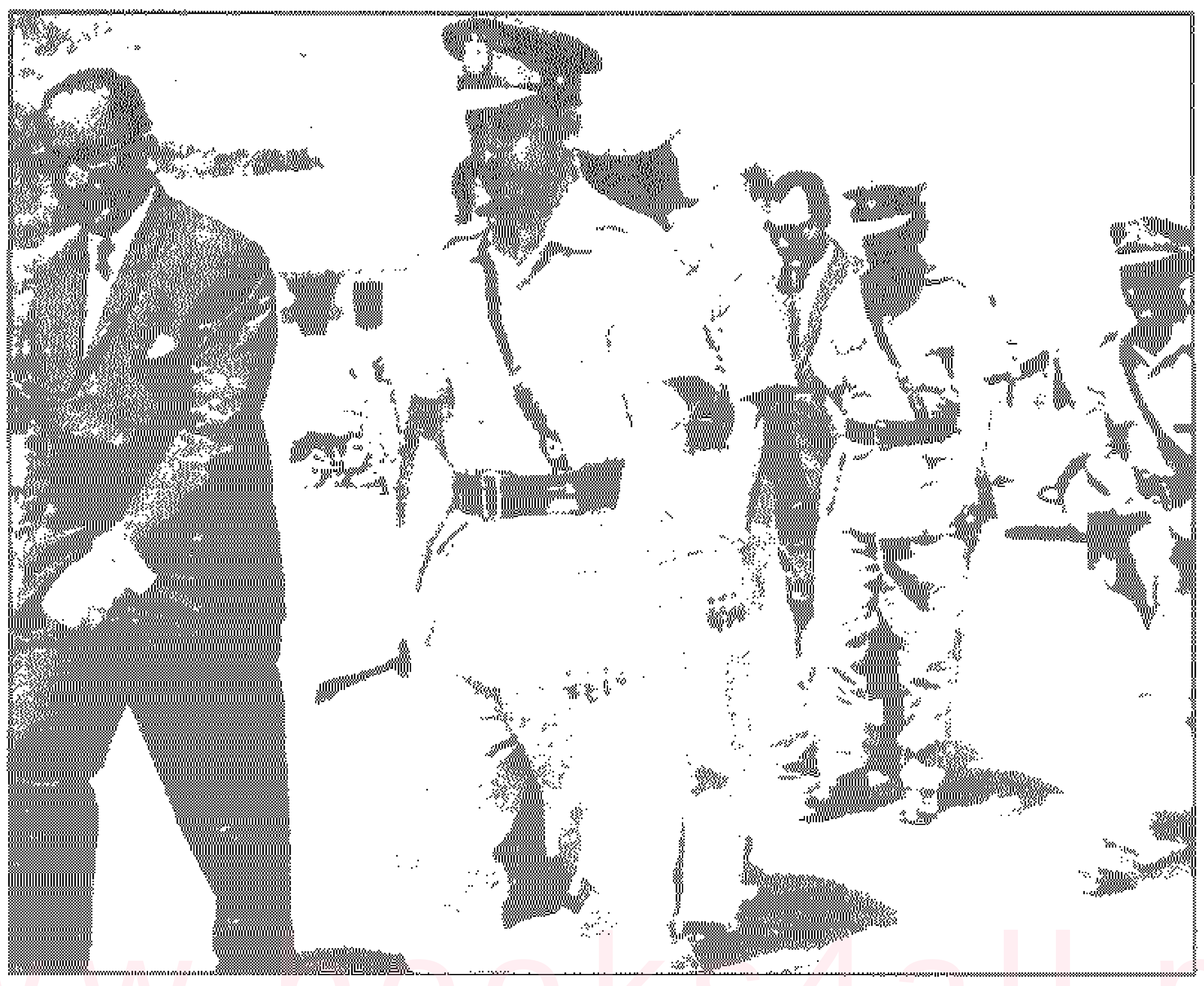
مع الرئيس السلال



السادات وكمال رفعت والبيضانى



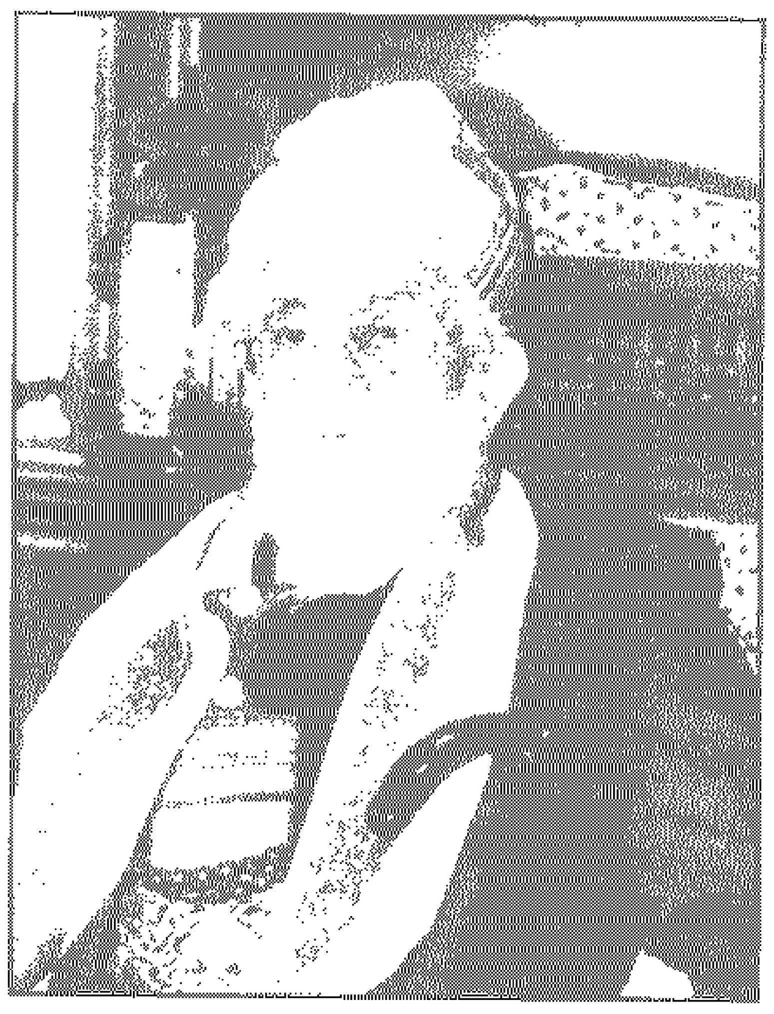
أول وصول القوات المصرية



الرئيس قحطان الشعبى مع العقيد حسين عثمان قائد الجيش فى اليمن الجنوبى



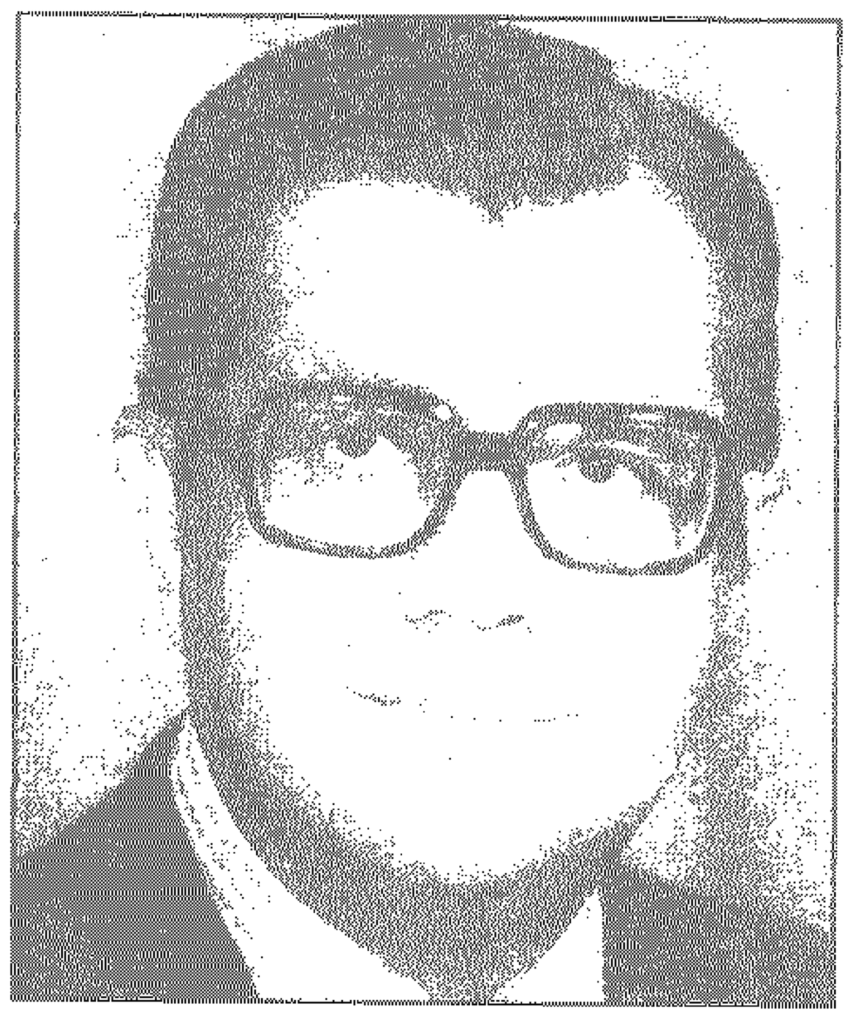
الجمهوريون والملكيون فى مؤتمر حرض



الشيخ سنان أبو لحوم



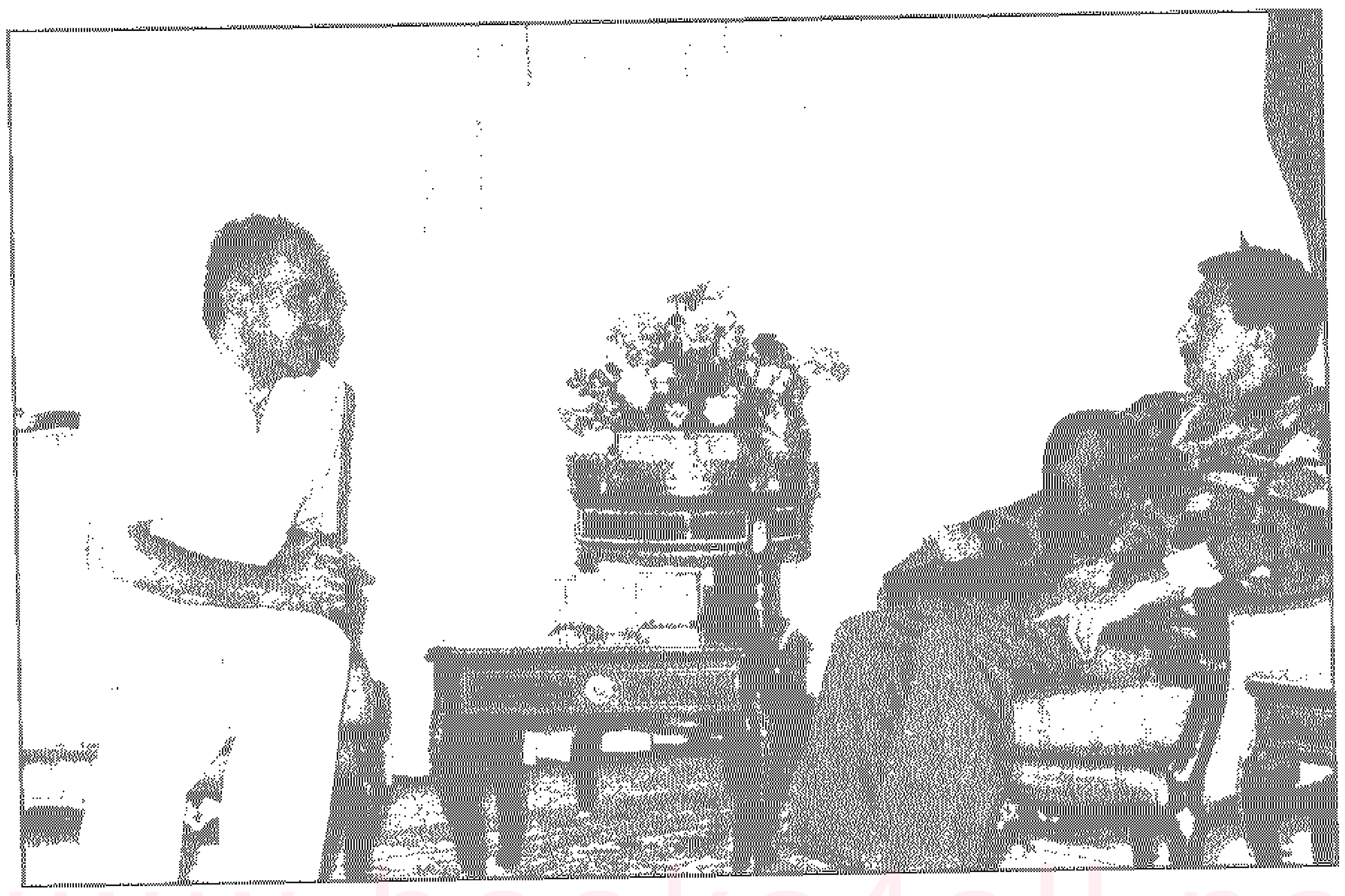
الأستاذ أحمد نعمان



عبد القوى مكارى



محمد على الجفرى رئيس حزب الرابطة



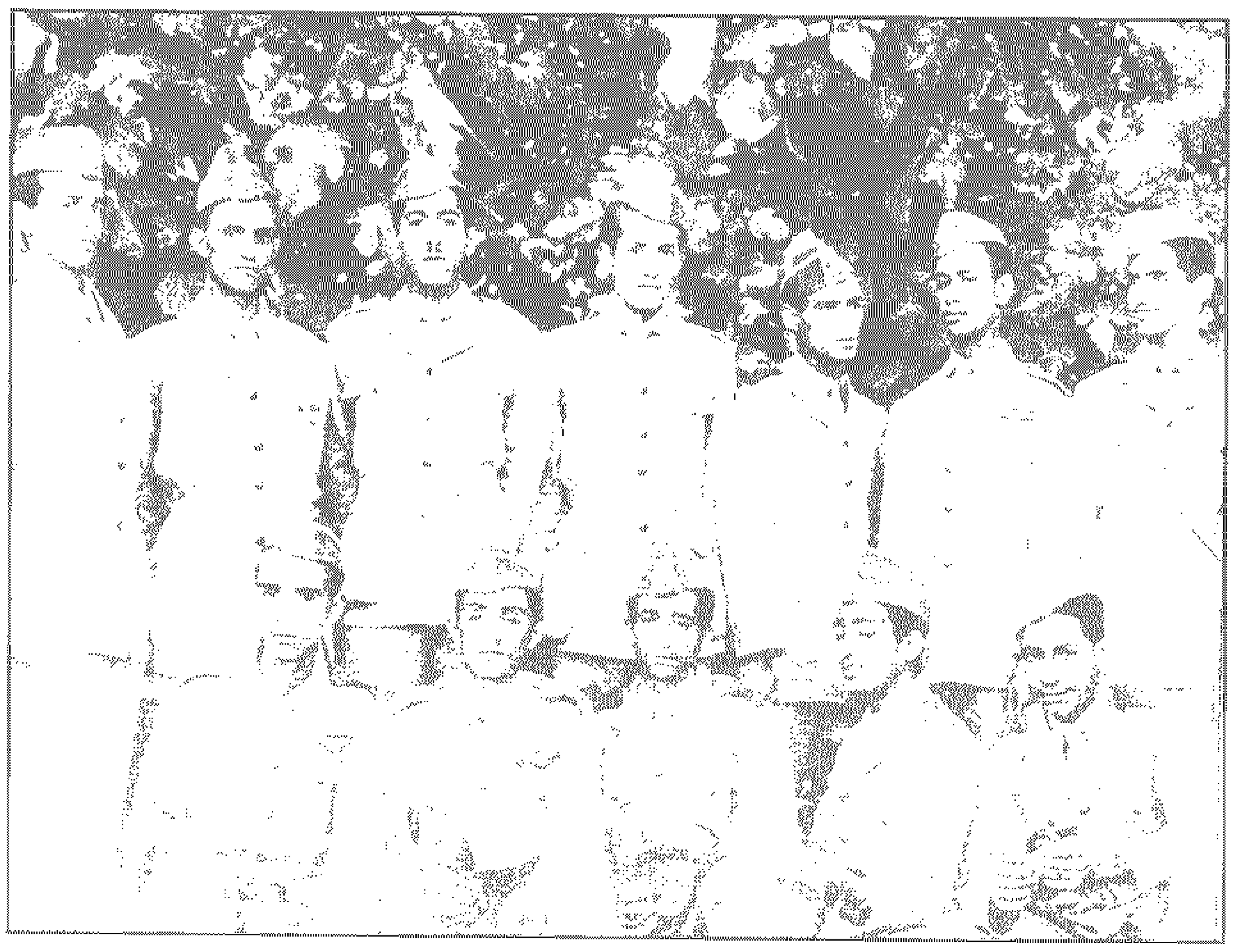
مع الرئيس على عبد الله صالح



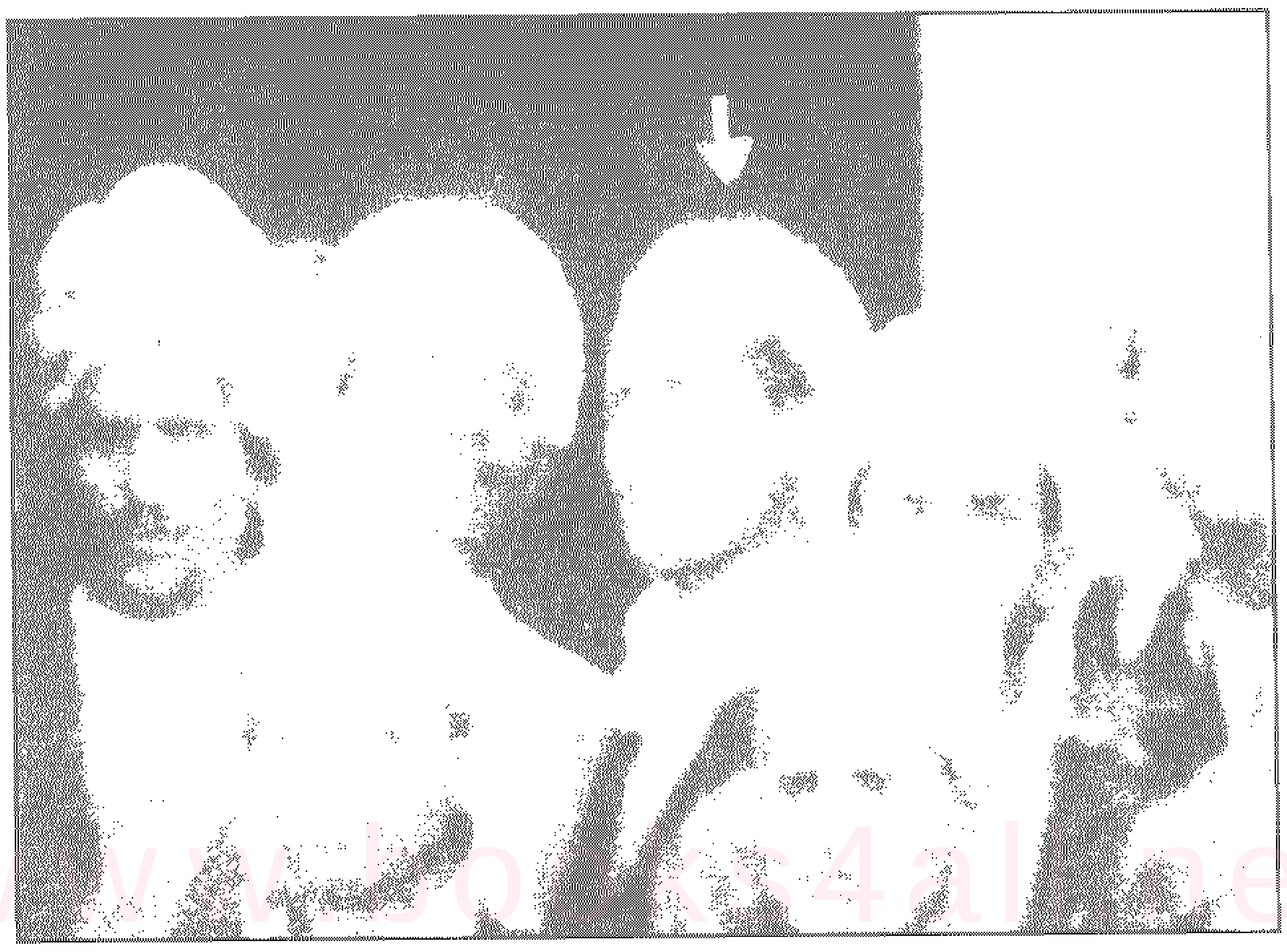
حفل التكريم بالأوسمة اليمنية يوسف الشريف - محمود عودة - مصطفى بكرى - رجاء النقاش - عبد العظيم مناف
السفير محمد على لقمان - المستشارة الصحفية جميلة على رجاء

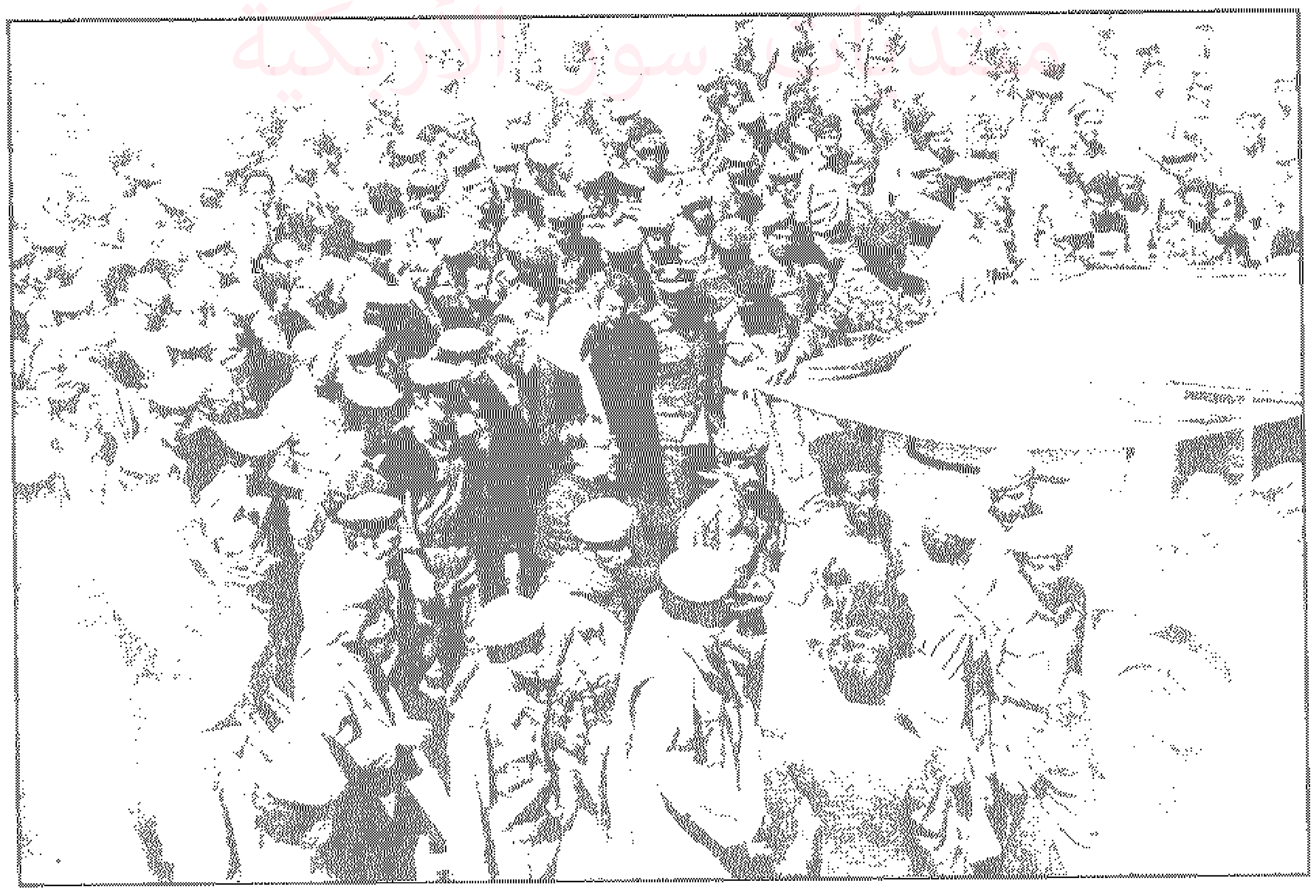


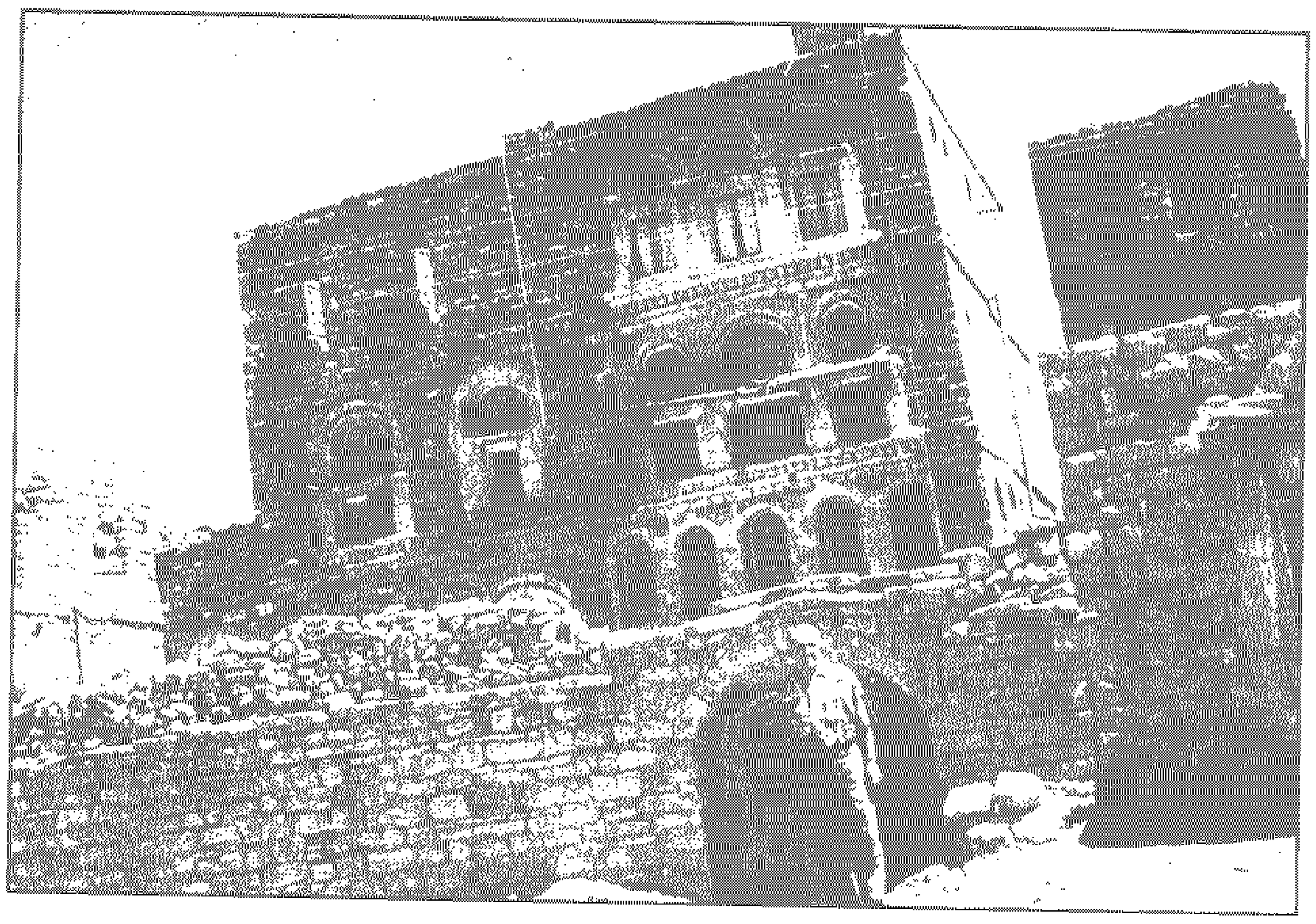
حوار مع الرئيس إبراهيم الحمدى



إبراهيم الحمدى مع نخبة من شباب الضباط الذين رفضوا الانضمام إلى حرس الإمام


السهم يشير لقائد الضباط الأحرار الشهيد الملازم على عبد الغنى

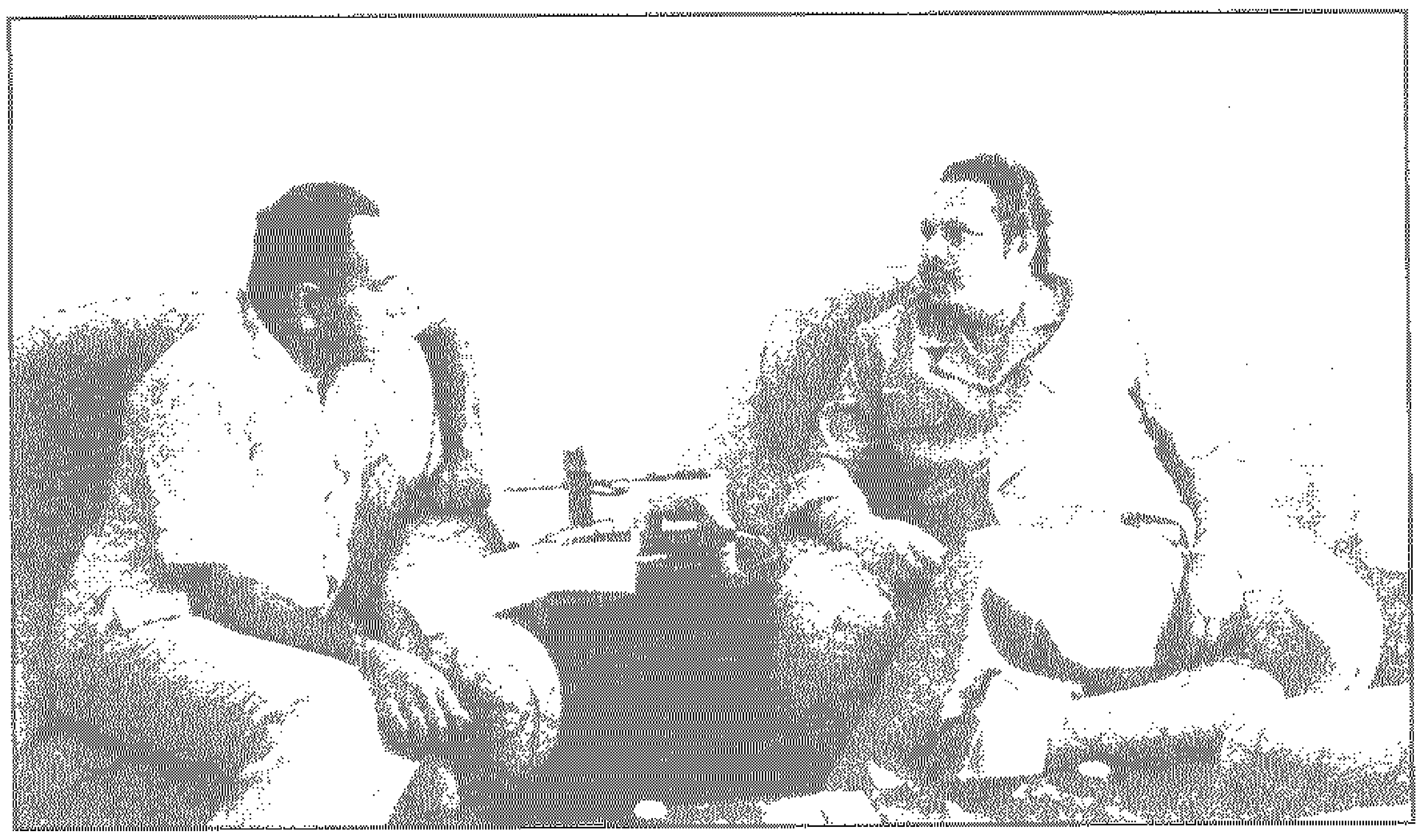

يوسف الشريف ومحمد عودة فى جنازة إبراهيم الحمدى



أمام منزل الشهيد إبراهيم الحمدي في «ثلا»



مع الشيخ عبد الله الأحمر



مع الرئيس على ناصر محمد



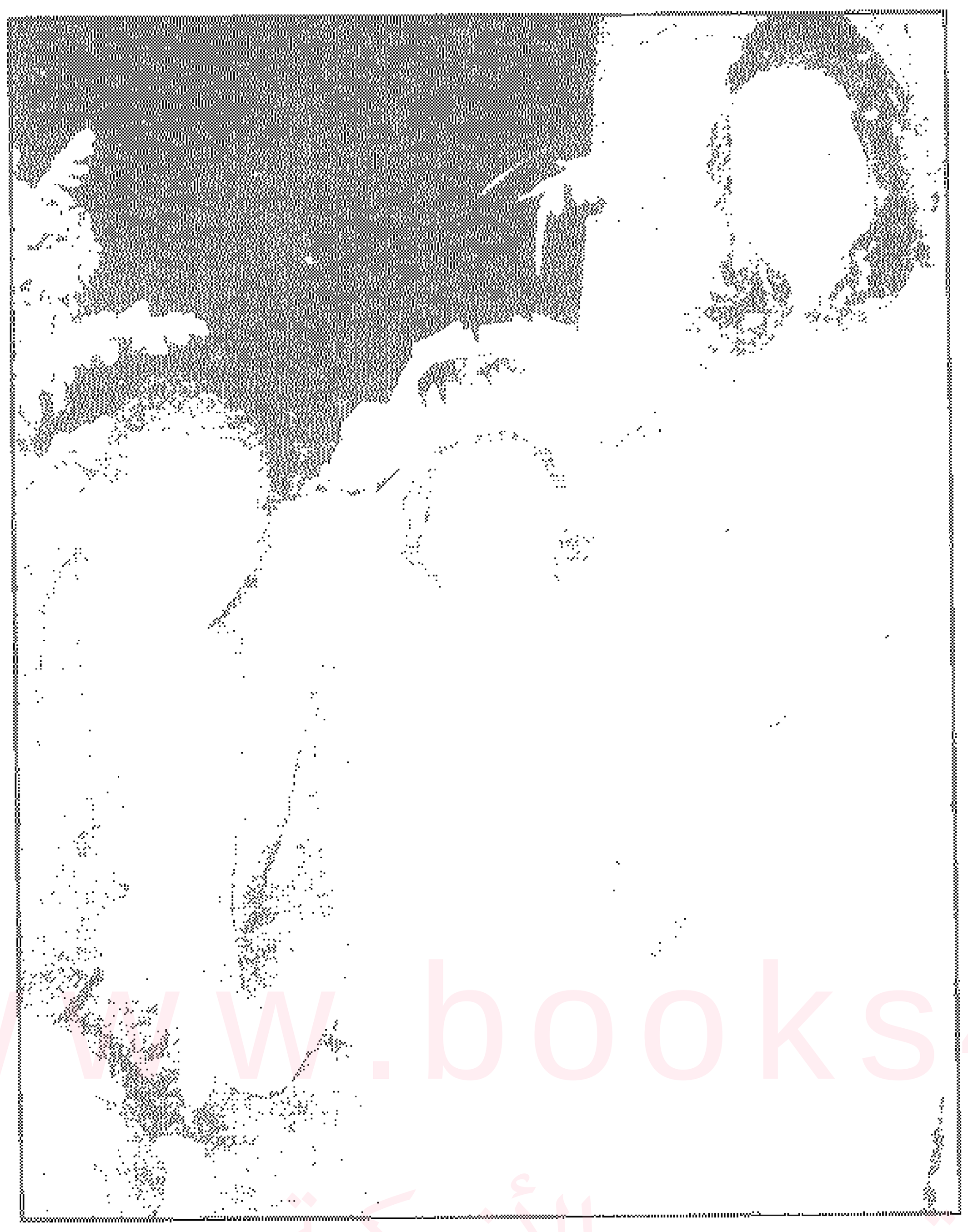
مع ســالم البيــض



ندوة فى نادى الضباط بصنعاء



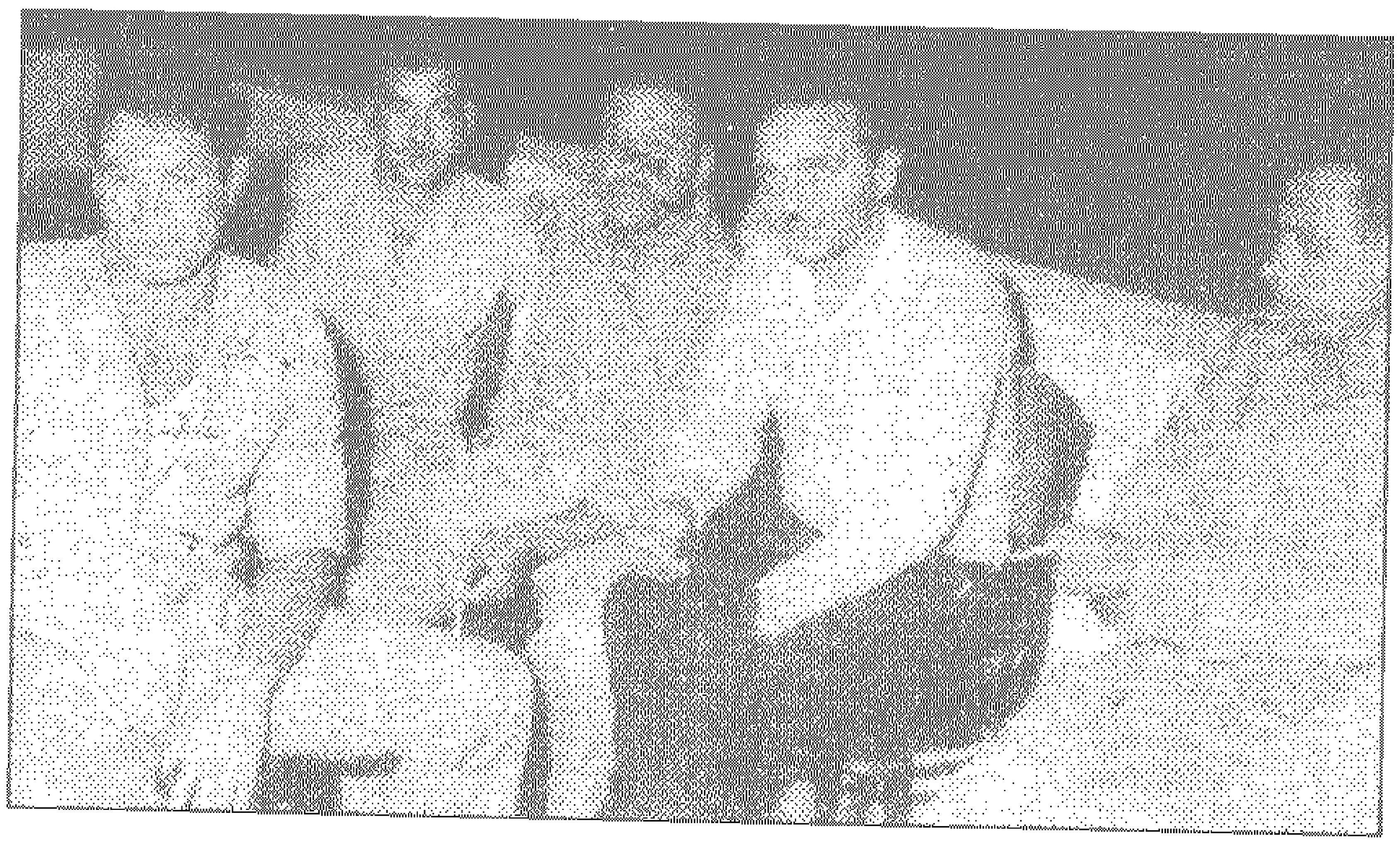
اتفاقية روز اليوسف للوحدة اليمنية.. محسن العينى ـ على ناصر ـ عبد الرحمن الشرقاوى ـ السفير يحيى المتوكل وأسرة روز اليوسف



جمال حمد مع عروسه نيرمين التونسى



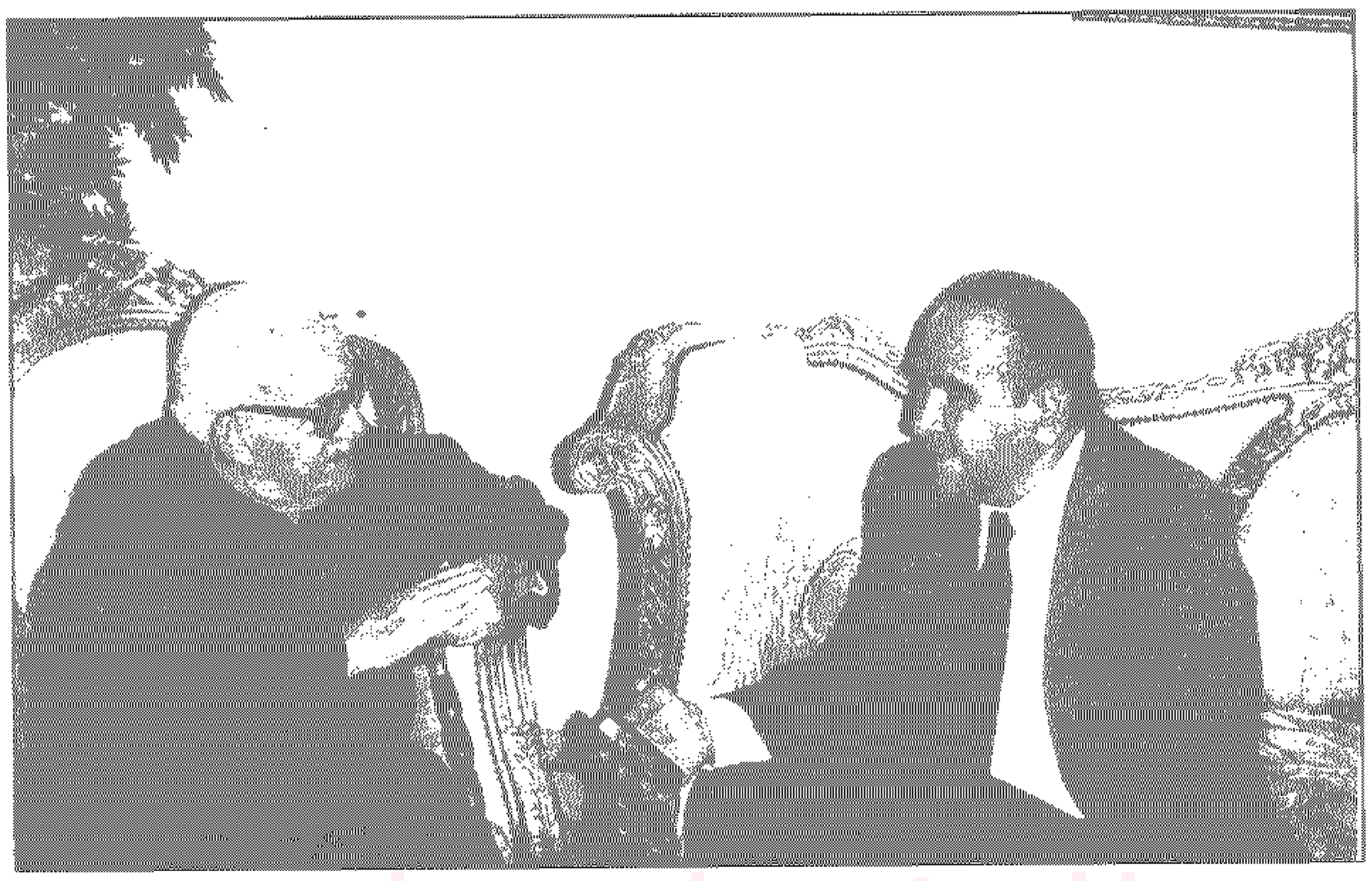
الصحفى جمال حمدى بطل عملية ردفان



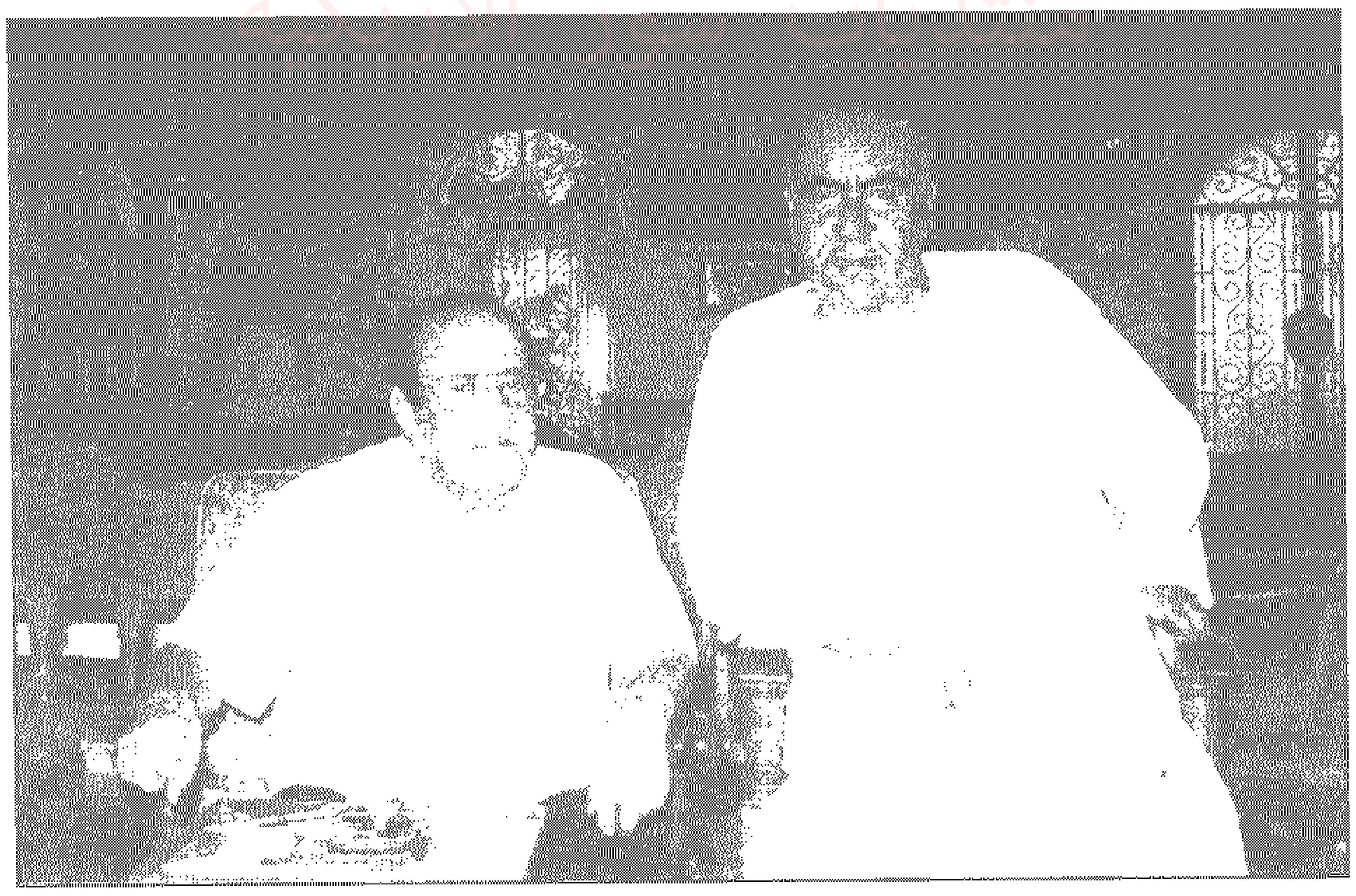
فى مقر العملية صلاح الدين فى تعز



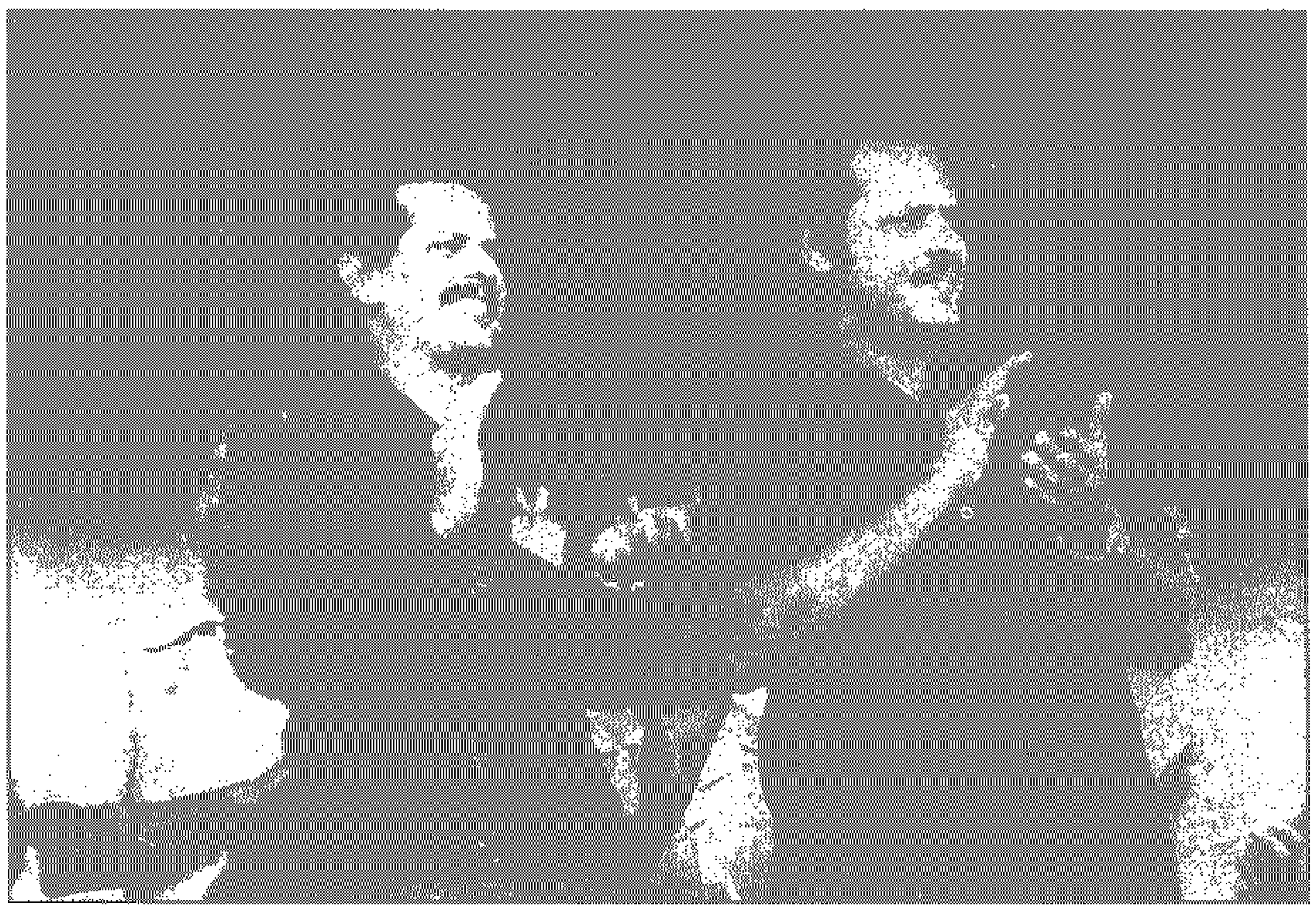
مع العقيد نبيل سعيد والمقدم حسن العجيزى فى مقر العملية صلاح الدين فى تعز



البطل المصرى المقدم محمد عبد الله «الحدا»



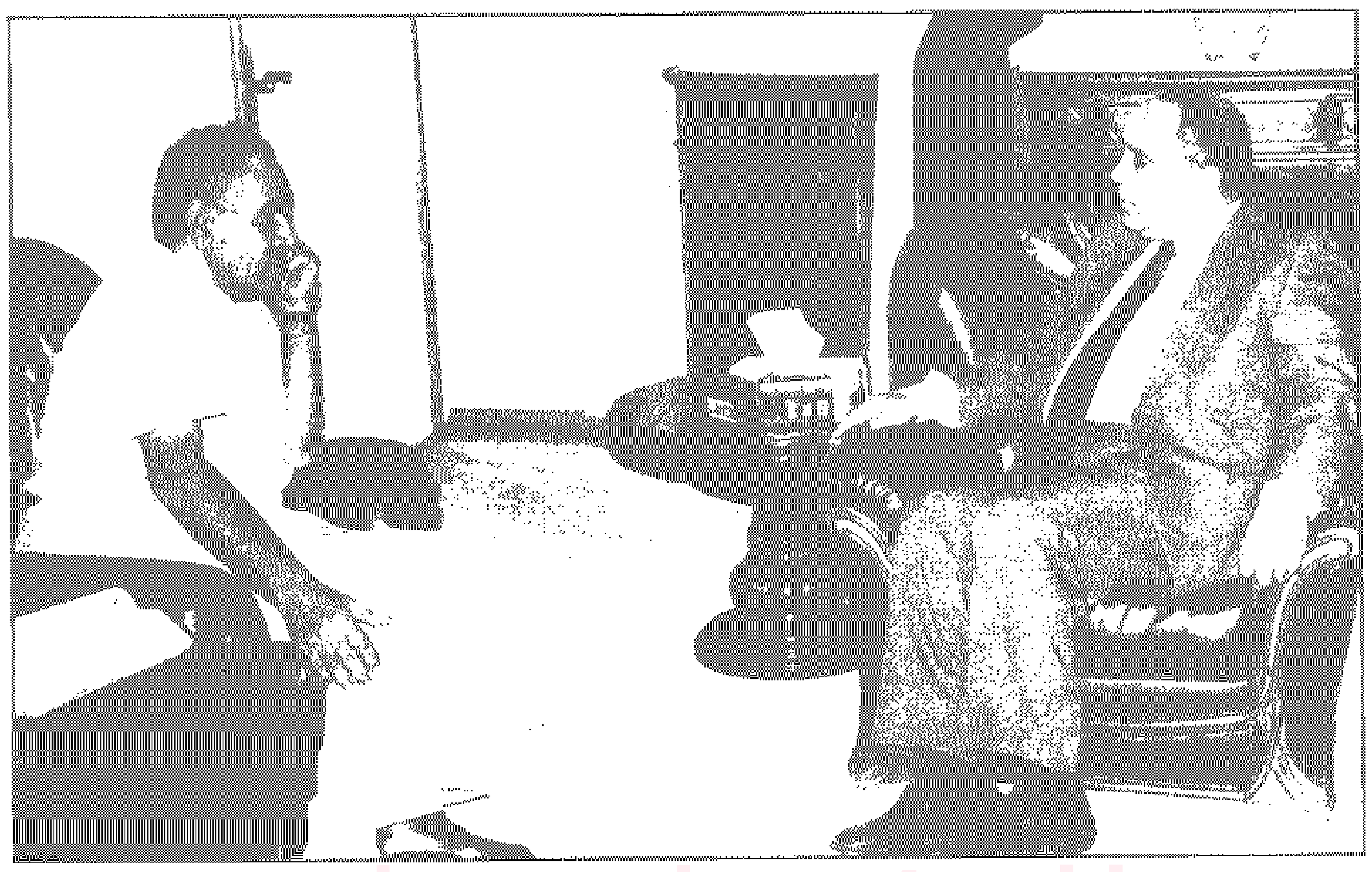
مع الأستاذ محسن العينى فى القاهرة



علي ناصر وعبد الفتاح إسماعيل وأحداث يناير ١٩٨٦ الدامية



علي عبد الله صالح وعلي سالم البيض إثر إعلان الوحدة اليمنية



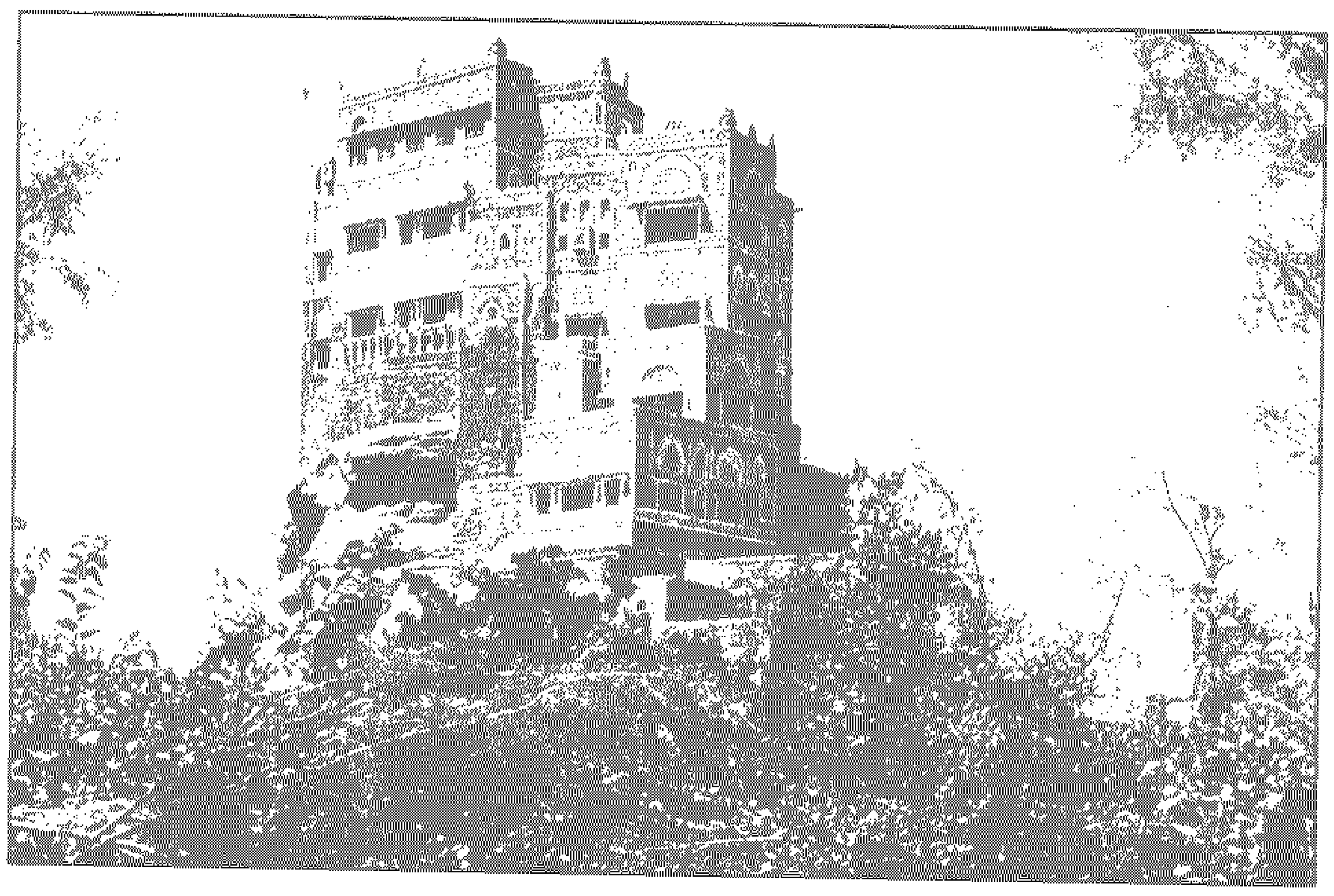
مع أبو بكر العطاس



يهـــود اليمـــــن



ابراهيم المعلم فى حفل توقيع الأديبة عزيزة عبد الله على روايتها «تهم وفاء»



العمارة اليمنية حضارة تناطح السحاب



الشاعر عبد الله البردونى ليلة زفافه على زوجته الثانية



أم البلة السوسوه الأمين المساعد لسكرتير الأمم المتحدة مع مادلين أولبرايت
وزيرة الخارجية الأمريكية الأسبق



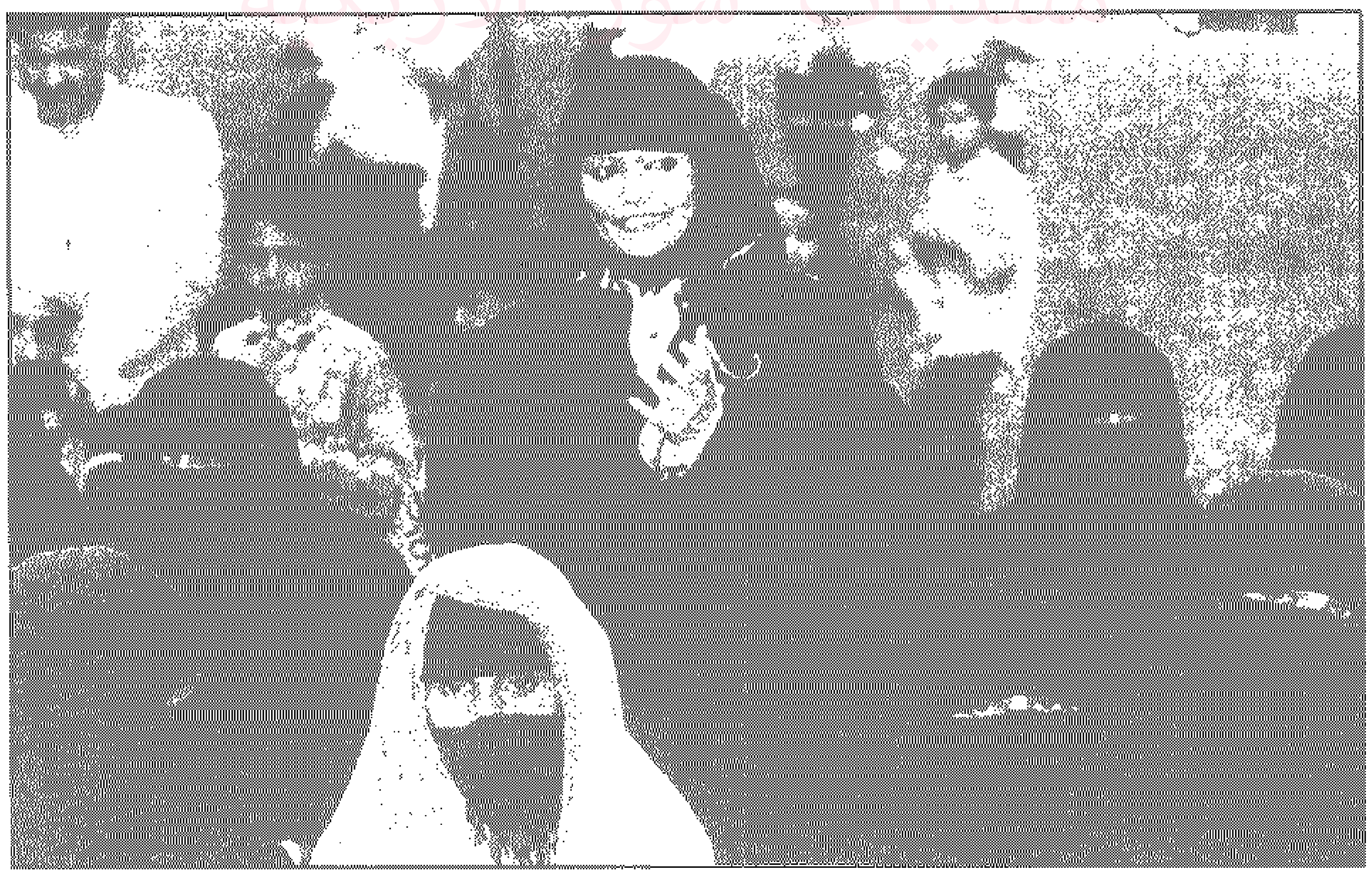
المطربة نواه اليمنية الإسرائيلية الجنسية



كابتن روز أول قائدة طائرة بوينج



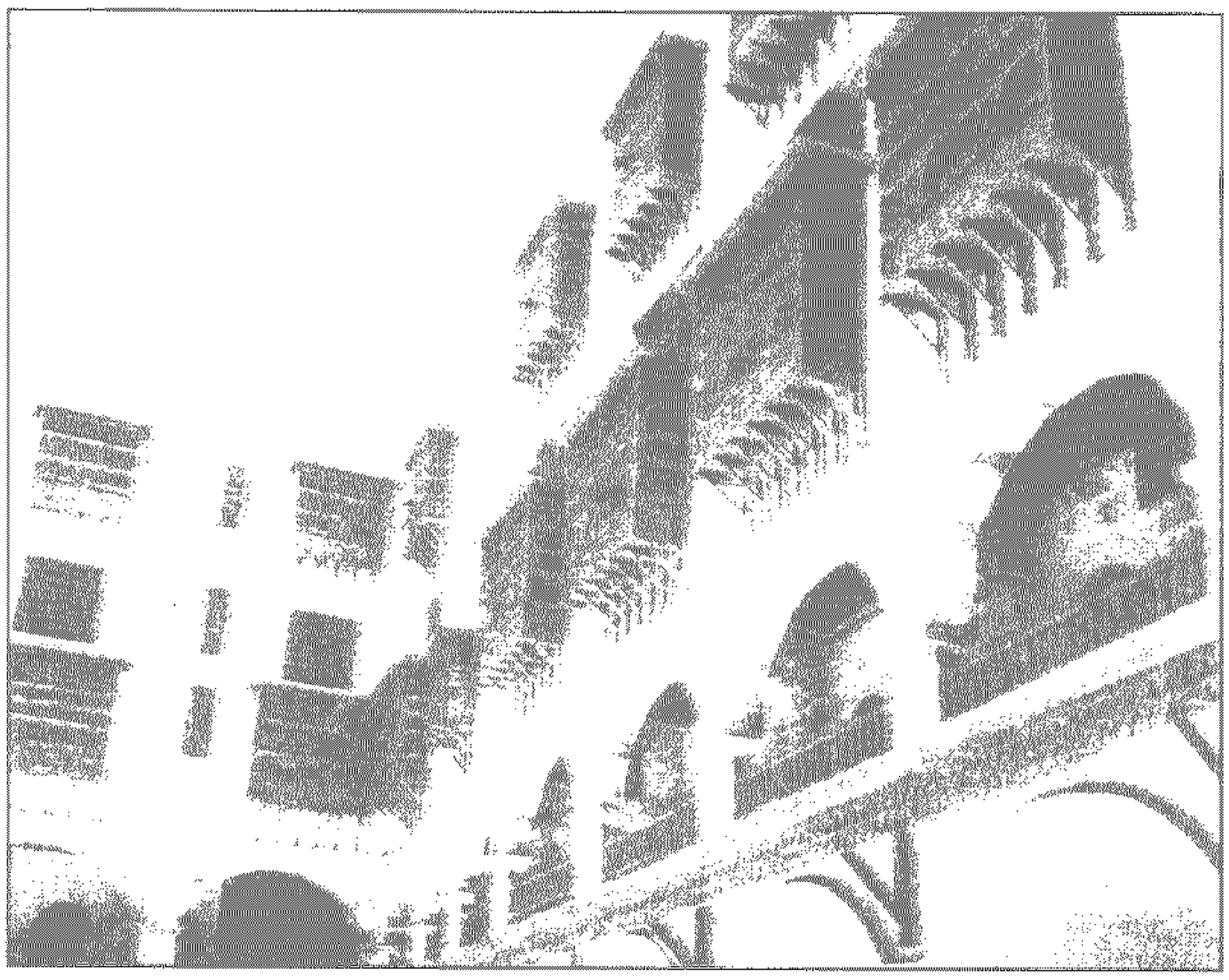
مها الخالدي مصممة أزياء يمنية



يمنية سافرة في حفل انتخابي



رسم للشاعر عمارة أول سفير لليمن فى مصر



وكـــــالة بازرعـــة



حفل زواج فى تعز



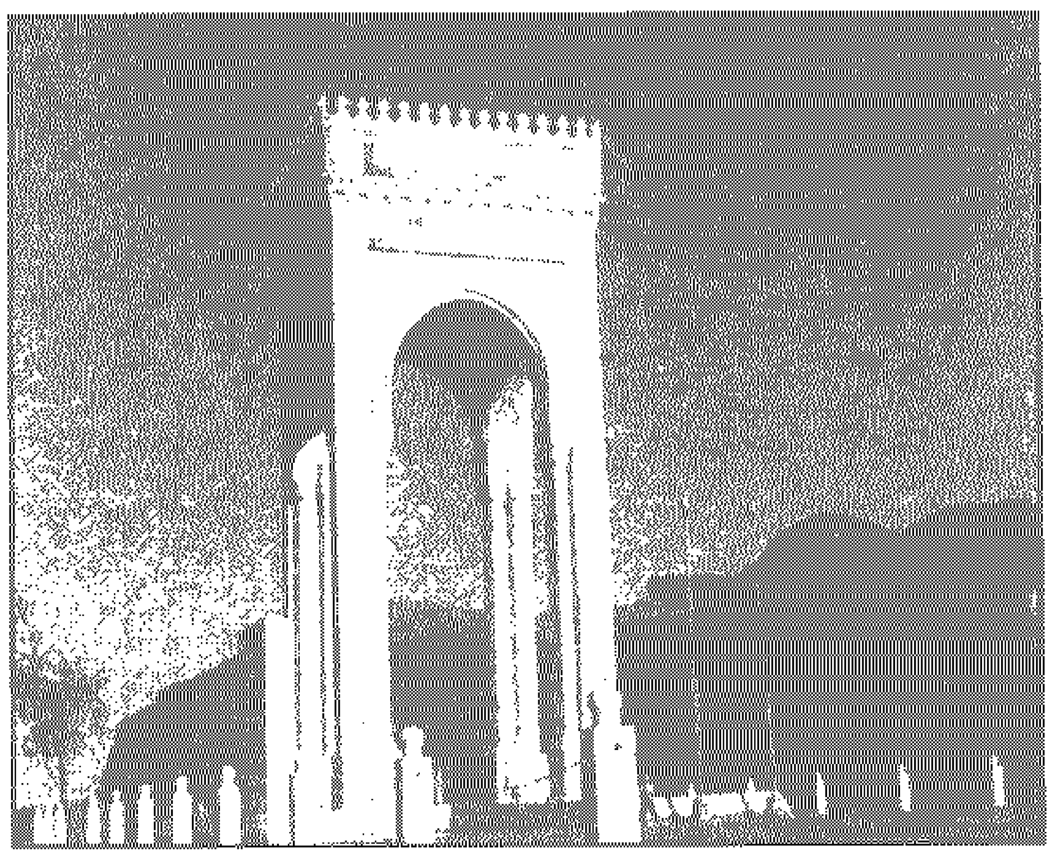
سوق الماشية



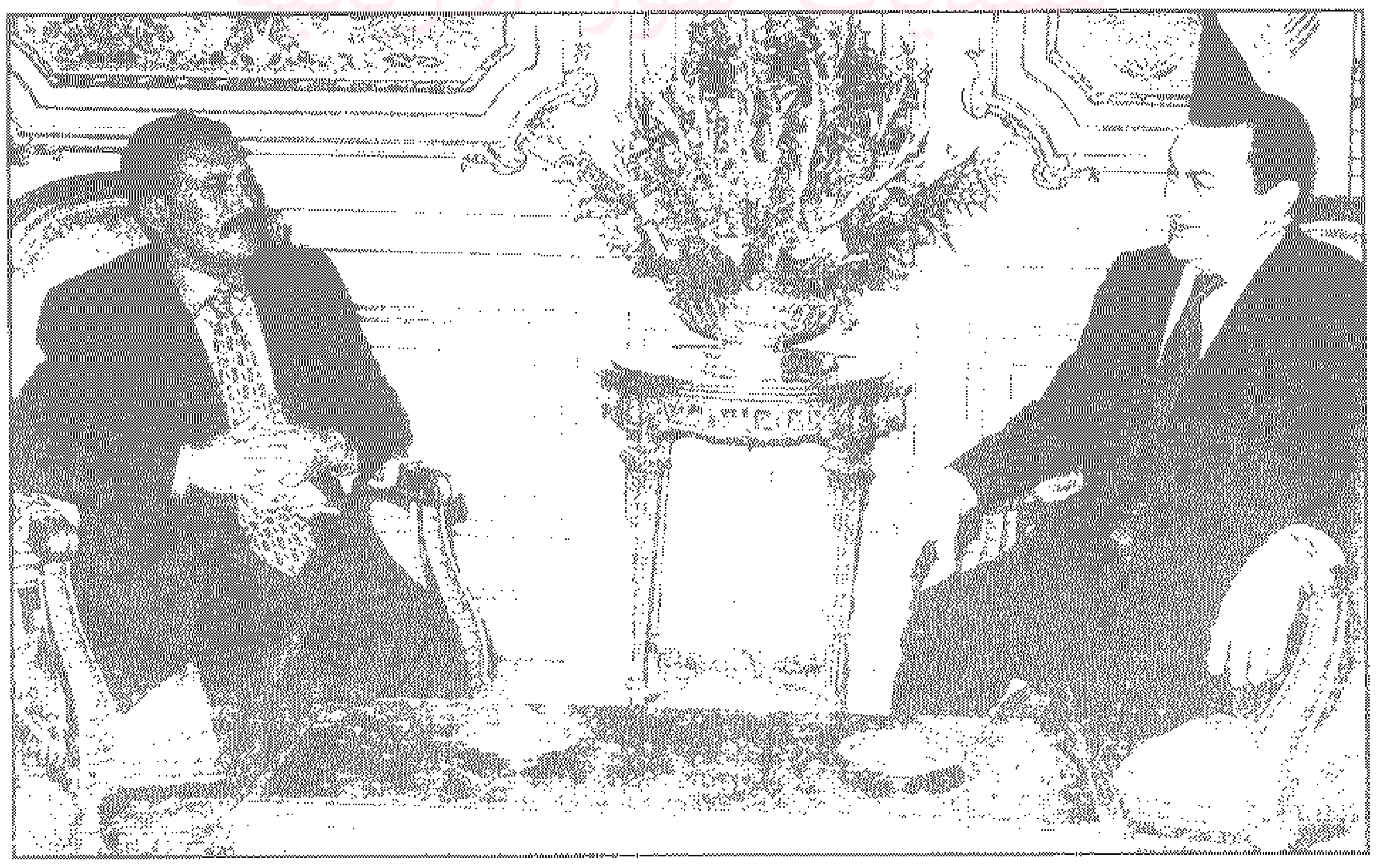
أساطين الطرب فى اليمن



فى كوكبان مع الدكتور المقالح والأديب زيد مطيع دماج والشاعر خالد الرويشان



النصب التذكارى لشهداء مصر فى اليمن



علاقات مصرية يمنية حميمة على الصعيدين الرسمى والشعبى

اليمن وأهل اليمن
أربعون زيارة وألف حكاية

هذا الكتاب المتميز مثير للجدل والدهشة، كونه دعوة لعشق اليمن عبر إثارة الوعى بشئون اليمن وشجونه، تاريخه العريق، دور فى صنع الحضارات الإنسانية الخالدة، قيمه وعاداته وثقافاته وإبداعاته وألوان فرحه وسخرياته، عبر عشرات المئات من الوقائع الموثقة والحكايات العجيبة، سواء ما سجلته صفحات التاريخ، أو الشهادات الحية، فضلا عن المعايشة الميدانية التى أتيحت للمؤلف الكاتب الصحفى الأستاذ يوسف الشريف على مدى خمسين عاما و٤٠ زيارة متأنية لمختلف ربوع اليمن، لكأن الكتاب بانوراما معرفية شائقة، حفلت برصد إرهاصات الثورة اليمنية منذ كانت جنينا،ثم اندلاعها المتوهج وسط ظلمات التخلف الكهنوتى، ومتابعة مسيرتها الظافرة،ومأزقها وانكساراتها،ونجاحها المقدر فى إنجاز الوحدة اليمنية والدفاع عنها فى مواجهة المؤامرة الرجعية والامبريالية، إضافة للعديد من الأسرار الهامة التى يكشف عنها الستار لأول مرة!

إلى ذلك كانت عناية الكتاب الخاصة برسم ملامح الشخصية اليمنية فى مختلف مناحيها الإنسانية، وسبر أغوار العلاقات بين الشعبين اليمنى والمصرى منذ فجر التاريخ، عبورًا بدور المقاتلين اليمنيين فى الفتح الإسلامى لمصر تحت قيادة عمرو بن العاص، ثم حملات محمد على إلى الجزيرة العربية التى امتدت إلى اليمن و.. حتى كانت تلبية ثورة ٢٣ يوليو للواجب القومى عبر دعم الثورة اليمنية التى كتب لها النصر المؤزر بقواها الذاتية فى معركة الدفاع عن صنعاء على مدى سبعين يوما عام ١٩٦٧!

6 221102 021791

دار الشروق
www.shorouk.com